موسوعة الحروب الصليبية

دولة المغول والتتار

بين الانتشار والانكسار

د. علي محمد الصلابي



دار المعرفة
بيروت - لبنان

دولة المغول والتتار

بين الانتشار والانكسار

موسوعة الحروب الصليبية (٥)

دولة المغول والتتار

بين الانتشار والانكسار

١ـ جنكيز خان مؤسس الإمبراطورية المغولية

٢ـ سقوط بغداد (٦٥٦ هـ)

٣ـ المماليك ومعركة عين جالوت (٦٥٨ هـ)

تأليف

د. علي محمد محمد الصلابي

دار المعرفة

بيروت ـ لبنان

ISBN 9953-85-201-4

الطبعة الأولى
1430هـ - 2009م

دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع
DAR AL-MAREFAH
Printing & Publishing

جسر المطار شارع البرجاوي • هاتف: ٨٣٤٣٠١-٨٣٤٣٣٢
فاكس: ٨٣٥٦١٤ • ص.ب: ٧٨٧٦ - بيروت - لبنان
Airport Bridge Birjawi Str. • Tel: 834301-834332
Fax: 835614 • P.O.Box: 7876 Beirut - Lebanon
Email: info@marefah.com • www.marefah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الإهـداء

إلى كل مسلم حريص على إعزاز دين الله ونصرته أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى ﷻ بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يكون خالصاً لوجهه الكريم.

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: 110]

د.علي محمد محمد الصَّلاَّبي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران، الآية: 102].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ١﴾ [النساء، الآية: 1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب، الآية: 70، 71].

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضى فللّه تعالى الحمد كما ينبغي لجلاله وله الثناء كما يليق بكماله، وله الحمد كما تستدعيه عظمته وكبرياؤه، أما بعد:

هذا الكتاب امتداد لما سبقه من كتب درست عهد النبوة وعهد الخلافة الراشدة والدولة الأموية وموسوعة الحروب الصليبية، وهو حلقة مهمة جاءت بعد صدور السلاجقة، والزنكيين وصلاح الدين والحملات الصليبية «الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة».

وهذا الكتاب يتحدث عن المشروع المغولي وعوامل الانتشار وتداعيات الانكسار، ففي الفصل الأول يتكلم عن غزو المغول لبلاد المسلمين، تحدث المبحث الأول عن

أهمية دراسة تاريخهم والتعريف بهم وموطنهم الأصلي والقبائل التي يتكون منها مجتمعهم، وعن حياتهم الاجتماعية، ودينهم، وتداعي المجتمع المغولي قبيل جنكيز خان، والفوضى فيه ومحاولات توحيد القبائل المغولية، وأحوال العالم الإسلامي قبيل الغزو المغولي، كالخلافة العباسية، والأيوبيين في مصر والشام، وانتشار الموبقات، كالخمر، والجواري، والغناء والطرب.

وفي المبحث الثاني، كان الحديث عن ظهور جنكيز خان على مسرح الأحداث وعن نشأته وتربيته، وكفاح والدته وزواجه واختياره خاناً على المغول، وعن حروبه وبداية توحيد القبائل تحت زعامته وبناء الإمبراطورية المغولية، وكانت هناك وقفات مهمة عن مقومات المشروع المغولي في عهد جنكيز خان، كشخصيته وأهم صفاته، كالشجاعة والسخاء والكرم والغيرة، والقسوة والإخلاص لأصدقائه ومعرفته للرجال وقيادته للقادة، ودستور الدولة (الياسا)، ونصوصه التاريخية وموقف الشريعة الإسلامية من الياسا، وأهمية كتابة أقوال ملوك المغول، وتنظيم واجبات خدمة الخان، والجيش المغولي.

وأشار الكتاب إلى مجموعة من وصايا جنكيز خان لجيشه، وإلى طريقة التسلح والتجهيز لدى المغول، وأساليب القتال والاتصالات في الجيش وفقه القيادة، ومنهجهم في الحرب وسلوكهم مع المغلوبين والاهتمام بالخبرات، والاستفادة من الحكماء وأصحاب الرأي وعقدهم للمجلس العام (الكوريلتاي) كل سنة وحضور أهل الحل والعقد من المغول فيه، وتقليب الآراء وممارسة حق الحوار والنقاش والوصول إلى أهداف ثم الاتفاق على التنفيذ، والتحرك من خلال إستراتيجية واضحة لدى قادة المغول، كما بين الكتاب عادات وتقاليد المغول الاجتماعية والخرافات التي انتشرت بينهم.

وفي المبحث الثالث: فصل الكتاب الحديث عن إزالة المغول للدولة الخوارزمية، فلخص تراجم سلاطين خوارزم وبيّن طبيعة الصدام بين الخوارزميين والخلافة العباسية، وأسباب الغزو المغولي للخوارزميين، وتتبع الكتاب خط سير غزو المغول من بلاد ما وراء النهر واستيلاءهم على مدينة أترار وجند وبنكت وخجنده وبخارى، وسمرقند، واجتياح الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية ووفاة محمد خوارزمشاه وتولي جلال الدين منكبرتي قيادة الجيوش الخوارزمية وحصار مدينة خوارزم واحتلالها، وذكر المؤلف وصف ابن الأثير لما حدث لخوارزم، وتحدث عن اجتياح خراسان والاستيلاء على بلخ واحتلال نسا والقضاء على أهلها ومذبحة مدينة مرو، والانتقام من أهالي مدينة

نيسابور، وخضوع مدينة هراة، واحتلال إقليم غزنة ونهاية جلال الدين منكبرتي، ومقتله ووقفت على أسباب زوال الدولة الخوارزمية والتي من أهمها:

1 ـ فشل الخوارزميين في إيجاد تيار حضاري.

2 ـ كره الشعب لنظام الحكام وعدم ولائه له.

3 ـ النزاع الداخلي في الأسرة الخوارزمية.

4 ـ ضعف النظام الحربي الخوارزمي.

5 ـ حب الدنيا وكراهية الموت.

6 ـ ترك الاتحاد والوقوع في ظلم العباد.

7 ـ أنانية محمد علاء الدين الخوارزمي وهزيمته النفسية.

8 ـ شخصية جلال الدين منكبرتي.

9 ـ قصر نظر الخليفة الناصر لدين الله العباسي.

10 ـ غياب العلماء.

11 ـ المشروع المغولي.

كما أشرت إلى وفاة جنكيز خان.

وفي الفصل الثاني: كان الحديث عن سقوط بغداد. وفي المبحث الأول: تكلمت عن خلفاء جنكيز خان، وتقسيم ممالكه وانتخاب أوكتاي خاناً أعظم للمغول وعن مواصلة المغول زحفهم على البلاد الإسلامية، وفتحهم لأقاليم الصين الشمالية وغزوهم لأوروبا ووفاة أوكتاي قاآن وعن النظم والإصلاحات التي تمت في عهده، ومعاملته لرعاياه من المسلمين وعن تولي كيوك خان زعامة المغول وسياسته مع المسيحيين وعن وفاته واختيار منكو خاناً أكبر على العرش المغولي وإصلاحاته الداخلية وتسويته بين طوائف الإمبراطورية المغولية، وحرصه على تكوين تحالف بين المغول والمسيحيين، بشرط أن يكون الخان المغولي سيد العالم الوحيد وأصدقاؤه يعتبرون أتباعاً له. أما أعداؤه فينبغي استئصال شأفتهم، أو إخضاعهم، وبينت جهود هولاكو في القضاء على الإسماعيلية واقتلاع جذورهم وتحرك جيوشه نحو بغداد وحصارها واستباحتها ومقتل الخليفة المستعصم بالله، والخراب الحضاري الذي لحق ببغداد وما فعل التتار مع مكتبتها الهائلة ،وبينت حكومة هولاكو (الحكومة الأيلخانية بالعراق) وإدارتها في عهد الجويني ووفود الملوك والأمراء على هولاكو، وتأملت في أسباب سقوط الدولة العباسية ووقفت مع كل سبب والتي كان من أهمها:

1 ـ غياب القيادة الحكيمة.

2 ـ إهمال العباسيين لفريضة الجهاد.

3 ـ انعدام الوحدة السياسية في العالم الإسلامي.

4 ـ ضعف الجيش العباسي.

5 ـ ضعف عصبية الدولة.

6 ـ ضعف قيمة العهود.

7 ـ ضعف همم ملوك الأطراف.

8 ـ تنازلات سياسية دلت على الوهن العباسي.

9 ـ تعدد مراكز القوى.

10 ـ احتلال خطوط الدفاع الأولى.

11 ـ دور النصارى في سقوط الدولة العباسية.

12 ـ دور الحكام المسلمين في إسقاط الدولة العباسية.

13 ـ إبعاد الكفاءات النادرة.

14 ـ مناقشة العلويين.

15 ـ الترف وأثره في زوال الدولة العباسية.

16 ـ الوصول إلى آخر نقطة من الانحلال والتدهور.

17 ـ تدهور الأوضاع الاقتصادية.

18 ـ الصراع الداخلي في بغداد.

19 ـ خيانات الشيعة «الوزير ابن العلقمي».

20 ـ تمرس فرسان التتار وقوة الإمبراطورية المغولية.

وأشرت إلى نتائج سقوط بغداد، والتي منها:

1 ـ زوال النفوذ الأدبي والروحي.

2 ـ بغداد مدينة ثانوية.

3 ـ تدهور العلوم ومكانة اللغة العربية.

4 ـ البهجة والفرح لدى النصارى.

5 ـ القاهرة عاصمة الخلافة.

6 ـ انتشار الشيعة.

7 ـ تفجر طاقات الأمة (قانون التحدي).

وكان لهذا الحدث الجلل، تأثيره العميق في نفوس المسلمين جميعاً وكان أشد وقعاً وأعظم تأثيراً في نفوس الشعراء منهم، فنظموا المراثي التي تشيع الأسى في النفس وتثير الشجون، وكان من تلك المراثي مثل قول الشاعر شمس الدين الكوفي الواعظ حيث قال:

عـنـدي لأجـل فـراقـكـم آلام فـإلام أعـذَل فـيـكـم وألام

إلى أن قال:

إن كـنـت مـثـلـي لـلأحـبـة فـاقـداً أو فـي فـؤادك لـوعـة وغـرام

قـف فـي ديـار الـظـاعـنـيـن ونـادهـم يـا دار مـا صـنـعـت بـك الأيـام

وقال:

والله مـا اخـتـرت الـفـراق وإنـمـا حـكـمـت عـلـيَّ بـذلـك الأيـام

وفي الفصل الثالث: تكلمت عن دولة المماليك وعن أصولهم ونشأتهم وعن نظام التدريب والتربية والتعليم، والمراحل التي يمرّون بها وعن نظام التخرج وإنهاء الدراسة ولغتهم ورابطة الأستاذية والزمالة بينهم وجهودهم في دحر الحملة الصليبية السابعة وصور من شجاعتهم وعن أسباب هزيمتهم ونتائجها والتي كان من أهمها:

1 ـ ارتفاع شأن ومكانة المماليك.

2 ـ عجز فرنسا عن تحقيق أهدافها.

وعن مقتل تورانشاه وزوال الدولة الأيوبية وكيفية مقتل تورانشاه؟ وأسباب سقوط الدولة الأيوبية والتي من أهمها:

1 ـ توقف منهج التجديد والإصلاح.

2 ـ الظلم.

3 ـ الترف والانغماس في الشهوات.

4 ـ تعطيل الخيار الشوري.

5 ـ النزاع الداخلي في الأسرة الأيوبية.

6 ـ موالاة النصارى.

7 ـ فشل الأيوبيين في إيجاد تيار حضاري.

8 ـ ضعف الحكومة المركزية.

9 ـ ضعف النظام الاستخباراتي.

10 ـ غياب العلماء الربانيين عن القرار السياسي.

11 ـ وفاة الملك الصالح نجم الدين وعدم كفاءة وريثه.

وكان حديثي عن شجرة الدر هل هي أيوبية أم مملوكية؟ وكيف تولت سلطنة مصر؟ وموقف الخليفة العباسي والعلماء وعامة الناس من توليها الحكم، وكيف خلعت نفسها ورشحت عز الدين أيبك لتولي السلطنة وتزوجته بعد ذلك، وبينت حكم الشريعة الإسلامية في تولي المرأة للولاية العامة، وأشرت للمخاطر التي تعرض لها عز الدين أيبك في حكمه، كالخطر الأيوبي والصليبي، ومحاولة لويس التاسع استغلال فرصة النزاع بين المسلمين، وتردد السفارات بين ملوك مصر والشام ولويس التاسع، ومساعي الخليفة العباسي في الصلح بين المماليك والأيوبيين، وموقف المماليك من تمرد القبائل العربية في مصر، وتصدي عز الدين أيبك لخطر زملائه المماليك ومقتل الفارس أقطاي، ومقتل السلطان أيبك وشجرة الدر بعد ذلك.

وتحدثت عن سلطنة علي ابن المعز ثم تولي سيف الدين قطز، وترتيبه للأمور الداخلية.

وفي الفصل الرابع: كان الحديث عن معركة عين جالوت الخالدة وانكسار المغول، وتتبعت تحرك المغول بعد سقوط بغداد، وبينت كيف تم احتلال المغول لبلاد الشام والجزيرة، ووضحت مشروع الكامل الأيوبي لمواجهة التتار وكيف استشهد عند دفاعه البطولي عن ميّافارقين، فقد صمدت المدينة الباسلة وظهرت فيها مقاومة ضارية بقيادته، ونظراً لطول الحصار الذي فرضه المغول على المدينة، نفذت الأرزاق من داخلها وعم القحط وانتشر الوباء وتهدمت الأسوار من شدة ضرب المنجنيقات حتى

هلك أكثر سكان المدينة، فقد وقعت المجاعة فيها بسبب الحصار الطويل وفي عام (658هـ/ 1260م) سقط آخر معقل للمقاومة في الجزيرة ودخل التتار ميّافارقين فوجدوا جميع سكانها موتى، ما عدا سبعين شخصاً نصف أحياء وقبضوا على الكامل الأيوبي فعنفه هولاكو وأمر بتقطيعه وأخذوا يقطعون لحمه قطعاً صغيرة ويدفعون بها إلى فمه حتى مات ثم قطعوا رأسه وحملوه على رمح وطافوا به في البلاد وذلك سنة (657هـ/ 1259م) إلى أن وصل دمشق، فعلّقوه على باب الفراديس، حتى أنزله الأهالي ودفنوه.

وكان السلطان الناصر الأيوبي سلطان بلاد الشام متردد بين المقاومة والاستسلام، وكان متخوفاً من المغول، الذين هددوه بالرسائل وذكروه بما حدث لبغداد وخليفتها وجاء في رسائلهم للسلطان الناصر:... واستحضرنا خليفتها وسألناه عن كلمات فكذب فواقعه الندم واستوجب منا العدم وكان قد جمع ذخائر نفيسة وكانت نفسه خسيسة، فجمع المال ولم يعبأ بالرجال وكان قد نمى ذكره وعظم قدره، ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال:

إذا تـــمَّ أمـــرٌ دنـــا نـــقـــصـــه	تـــوقّ زوالاً إذا قـــيـــل تـــم
إذا كـــنـــت فـــي نـــعـــمـــة فـــارْعـــهـــا	فـــإن الـــمـــعـــاصـــي تُـــزيـــل الـــنـــعـــم
وكـــم مـــن فـــتـــى بـــات فـــي نـــعـــمـــة	فـــلـــم يـــدر بـــالـــمـــوت حـــتـــى هـــجـــم

إذا وقفت على كتابي هذا فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض، ملك الملوك على وجه الأرض، تأمن شره، وتنل خيره، كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم، الآيات: 39 ـ 41]. ولا تعوق رسلنا عندك، كما عوقت رسلنا من قبل ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة، الآية: 220]. وقد بلغنا تجار الشام وغيرهم انهزموا إلى كروان سراي[1]، فإن كانوا في الجبال نسفناها وإن كانوا في الأرض خسفناها.

هذه طرق من الحرب النفسية التي كان المغول يشنونها ضد أعدائهم. واستمر المغول في هجومهم على ديار المسلمين وسقطت حلب وسلمت دمشق وسيطر المغول على بلاد الشام وكانوا شديدي الوطأة على المسلمين، فبادروا إلى تدمير الاستحكامات والأسوار والقلاع في البلاد التي خضعت لهم مثل حلب ودمشق وحمص وحماة وبعلبك

(1) كان هذا اسم مصر عند التتار.

وبانياس وغيرها، وحققوا بذلك ما لم يستطع تحقيقه الصليبيون من قبل، ولقد مال المغول منذ اللحظة الأولى لغزوهم للشرق الأدنى إلى العنصر المسيحي النسطوري. وأصبح الملك الناصر مسلوب الإرادة مرعوباً ليس له رأي ووقع أخيراً في أسر هولاكو الذي قام بقتله فيما بعد عند سماعه لهزيمة المغول في عين جالوت.

كان من نتائج سقوط بلاد الشام في أيدي المغول وحلفائهم أن عم الرعب والخوف سائر أرجائها، فهرب الناس باتجاه الأراضي المصرية، وكانت القيادة الإسلامية بمصر تستقبل فلول المسلمين من العراق والشام وتجهز نفسها لمعركة فاصلة مع المغول، وكان السلطان سيف الدين قطز على رأس السلطة في مصر وكان يدرك أن بقاء دولته الفتية يتوقف على اجتيازه ذلك الامتحان الكبير المتمثل في الغزو المغولي للممالك الإسلامية الذي استشرى خطره، وأن يثبت أنه بحق أهل للثقة التي أولاها إياه الأمراء في مصر ورجل الساعة بالفعل بعد إجماعهم على عزل الملك المنصور علي ابن المعز أيبك وتنصيبه على دولة المماليك، وأخذ سيف الدين في إعداد الجبهة الداخلية، وحرص على رص الصفوف والتصالح مع المخالفين، وحكّم الشريعة الإسلامية في دولته واستجاب لتعاليم وترشيد الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ورد على رسالة هولاكو بإعلان الحرب على المغول والقبض على رسلهم وضرب أعناقهم أمام أبواب القاهرة وعلق رؤوسهم على باب زويلة وأبقى على صبي من الرسل وجعله من مماليكه وكانت تلك الرؤوس أول ما علق في مصر من المغول، وشرع في إعداد العدة للمعركة الفاصلة واستطاع المسلمون بقيادة سيف الدين قطز تحقيق نصر ساحق على المغول وتمّ تطهير بلاد الشام من السيطرة المغولية، ورتّب سيف الدين قطز أمور الولايات الشامية، وبعد ذلك قصد البلاد المصرية، وفي طريق عودته تمّ اغتياله على يد ركن الدين قطز ومجموعة من فرسان المماليك لأسباب تمّ بيانها وتفصيلها في هذا الكتاب، وذكرت أهم العوامل التي ساهمت في تحقيق النصر في معركة عين جالوت والتي منها:

1 ـ القيادة الحكيمة.

2 ـ توسيد الأمر إلى أهله.

3 ـ الجيش القوي.

4 ـ إحياء روح الجهاد.

5 ـ الإعداد وسنة الأخذ بالأسباب.

6 ـ عبقرية التخطيط.

7 ـ بعد نظر سيف الدين قطز وقيادته الحكيمة.

8 ـ توفر صفات الطائفة المنصورة.

9 ـ سنة التدرج ووراثة المشروع المقاوم.

10 ـ الاستعانة بالعلماء واستشارتهم.

11 ـ الزهد في الدنيا.

12 ـ صراعات داخل بيت الحكم المغولي.

13 ـ سنة الله في أخذ الظالمين والطغاة.

وبينت أن الأسباب في انتصار المسلمين في عين جالوت متشابكة ومتداخلة، ويؤثر كل منها في الآخر تأثيراً عكسياً، وما ذكرنا من الأسباب ليس على سبيل الحصر وإنما هذا ما أمكن الوصول إليه، ومع البحث والتنقيب في صفحات التاريخ، يمكن للباحثين والمهتمين أن يصلوا إلى المزيد، لكي نستخرج الدروس والعبر والسنن والقوانين المهمة في قيام الدول وسقوطها وانتصار الشعوب وهزيمتها، ومعرفة صفات قادة التمكين، وفقهاء النهوض، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف، الآية: 111].

ولخصت أهم النتائج والآثار المترتبة على انتصار المسلمين في عين جالوت فذكرت منها:

1 ـ تحرير بلاد الشام من المغول.

2 ـ تحقق الوحدة بين الشام ومصر.

3 ـ خمود القوى المناوئة للمماليك.

4 ـ انتصار الإسلام على الوثنية.

5 ـ حدث حاسم في تاريخ البشرية.

6 ـ روح جديدة في الأمة.

7 ـ انحسار المد المغولي.

8 ـ فشل التحالف بين الصليبيين والتتار.

9 ـ إضعاف الوجود الصليبي.

10 ـ مدينة القاهرة عاصمة المماليك.

11 ـ ميلاد دولة المماليك الفتية.

12 ـ الدور الرمزي للخلافة العباسية.

13 ـ تطوير الجيش المملوكي وتحديث عتاده وأنظمته.

لقد تعرفت من خلال دراستي في هذا الكتاب على طبيعة المشروع المغولي ونقاط ضعفه وقوته، وكيف استباح العالم الإسلامي وتهاوت مدن المسلمين، كبخارى وسمرقند وكابل وبغداد وغيرها أمام جيوش المغول، فاستباحت الديار وهتكت الأعراض، وصودرت الممتلكات وغابت أسباب النصر، وتعقمت عوامل الهزيمة في الأمة أمام المشروع الغازي ومضت السنن والقوانين الإلهية وعملت عملها ولم تجامل أحداً، وما تغيرت ولا تبدلت والناس في همّ وغمّ وذل وضعف وخور وصغار، حتى استوعبت القيادة الإسلامية في مصر فقه المقاومة وإدارة الصراع وعرفت كيف تدفع أقدار الله بأقداره من خلال سنن النهوض، وأسباب النصر، فكانت النتيجة المذهلة في معركة عين جالوت. لقد تحرك سيف الدين قطز من خلال مشروع إسلامي ملك مقومات الصمود والتحدي وحقق الانتصار، فكانت الرؤية واضحة والهوية صافية، والبعد العقائدي حاضر، والفقه السياسي ناضج، والقوة العسكرية متفوقة في مجاليها المعنوي والمادي، وعرف سيف الدين قطز مكانة العلماء في الأمة وقوة تأثيرهم ونفوذهم الروحي على الشعب فقربهم واحترمهم وفتح لهم أبواب التعليم والوعظ والإرشاد فقاموا بدور كبير في تعبئة الأمة ودفعها لكي تلتف حول المشروع الإسلامي الذي قاده سيف الدين قطز.

إن تاريخ الأمة ثروة فكرية لا تفنى، وكنوز علمية لا تنفد، تمنحنا الأصالة وعز الإيمان وشرف الانتماء فيعيننا هذا المخزون الحضاري في تشكيل الحاضر واستشراف المستقبل واستئناف الحياة الكريمة في ظل مجتمع إسلامي تسوده العقائد الصحيحة، وتزكيه العبادات السليمة، وتحركه مشاعر رفيعة، وتحكمه تعاليم الإسلام، وتوجه

اقتصاده وفنونه وسياسته، على أننا إذا تلفّتنا إلى الماضي فلا نلتفت إليه لنرجع القهقرى ونمشي إلى الوراء، بل لنستمد منه القوة على السير سعياً إلى الأمام لنربط بين الماضي المجيد والمستقبل المشرق، لنصل مجدنا الجديد بمجدنا التليد. إننا نعلم أن الاستغراق في الماضي وحده نوم أو جمود والاستغراق في المستقبل وحده هوس وجنون، والاستغراق في الحاضر وحده عجز وقعود، ونحن نريد أن نستمد من الماضي دافعاً وحافزاً، ومن المستقبل موجّهاً ومرشداً ومن الحاضر عماداً وسناداً.

ونحن نعلم أن هذا المجد لا يعود بالأحاديث والخطب ونعلم أن السجين المصفّد بالأغلال لا يطلقه تذكر الحرية والتغني بلذاتها، وأن الجائع لا يشبعه تذكر موائد الماضي واستعراض ألوانها، وأن الفقير لا يغنيه تذكر زمان غناه والزهو بما ضاع فيه، وأن الذلة لا تُدفَع عن الذليل بنظم قصائد الفخر بعزة جده، ولكننا نعلم أيضاً أن السجين الذي ينسى أيام الحرية يستريح إلى القيد ولا يجد حافزاً إلى الانطلاق، وأن الفقير الذي ينسى زمان الغنى يطمئن إلى الفقر ولا يجد دافعاً إلى الاستغناء، وأن الذليل الذي ينسى عزة أبيه يألف الذل ولا يجد قوة على دفعه، فإذا اطمئننّا إلى جلال ماضينا وحسبنا أن خطبة بتمجيده ومقالة بالإشادة به تغنينا وتكفينا فلن يعود لنا هذا الجلال أبداً، وإن نسينا أننا أبناء سادة الأرض وأساتذة الدنيا لم يحرك أعصابنا شيء إلى استعادة هذا المجد، فلنأخذ من الماضي بقَدْر، نأخذ منه ما يدفع ويرفع وينفع، وندع منه ما يثبط ويُقعد وينيم. إننا لا نريد أن نعود إلى الزمان الماضي، فالزمان يمشي أبداً لا يقف ولا يعود، ولا نعود إلى مثل معيشة الزمان الماضي، ونترك ثمرات الحاضر، ولكن نعود إلى المُثُل العليا، وإلى الفضائل التي لا تفقد قيمتها بمرور الزمن، فكما أن الذهب والألماس لا يغيّره القِدَم ولا يصدأ كما يصدأ الحديد، فإن في المعاني ما هو كالألماس والذهب في المعادن[1].

نحن نريد أن نعود إلى حياة الإيمان، والتقوى، والإحسان والعدل، والعبودية الخالصة لله عز وجل والشريعة الحاكمة على الأفراد والشعوب والأمة والدول ونتحرر من أنواع الشرك ما ظهر منه وما بطن، ونعمل لقول الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ

---

(1) فصول في الدعوة والإصلاح، ص: 14.

ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور، الآية: 55، 56].

إن أمر النهوض بهذه الأمة والتصدي للمشاريع الغازية يحتاج إلى جميع أنواع القوى، على اختلافها وتنوعها، ولذلك اهتم القرآن الكريم اهتماماً كبيراً بإرشاد الأمة للأخذ بأسباب القوة؛ وأوجب الله تعالى على الأمة الأخذ بأسبابها، لأن التمكين لهذا الدين طريقه للوصول إلى القوى بمفهومها الشامل وقد قال الأصوليون: وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب[1].

إن القرآن الكريم أوجب على أتباعه إعداد القوة، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال، الآية: 60] وما أحوج المسلمين اليوم إلى أن يحصّلوا كل أسباب القوة، فهم يواجهون نظاماً عالمياً وقوى دولية لا تعرف إلا لغة القوة، فعليهم أن يقرعوا الحديد بالحديد ويقابلوا الريح بالإعصار ويقاتلوا الغزاة بكل ما اكتشف الإنسان ووصل إليه العلم في هذا العصر من سلاح وعتاد واستعداد حربي لا يقصرون في ذلك ولا يعجزون[2].

إن قادة المماليك قدموا للأمة أعمالاً جليلة في الفداء والبطولة، فقد استطاعوا أن يقاوموا طوال فترة حكمهم عدوين غاشمين، كانت لهم أطماع في البلاد الإسلامية دينية وسياسية واقتصادية هما المغول والصليبيون، غير أنهم جميعاً لم يستطيعوا تحقيق رغباتهم ولا الوصول إلى أهدافهم، إذ كان المماليك يقفون سداً منيعاً حماية للبلاد الإسلامية ودفاعاً عن الدين والأخلاق، فكان جهادهم في هذا المضمار من أعظم الأعمال التي قاموا بها وكانت وقائعهم مع أعداء الإسلام صفحات مضيئة ومشرقة يستفيد منها ويقتدي بها المسلمون كلما أرادوا العزة والكرامة، لقد استطاع المماليك أن يثبتوا كفاءتهم وشجاعتهم في الميادين العسكرية والسياسية، فنظر إليهم حكام الدول الإسلامية وشعوبها نظرة إكبار وإجلال، في حين نظرت إليهم القوى الدولية الأخرى نظرة خوف واحترام، فحرصت على ملاطفتهم ومسالمتهم أو مهادنتهم اتقاء بطشهم

(1) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، ص: 123.
(2) المصدر نفسه، ص: 224.

وانتقامهم وبذلك تكون دولة المماليك قد فرضت احترامها على الأعداء والأصدقاء وتسابق الجميع في كسب مودتها وإقامة العلاقات معها، وشهدت القاهرة نشاطاً سياسياً ضخماً في تلك الحقبة من تاريخ المماليك[1].

وقد وصف عصر المماليك بأوصاف واتهامات جائرة، فوصف بأنه عصر تدهور واضمحلال، وعصر تخلف وجمود وعصر اجترت فيه العلوم اجتراراً، إلى غير ذلك من الأحكام التي انطلقت من أفواه المستشرقين خاصة، فعلى الرغم من أن الحقائق تشير إلى أن أضخم إنتاج فكري في العصور الإسلامية قد جاءنا من عصر المماليك إلا أن المستشرق الفرنسي جاستون فييت يعده إنتاجاً من الدرجة الثانية، ويقول عن ذلك: ولكن القاهرة لم تكن في أي وقت مضى مركزاً علمياً في مستوى بغداد وقرطبة، وكانت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ـ الثامن والتاسع الهجريين ـ مركزاً للسياسة والإدارة وبصفة خاصة للتجارة العالمية، ورغم أنها احتفظت بذوقها الفني الرفيع، فإنها في مجال الإنتاج الفكري كانت من الطبقة الثانية[2]، ويصف بروكلمان هذا الإنتاج بأنه إنتاج يكاد يكون خلواً من الأصالة والإبداع بالكلية[3]، وثم إننا نجد أن عدداً من الباحثين العرب والمسلمين قد انساقوا وراء آراء المستشرقين، فأصيبوا بداء الإعجاب بهم، فانطلقت أكثر أحكامهم من حدود آراء المستشرقين، ولم تنطلق من دراسة علمية متخصصة وموضوعية، وهؤلاء الباحثون الذين ساروا على نهج المستشرقين، كفيليب حتي، ابتعدت أحكامهم عن الموضوعية وجاءت مطلقة، كما ورد في رأي بروكلمان الذي جعل العصر المملوكي بطوله وعرضه خالياً من الإنتاج الأصيل المبدع بالكلية وقاصرة، كما جاء في رأي جاستون فييت الذي وصل إلى رأي لا أظن أن أحداً من الباحثين يسمع له فيه عندما قصر الحياة الفكرية على مقدمة ابن خلدون وحدها في عصر امتد قرابة قرون ثلاثة، وخلّف العشرات من العلماء الذين يُشار إليهم بالبنان ويعرفهم الصغير والكبير، لقد حاول غالبية المستشرقين أن يصفوا عصر المماليك بعصر انحطاط وتخلف وجمود بدافع من الجهل أو الحقد أو كليهما، ثم تابعهم كالعادة بعض المؤرخين والعلماء المحسوبين على ثقافتنا وحضارتنا ورددوا هذه الأقاويل حتى وسموا عصر المماليك كله بالتخلف والانحطاط والهجين والفوضى، والانحلال،

(1) الحسبة في العصر المملوكي، ص: 267.

(2) القاهرة مدينة الفن والتجارة، مصطفى العبادي، ص: 106 ـ 107.

(3) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص: 371.

والواقع أن هذا الرأي الذي يؤيده غالبية المستشرقين ـ كما تتشدق به غالبية المستغربين من أهل المشرق ـ ينطلق من حقد الغربيين الدفين على المماليك الذين دمروا الصليبيين وأجلوهم عن الشام، كما دمروا حلفاءهم المغول، وحفظوا لبلاد الشام والأماكن المقدسة فيها والحجاز استقلالها قرابة ثلاثة قرون في فترة زمنية قياسية(1).

إن الحقائق التاريخية تثبت للباحثين المنصفين، بأن عصر المماليك لم يكن بحال من الأحوال عصر انحطاط، بل هو الذي ظهرت فيه حضارة عظيمة في مختلف نواحي الحياة، لقد كان عصر المماليك هو العصر الذهبي في العمارة الإسلامية، وهذا يبدو اليوم بوضوح تام في القاهرة التي سميت بمدينة الألف مئذنة والتي تنتشر فيها الآثار المملوكية الهائلة بدءاً من البيمارستان المنصوري إلى جامع السلطان حسن، وخانقاه بيبرس الجاشنكير ومسجد الأمير أيبك ومسجد الغوري وغير ذلك(2)، وأما الذين لم يزوروا القاهرة، فبإمكانهم مشاهدة الآثار المملوكية في دمشق مثل المدرسة الظاهرية، والجقمقية التي بجوارها، وبين هذه وتلك يمكنهم مشاهدة نموذج رائع من نماذج العمارة المملوكية وهو المئذنة الغربية من مآذن الجامع الأموي التي أمر ببنائها السلطان قايتباي بعد حريق الجامع الأموي (884هـ) وتم ذلك في بضعة شهور(3).

وفي ميدان الفكر قد امتاز العصر المملوكي بأنه عصر الموسوعات الكبرى في الأدب والتاريخ والتفسير والفقه والحديث وغيرها، ففي علوم الدين والفقه والحديث نجد الموسوعات الضخمة للإمام النووي وابن تيمية وابن رجب والبدر العيني وابن حجر، وفي التاريخ نجد اليونيني والبرزالي وابن كثير وابن خلدون وابن تغري بردي والنويري، وفي الموسوعات العلمية نجد مسالك الأبصار، وصبح الأعشى، وخطط المقريزي وغيرها، وهؤلاء وأمثالهم حفظوا لنا التراث الإسلامي بالدرجة الأولى ثم زادوا عليه حتى أصبحنا اليوم نعرف أدق التفاصيل عن القاهرة في عصر المماليك، وهناك جانب آخر من الحضارة المملوكية لم يلتفت إليه الكثيرون ونعني به الجانب العسكري، ذلك أن الانتصارات المذهلة التي حققها المماليك على برابرة الشرق والغرب أي على المغول والصليبيين في غضون أربعة وأربعين عاماً فقط من سنة (658هـ ـ 702هـ) فقد تحققت بسبب الشجاعة والعقيدة ونتيجة ازدهار ما يسمى بلغة اليوم

---

(1) العصر المفترى عليه عصر المماليك البحرية، ص: 13.

(2) المصدر نفسه، ص: 13.

(3) المصدر نفسه، ص: 13.

بالصناعات الهندسية والعسكرية، التي مكنت المسلمين من تحرير قلعة عكا في فلسطين، وهو الفتح المبين الذي لم يقل في أهميته عن فتح القسطنطينية فيما بعد بشهادة الغربيين أنفسهم. لقد كانت دولة المماليك من حيث طبيعتها امتداداً طبيعياً للأيوبيين ولمن سبقهم من الملوك والسلاطين، فهي دولة عريقة الحضارة، أعجمية الحكام، تقود الجهاد الإسلامي في وجه الخطر الذي كان يتهدد المسلمين[1]، ومن الأوهام التي تأثر بها كثير من الباحثين هو أن تدمير المغول لبغداد عام (656هـ ـ 1258م) كان نهاية الحضارة الإسلامية، ولذلك لا يتطرقون إلى ذكر شيء من إبداعات عصر المماليك وإنجازاته، وهذه فكرة خاطئة ووهم يتطلب الوقوف عنده كثيراً[2]، وسنجيب عنها بإذن الله تعالى في كتبنا القادمة ونبين الحياة العلمية والفكرية وأشهر الأعلام في عهد المماليك.

إن هذه الأمة تنبض بالحياة، وقادرة على تجاوز المحن العظيمة، وأثبت التاريخ بشواهده ووقائعه بأن طاقاتها الكامنة تتفجر عندما تتعرض للمخاطر والشدائد وحينئذ تستجمع قواها وتستثير كوامنها وتظهر ذخائرها وتتصدى للمشاريع الغازية والمصائب القاسية، بإيمان عظيم وصبر جميل حتى يجعل الله من ظلام ليلها صباحاً مشرقاً ونهاراً مضيئاً، قد رأينا الصحابة الكرام، وفتوحاتهم الربانية، وسار على هديهم التابعون بإحسان، ولما جاءت جحافل الصليبيين والمغول تصدى لهم السلاجقة والزنكيين والأيوبيين والمماليك، وكان الإسلام هو المحرك لقادة الجهاد الإسلامي من أمثال عماد الدين، ونور الدين، وصلاح الدين، وسيف الدين قطز، وركن الدين بيبرس، ومن سار على نهجهم، ولسان حال المسلمين في الماضي وفي الحاضر والمستقبل قول الشاعر:

أنا مسلمُ أنا مسلمُ — هذا نشيدي المُلْهَم
من أعمق الأعماق — أبعث لحنه يترنم
رُوحي تُرَدِّدُه وقلبي — والجوارح والدَّم
شوقاً وتحناناً — لأمجاد لنا تتكلم
أنا مسلمُ أنا مسلمُ — بالرغم ممن يحقدون

(1) العصر المفترى عليه عصر المماليك البحرية، ص: 14.

(2) المصدر نفسه، ص: 15.

أنــا هــاهــنــا بــشــريــعــتــي ... فــي مــوكــب الــحــق الــمــبــيــن[1]

وبقول الشاعر:

أظـنـنـت دعـوتـنـا تـمـوت بـضـربـة ... خـابـت ظـنـونـك فـهـي شـر ظـنـون

بـلـيـت سـيـاطُـكَ والـعـزائـمُ لـم تـزل ... مـنـا كـحـد الـصـارم الـمـسـلـول

تـالله مـا الـطـغـيـان يـهـزم دعـوة ... يـومـاً وفـي الـتـاريـخ بـرٌّ يـمـيـنـي

ضـع فـي يـديَّ الـقـيـد ألـهـب أضـلـعـي ... بـالـسـوط ضـع عـنـقـي عـلـى الـسـكـيـن

لـن تـسـتـطـيـع حـصـار فـكـري سـاعـة ... أو نـزع إيـمـانـي ونـور يـقـيـنـي

فـالـنـور فـي قـلـبـي وقـلـبـي فـي يـدي ... ربـي وربـي نـاصـري ومـعـيـنـي

سـأعـيـش مـعـتـصـمـاً بـحـبـل عـقـيـدتـي ... وأمـوت مـبـتـسـمـاً لـيـحـيـا ديـنـي[2]

إن الذين استطاعوا التصدي للمشاريع الغازية، وانتزاع المدن والقلاع والحصون من المغول والصليبيين هم الذين تميزوا بمشروعهم الإسلامي الصحيح، وعرفوا خطر المشاريع الباطنية الدخيلة فتصدوا لها بكل حزم وعزم، إن أية أمة تريد أن تنهض من كبوتها لا بد أن تحرك ذاكرتها التاريخية لتستخلص منها الدروس والعبر والسنن في حاضرها وتستشرق مستقبلها.

إن قراءة التاريخ تضيف للباحث والقائد والزعيم والملك والرئيس أعمار السابقين، وأما الوعي بالتاريخ فإنه يوظف ثمرات هذه القراءة في تغيير الواقع، واستشراف المستقبل، ولذلك يستحيل التقدم وينعدم النهوض عند الذين لا يفقهون ولا يتعرفون على سنن الله وقوانينه وعبره وعظاته من خلال التاريخ.

إن النهوض بوجه عام يحتاج إلى سلاح القلم واللسان، ولم ينجح مشروع نهضوي عبر التاريخ من غير أقلام قوية أو ألسنة تعبر عن قلوب صادقة تدعو إليه وتنشر مبادئه بين الناس. وإيجاد الكتب النافعة في هذا المجال من الضرورات في عالم الحوار والجدال والصراع والممانعة والمطالبة بالحقوق، وهذا يدخل ضمن سنة التدافع في الأفكار والعقائد والثقافات والمناهج، وهي تسبق التدافع السياسي والعسكري فأي برنامج سياسي توسعي طموح يحتاج لعقائد وأفكار وثقافة تدفعه، فالحرف هو الذي يلد

(1) صلاح الأمة في علو الهمّة (6/ 516).

(2) صلاح الأمة (6/ 528).

السيف، واللسان هو الذي يلد السنان، والكتب هي التي تلد الكتائب، إن موسوعة الحروب الصليبية، والتي صدر منها كتاب السلاجقة وعصر الدولة الزنكية، وصلاح الدين الأيوبي، والحملات الصليبية الرابعة، والخامسة، والسادسة، والسابعة وهذا الكتاب، قد أجابت عن الكثير من الأسئلة المطروحة على الساحة القطرية والإقليمية والعالمية، وهذه الحقبة من تاريخ الأمة تأتي شاهداً تاريخياً مقنعاً على أن الإسلام قادر في أية لحظة تتوافر فيها النية المخلصة، والإيمان الصادق، والالتزام المسؤول، والذكاء الواعي واستيعاب فقه السنن والنهوض وقوانين الحضارات وبناء الدول على إعادة دوره الحضاري والقيادي، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب «المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار» يوم الأحد بعد صلاة العشاء الساعة الثامنة وعشرة دقائق من تاريخ 28 المحرم 1430هـ/ الموافق 25/ 1/ 2009م، والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل ويشرح صدور العباد للانتفاع به ويبارك فيه بمنه وكرمه وجوده، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فاطر، الآية: 2].

ولا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقي العظيم وإلهي الكريم معترفاً بفضله وكرمه وجوده متبرئاً من حولي وقوتي ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي وحياتي ومماتي، فالله خالقي هو المتفضل، وربي الكريم هو المعين، وإلهي العظيم هو الموفق، فلو تخلّى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي، لتبلد مني العقل، ولغابت الذاكرة، وليبست الأصابع، ولجفت العواطف، ولتحجرت المشاعر، ولعجز القلم عن البيان، اللّهم بصّرني بما يرضيك واشرح له صدري وجنبي اللهم ما لا يرضيك واصرفه عن قلبي وتفكيري، وأسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا أن تجعل عملي لوجهك خالصاً ولعبادك نافعاً وأن تثيبني على كل حرف كتبته وتجعله في ميزان حسناتي، وأن تثيب إخواني الذين أعانوني على إتمام هذا الجهد الذي لولاك ما كان له وجود ولا انتشار بين الناس، ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير، إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه، قال تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩﴾ [النمل، آية: 19].

وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر، آية: 10].

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك).

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه ، علي محمد محمد الصلابي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين.

الفصل الأول:

المشروع المغولي وغزوهم لبلاد المسلمين

المبحث الأول:
الجذور التاريخية للمغول:

أولاً: أهمية دراسة تاريخ المغول:

يصادف المؤرخ عقبات عسيرة عند محاولته دراسة تاريخ المغول، إذ أن سيرة القبائل البدوية تبدو كأنها لن تتسق أو تنتظم، فإن أحداث تاريخها بلغت من شدة الاضطراب، ما يجعل من المستحيل التماس خيط واحد يضم هذه القبائل بأسرها، فالأحداث الداخلية والحروب التي نشبت دائماً بين القبائل والتي لا بد للمؤرخ من تتبعها حتى يقف على ما يجري بين هذه القبائل من محالفات، كانت من العوامل التي تضلل المؤرخ وتعطله على المضي في دراسته، يضاف إلى ذلك ما أحاط بالتاريخ المبكر للمغول من الغموض والاختلاط بالأساطير، فضلاً عن الافتقار إلى السجلات والوثائق التي يصح الركون إليها[1]، ومن المتاعب التي يصادفها الباحث أيضاً امتداد واتساع الأراضي التي كانت تنزل فيها الشعوب المغولية، فليس لتاريخ المغول حدود جغرافية، فقد زالت الحواجز التي تحد من استقرارهم، وما اتصف به المغول من بسالة خارقة حملهم على أن يتغلبوا على أخطار الصحاري المترامية الأطراف وأن يجتازوا الجبال، وأن يعبروا البحار والأنهار وأن يقهروا قسوة المناخ، وأن يصبروا على ما تعرضوا له من الأوبئة والمجاعات، فلا يخشون المخاطر، ولا تصدهم المعاقل ولا يحركهم كل توسل للرحمة والرأفة، وأينما سرح خيالهم سارت جموعهم، فكم من المدن الزاهرة اندثرت في

(1) المغول، د. السيد الباز العريني، ص: 21.

ليلة واحدة، ولم يبق لها من الأثر سوى الخرائب والتلال التي أقامتها جثث الضحايا. وما كان يعقب الغزوات المغولية من هدوء لم يكن في الواقع هو الهدوء الذي يسيطر على عالم سئم القتال والتقاتل، وحرص على أن ينعم من جديد بثمار المدنية، بل كانت الأنفاس الأخيرة التي تلتقطها الأمم قبل أن تتوارى وتختفي نهائياً[1].

ومن بواعث الاهتمام بدراسة تاريخ المغول، ما كان لهم من تاريخ بالغ الشدة، أو المساحات الشاسعة التي كانت مسرحاً لأعمالهم، فكل محاولة لتقدير طبيعة الدراسة وما نجم عنها من نتائج، سوف تكون شيقة ومثمرة، والمعروف أن المغول قاموا بغزو روسيا والمجر وسيليزيا، وما أوجدوه من تغييرات على مستوى الساحة الأوروبية، وهذا التغيير يعكس أيضاً ما نشب من الحروب الصليبية بين المسلمين، والمسيحيين، وما كان من عداء بين البابوية والإمبراطورية، وما تعذر على أوروبا والشام من تدمير قوة الحشيشية، كان أمراً بالغ السهولة عند المغول الذين دمروا معاقلهم ومواطنهم سنة (1256م) والواقع أن اسم المغولي كان مصدراً للرعب والخوف عند الأوروبيين، فأضحوا عاجزين عن مقاومتهم، ولو لم ينهض السلطان المملوكي قطز سنة (1260م)، لرد الغزاة في لحظة حاسمة، فليس ثمة أدنى شك في أن جانباً كبيراً من أوروبا خضع لهم، على أن ما تعرضت له أوروبا من خطر المغول، لم يبلغ من الشدة ما بلغه هذا الخطر في آسيا، فما حدث من تدمير بغداد وزوال الخلافة العباسية سنة (1258م) واستئصال شأفة أسرة كين، سنة (1234م) وهي الأسرة التي كانت تحكم شمال الصين فضلاً عن غزو جنوب الصين وخوارزم وفارس وسائر الأقاليم المجاورة، وإقامة حكم المغول في الهند، وهذا ليس إلا طائفة من الأحداث التي يكفي الواحد منها للدلالة على أهمية دراسة تاريخ المغول.

ومن الظواهر الجديرة بالاهتمام، أنه كلما سقطت حضارة أو مدنية عقبها حركة إحياء ضخمة، تنبعث من بين أنقاض وآثار الحضارة التي دمرتها الغارات المتتالية، فمثلاً بعد استيلاء الرومان على بلاد اليونان، حدثت حركة إحياء في مجال الفنون والآداب وحدث بعد استيلاء العثمانيين على أملاك الدولة البيزنطية بأن ازداد الإقبال على دراسة كنوز المعرفة، وبعد دخول المسلمين لإسبانيا وفتحها، وصل إلى أوروبا في العصور الوسطى شعاع العلم والطب والفلسفة والشعر، وهذه النماذج تنطبق على المغول، إذ أن سقوط بغداد في أيامهم أدى إلى انتقال مركز الدراسات الإنسانية إلى

---

(1) المغول، د. السيد الباز العريني، ص: 24.

مصر، وفي نفس الوقت تفرق العلماء والأدباء في أنحاء العالم الإسلامي، فزاد ذلك من قوة الجامعات والمدارس بالجهات التي حلوا بها[1]، يضاف إلى ذلك أن انتقال مركز الجاذبية من بغداد إلى القاهرة، هيأ للعالم الغربي أن يحصل على ثقافة الشرق[2] وعلومه، بالإضافة إلى الاحتكاك في زمن الحروب الصليبية.

ومن ناحية أخرى، يعتبر ظهور المغول بالغ الأهمية لما حدث في آسيا من تطورات أخرى وأول هذه التطورات وأجدرها بالصدارة، ما جرى من توحيد آسيا، غير أنه لا يصح تفسير هذا بالمعنى المعروف لنا الآن عن الوحدة السياسية أو التجانس فالحكومة المغولية كفلت السلام والأمن في إمبراطورية مترامية الأطراف، فالطرق سابلة مفتوحة، يطمئن المسافر إلى اجتيازها، ما لم يصادف أثناء سيره موكب جنازة لأحد الخانات وعندئذ يكون مصيره الموت المحقق[3]، ومن خصائص المغول أيضاً ما اشتهروا به من التسامح الديني، على أن ما جرى من تعليل ذلك التسامح، بأنه يرجع إلى ما اشتهر به المغول من عدم الاكتراث بالدين، يعتبر حكماً لا يستند إلى أساس متين، والراجح أن هذا التسامح لم يكن المقصود منه سوى الإفادة من الأشخاص الأكفاء مهما اختلفت دياناتهم[4].

ثانياً: التعريف بالمغول:

ظهر المغول على مسرح أحداث التاريخ العالمي في أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ثم برزوا كقوة عالمية ذات شهرة دولية واسعة النطاق خارج نطاق موطنهم الأصلي ـ منغوليا ـ في خلال العقدين الأول والثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وقد استطاعوا أن يؤسسوا لهم أكبر إمبراطورية عالمية عرفها تاريخ البشرية في أقصر مدة، حيث تكونت إمبراطوريتهم الواسعة الأرجاء، والمترامية الأطراف في خلال ثلاثة عقود، وامتدت من الجزر اليابانية والمحيط الهادي شرقاً إلى قلب القارة الأوروبية غرباً، ومن سيبريا وبحر البلطيق شمالاً إلى الحدود الشمالية للجزيرة العربية وبلاد الشام وفلسطين جنوباً، ولقد عرَّفهم مؤرخونا، العرب منهم على وجه الخصوص والذين عاصروا أحداث ظهور المغول وغزواتهم للعالم

(1) المغول، د. السيد الباز العريني، ص: 26.

(2) المغول للعريني، ص: 26.

(3) المصدر نفسه، ص: 26.

(4) المصدر نفسه، ص: 26.

الإسلامي بأنهم هم التتر أو التتار، وقد نهج منهجهم من جاء بعدهم من المؤرخين، بل وحتى الأغلبية من مؤرخي المغول في عصرنا الحاضر، على أن هذه التسمية الخاطئة لم تقتصر فقط على المؤرخين المسلمين من العرب، بل وسار على ذلك التعريف الخاطئ المؤرخون والرحالة الأوروبيون الأقدمون منهم على وجه التخصيص، إلا أن المؤرخين الأوروبيين المستشرقين الكبار، أمثال بريتسكنيدر وبارثولد الروسيين، وسيولر الألماني وبويل الإنجليزي وغيرهم، عرفوا الفرق بين التتار والمغول وذلك من خلال ما كتبه المؤرخ المسلم رشيد الدين الوزير، وخاصة ما كتبه في كتابه المشهور «جامع التواريخ»، ثم ما كتبه الصينيون، والتي ترجمت كتبهم إلى بعض اللغات الأوروبية الحديثة، كالروسية، الألمانية والفرنسية، والإنجليزية، كما عرف المستشرقون ذلك أيضاً مما كتب باللغة المغولية، ويتمثل ذلك بصورة رئيسة بالكتاب المعروف بـ «التاريخ السري للمغول أو تاريخ المغول السري» بناء على هذا، نجد أن المغول شيء والتتار شيء آخر، ويمكن أن توجد صلة تعريفية بين الاثنين ـ المغول والتتار ـ فنقول بكلمات مقتصرة: أن التتار مغول وليس المغول تتراً، فالتتار شعبة متفرعة من المغول، وليس المغول فرعاً من التتار، فالأصل هنا هم المغول، وليس الأصل التتار، وعلى الرغم من أن التتار تفرعوا أصلاً من المغول، وأصبح لهم دولة مستقلة، سيطرت على المغول حقبة من الزمن، إلا أنه في الفترة التي نتكلم عنها الآن ـ وكما سيأتي بإذن الله ـ جاء المغول تحت زعامة جنكيز خان، فهزم التتار، فقتلوا رجالهم، وسبوا نساءهم واسترقوا أطفالهم، ولهذا نجد أن التتار قد تلاشوا على يد الزعيم المغولي العظيم، وأصبح المغول هم أصحاب الدولة والغلبة، فأسسوا إمبراطورية لهم عرفت في التاريخ بالمغول وليست بالتتار[1].

ثالثاً: موطن المغول الأصلي:

عاشت القبائل المغولية في المنطقة الواقعة في وسط آسيا بين نهري «سيحون وجيحون» من الغرب حتى حدود الصين الجبلية من جهة الشرق ممتدة حتى أقصى الشمال الشرقي لآسيا[2]، وتوسع البعض في حدودها حتى امتد بها إلى البحر الأدرياتيكي ويمكن هضبة منغوليا وسلاسل جبال «تيان شان» وجبال «التاي» وما بينهما

(1) سقوط الدولة العباسية، د. سعد الغامدي، ص: 54.

(2) العالم الإسلامي والغزو المغولي، إسماعيل الخالدي، ص: 19.

من سهول وصحراء جنوبي وحول بحيرة «بايكال» وضفاف الأنهار الموجودة في تلك المنطقة[1]، الموطن الرئيس لهذه القبائل، التي كانت تستقر في السهول الواقعة بين سلاسل الجبال ومناطقها الدافئة شتاءً حيث تتوفر المراعي لحيواناتهم، وفي الصيف يستقرون في المرتفعات وأعالي الجبال لمدة شهرين أو ثلاثة حيث تكون المنطقة باردة وتتوفر فيها المياه والمراعي.

إن بعد هذه المناطق الشديد عن البحار فضلاً عن ارتفاعها، أسهم في أن يخصها بمناخ «قاري» ـ إذ تتراوح درجة الحرارة في معظم أجزائها ما بين 38 فوق الصفر و42 تحت الصفر ـ مما يؤدي إلى تجمد أنهارها وبحيراتها فترة طويلة من أشهر السنة، بالإضافة إلى الرياح الشديدة التي تهب من المنطقة الجنوبية في سيبيريا الواقعة شمالاً[2]، وتنعكس هذه الحالة في فصل الصيف حيث ترتفع الحرارة وتهب الرياح الشديدة المحملة بالرمال[3] وفي هذه البيئة القاسية، كانت هذه القبائل التي تعيش على الصيد والرعي تجري وراء المياه القليلة في «صحراء جوبي» ـ التي يعني اسمها الجدب والفقر[4] ـ وفي السهول بين الجبال وتعتلي المرتفعات وراء العشب والمرعى، وكلما زحف الجفاف أو قلت الأعشاب انتقلوا إلى أرض مجاورة يدفعهم إلى ذلك تزايد عدد القطعان والماشية، وهذا الارتحال والتنقل هو القاعدة الطبيعية لحياتهم، وإذا احتبست الأمطار أو تعرضت المراعي للآفات وقلة الأعشاب تبعاً لذلك وجد الراعي نفسه أمام خطر فقدان ماشيته ـ وهي مصدر رزقه ـ ثم التعرض للمجاعة وهذا بدوره يدفعه إلى السرقة، والنهب والسلب ممن يجاورونه من السكان الذين يشتغلون في الزراعة، ومن هنا تقوم الحروب والغارات والاعتداءات والأخذ بالثأر[5]، وبالرغم من وحدة أصول هذه الأقوام، إلا أنهم كانوا ينقسمون إلى قبائل عديدة تتزايد أعدادها يوماً بعد يوماً بحكم انقسامها على نفسها وانفصالها عن بعض حاملة أسماء جديدة، تفرعت إليها وعرفت بها[6].

(1) المغول للعريني، ص: 5 ـ 8، العالم الإسلامي والغزو المغولي، للخالدي، ص: 19.
(2) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 19.
(3) المصدر نفسه، ص: 20.
(4) المصدر نفسه، ص: 20.
(5) المغول للعريني، ص: 13، العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 20.
(6) الحياة السياسية في العراق، للدكتور القزاز، ص: 5.

رابعاً: القبائل التي تكوّن منها المجتمع المغولي:

في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي «السادس الهجري» كان ينزل شمال منشوريا، ومنغوليا، وتركستان، قبائل بدوية متأخرة تتخذ من الرعي والصيد مهنة لها، تنتقل وراء العشب من مكان إلى آخر وتنتمي هذه القبائل من الناحية اللغوية إلى مجموعات: مجموعات تركية، ومجموعات منغولية، ومجموعات تنفوذية، ويصعب على المؤرخ أن يفصل بشكل قاطع بين هذه المجموعات، وذلك لأن صلات معينة قامت بينهم جعلت ألقابهم، وعاداتهم وكلامهم متقاربة، ومن هذه المجموعات:

أ ـ القبائل التركية:

- قبيلة توركش: وهذه القبيلة من أشهر القبائل التركية في الغرب، وكان رؤساؤها يلقبون بلقب «خان» وبقيت هذه القبيلة محافظة على استقلالها إلى أن قضى عليها العرب المسلمون بقيادة «نصر بن سيار»، ومن ولاة الدولة الأموية في عهد «هشام ابن عبد الملك» عام (121هـ ـ 739م).
- قبيلة القرغيز: وهم من الترك الذين كانوا ينزلون في أعالي نهر «ينسي»، وكان أميرهم يلقب بـ «خاقان» اشتهروا سياسياً حوالي سنة (250هـ ـ 840م)، حينما تغلبوا على «الأويغور» من منغوليا ولكن «الخطا» هزموهم وطردوهم من منغوليا في أوائل القرن الرابع الهجري، ثم احترفوا الزراعة، وبعد ذلك خضعوا للمغول زمن «جنكيز خان» سنة (1218م).
- قبيلة الأغوز «الغُز في اللغة العربية»: وهم من القبائل التركية وذكرتهم نقوش «أرخون» في القرن الثاني الهجري «الثامن الميلادي» باسم «التغزغز» ـ أي القبائل العشرة ـ لأنهم كانوا يتألفون من عشر قبائل. دخل «الغز» إلى البلاد الإسلامية في نهاية القرن الرابع الهجري «العاشر الميلادي» وينتمي السلاجقة إلى قبيلة «الغز»، وقد أقاموا إمبراطورية امتدت من تركستان حتى حدود مصر[1].
- قبيلة القارلوق: أصبحت لهم أهمية سنة 149هـ «766م» حينما احتلوا وادي نهر «جو» بعد سقوط إمبراطورية «خاقان» الترك الغربيين/ لم يتخذ أمراؤهم لقب «خاقان» وإنما اكتفوا باتخاذ لقب «يبغوا»، وكانوا كفاراً حتى القرن الرابع

(1) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 24.

الهجري «العاشر الميلادي» ويقول «ابن حوقل» إن بلادهم كانت تمتد من «فرغانة»[1] مسافة يجتازها المسافر في ثلاثين يوماً، ولقربهم من البلاد الإسلامية، تأثروا بالحضارة الفارسية، ولم يلبثوا أن اشتغلوا بالزراعة، وجرت الإشارة إليهم لآخر مرة في القرن الثالث عشر الميلادي «الرابع الهجري»[2].

ب ـ القبائل غير التركية:

الخطا (أو قرة خيتاوي) أو خيتاوي وكلها أسماء لشعب خيتاي:

الراجح أنهم من القبائل التونفوزية «ويرى البعض أنهم مغول» كانوا أعداءً للترك الذين ينزلون أقصى الشرق في المنطقة التي بلغها «الأتراك» في حملاتهم وفي بداية القرن الرابع الهجري «العاشر الميلادي» قام «الخيتاي» بحملات حربية من أجل التوسع، فاستولوا على شمال الصين، كما أخضعوا شمال منشوريا ووطدوا نفوذهم في جنوب الصين، بعد ذلك امتدت مملكتهم من بلاد القرقيز ـ على نهر ينسي ـ شمالاً حتى بلغ جنوباً، ومن خوارزم غرباً إلى بلاد الأويغور شرقاً وكانت «بالاساغن» عاصمتهم وكانت لقب ملكهم «الكورخان» ـ أي: خان الخانات ـ ولما تحطمت مملكتهم وحلت مملكة الأمير «كجلك» النايماني في جانب من أملاكهم، اتخذ آخر ملوك «قره خيتاي» العادات والملابس الإسلامية، وبقي إقليم ما وراء النهر في أيديهم، إلى أن انتزعه منهم علاء الدين محمد خوارزم شاه سنة (612هـ)، وتداعت مملكتهم بفضل نشاط الأمراء المسلمين في الغرب، وطغيان المغول في الشرق[3].

ـ التتار: وكان التتار في القرن الثاني الهجري «الثامن الميلادي» قسمين: الأول: تسع قبائل، والثاني: ثلاثين قبيلة، وكانوا يسكنون جنوب غربي بحيرة «بايكال» حتى نهر «كيرولين»، وهم ثلاث أقسام:

* **التتار البيض:** وهم الذين ينزلون خارج سور الصين.

* **التتار السود:** وكانوا ينزلون شمال صحراء «جوبي»، وكانوا بدواً رحلاً.

---

(1) فرغانة: بينها وبين سمرقند خمسون فرسخاً.

(2) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 25.

(3) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 25.

* **تتار الغابة**: وكانوا يعيشون حول الروافد العليا لنهري «أونون» و«كيرولين»، ومارسوا حياة الصيد.

وعلى الرغم من أن المغول الذين قاموا بالغزوات والفتوح المشهورة في القرن السابع الهجري «الثالث الميلادي» كانوا يعرفون باسم «التتار» في كل مكان وكان يسحب هذا الاسم على أسلاف «جنكيز خان» وعلى النايمان، فقد كان «التتار» قبائل مستقلة عن المغول، بينما صار اسم «مغول» يطلق على جميع الشعوب التي خضعت لجنكيز خان بعد قهرها، ولم تلبث لفظة «تتار» أن تغلبت عليها/ خاصة في الجهات الغربية من الإمبراطورية المغولية، وهنا ينبغي أن نوضح حقيقة هامة هو أن لفظي «المغول» و«التتار» اسمان لقبيلتين كانتا تعيشان في القسم الشرقي من آسيا الوسطى وفي الشمال الغربي من الصين، على أنهار أولدزا وكيرولين، وأرخون، وأونون وسائر روافد نهر عامور[1].

- **قبيلة الكرايت**: أقاموا لهم مملكة احتلت المنطقة الممتدة من نهر أرخون وجبال كنتاري حتى سور الصين، وقد تغلبت على جميع العناصر المغولية، وتحولوا إلى النسطورية بين (عامي 400 ـ 402 هـ) (1007 ـ 1009م) على يد أسقف نسطوري مقيم في «مرو» ومنذ ذلك الحين صاروا يدينون «بالنسطورية» وفي القرن السادس الهجري «الثاني عشر الميلادي» اتخذ زعماؤهم أسماء مسيحية، وكان طغرل من أشهر ملوكهم استطاع أن يطرد عمه الذي كان ينافسه على العرش، وذلك بمساعدة رئيس مغولي هو «يوسحاي» والد «جانكيز خان» الذي ظل من أتباعه ـ واستطاع طغرل أن يهزم «التتار» وبذلك صار أقوى ملك في منغوليا ومنحه الإمبراطور «كين» لقب «وانج» واشتهر بـ «وانج خان»[2].

- **قبيلة النايمان**: يبدو من اسمهم أنهم مغول «نايمان» ـ معناها ثمانية ـ ولكن ألقابهم كانت تركية ولذا يصح اعتبارهم(تركاً ـ مغول) كان النايمان يسكنون غرب منازل «الكرايت» وامتدت منازلهم حتى نهر «أرتيش». كانت ديانتهم «الشامانية» إلا أن النسطورية نفذت إليهم[3].

---

(1) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 26.
(2) المصدر نفسه، ص: 27.
(3) المصدر نفسه، ص: 27.

ـ **قبيلة برجقين المغولية:** كانت تسكن عند أنهار «تولا، أرنون، وكيرولين»، وإلى هذه القبيلة ينسب «جانكيز خان»، توالى نزول القبائل المغولية على ضفاف هذه الأنهار بالقرب من هذه القبيلة ابتداء من «كيرولين» شرقاً حتى بحيرة «بيكال» غرباً[1].

كان المغول الأصليون ـ أجداد جانكيز خان ـ يشتغلون بالرعي ويعيشون على الصيد، وذلك لأن منازلهم كانت تقع بين السهول والغابات ويفصل نهر سرداريا «سيحون» بين العالم التركي المغولي والعالم الإسلامي ولهذا السبب ظل المغول الترك محافظين على تقاليد عنصرهم بأن بقوا وثنيين، أو بوذيين، أو نساطرة، وكانت الحضارة الصينية أشد الحضارات تأثيراً عليهم[2].

خامساً: حياة المغول الاجتماعية:

كان المجتمع المغولي يقوم على الطبقية، فقد كانت القبيلة مقسمة إلى ثلاث طبقات: طبقة النبلاء، وكانوا يلقبون بالألقاب «بهادر» أي الباسل «وتوبان» ـ أي النبيل ـ «وستسن» ـ أي الحكيم، والطبقة الثانية هي طبقة الـ «نوكور» ـ أي الأحرار ـ وعلى هؤلاء كان يرتكز النظام العسكري والسياسي في منغوليا، زمن «جنكيز خان» وكانوا يؤلفون طبقة المحاربين والموالين له.

والطبقة الثالثة، هي طبقة العامة، وطبقة الأرقاء وكان لكل جماعة أو عشيرة من المغول رئيساً، قد يكون ملكاً «خان ، قان» أو زعيماً «باكي أو بكي» وبهذا اللقب اشتهر رؤساء قبائل الغابة أمثال «أويرات، ومركيت»[3]. وكانت بعض القبائل الصغيرة تلجأ أحياناً إلى إحدى القبائل الكبيرة على عادة البدو في كل مكان،وذلك لعجزها عن الدفاع عن نفسها كما حدث لقبيلة «الجلائر» في علاقاتها مع أجداد «جنكيز خان»، وما جرى أيضاً لقبيلتي «القنقران، والأويرات» حينما خضعتا لجنكيز خان، لقد أثرت البيئة التي عاشت فيها تلك القبائل تأثيراً كبيراً على حياتهم الاجتماعية والاقتصادية، فمناخها القاري والسعي وراء الأعشاب لرعي الماشية والأغنام فرضت عليهم مع مرور الزمن نمطاً معيناً من الحياة، فقد عاش الترك المغول الذين أقاموا في منطقة الغابات، حول بحيرة «بايكال» ونهر عامور، عيشة المتبربرين ، ويعيشون على صيد الحيوانات في

(1) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 28.

(2) المصدر نفسه،ص: 28.

(3) المصدر نفسه.

الغابات، وعلى صيد السمك في الأنهار والبحيرة، وأما الذين كانوا يعيشون في الأستبس فقد عاشوا على تربية الخيل والماشية والأغنام،يلتمسون العشب، ويسير الرجل في أثر قطعانه، وتوزيع المراعي والمياه حدد مجال تحركهم في فصول السنة وكثيراً ما كانت تحركاتهم نحو المراعي سبباً في المنازعات والغارات والسلب والنهب وما كان يمارسه الرعاة من التدريب المستمر على ركوب الخيل والسعي لاكتشاف المراعي والمياه، واستخدام الأسلحة، وما يتصفون به من قوة الاحتمال، ومعاناة الجهد والتعب، والشجاعة، والميل إلى الحركة، وحب المخاطر، واتساع الأفق، وحب التسلط، كل ذلك جعل رجال هذه القبائل عبارة عن جنود بارعين وجيش جاهز في كل لحظة، وعندما جاء «جنكيز خان» واستطاع توحيد هذه القبائل تحت حكمه، نظم لهم نوعاً من الحياة الاجتماعية مستفيداً من التجارب التي عاشها والشدائد التي عاناها، وما قام به من حروب وغزوات، وكتب ما نظمه فيما يعرف بـ «الياسا»[1] ذلك لأنه كان حريصاً على جمع كلمة القبائل الخاضعة له، وعلى كبح جماحها، وإلزامها بالنزول على حكمه، فاشتمل هذا القانون على عقوبات بالغة الصرامة، حتى يقضي على أسباب الفوضى، ويعيد الأمن إلى نصابه.

وتحدد في هذا القانون علاقة الحاكم بالمحكوم، وعلاقة المحكومين بعضهم ببعض، وعلاقة الفرد بالمجتمع، وقد نجح جنكيز خان في هذا الغرض واستطاع أن يحول جموع المغول إلى جيوش منظمة، تسير وفقاً لخطط حربية مرسومة وكان المغول يتخذون من لحوم الحيوانات على اختلافها من خيول وكلاب وذئاب وثعالب وفيران غذاء، فمصادر غذائهم قليل وخاصة في الشتاء إذ تقسو عليهم الطبيعة، ولهم طريقة في حفظ اللحوم، وهي أنه إذا مات عندهم حيوان قطعوا لحمه شرائح رقيقة وعلقوها في الشمس والهواء لتجف دون أن تعتريها العفونة. وكانت ملابسهم بسيطة جداً تتفق والبيئة التي يعيشون فيها، وكانت في الغالب مصنوعة من أصواف أو وبر الإبل أو من جلود الحيوانات، ولم يكن فرق كبير بين ملابس الرجال وملابس النساء، وكان من عادة المغول أنهم لا يغيرون ملابسهم طول فصل الشتاء، وأما في الصيف فيكتفون بتغييرها مرة واحدة كل شهر، ومن عادتهم ألا يغسلوا ثيابهم أبداً بل يلبسونها حتى تبلى، وكان

---

(1) الياسا: هي أحكام أو دستور «جنكيز خان» دوّنها له الأويغور بخطهم، وهي مزيج من القوانين موضوعة على إرادة الخان المغولي تسجل العادات القبلية. كان المغول يرجعون إليها عندما يجلس خان جديد للعرش وفي حالة تعبئة الجيوش والاستعداد للقتال.

من عادتهم أن يطلوا أجسادهم بالشحم اتقاء البرد والرطوبة[1].

سادساً: دين المغول:

وأما عن ديانتهم فإن دارس تاريخ هؤلاء الأقوام يجد صعوبة في التعرف على المبادئ الصحيحة، فبعض المراجع تذكر نتفاً قليلة لا تشفى غليلاً وبعضهم لا يذكر شيئاً، فقد قال ابن كثير عن عقيدتهم: وهم مع ذلك يسجدون للشمس إذا طلعت، ولا يحرمون شيئاً، ويأكلون ما وجدوه من الحيوانات والميتات[2]، ويحتوي «الياسا» كما ذكر ابن كثير نقلاً عن الجويني بعض المبادئ التي منها: .. أنه من زنى قتل محصناً أو غير محصن، وكذلك من لاط قتل، ومن تعمد الكذب قتل، ومن سحر قتل، ومن بال في الماء الواقف قتل، ومن انغمس فيه قتل، ومن أطعم أسيراً أو رمى إلى أحد شيئاً من المأكول قتل، بل يناوله من يده إلى يده، ومن أطعم أحداً شيئاً فليأكل منه أولاً ولو كان المطعوم أميراً لا أسيراً، ومن أكل ولم يطعم من عنده قتل، ومن ذبح حيواناً ذبح مثله، بل يشق جوفه ويتناول قلبه بيده يستخرجه من جوفه أولاً[3].

وقد جاء في حديث لأحد ملوكهم وهو «منكو خان» (1251م ـ 1260م) في لقائه مع الرحالة «رويركي» قال: «... نحن المغول نعتقد بأن هناك إلهاً واحداً له نحيا وله نموت وعندنا قلب يخفق بحبه، لكن الله أعطى اليد أصابع مختلفة كذلك أعطى الناس طرقاً مختلفة، فقد أعطاكم الكتاب المقدس، لكن المسيحيين لم يحافظوا عليه، وقد أعطانا «الشماناس» ونحن نفعل ما يأمروننا به ونعيش بسلام[4].

وذكر الجويني: ... أن «جنكيز خان» لم يكن متحمساً لدين معيّن، وأن أولاده مالوا مع رغباتهم فمنهم من مال إلى الإسلام ومنهم من مال إلى المسيحية، وآخرون إلى عبادة الأصنام، وغيرهم حسب قاعدة الآباء والأجداد[5]، وأما ابن فضل الله العمري فيقول: ... الظاهر من عموم مذاهبهم الإدانة بوحدانية الله وأنه خلق السمٰوات والأرض[6].

وفي تعريف الديانة الشمانية يقول الدكتور القزاز: كانت الديانة الرسمية للمغول

---

(1) المغول في التاريخ، للدكتور العباد، ص: 330 إلى ص: 334.

(2) البداية والنهاية لابن كثير، نقلاً عن: العالم الإسلام للخالدي، ص: 32.

(3) البداية والنهاية (17 / 161 ـ 165).

(4) الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، د.القزاز، ص: 20 ـ 21.

(5) المصدر نفسه، ص: 19، العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 33.

(6) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 33.

تسمى «بالشامانزم» وتتمثل بعبادة مظاهر الطبيعة وخاصة الشمس، وتمتاز بشدة الطاعة لكهنتها الذين يتولون بدورهم الحياة الخاصة لأتباعها، كما يدل على ذلك حديث «منكوخان» إلى الرحالة «رويركي» الذي مر ذكره، ولم تستطع تعاليمها الصمود أمام الديانات الأخرى التي احتك بها المغول، الأمر الذي أدى إلى ذوبانها وتحول المغول عنها إلى البوذية في الصين، والإسلام في البلاد الإسلامية، والمسيحية في روسيا[1].
وأما أرنولد فقد كتب: كانت «الشامانية» الديانة القديمة للمغول، الذين كانوا على رغم اعترافهم بإله عظيم قادر، لا يؤدون له الصلوات، وإنما كانوا يعبدون طائفة من «الآلهة» المنحطة وبخاصة تلك «الآلهة» الشريرة التي كانوا يتقدمون إليها بالقرابين والضحايا لما كانوا يعتقدون فيها من السلطان والقدرة على إيذائهم.

كما كانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامى التي كانوا يعتبرونها ذات سلطان عظيم على حياة أعقابهم، ولكي يوفق المغول بين هذه القوى السماوية والعالم السفلي كانوا يلجأون إلى القسيسين، وهم «الشامان» والسحرة أو إلى رجال الطب، الذين كانوا يعتبرونهم ذوي نفوذ خفي وسلطان غريب على عناصر الموتى وأرواحهم، ولم يكن دينهم معدوداً من تلك الأديان التي تستطيع أن تقاوم كثيراً جهود هذه الأديان الكثيرة الأتباع والأنصار ذات اللاهوت المنظم الذي يملك قوة الإقناع وسد حاجات العقل، وذات الهيئات المنظمة، للمعلمين الدينيين، ومن ثم تأثر المغول بديانات تلك الشعوب[2]، فهذه عقيدة المغول المنحرفة والفاسدة[3]، ويرى الباحث إسماعيل عبد العزيز الخالدي، بأن عقيدة المغول المشوهة والتي أشار إليها المؤرخون هنا وهناك ما هي إلا بقايا عقيدة صحيحة كانت صيحة جاءت عن طريق بعض الرسل، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ۝٢٤﴾ [فاطر، الآية: 24] ولكن الانحرافات البشرية المتمثلة في تدخل بعض الناس حكاماً أو زعماء، أو علماء ـ في العقيدة ـ بالإضافة أو الحذف اتباعاً للشيطان والهوى أو وصولاً إلى شهوة، أو رغبة في انتقام أو إظهاراً لمكانة. . أو. . كل ذلك جعل هذه العقيدة تصل إلينا بشكل مشوه، ولكن الذي يتفحص هذه النتف القليلة يرجع أن هذه النصوص ما هي إلا بقايا عقيدة وصلتنا مشوهة، وهم يعترفون بوجود إله واحد وأنه خلق السماوات

(1) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 34.
(2) الدعوة إلى الإسلام، أرنولد، ص: 251.
(3) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 34.

والأرض ولكنهم يشركون معه بعض المخلوقات مثل «الشمس» «والأرواح» وغيرها، وهم يستنكرون القتل والزنا واللواط، والكذب، والسحر، والتجسس، وكلها من صميم النواهي والمحرمات التي حرمها الله ﷻ على عباده بواسطة الرسل الكرام، وإذا وجدنا العقاب قاسياً على بعض هذه الجرائم، فإن هذه القسوة علامة التشويه التي وضعتها يد الإنسان الظالمة ظانين أنهم بهذا إنما يكملون نقصاً أو يستفيدون من تجربة، وخلاصة القول إن الأستاذ إسماعيل الخالدي رجح بأنه كان لهذه الأمة عقيدة صحيحة تشوهت مع مرور الزمن ثم ترك كثير من أوامرها إلى أن جاء «جنكيز خان» فأمر بكتابتها بالخط «الأويغوري» وكتبت بعد أن أضاف إليها ما يعتقد أنه ينفع أمته ويقوي ملكه[1].

هذا وقد امتدت اليد الإنسانية إلى العقائد السماوية، بالتبديل والتحريف والتشويه، ابتداء من العقيدة التي أنزلت على آدم ﷺ ومروراً بعقيدة إبراهيم وإسماعيل التي شوهت في الجزيرة العربية، وعقيدة موسى التي شوهت على أيدي اليهود، وانتهاء بعقيدة عيسى التي شوهت على أيدي «النصارى»[2]، وقد أكد القرآن هذه الحقيقة في أكثر من موضع وكفى به قولاً وفصلاً وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ۝١٧١﴾ [النساء، الآية: 171] وقال تعالى عن اليهود: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ...﴾ [المائدة، الآية: 13].

سابعاً: تداعي المجتمع المغولي قبيل جنكيز خان:

1 ـ **الفوضى في منغوليا:** الواقع أنه باستثناء الترك الأويغور والخطا اللذين استقرا في جنوب منطقة الأستبس، وباستثناء منغوليا الأصلية، هوت بقية منغوليا إلى حالة بالغة من الشدة والاضطراب والهمجية، فلم يكن بين التتار والمغول والكرايت، والنايمان ما كان معروفاً باسم مدن البلاط، فليست مدن الأويغور سوى معسكرات مدورة تقوم حول مخيم الزعيم، والواضح أن هذا المعسكر ينقض إذا ارتحل الزعيم أو الخان ـ على أنه حدث عند ولادة جنكيز خان، أنه لم يكن بالأستبس المغولي أو ما

---

(1) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 35.

(2) المصدر نفسه، ص: 35.

يليها من الغابات شيء من هذه المعسكرات، ففي منغوليا، في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، لا نكاد نلتقي إلا بالدساكر الصغيرة التي ينزلها جماعات قليلة من الأسرات التي تمتهن الرعي وفي كثير من الأحيان لا نصادف إلا دسكرة واحدة، وهذا مثال إنما نلمسه في نوع الحياة السائدة، أثناء حداثة جنكيز خان وإخوته، حينما تخلى عنهم أعمامهم، وأضحوا مضطرين إلى ممارسة الصيد، وحياة الكفاف[1]، والواقع أن الروابط السياسية والاجتماعية تمزقت في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، بسبب الفوضى التي استمرت زمناً طويلاً، فلم يكن للمغول التايجيوت ولا غيرهم خانات، فعاشوا في فوضى شاملة، لما حدث من التنازع بين التايجوت وجنكيز خان، ولما وقع من الخصومة بين جنكيز خان وجاموكا، يضاف إلى ذلك ما نشب من التشاحن بين القبائل والعشائر المغولية على مواطن الرعي، ومواقع المعسكرات، ومن الدليل على ذلك ما كان من محاولات جنكيز خان، بعد وفاة أبيه، تجميع شتات العشائر، وما درج عليه المغول من الزواج من خارج قبيلتهم إما عن طريق التراضي والمفاوضات وإما عن طريق الاختطاف، مثلما حدث في زواج جنكيز خان، ووالده، كل ذلك أدى في ظروف كثيرة إلى الحروب[2].

2 ـ **محاولات توحيد القبائل المغولية**: جرت محاولات عديدة قبل ظهور جنكيز خان، لتوحيد القبائل المغولية، غير أن هذه المحاولات ذهبت أدراج الرياح، وقد تحدث المؤرخون عن جد المغول، بدانتسار، الذي اشتهر بالمكر والخديعة واستطاع أن يفوز بالزعامة على قبيلة تعيش في الجهات المجاورة لمنازله على الشاطئ الشرقي لبحيرة بايكال، ولم تلبث أسرات عديدة أن التمست حماية ابنه قيدو، فتزايد عدد رعاياه ولم يلبث أن اتخذ لقب خان، هذه كانت النواة الأولى لمملكة المغول وكان لقيدو ثلاثة أبناء، كان أكبرهم جداً لأسرة قيات التي ينتمي إليها جنكيز خان، بينما كان الثاني جداً لأسرة التايجيوت وشهد جنكيز خان في حداثته ما وقع بين الأسرتين من تنافس وتنازع وبلغت الملكية الأولى للمغول ذروتها زمن كابل حفيد قيدو، بعد أن توطدت العلاقة بين المغول وأسرة كين التي كانت تحكم بشمال الصين، نظراً لما تتعرض له من تهديد من جانب منغوليا، غير أنه وقع من المشاحنات بين خان المغول «كايل» وملك الصين «تاي سونج» ما أدى إلى نشوب الحرب بينهما

---

(1) المغول، د. السيد الباز العريني، ص: 38.

(2) المصدر نفسه، ص: 39.

(سنة 1135م)، وحلت الهزيمة بجيش الصين (سنة 1139م) ويعتبر هذا التاريخ بداية لنهوض المغول وعلى الرغم من سيادة أسرة كين على منشوريا، وشمال الصين، فإنها أضحت تحس بخطر المغول بعد أن امتد سلطانهم نحو الشمال الغربي لمنغوليا، وبعد أن أخضعوا التتار النازلين على الضفة الجنوبية لنهر كيرولين، ولم يسع إمبراطور الصين الشمالية «التان خان» من أسرة كين إلا أن يثير العداء بين المغول والتتار، فنشبت معارك عديدة اشترك فيها «يسوكاي» من سلالة كايل والد جنكيز خان، والذي صرع أحد زعماء التتار واسمه «تيموجين» ولتخليد هذا الانتصار أطلق «يسوكاي» على ابنه عند ولادته اسم «تيموجين»، وهو الذي صار يعرف فيما بعد باسم «جنكيز خان»، وتلى ذلك فترة أضحى فيها للتتار النفوذ والسلطان بفضل مساندة أسرة كين بما بذلته لهم من الإمدادات الحربية، وبما لجأت إليه من أساليب السياسة والدهاء والمكر، فضلاً عن جيوش التتار، كل ذلك أدى إلى تداعي مملكة المغول الناشئة، وسيطرة التتار على شرق صحراء جوبي، بعد أن كان في حوزة المغول، وصار التتار مصدر خطر على أسرة كين ذاتها، فلم تلبث هذه الأسرة الملكية بالصين الشمالية أن انقلبت عليهم، فهيأت الفرصة لأن ينتصر جنكيز خان عليهم، وعلى الرغم من أن يسوكاي لم يكن إلا رئيس أسرة بورجقين، من عشرة قبات، فقد اشتهر يسوكاي بأنه كان محارباً شجاعاً وقائداً بارعاً، وسبق الإشارة إلى ما أحرزه من انتصار على أحد زعماء التتار، واسمه تيموجين، ثم نهض إلى مساعدة طغرل زعيم الكرايت في الغرب لاسترداد عرشه، وتحالف الاثنان على أن يكونا يداً واحدة، وأفاد جنكيز خان فيما بعد من هذا التحالف[1]، وقد تزوج يوسكاي بهادور «الباسل» من هوئيلون «يولون» من قبيلة المركيت وأنجب منها أربع أبناء أكبرهم تموجين، ثم جوش قسار وقاتشيون، وتيموجي فضلاً عن ابنة. وكان له من زوجتين أخريين بكتر ويلجوتاي[2].

ثامناً: أحوال العالم الإسلامي قبيل الغزو المغولي.

كان العالم الإسلامي في المرحلة التي بدأ فيها ظهور المغول منقسماً إلى مجموعة من الممالك والدويلات الصغيرة بعضها قوي وبعضها ضعيف سواء من الناحية العسكرية أو الاقتصادية، كما تميزت هذه الممالك والدويلات بالتنازع مع بعضها

(1) المغول، للعريني، ص: 42.

(2) المصدر نفسه، ص: 42.

البعض من أجل السيطرة أو التوسع على حساب الأخرى[1]، وكان الحكام المتنازعون يؤثرون مصالحهم الشخصية على مصالح المسلمين العليا متناسين قول الله تعالى: ﴿... وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال، الآية: 47] وكانوا في سلوكهم الخاص ومعاملاتهم لشعوبهم أو لبعضهم بعضاً قد تخلوا عن قواعد الإسلام ومبادئه وانحرفوا عنه انحرافاً شديداً وانتشرت بينهم الموبقات، من معاقرة للخمر، وقتل الوقت بحضور حفلات الرقص الماجن وارتكاب الفواحش، واللهو الخليع، وقد تبعهم في ذلك كبار قادتهم، وكثير ممن يلوذ بهم من الناس، ولِمَ لا؟ والناس على دين ملوكهم، وكان من نتيجة تخليهم عن أخلاق الإسلام فقدان روح التضحية وحب الاستشهاد مما أضعف الروح المعنوية في حروبهم مع المغول وذلك هو «الوهن» الذي حذر منه الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه حين قال: **«يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها»**، قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: **«بل أنتم يومئذ كثر ولكنهم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن»** .قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: **«حب الدنيا وكراهية الموت[2]»**، وكانت الأمة قد تفرقت وتمزقت، ففي كل ناحية سلطان وفي كل قبيلة أمير، ورحم الله القائل:

مما يزهدني في أرض أندلس ... ألقاب معتصم فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

وانتهوا إلى بلاء شامل قال الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ [إبراهيم، الآية 28] لقد غلبت عندهم المعيشة، ورخص الإنسان وعمرت المراقص والحانات، وخربت دور العبادة، وقل عدد الملتزمين من الحكام وخاصتهم بالفضائل، وأطلقوا العنان لشهواتهم وأكرموا أهل النفاق والكفر فكانوا كما قال الله عز وجل: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢﴾ [النحل، الآية: 112] وما يعنينا من العالم الإسلامي في هذا الموضوع هو الجانب الشرقي منه، أما الغربي منه في المغرب والأندلس فلقد كان هناك أيضاً الصراعات الداخلية بالإضافة إلى مقاومة حركة الاسترداد، والجانب الشرقي من العالم الإسلامي كانت تتقاسمه عدة دول، ففي بلاد فارس أو إيران كانت تقوم الدولة الخوارزمية التي امتدت

---

(1) المغول والأوروبيون والصليبيون، محمود عمران، ص: 15.

(2) سنن أبي داود، عن ثوبان بإسناد صحيح، كتاب الملاحم.

حدودها من جبال أورال في الشمال إلى الخليج العربي في الجنوب، ومن جبال السند شرقاً إلى حدود العراق غرباً، وفي العراق كان الخليفة العباسي في بغداد وله السيادة الروحية، أما القوة السياسية والعسكرية فقد زالت عن هذه الخلافة، ولم يعد لهذا الخليفة من القوة إلا أن يطلب الدعوة على المنابر في صلاة الجمعة أو المناسبات أو الأزمات بأن يوفق الله المسلمين، أو الاستنفار للجهاد[1]، أما الدولة الأيوبية في مصر والشام، فقد كان لها مشاكلها خاصة مع مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية على الساحل الشامي، ومما يزيد المشكلة تعقيداً أنه مع ظهور أخطار المغول كانت الحملة الصليبية الخامسة قد استولت على برج مدينة دمياط (عام 1218م)، مما أدى إلى وفاة الملك العادل، ثم انقسام البيت الأيوبي إلى عدة ممالك أهمها مصر وعلى رأسها الملك الكامل (615 ـ 636هـ / 1218 ـ 1238م)، ودمشق على رأسها الملك المعظم عيسى (615 ـ 624هـ / 1218 ـ 1227م). وكان هناك دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وهي الدولة التي ظلت في مواجهة الإمبراطورية البيزنطية منذ نشأتها حتى نهايتها، يضاف إلى ذلك أخطار الصليبيين في بلاد الشام ثم العالم الغربي بعد سقوط القسطنطينية في أيدي الصليبيين من قوات الحملة الصليبية الرابعة، (عام 1204م)[2].

1 ـ طائفة الإسماعيلية الباطنية: يعتبر الحسن الصباح المؤسس الحقيقي للطائفة الإسماعيلية في إيران، إذ أخذ في الاستيلاء على كثير من البلاد والقلاع المجاورة في «قوهستان» وكانت أهمها قلعة «الموت» التي استولى عليها (سنة 483هـ ـ 1090م) ـ فصارت عاصمة للإسماعيلية وقاعدة لملكهم، ولم يقف أمر «الصباح» عند هذا الحد، بل استطاع بمعاونة أتباعه ـ أن يستولي على المنطقة جنوبي بحر قزوين بأكملها[3]، وقد اشتهرت الطائفة الإسماعيلية في التاريخ بأنهم قوم محاربون أشداء، بثوا الرعب في النفوس، وعاثوا في الأرض فساداً، وقاوموا سلاطين السلاجقة واهتزت بسببهم السلطنة والخلافة، فلا غرو إن كان العداء شديداً بينهم وبين سائر المسلمين، كان لهم جهاز رهيب، وتنظيم سري يتكون من طائفة من الشبان المغامرين الشجعان، الممتلئين قوة وحماسة وتضحية وتفانياً في الدفاع عن عقيدتهم، وكان هؤلاء الفدائيون يجيدون فن التخفي، وساعدهم على ذلك طبيعة الدعوة الإسماعيلية الباطنية التي كانت تجري في

---

(1) المغول والأوروبيون والصليبيون، ص: 16.

(2) فتح القسطنطينية، ترجمة الدكتور حسن حبشي، ص: 114 وما بعدها.

(3) المغول في التاريخ، للدكتور الصياد، ص: 77 ـ 78.

سرية تامة، بحيث أنه كان يتعذر على المرء أن يميز الشخص الباطني من غيره، وكان أعضاء هذا الجهاز يختارون في سن مبكرة ويدربون تدريبات شاقة مضنية على استعمال السلاح، وأساليب القتال، وطرق الاغتيال وسفك الدماء[1]، وكانت القاعدة عندهم أنه إذا ظهر حاكم قوي في البلاد الإسلامية المجاورة، أسرع الفدائيون منهم إلى اغتياله ليأمنوا جانبه، وكان هدفهم الأول من وراء ذلك هو بث الرعب والفزع في نفوس الجميع ونشر الاضطرابات والفتن وإشاعة الفوضى في صفوف المعادين لمذهبهم، فراح ضحيتهم كبار الشخصيات في الدولة السلجوقية حتى جردوها من قوتها الفعالة وعقولها المدبرة، مما أدى بها إلى نهايتها المؤسفة، فلقد قتلوا أعظم وزراء السلاجقة على الإطلاق وأكبر عقلية مفكرة في دولتهم، ألا وهو الخواجة «نظام الملك»، وكان ذلك بأن تقدم إليه أحد الفدائيين من هذه الطائفة على هيئة رجل صوفي، وطعنه بخنجره طعنة نجلاء خر على أثرها صريعاً (سنة 485هـ ـ 1092م) ـ فكان أول شخصية كبيرة فقدها العالم الإسلامي بسبب هذه الطائفة الدموية[2].

وقد قام الولاة والحكام المسلمون بتسليط بعض أفراد هذه الطائفة ضد بعضهم بعضاً، ومن أمثلة ذلك عندما قام الصراع بين الخلفاء العباسيين والسلاجقة، اتهم السلطان «مسعود» بأنه هو الذي أوعز إلى جماعة من الفدائيين بالتخلص من الخليفة «المسترشد» فقتلوه (سنة 529هـ ـ 1134م) ـ ومثلوا به أشنع تمثيل، إذا أنهم قطعوا أنفه وأذنيه وتركوه عرياناً[3]، كذلك قتل ابنه «الراشد» بمدينة «أصفهان» (سنة 532هـ ـ 1137م) ـ لأن محاربة الخلفاء العباسيين هدف يتفق مع مبادئهم، كما سبق أن قامت هذه الطائفة باغتيال «أغلمش» نائب الخوارزميين في العراق العجمي، بإيعاز من الخليفة «الناصر»، وقد قام صراع بين الإسماعيلية والدولة الخوارزمية سبَّب للطرفين خسائر فادحة[4]، كما قامت هذه الطائفة بأعمال إجرامية ضد الطوائف الإسلامية التي تخالفهم في العقيدة، فأشاعوا الرعب والإرهاب، وظلموا وجاروا حتى لقد تمنى المسلمون زوال حكمهم، بل لقد شجعوا المغول وحثوهم على محاربتهم والقضاء عليهم، فقد ذكر «ابن طباطبا»: حدثني الملك إمام الدين يحيى بن الافتخاري قال: أذكر ونحن بقزوين

(1) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 53.
(2) المصدر نفسه، ص: 53.
(3) المصدر نفسه، ص: 54.
(4) المصدر نفسه، ص: 54 نقلاً عن: سيرة جلال الدين منكبرتي، ص: 55.

إذ جاء الليل وجعلنا جميع مالنا من أثاث وقماش ورحل في سراديق لنا في دورنا غامضة خفية، ولا نترك على وجه الأرض شيئاً خوفاً من كبسات «الملاحدة» فإذا أصبحنا أخرجنا أقمشتنا فإذا جاء الليل فعلنا كذلك، ولأجل ذلك كثر حمل «القزاونة» للسكاكين وكثر حملهم للسلاح، وما زال الملاحدة على ذلك حتى كان من أمر «شمس الدين» قاضي قزوين وتوجهه إلى «قا آن» وإحضار العسكر وتخريب قلاع الملاحدة ـ ما كان[1]. ويذكر «الجوزجاني» أن القاضي شمس الدين أحمد الكافي القزويني كان على اتصال بالمغول، وكان إماماً كبيراً، ذهب مرة إلى «منكوخان» وطلب منه أن يضع حداً لشر الملاحدة، ويخلص الناس من فسادهم، وفي أثناء حديثه وبينما كان مندفعاً بحماسة المسلم المتدين صدرت منه كلمات جافة أغضبت «منكوخان»، وكان لها أثر عميق في نفسه، إذ نسب إليه الضعف والعجز، لأنه لم يستطع أن يستأصل شأفة هذه الطائفة الذين يدينون بدين يخالف ديانات النصارى والمسلمين والمغول، وما ذاك إلا لأنهم استطاعوا أن يغروا «منكوخان» بالمال بينما هم يتحينون فرصة ضعف دولته فيخرجون من الجبال والقلاع لينقضوا على البقية من المسلمين ويعفوا آثارهم، وخلاصة القول إن الطائفة الإسماعيلية كانت من أهم العوامل التي أسهمت في إضعاف المسلمين والدعوة الإسلامية ودعاة الإسلام وزيادة الفرقة بينهم وتدهورهم تدهوراً كاملاً سهل على المغول مهمة القضاء عليهم في الوقت المناسب[2].

2 ـ **الخلافة العباسية:** كانت علامات الضعف قد ظهرت على الخلافة العباسية في بغداد قبل ظهور خطر المغول، وهذا الضعف كانت له جذوره العميقة التي بدأت منذ سيطرة العناصر الفارسية بمنصب الوزارة في الخلافة العباسية، الأمر الذي أظهر خلافاً بين العرب والفرس وما تلى ذلك من أحداث أدت إلى دخول العناصر التركية إلى السلطة في بغداد، وبذلك أصبح يتطلع إلى السلطة ثلاثة عناصر، هي العرب والفرس والأتراك، وقد نتج عن هذا كله طمع حكام بني بويه ـ الذين أقاموا دولتهم في جنوب غربي إيران في السلطة وكان لهم ما أرادوا حيث نجحوا في السيطرة على الخليفة في بغداد، وقد استأثر حكامهم بالسلطة، واتخذوا لقب السلطان وطغى نفوذهم على نفوذ الخلفاء العباسيين وكان بوسعهم إلغاء الخلافة العباسية تماماً، ولكنهم لم يقدموا على

(1) الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية، ص: 25 ـ 26.

(2) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 55.

هذه الخطوة خشية العالم الإسلامي السني، لأن دولة بني بويه كانت من طائفة الشيعة، وكان لهذا كله أثره الكبير على هيبة الخلفاء العباسيين وبدأ حكام الولايات في الاستقلال، بولاياتهم، والاكتفاء بالولاء الأسمى للخلافة العباسية، ومن هنا تمزقت الروابط القوية التي تربط الخلافة بتلك الولايات، ومع هذه الحركات الاستقلالية أو الانفصالية بدأت ملامح فساد الإدارة داخل الخلافة، الأمر الذي أدى إلى محاولة البعض الانفراد بالسلطة وتعرضت الخلافة العباسية، لسيطرة الأتراك السلاجقة ـ بعد أن أزالوا النفوذ البويهي من بغداد ـ وهم مسلمون من السنة، وقد سيطر هؤلاء على الخلافة واتخذ حكامهم لقب سلطان وعرف حكامهم الأوائل باسم السلاطين العظام، وبقي الخليفة في بغداد أو بالأحرى في قصره لا حول له ولا قوة، وتصرف هؤلاء السلاطين في الأراضي والمدن ومنحوها إقطاعيات للأمراء وذوي الشأن، وعندما انهار سلطان السلاجقة العظام كانت أعالي الفرات وشمال الشام ثم جنوبه دويلات لا تتعدى المدينة وما حولها، عمل الزنكيون على توحيدها ودخلت في صراع مع الدولة الفاطمية بمصر، وانفصلت أقاليم الدولة عن الحكومة المركزية في بغداد وأصبحت عاجزة عسكرياً عن مواجهة أي غزو عسكري ولم يكن الخطر المغولي كأي خطر عادي[1]، هذه هي أوضاع الخلافة قبل الحروب التي شنها المغول على البلاد الإسلامية، ولا يمنع هذا من ظهور خليفة قوي تساعده بعض الظروف على القيام ببعض الإصلاحات، ولكنها صحوات تشبه صحوات الذي يعاني سكرات الموت[2]، ولم يكن بوسع الخليفة المستعصم (640 ـ 656هـ 1242 ـ 1258م) آخر خلفاء بني العباس، وهو الرجل الضعيف الذي سيطر عليه رجال السوء أن يفعل شيئاً ضد هذا الخطر الجارف[3].

3 ـ الأيوبيون في مصر والشام: بعد أن توفي صلاح الدين (سنة 589هـ/ 1193م) تفككت أملاكه، ووزعت بين أبناء البيت الأيوبي ذلك لأنهم اعتبروا مملكته تركة خاصة وقد قسمت إلى خمسة عشر قسماً، تزيد وتنقص حسب نتيجة المعارك التي كانوا يخوضونها ضد بعضهم بعضاً، أو ضد أعدائهم، إذ ما لبثت عوامل الانقسام والشقاق أن دبت بين أبناء صلاح الدين أنفسهم وانتهز الملك العادل تلك الفرصة، ورأى أن يجمع هذا الشتات تحت إمرته فلم يتردد في فرض سلطانه على مصر إلى

(1) المغول والأوروبيون والصليبيون وقضية القدس، ص: 18.

(2) العالم الإسلامي والغزو الصليبي، ص: 57.

(3) المغول والأوروبيون والصليبيون، ص: 18.

جانب أملاكه في الشام، وهكذا لم يمض على وفاة «صلاح الدين» سوى سبع سنوات حتى طوى «العادل» معظم أولئك الأبناء فقد قال: إنه قبيح بي أن أكون أتابك صبي مع الشيخوخة والتقدم، والملك ليس هو بالإرث وإنما هو لمن غلب[1]، ورغم كل ذلك فإن «العادل» لم يستطع أن يسيطر على كل ما تركه صلاح الدين، بل ظلت الدولة مقسمة إلى سبعة أقسام وكثيراً ما استقل بعضها استقلالاً تاماً عن مصر، وخضع لها البعض الآخر خضوعاً اسمياً، وكثيراً ما كان يحتدم النزاع بين حكام هذه البلاد فيستعين الواحد منهم على الآخر، بعدو ثالث، بل وصل الأمر إلى استعانة بعضهم بالصليبيين على أقاربهم من الأيوبيين[2]، وعلى هذا فإن بلاد الشام أيضاً كانت في حالة من الانقسام والحزازات والتباغض والشحناء أشد مما كانت عليه إيران، وخراسان والعراق، أضف إلى ذلك أن هذه البلاد كانت قد وصلت إلى حالة شديدة من الضعف نتيجة للحروب الصليبية التي خاضتها لمدة قرن من الزمان، لصد تلك الحملات، فلما شن «المغول» غاراتهم المدمرة على البلاد الإسلامية كان من الطبيعي أن يقف حكام تلك المناطق في حالة عجز تام عن مد يد العون لإخوانهم في الشرق، وكل ما فعلوه أنهم وقفوا يرقبون المعركة في غير اهتمام ولا بعد نظر منتظرين ما سيحل به[3]، كما أن سلاجقة الروم المسلمين كانوا في نزاع دائم مع الدولة البيزنطية ثم مع الصليبيين، فهم أول من تصدى للحملة الصليبية الأولى من القوى الإسلامية، كما أن حكام هذه الدولة كانوا في نزاع مستمر مع غيرهم من السلاطين المسلمين، ومن هذا العرض السريع يمكننا أن نتوقع النتيجة الحتمية للمعركة القادمة التي ستنشب بين المسلمين من ناحية وبين القبائل المغولية من ناحية أخرى[4]، ومن أراد التوسع فليراجع كتبي عن دولة السلاجقة وعصر الدولة الزنكية، وصلاح الدين، والحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة.

4 ـ انتشار الموبقات في العالم الإسلامي: قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء، الآية: 16] ومن الموبقات التي انتشرت في العالم الإسلامي في ذلك العهد:

---

(1) السلوك لمعرفة السلوك (1 ـ 155).

(2) العالم الإسلامي والغزو الصليبي، ص: 61.

(3) المصدر نفسه، ص: 61.

(4) المصدر نفسه، ص: 62.

أ ـ الخمر: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ۝٩١﴾ [المائدة، الآيتان ٩٠، ٩١] قالوا: انتهينا يا رب، وقام كل واحد منهم إلى ما عنده من الخمر، وسكبها فجرت في سكك المدينة[1]. وقد انتشر شرب الخمر بين الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة وعلية القوم، وبعض عامة الناس في تلك الفترة، وكان الذين يشتغلون في الحانات ـ رجالاً ونساءً ـ من غير المسلمين بل المشرفون عليها كانوا من اليهود والنصارى، وكانوا حريصين جداً على نشر هذه الآفات في المجتمع الإسلامي، ونشر الشعر الذي يدعو إلى الخلاعة وتلحينه وغنائه، ونشر الشراب ودفع الشباب إلى التفتيش عن المرأة وجمالها ووصلها، ذلك لأنهم يعلمون أن هذه هي أقصر الطرق إلى تسهيل القضاء على المسلمين وذلك بتحطيم المجتمع الإسلامي من الداخل وذلك بدفع الشباب المسلم إلى إشباع البطن والفرج وحصر تفكيره ونشاطه في ذلك، وكانت الحانات مملوءة بالجواري الفاتنات، وغالباً ما كن أجنبيات من أجناس مختلفة، والشباب والشعراء يأتون إليهن، وكن يعرضن أنفسهن على الشباب والشعراء، بلا تحفظ، وبلا حشمة أو كرامة، وكن يتفنن في الحيل التي يجذبن بها الشباب، ويستكثرن من العشاق بطرق غير مستقيمة، فكن سبباً في كثير من الفجور والمجون وكل شيء حولهن يدفعهن إلى هذا السلوك الآثم[2].

وفي سبيل القضاء على الدعوة الإسلامية وتحطيم الإسلام في نفوس المسلمين حوّل بعض النصارى أديرتهم إلى دور للعبث واللهو الماجن، وساعدهم على ذلك ما كانت تحويه تلك الأديرة من خمور معتقة تقدمها لروادها، وكانت هذه الأديرة متناثرة في ضواحي بغداد وسامراء وفي طول البلاد الإسلامية وفي عرضها، فأكثر الشعراء والشباب من الاختلاف إليها طلباً للخمر والمجون، وأكثروا من التغني بها ووصف متاعهم بخمورها ونشوتها وسقاتها من الرهبان والراهبات، حتى لقد أُلفت الكتب في ذلك مثل كتاب «الديارات» «للشباشتي» وهو يكتظ بأشعار ابن المعتز وغيره، وكان لكل دير عيد تقريباً يخرج فيه الناس

(1) تفسير ابن كثير، لسورة المائدة الآيتان 90 ـ 91.

(2) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 69.

للهو والمجون، وكان هذه الأديرة تستغل أعياد النصارى لدعوة شباب المسلمين وتسهيل وصولهم إلى الموبقات، ومن تلك الأعياد «عيد الميلاد» الذي كان يكثرون فيه إيقاد الشموع والنيران ومنها عيد «الشعانين» أو عيد «الزيتونة»، وكان يقام في «أكتوبر» عيد للقديسة «أشموني» في «قُطرَبُّلْ» وهي قرية في شمال بغداد كانت أشبه بحانة للخمارين، وكان الناس يذهبون من بغداد وسامراء إلى هذا العيد عن طريق الدواب براً، والسفن في دجلة بحراً متنافسين فيما يظهرونه هناك من زيهم، وزينتهم، ومباهين بما يعدونه لقصفهم، وكان يضربون في شط القرية وديرها وحاناتها وأكنافها الخيم والفساطيط، وتعزف عليهم القيال، وهم يحتسون كؤوس الخمر، وبالمثل كانوا يسمعون في عيد «الزندورد» بالجانب الشرقي لبغداد[1]. بالإضافة إلى أعياد النصرانية التي كانت تقام فيها الحفلات الماجنة الداعرة أحيا الفرس أعيادهم القديمة، وأخذوا يحتفلون بها ويقدمون من الخمور والمأكولات ما لا يتصوره عقل[2]، ومنها «عيد النيروز» في أول الربيع وهو للسنة الفارسية «وعيد المهرجان» في أول الشتاء، ولا شك في أن كل ما ذكرناه أعد لانتشار المجون والخلاعة في «بغداد» «وسامراء»، بل وفي كثير من البلاد الإسلامية، إذ كانت الخمر منتشرة انتشاراً كبيراً ومعها القيان المبتذلات وعمَّ تبعاً لذلك الشعر الصريح بل المفرط في الإباحية وفي التعبير عن الغرائز الجسدية التي تدفع الشباب إلى الجري إلى إشباع غرائزهم تاركاً واجبه نحو الدعوة الإسلامية، والثغرة التي هو عليها ليؤتى الإسلام من ناحيته، فإنا لله وإنا إليه راجعون[3].

ب - **الجواري والنساء**: عن أبي سعيد الخضري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**[4]». لقد انتشر الرقيق في المجتمع، فقد كان موجوداً في كل مكان، في القصور والأكواخ والمصانع والمزارع، وكان منهم الزنجي الأفريقي والحبشي والتركي والصقلي ومنهم الصيني، والخرساني والأرمني، والبربري، فكان المجتمع الإسلامي في تلك

(1) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 69.
(2) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، د. شوقي، ص: 95.
(3) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 70.
(4) مختصر صحيح مسلم للحافظ المنزري (2/ 310).

الفترة يجمع كل الأجناس. وقلد المسلمون الشعوب الأخرى فشاركوهم في تجارة الرقيق وخرجوا بها عن حدودها الشرعية، فبنوا لها في كل مدينة كبيرة سوقاً خاصة يقوم على مراقبتها موظف يسمى «قيم الرقيق»[1]. وقد انتشر الخصيان في المجتمع الإسلامي انتشاراً سريعاً مع أن الإسلام حرم الخصاء تحريماً قاطعاً، فكان العبيد يخصون خارج حدود الدولة الإسلامية ثم يجلبون ويباعون في أسواق الرقيق في بغداد، وغيرها من المدن الإسلامية، وكان عدد الجواري والإماء في البيوت والقصور أكثر من الخصيان والرجال الأرقاء، وكان كثير من الرجال يفضلونهن على الحرائر اللواتي كانوا يتزوجون بهن وهم لا يعرفونهن، بخلاف الجواري اللائي كن معروضات لهم في الأسواق وبيوت النخاسين، فكانوا يختارونهن على حسب وقوعهن في نفوسهم، ومن أجل ذلك كان يندر تزوجهم بأكثر من واحدة من الحرائر، فقد كفاهم اتخاذ الإماء هذا التعدد، فأقبلوا عليه إقبالاً كبيراً متخذين من الخلفاء والأمراء قدوة لهم، بل كانت أمهات عدد من الخلفاء أمهات أولاد[2]، خاصة التركيات، والروميات، وكن يتدخلن في شؤون الحكم[3]، وكان الناس يغدون ويروحون إلى سوق الرقيق، ودور النخاسين يتفرجون على الوافدات الجديدات من الجواري الحسان، وكثيراً ما كانوا يحملون معهم الهدايا للجواري، وللنخاسين، وكان هذا يكلفهم كثيراً من الأموال وكانت الجواري يظهرن حبهن الشديد لهؤلاء الزوار وكلفهن بهم، وحزنهن لفراقهم أو لتأخرهم في الزيارة، وربما زودت الواحدة منهن من تظهر له الحب بخصلة من شعرها أو قطعة من ثيابها[4]، وكان النخاسون في سبيل الحصول على المال والهدايا ـ يتغافلون عن سفاهة بعض الزوار الذين كانت تمتد أيديهم للعبث بأجسادهن خاصة إذا كُن راضيات عن ذلك[5].

ج ـ **انتشار الغناء والطرب**: وكان للجواري في ذلك الجو المشبع بالموسيقى والغناء أثر كبير في شيوع الخلاعة والانحلال الخلقي بين الشباب، وكثير من الشيوخ،

---

(1) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، ص: 71.

(2) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 73.

(3) المصدر نفسه، ص: 73.

(4) المصدر نفسه، ص: 74.

(5) المصدر نفسه، ص: 74.

ومُجّات الشعراء، إذ أصبحت قلوبهم مشغولة باللهو والطرب، والسعي وراء إشباع الغرائز، كما انتشر في العصر العباسي الثاني حب الغلمان والغزل بهم، واتخاذهم بدل الخليلات، وقد انتشرت هذه الموبقات بين قادة الجيش والسلاطين وقد قال أحدهم عن غلامه: ضياع هذا الغلام مني أشد عليَّ من أخذ بغداد من يدي، بل أرض العراق كلها[1]، وكان أحدهم يقبل «المردان» من غير ريبة أو خجل[2]، وكانت تقام الحفلات والسهرات، للغناء والطرب وكان إذا طرب الملك أو السلطان أعطى عطاء لا يتصور[3]، وكان للزانيات والفساق بيوت تكاد تكون معروفة للجميع، وتنتشر في بغداد وغيرها من البلاد الإسلامية الكبيرة وكان يردها عدد كبير من الناس يقتلون فيها ثروتهم وأعمارهم غير مبالين بدين ولا هيابين من سلطة، ولم لا؟ والناس على دين ملوكهم[4]. ولم يقتصر الفساد على الجواري والغلمان بل تعداه في أوقات كثيرة إلى الحرائر، ولا شك في ذلك فقد قال رسول الله ﷺ: «عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم» وكاد زمان آخر الخلفاء العباسيين ينقضي أكثره في سماع الأغاني ومما اشتهر عنه أنه كتب إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه جماعة من ذوي الطرب وفي نفس الوقت وصل رسول «هولاكو» إلى صاحب الموصل نفسه يطلب منه منجنيقات، وآلات حصار، فقال بدر الدين: انظروا إلى المطلوبين، وابكوا على الإسلام وأهله[5].

ولا يعني هذا أن المجتمع الإسلامي كله انقلب إلى مجتمع فاسد بعيد عن الإسلام، فقد كان المجتمع مجتمعاً إسلامياً وكانت طبقة العامة فيه ـ التي تمثل الأغلبية ـ حسنة الإسلام تتمسك بفرائضه وسننه، وشعائره، ولم تكن تعرف الترف ولا ما يجر إليه من مجون وانحلال وفساد في الأخلاق، إنما كانت تعرف الشظف والبؤس والحرمان، وكانت ساخطة سخطاً شديداً على المجّان والمنحلين. وكان المؤمنون يعمرون مساجد الله، وكان الدعاة إلى الله لا يزالون يُذكّرون الناس بالله واليوم الآخر وأنهم معروضون

---

(1) البداية والنهاية (11/ 291)، العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 75.
(2) البداية والنهاية (11/ 291)، العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 75.
(3) المصدر نفسه، ص: 75.
(4) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 75، نقلاً عن: البداية والنهاية.
(5) الفخري في الآداب السلطانية، ص: 290، العالم الإسلامي للخالدي، ص: 76.

يوم الحساب، فإما الجنة والنعيم وإما النار والجحيم. ونشأت في تلك الفترة طبقة من الزهاد، عاشوا معيشة كلها شظف وتقشف وتبتل وعبادة، ولا يخلو الفساد في عامة الناس ولكن الطبقة الفاسدة المترفة هي التي كانت تقود الأمة وتمسك بزمامها فقادتها إلى محاربة الفضيلة ونشر الرذيلة، تحقيقاً لرغبات هؤلاء المترفين وإرضاء لشهواتهم. ثم سيطرت طبقة (العسكر) على أمور الناس فقادوهم إلى محاربة بعضهم بعضاً وصولاً إلى الحكم، ولتوسيع رقعة الأرض التي تحت أيديهم، فأضعفت هذه التصرفات الغبية الأمة الإسلامية وجعلتها هشة ضعيفة خائرة مثل بيت العنكبوت، فانهارت تحت ضربات أعدائها المتربصين بها من كل جانب[1]، كما سنبين بإذن الله في الصفحات القادمة.

المبحث الثاني:
ظهور جنكيز خان على مسرح الأحداث

أولاً: نشأته وتربيته:

ولد جنكيز خان على نهر «أوتون» (سنة 1155م)، وفقاً لروايات كثير من المؤرخين، وهناك من يرى أنه ولد عام 1167م، وكان أبوه يسوكاي غائباً وقت ولادته، إذ كان يقاتل التتار، وقد صرع زعيم لهم اسمه تيموجين، وعاد يسوكاي مظفراً إلى منزله، فلقي مفاجأة سعيدة بأن زوجته، يولون، أنجبت له ابناً، وحينما فحص الطفل، لحظ بأن بداخل قبضة يده قطعة من الدم المتجمد، كأنها حجر أحمر، فتراءى للزعيم المغولي الذي يؤمن بالأساطير أن هذا الحدث يشير إلى ما أحرزه من انتصار على زعيم التتار، ولذا أطلق على ابنه اسم هذا الزعيم تخليداً لانتصاره، ولما بلغ تيموجين التاسعة من عمره صحبه أبوه يسوكاي لزيارة أخواله فالتقى أثناء الرحلة بأحد زعماء المغول القنقراد، فتنبأ لتيموجين بمستقبل باهر، وحرص على أن يزوجه من ابنته، بورتة، التي لم تتجاوز وقت ذاك العاشرة من عمرها، ولم يلبث يسوكاي أن مات أثناء عودته إلى دياره، وترددت الشائعات أن التتار دسوا له السم فمات (سنة 1176م)[2].

1 ـ كفاح والدة جنكيز خان: ساءت أحوال أرملة يسوكاي وأطفاله بعد وفاته، فالمعروف أن يسوكاي استطاع أواخر أيامه أن يجمع تحت سلطانه عدداً من القبائل

---

(1) العالم الإسلامي والغزو الصليبي، ص: 76.

(2) المغول، للعريني، ص: 44.

الموالية، فضلاً عن قبيلة قيات التي يتولى زعامتها، ولم تلبث أحقاد خصومه بسبب ما أحرزه من انتصارات أن انطلقت بعد وفاته، وكان من أشد القبائل عداوة وضراوة قبيلة التايجوت، التي أنكرت على تيموجين الزعامة، ولما احتج عليهم، أجاب العصاة المتمردون: إن أشد الآبار عمقاً قد يصيبها الجفاف، وإن أشد الحجارة صلابة قد تنكسر، فلماذا نتعلق بك؟

لذلك كان لزاماً على زوجة يسوكاي أن تبذل كل ما تستطيع من جهد لتحصل على الزاد الضروري لأفراد أسرتها، فصارت تلتقط لهم الثمار، وما ينبت بالأرض من ثمار، ولم يطرق اليأس إلى قلوب أفراد هذه الأسرة، وأكبرهم لا زال حدثاً صغير السن، ومع ذلك فإن هذه الجماعة احتفظت بما اشتهرت به قبيلتهم من الحماس والنشاط والصبر على تحمل المتاعب، فأخذ الصبيان يصيدون من نهر أنون ما يلزم لإعاشتهم، وحرصت يولون على أن تتوطد المودة بين أفراد الأسرة، فلما وقع الخصام بين أبناء يسوكاي الأشقاء وغير الأشقاء، وأسفر هذا الشقاق عن مصرع بكتار، ابن يسوكاي من زوجة أخرى، انفجرت يولون في وجه ولديها تيموجين وقسار، اللذين تسببا في هذا الحادث وقالت لهما: أيها القتلة، فحينما ولدت يا تيموجين كنت تقبض على قطعة دمٍ متجمدة، لستم إلا نمرة تنقض على فريستها، ولستم إلا كالأسد الغاضبة، ولستم إلا كالبزاة تحلق في الجوزاء فوق ظلالها، وكالإبل تقضم في أثناء غضبها أبنائها، وكالذئاب التي تنقض على فريستها في غمرة العاصفة، فليس لدينا، فيما عدا ظلالنا، رفاق، وما تعرضنا له من الشرور على أيدي التايجوت، بلغ من العنف ما لا نستطيع تحمله، فلا بد من الانتقام منهم.

وتعرض تيموجين وإخوته وأمه لغارات التايجوت، الذين حرصوا على إذلالهم، فلم يسع تيموجين وأسرته إلا أن ينتقلوا بمعسكرهم إلى جبال بروقان كالدون، ثمّ إلى جبل كنتاي، الذي كان له من القداسة عندهم، ما حمل تيموجين على الاعتقاد بأنه هو الذي حماه وعصمه من الأعداء[1]، ولم يتخل البؤس عن تيموجين وإخوته، فكل ما كانوا يملكون لم يتجاوز تسع أفراس، وقع منها ثمانٍ في أيدي المغيرين دفعة واحدة[2].

2 ـ **تيموجين يطارد اللصوص:** أصر تيموجين على أن يطارد اللصوص، حتى التقى بعد أربعة أيام بغلام تبدو عليه سمات النبل، اسمه بورتشو، أحس بالميل والعاطفة نحو تيموجين، فاشترك معه في البحث عن الأفراس، حتى عثرا عليها فساقاها

---

(1) المغول، للعريني، ص: 45.

(2) المصدر نفسه، ص: 46.

بعد أن أظهرت براعة تيموجين في مراماة أعدائه وإجبارهم على أن يتخلوا عن اللحاق به، وكان من أثر هذه المغامرة أن توطدت الصلة بين تيموجين وبورتشو، وكانت بداية طيبة لأمجاد بورتشو المقبلة، ونستطيع أن نستخلص من هذه الأفعال ما كان لتيموجين من الطباع والصفات، فما يبهرنا فعلاً، ما كان له من شخصية بلغت من القوة أنها فرضت نفسها على كل من تلتقي به، فمنذ هذه اللحظة انجذب إليه بورتشو، وربط مصيره بمصير تيموجين، وسوف نلحظ ما يشبه ذلك، حينما انحازت إلى تيموجين القبائل الواحدة بعد الأخرى، وقد جذبتها مواهبه في القيادة وإحساسه بالعدالة وإخلاصه لأصدقائه واعترافه بما يؤدي له من خدمات، أضحت محبته لأصدقائه الأوائل مضرب الأمثال، ومن طباع سكان الخيام، المحبة الشديدة للأصدقاء التي لا يضارعها إلا الكراهية البالغة للخصوم[1]. ومن الدروس والعبر:

إن الزعماء يمرون بظروف قاسية تظهر حقيقة معدنهم ويتعلمون من أحداث الزمان ويتربون على تحمل المشاق، ومن أهم صفات قادة الأمم والشعوب والدول: الشجاعة والإقدام وإجادة المهارات اللازمة، مع شخصية كارزمية متفوقة على من حولها، مع الترفع عن المصالح الذاتية من أجل الصالح العام، ولا يخلو الزعيم من أخلاق يأسر بها الأتباع مع طموح كبير وإصرار لتحقيق الهدف.

3 ـ زواج تيموجين وبذله يمين الولاء لزعيم الكرايت: أنجز تيموجين من الأعمال، ما جعله يفكر بعدها في الزواج، ولا سيما أن أباه عقد له خطبة على بورتة ابنة زعيم القنقرات النازلين على نهر كيرولين، وزاد في فرح صهره وسروره ما أصبح عليه تيموجين من متانة البناء والقوة، ولم يلبث أن انتقل تيموجين وزوجته وسائر أفراد أسرته إلى منبع نهر كيرولين، وارتفع شأن تيموجين، بعد أن نجا من مؤامرات التايجوت وأضحى الرجل القوي الذي تنشده سائر القبائل، فصار في مقدوره أن يشترك في الأحوال السياسية، وأن يكون من البارزين من رجال المغول الذين يتنازعون السيطرة على شرق منغوليا وما اشتهر به تيموجين من روح عملية، أثارت فيه الميل إلى السلطان، وحملته على أن يفكر في الإفادة من مركز قوي، بأن يعقد معاهدات واتفاقيات خارج قبيلته، وإذ أسهم أبوه يسوكاي في توطيد مركز زعيم الكرايت، حتى صار من أقوى ملوك الأستبس.

(1) المغول، للعريني، ص: 46.

حرص تيموجين على أن يسير على نهج أبيه، فتوجه إلى حيث ينزل طغرل على نهر تولا، وبذل له يمين الولاء بأن يكون من أتباعه وخاطبه:سبق أن توطدت أواصر المحبة بينك وبين أبي، فأنت الآن في مقام أبي.

وارتاح طغرل لهذه التبعية، ووعد بأن يساعده بأن يجتمع تحت زعامة تيموجين، من جديد، سائر رجال العشيرة الذين هجروا منزله أثناء حداثة سنه. والواقع أن أحوال تيموجين أخذت تستقر، وذاع أمره، وسعى الناس من القبائل المختلفة لكسب صداقته، فصار جيلمي، الذي تقدم به أبوه لأن يكون خادماً له، من أخلص الرفاق، شأنه في ذلك شأن بورتشو، وبفضل نصائح طغرل ملك الكرايت، والذي دان له تيموجين بالتبعية، انحاز إليه زعيم مغولي آخر، اسمه جاموكا، رئيس قبيلة جاجيرات، فقام بهما من المحبة والود ما جعل منهما أخوين، غير أن النزاع لم يلبث أن دب بينهما، فانفرط عقد التحالف، وانحاز إلى كل منهما جماعة من الموالين له، وإذ جرى التنبؤ بأن زعامة القوم سوف تؤول إلى تيموجين، ازداد انحياز القبائل والعشائر إلى جانبه، ومن الذين انحازوا إليه، أربعة أمراء من المغول يجري في عروقهم الدم الملكي بعد أن انفصلوا عن جاموكا[1].

ثانياً: اختيار تيموجين خاناً على المغول: اجتمع الأمراء الأربعة وتشاوروا بينهم، واستقر أمرهم باعتبارهم يمثلون أقدم الأسرات الملكية، وأعرقهم نسباً، على أن يختاروا تيموجين خاناً على المغول، والمعروف أن تيموجين ينتمي إلى هذه الأسرة، غير أنه لم يكن له من الحقوق في ولاية الحكم، ما يفوق حقوق ألتاي الذي كان ابن قوتولا، آخر حاقان للمغول. ومع ذلك فإن ما كان من ولاء وإخلاص بين تيموجين وبين هؤلاء الأمراء تمثل فيما جرت به الرواية من أنهم خاطبوه: لقد قررنا بأن ننادي بك خاناً، وسوف نكون في المقدمة عند خوض المعارك ضد عدد لا حصر له من الأعداء، فما نسبيه من النساء الجميلات، والفتيات الحسناوات، وما يقع من أيدينا من الجياد الأصيلة، سوف نبذله لك، وما نحصل عليه من الصيد، سوف نجعله لك فإذا حدث أن عصينا أوامرك أثناء الحرب أو برمنا بك أثناء السلم، فلتفرق بيننا وبين زوجاتنا وتنتزع منا متاعنا، ولتهجرنا ولتجعلنا منبوذين.

وقد التزموا هذا القرار، واختاروا تيموجين خاناً وأطلقوا عليه اسم جنكيز خان، والواقع أن ما حدث من اختيار جنكيز خان ليتولى الحكم، وهو الانتخاب الذي اشترك

---

(1) المغول، للعريني، ص: 46.

فيه ألتاي ابن قوتولة، والأمراء الذين يمثلون الأسر الملكية السابقة ولم يكن له غرض منه سوى وقف ما حدث من تشتت العشائر، والقبائل المغولية وإعادة السيادة إلى أسرة قيات، وترقب الفرصة المواتية للانتقام من التتار، فاختار أقاربه وبنو عمومته، لما لمسوه فيه من أنه زعيم في الحرب والصيد، وما اشتهر به الخان الجديد من العبقرية في التنظيم والشدة في التزام النظام يعتبر من أهم صفاته[1]، وكانت الأخلاق القيادية بارزة في جنكيز خان، كالمكر، والدهاء وسعة الحيلة، والكرم والوفاء لأصدقائه المخلصين، وممارسة الشورى مع من حوله من القادة المعاونين.

1 ـ حروب جنكيز خان وبداية توحيد القبائل تحت زعامته: حرص جنكيز خان على أن يوزع بين أنصاره الموالين له الوظائف الأساسية الحربية والمدنية، فجعل من أقرب الناس إليه، وأشهرهم في الرماية حرساً خاصاً له، وخص آخرين بأمر توفير المؤن والسقاية وإعداد العربات، والتماس المراعي، والإشراف على الخدام، ورياضة الخيل، ونقل الأوامر الملكية والمحافظة على النظام عند انعقاد مجلس أعيان القبيلة (قوريلتاي) ولم ينس أمور بورتشو وجيلمي، فمن المأثور عن جنكيز خان أنه قال: إنني لا أنسى أنكما كنتما رفيقي حينما لم يكن لي رفاق، ولذا جعلت لكما الرياسة على جميع هؤلاء، ثم وجه الخطاب إلى رعاياه، إنكم جميعاً تخليتم عن جاموكا، وحرصتم على الانحياز إلى جانبي، فأنتم جميعاً يا أصدقائي القدامى، خير رفاق لي في المستقبل[2].

وقام جنكيز خان بإرسال الرسل إلى رؤساء القبائل القوية المجاورة، يخبرهم بأنه قد نُصِّب أميراً على القبائل التي قبلت به وكان أول من راسلهم طغرل[3] خان صديق والده بالأُخُوة و«جاموكا» صديقه بالأخوة، كان جواب الأول الموافقة والتأييد، وجواب الثاني الاستهزاء والغضب، حسداً لجنكيز خان وغيرة منه بعد أن أصبح جنكيز خان أميراً.

وزادت قوته، وأخذ خصومه ينصبون له العداء حسداً له، فلم ينتقل «جنكيز خان» إلا بأسلوب القتال، فعندما ينتقل بعشيرته من مراعيها الصيفية إلى مراعيها الشتوية يتخذ

---

(1) المغول، للعريني، ص: 49.

(2) المغول، للعريني، ص: 39.

(3) كان من عادة أشراف المغول أن ينتخب أحدهم صديقاً له يؤاخيه وكانوا يطلقون على هذا الأخ اسم «آندا» ومعنى هذه الأخوة أن يصبح الاثنان كشخص واحد ويضحي أحدهما بحياته في سبيل الآخر.

تشكيل القتال، فيقسم قوته إلى أقسام أربعة: المقدمة، المجنبة، والمؤخرة، وفي وسطهم تسير الماشية وعربات العائلات[1].

أ ـ معركة العجلات: في إحدى المرات، وبعد مسيرة طويلة بالطريقة الآنفة الذكر، أخبرت الكشافة التي أمام المقدمة بوجود غبار كثيف في الأفق ينحدر بسرعة وإذا بقبيلة «تيدجون» المؤلفة من ثلاثين ألف يقودهم «تارجو تاي» قرر «جنكيز خان» القتال فوراً وكانت قوات «جنكيز خان» المحاربة تتألف من الخيالة فقط، وهي على نوعين:

ـ **الخيالة الثقيلة:** يرتدي رجالها الدروع الحديدية والخوذ الفولاذية وخيولهم مكسية بوشاح من الجلد المدبوغ السميك، وكان سلاحهم الرماح وترساً صغيرة، يتقون بها ضربات الأعداء.

ـ **الخيالة الخفيفة:** يكسو رجالها وخيولها دروع من الجلد المدبوغ فقط، وكانت خيول هذا الصنف من الضامرات خيول السباق، وكان سلاحهم القسي والنبال. وكان تسليح العدو وتجهيزاته شبيهة بما لدى جنكيز خان.

قسم جنكيز خان رجاله إلى سرايا، وكل سرية من ألف محارب، منظمين بعشرة صفوف، في كل صف مائة محارب، أما (تارجو تاي) فقد تقدم بسراياه وكل سرية تتألف من خمسمائة محارب منظمين بخمسة صفوف، في كل صف مائة محارب، وكان الصفان الأولان من الخيالة الثقيلة، والصفوف الثلاثة الأخيرة من الخيالة الخفيفة[2].

أسند «جنكيز خان» جناحه الأيمن إلى غابة كثيفة كانت في ميدان القتال، وجمع جميع العجلات التي تركبها نساؤهم وتحمل أمتعتهم، وشكل منهم مربعاً كبيراً، أسند إليه في جناحه الأيسر ووضع النساء والأطفال في العجلات، تاركاً أمر حراستهم لصبيان القبيلة، بعد أن سلحهم بالقسي والنبال، ووضع الخيالة الخفيفة في الأمام، عكس عدوه وجعل الخيالة الثقيلة في الخلف[3].

هجمت خيالة «تارجو تاي» الثقيلة على خيالة «جنكيز خان» الخفيفة فاستقبلتها هذه برشقات هائلة من سهامها، وأوقعت فيها الهلاك والدمار ولم تنجح هذه الخيالة في اختراق صفوف «جنكيز خان» لأن عمقها كان عشرة صفوف، ففشل هجومها وحاولت

(1) الغزو المغولي لديار الإسلام، الفريق ركن د. محمد فتحي أمين، ص: 39.

(2) الغزو المغولي لديار الإسلام، ص: 40.

(3) المصدر نفسه، ص: 41.

الخيالة الخفيفة إصلاح هذا الفشل، فتغلغلت بين صفوف الخيالة الثقيلة المعادية المتقدمة المكدسة أشلاؤها على الأرض، عندئذ أطلق «جنكيز خان» خيالته الثقيلة لمقابلتها، ففعل الرمح والسهم فعله في هذه الصفوف وكانت هزيمة الأعداء، لقد سميت هذه المعركة بمعركة العجلات[1]. وكانت هذه المعركة قاسية، دامت طيلة النهار، حتى حلول الظلام، انتصر فيها «جنكيز خان» وكان هذا الانتصار الأول له، وأصاب عدوه (5 ـ 6) آلاف قتيل، واقتيد إليه (70) رئيساً بسلاسل سيوفهم، وألقوا عند قدميه، وسيوفهم وكنانهم معلقة في رقابهم، ويذكر أن «جنكيز خان» أمر بقتل هؤلاء الـ 70 قتلة غريبة، وذلك بغليهم في القدور أحياء[2]. فافتتح بذلك إثارة الخوف والرعب في نفوس الخصوم، وصار ذلك من لوازم حكومته وترتب على هذا الصدام أن انصاعت لأوامر جنكيز خان القبائل التي تحالفت عليه[3].

ب ـ صراع التحالفات: اقتضت مصلحة «جنكيز خان» أن يتحالف مع طغرل خان وذلك للقضاء على التتار أعداء الاثنين، فنجح الاثنان في حربهما مع التتار وقضيا عليهم ولا سيما قبيلة المركيت، وجانب من قبائل النايمان والمعروف أن النايمان أضعفهم ما وقع من نزاع بين ملكهم «تايانك خان» وأخيه «بويوروف» الذي تعرض لهجوم جنكيز خان وطغرل وساعد على ذلك ما وقع من أحداث في منغوليا في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، أثارتها سياسة الحكومة الصينية فضلاً عن عوامل محلية، إذ انتهجت أسرة كين في الصين الشمالية السياسة التي درجت عليها أسرات صينية عديدة وهي سياسة الإيقاع بين القبائل وبين الزعماء، وحرص ملك الصين الشمالية على أن يتخذ من الكرايت والمغول حلفاء له، وفي (سنة 1194م) تقرر مصير الحرب لصالح الحلفاء، وعلى سبيل المكافأة حظي ملك الكرايت بلقب «وانج»، وظفر ابنه بترقية في سلك الجيش، بأن صار «سنجون»، وحاز جنكيز خان أيضاً لقباً من ألقاب التشريف، غير أنه لم يضارع في الرفعة الألقاب الأخرى، على أن القبائل التي أحست بالتهديد من جانب جنكيز خان، ألفت حلفاً، دخل فيه قبائل جاسيرات والمركيت والتايجيوت والقنقرات والتتار، ومن ملوكهم «توكتا» ملك المركيت و«جاموكا» ملك الجاسيرات، واتفق هؤلاء الحلفاء على أن يختاروا جاموكا كروخان إمبراطور على القبائل التركية

---

(1) سميت بذلك لأن جنكيز خان استخدم العجلات لحماية جناحه الأيسر المكشوف.

(2) الغزو المغولي لديار الإسلام، ص: 41.

(3) المغول، للعريني، ص: 50.

المغولية وذلك سنة 1201م، ولم يلبث الجيش الذي حشده جاموكا أن انهزم وتبدد سنة 1201 ـ 1202م، غير أن جاموكا نجح فيما بعد في اكتساب ثقة سنجون ووالده طغرل خان، وفي تحولهما عن حليفهما السابق جنكيز خان[1].

جـ ـ حرب جنكيز خان مع ملك كرايت: في (سنة 599هـ/ 1203م) كان المسيطر على قبائل الترك المشارقة (وانج خان) من قبيلة كرايت أو كريت أو القاريات التي تدين بالنصرانية، وكان جنكيز خان من غير قبيلته، ولكنه مؤيد له وملازم له منذ الطفولة، لم يرق انتصار جنكيز خان في عيون رؤساء قبائل الكرايت حلفائه فأضمروا له الشر سراً ووشوا عنه إلى وانج خان حتى اتهمه الأخير بالخيانة، وهم باعتقاله، وأرادوا قتله بزعامة «توكتابك بن طغرل بك»، و(جاموكا) عدو جنكيز خان اللدود. وفي مساء أحد الأيام، بينما كان جنكيز خان مع ستة آلاف من محاربيه تصحبهم العائلات معسكراً في أحد المناطق، أخبرته دورياته بأن قبائل الكرايت تتجمع، وتقترب من معسكرهم دلالة على عزمهم الهجوم ليلاً على المعسكر، وقرر جنكيز خان التملص من عدوه لأنه ضعيف تجاه خصمه من ناحيتي القوة والسرعة، لأن العائلات برفقته، تركب العجلات التي تسحبها الثيران، والعجلات التي تجرها الجمال، في هذا الوقت، انضم إلى جنكيز خان غلامان من خدم وانج خان، فأعلماه بالقضية وأن وانج خان يريد القبض عليه[2].

وضع جنكيز خان خُطَّته وطلب من قادته تنفيذها حرفياً بكلِّ دقة وهُدُوء وانتظام وكانت خطته:

أ ـ سحب الماشية والعائلات على أن تركب عجلات الجرِّ الخفيفة التي تجرُّها الجمال، وتسير إلى موضع مستور إلى خلف منطقة المعسكر بـ 12 كم.

ب ـ ترك الخيام منصوبة، والنار مضرمة فيها، والعجلات بثيرانها، كما لو كان المعسكر آهلاً.

ج ـ قيام «جنكيز خان» وجماعة بستر انسحاب الماشية والعائلات في صباح اليوم التَّالي، انحدرت قبائل الكرايت إلى معسكر جنكيز خان ولما رأوا المعسكر خالياً وأدواته فيه، اعتقدوا بأن جنكيز خان قد فرَّ برجاله وعائلاته خوفاً وفزعاً، ما جعلهم يتباطؤون في تعقبهم، كان جنكيز خان مُتخفياً مع رجاله وراء أرض مرتفعة، يفصلها عن أعدائه، نهر صغير، تاركاً أمر مراقبة الجبهة للخفراء، ولمَّا تقدَّمت خيَّالة «الكرايت»

(1) المغول، للعريني، ص: 51.

(2) الغزو المغولي لديار الإسلام، ص: 42.

الخفيفة منها تسبق الثقيلة، انقض «جنكيز خان» وجماعته ـ فجأة ـ عليهم وقتلوا جميع مقدِّمة العدوّ، وأبادوهم دون أن يكون للقسم الأكبر علم بذلك. وبعد مدة ظهر وانج خان وقادته يقودون القسم الأكبر من قوّاته وهكذا فقد دنت ساعة المعركة الحاسمة فوضع جنكيز خان خطَّته كالآتي:

أ ـ الهجوم على أعدائه قبل مهاجمتهم له.

ب ـ عدم القيام بهجوم جبهوي، لأنَّ أعداءه أقوى منه.

ج ـ الاستفادة من الأرض جهد الإمكان، لتلافي نقص العدد في هذه الأثناء. هجمت خيّالة العدوّ وأربكت «جنكيز خان» حيث استدعى أشجع قادته، وحامل لواء القبيلة(جلدار)، وكلَّفه بإحاطة جناح العدوّ الأيسر واحتلال تلّ«جويتا» الكائن خلف هذا الجناح، ونجح جلدار بحركته، مما أجبر قوَّة الكرايت على الانسحاب قليلاً، بينما كانوا في أوج هجومهم واستمر القتال حتى حلول الظلام، حيث قام جنكيز خان بهجوم عنيف ستر به انسحاب جلدار تحت جنح الظلام وانسحب «جنكيز خان» برجاله شرقاً، لعلمه بأنه لا يستطيع منازلة أعدائه صباح اليوم التّالي وهو بقوته هذه وبعد انسحاب جنكيز خان انقسمت جُوبي إلى معسكرين متنافسين:

أ ـ معسكر «وانج خان» ومن انضمّ إليه بعد انتصاره على جنكيز خان.

ب ـ معسكر جنكيز خان ومن توافد إليه لإسناده. وقرّر جنكيز خان إبادة خصمه، فجهَّز حملة قوية، وتقدَّم نحو معسكر وانج خان دون سابق إنذار، ولكي يتأكد من عدوِّه استخدم «الرَّتل الخامس» فأرسل أحد قادته المشهورين بصفة لاجئ، حاملاً معه أحد أعلام «جنكيز خان» لكي يتظاهر بأنه جاء لاجئاً، هَرَباً من سوء معاملة جنكيز خان له ولما وصل هذا الرسول إلى معسكر وانج خان لم يقتنع الأخير بادِّعاء الرّسول، فأراد التأكد من صحة المعلومات فأرسل معه عدداً من رجال خيالته لاستطلاع المنطقة من على قمم مشرفة بالقرب من معسكر وانج خان وعلى تل مشرف بجواره، أراد رسول جنكيز خان أن يعطي إشارة لسيده تدله على معسكر الأعداء ولما لم يتمكن من ذلك، ابتكر حيلة وطبقها بسرعة وهي: ركز علم جنكيز خان الذي استصحبه معه على قمة التل، ثم ترجل عن جواده، ماسكاً حافر حصانه بيده، ولما سئل عما يفعل، أجاب: أنه وجد حجراً في حافر حصانه، وقبل أن ينتهي هذا الرسول من رفع الحجر الموهوم من حافر حصانه كانت مقدمة جنكيز خان قد أطبقت على رجال وانج خان وأسرتهم،

ولم يعد رسل وانج خان[1] بنتيجة استطلاعه، بل جاءت خيول جنكيز خان على حين غرة، فأعملت السيوف في رقاب رجاله[2].

جرح وانج خان وابنه توكتا بك، وفرا هاربين، ونهبت العشيرة وسبي النساء ووقع جاموكا بيد جنكيز خان، فأمر بخنقه بخيوط من الحرير[3]، وقطعت أوصاله وأعضاء جسمه[4]، كما قتل وانج خان وابنه بعد فرارهما من قبل أتباعهما وأرسل رأس الأب بصفيحة من فضة هدية إلى جنكيز خان[5]، وبذلك انقرضت قبيلة القاربات، وأخذت القبائل الضعيفة منها والقوية على اختلاف أديانها تعرض الطاعة والإخلاص لسيد آسيا الجديد، جالبة معها كل ما لديها من آثار المدينة وخلاصة العلوم، وبعد هذا أنعم جنكيز خان على الغلامين اللذين أعلماه بهجوم وانج خان وذريتهم، فجعلهم (ترخانية) ـ أي أحرار ـ لا يكلفون بشيء من الحقوق السلطانية، وما يغنمونه من الغزوات تكون لهم بالكامل، ولا يأخذ منهما أي شيء للملك، كما أعطاهم الحق لدخولهم إلى الملوك بدون إذن، وعدم معاقبتهم على أي ذنب إلى تسعة ذنوب[6].

ومن الذين وقعوا في أسر جنكيز خان تاتأنجو، وهو من الأويغوريين وكان يعمل كاتباً لملك النايمان، فأدخله جنكيز خان في خدمته، وقرر استخدام الأويغورية، وتولى هذا الرجل تعليم هذه اللغة وكتابتها لأبناء جنكيز خان وأبناء الطبقة الراقية من المغول، وكان لهم نفوذ قوي على أكوتاي بن جنكيز خان وخليفته في الحكم[7].

ثالثاً: مملكتا النيمان وخضوعهما تحت سيطرة جنكيز خان:

كان النيمانيون يمثلون إحدى القوى الكبرى التي جابهت المغول في ظهورهم وبروزهم كقوة عالمية ذات إمبراطورية شملت معظم أراضي قارة آسيا وأجزاء كبيرة من أوروبا، والنيمان يرجعون في أصلهم إلى العنصر التركي، وقد كانت أراضي (النيمان)

(1) الغزو المغولي لديار الإسلام، ص: 45.
(2) الغزو المغولي لديار الإسلام، ص: 45
(3) المغول، للعريني، ص: 52.
(4) الغزو المغولي لديار الإسلام، ص: 45.
(5) المصدر نفسه، ص: 45.
(6) المصدر نفسه، ص: 45.
(7) المغول، للعريني، ص: 53.

قديماً تعد ضمن الحدود التقريبية التالية، حيث يحدها من الشمال أراضي قبائل (القرقيز)، كما تحدها من الجنوب ممتلكات قبائل (الأويغوريين)، أما حدودها من الشرق ملاصقة لأراضي قبائل (كرايت) و(المركيت)، أما من الناحية الغربية، فيحدها (القراخطائيون)، وكان ملوكهم أو خاناتهم يسمون (كوتشلوك خان)، وهي كلمة تعني العظيم، الجبار، القوي... إلخ، كما يخبرنا بذلك رشيد الدين، وأما طريقة حياتهم ونظام مجتمعهم، وعاداتهم وتقاليدهم فقد كانت شبيهة من المجتمعات المجاورة لها، كالمغول وغيرهم من القبائل البدوية الرعوية الأخرى[1].

وقد كانت دولة (النيمان) من أكبر الدول في وسط آسيا وذا سلطان واسع ويحكمها ملك واحد، إلا أنه في الوقت الذي ظهر فيه جنكيز خان، على رأس قبائل المغول، نجد أن المملكة النيمانية مقسمة إلى قسمين، شرقي وغربي، ويحكمها أخوين كل واحد مستقل عن الثاني، فكان (بويرون خان) يحكم مملكتهم الغربية، و(بيبوقاتايانك) يحكم المملكة الشرقية، ونظراً لمتاخمة الحدود الشرقية لمملكة (النيمان) الشرقي لحدود (كرايت) و(المركيت)، فقد كان من نتائج كارثة معركة (وركو) وقتل (أونك خان) أن أصبحت الأراضي (النيمانية) مفتوحة على مصراعيها أمام اللاجئين من قبيلة كرايت الهاربة من سيف جنكيز خان، فنتج عن ذلك تجدد الصراع بين جنكيز خان من ناحية وملكي (النيمان) الأخوين من ناحية أخرى، فقد انتهى ذلك الصراع الدامي المرير بزوال الدولتين (النيمانيتين) والقضاء بصورة نهائية على استقلالهما كقوتين مستقلتين في وسط قارة آسيا، فقد قتل الأخوين على التوالي، وامتصت إمبراطورية جنكيز خان الشابة الناهضة المملكتين والتهمت أراضيهما لتصبح جزءاً لا يتجزأ من أراضي دولة المغول.

وفي (عام 602هـ) لشهر رجب، (سنة 1206م فبراير ـ مارس)، عقد جنكيز خان مجلساً عاماً، واجتماعاً عمومياً، حيث تم تنصيبه كخان أعظم على جميع ساكني الخيام في منغوليا وما جاورها في البلدان، وفي هذا الاجتماع، أعلن جنكيز خان عن خطة جديدة لفتوحاته وقرر الخروج خارج نطاق منغوليا، ونشر في هذا الاجتماع قوانينه المشهورة في التاريخ، المعروفة بالياسا[2].

---

(1) سقوط الدولة العباسية للقحطاني، ص: 73.

(2) سقوط الدولة العباسية للقحطاني، ص: 76.

رابعاً: بناء الإمبراطورية المغولية:

لم تقتصر جهود جنكيز خان على توحيد القبائل المغولية، بل كانت خطوة التوحيد نقطة انطلاق لبناء إمبراطورية تشمل معظم أنحاء العالم المعروف آنذاك، فكان عليه لتحقيق مشروعه الطموح، أن يتحرك في جميع الاتجاهات، وأن يواجهه خصوصاً متعددي الجنسيات والثقافات، وتحرك جنكيز خان لتحقيق أهدافه وفق سير العمليات العسكرية المركزة والشديدة التعقيد، وذلك حسب ما يلي:

1 ـ الجبهة الصينية:

ـ العمليات العسكرية ضد بلاد الصين الشمالية:

أ ـ مملكة التانغوت:

هاجم جنكيز خان أولاً مملكة التانغوت، أو مملكة سي ـ هيا، في التبت وهي أضعف الممالك الثلاث التي تقاسمت النفوذ في الصين، فباستيلائه على هذه المملكة يستطيع أن يتحكم بطريق الصين إلى تركستان ويحاصر من جهة الغرب مملكة كين، العدو التقليدي للمغول.

قام جنكيز خان بثلاث غزوات ضد مملكة التانغوت في السنوات (602هـ/ 1205م)، (604هـ/ 1207م)، (606هـ/ 1209م) فاكتسح جميع أراضيها ولكنه لم يفلح في دخول عاصمتها ننج ـ هسيا التي حاصرها طويلاً، ولم يفك عنها الحصار إلا بعد أن وافق عاهلها على القبول بالسيادة المغولية على أراضيه (عام 606هـ/ 1209م)، ودفع الجزية لجنكيز خان[1]، وبذلك أصبح جنكيز خان سيد مملكة التانغوت، أي إقليم كانسو الصيني الحالي، وسهوب أوردوس وألدشان التي كانت تعتبر منطقة حدودية مع الصين، فكان على القائد المغولي، إذا ما أراد أن يتخذ لنفسه موطئ قدم في أراضي الصين أن يهاجم مملكة كين التي كانت تتبع لها بعض طوائف الترك والمغول[2].

ب ـ مملكة كين «مملكة الذهب»:

واجهت جنكيز خان، في هجومه على مملكة كين القوية، صعوبات لم يصادفها خلال غزوه لمملكة التانغوت، وتتمثل تلك الصعوبات بالتحصينات المنيعة، وحروب

---

(1) جنكيز خان قاهر العالم، ص: 238، حروب المغول، د. حطيط، ص: 21.

(2) حروب المغول، د. حطيط، ص: 21.

الحصار التي لم يكن جيشه قد اعتاد عليها بعد، إضافة إلى وجود سور الصين العظيم، وحصونه الممتدة من الشرق إلى الغرب، مما شكل خط دفاع مستمراً لحماية مملكة الذهب، وتوجهت أنظار جنكيز خان أولاً إلى التحالف مع قبائل الأنغوت المقيمة شمال سور الصين في منغوليا الداخلية حالياً،ونجح في إقامة حلف مع ملكها، بعد أن وافق على تزويج إحدى بناته للملك الأونغوتي الذي كان يعتبر، نظراً لموقع مملكته الإستراتيجي، والمعاهدات المعقودة بينه وبين ملك كين، حارساً للحدود الصينية، ومراقباً أميناً فيما وراء السور العظيم ولهذا، فعندما حالف جنكيز خان مملكة الأنغوت، بدا وكأنه فكك وسائل دفاع مملكة كين، دون أدنى جهد ممكن، وأوصل حدود إمبراطوريته إلى الخطوط الأمامية من مواقع الخصوم[1].

وكان جنكيز خان لديه بدائل متعددة لتحقيق أهدافه، فإذا عجز عن تحقيقها بالقوة فالحل بالسياسة والحيلة والرأي. وفي (عام 607هـ/ 1211م)، جمع جنكيز خان جيشاً عظيماً في منغوليا الشرقية، على ضفاف نهر كيرولين استعداداً للهجوم على بكين، وبطبيعة الحال لم يجد جنكيز خان صعوبات تذكر في اختراق دفاعات الأتراك والأنغوت المتحالفة معه (كما أسلفنا)، ووصل جيشه إلى شمال الصين، وخرب البلاد التي اجتاحها، من دون أن ينجح في الاستيلاء على مدنها الرئيسة، فقد كان ينقصه المهارات الهندسية لذلك، كما وقف جيشه طويلاً وهو ينتظر أمام قلاع سور الصين ومضى عاما (608هـ/ 609هـ،/ 1211م / 1212م)، ولم يستول جنكيز خان سوى على مراكز قليلة الأهمية، لكون تلك البلاد صعبة التضاريس، وتتخللها سلاسل جبلية متداخلة، ويمر سور الصين خلالها، من خليج بتشيلي إلى النهر الأصفر، ثم إلى الشمال من بكين وتاتونج، عند شمال شان سي، فاكتفى القائد المغولي بإحراز بعض الانتصارات غير الحاسمة، كما حصل (عام 607هـ / شباط ـ آذار 1213م) في معركة جبل يي ـ هو الواقع بين بكين وكالجان. وتحين جنكيز خان الفرصة السانحة، في ربيع الأول (608هـ / 1212م) عندما ثار أحد أمراء الخطاي[2] الخاضعين لسيادة كين، وأعلن تأييده للفاتح المغولي، فأسرع الأخير إلى دعم الأمير الثائر وأرسل أحد أعوانه القائد «جيبي» إلى إقليم لياو ـ يانج جنوب منشوريا، لكن القوة المغولية انهزمت أمام أسوار مدينة لياو ـ يانج، فتراجع جيبي

(1) جنكيز خان قاهر العالم، ص: 240، حروب المغول، ص: 240.

(2) الخطاي: قبيلة من أصل مغولي، سيطرت على بكين مدة قرنين من الزمن قبل أن تخضع لملوك باكين، وقد تحينت هذه القبائل فرصة قدوم أنسابهم المغول للانتقام من ملوك كين.

إلى منطقة مجاورة ليعيد تنظيم قواته، ثم باغت المدينة واحتلها وأعلن بي ـ لو ـ ليو ملكاً على شعب الخطاي تحت السيادة المغولية[1]. وفي عام (610هـ/ 1123م)، توجه جنكيز خان إلى الصين للمرة الثانية وكان هدفه السيطرة على طريق كالجان ـ بكين الإستراتيجي، فاستولى على هسوان ـ هوا، وهي أول مدينة حصينة على هذا الطريق وسقطت بيده، تباعاً، باور ـ آن، وهواي ـ لاي، ثم اجتاز ممر تشو ـ يونج ـ كوان «نان ـ كو» المظلم، جنوب غربي هواي ـ لاي، الذي تتحكم فيه حصون منيعة تسيطر على المنطقة التي ينحدر منها السور العظيم نحو بكين، ثم وصل جنكيز خان إلى مدخل سهل شرقي الصين الكبير الممتد من بكين إلى نان ـ كنج، فسيطر بذلك على الطريق المؤدية إلى الأراضي الصينية، وفي المنطقة الشمالية الشرقية استولى على قلعة كويبي ـ كو التي تتحكم بالممر الرئيس ما بين جيهول «شانغ ـ تي» وبكين في الشمال الغربي للبلاد، استولت قواته على تا ـ تونغ المعقل الهام الذي يقع بين خطي سور الصين، ويسيطر على إقليم شان ـ سي. انتهز جنكيز خان حالة الفوضى الناتجة عن قيام أحد الأمراء بقتل ملك الذهب وي ـ شاو، في ربيع الآخر (610هـ/ آب/ أيلول 1213م)، وقام بهجوم واسع على وسط مملكة كين من ثلاثة محاور.

ـ قاد بنفسه الجيش الأوسط ومعه ابنه تولوي «تولي» وزحف من السهل العظيم، سهل الصين الشرقي إلى وسط الصين، متجنباً الهجوم على بكين بعد أن وضع قوات قبالتها، ثم انعطف إلى الجنوب، فنهب المدن تباعاً، بدءاً من باو ـ تونج جنوباً حتى بكين شمالاً، ومن بكين قطع جنكيز خان مسافة جاوزت 300 ميل من الشمال إلى الجنوب ولم يتوقف إلا عند وصوله إلى هو ـ باي، على النهر الأصفر حيث لم تستطع خيوله عبور النهر لغزارة مياهه وسرعة جريانه وبعد ذلك توجه جنكيز خان إلى المنطقة الجنوبية الشرقية ووصل إلى سهل شانتونج الخصيب، واحتل مدينة تسي ـ تان ثم انتقل إلى مرتفعات تاي ـ شان وسار نحو الشرق وسيطر على مدينة لان ـ شان على الجانب الأقصى لحدود إقليم شانتونج، فسقطت بيده القلاع الصينية الواحدة تلو الأخرى[2]، باستثناء بعض الحصون المنيعة التي عجز عن اقتحامها، ثم رجع عن سور الصين العظيم، بعد أن نهب سهل الصين الشرقي[3].

---

(1) حروب المغول، د. أحمد حطيط، ص: 36.

(2) المصدر نفسه، ص: 36.

(3) المصدر نفسه، ص: 26.

ـ أما الجناح الأيمن من الجيش، الذي قاده جوجي وجغتاي وأوكتاي، أولاد جنكيز خان، فسار إلى القطاع الغربي من هو ـ باي عن طريق بوا ـ تنبح وشانتو، واقترب من هواي ـ كنج في مقاطعة هانون، شمال النهر الأصفر، وعبر آخر التلال المنخفضة في تاي ـ هانج وصعد بعدها إلى إقليم شان ـ سي، ثم توجه عبر حوض نهر «فن» الذي يقسم الإقليم المذكور إلى قسمين في مجراه المتجه من الشمال إلى الجنوب، وبسط سيطرته على المدن الواقعة على ضفتيه «فن» وفي جواره وهي مدن: باي ـ بانج، فن ـ تشي، وهسن ـ تشو، كما استولى على مدينة تاي ـ يوان، حاضرة إقليم شان سي، ثم رجع إلى سور الصين العظيم عن طريق تاي تشو وتاتونج.

ـ أما الجيش الثالث الذي قاده قاسار أخو جنكيز خان فسار بمحاذاة بكين متبعاً الطريق الساحلية شمالاً وأخضع المنطقة الواقعة ما بين شان ـ هاي كوان وجيهول «شانغ تي» ثم توجه للسيطرة على منشوريا العليا، في إقليم نهري نوتي وسنجاري وصولاً إلى نهر آمور وفي عام (611هـ، 1214م) انتهز جنكيز خان فرصة مبادرة إمبراطور الصين إلى عرض الصلح على أن يضم جنكيز خان كافة البلاد التي فتحها في الصين سواء كانت داخل سور الصين أم خارجه، فأعلن جنكيز خان موافقته على طلب الإمبراطور وما إن اجتاز القائد المغولي سور الصين، في طريق عودته إلى منغوليا، من ممر تشو ـ يونج ـ كوان، حتى عدل الإمبراطور عن فكرة الصلح وشرع في تحصين قلاعه وحصونه، ونقل عاصمة ملكه إلى مدينة كاي فونج، في جنوبي البلاد، لتكون أقرب إلى ساحة القتال تاركاً بكين في عهدة ولده، فما كان من جنكيز خان إلا أن استدار بجيوشه وعاد مسرعاً إلى الصين واشتبك مع الجيش الصيني في معركة فاصلة سقطت على أثرها بكين في أيدي المغول (عام 612هـ/ 1215م)[1].

خامساً: مقومات المشروع المغولي في عهد جنكيز خان:

كان جنكيز خان يتحرك من خلال مشروع يخدم أهداف المغول في التوسع والسيطرة والنفوذ والهيمنة على قيادة العالم آنذاك، وقد لاحظت في دراستي أهم مقومات المشروع المغولي والتي منها:

(1) حروب المغول، ص: 28.

* **شخصية جنكيز خان:** كانت شخصية جنكيز خان قيادية من الطراز الأول سمحت له بالتغلب العسكري على كل من وقف في وجهه من دول العالم وشعوبه في القرن الميلادي الثالث عشر، وقد أقام من نفسه حاكماً على نصف العالم المعروف في ذلك الزمن، وأثار لدى البشر خوفاً رهيباً استمر قائماً في أعماق النفوس أجيالاً عديدة، كان اسمه تيموجين، أي الرجل الفولاذي، ويعرفه التاريخ باسم جنكيز خان وكان هذا القائد المغولي نابغة في:

- التنظيم وبناء الجيش.
- الإستراتيجية.
- التكتيك.
- التخطيط.
- معرفة الرجال.
- اختيار الأعوان.
- اكتشاف نقاط الضعف لدى الآخرين وتسخيرها لصالحه.

وهذه المميزات كلها هامة للعسكريين والمدنيين على سواء، والعاقل من يسعى إلى المعرفة مهما يكن مصدرها، لأن المعرفة قوة، ولأنها نبراس يبدد ظلام الجهل والارتجال[1]، ويهدي إلى معرفة الحقائق وأسرار التاريخ، وقيام الدول، وتوسع الحضارات.

كان هذا الزعيم المغولي طويل القوام، متين البنية، قوي البدن أصلع الرأس باستثناء بعض الشعر الرمادي اللون، وعيناه كعيني الهر وكان لا يتكلم غير المغولية بالإضافة إلى عبارات صينية. وفي حياته الخاصة، كما في حياته العامة، فإنه نادراً ما كان يتطرف في تصرفاته الخاصة ولذلك احتفظ بنشاطه العقلي والبدني، حتى النهاية، ويذكر الباحثون بأنه لم ينغمس قط في التطرف الجنسي وكانت المتع المفضلة لدى جنكيز خان لعبة البولو ورحلات الصيد، وكان في كليهما مبدعاً ولم يكن غريباً عن ملذات الخمرة، ويشترك في هذه المتعة مع جميع بني قومه، ولكن على عكس ابنه وخليفته أوغوداي، فإنه لم يسمح للشراب بأن يكون متسلطاً عليه، وكان يعبر عن رأيه

(1) جنكيز خان، العقيد محمد أسد الله صفا، ص: 23.

في هذه العادة بقوله: إذا المرء لم يستطع الامتناع عن الخمرة، فليكتف بالشرب ثلاث مرات في الشهر، وإن هو فعل أكثر من ذلك فإنه يرتكب جريمة بحق نفسه، وإذا شرب مرتين في الشهر فذلك أفضل، وإذا شرب مرة واحدة في الشهر فذلك أعظم فضلاً، وإذا لم يشرب المرء خمراً بالمرة فذلك يكون عملاً عظيماً يستحق الثناء والتقدير(1).

1 ـ **شجاعته:** كان يتمتع بشجاعة فائقة ويقدر الشجاعة لدى الأصدقاء والأعداء على السواء، وقد شق طريقه إلى السلطة بالعمل ضد أناس كانوا على شجاعة خارقة، ومن الأمثلة على إعجابه بالشجاعة أنه في نهاية المعركة التي انتصر فيها على السلطان الخوارزمي جلال الدين، عند نهر السند عام (1221م): قد بلغ إعجابه بشجاعة خصمه الشاب، رغم ما اعتراه من أسف لفراره بالقفز مع جواده إلى النهر إلى حد حمله على أن يهتف قائلاً: كمثل هذا يجب أن تلد النساء. وقد اعتبر جلال الدين صنواً له في الشجاعة والإقدام(2)، وسأله (بالاخراجا) يوماً وكان قائداً أسيراً لديه قائلاً له: إنهم يدعونك بطلاً عظيم القدرة فما هو دليلك على ذلك؟ فأجاب جنكيز خان: في صباي، كنت يوماً أسير على جوادي وحيداً في الفلاة وقد اعترضني ستة رجال كانوا يكمنون لقتلي عند مخاضة وقد هاجمتهم بسيفي تحت وابل سهامهم، وقتلتهم جميعاً، وتابعت طريقي دون أن أصاب بأذى، وقد مررت بطريق عودتي، بالمكان الذي قتلت فيه أولئك الأعداء فوجدت خيولهم طليقة ومن لا يعتني بها، فاستوليت عليها. قص جنكيز خان هذه الحادثة كجواب على سؤال (بالاخراجا) وكدليل على شجاعته وبأسه، والأهم من ذلك أنه كان يؤكد بهذه القصة اعتقاده بأنه يتمتع بحماية سماوية: لقد قررت السماء ـ على حد قولهم ـ أنه لن يموت قتلاً وقد قتل جميع أعدائه واستولى على خيولهم(3).

2 ـ **السخاء والكرم:** كان سخياً في مكافأة ضباطه لكل عمل يظهرون فيه شجاعة فائقة، وكان معروفاً بالجود والكرم، ومما ذكره الجويني عنه في هذا الخلق، أنه قدم له بعض الفلاحين بالصين ثلاث بطيخات، فلم يتفق أن عند جنكيز خان أحد من الخزاندرية فقال لزوجته «خاتون»: أعطيه هذين القرطين اللذين في أذنيك، وكان فيهما

(1) جنكيز خان، ص: 26.
(2) المصدر نفسه، ص: 27.
(3) المصدر نفسه، ص: 27.

جوهرتان نفيستان جداً فشحت المرأة بهما وقالت: انظر إلى غيره، فإن هذا لا يدري ما هما، فقال: ادفعيهما إليه فإنهما لا يبيتان هذه الليلة إلا عندك، وهذا الرجل لا يمكننا أن ندعه يذهب عنا مقلقل الخاطر وربما لا يحصل له شيء بعد هذا، وإن هذين لا يمكن أن أحداً إذا اشتراهما إلا جاء بهما إليك. فانتزعتهما فدفعتهما إلى الفلاح، فطار عقله بهما، وذهب بهما فباعهما لبعض التجار بألف دينار، ولم يعرف قيمتها فحملها التاجر إلى الملك فردهما على زوجته[1].

واجتاز يوماً في سوق، فرأى عند بقال عناباً فأعجبه لونه، ومالت نفسه إليه فأمر الحاجب أن يشتري منه ببالس، فاشترى الحاجب منه بربع بالس، فلما وضعه بين يديه أعجبه وقال: هذا كله ببالس؟ فقال: وبقي منه هذا وأشار إلى ما بقي معه من مال، فغضب وقال: متى يجد من يشتري منه مثلي، تمموا له عشرة بوالس[2]. وأهدى له إنسان رمانة فكسرها وفرق حبها على الحاضرين، ثم أمر له بعدد حبها بوالس وأنشد الجويني عند ذكر هذه الحادثة:

فلذلك تزدحم الوفود ببابه ... مثل ازدحام الحب والرمان

3 ـ **غيرته**: كان مفرطاً في الغيرة على كل شيء يعتبره ملكاً له، فبعد احتلال مدينة جورخند، عام 1221م، تقاسم أولاده: جوشي، وجغطاي وأوغوداي، جميع الغنائم والأسلاب بينهم، دون أن يرفعوا منها شيئاً كحصة لأبيهم، وعند عودتهم إلى المقر الإمبراطوري وجدوا أباهم في حالة الغضب الشديد واستحال عليهم أن يقابلوه، وفي آخر الأمر رأى الأوخونات: موخالي، ويوركوجي، وشيكي أن عليهم أن يتدخلوا في الأمر، فذهبوا إلى مقابلة جنكيز خان يعاتبونه على موقفه قائلين: لقد غلبنا الخوارزميين، أولادك وكل ما في المدينة ملك يديك، وقد انتصرنا في هذه الحرب بمعونة السماء والأرض، ونحن ضباطك، مفعمون فرحاً واغتباطاً، لماذا أنت غاضب على هذه الصورة؟، لقد اعترف أولادك بخطئهم وهم خائفون، لقد أعطوا إنذاراً للمستقبل، اسمح لهم الآن أن يمثلوا في حضرتك. خف غضب جنكيز خان بعد هذه الكلمات، ووافق على استقبال أولاده، إلا أن غضبه عاوده للحال عند رؤيتهم، وأخذت أجساد الأمراء الثلاثة تتصبب عرقاً وعندئذ بادر ثلاثة أفراد من الحرس الخاص

---

(1) البداية والنهاية (17/ 167).

(2) المصدر نفسه (17/ 167).

بالتوسط بدورهم قائلين: أولادك هم كصقور ولم يتلقوا غير أول تدريبهم، إنهم يخوضون أول حروبهم، فإذا أنت ثابرت على معاملتهم على هذا النحو، فقد تتحول عواطفهم عنك في المستقبل، هناك أعداء من مشرق الشمس إلى مغربها، فأرسلنا ضدهم وسنقاتلهم كالكلاب التيبيتية، وإذا ساعدتنا السماء وانتصرنا، فسوف نأتيك بكل ما يملكون من ذهب وفضة وحرير، وفي الغرب هناك خليفة ببغداد، فأرسلنا ضده، وكان أن زال غضب جنكيز خان وعفا عن الأمراء[1].

4 ـ **قسوته وفظاعته:** ارتكب جنكيز خان فظائع رهيبة ومذابح عديدة مريعة تقشعر لذكرها الأبدان، وهذه الأعمال الوحشية لم تكن غريبة على المجتمع المغولي في ذلك العصر وفي (البيليك) ـ أي الأقوال المأثورة عن جنكيز خان ـ ما يلقي الضوء على هذه الناحية من مسلكه، فقد جاء فيها عن لسانه: إن أعظم مسرة للمرء هي هزيمة أعدائه، طردهم أمامه، الاستيلاء على كل ما يملكون، رؤية أعزائهم يبكون، امتطاء خيولهم، ضم نسائهم وبناتهم بين ذراعيه. وكان جنكيز خان بمثل هذه الأحاسيس، يعبر عن مشاعر بني قومه وعادات عصره وبيئته[2].

5 ـ **إخلاصه لأصدقائه:** كان صديقاً مخلصاً لكل أولئك الذين كانوا يخلصون في خدمته، ولنا في معاملته لضباطه أحسن مثال على ذلك، وكان يمدهم بالنصائح القيمة، ومن الأمثلة على ذلك: وصيته لسوبوداي، عندما أرسله ضد المركيت عام 1216م والتي جاء فيها: سيكون عليك، لبلوغ هدفك، أن تسير عبر مضائق جبلية عالية وأنهار كثيرة، وكلما طالت الطريق كلما دعت الحاجة إلى مداراة خيالتك والاقتصاد في مؤونتك حتى لا ترهق خيلك قبل أن تدرك العدو، وعليك أن تنتبه دائماً لكي لا يتسبب اللجام أو الحزام تحت الذيل بجرح مطاياك، وإذا خالفك أحد فابعث به إلي إذا كنت أعرفه وإلا فعاقبه بنفسك.

ولما كان ولده البكر جوشي موجوداً مع الجيش بصفة قائد أسمى فربما يكون جنكيز خان قد استهدفه بهذه الكلمات وخاصة ما كان منها متعلقاً بالصيد، لأن جوشي كان مغرماً به بصورة مفرطة، ولم يكن هناك أدنى شك بأن القائد الفعلي للحملة كان سوبوداي، القائد العظيم والجنرال الخبير المجرب. وكان جنكيز خان يشجع على النجاحات التي يحققها القادة ويهتف بها، ففي (عام 1223م)، أثنى علناً على سوبوداي للنتائج المذهلة للحملة التي قادها مع زميله جيبة ـ توفي (عام 1222) ـ منذ صيف عام

(1) جنكيز خان، ص: 28.

(2) المصدر نفسه، ص: 28.

1220 إلى شتاء عام 1222 في غرب إيران، وجورجيا، والقوقاز، وروسيا الجنوبية، وبلغاريا الكبرى، ومما قاله علناً بهذه المناسبة: لقد نام سوبوداي على ترسه، وفاز في معارك دموية عنيفة، وعرض حياته لأعظم الأخطار والمهالك في سبيل عائلتنا، وإنا لراضون عنه أشد الرضى.

وبعد سنين من ذلك التاريخ نوه بموخالي ـ وهو جنرال عظيم أيضاً ـ على نفس الصورة لإنجازاته المدهشة في الصين[1]، وكان يتصرف بوعي كبير عند حصول ما لم يكن يتوقعه، كأن يمنى أحد جنرالاته بالهزيمة مثلاً، ومن ذلك أنه بعد أن تفقد ميدان القتال في وادي بيروان في أفغانستان، حيث مني ابنه بالتبني شيكي كوتوكو بهزيمة على يد السلطان الخوارزمي جلال الدين، فإنه لم يعمد إلى لوم أو تعديد للهفوات والأخطاء وإنما اكتفى فقط بانتقاد اختيار القائد لميدان المعركة، ثم وجه كلامه إلى من كان حوله قائلاً: إن من عادة شيكي كوتوكو أن ينتصر دائماً، ولم يسبق له أن ذاق مرارة الهزيمة وقسوتها، والآن، وبعد أن عانى من ذلك، فإنه سيكون أكثر حذراً واحتراساً. وحتى مخالفات الضباط، وهي تعاقب عادة بصرامة، فإنه يعالجها أحياناً برفق وتساهل، ومن ذلك أنه في (عام 1220م) عندما أرسل سوبوداي وجيبة وتوكوشار إلى مطاردة سلطان خوارزم فقد أمرهم جميعاً أن يسيروا خلال ممتلكات عاهل هرات أمير الملك دون الإساءة إلى أحد من السكان، وقد تقيد سوبوداي وجيبة بهذا الأمر، لكن توكوشار سمح لجنوده بنهب جزء من الإقليم، ولما بلغ جنكيز خان ذلك مال في بادئ الأمر إلى إعدام الجنرال المخالف، لكنه عاد فعدل عن ذلك بعد تفكير، واكتفى فقط بتوجيه لوم عنيف إلى توكوشار، وبعث إليه بضابط يشاركه في القيادة[2].

وهكذا بالثقة، والإقرار بالفضل، والتحرر من الغيرة والحسد اللذين أضرا كثيراً بالعلاقات بين الإسكندر المقدوني ونابليون بونابرت مع جنرالاتهما، وباستطاعته السيطرة على الغضب، اكتسب جنكيز خان لنفسه وعائلته وفاء لا حدود له، وولاءً مطلقاً من كل أولئك الذين عملوا معه، وكان هؤلاء جميعاً يتقيدون بعزم وتصميم، بتنفيذ أوامره وتعليماته، ونادراً ما فشلوا في تذليل الصعوبات والتغلب على الموانع والمشاق[3].

6 ـ **معرفته للرجال وقيادته للقادة:** تميز جنكيز خان بمعرفته الفائقة للرجال

---

(1) جنكيز خان، ص: 30.
(2) المصدر نفسه، ص: 31.
(3) المصدر نفسه، ص: 31.

وقدرته على قيادة القادة، ولذلك نبغ في الإمبراطورية المغولية، قادة عظام خاضوا حروباً كبيرة بتخطيطهم وعلى مسؤوليتهم الكلية، وكان هؤلاء القادة عندما يكونون برفقة جنكيز خان، فإنهم كانوا يساهمون إلى حد كبير ولاشك، بوضع الخطط وتنفيذها تحت إشرافه المباشر، وكانت جميع العمليات الرئيسة التي جرت في حياته تصدر عن قراراته ولذلك يعود له الفضل الأول في جميع انتصارات المغول المدوية التي جعلته على مثل تلك الشهرة من القيادة المتفوقة.

إذا راجعنا حروب الإمبراطورية المغولية، فمنذ (عام 1221م) إلى خريف (عام 1222م) عندما كان أعظم جنرالاته بعيداً عنه، موخالي في الصين، وسوبوداي وجيبة في روسيا في أوروبا الشرقي، فإن جنكيز خان لم يحتل خوارزم وخراسان فحسب، بل سار بعد ذلك منتصراً خلال جبال أفغانستان المخيفة، دون أن يتعرض جيشه ولو مرة إلى خطر من أي نوع، وبعد موته، وحتى بقيادة أشهر الجنرالات وأولاده وأحفاده فإن المغول لم يحققوا إنجازات مثيلة لإنجازاتهم أثناء حياته وتحت قيادته، وقد استطاع جنكيز خان انتزاع الإعجاب والتفاني من الفريق القيادي الذي كان معه من أمثال وزيره الصيني الحكيم يلوي ـ تشو سي ـ.

ومن تلك الكوكبة الفريدة من القادة اللامعين الذين أحاطوا به، من المغول: بوكورجي، موخالي، سوبوداي، جيبة وساموخا وغيرهم كثير، مما يدل أن جنكيز خان لم يكن وحده شخصية كبيرة فذة فحسب، بل إن فراسته ومعرفته بالرجال، واختيارهم ما هي إلا العبقرية بعينها[1]، ومن الأدلة على معرفته بالرجال اختياره أثناء حياته خليفته، ودلَّ هذا الاختيار على حكمته واتساع أفقه وقوة فكره ونفاذ بصيرته، فلم يغتر بما اشتهر به تولوي من مواهب عسكرية أو بما اتصف به جغتاي من صرامة، يستطيع أن يفيد منها في تحقيق المبادئ الأساسية التي ينطوي عليها نظام جنكيز خان، بل ركز اهتمامه في أوكتاي الذي تعلقت به القلوب، لما اشتهر به من طلاقة الوجه والسخاء، ونظراً لأن ما اشتهر به جنكيز خان من قوة الإرادة، التي لم يرثها أحد من أبنائه، كان لا بد أن يشترك جميع أفراد الأسرة بعد وفاته في إدارة البلاد، إذ أن وحدة الإمبراطورية لا يحفظها إلا رجل يتصف بقوة الإرادة، والتفكير السليم، ويتحلى بخلال خلقية تجعله مقبولاً عند الناس[2].

7 ـ **رجل دولة وسياسة:** لم يكن جنكيز خان رجل حرب متفوقاً فحسب، بل

---

(1) جنكيز خان، ص: 32.

(2) المغول، للعريني، ص: 155.

كان إلى جانب ذلك رجل سياسة ودولة، وكان من خصاله البارزة: العزم الذي لا ينثني والمقدرة على ألا يتعدى حدود إمكاناته الشخصية، وفي حين كان عظيم المطامع، فقد كان مع ذلك حريصاً على أن تكون مشاريعه أبداً في حدود إمكاناته، إنه لم يمن قط بأية هزيمة، ولا أصيب بكارثة، وقد ترك لأولاده إمبراطورية مترامية الأطراف شاسعة الأرجاء، وأقوى جيش في ذلك العصر، وإذا قارنا بين جنكيز خان وبعض القادة وتاريخ الإنسانية رأينا الفرق الكبير، فمثلاً نابليون بونابرت ألمع القادة الأوروبيون تراجع عاجزاً أمام مدينة صغيرة كـ «عكا» وتخلى عن جيش كامل في مصر، وارتكب حماقة في إسبانيا وخلف جيشاً كبيراً في ثلوج روسيا وانتهى أخيراً إلى الهزيمة الساحقة في ميدان واترلو، ومات سجيناً لدى ألد أعدائه في جزيرة نائية، وقد تحطمت إمبراطوريته تحت سمعه وبصره، ومزق دستوره وحرم ولده من الوراثة في حياته. وإذا تحولنا إلى الإسكندر الكبير، ذلك الفتى المنتصر، الذي فتح العالم في زمانه بعبقريته أخذ جنرالاته حالاً بعد موته يتقاتلون على وراثته ويضطرون ابنه الرضيع إلى الفرار ليقتل مع أمه وجدته لأبيه. وأما جنكيز خان، فقد جعل من نفسه سيداً مطلقاً على الأرض من كوريا حتى أرمينيا، ومن التبت سقف العالم حتى الفولغا وخلفه ولده دون أي احتجاج، وعاش حفيده، قيلاي خان، حاكماً على نصف العالم[1].

* دستور الدولة (الياسا):

اقتضت حياة المغول رغم بدائيتها وبساطتها أن تكون لهم قبل جنكيز خان مجموعة من الآداب والتقاليد، ولكنها لم تكن مدونة، لأنهم كانوا يجهلون الكتابة، فلما جاء جنكيز خان، أعاد النظر في هذه العادات، ورد بعضها وقبل معظمها وأضاف إليها بعض الأحكام والقواعد وجعل لها صبغة رسمية، وأمر بأن يتعلم الأطفال المغول الخط الأويغوري، كما أمر بأن تدون تلك النظم والأحكام بهذا الخط، وأن يحتفظ بها في خزائن أمراء المغول[2]، وقد أطلق على كل حكم من هذه الأحكام والقواعد اسم (ياسا)، وهي كلمة مغولية تأتي بمعنى حكم وقاعدة وقانون، وتكتب بصورة مختلفة في الكتب العربية والفارسية فنجد ياسا وياسه ويساق وياساق ويسق، وتطلق على الحكم الذي أصدره الملك أو الأمير، ولما كان كتاب الياسا يشتمل على جزء كبير من الأحكام التي تتعلق بالجزاء والعقاب وغالباً ما يكون ذلك بإعدام الشخص المذنب،

---

(1) جنكيز خان، ص: 33 ، 35.

(2) المغول في التاريخ، ص: 338 ، تاريخ المغول، عباس إقبال، ص: 113.

صار أحد معاني هذه الكلمة (ياسا) القتل والموت[1]. وأما مجموع هذه الأحكام المكتوبة التي أقرها جنكيز خان فإنه يطلق عليها (كتاب الياسا الكبير)[2]، وكان جنكيز خان يعتقد بأن تعاليم الياسا صالحة لكل زمان ومكان، وفرضها على الجميع بدون استثناء، بما هو نفسه وأفراد سلالته[3].

يقول الراهب المؤرخ للإنوكاريبيني، في هذه الصدد، أنه جرى تطبيق الياسا بصرامة، وأن هذا التطبيق جعل من المغول أكثر شعوب العالم طاعة لرؤسائهم إلى حد يفوق طاعة الرهبان لأمراء الكنيسة، وكانت الياسا أول خطوة اتخذها جنكيز خان لإضعاف النزعات والميول الإقطاعية الضارة بالوحدة[4]، لقد رأى الخان الأعظم للمغول، أنه لا يمكن جمع كلمة هؤلاء القبليين المتعطشين للدماء إلا بتشريع قانون يلتفون حوله، وينزلون جميعاً على حكمه، ولابد أن تكون مواد هذا القانون مشتملة على عقوبات فيها جد وصرامة توقع على المذنبين في غير ما شفقة ولا رحمة، لأن هؤلاء الأتباع إن تركوا وشأنهم يحيون حياتهم القديمة، فإنهم يعودون إلى ما كانوا عليه من الفوضى، وقتل بعضهم البعض والتطاحن من أجل الأسلاب والمراعي، ولكن، إذا كانت الياسا قد فضت النزاع والخصام بين المغول الذين كانوا يعيشون من قبل كقطعان الذئاب التي لا ضابط لها ولا رابط، فإنها من جهة أخرى قد حولتها إلى جيوش منظمة، تعرف كيف ترسم خططها بدقة وإحكام، وتغير على الأمم المتحضرة كأنها الإعصار المدمر أو كأسراب الجراد التي تنزل على الحقول المورقة، فتلتهمها التهاماً وتأتي على كل ما فيها[5].

وقد تعود المغول أن يرجعوا إلى نصوص الياسا يستشيرونها، ويعملون وفق ما تشير به، وذلك في الأحوال الآتية:

* عندما يجلس خان جديد على عرش المغول.

* عندما يعقد مؤتمر عام يحضره الأمراء لمناقشة السياسة العامة للدولة.

---

(1) المغول في التاريخ، ص: 338، انظر: الدولة العربية الإسلامية، ص: 473.

(2) المصدر نفسه، ص: 39.

(3) جنكيز خان، ص: 104.

(4) المصدر نفسه، ص: 104.

(5) المغول، د. فؤاد عبد المعطي، ص: 339.

* في حالة تعبئة الجيوش والاستعداد للقتال[1].

لقد أصدر جنكيز خان مجموعة القوانين المعروفة بالياسا، والتي نسخت كل ما سبق من قوانين العرف في الإستبس، لكي يربط أقاليمه معاً، في ظل حكم موحد، وهذه الياسا التي صدرت مجزأة طول حكم جنكيز خان حددت ما لرؤساء العشائر من حقوق وامتيازات وما هو مقرر للخان من شروط الخدمة العسكرية وغيرها من الخدمات، وقواعد نظام الضرائب فضلاً عن مبادئ القانون الجنائي والمدني والتجاري، وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول: إن هذا القانون قد نظم علاقة الحاكم بالمحكوم، وعلاقة المحكومين بعضهم ببعض، كما حدد علاقة الفرد بالمجتمع وتتلخص أحكام الياسا في أمور ثلاثة هي:

* الخضوع لجنكيز خان.

* الاتحاد في قبيلة واحدة، أي اندماج خمسين قبيلة من قبائل المغول في مشروع واحد.

* العقاب الصارم لكل مخطئ[2].

أ ـ نصوص تاريخية عن الياسا: يحدثنا المقريزي عن الياسا فيقول: إن جنكيز خان القائم بدولة التتار في بلاد الشرق لما غلب الملك أونك خان، وصارت له الدولة قرر قواعد وعقوبات أثبتها في كتاب سماه ياسه، ومن الناس من يسميه يسق، والأصل في اسمه ياسه، ولما تم وضعه، كتب ذلك نقشاً في صفائح الفولاذ وجعله شريعة لقومه، فالتزموه بعده حتى قطع الله دابرهم، وكان جنكيز خان لا يتدين بشيء من أديان أهل الأرض، كما تعرف هذا إذا كنت أشرفت على أخباره، فصار الياسا حكماً باتاً بقي في أعقابه لا يخرج عن شيء من حكمه[3]. وقال: وأخبرني العبد الصالح الداعي إلى الله أبو هاشم أحمد بن البرهان رحمه الله أنه رأى نسخة من الياسه بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد ومن جملة ما شرعه جنكيز خان في الياسه:

ـ أن من زنى قتل، ولم يفرق بين المحصن وغير المحصن.

---

(1) المغول، ص: 338.

(2) المصدر نفسه، ص: 339.

(3) الخطط للمقريزي، المجلد الثالث، الجزء الأول، ص: 146 ـ 147.

ـ ومن لاط قتل، ومن تعمد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد أو دخل بين اثنين وهما يتخاصمان وأعان أحدهما على قتل الآخر قتل.

ـ ومن بال في الماء أو على الرماد قتل.

ـ ومن أعطي بضاعة فخسر فيها، فإنه يقتل بعد الثالثة.

ـ ومن أطعم أسيراً أو كساه بغير إذنهم قتل.

ـ ومن وجد عبداً هارباً أو أسيراً قد هرب ولم يرده على من كان في يده قتل.

ـ وأن الحيوان تكتف قوائمه ويشق بطنه ويُمْرَس قلبه إلى أن يموت، ثم يؤكل لحمه، وأن من ذبح الحيوان كذبيحة المسلمين ذبح.

ـ ومن وقع حمله أو قوسه أو أي شيء من متاعه وهو يكر أو يفر في حالة القتال، وكان وراءه أحد، فإنه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه، فإن لم ينزل، ولم يناوله قتل.

ـ وشرط أن لا يكون على أحد من ولد علي بن أبي طالب ﷺ مؤنة ولا كلفة وأن لا يكون على أحد من الفقراء ولا القراء ولا الفقهاء ولا الأطباء ولا من عداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤذنين ومغسلي الأموات كلفة ولا مؤنة.

ـ وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى، وجعل ذلك كله قربة إلى الله تعالى.

ـ وألزم قومه أن لا يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المناول منه أولاً، ولو أنه أمير، ومن يناوله أسير، وألزمهم أن لا يتخصص أحد بأكل شيء وغيره يراه، بل يشركه معه في أكله، وألزمهم أن لا يتميز أحد منهم بالشبع على أصحابه ولا أحد ناراً ولا مائدة، ولا الطبق الذي يؤكل عليه، وأن من مرَّ بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل، ويأكل معهم من غير إذنهم وليس لأحد منعه.

ـ وألزمهم أن لا يدخل أحد منهم يده في الماء ولكنه يتناول الماء بشيء يغترفه به، ومنعهم من غسل ثيابهم، بل يلبسونها حتى تبلى.

ـ ومنع من أن يقال لشيء أنه نجس، وقال: جميع الأشياء طاهرة، ولم يفرق بين طاهر ونجس.

ـ وألزمهم أن لا يتعصبوا لشيء من المذاهب، ومنعهم من تفخيم الألفاظ ووضع الألقاب، وإنما يخاطب السلطان ومن دونه، ويدعى باسمه فقط.

ـ وألزم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها إذا أرادوا الخروج إلى القتال، وأنه

يعرض كل ما سافر به عسكره وينظر الإبرة والخيط، فمن وجده قد قصر في شيء مما يحتاج إليه عند عرضه إياه عاقبه.

ـ وألزم نساء العساكر بالقيام بما على الرجال من السخر والكلفة في مدة غيبتهم في القتال.

ـ وجعل للعساكر إذا قدمت من القتال كلفة يقدمون بها إلى السلطان ويؤوونها إليه.

ـ وألزمهم عند رأس كل سنة بعرض سائر بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه وأولاده.

ـ ورتب لعساكره أمراء، وجعلهم أمراء ألوف وأمراء مائتين وأمراء عشروات.

ـ وشرع أن أكبر الأمراء إذا أذنب، وبعث إليه الملك أخس من عنده حتى يعاقبه، فإنه يلقى نفسه إلى الأرض بين الرسول، وهو ذليل خاضع حتى يمضي فيه ما أمر به الملك من العقوبة ولو كانت بذهاب نفسه.

ـ وألزمهم ألا يتردد الأمراء لغير الملك، فمن تردد منهم لغير الملك قتل، ومن تغير عن موضعه الذي يرسم له بغير إذن قتل.

ـ وألزم السلطان بإقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته.

ـ وجعل حكم الياسه لولده جغتاي بن جنكيز خان، فلما مات التزم من بعده أولاده وأتباعه حكم الياسه، كالتزام أول المسلمين حكم القرآن وجعلوا ذلك ديناً، لم يعرف عن أحد منهم مخالفته بوجه[1].

ب ـ ما كتبه المؤرخ الفارسي الجويني عن الياسا: قبل المقريزي (845هـ) بما يزيد عن قرن ونصف، كتب المؤرخ الفارسي عطا الملك الجويني (ت 681هـ) عن الياسه بتفصيل أكثر ولكن عبارة المقريزي تعتبر في الحقيقة خلاصة وافية لما جاء عند الجويني، على أن الأخير قد زاد في الحديث عن ناحية هامة لها أكبر الأثر في حياة المغول العسكرية هي مباريات الصيد[2]، التي كانوا يعنون بها عناية كبيرة كلما فرغوا من القتال، إذ كانت في الحقيقة هي رياضتهم المحببة إلى نفوسهم، ولكنهم كانوا

(1) المغول، د. الصياد، ص: 342.

(2) تاريخ جهانكشاي للجويني (1/ 19 ـ 21)، المغول، للصياد، ص: 342.

يتخذونها وسيلة لإعداد أنفسهم إذا ما جد الجد ودعوا لحمل السلاح وخوض غمار المعارك، فهم في حلبات الصيد يدربون أنفسهم على ما سيفعلونه في وقت الحرب، ويقفون صفوفاً منتظمة كما يقفون في ميادين القتال تماماً ويأخذون منهم الآلات والأسلحة اللازمة للتدريب على استعمالها، وهم بالإضافة إلى هذا مكلفون بتسقط أخبار الأعداء والتجسس عليهم، يقول بارتولد: ومن الوسائل القيمة التي تعمل على حفظ النظام وتدريب الجند واختبارهم، حملات الصيد التي كانت تعد على نطاق واسع، وفيها تراعى جميع الأوامر الخاصة بالنظام الحربي بنفس الدقة التي تراعى بها إبان الحرب(1).

وكان يشرف على ميادين الصيد كبار الأمراء الذين يصطحبون معهم الخوانين والسراري، ويتزودون بمختلف المأكولات والمشروبات، وتمتد هذه المباريات من شهر إلى ثلاثة أشهر وعلى الجنود المشتركين فيها أن يباشروا الصيد في تأن وحذر وأن ينظروا إلى الحيوانات كما ينظرون إلى أعدائهم، فلو فرض أن جندياً قد أخطأ في إصابة الهدف فإنه يعاقب على ذلك بالضرب بالعصا، وكثيراً ما يكون العقاب بالقتل، بل إنهم كانوا لا يترددون عن توقيع الجزاء على أي شخص ينسب إليه الإهمال والخطأ مهما كان هذا الخطأ بسيطاً تافهاً، بعد ذلك توفد الرسل إلى الخان وهي تحمل إليه تقارير مفصلة عن كل ما دار في هذه المباريات التي تشبه إلى حد كبير مناورات الجيوش في العصور الحديثة، وذلك للإبقاء على تدريب الجند، ومن حملات الصيد أيضاً يحصل المغول على اللحوم اللازمة لمد الجيش والبلاد، وكانوا إذا ما قتلوا عدداً كبيراً من حيوانات الصيد، أكلوا أكبر قدر من لحمها يمكنهم أكله، وذلك حتى يبعدوا عنهم شبح الجوع في الأيام العجاف التي تنتظرهم(2)، والمغول يعتبرون الصيد جزءاً لا يتجزأ من حياتهم، ويحرصون على ممارسته منذ الصغر، ويروى أن جنكيز خان سقط ذات يوم من فوق جواده، وأصيب حين كان يصطاد خنزيراً برياً وشاء حسن حظه ألا يهاجمه الخنزير وهو ملقى على الأرض، إذ كان قد انتحى جانباً فقال له الكاهن: كان ذلك نذيراً لك،لقد فعلت شراً برغبتك في قتل روح حيّ ولولا رحمة السماء لنطحك الخنزير وقضى عليك. فرد جنكيز خان عليه قائلاً: لقد أدركت ذلك شخصياً، وأعلم أن

---

(1) دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، ج 7 العدد الرابع، ص: 137، مادة جنكيز خان، المغول، ص: 343.

(2) المغول، للصياد، ص: 343.

نصيحتك تستهدف الخير، ولكنا نحن المغول قد اعتدنا منذ حداثتنا أعمال الصيد وليس من السهل علينا أن نغير عاداتنا[1]. وكان للمغول نظم وقواعد يلتزمونها أثناء الصيد، ويقومون بتنفيذها بكل دقة[2].

جـ ـ من أخلاق المغول: نصَّ جنكيز خان في الياسا على أنه يمقت السرقة والفحش مقتاً خاصاً، وأن عقاب مرتكبيها الإعدام، وصرَّح بأنه يغضب إذا علم بولد لا يطيع أبويه، أو بأخ صغير يخالف أمر أخيه الأكبر، أو بافتقار الزوج إلى الاعتماد على زوجته أو بمخالفة المرأة لزوجها أو بتمنع الغني عن إعانة الفقير أو بعدم احترام المرؤوسين لرؤسائهم، ونهى أتباعه عن الإغراق في شرب الخمر فقال: إن الرجل السكران كالرجل المضروب على أم رأسه، يفقد عقله وكفاءته فاشربوا ثلاث مرات في الشهر الواحد لا أكثر والأفضل ألا تشربوا أبداً، ولكن من الذي يستطيع الإحجام عن الشراب مطلقاً[3]؟.

د ـ موقف الشريعة الإسلامية من الياسا: إن المتأمل في نصوص الياسا يلاحظ أن بعضها يوافق الشريعة الإسلامية الغراء، ولكن أكثرها مخالف لها، فالشريعة الإسلامية تقوم على احترام حقوق الفرد، وتمنع الطغيان والاستبداد وتدعو إلى السعي والكفاح لينتفع الناس بتجاربه، ويجد ثمرة عمله، أما الياسا، فإنها تقوم على أسس جائرة ظالمة، تلغي شخصية الفرد، وتحجر على حريته، وتكبله بقيود الذل والعبودية، وإذا كان المغول يعتبرون الكذب جريمة بنص القانون، فإنهم أحلوه لأنفسهم، لا سيما في وقت الحروب، وذلك على سبيل الخديعة والتفرقة بين المتحاربين من الأعداء، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن المغول تحللوا من المواثيق ونكثوا بالعهود لما ركب في نفوسهم من اللؤم والغدر والميل إلى الانتقام، فمثلاً كان الترك ـ من بين سائر القوميات ـ أقرب إلى المغول، بل كانت منهم كتائب بجيش جنكيز خان، وكانت التقاليد البدوية في آسيا الوسطى، تزيد الترك قرباً من المغول، ورغم هذا كله لم يحاول المغول الاتحاد مع الترك، وإشراكهم معهم في الفتح ولم تكن المحادثات التي يجرونها أحياناً مع الترك إلا ضرباً من الخدع الحربية المألوفة عندهم، فقد كانوا يحاولون بتأكيداتهم الكاذبة لأواصر

(1) المغول، ص: 344.
(2) المصدر نفسه، ص: 344.
(3) المصدر نفسه.

الصداقة ـ أن يفرقوا أعداءهم ثم يجهزوا عليهم واحداً فواحداً، ونحن نعلم أن جنكيز خان أكد صداقته لأم السلطان محمد خوارزمشاه مستغلاً الجفوة التي كانت بينها وبين ابنها، وذلك لكي يحول بينها وبين التدخل في الحرب، إذ كان تحت إمرتها عدد من الكتائب ومع هذا فقد كان مصيرها الأسر والنفي، حيث ماتت في أرض الغربة ذليلة مهانة[1]. وفي غرب آسيا لعب حفيد جنكيز خان «هولاكو» نفس الدور، ففي وقت ما، كان يجري المحادثات مع الإسماعيلية ومع الخليفة العباسي، ولكنه ما لبث بعد ذلك أن استأصل شأفتهم جميعاً.

هـ ـ تفاني الفرد في سبيل المجموع: وإذا كان المغول ينادون بالتعاون، فإنما يقصدون التعاون الذي يقوم على تفاني الفرد في سبيل المجموع، وعدم الاعتراف بأي حق للمرء في حريته الشخصية، فنصت الياسا على ألا ينفرد أحد بكل شيء وغيره يراه، بل عليه أن يشركه معه في أكله، ولا يجوز أن يتمتع أحد بالشبع دون أصحابه، بل يقسم الطعام بالتساوي، ومن مر بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويؤاكلهم من غير إذنهم وليس لأحد منعه، فمثل هذه النصوص الجائرة تكشف لنا عن روح هذا المجتمع التعاوني الشاذ الذي يحرم الإنسان نتيجة سعيه وكفاحه[2].

و ـ الإباحية: ودعت الياسا إلى الإباحية، إذ ألزمت التتار عند رأس كل سنة بعرض سائر بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه ولأولاده، وفي هذا هدم لكيان الأسرة التي هي عماد الاستقرار[3].

ز ـ أكل المحرمات: والحقيقة أن كثيراً من عادات المغول وطباعهم كانت تدعو إلى الاشمئزاز، وتثير في نفوس المسلمين النفور، والكراهية لمنافاتها لتعاليمهم، فكانوا على استعداد لأن يأكلوا كل ما حرمه الإسلام، بل إنهم لا يتورعون عن أكل الحيوانات الدنسة، وكانوا يكرهون الاستحمام والاغتسال، وحرموا غسل الأيدي والثياب في المياه الجارية، ولذلك كانوا يتركون الثياب حتى تبلى ومن خالف هذه التعليمات اعتبر مجرماً خارجاً على القانون وعقوبته الإعدام، كذلك اعتبروا ذبح الحيوان بقطع حلقه من الجرائم التي لا تغتفر أيضاً، فحرموا على المسلمين ذبح حيواناتهم وفقاً للطريقة التي

(1) المغول، للصياد، ص: 346.

(2) المصدر نفسه، ص: 346.

(3) العرب والتتار، ص: 32 ـ 33، المغول، للصياد، ص: 346.

أجازها الشرع واستعاضوا عن ذلك بطريقتهم الوحشية الخاصة التي تقوم على تعذيب الحيوان، دون أن تأخذهم به شفقة ولا رحمة، فكانوا يشقون بطن الحيوان، ثم يمدون أيديهم إلى جوفه، فإذا وصلوا إلى قلبه أمسكوه ونزعوه من مكانه[1].

ح ـ تأثر مسلمي المغول بالياسايقول القلقشندي: ثم الذي كان عليه جنكيز خان في التدين، وجرى عليه أعقابه بعده، الجري على منهاج ياسه التي قررها، وهي قوانين ضمنها من عقله وقررها من ذهنه، رتب فيها أحكاماً وحدد فيها حدوداً ربما وافق القليل منها الشريعة المحمدية وأكثرها مخالف لذلك وسماها الياسه الكبرى وقد اكتتبها وأمر أن تجعل في خزائنه تتوارث عنه في أعقابه، وأن يتعلمها صغار أهل بيته. . .إلى غير ذلك من الأمور التي رتبها مما هم دائنون به الآن، وربما دان به من تحلى بحلية الإسلام من ملوكهم[2]. إن ما صرح به القلقشندي من أنه ربما دان بالياسا من تحلى بحلية الإسلام، ليطابق الحقائق التاريخية تمام المطابقة، فقد اعتنق الإسلام «بركة» خان القبيلة الذهبية في القيجاق ولم يكن الخان وحده هو المسلم بل كان نساؤه ورجال حاشيته مسلمين، وكان لكل أمير عنده، ولكل خانون مؤذن وإمام، وكانت مدارس تحفيظ القرآن كثيرة، وعلى الرغم من هذا، فإن هؤلاء المغول المسلمين، كانوا لا يزالون متمسكين بكثير من عادات التتر وتقاليدهم المتبعة في منغوليا مما تضمنته الياسا، فمن ذلك عادة تتعارض مع تقاليد الإسلام، وهي عدم استعمال مياه النهر لا للغسل ولا للاغتسال، وقد نُبه على السفراء ـ الذين كان يرسلهم السلطان الظاهر بيبرس إلى بلاط «بركة» لتوثيق الروابط بين الطرفين ـ بألا يغسلوا ملابسهم في الأوردو ولكنهم كانوا يغسلونها خفية، إذا ما اشتدت حاجتهم إلى ذلك[3].وأما المغول الذين قدموا إلى مصر وعاشوا فيها، فكانوا متأثرين بالمدنية الإسلامية قبل أي اعتبار آخر، ومع هذا كانوا لا يزالون في بعض شؤونهم (يتبعون نصوص الياسا[4]) وكانوا إنما رُبوا بدار الإسلام ولُقنوا القرآن وعرفوا أحكام الملة المحمدية، فجمعوا بين الحق والباطل، وضموا الجيد إلى الرديء[5]. والواقع أن نصوص الياسا كانت محترمة جداً لدى المغول

---

(1) تاريخ الأدب في إيران، الترجمة العربية، ص: 561.
(2) صبح الأعشى (4/ 310 ـ 311)، المغول، للصياد، ص: 347.
(3) المغول، ص: 348.
(4) المغول، ص: 348.
(5) المصدر نفسه، ص: 349.

إلى درجة تبلغ التقديس، فكانت عندهم بمثابة القرآن عند المسلمين بحيث أنه لا يجرؤ شخص حتى السلطان نفسه على مخالفة أحكامها، أما إذا خرج عليها أي شخص آخر مهما كانت منزلته فإنه يكون عرضة للامتهان والعقاب[1].

ط ـ تيمور لنك يتمسك بالياسا: كذلك ظلت أحكام الياسا موضع عناية الأقوام التركية حتى بعد أن زالت دولة الأيلخانين في إيران، فقد سار عليها التيموريون، وكانوا يتبعون تعاليمها في إدارة دفة السياسة وشؤون الحكم، وفي الولائم والحفلات، يقول ابن عربشاه: وكان تيمور معتقداً للقواعد الجنكز خانية. . .وكذلك كل الجغتاي وأهل الدست والخطا وتركستان وأولئك الطغام كلهم يمشون قواعد جنكيز خان ـ لعنه الله ـ على قواعد الإسلام، ومن هذه الجهة أفتى كل من مولانا وشيخنا حافظ الدين البزازي ﷺ ومولانا وسيدنا وشيخنا علاء الدين محمد البخاري ـ أبقاه الله ـ وغيرهما من العلماء الأعلام وأئمة الإسلام بكفر تيمور، ويكفر من يقدم القواعد الجنكيز خانية على شريعة الإسلام، ومن جهات أخر أيضاً. وقيل إن شاه رخ أبطل التوراة والقواعد الجنكيز خانية وأمر أن تجري سياستهم على جداول الشريعة الإسلامية، وما أظن لذلك صحة، فإن ذلك عندهم صار كالملة الصريحة والاعتقادات الصحيحة[2].

ي ـ تسجيل أقوال ملوك المغول: درج المغول على تسجيل أقوال ملوكهم وتعليقها بعد موتهم، لكنهم لم يكونوا أحراراً في كتابة كل ما قاله هؤلاء الملوك، فكانوا يدونون فقط ما يجيزه الخان، وهذا القسم من أحاديث المغول كان يقدره رعاياهم وينزلونه من أنفسهم منزلة التوقير والاحترام، وكانوا يطلقون عليه كلمة (بيليك) بمعنى (حكمة). وقد جمعت حكم جنكيز خان وصارت مرجعاً لجميع الطوائف المغولية، يستشهدون بها، يستشيرونها في مختلف شؤون حياتهم، كما يستشيرون أحكام الياسا من هذه الحكم التي وردت على لسان جنكيز خان.

ـ لا يؤذ بعضكم بعضاً في أمور الدنيا، فإذا شعر بعضكم بألم من الآخر فليسارع لإزالته حالاً لتكونوا بمأمن من شرور الأعداء.

ـ إن من يدبر بيته أحسن تدبير، يتمكن من إدارة المملكة.

ـ من تمكن من إدارة عشرة أفراد وأحسن سوقهم، يتيسر له سوق جيش عظيم.

(1) المصدر نفسه، ص: 49.

(2) المصدر نفسه، ص: 350.

ـ من تمكن من نظافة بيته، يستطيع أن يحرس حكومته من السراق وأهل الشقاء[1].

* تنظيم واجبات خدمة الخان:

بعد أن نجح جنكيز خان في توحيد القبائل، بدأ في وضع نظام للبلاد، وقد حدد هذا النظام في مجموعة وظائف، يتولى أمر كل وظيفة شخص أو أكثر، وإذا كانت هذه الوظائف من الوظائف الهامة أو الحساسة تولى أمرها أحد أقارب الخان الأعظم، وكانت هذه الوظائف كما يلي:

أ ـ أربعة أشخاص لحمل السهام والأقواس.

ب ـ ثلاثة أفراد يتولون الإشراف على الطعام والشرب.

ت ـ فرد واحد يتولى إعداد المراعي للأغنام والماشية وثلاثة للمحافظة على هذه المراعي.

جـ ـ شخص واحد لإعداد العربات العسكرية ووسائل النقل والحمل[2].

ح ـ فرد واحد للإشراف على الموظفين والخدم في قصر الخان.

د ـ أربعة أفراد يتولون الحراسة بالتناوب وحمل السيوف.

ذ ـ اثنان يتوليان أمر المحافظة على الخيول.

س ـ أربعة أشخاص لتبليغ رسائل الخان.

ش ـ اثنان من النبلاء للمحافظة على النظام في اجتماعات المغول[3].

وكان لحرس الخان الأعظم شأن كبير في دولة المغول، فقد كان الجندي الواحد منهم أعلى مرتبة من قائد الألف رجل في الجيش، ويتم اختيار هؤلاء بعناية، وكان يتولى أمر الحراسة منهم مجموعتان أحدهما للنهار وأخرى لليل، وقد بلغ حوالي عشرة آلاف ممن عرفوا بالقوة وشدة البأس، ومن هؤلاء يتم اختيار ألف رجل يسمى كل واحد منهم (بهادر) ـ أي الشجاع المبارز ـ وهؤلاء الألف يقومون بخدمة الخان ويلازمونه ولا يخرجون للقتال إلا مع الخان نفسه ولا يتلقون الأوامر إلا منه، بالإضافة إلى الخان الأعظم وحراسه، كانت هناك طبقة الأمراء وهم معفون من الضرائب ولهم

(1) المغول، ص: 351، تاريخ العراق بين احتلالين (1/ 131 ـ 133).
(2) المغول والأوروبيون والصليبيون وقضية القدس، ص: 39.
(3) المغول والأوروبيون والصليبيون، ص: 39.

حق الاستيلاء على الغنائم أثناء الحروب، وكان هؤلاء الأمراء لا يستأذنون عند الدخول على الخان وكان من عادة الخان إكرامهم وذلك بأن يقدم لهم الشراب بنفسه[1]، واعتبر كافة المغول جنوداً في الجيش وعليهم حمل السلاح إذ ما دعت الحاجة، ولذلك اعتبر المغولي راعياً للأغنام والماشية في السلم جندياً في أوقات الحرب، وكان على الجميع تدريب أنفسهم وإعداد الأسلحة اللازمة للقتال، وقد عرف المغول جميعاً بالطاعة العمياء لقوادهم، كما عرفوا بالخيانة وعدم الوفاء بالعهود في أعدائهم، ومن كانوا يحاربون يقتلونهم دون رحمة لا فرق بين الأطفال أو النساء أو الشيوخ، أو المريض ولذلك اتسمت حروبهم بالقسوة والتدمير والتخريب[2].

واستطاع جنكيز خان أن يكسب احترام جيشه، فقد كان يعتبرونه رئيسهم الأعلى، يقدسون أوامره، وينزلون على طاعته، كما رفعوه إلى مرتبة التأليه، ولم يكن أحدهم يستطيع مخالفة الخان الأعظم، ويعكس النظام العسكري الذي وضعه جنكيز خان مهارته وكفاءته ودهاءه[3].

أ ـ تنظيم الجيش المغولي: لقد نظَّم (جنكيز خان) جيشه على التدرج العسكري كالآتي:

* التوكان (تومان): يتكون من عشرة آلاف شخص (محارب) ويسمى قائدة (نُويان)، أو (نوين).

* الكوكبة: تتألف من خمسين شخصاً (مُحارب) ويُسمَّى آمره (يوزباشي).

* المقدِّمة: تتألف من خمسين شخصاً (مُحارب) ويُسمَّى آمره (أونباشي).

* الجماعة: تتألف من عشرة أشخاص (محاربين) وتعتبر هذه أصغر وحدة مقاتلة، قد يجوز تجزئتها، فتقاتل وتعيش وتموت سويّة[4].

كانت جميع الوحدات مزوَّدة بخيول من لون واحد وبمعدَّل خمسة خيول احتياطيَّة لكلِّ محارب؛ إذ إنَّ الجواد كان السلاح الرئيس في جيش المغول، فكانت جيوشهم

(1) المغول والأوروبيون والصليبيون، ص: 39.
(2) المصدر نفسه، ص: 39.
(3) قضايا العالم الإسلامي ومشكلاته السياسية، النبراوي، ص: 72.
(4) الغزو المغولي لديار الإسلام، د. محمد فتحي، ص: 86.

تتألف من الخيالة فقط عدا المدفعية والهندسية التي كانت أدواتها تُحمل على عجلات، ولا يُوجد مُشاة بينها، كانت هذه الخيَّالة مقسَّمة إلى ثلاثة أنواع:

- السرايا الفدائيَّة، واجبها «فتح المعركة» وذلك بالشروع بالقتال والاشتباك مع العدو.

- سرايا الصاعقة وهي الخيَّالة الثقيلة، واجبها التغلغل في صفوف الأعداء واستثمار الفوز.

- السَّرايا الخفيفة، وهي من الخيَّالة الخفيفة، واجبها المطاردة، وستر الجناحين في القتال.

كان سلاح خيَّالة الصَّاعقة(الثقيلة) السيف وقوسين للسِّهام وسهاماً كافية، وفأساً ثقيلة.

أما تجهيزاتهم؛ فكانت الدروع الجلديَّة لحمايتهم وحماية خيولهم وخوذ فولاذية ومظلَّة فولاذية - أيضاً - لحماية الرأس والرَّقبة وحقيبة للسهام واقية ضد الرطوبة، يحفظ فيها الجندي سهامه الاحتياطية مع مسَن لسنِّ السِّهام، وحَدِّها، وأوتاراً احتياطية للأقواس، بالإضافة إلى ذلك، كان المقاتل يحمل حبلاً طويلاً ذا أنشوطة يستخدمه في جرِّ أدوات الحصار، أو سحب العجلات الغاطسة في الأوحال، أو المنقلبة أو العاطلة عن السَّير. وكان يحمل المقاتل - أيضاً - إناء لغلي الحليب وحقيبة يضع فيها أرزاقه الاحتياطيّة من اللحم المجفَّف والخبز واللبن الخاثر، الذي يضعه في إنائه، ويضع فوقه الماء، ويغليه، ويستعمله كالحليب، وقربة صغيرة للماء، أما سلاح السَّرايا الفدائية، والخيَّالة الخفيفة، فكان الرمح مع القوس وكانت تجهيزاتهم تُشبه الخيَّالة الثقيلة عدا الفأس الثقيلة والحبل ذي الأنشوطة، إلا أن فرقة الحرس تمتاز عن بقيَّة الخيَّالة بالترس الذي كان يحمله الخيَّال ليتلافى به ضربات سُيوف الأعداء، وكان لكل فارس في الجيش أربعة أو خمسة خيول احتياطية عدا الذي يركبه، وكانوا يعتمدون في جميع عمليَّاتهم الحربية على خطَّة حركتهم الرَّائعة، وتحركاتهم الخاطفة، وكان لجنكيز خان احتياط عام كما كان له محاربون للمحافظة على مصالح الإمبراطوريَّة في الخلف، ومحاربون آخرون لإدارة المقاطعات المحتلة كما كان لديه هيئة خاصة للاستخبارات، وأنشأ (رتلاً خامساً) في الدول المجاورة - معتمداً - في ذلك على الهدايا والوعود والزواج، وأخيراً شكل جيشاً بقيادة معاونه (جيي نويان) تحت تصرُّف إمبراطور الصِّين

(إمبراطور الكين) لمقاتله سُلالة السُّنج وهكذا، تمكن «جنكيز خان» من التَّعرف على إمبراطوريَّة الكين، وأساليبها، وخُططها وكشف سرِّ قلاعها، وحصونها، ونقاطها الحيويَّة، ومواردها الاقتصادية[1].

ب ـ من وصايا جنكيز خان لجيشه:

ـ يُمنع اتِّصال قائد التُّومان «النُّيان» بآخر مثله وليس له أمر على الآخرين.

ـ عدم تقصير الفرد في تجهيزاته من الخيط والإبرة إلى ملابسه، وإلى كل ما يكون مسؤولاً عنه من تجهيزات، والمخالف يعاقب بأشد العقوبة.

ـ المعاقبة ـ بشدَّة ـ لكل من لم يسمع كلام أبيه من الأولاد، والأخ الأكبر من أخوته، والزوجة من زوجها.

ـ يجب مراعاة السّلسلة في تنفيذ وإصدار الأوامر، فالفرد لا يراجع إلا آمره، وهكذا إلى أعلى الرتب.

ـ المعاقبة ـ بشدة ـ لكل من يسرق ويقطع الطريق، أو يقوم بجريمة.

ـ يكلف بالقيادة من كان عاقلاً شجاعاً، ويجعل الأفراد من سائر الناس، وأما الضعفاء، والعجزة فيتخذهم رعاة، فيوزع الأعمال بهذه الصورة.

ـ على جميع القادة من أدنى مستوى إلى أعلى مستوى مواجهة جنكيز خان في السنة مرة، ليتلقوا منه الأوامر، ويصغوا إلى نصحه،وقال إن من فعل ذلك تمكن من أن يصير قائداً لجيش عظيم[2].

ج ـ **التسلح والتجهيز**: كان الجواد في الجيش المغولي يعتبر السلاح الأساسي، ويُسلَّح المقاتل بسيف ورمح وقوسين، أحدهما للرَّمي أثناء رُكُوب الخيل، والثاني للرَّمي بدقة، كما كان يُجهَّز بثلاث جُعب مُعبَّأة بسهام مختلفة، وبأدوات حفر خفيفة وأرزاق احتياطية، وقُربة تُعلَّق بذيل الجواد، لوضع أجهزته فيها، وتساعده في اجتياز الأنهار والتُّرع والجداول المائية، وكان المقاتل يتدرَّع بدرع من الجلد[3]، وأمَّا القادة فبالإضافة إلى الأسلحة فكانوا يزودون بجلد رقيق مُستدير، تحيط حافته عُرى يربط فيها حبل،

---

(1) الغزو المغولي لديار الإسلام، ص: 86، 87.

(2) الغزو المغولي لديار المسلمين، ص: 87.

(3) الغزو المغولي لديار المسلمين، ص: 88.

بحيث يصبح جيباً مستديراً يُلقون فيه ملابسهم، وأسلحتهم وغيرها من الأمتعة، حتى يمتلئ تماماً، ويقفل، ثم يضعون وسط كل هذا أسرجتهم وأمتعتهم بالقارب إلى ذيل الجواد، ويكلَّف رجل بالساحة، ويجر الجواد خلفه، ويزودون ـ أحياناً ـ بمجاذيف تعينهم على العبور، ثم يدفعون الخيل الباقية لتتبع ذلك الجواد، وأما المقاتلون الآخرون، فكان يحمل كل منهم قربة متينة الحياكة يضع فيها كُلَّ أمتعته، ثم تُعقد فوهتها، وتربط بذيل جواد لعبور النهر، كما تستخدم هذه القربة نفسها لخزْن الماء حين اجتياز الصَّحاري(1).

د ـ أساليب القتال: كان الجيش المغولي يتقدم بقيادة جنكيز خان على جبهة عريضة وبثلاثة أرتال: جناح أيمن، وجناح أيسر ووسط كان الجناحان الأيمن والأيسر يتقدمان على مستوى واحد تقريباً في حين كان وسط الجيش يتقدم متأخراً قليلاً عن الجناحين الأوَّلين، بحيث يسمح له بمساندة أي منهما، دون أن يعرض نفسه للصدمة المعادية، كما يسمح ـ في الوقت نفسه ـ للجناحين الآخرين بتطويق مؤخرة العدو إذا تعرض الوسط للمهاجمة، لقد اعتمد جنكيز خان في بناء جيشه على مبدأ الشعب المسلح، كما اعتمد خطط الحرب الخاطفة، وكانت مسافة الأرتال الثلاثة لا تتعدى مسيرة يوم واحد، وكان جنكيز خان يتقدم بجيشه ليلاً ونهاراً، فقد تمكن جيشه من قطع مسافة 1130 كم في خمسة عشر يوماً أثناء حملته على بولونيا ومسافة 450كم في مدة ثلاث أيام أثناء حملته على هنغاريا، وقبل وصوله إلى هدفه بأيام قليلة كان تقدمه ليلاً فقط، وفي منتهى الكتمان، ثم يعقب ذلك التسلل هجوم عنيف ومفاجئ فجراً، وكان يستخدم إشارات الميدان أثناء القتال، وكان يستعمل الأعلام نهاراً والمصابيح أو إضرام النار ليلاً، ولقد استخدم جنكيز خان في حروبه جميع خطط المخادعة والمباغتة، وكان يعقد المعاهدات مع خصومه لشلهم وبذل الشقاق في المملكة التي يريد دمارها قبل إعلان الحرب عليها، وكان يرسل عناصر من استخباراته لشن حرب نفسية على أعدائه قبل أية معركة، وكان يستخدم حرب الصاعقة لقهر جيوش أعدائه، وعلى الرغم من أن جنكيز خان سفاح ووثني، إلا أنه امتاز بالزعامة والقيادة وتمكن من تأليف أقوى جيش، وتأسيس أقوى إمبراطورية عرفها تاريخ القرون الوسطى(2).

هـ ـ الاتصالات في الجيش المغولي: لقد اهتم جنكيز خان كثيراً بالاتصالات،

---

(1) الغزو المغولي لديار الإسلام، ص: 88.

(2) المصدر نفسه، ص: 90.

لقد كانت الاتصالات في الجيش المغولي، كالآتي:

ـ الاتصالات بين التشكيلات، وكانت تقام بأسلوبين ـ الأول: بواسطة المخابرة البصرية، وتتم نهاراً لإعطاء الإشارة بالعلم الذي حمله حامل العلم المرافق لقائد التومان، وليلاً بواسطة فانوس أحمر، وكانت إشارة واحدة من العلم أو الفانوس كافية لتحريك السراية بالنظر إلى الحركة المطلوبة. الثاني: الاتصالات بين مقر الجيش في الجبهة ومجلس الحرب الأعلى في العاصمة (قرة قورم) وتتم هذه بواسطة آمر خط المواصلات، وكالآتي: كان الطريق بين الجبهة والعاصمة يقسم إلى قواطع، يكون مركز كل منها في أكبر مدينة في ذاك قاطع، كان (الداروجا) أو آمر خط المواصلات آمراً لمركز الاتصالات أو كما يسميه المغول (يام)، يوجد في هذا المركز آمر مركز الاتصالات، وكاتب لتسجيل وقت مرور السعاة ومغادرتهم المركز، والأشخاص الذين مروا بهم في ذهابهم إلى الجبهة أو إيابهم إليها، وعدد من الأشخاص لحراسة المركز، وعدد كبير من الخيول السريعة التي كان كثير منها مسرجاً متهيئاً للحركة، كانت واجبات الرجال المخصصين بواجبات المراسلة من أولئك الذين يستطيعون قطع (80 ـ 100كم) في اليوم الواحد، وكان قد تم تخصيص (300 ألف) جواد لإدامة هذه الاتصالات[1].

و ـ القيادة: كان جنكيز خان يعين قادته من بين حرسه الخاص، وبهذا الأسلوب، جعل قيادة القوات العسكرية في جميع أنحاء الإمبراطورية الشاسعة بأيدي رجال يعرفهم جنكيز خان معرفة شخصية مباشرة، وقد جربهم بنفسه، وأن ما قام به أولئك القادة من أعمال مجيدة بالنسبة للمغول خير دليل على مقدرته على اختيار قادته[2]، وكان يقول: إن من يدبر بيته أحسن تدبير يتمكن من إدارة المملكة، وقال أيضاً: من تمكن من إدارة عشرة أفراد، وأحسن سوقهم تيسر له سوق جيش عظيم[3]، ولم يكن قادة المغول أكثر من منفذين ماهرين بإرادة إمبراطورهم[4]، وكان يقتطع الوحدات من جيشه ويجحفلها من جديد طبقاً لمتطلبات الأحوال والظروف، وكان يتخذ إجراءاته سريعاً، ويتحاشى نتائج الفشل الذي قد تتعرض له قواته أحياناً، ولقد أعطى لقب (النوين الأكبر) لأصغر أبناء جنكيز خان (تولوي) والذي كان اليد اليمنى لأبيه في الشؤون العسكرية، كما حمل لقب

(1) الغزو المغولي لديار الإسلام، ص: 91.
(2) المصدر نفسه، ص: 91.
(3) المصدر نفسه، ص: 91.
(4) المصدر نفسه، ص: 92.

(نوين) إخوة جنكيز خان الأصغران وهما (تموغا) و(بلغوطاي)، لم يتمتع أحد من صلب إخوة جنكيز خان بحقوق الإمارة، إلا سلالة (جوجي قسر) بينما دخل الباقون طبقة الأرستقراطية ـ النبلاء ـ وحمل أعضاء الأرستقراطية العسكرية لقب (طرخان)، ويتمتع حامل لقب طرخان بالامتيازات الآتية: الإعفاء من الضرائب، لهم الحق في الغنائم التي تقع في أيديهم في الحرب والصيد، واستطاعتهم دخول البلاط في أي وقت يشاؤون، دون إذن خاص، غير مسؤولين عن جريمة يرتكبونها، إلا عند الجريمة التاسعة (الجرائم التي عقوبتها الإعدام)، يأخذون موضع الشرف في المآدب، ويقدم لكل منهم كأس من النبيذ، وكان في عهد جنكيز خان ثلاثة من قادة التومانات أحدهم (موقالي)، وكان يقود الميسرة أو الجبهة الشرقية، والثاني (بوكورجي) قائد الميمنة أو الجبهة الغربية، والثالث (أنايا) يقود قوة الوسط، وكان الأمراء ـ النويد ـ يكونون أعلى طبقة أرستقراطية في البلاد، أما الكتل الشعبية، فإنها لم تكن سوى أداة في أيدي مساعدي جنكيز خان[1].

* أساليبهم في الحرب وسلوكهم مع المغلوبين:

قبل أن يقوم المغول بغزو إقليم من الأقاليم، كانت تطرح الخطة الحربية ـ التي سوف يتبعونها ـ على بساط البحث في جلسة «القوريلتاي» حتى إذا ما استقر الرأي على الغزو، أطلق المغول جواسيسهم في بلاد العدو، فيجمعون الأخبار من هنا وهناك، ويستقصون حالة الجيش، ويختبرون حصون المدن، ثم يعودون بهذه المعلومات إلى بلادهم ويطلعون قادة الجيش عليها، وبعد ذلك يرسل الخان رسلاً من قبله إلى حكام الأقاليم وسكان المدن يدعونهم إلى التسليم والنزول على طاعته وكانت أعمال المغول الإرهابية تلقي الفزع في نفوس سكان البلاد التي يزمعون الإغارة عليها، وكانت قلوبهم تنخلع رعباً وفزعاً حينما يوجهون إليهم إنذارهم المعتاد، «ولسنا نعلم ماذا تفعل بكم الأقدار إذا لم تسرعوا إلى تقديم الخضوع والاستسلام، والله وحده هو الذي يعلم ما هو نازل بكم»[2]، فإذا رفضوا التسليم وأصروا على المقاومة، تقدم المغول لمحاربتهم، حتى إذا ما شارفوا أبواب المدينة، دعوا الناس للمرة الأخيرة إلى الدخول في طاعتهم، فإذا خرج عظمائهم وذوو الرأي فيهم، وحملوا إليهم الهدايا والتحف، وقبلوا تزويد الجيش المغولي بما يحتاج إليه من مؤن، فإن المغول لا يتعرضون لهم بالأذى، ويكتفون بأن يرسلوا إلى المدينة حاكماً من قبلهم، يصدر الخان مرسوماً بذلك حتى

(1) الغزو المغولي لديار الإسلام، ص: 93.

(2) تاريخ جهانكشاي (1/ 18) للجويني، المغول، للصياد، ص: 364.

يكون لهذا الحاكم الاحترام والمهابة في النفوس، وكان التسليم في هذه الحالة معناه التبعية المطلقة[1]، وتسليم عشر خيرات الإقليم أو المدينة،أما إذا اتخذ السكان طريق العصيان، وسلكوا سبيل المقاومة خسر المغول خسارة قليلة أمام المدينة المحاصرة، فإنهم لا يعقدون مع أهلها صلحاً في حالة عجزهم على مواصلة القتال واضطرارهم إلى التسليم، بل يصدر الخان أوامره بقتل جميع السكان، لا فرق عنده بين صغير وكبير، ولا بين رجل وامرأة، كذلك يأمر قواته بتخريب المدينة وإباحة القتل العام، والطريقة المتبعة في ذلك، أن يدعو المغول الأهالي بالخروج إلى ظاهر المدينة، ويبقوا على الصناع وأرباب الحرف وبعد ذلك يرسلونهم إلى تركستان ومنغوليا، ويختارون من بين الأسرى من يصلح للقتال، فيكونون منهم قوات غير نظامية، يطلقون عليهم اسم (حشر) ثم يعملون سيوفهم في الباقين، فإذا أصر أهالي المدينة على المقاومة، رغم فرض الحصار عليها مدة طويلة فإن المغول يهاجمونها ويستولون عليها عنوة، أما إذا التقى المغول بجنود أعدائهم في أرض سهلة، فإنهم يهاجمونهم ليلاً ونهاراً حتى ينهكوا قواهم، وتكون النتيجة إما أن يستسلموا لهم، وإما أن يلوذوا بالفرار، وبعد المعركة يعطي الخان كل محارب من جنوده نصيباً عادلاً من الغنائم والأسلاب، كما يترجل عن حصانه ليعطيه من هو في حاجة إليه[2].

وكانت طريقة القتال التي سلكها المغول وجميع البلاد المتحضرة (الصين وغرب آسيا ثم في روسيا فيما بعد) واحدة على الدوام، فقد كانوا في كل مكان يسوقون سكان القرى العزل أفواجاً لشد أزرهم في حصارهم للمدن الحصينة، واعتاد المغول عند اقتحام الحصون أن يجعلوا هؤلاء السكان التعساء في المقدمة لكي يتلقوا هم السهام المنهالة عليهم، وليمهدوا الطريق للجيش الذي يتبعهم وكانت الأعلام في بعض الأحيان توزع عليهم لإيهام العدو بأن الجيش وافر العدد، ويقال إن عدد المغول عند حصار (خنجد) كان عشرين ألف فقط، بينما كان عدد الأسرى الذين أجبروا على مصاحبة الجيش خمسين ألف نسمة[3]، كذلك كان هؤلاء الأسرى يكلفون بحفر الخنادق، ونصب أدوات الحصار وما يراه المغول ضرورياً من الأعمال الحربية العنيفة الشاقة والأسرى المغلوبون على أمرهم من جراء ذلك معرضون للأخطار الجسيمة، دون أن يجدوا سبيلاً للفرار، إذ أن أعين المغول من ورائهم ساهرة عليهم، حتى إذا ما أنهك

(1) المصدر نفسه، ص: 365. (2) المغول للصياد، ص: 365.

(3) المصدر نفسه، ص: 365، دائرة المعارف الإسلامية، ص: 137.

الأسرى قوى أعدائهم، يجيء دور المغول للإجهاز عليهم[1].

ووصف ابن الأثير المؤرخ المعروف ذلك وقال: وكانت عاداتهم إذا قاتلوا مدينة، قدموا معهم من أسارى المسلمين بين أيديهم يزحفون ويقاتلون، فإن عادوا قتلوا، فكانوا يقاتلون كرهاً، وهم المساكين، كما قيل كالأشقر، إن تقدم ينحر وإن تأخر يعقل، وكان هم يقاتلون وراء المسلمين، فيكون القتل في المسلمين الأسارى، وهم بنجوة منه[2]. وكذلك برع المغول في الالتجاء إلى وسائل الخداع والتمويه، فكانوا إذا حاصروا مدينة من المدن وطال حصارهم لها دون جدوى تظاهروا برفع الحصار عنها، والعودة من حيث أتوا، حتى إذا اطمأن أهالي المدينة إلى رحيل أعدائهم وألقوا سلاحهم، عاد إليهم المغول، وانقضوا عليهم فجأة قبل أن يستعدوا فتسقط المدينة في أيديهم على الفور[3].

* الاهتمام بالخبرات:

بالرغم مما اشتهر به جنكيز خان من الصلابة والعناد في سياسته فإنه لم يغفل الإفادة من تجارب المتحضرين، إذ تلقى المساعدة من أرباب الخبرة والمرشدين وذوي الاطلاع فيما يتعلق بالشؤون الإدارية والمخابرات التي تساعده على القيام بأعماله الحربية، والمعروف أن تنظيم الإدارة المدنية عند جنكيز خان في مستهل حكمه كان أمراً بالغ الصعوبة، فلا شك أن المغول وقتذاك لم يبلغوا من المستوى الحضاري ما بلغته القبائل التي خضعت لهم كالكرايت والنايمان، ولذا أضحت الحاجة ماسة إلى الإفادة من الشعوب الخاضعة الموالية له عقب توحيد منغوليا، وكان التجار المسلمون أول من ظهر في بلاد المغول من أصحاب الحضارات، بل إن ثلاثة من المسلمين كانوا من أشد الناس إخلاصاً لتيموجين (جنكيز خان) في الأيام الحالكة التي صادفها في حياته المبكرة، وهؤلاء هم: جعفر خوجا، وحسن، ودانشمند الحاجب، وأفاد جنكيز من حسن ودانشمند في حملته على مملكة خوارزمشاه بما قاما به من مفاوضات باسم سيدهما مع السكان الأصليين، بل حدث حينما عزم جنكيز خان على مهاجمة الصين الشمالية، أن أنفذ إلى الملك التون خان، رسولاً اسمه جعفر، ولم يلبث أن نقل إلى

(1) المغول، ص: 367، للصياد.

(2) المصدر نفسه، ص: 367.

(3) المغول، ص: 367.

جنكيز خان أحوال البلاد ووصف الطريق الذي سلكه، فأفاد جنكيز خان من هذه المعلومات في حملته التي انتصر فيها على التون خان، واتخذ جنكيز خان له مستشارين من الموالين له على اختلاف عناصرهم، ومن هؤلاء: محمود يلواج من المسلمين، وتا ـ تا ـ تونجا من الأويغوريين، ولي ليو تشو تساي، من الصينيين وهو الذي خدم آخر ملوك النايمان وعلّم أبناء جنكيز خان الكتابة الأويغورية، والراجح أن محمود يلواج هو محمود الخوارزمي، أحد السفراء الثلاثة الذين وجههم جنكيز خان إلى محمد خوارزمشاه، (سنة 1218م) ومنذئذ ظل يعمل مستشاراً لجنكيز خان، فعينه حاكماً على إقليم ما وراء النهر بعد سقوطه في أيدي المغول فأحسن إدارته. وليو تشو تساي الخيتائي الصيني، فكان من أهالي الصين الشمالية وقد شغل أبوه منصب الوزارة لأسرة كين، واشتهر يي ليو تشو تساي بثقافته العالية ـ يأتي عنه الحديث منفصلاً ـ حيث استفاد جنكيز خان من خبرته وأفكاره في إدارة الدولة، فقد أقام جنكيز خان أصول الإدارة المغولية على أفكار وثقافات الآخرين التي استفادها من الخبراء والمستشارين من الشعوب والأمم الأخرى، كالحضارة الصينية والأويغوريين[1]وغيرها.

* حكيم من الصين:

وقع على يلوي شو تسي أن يلعب دوراً هاماً وصعباً أثناء قيام الإمبراطورية المغولية، فقد حظي بإعجاب جنكيز خان منذ أن وقعت عينه عليه وكان أول فيلسوف صيني يلتحق بالجيش المغولي ولم يجعل المغول الأمور ممهدة أمام هذا الطالب للفلسفة والطب والفلك، وحدث مرة أن سخر ضابط معروف بمهاراته في صنع الأقواس بالصيني العالي القامة والطويل اللحية، يقول له: ما هي الفائدة من وجود رجل كتب مع محاربين؟ فرد الصيني: إن صنع أقواس جيدة يحتاج إلى نجار، وأما عند ما يستدعي الأمر إدارة إمبراطورية، فالحاجة تدعو إلى صاحب حكمة، وصار حظياً لدى جنكيز خان وأثناء حروبه الكثيرة والطويلة، بينما كان المغول يجمعون الأسلاب والغنائم، كان هذا الحكيم يجمع الكتب والجداول الفلكية والأعشاب الطبية، وقد سجل جغرافية الحملات والمعارك والمواقع، وعندما اجتاحت الجيش موجة من الوباء، فقد تأمنت له الفرصة عندئذ للأخذ بثأره من الضباط الذين كانوا يهزأون به ويكتبه، لقد سقاهم من ماء أعشابه وجعل الله لهم فيه شفاء.

(1) المغول، للعريني، ص: 152.

كان جنكيز خان يقدره لعلمه ونزاهته، ولم يترك الحكيم الصيني فرصة تمر إلا حاول فيها إيقاف القتل الذي كان يفرش طريق الجيش المغولي، وتقول أسطورة إن جنكيز خان شاهد مرة في مضائق جبال هملايا السفلى، حيواناً، عجيباً بشكل أيل، لكن أخضر اللون وبقرن واحد لا غير، فاستدعى هذا الصيني ليسأله عن ذلك الحيوان، فأجاب هذا بصوت خفيف وقور: هذا هو كيو ـ توان. إنه مخلوق يعرف جميع اللغات الأرضية، ويحب الأحياء من بني الإنسان، ويشمئز كثيراً من أعمال التقتيل. إن ظهوره هو بلا شك تحذير لك أيها السيد الخان، ودعوة إلى الكف عن اتباع هذا السبيل[1].

وتعتبر كتابات الحكيم الصيني ـ ليو تشو تسي ـ من أدق المصادر وأوثقها، ويرجع إليه الفضل فيما كان للمدنية الصينية من تأثير على جنكيز خان وفي حد المذابح التي كان يجريها المغول في السكان بعد الاستيلاء على بلادهم وفي إنقاذ الكتب من النهب والحريق الذي تعرضت له المدن على أيدي المغول.

ومن مظاهر اهتمامه أيضاً، ما أجراه من أبحاث لاستخلاص عقاقير طبية، لمكافحة ما يصدر عن جثث الضحايا من أوبئة، وعلى الرغم من إخلاص يي لوي تشو تسي لدولة المغول، ولأسرة جنكيز خان، فإنه لم يستطع أن يخفي شعوره وعاطفته حينما يطلب الرأفة بمدينة أو إقليم، حل به قضاء المغول وحكمهم، ويشير إلى ذلك أوكيتاي ابن جنكيز خان بقوله: ألا تزال تبكي على هؤلاء القوم. ومع ذلك كان لوساطته الفطنة الحكيمة أهمية في وقف إجراءات يتعذر تلافيها أو إصلاحها، فنظراً لأنه ينتمي أصلاً للعنصر المغولي، ولأنه تشبع بالحضارة الصينية يعتبر وسيطاً طبيعياً بين عنصر المغلوبين على أمرهم وبين الطغاة المغول، على أنه ما كان ليسعى مباشرة عند المغول للدفاع عن قضية إنسانية، خوفاً من أنه لا يجري الاستماع إليه، بل حرص على أن يثبت لهم أن الرأفة من دواعي السياسة السليمة وبذلك كان يحقق غرضه، فما كان يرتكبه المغول من همجية ووحشية، يرجع إلى ما اشتهروا به من الجهل، وحدث في أثناء الحملة الأخيرة التي قادها جنكيز خان على كانسو، أن أشار قائد مغولي إلى أنه لا جدوى من الرعايا الصينيين الجدد، لأنهم ليسوا صالحين لاستخدامهم في الحرب ولذا يحسن استئصال شأفة كل هؤلاء السكان، الذين يبلغ عددهم نحو عشرة ملايين نسمة، حتى يصبح تحويل جانب من الأرض إلى مراعي لخيل العساكر، وأعرب جنكيز خان عن تقديره لهذه النصيحة، غير أن الحكيم الصيني لم يلبث أن أعلن للمغول الذين

---

(1) جنكيز خان، ص: 319.

لا يرتابون في إخلاصه مطلقاً ما يعود عليهم من المزايا باستغلال الأراضي الخصبة والإفادة من هؤلاء الرعايا المجدين، وشرح أن ما يفرض من الضرائب على الأرض، ومن مكوس على المتاجر سوف يتحصل منها كل سنة نحو 500 ألف أوقية من الفضة، و80 ألف ثوب من الحرير، 400 ألف غرارة من الحبوب، فكسب بذلك المعركة، وعهد إليه جنكيز خان أن يضع على هذه القواعد مقدار ما يتحصل من الضريبة[1].

ومما يذكر لجنكيز خان تقديره واحترامه واستفادته من المتحضرين والمثقفين وأصحاب الخبرات وفي عهد أوغوداي، خليفة جنكيز خان وابنه، كان هذا الصيني يدير الإمبراطورية بمفرده تقريباً، وقد استطاع أن يأخذ أمر تنفيذ العقوبات من أيدي الضباط المغول القساة القلب ليضع ذلك في أيدي قضاة عينهم لهذا الواجب، كما عين جباة ضرائب لصالح الخزينة، وكانت شجاعته وحكمته وسرعة خاطره، وذكاؤه يستدعي إعجاب القادة المغول، وكان يعرف كيف يؤثر فيهم، فمثلاً كان الخاقان أوغوداي مدمناً على الشراب بكثرة وكان للحكيم الصيني رغبة كبيرة في أن يظل هذا الخاقان على قيد الحياة أطول مدة ممكنة، ولما رأى أن نصائحه لأغوداي واعتراضه على إغراقه في شرب الخمر لا تجدي فتيلاً، جاءه يوماً بوعاء من حديد تحتفظ به الخمرة، وقد تآكلت حافته بفعل الكحول، عرض هذا الوعاء على العاهل المغولي وهو يقول: إذا كانت الخمرة تحدث مثل هذا التأثير في الحديد، فاحكم بنفسك كيف يكون تأثيرها في أحشائك! وتأثر أوغوداي بهذه البرهنة، فاعتدل في شرابه.

ومرة غضب أوغوداي لعمل قام به الوزير الصيني وأمر بإلقائه في السجن، ولكنه غير رأيه بعد فترة وأمر بالإفراج عنه ولكن الصيني لم يرغب في مغادرة السجن، وأرسل أوغوداي يستفسر عن السبب الذي منعه عن الظهور في البلاط فأجاب: أنت جعلتني وزيراً لك وأنت وضعتني في السجن، إذن فإني مذنب، وأنت أطلقت سراحي، إذن فأنا بريء، إنه لسهل عليك أن تجعل مني ألعوبة في يديك، ولكن كيف أستطيع بعد ذلك أن أدير شؤون الإمبراطورية؟ وأعيد بعد ذلك لوظيفته، وكان بعض الضباط المغول يتهمونه باطلاً بجمع ثروة كبيرة من وراء عمله مع جنكيز خان وأوغوداي ولذا عمدوا بعد موته إلى تفتيش مسكنه لكي لا يجدوا من الثروة المزعومة غير أدوات موسيقية متحفية ومخطوطات، وخرائط وجداول وحجارة عليها كتابات منحوتة[2].

(1) المغول، للعريني، ص: 152.

(2) جنكيز خان، ص: 320.

* الكوريلتاي «المجلس العام» وأركان الدولة:

كان المجلس العام «الكوريلتاي» يعقد كل عام، وكان المكان الذي اختير لانعقاد آخر كوريلتاي في حياة جنكيز خان، مرجعاً تبلغ دائرته 40 كلم تقريباً، وكان مكاناً مثالياً، وفقاً للتفكير المغولي، فالعشب يغطي الأرض على جوانب النهر والكلأ وفير والصيد كثير، وكان الوقت أوائل الربيع وهو الشهر المفضل لاجتماع الكوريلتاي، وأخذ قادة الجيش يفدون في المواعيد المحددة، ولم يتأخر قليلاً سوى سوبوداي المستدعى من أوروبا، لقد قدموا من جميع أركان المعمورة المعروفة، جنرالات، خانات، ملوك وسفراء، قاموا برحلة طويلة للوصول إلى مجلس نبلاء الإمبراطورية المغولية وقد أحضروا معهم عدداً كبيراً من البطانة والحاشية، وكانت المركبات القادمة من الصين مجرورة بالبقر ومغطاة بالحرير وكانت ترفرف فوقها الأعلام المغتنمة وكانت مركبات الضباط القادمين من سفوح التيبيت مسقوفة مذهبة ومبرنقة، مجرورة بجمال التيبيت(الياك)، ذوات القرون العريضة والأذيال الحريرية البيضاء، العظيمة القيمة لدى المغول، الذين يستعملونها زينة للرايات والأعلام.

وجاء تولي أمير الحروب، قادماً من خراسان جالباً معه عدداً كبيراً من الجمال البيضاء، وجاء جغطاي، هابطاً من ثلوج الجبال يقود مائة ألف رأس من الخيل هدية لأبيه، كان الجميع يرتدون ألبسة من ذهب وحرير ومعاطف من فراء السمور، ويتدثرون إضافة بأردية من جلود الذئاب وقاية لملابسهم الثمينة، وكانت الخيل، عوضاً عن الجلد المبقع بفعل الأنواء والمناخات، مبردعة بقمصان من الزرد المجلجل، وسروجها تلمع بالفضة المجلوة وتخطف الأبصار بأضواء الجواهر النفيسة. واجتمع الكل في فسطاط أبيض كان من الضخامة بحيث يستوعب ألفي شخص، وكان للفسطاط مدخل لا يستعمله سوى الخاقان، وكان الجنود حاملو التروس من الشدة والصرامة بحيث لم يكن قط ليجرؤ أحد على المجازفة بالاقتراب من مقر جنكيز خان وكما فعلوا في مناسبات سابقة، فقد أتوا معهم بهدايا للخاقان، بأحسن أسلابهم من الخيل والنساء والأسلحة وبالكنوز الملتقطة بعناية عن خزائن نصف العالم تقريباً. ويقول مؤرخ مغولي: إنه لم يسبق قط أن شاهد المغول مثل هذه الفخامة والأبهة من قبل. أمراء الإمبراطورية يشربون الآن، عوضاً عن حليب الأفراس، خمر العسل ونبيذ فارس الأبيض المعتق، وكان جنكيز خان محباً لنبيذ شيراز[1]. جنكيز خان يجلس الآن على العرش الذهبي الذي كان

(1) جنكيز خان، ص: 328.

للسلطان محمد الخوارزمي، وقد جيء به من سمرقند وكان إلى جانبه تاج وصولجان السلطان الراحل، وعندما اجتمع الكوريلتاي في أول جلساته، واستهل جنكيز خان أول جلسة بأن أعطى للحضور خلاصة عن حملات السنوات الثلاثة الأخيرة إلى أن قال: لقد جنيت سطوة عظيمة، وسلطاناً كبيراً بفضل «الياسا» وعليكم جميعاً أن تعيشوا في طاعة القوانين[1]، لم يتبجح جنكيز خان الداهية بإنجازاته، وكان الشيء الأهم في نظره، والواجب تحقيقه، هو الخضوع لدستور الإمبراطورية المغولية(الياسا)، إنه لم يعد بحاجة إلى توجيه نصح لضباطه، ولا إلى قيادتهم بنفسه، فهم الآن قادرون على شن الحروب على مسؤوليتهم وكان يرى بوضوح مدى الخطر الكبير الذي كان من المتوقع أن ينجم عن وقوع التفرقة والنزاع فيما بينهم وقد التفت إلى أولاده الأشقاء الثلاثة وقال: ـ لا تسمحوا أبداً للخصومات أن تحل بينكم! وجرت حفلات ومآدب لمدة شهر، ثم انفرط عقد الحشد، فغادر جغطاي إلى جباله وتوجه آخرون في طريقهم إلى كراكوروم وعلى رأسهم جنكيز خان وكان سوبوداي يسير إلى جانبه ويحدثه عن مغامراته في عالم الغرب وكرّس جنكيز خان، بعد ذلك مابقي من حياته لتوطيد دعائم إمبراطوريته العظيمة، التي امتدت من كوريا حتى الخليج العربي، وجرى تنظيم الإدارة بصورة كاملة، دقيقة ومنظمة بإشراف الحكيم الصيني يلوي شو تسي، وربما كان الشيء الأكثر لفتاً للنظر، في هذه الإمبراطورية تعدد الديانات، وقد جمع جنكيز خان حوله مستشارين من جميع الأديان وثنيين ومسيحيين وبوذيين ومسلمين[2].

* الإستراتيجية المغولية:

كان المغول على مقربة من الحضارة الصينية، لذا فإن تأثير الثقافة الصينية المتفوقة على المجتمع المغولي أمر لا يمكن إهماله، وهناك احتمال بأن يكون جنكيز خان قد تأثر بالتفكير العسكري الصيني في مجال المحاربة، وسبب ذلك أن جنكيز خان، بعد أن نجح في تدمير إمبراطورية كين الصينية، التي كانت تعرف بالإمبراطورية الذهبية أكره عدداً كبيراً من العلماء والعسكريين وأصحاب الحرف والفنون الصينيين على العمل في خدمته، وكان المغول ولا شك حتى قبل اجتيازهم لجدار الصين الكبير، قد تأثروا بمن كانوا يزورهم من الصينيين من تجّار وعلماء ومنفيين سياسيين وعسكريين فارين من حاميات الحدود. والسر في ذلك النجاح العجيب للمغول في قيادة الجيوش، هو التفهم الكامل لطبيعة

(1) المصدر نفسه، ص: 328.

(2) المغول، ص: 359 للصياد.

الحرب، فلقد قاتلوا بدهاء غير معطين لعدوهم أي إمهال، ينتزعون المبادرة ويحتفظون بها دون تراخ أو مهادنة، ويعملون في نفس الوقت على تسكين مخاوف الخصم بحمله على الشعور بالأمن الكاذب، وذلك قبل أن يتحركوا منقضين عليه كالصاعقة، لقد كان المغول يعدون بعناية ودقة خططهم لكل حرب في المجلس العام (الكوريلتاي) الذي كان نوعاً من مجلس حربي أيضاً، لقد كانوا يرسلون العملاء والجواسيس إلى أراضي العدو ليأتوا بأعلام عن أموره العسكرية، والسياسية والاقتصادية، والجلوغرافية، وكانوا يستعملون بحذق ودهاء تكتيكات ما يعرف اليوم باسم الرتل الخامس، ويتعاطون المحاربة النفسية، وقد استخدموا في الصين وأوربا الشرقية، سياسة الإرهاب الكلية، وادَّعوا في فارس وبلاد ما وراء النهر، بأنهم غضب الله وكان يترك لقادة الميدان، بعد وضع الخطة، كامل الحرية في استخدام مواهبهم ومبادراتهم، في نطاق حدود واسعة لتنفيذ الاستراتيجية العامة عند بداية فصل الحصاد، وبينما يكون الفلاحون في البلد الضحية، غارقين عاكفين على حصاد مزروعاتهم، وإذا بهم يفاجئون بنزول المغول عليهم كالجراد، لالتقاط حاجتهم من الحبوب، ولإتلاف ما يزيد عن هذه الحاجة[1].

وقد وصف كاتب أوروبي أسلوب القتال والمحاربة المغولية ووقعه على الأوروبيون كما يلي: إن أوروبا تدرك اليوم معنى المحاربة المغولية وأبعادها، كانت تعليمات جنكيز خان تقضي بأن يعم الرعب والهلع جميع الأرجاء عقب الضربة الأولى، وأن يعمّ الشلل الأرض ومن عليها بإثارة إحساس بالعجز التام كالذي تحدثه كارثة طبيعية لا رماد لها ولا وقاية منها، وبحيث يكون الشعور بأن كل مقاومة لن تكون سوى الجنون المطبق بعينه، إن الشياطين إخوان الشياطين، وقد أرسلهم الله غضباً ولعنة[2]. لقد أظهر جنكيز خان للعالم بصورة دراماتيكية، وكشف عن القيمة الحقيقية للمزج العسكري من الاستعداد والإعلام، والانضباط، والحركية، وضربة المطرقة والدروس المستفادة من حروب جنكيز خان من حيث الجوهريات لا تزال اليوم صالحة كما كانت في أيامه، ولذلك فإن واضعي نظرية القتال الميكانيكية الحديثة والداعين إلى حرب الدبابات ومنظريها، كالجنرال فوللر والسير ليدل هارت وآخرين قد لجأوا إلى حروب جنكيز خان، ليستوحوا منها التوجيه والإرشاد[3].

(1) جنكيز خان، ص: 167.

(2) جنكيز خان، ص: 168.

(3) المصدر نفسه، ص: 169.

إن الدرس الجوهري الذي نتعلمه من الإستراتيجية المغولية وإنجازاتها العسكرية يتمثل في واقع أنه ما لم يكن الجيش مجبولاً ومشرباً بروحية واحدة شاملة من التفاهم، والانسجام، والمسعى الواحد والتكرس للهدف والغاية، ابتداء من القائد الأعلى حتى جندي الصف، فإن ذلك الجيش لا يستطيع أن يقاتل ويفوز[1].

لقد تميز التخطيط الإستراتيجي المغولي بالتركيز على المؤسسة العسكرية والتي اشتهرت بالعمليات الحركية السريعة الخاطفة، واستعمال الخداع والمخاتلة على سلم كبير وإخضاع المجتمع كله لأغراضها الخاصة وجني طاقة عمل ضخمة من شدة الانضباط والتقيد بالقوانين والسهر على تطبيقها، وتتميز هذه العسكرية أيضاً في الأمور التالية:

- تأمين الإعلام الإستراتيجي اللازم لمناورات المخادعة والتضليل، بقصد تشتيت العدو.
- توسيع الخلافات الداخلية لدى الخصم.
- استغلال السرعة وطاقة الاحتمال للمناورة والمفاجأة.
- تجنيد الطاقة البشرية المحلية المغلوبة، لتغطية الخسائر في الصفوف وتكثيرها.
- احتلال المدن قبل أن تظهر فيها أية مقاومة جدية.
- التنسيق الصحيح، وفي حينه، بين مفارز متباعدة.

وهذه الميزات جميعها تؤدي إلى الحفاظ على الطاقة البشرية المحدودة وإلى الانتصار، ولم يقم النجاح العسكري المغولي على كفاءة واحدة، وإنما قام على اشتراك وتعاون من جميع الكفاءات، ولو غير مغولية، كان الصينيون ينتجون مهندسين أفضل، والأتراك خيالة أسرع، والمسلمون أكثر بطولة، إلا أن المغول كانوا يظهرون جميع إمكانياتهم وخواصهم، المادية والروحية والنفسية، في نموذجية عسكرية صالحة لشعب مكرَّس بكليته للحرب، لقد حول المغول رابطة قبلية طوعية إلى دولة عسكرية عديدة الأوجه والأدوار، وحافظوا على جيوشهم قوية بالانضباط الصارم وافتراس العدو، وكانت الشبكات البريدية ومحطاتها المرحلية تسمح بالاستجابة عاجلاً إلى كل تحدٍّ على

(1) جنكيز خان، ص: 171.

حدودهم المترامية الأطراف، وكانت إستراتيجيتهم ذاتية المنبع، قامت وتطورت، حسب الاستطاعة التكتيكية والإمكانات الإستراتيجية المتاحة لهم[1].

* عادات وتقاليد اجتماعية:

كان للمغول عادات وتقاليد اجتماعية سار عليها جنكيز خان وأبناؤه من بعده، ونظراً لغربتها وطرافتها، نشير إلى أهمها، لكونها جزء من مقومات المشروع المغولي في عهد جنكيز خان، فمن المعروف عن المغول أنهم كانوا يسكنون الخيام، كما هو المتبع عند البدو، وكانوا يسمون أمكنة إقامتهم في المصايف والمشاتي «يورث» أو «أوردو»، وجرياً على هذه العادة كانوا يختارون أماكن معينة يقضون فيها الصيف، يقال لها «بيلاق»، وأخرى يمضون فيها الشتاء تسمى «قيشلاق»، واستمروا يسيرون على هذا التقليد حتى بعد أن فتحوا كثيراً من البلاد المتمدنة، واضطروا إلى سكن العواصم، فكانت لهم أمكنة يقيمون فيها صيفاً وأخرى يقيمون فيها شتاء، وهذه الخيام في المصايف والمشاتي، كانت تتخذ صفة المدينة الكبيرة إذ أنه بالإضافة إلى كثرة الخيام والأكواخ، فإن السكان الذين يصحبون الخان، كانوا يمثلون جميع الطوائف من قواد الجيوش إلى القضاة والكتاب والصناع والتجار وغيرهم، وكان أرباب الحرف والصناعات يزاولون عملية البيع والشراء، ويمدون هذه المدن المتنقلة بما يلزمها من الحاجيات، وكانت عادة المغول في حالة حدوث أمر هام، كتنصيب ملك جديد أو القيام بحملة حربية أن يدعى أمراء المغول وأقاربهم إلى الاجتماع بواسطة رسل يقام لهم «إيلجيان» ـ مفرد «يلجي» ـ أي مبعوث أو سفير للتشاور في مختلف المسائل المطروحة على بساط البحث.

وهذه المجالس يقال لها بالمغولية «قوريلتاي»، وأما عن الزواج، فقد كان للخان أن يتزوج بمن يشاء من النساء، وكان يأخذ بمبدأ تعدد الزوجات، والعادة المتبعة أنه إذا تغلب على ملك أو أمير أو عقد معه اتحاداً أو تحالفاً، فإنه كان يتزوج من ابنته أو أخته وأمه، وإذا تغلب عليه وقتله، فكان يتزوج من امرأته، وكان جنكيز خان يسير على تلك الطريقة، ويقال إن عدد زوجاته كان يزيد عن 500 زوجة، وكان المغول يفضلون أبناءهم من الزوجة التي يؤثرونها على غيرها من النساء، وبعد موت الخان كانت تؤول جميع نسائه إلى أكبر أبنائه، وله الحق في أن يتزوج بمن يشاء منهن، وذلك باستثناء والدته، كما أن له أن يمنحهن لأصدقائه أو يطلق سراحهن[2]، وأما مجموع الأبناء

---

(1) جنكيز خان، ص: 174 ، 175.

(2) المغول، للصياد، ص: 352.

والأقارب والأشخاص الذين هم من عشيرة الخان أو الأمير، فقد كان يطلق عليهم كلمة «أُرُوغ» بمعنى «عشيرة» أو «سلالة»، أما رعايا الخان الذين يخضعون لسيطرته، فقد كان يطلق عليهم لفظة «أولوس»[1].

* الخرافات بين المغول:

كان المغول يعتقدون أن للشياطين تأثيراً كبيراً على حياتهم، وكانوا يخشون السحر، ويخافونه، وقد تضمنت الياسا أحكاماً شديدة رادعة توقع على كل من يتهم بالسحر والشعوذة بقصد الإضرار بالغير وكانوا ينظرون إلى طائفة الكهنة من البوذيين على أنهم وحدهم هم الذين يستطيعون إبطال تأثير السحر ودفع ضرره، ويعرف كل واحد منهم باسم «بخش»، والساحر الملم بضروب السحر يقال له «قام»، ولقد كان هؤلاء الكهان يزعمون أنهم يستطيعون تسخير الشياطين، كما أن ذوي الأرواح الشريرة يألفونهم ويأتمرون بأمرهم، وأنهم قديرون على التنبؤ بالغيب عن طريق تحضير الشياطين والأرواح، فعند قصف الرعد أو ظهور البرق، كانوا يقفون مشدوهين صامتين كأن على رؤوسهم الطير، وإذا اتفق أن أصابت صاعقة شخصاً ولم يهلك، فإن أفراد أسرته وقبيلته يطردونه على الفور، ولا يصرحون له بالعودة إلى الخيمة قبل مضي ثلاث سنوات، والغريب أنهم كانوا يتصورون أنه إذا جلس شخص في الماء وقت الربيع أو الصيف، أو غسل يده في النهر ووضع الماء في أواني ذهبية أو فضية، أو ألقى بلباس مغسول في الصحراء، فإنه ينتج عن هذا كله رعد وبرق كثير، وهو أخشى ما يخشاه المغول، وتجنباً لكل هذا، نصت الياسا على عقوبات قاسية تنفذ فوراً فيمن يقترف هذه الخطايا، وهكذا كان المغول يخشون قوة السماء الأبدية ـ كما كانوا يسمونها ـ أكثر من أي شيء آخر، فمن السماء تأتي الأعاصير والرعد والبرق والعواصف الثلجية، ومن السماء أيضاً يأتي دفء الربيع الذي يهب الحياة والأمطار التي تغذي الحشائش ـ وفي بعض الأوقات كان جنكيز خان يتجه بمفرده إلى قمة جبل مرتفع ليتضرع إلى هذه القوة الخفية في السماء قائلاً: ابعث إلي بأرواح طبقات الهواء العليا لتصادقني، أما على الأرض فابعث إلي برجال يكونون عوناً لي[2]، كذلك وقر في نفوس البعض منهم أنه بدون التمتمات والطقوس والخزعبلات التي يلجأ إليها

(1) المغول، ص: 352.

(2) المصدر نفسه، ص: 355.

الساحر، لا يمكن أن ينزل المطر والثلج، وكانوا يعاملون المرضى معاملة قاسية، وكانت عاداتهم عندما يمرض أحد منهم، يعزل عن مرقده وتوضع علامة على مسكنه تشير إلى وجود مريض في الداخل، وإلى عدم دخول أحد عليه، ولا يزور المريض أحد أبداً إلا من يتولى خدمته، وقد توضع حربة خارج خيمة المريض، تلف حولها قطعة من الصوف الأسود وبذلك لا يجرؤ شخص غريب على دخولها، وعندما تشتد علة المريض، يتركه الجميع، لأنه ليس مصرحاً لمن يشاهد موته أن يدخل قصر الإمبراطور، أو مسكن عظيم من العظماء حتى يبزغ القمر الجديد، فكأنهم بسلوكهم هذا ينظرون إلى المريض نظرتهم إلى ملوث نجس[1].

وهكذا ذاعت تلك الخرافات، وانتشرت بين أقوام المغول انتشاراً عجيباً، وقد تحدث عنها أغلب المؤرخين والرحالة[2]، وكان المغول يقدرون الأشخاص الذين يؤدون لهم خدمات جليلة، أو يقدمون لهم مساعدات قيمة في أوقات المحنة والشدة واعترافاً بهذه المنة، كانوا يعنون بمثل هؤلاء الأشخاص، ويتعطفون عليهم، وهذا العطف والتقدير يسمى بالمغولية «سيورغاميش» ويهبونهم الأراضي والأملاك ليستغلوها، ولينتفعوا بما تدره عليهم، ثم تؤول تلك الأملاك إلى أعقابهم بالوراثة ويعرف هذا في المغولية بما يسمى «سيورغال»، وأحياناً كانوا يعطونهم لوحات شبيهة بالميداليات في العصر الحديث وهي من الذهب أو الفضة أو الخشب حسب مقام كل شخص، وهي في حجم كف اليد، وينقش عليها اسم الله واسم الخان، وأسمى الأنواع منها ما كانت تزينها صورة الأسد، وأما إذا شك الخان في أحد أتباعه، فإنه يقيله إلى المحاكمة لمحاكمته[3]. وكان المغول يعتقدون أنه لا يصح أن يوجد إلى جانب حاكمهم حاكم آخر على ظهر الأرض ينازعه السيطرة والسلطان «رب في السماء وحاكم في الأرض»، وكانوا يعتقدون أن الخروج على طاعة جنكيز خان ومخالفة أوامره، يعد جرماً عظيماً لا يغتفر في نظر المغول، ذلك لأن أوامره في عقيدة هؤلاء القوم إنما تصدر من السماء، فعصيان رئيسهم، إنما عصيان لله، وكان ينظر أيضاً إلى أفراد أسرته تلك النظرة القدسية، فالدنيا تقوم وتقعد إذا اعتدي على واحد منهم أو أصيب بأذى، وأن تخريب مدينة «نيسابور» وجعل أعاليها أسافلها بسبب قتل «طغاجار» صهر جنكيز خان، وتسوية

(1) المغول، للعريني، ص: 356.
(2) المصدر نفسه، ص: 356.
(3) المصدر نفسه، ص: 358.

«باميان» بالأرض على إثر قتل «موتوجن» ابن «جغتاي» وحفيد جنكيز خان، ليؤيد هذه الحقيقة[1].

لم يكن المغول يعرفون البلاط والعاصمة في بداية أمرهم، لذا فلم تكن لديهم مراسم محددة للتتويج والاستقبال الرسمي والمجلس الملكي العام، بل كانت مراسم هذه الرسميات تتسم بالبساطة، وبعد وفاة جنكيز خان وعندما أراد كبار رجال العشيرة تتويج ابنه «أقطاي خان» عليهم، قاموا أولاً بتحديد يوم السعد عن طريق السحرة والمنجمين، ثم رفعوا قلانسهم حسب عاداتهم، ثم أمسك «جغتاي» يد أخيه اليمنى وأمسك «أوتكين» شقيق جنكيز خان يد «أقطاي» اليسرى وأجلساه على العرش، وقدم تولي له شراباً ثم جثا الحاضرون جميعاً على الأرض ثلاث مرات احتراماً وهنأوه وهم راكعون، وبعد انتهاء مراسم التتويج خرج «أقطاي» من المعسكر في معية سائر الأمراء، وجثوا أمام الشمس ثلاث مرات، ثم جلسوا لتناول الشراب والاحتفال، وبعد انتهاء الحفل، ظل المغول يطهون الطعام لثلاث أيام متوالية على روح جنكيز خان، واختاروا أربعين فتاة من نسل الأمراء وأركبوهن في كامل زينتهن وألبسوهن أفخر الثياب وزينوهن بأقيم أنواع الجياد، ولكنهم قتلوهن في النهاية، كما قتلوا أجيادهن معتقدين أن في ذلك الإجراء إرضاء لروح جنكيز خان[2]. هذه بعض الخرافات والعادات والأعراف التي شكلت وكانت جزءاً من المشروع المغولي.

المبحث الثالث:

إزالة المغول للدولة الخوارزمية

اتفق الجغرافيون المسلمون في تحديدهم لإقليم خوارزم، فذكروا أن حدوده من الغرب بلاد الترك الغزية، ومن الجنوب خراسان، ومن الشرق بلاد ما وراء النهر، ومن الشمال بلاد الترك أيضاً[3]، واعتبر الإصطخري إقليم خوارزم من أقاليم ما وراء النهر، بينما عده جغرافي آخر من أهل القرن الخامس الهجري من مدائن خراسان[4]، ولعل السبب في إضافته إلى خراسان في القرن الخامس يرجع إلى خضوعه للسلاجقة في (سنة

(1) المغول، للصياد، ص: 143.

(2) المغول، للصياد، ص: 357.

(3) الدولة الخوارزمية، د. نافع العبود، ص: 11.

(4) آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، ص: 14.

430هـ / 1038م)[1]، وهذا تحديد فرضه الواقع السياسي لا الواقع الجغرافي.

وأما ياقوت الحموي المتوفى (سنة 626هـ / 1228م)، فقد ذكر عن هذا الإقليم أنه منقطع عن خراسان وعن ما وراء النهر[2]، وأما خوارزم في وقتنا فتقع ضمن الاتحاد السوفييتي ـ سابقاً ـ ووزعت بين جمهوريتين هما أوزبكستان وتركمانستان السوفيتيين[3] سابقاً، وذلك بعد غزو الروس لها وخلعهم أميرها خان خيوة السيد عبد الله خان بهادر في (سنة 1924م)[4].

أولاً: سلاطين خوارزم:

ينسب سلاطين الدولة الخوارزمية في الأصل إلى أنوشتكين وهو عبد تركي كان مملوكاً للأمير السلجوقي بلكباك، اشتراه من بلاد الغور[5] التي تقع في أفغانستان الحالية ويبدو أن هذا الأمير السلجوقي قد رأى في أنوشتكين ملامح نجابة اتضحت في تكوينه الجسمي المنسق، وصفاته النفسية الهادئة، ومن ثمة قدمه إلى بلاط السلطان السلجوقي «ملكشاه» حيث حظي بوظيفة الساقي[6]. وقد هيأت له هذه الوظيفة فرصة الترقي حتى عين شحنة على إقليم خوارزم، (سنة 470هـ/ 1077م)، فاستمر مداوماً عليها حتى وفاته في (سنة 490هـ/ 1096م)، ولما كان أنوشتكين قد أرسل أكبر أبنائه قطب الدين محمد إلى مدينة مرو ليتلقى آداب الرئاسة ورسوم الإمارة، فقد أتاح ذلك لقطب الدين فرصة الترقي حين رأى الأمير السلجوقي ذاد حبشي الذي كان يحكم خراسان من قبل السلطان السلجوقي بركياروق تعيينه والياً على إقليم خوارزم، ولقبه خوارزم شاه سنة 490هـ[7]، وفي نفس العام آلت إمارة خراسان إلى الأمير سنجر السلجوقي من قبل أخيه السلطان بركياروق في خامس جمادى الأولى وأبقى قطب الدين محمد في منصبه، فظل هذا الأمير طوال فترة ولايته على إقليم خوارزم (490/ 521هـ)

---

(1) أخبار الدولة السلجوقية، ص: 17.

(2) معجم البلدان (4/ 400)، الدولة الخوارزمية، ص: 11.

(3) الدولة الخوارزمية، ص: 12.

(4) المصدر نفسه، ص: 12.

(5) نهاية الأرب (27/ 297)، الأتراك الخوارزميون، ص: 11.

(6) مفرج الكروب (4/ 322).

(7) الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي، ص: 19.

تابعاً لسنجر وملتزماً بطاعته[1]، وقد يرجع ذلك في الغالب إلى ما كان عليه قطب الدين محمد من كياسة وفطنة وعرفان بالجميل للسلاجقة أصحاب الفضل عليه وعلى أبيه. كما يرجع أيضاً لما كانت عليه دولة السلاجقة من قوة آنذاك وبخاصة الفترة الأولى من حكم السلطان سنجر السلجوقي ولم يستطع آتسز بن قطب الدين محمد (522/ 551هـ) أن يصبر على هذه الطاعة طويلاً، فخرج على إطارها منذ (عام 530هـ) ودخل في صراع طويل مع السلطان سنجر، فنجم عن ذلك تعرض مدينة خوارزم للحصار السلجوقي ثلاث مرات في أعوام (533هـ، 538، 542هـ)، وفي كل مرة كان آتسز يضطر إلى إعلان الخضوع والتماس العفو وتقديم الهدايا، وكان السلطان السلجوقي سنجر يقبل ذلك منه[2].

وفي الحقيقة لم يكن السلطان سنجر متفرغاً لمواجهة عصيان آتسز فقد تعرض جيشه الضخم لهزيمتين فادحتين: الأولى أمام قبائل القراخطاي الوثنيين الذين كانوا يحكمون تركستان ويهددون المدن الإسلامية في بلاد ما وراء النهر، وقد وقعت هذه الهزيمة سنة 536هـ عند قرية قطوان التي تقع على خمسة فراسخ من سمرقند حيث هلك جيش سنجر ووقع قواده في الأسر وكذلك زوجته وهرب هو بنفسه إلى مدينة ترمز، فسقطت بذلك بلاد ما وراء النهر كلها في أيدي القراخطاي[3]. وعلى الرغم من أن آتسز كان ضالعاً في استحضار القراخطاي وتحريضهم ضد السلطان سنجر بدافع الانتقام منه، إلا أنه اضطر أمام تفاقم خطرهم، وتهديدهم لإقليم خوارزم إلى مصالحتهم على أن يدفع خراجاً سنوياً مقداره ثلاثون ألف دينار[4]. وأما الهزيمة الثانية لسنجر فكانت أمام قبائل الغز التركمانية التي كانت تقيم حول مدينة بلخ، وقد وقعت هذه الهزيمة عند مدينة مرو (سنة 548هـ/ 1153م)، وفيها قتل قواد سنجر، ووقع هو مع زوجته في الأسر[5]. وقد أدى ضعف السلاجقة في إيران إبان الفترة الأخيرة من حكم سنجر إلى اختلال التوازن العسكري والسياسي في آسيا الوسطى، ففي الشرق تفاقم خطر القراخطاي في تركستان وبلاد ما وراء النهر، وفي الجنوب ازدادت سطوة

(1) تاريخ إيران بعد الإسلام، ص: 283.
(2) الأتراك الخوارزميون، صبري سليم، ص: 19.
(3) المصدر نفسه، ص: 19.
(4) المصدر نفسه، ص: 20، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص: 385.
(5) سلاجقة إيران والعراق، عبد المنعم حسنين، ص: 131.

قبائل الغز وبخاصة في كرمان ومكران، وفي الشمال ظهرت أطماع الخوارزميين في الاستيلاء على إقليم خراسان بثرواته الطبيعية، وعلى هذا لم توقف وفاة السلطان الخوارزمي آتسز في التاسع من جمادى الآخرة (سنة 551هـ/ 1156م)[1]، أو وفاة السلطان السلجوقي سنجر بعده في الرابع عشر من ربيع الأول (سنه 552هـ/ 1157م)[2] حتمية الصراع بين الطرفين، فقد شرع أيل أرسلان بن آتسز (551 هـ ـ 568هـ) في بسط سلطانه على غربي خراسان عقب وفاة سنجر، وبعد ذلك تمكن السلطان الخوارزمي علاء الدين تكش بن أيل أرسلان (568هـ، 596هـ) من هزيمة السلطان السلجوقي طغرل الثالث عند مدينة الري في شهر ربيع الأول (سنه 590 هـ/ 1193م)، فأزال بذلك سلطان السلاجقة عن العراق[3]، فأصبحت أملاك الدولة الخوارزمية متاخمة لأراضي الخلافة العباسية[4].

ثانياً: الصدام بين الخوارزميين والخلافة العباسية:

ولم يؤد هذا التجاور المكاني إلى نتيجة حاسمة ترضي الطرفين، فالخليفة العباسي الناصر لدين(575 ـ 622هـ) والذي حرّض الخوارزميين في محاربة السلاجقة آملاً في أن يخلصوه من سيطرتهم قد أدرك بجلاء أنه استبدل خصماً هرماً بآخر فتيٍّ عنيد، فهؤلاء الخوارزميون القادمون من الشرق لن يكتفوا باحتلال أملاك السلاجقة فحسب وإنما لتمتد أطماعهم إلى نيل ما كان لهؤلاء السلاجقة من مظاهر السيادة على بغداد نفسها، والتي تمثلت في فرض اسمهم على الخطة والسكة ودار خاصة للسلطان الخوارزمي تطاول دار الخلافة العباسية وتعلو عليها[5].

ولم تغير وفاة السلطان الخوارزمي علاء الدين تكش في التاسع عشر من رمضان (سنة 596هـ/ 1200م) شيئاً من الناحية السياسية، إذ لما تولى ابنه علاء الدين محمد مكانه (596هـ ـ 617هـ) عاود الخوارزميون المطالبة بكل ما كان للسلاجقة من مزايا لدى الخلافة العباسية، فوجد الخليفة الناصر نفسه مضطراً إلى اتباع نهجه القديم، فشرع

(1) السلاجقة في التاريخ والحضارة، أحمد حلمي، ص: 118.
(2) العبر للذهبي (4/ 148)
(3) الأتراك الخوارزميون، ص: 21.
(4) المصدر نفسه، ص: 21.
(5) المصدر نفسه، ص: 21.

في استعداء الغوريين على الخوارزميين[1]، ثم أمعن في ذلك فعمل على إثارة الأمراء والحكام المحليين في غربي إيران ضدهم، بل إنه تحالف أيضاً مع جلال الدين الحسن الثالث الإسماعيلي (607 ـ 618هـ) صاحب قلاع الإسماعيلية في قهستان، وآلموت، ورودبان، وكان قد تظاهر بترك مذهب الإسماعيلية واعتناق مذهب أهل السنة والجماعة[2].

وعلى هذا فقد شرع الخوارزميون في إحكام سيطرتهم على إيران كلها، فبالشمال تم الاستيلاء على إقليم مازندران الواقع جنوبي بحر قزوين، وضمه (سنة 606هـ) إلى دولتهم[3]، وفي الجنوب جرى الاستيلاء على إقليم كرمان (سنة 607هـ) ثم إقليم مكران (سنة 611هـ)، وتضمن ذلك الساحل المطل على المحيط الهندي بما فيه ميناء هرمز التجاري المهم[4]، وفي أقصى الشرق كان الخوارزميون قد نجحوا في احتواء مدينتي هرات وبلخ (سنة 603هـ)، وهما من أملاك الدولة الغورية[5] التي سقطت عاصمتها غزنة في أيديهم (سنة 612هـ)،[6] فآل حكمها إلى جلال الدين منكبرتي أكبر أبناء السلطان الخوارزمي علاء الدين بن تكش، وموجز القول هنا، أن الدولة الخوارزمية قد بلغت آنذاك أقصى اتساعها وأصبح اصطدامها بالخلافة العباسية وشيكاً[7].

وبالفعل سار السلطان الخوارزمي (سنة 614هـ/ 1217م) صوب الغرب على رأس حملة وجهتها بغداد، ولم يجد السلطان الخوارزمي حرجاً في أن يعلن إسقاط اسم الخليفة العباسي الناصر لدين الله من الخطبة، مستنداً إلى فتوى أصدرها جماعة من علماء بلاد ما وراء النهر، قضت بعدم أهليته للخلافة، وبالتالي فقد اختار هو واحداً من سلالة أبناء الحسين بن علي بن أبي طالب في مدينة ترمذ، ويدعى علاء الدين أبو المكارم محمد بن أبي جعفر ابن طاهر الحسيني، ونصبه خليفة وخطب له على المنابر ونقش اسمه على السكة، ولم يكن بوسع الخليفة العباسي أن يقف مكتوف اليدين حيال هذا التحدي الخطير من قبل الخوارزميين بعد أن رأى بنفسه تهاوي حلفائه تباعاً تحت وطأتهم[8]، فبادر

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي، ص: 37.
(2) تاريخ إيران بعد الإسلام، ص: 332 عباس إقبال.
(3) الخوارزميون الأتراك، ص: 22.
(4) المصدر نفسه، ص: 23.
(5) المصدر نفسه، ص: 23.
(6) المصدر نفسه، ص: 23.
(7) المصدر نفسه، ص: 23.
(8) الأتراك الخوارزميون، ص: 24.

للاستعداد لهذا الخطر الداهم وعجز الخوارزميون عن تحقيق هدفهم في الاستيلاء على بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وإسقاط الخليفة العباسي الناصر لدين الله، إذ هبت على جيوشهم عند أسد آباد التي تقع غربي همذان عواصف ثلجية عنيفة أهلكت أعداداً كبيرة من الجند والدواب والمؤن، وأطمعت فيهم الأكراد من ساكني إقليم الجبال المجاور، فلم يجد السلطان الخوارزمي مناصاً من العودة إلى بلاده[1].

ثالثاً: أسباب الغزو المغولي للخوارزميين:

فكر جنكيز خان في أن أفضل طريقة لإسقاط الخلافة العباسية في العراق هي التمركز أولاً في منطقة أفغانستان وأوزبكستان، لأن المسافة ضخمة بين الصين والعراق، ولابد من وجود قواعد إمداد ثابتة للجيوش المغولية في منطقة متوسطة بين العراق والصين، كما أن هذه المنطقة التي تعرف بالقوقاز غنية بثرواتها الزراعية والاقتصادية، وكانت من حواضر الإسلام المشهورة، وكنوزها كثيرة، وأموالها وفيرة، هذا بالإضافة لا يستطيع ـ تكتيكياً ـ أن يحارب العراق وفي ظهره شعوب مسلمة تحاربه أو تقطع عليه خطوط الإمداد، كل هذه العوامل جعلت جنكيز خان يفكر أولاً في خوض حروب متتالية مع هذه المنطقة الشرقية من الدولة الإسلامية، والتي تعرف في ذلك الوقت بالدولة الخوارزمية، وكانت تضم بين طياتها عدة أقاليم إسلامية هامة مثل أفغانستان وأوزبكستان والتركمنستان وكازاخستان وطاجكستان وباكستان وأجزاء من إيران، وكانت عاصمة هذه الدولة الشاسعة هي مدينة أوجندة في تركمنستان حالياً، وكان جنكيز خان في شبه اتفاق مع ملك خوارزم «محمد بن خوارزم شاه» على حسن الجوار، ومع ذلك فلم يكن جنكيز خان من أولئك الذين يهتمون بعقودهم، أو يحترمون اتفاقياتهم، ولكنه عقد هذا الاتفاق مع ملك خوارزم ليؤمن ظهره إلى أن يستتب له الأمن في شرق آسيا، وأما وقد استقرت الأوضاع في منطقة الصين ومنغوليا، فقد حان وقت التوسع غرباً في أملاك الدولة الإسلامية[2]، وحتى تكون الحرب مقنعة لكل الطرفين، لابد من وجود سبب يدعو إلى الحرب، وإلى الادعاء بأن الاتفاقيات لم تعد سارية، وقد بحث جنكيز خان عن سبب مناسب[3]. وانتظر حتى جاء ذلك السبب الرئيس وسيأتي الحديث عنه بإذن الله، ولكن ثمة أسباب خفية كانت هي البواعث لهذا الغزو، من أهمها:

(1) الأتراك الخوارزميون، ص: 24.

(2) تاريخ الدولة المغولية في إيران، ص: 50.

(3) قصة التتار، د. راغب السرجاني، ص: 22.

1 ـ **الجدب الذي كان يسود أقاليم آسيا الشرقية**، حيث كانت حاضرة جنكيز خان «قراقورم» وما ترتب عليه من قحط نشأت عنه حاجتهم الدائمة إلى الكثير من المواد الغذائية اللازمة لحياتهم وحياة دوابهم، كما كانوا في حاجة ماسة إلى اقتناء ما يقيهم عاديات الطبيعة من ملبوسات وغيرها، وكان لقيام علاء الدين محمد خوارزمشاه بمنع الميرة عنهم من الكسوات والأقوات وغيرها، وسده طرق التجارة في وجوههم، أثره في توجيه أنظارهم إلى الدولة الخوارزمية(1).

2 ـ **حالة اليقظة والنشاط المغولي**: كان المغول في هذه الفترة في حالة يقظة ونشاط، يعيشون أمجاد انتصاراتهم السابقة في الصين وغيرها، وبسبب ذلك، وضعوا لأنفسهم خطة للسيطرة على المناطق المجاورة لهم، وقد سمعوا عن سعة الدولة الخوارزمية التي غدت أملاكها مجاورة لهم، وعن ثراءها الضخم وحضارتها الرائعة فصاروا يتطلعون إليها(2).

3 ـ **مقتل بعض تجار المغول**: وأما السبب المباشر والرئيس، فإنه مقتل بعض رجال المغول الذي أشعل الحرب: كان جنكيز خان قد أرسل إلى علاء الدين محمد خوارزمشاه عند عودته إلى مدينة بخارى، بعد محاولته الفاشلة لغزو بغداد سنة 615هـ/ 1218م وفداً من ثلاث تجار مسلمين هم: محمود الخوارزمي، علي خواجة البخاري، يوسف كنكا الأتراري، محملين بالهدايا من منتجات آسيا الوسطى رغبة في قيام علاقات تجارية وطيدة تخدم الطرفين(3). وأرسل مع الوفد رسالة وصفها بعض المؤرخين بأنها رقيقة من مغولي ذلك الوقت، يعرض فيها المسالمة والموادعة وعقد اتفاق تجاري بين البلدين، وفيما يلي نص الرسالة: «ليس يخفى علينا عظيم شأنك، وما بلغت من سلطانك، وقد علمت بسطة ملكك، وإنفاذ حكمك في أكثر أقاليم الأرض، وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات، وأنت عندي مثل أعز أولادي وغير خافٍ عليك أيضاً أنني ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك، وقد أذعنت لي قبائلهم، وأنت أخبر الناس بأن بلادي مثارات العساكر، ومعادن الفضة، وأن فيها الغنية عن طلب غيرها، فإن رأيت أن تفتح للتجار في الجهتين سبيل التردد، عمت المنافع وشملت الفوائد(4).»

(1) الكامل لابن الأثير (12/ 149)، عودة الروح للخلافة، ص: 180.

(2) الدولة الخوارزمية، حافظ حمدي، ص: 67، عودة الروح للخلافة، ص: 180.

(3) عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص: 181.

(4) سيرة السلطان جلال الدين، ص: 83.

وبغض النظر عن الجدل الذي ثار حول هذه الرسالة بين بعض الكتاب، وهل كان مدلولها يحتوي على ازدراء شأن الأمير الخوارزمي أو على إطراء له وملاطفة، فإن الذي حدث هو أن علاء الدين خوارزمشاه أظهر استياءه منها، وبيت نية العدوان على جنكيز خان، واستدعى أحد رسله وهو محمود الخوارزمي، وانفرد به دون سائرهم، ووعده بالإحسان إن صدقه فيما يسأله، وأعطاه من معضدته جوهرة نفيسة علامة الوفاء بما وعد، وشرط عليه أن يكون عيناً له على جنكيز خان، فأجابه إلى ما سأل رغبة ورهبة[1]، ثم بدأ يستخبره عن حقيقة ما جاء في رسالة جنكيز خان إليه، فلما صدقه الجواب غضب الأمير الخوارزمي وعاد يسأل عن عدد عسكر جنكيز خان في حدة، هنا أعرض الرسول عن الإجابة الصحيحة إبقاء على حياته وطلباً للسلامة، ورد في حذق وكياسة: ليس عسكره بالنسبة إلى هذه الأمم والجيش العرمرم إلا كفارس في خيل، أو دخان في جنح ليل، ولكن علاء الدين خوارزمشاه عرف رغم هذه الإجابة، حقيقة موقفه، فصرف الرسل لما طلبوه من الموادعة والموافقة على تردد التجار بين البلدين[2].

4 ـ تردد التجار بين الطرفين ومقتل تجار المغول: على إثر توقيع هذا الاتفاق التجاري حمل جنكيز خان بحزم على تأمين التجارة بين شرق آسيا، حيث ممتلكاته وغربها، حيث دولة خوارزم وما يليها غرباً، وسعى جاداً لتوسيع نطاقها، وتأمين طرقها من قطاع الطرق، وتزويد المسالك الرئيسة بحراس سماهم ابن العبري «قراقجية» ـ أي مستحفظين ـ لخفر التجار وصيانتها أثناء مرورها بها، وأصدر أوامره إلى هؤلاء المستحفظين بمرافقة كل أجنبي يحمل تجارة حتى يوصلوه إلى معسكرات المغول[3]. لقد حرص جنكيز خان على البعد الاقتصادي وبناء قوة اقتصادية. سارت التجارة بين شرق آسيا وغربها بنظام تام، وحدث في هذا العام أن وصلت إلى بلاد جنكيز خان قافلة تجارية قوامها ثلاثة من أهل بخارى يحملون بضائعهم من الثياب المذهبة والكرباس[4]، وغيرها مما يليق بخانات المغول، وكان عند أحدهم ويدعى أحمد، ثوب رآه المستحفظون يليق بمقام جنكيز خان نفسه، لذا قادوهم إلى بلاطه، فلما مثل أحمد بين يديه طلب ثمناً باهظاً لبضاعته التي تعلق بها جنكيز خان، الأمر الذي أغضب الخان،

(1) سيرة السلطان جلال الدين، ص: 84، 85.
(2) تاريخ الخلفاء، للسيوطي، ص: 469، عودة الروح للخلافة، ص: 182.
(3) سيرة السلطان، ص: 85، عودة الروح للخلافة، ص: 183.
(4) الكرباس : لفظ فارسي معرب، معناه الثوب الخشن.

وحمله على مصادرة بضاعة أحمد وتوزيعها بين أفراد حاشيته وزج هذا التاجر في السجن، أما صاحباه، فقالا: عندما سئلا عما يطلبانه ثمناً لبضاعتهما: هذا كله إنما أتينا به لنقدمه خدمة للخان، لا لنبيعه عليه[1]، ولم تجد محاولة حملهما على تقييمه عندئذ أمر جنكيز خان بإعطائهما ثمناً مجزياً من الذهب والفضة، عن بضاعتهما، ورق للتاجر أحمد فعامله بالمثل[2]، وعفا عنه وأصدر جنكيز خان عقب أوامره إلى الأولاد والخواتين والأمراء أن ينفذوا معهم جماعة من أصحابهم ومعهم بواليش الذهب والفضة، ليجلبوا من طرائف البلاد ونفائسها ما يصلح لهم، وقد اختلف المؤرخون في عدد هؤلاء التجار، وبينما ذكر النسوي أنهم أربعة، قال ابن العبري أنهم مائة وخمسون تاجراً ما بين مسلم ونصراني وتركي[3]، وقدرهم الجويني بأربعمائة وخمسين رجلاً كلهم من المسلمين[4]. بينما لم يشر ابن الأثير ولا ابن خلدون إلى أي عدد لهم[5]، ومهما يكن أمر عددهم فإن جنكيز خان بعث معهم رسولاً مغولياً من قبله يحمل رسالة إلى السلطان محمد خوارزمشاه يقول فيها: إن التجار وصلوا إلينا وقد أعدناهم إلى مأمنهم سالمين غانمين[6]، وقد سيرنا معهم جماعة من غلماننا ليحصلوا من طرائف تلك الأطراف، فينبغي أن يعودوا إلينا آمنين ليتأكد الوفاق بين الجانبين، وتنحسم مواد النفاق من ذات البين[7].

5 ـ قتل التجار المغول ومصادرة أموالهم: وصل تجار المغول إلى مدينة أترار الواقعة في أقصى الحدود الشرقية للدولة الخوارزمية، وكان تعد مفتاح التجارة بين شرق آسيا وغربها، وكان بها حاكم من قبل خوارزمشاه يدعى ينال خان، وهو ابن خال خوارزمشاه، في عشرين ألف فارس، يقول النسوي: فشرهت نفسه الدنيئة إلى أموال أولئك، وكاتب السلطان مكاتبة خائن مائن، يقول: إن هؤلاء القوم قد جاءوا إلى أترار في زي التجار وليسوا بتجار، بل أصحاب أخبار، يكشفون منها ما ليس بوظائفهم[8]،

(1) تاريخ مختصر الدول، ابن العبري، ص: 400.
(2) تاريخ مختصر الدول، ص: 400، عودة الروح للخلافة، ص: 184.
(3) عودة الروح للخلافة، ص: 184.
(4) المصدر نفسه، ص: 184.
(5) المصدر نفسه، ص: 184.
(6) الدولة الخوارزمية، ص: 70.
(7) تاريخ مختصر الدول، ص: 400 ـ 401، عودة الروح للخلافة، ص: 185.
(8) سيرة السلطان جلال الدين، ص: 85 ـ 86، تاريخ الخلفاء، ص: 169.

وأخذ يحسن له القضاء عليهم، ويغريه بما معهم من أموال، ويطلب إذنه في مصادرتهم وقتلهم، ولم يزل كذلك حتى أذن له خوارزمشاه في الاحتياط عليهم إلى أن يرى فيهم رأيه، غير أن ينال خان تعدى حدوده، فلم يكتف بالاحتياط عليهم، وانتظار رأي أمير خوارزم فيهم، بل تجاوز ذلك فقبض عليهم وخفي بعد ذلك أثرهم، وانقطع خبرهم، وتفرد المذكور بتلك الأموال المعدة والأمتعة المنضدة مكيدة منه وغدراً[1].

هذا ما يقوله النسوي، ويؤيده السيوطي، أما ما يقوله غيره من المؤرخين فيختلف عنه من عدة وجوه نعرض لها فيما يلي:

أ - يذكر النسوي أن ينال خان رغب، في كتابه إلى السلطان، أن يؤذن له في مصادرة أموالهم وقتلهم، على حين يقول غيره أنه لم يفعل أكثر من أنه رفع الأمر إليه بعد وصولهم، وسأله رأيه فيما يفعل بهم.

ب - بينما يذكر النسوي أن السلطان أمر بالاحتياط عليهم حتى يرى رأيه فيهم، وأن ينال خان تعجل وتجاوز صلاحياته فقتلهم دون إذن السلطان[2]، يذهب غيره إلى القول: إن خوارزمشاه أمر أولاً بالاحتياط عليهم، ثم أتبعه بأمر قتلهم ومصادرتهم.

جـ - يذكر النسوي أن ينال خان استأثر بأموالهم لنفسه دون السلطان، ويروي غيره أنه بعد أن قتلهم سير ما معهم إلى السلطان الذي فرقه على تجار بخارى وسمرقند، وأخذ ثمنه منهم[3]، وقد علق فامبري على مقتل أولئك التجار بقوله: وإنا لنرى الجويني على حق حين يقول: إن دمهم أهرق، ولكن كل قطرة منه قد كفر عنها بسيل جارف من الدماء وأن رؤوسهم قد سقطت، ولكن كل شعرة فيها قد كلفت مئات الألوف من الناس حياتهم[4]. ولم ينج من أولئك التجار إلا واحد أتيح له الهرب من محبسه، ولما وصل إلى بلاط جنكيز خان نقل إليه ما شاهده من مأساة أصحابه التجار[5].

---

(1) عودة الروح الخلافة الإسلامية، ص: 186، تاريخ مختصر الدول، ص: 400.

(2) العبر (5/ 519) عودة الروح الخلافة، ص: 186.

(3) سير أعلام النبلاء (22/ 223) كيف دخل التتار بلاد المسلمين د.سليمان العودة، ص: 23.

(4) تاريخ بخارى، ص: 158 عودة الروح للخلافة، ص: 187.

(5) تاريخ بخارى، ص: 159 عودة الروح للخلافة، ص: 187.

6 ـ الدبلوماسية المغولية لحل المشكلة: رأى جنكيز خان أن يسوي هذا الأمر مع الخوارزميين بالطرق السلمية فأراد أن يستطلع حقيقة الأمر ولم يستعجل وحرص على حل المشكل بالطرق السلمية، وهذا يدل على حكمته وبعد نظره، كما يظهر من خلال الأحداث بأنه كان لخوارزمشاه هيبته عند جنكيز خان فعمل على تدميرها نفسياً وسياسياً وعسكرياً وأخلاقياً، فأرسل ابن كفرج بغرا، وفي صحبته اثنان من المغول، رسلاً من قبله يطلبان تفسيراً وإيضاحاً لما حدث، وبعث معهم رسالة إلى علاء الدين محمد خوارزمشاه يقول فيها: إنك قد أعطئت خطك ويدك بالأمان للتجار، ، وألا تتعرض إلى أحد منهم،فغدرت ونكثت، والغدر قبيح، ومن سلطان الإسلام أقبح، فإذا كنت تزعم أن الذي ارتكبه ينال خان كان من غير أمر صدر منك فسلم ينال خان إليَّ لأجازيه على ما فعل، حقناً للدماء، وتسكيناً للدماء، وإلا فأذن بحرب ترخص فيها غوالي الأرواح، وتتعضد معها عوامل الرماح[1]، وبلغ من استياء علاء الدين محمد من هذه الرسالة أن أمر بقتل ابن كفرج بغرا، أما الرسولان اللذان صحباه، فقد أطلق سراحهما، وسمح لهما بالعودة إلى الخان ليرويا له ما حدث[2]، ولما وصل نبأ العدوان إلى جنكيز خان قال غاضباً: لا تجتمع شمسان في سماء واحدة ولا يجوز أن يبقى خاقانان على أرض واحدة، وأرسل إلى خوارزمشاه رسالة مقتضبة تنذره بسوء عاقبة ما فعل (أنت الذي اخترت الحرب، ولا مرد للقدر، وإننا نجهل العاقبة، وعلمها عند الله[3]).

وهكذا نجد أن علاء الدين محمد خوارزمشاه قد حدد بهذه السياسة غير الرشيدة، موقف المغول تجاه الخوارزميين، ولم يتح لهم أي مجال للبحث على أمل للعيش معهم في سلام، ولم يترك أمامهم إلا سبيلاً واحدة هي الحرب[4]، ويؤكد برو أن مسؤولية علاء الدين عن خطر الغزو المغولي الذي تعرض له المسلمون بقوله: والرأي السائد أنه لم يكن هناك ما يحول دون وقوع غارة المغول، ولكنها من غير شك سهلت ويسرت حدوثها بواسطة ما عرف عن ملك خوارزم علاء الدين محمد من طمع وخيانة وتردد، وأما خيانته فظاهرة، لأنه أقدم على قتل رسل المغول وتجارهم، فأعطى بذلك لجنكيز خان الحجة الدامغة لتبرير الهجوم عليه، كذلك من أنه عند أول صدمة تلقاها من المغول أسرع إلى

---

(1) مختصر تاريخ العرب، سيد أمير، ص: 343 عودة روح الخلافة، ص: 187.

(2) تاريخ الخلفاء، ص: 169، للسيوطي، عودة روح الخلافة، ص: 188.

(3) هارلود لام، جنكيز خان، ص: 97، عودة روح الخلافة، ص: 188.

(4) عودة روح الخلافة، ص: 188.

إظهار الفزع والخوف بدل ما كان يبديه من غطرسة وتحدٍ[1]. ولم يكن إقدام علاء الدين محمد على قتل تجار ورسل المغول هو العامل الوحيد الذي أثار المغول وشجعهم على غزو الأقطار الشرقية للدولة الإسلامية، بل إن قضاء الأمير الخوارزمي على حكام جميع البلاد التي استولى عليها في توسعه شرقاً وغرباً، قوي عزمهم على الزحف على هذه الأقطار، وبسط سيطرتهم عليها، يقول ابن الأثير: فإن هؤلاء التتار إنما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع، وسبب عدمه أن خوارزمشاه محمداً كان قد استولى على البلاد وقتل ملوكها أفناهم، وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها، فلما انهزم منهم لم يبق في البلاد من يمنعهم ولا من يحميها، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً[2].

وهناك من يرجع سبب الغزو المغولي إلى تحريض الخليفة العباسي الناصر لدين الله جنكيز خان على غزو الدولة الخوارزمية، وقد جاء اتهام الناصر بذلك في قول ابن الأثير، حيث قال: وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنه هو الذي أطمع التتار في البلاد، وراسلهم في ذلك، فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم[3]. وقد تابع ابن الأثير في هذا الاتهام فريق من المؤرخين الأقدمين كابن الوردي وابن الفرات[4]، كما جاء الاتهام في كتب بعض المستشرقين، ومن هؤلاء براون، فقد أورد هذا الاتهام في معرض حديثه على الناصر وعلاقته بخوارزمشاه بقوله: وأخذ يشجع المغول على مهاجمته[5]، ومن بينهم هارولد لام وكارتن فقد ذكرا أن الخليفة عرض على جنكيز خان في رسالته أن يقوم هو بمهاجمة الدولة الخوارزمية من الشرق، ويتولى الناصر مهمة مهاجمتها من الغرب، وبذلك يطبقان عليها[6]. إن من يتأمل ما ذكره ابن الأثير يتضح له كراهيته للخليفة الناصر، لذا وصمه بهذا الاتهام تشهيراً به، ولما أحس الأمر قد ينكشف وتتضح براءة الناصر، نسب روايته إلى مصدر مطعون في صدقه، وهو العجم، أي: الخوارزميين.

ومما يجدر ذكره أن هناك مؤرخين غير ابن الأثير عاصروا هذه الفترة، ولم يشيروا إلى اتصال الناصر بالمغول، من أمثال النسوي، وسبط ابن الجوزي، وابن شداد، وأبي

(1) تاريخ الأدب في إيران، ص: 556 ـ 557.
(2) الكامل (12/ 149)، عودة الروح للخلافة، ص: 189.
(3) عودة الروح للخلافة، ص: 189، الدولة الخوارزمية، ص: 40.
(4) الإعلام للزركلي (1/ 6)، عودة الروح للخلافة، ص: 190.
(5) عودة الروح للخلافة، ص: 190.
(6) هارولد لام جنكيز خان، ص: 90، 91، عودة الروح، ص: 190.

شامة، ويليهم ابن واصل، واليونيني، وابن طباطبا، ولا نغفل أن المؤرخين الصينيين الذين رافقوا حملة جنكيز خان وأولاده وأرخوا لهم تاريخهم، لم تكن مدوناتهم مجهولة للمؤرخين المسلمين الذين خدموا المغول فيما بعد[1]، ولذلك فإنا نرجح عدم صحة اتهام الناصر بتحريض المغول على غزو الدولة الخوارزمية، أو تسببه بأية صورة في وقوع ذلك الهجوم، ونرى أن ما فعله خوارزمشاه كان وحده كافياً لقيام جنكيز خان بذلك الغزو المدمر لشرق بلاد الإسلام[2].

رابعاً: غزو المغول بلاد ما وراء النهر والعراق العجمي:

1 ـ بلاد ما وراء النهر: كان علاء الدين محمد خوارزمشاه قد بعث ـ على إثر مقتل تجار المغول وهو مقيم بمدينة بخارى ـ بعض جواسيسه إلى بلاط جنكيز خان، للوقوف على مدى استعداد المغول للحرب، فقضوا مدة طويلة، استطاعوا خلالها أن يؤدوا المهمة التي عهد إليهم بها، وقالوا بعد عودتهم: إن عدد المغول لا يبلغه الحصر، وإنهم من أصبر الناس على القتال، وأعرفهم بفنونه ولهم مصانع للسلاح، تكفي حاجتهم منه، ومواد تموينهم وافرة، وأوضح أولئك الجواسيس أن حقائق الأمور هناك تشير إلى أنه لا قبل لأحد بمقاتلة المغول[3]. ودرس علاء الدين محمد خوارزمشاه بإمعان هذه المعلومات، فأدرك فداحة ما وقع فيه من خطأ بقتله تجار المغول ورسلهم، وندم على ذلك، ولات ساعة مندم، ثم أخذ يعمل فكره ويدبر أمره[4]، واستشار رجلاً يثق به ويدعى الشهاب الخيوفي الفقيه، فلما مثل بين يديه قال له: قد حدث أمر عظيم لابد من الفكر فيه، وإجالة الرأي فيما نفعل، وذلك أنه قد تحرك إلينا خصم من التتار في عدد لا يحصى[5]. فأشار عليه الخيوفي بإعلان النفير العام، ودعوة من بقي من ملوك الأطراف ليلحقوا به في جيوشهم، فإذا اكتملت تعبئة الجيوش سار بها إلى جانب نهر سيحون حيث حدود دولته الشرقية مع المغول[6]، غير أن أمراء وأرباب المشورة في دولته رأوا عكس هذا الرأي، وأشاروا بأنه من الأصوب ترك المغول حتى يعبروا سيحون، ويتقدموا في

---

(1) الحياة السياسية في العراق في العصر الأخير، للقزاز، ص: 231.
(2) عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص: 191.
(3) الكامل لابن الأثير (9 ـ 313)، عودة الروح، ص: 364.
(4) الكامل لابن الأثير (12) 149 ـ 150) عودة الروح، ص: 364.
(5) عودة الروح، ص: 193.
(6) الكامل (9/ 331)، عودة الروح، ص: 193.

الوهاد، والصحارى والمضايق والوديان التي يجهلون مسالكها، حتى إذا وصلوا بخارى كان التعب قد أخذ منهم كل مأخذ، وبذلك يمكن الظهور عليهم، وإفناؤهم عن بكرة أبيهم[1]، ولم يلبث خوارزمشاه أن عمل على تجهيز جيشه للقاء المغول[2]، وبينما كان خوارزمشاه يسير في اتجاه الشرق، مجداً في طلب المغول عقب استعداده على هذا النحو، كان جنكيز خان يعبئ جيشاً كبيراً، ويلقي في جنده عند بداية الزحف غرباً هذه الأوامر الصارمة: سيروا معي لنمحق بقواتنا الرجل الذي ازدرى بنا واحتقرنا، إنكم ستشاركونني في انتصاراتي، وليكن قائد العشرة آمر الحظيرة منكم منتبهاً مطيعاً، كقائد العشرة آلاف: قائد الفرقة، ومن يخالف أو يفشل في إنجاز واجبه سيفقد حياته ونساءه وأولاده[3].

أ ـ الاستيلاء على مدينة أترار: بدأ جنكيز خان غزوه شرق الدولة الإسلامية في عام 615هـ/ 1218م، فقد وصل إلى حافة نهر سيحون على مقربة من مدينة أترار على رأس جيش قوامه نحو ستمائة ألف[4] من خيرة جنده، وكانت غاية الجيش في المرحلة الأولى الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر، المحصورة بين نهرسيحون في الشرق، وجيحون في الغرب، لذا وضع خطته على أساس الإطباق على هذه البلاد من أربعة جوانب، بحيث يتعذر على الجيش المدافع صد الهجوم[5]، وهكذا تحركت الجيوش الأربعة في وقت واحد للانقضاض على بلاد ما وراء النهر والاستيلاء عليها وبدأ الخوارزميون بمهاجمة قوات المغول، وسرعان ما قامت الحرب سجالاً بين الفريقين، وكان الجانب المغولي فيها بقيادة أحد أبناء جنكيز خان، وقدر عدد القتلى من المسلمين عشرين ألفاً، ومن المغول بما لا يحصى كثرة، وفي الليلة الرابعة من القتال افترق الجيشان، ورجع المسلمون إلى بخارى حيث أمر خوارزمشاه أهلها وأهل سمرقند بالاستعداد للحصار، وترك في بخارى عشرين ألفاً وفي سمرقند خمسين ألفاً، ثم عاد إلى خوارزم وخراسان ليجمع العساكر[6]، كانت مدينة أترار محصنة تحصيناً قوياً، وبها حامية قوامها خمسون ألف رجل يعاونها جيش آخر بنحو عشرة آلاف على رأسهم «قراجة» وزير الأمير محمد خوارزمشاه، ودام الحصار خمسة أشهر، مما ترتب عليه

---

(1) عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص: 193.

(2) الكامل في التاريخ (12/ 150)، عودة الروح للخلافة، ص: 193.

(3) عودة الروح، ص: 194.

(4) المصدر نفسه، ص: 194.

(5) سيرة السلطان جلال الدين، ص: 100، عودة الروح، ص: 195.

(6) الكامل في التاريخ (9/ 331 ـ 332) عودة الروح، ص: 195.

عجز الجيش الخوارزمي عن المقاومة، ثم هزيمته، وبذلك تيسر لقوات المغول الاستيلاء على مدينة أترار التي تعد مفتاح ما وراء النهر[1]، لقد كان هجوم المغول على هذه المدينة عنيفاً، فقد كانوا يتوقون للثأر من «ينال خان» حاكم هذه المدينة وقاتل التجار، لقد استولوا على هذه المدينة عنوة سنة 616هـ/ 1219م) ونهبوها وطاردوا سكانها، وقد تقهقر ينال خان إلى قلعة المدينة واحتمى بها نحواً من شهر، فقد في أثنائه معظم رجاله، ومع ذلك ظل يدافع دفاع اليائس المستميت، ولما وجد نفسه محاصراً من كل جانب قذف بنفسه إلى سقف أحد المنازل، فتبعه جنديان مغوليان وهو لا يملك أن يدافع عن نفسه إلا بقذفهما بالحجارة التي كان يناوله إياها بعض النسوة، وأخيراً وقع في أيدي المغول الذين قادوه إلى معسكر جنكيز خان الذي كان في ذلك الوقت أمام مدينة سمرقند، ولكي ينتقم جنكيز خان منه عمد إلى التنكيل به، فأمر بعض رجاله أن يصهروا كمية من الفضة ويسكبوها في عينيه وأذنيه، وهكذا نفذ جنكيز خان وعيده في قاتل تجاره ورسله، وبسقوط أترار سقط مفتاح بلاد ما وراء النهر[2].

ب ـ الاستيلاء على مدينة جند: أما عن الجيش الثاني الذي كان تحت قيادة جوجي أكبر أبناء جنكيز خان، فكانت قبلته مدينة «جند» إحدى معاقل المسلمين على نهر سيحون، وقد وصل هذا القائد إلى هذه المدينة بعد أن استولى على كثير من المعاقل والمدن الواقعة على نهر سيحون، وتمكن بذلك من السيطرة على كل مجرى هذا النهر تقريباً، فلما اقترب من مدينة جند غادرها حاكمها ليلاً تاركاً لسكانها أمر الدفاع عن أنفسهم وعن مدينتهم، وقد نصب المغول المجانيق حول المدينة استعداداً لتحطيم أسوارها، وإزاء هذا الاستعداد من قبل المغول انقسم الأهالي على أنفسهم، فرأى فريق منهم ضرورة الدفاع عن المدينة، ورأى فريق آخر لا فائدة من الدفاع وآثر أن يسلم المدينة في الحال، لعل الأهالي يجدون في ذلك خير شفيع ينجيهم من الوقوع تحت سيوف المغول، والظاهر أن هذا الرأي كان يناصره أكثرية السكان بدليل أن المغول لم يجدوا مقاومة ما داخل المدينة، وهم يدكون أسوارها من جميع جهاتها، وأخيراً سلمت المدينة وسلم من سلم من أهلها، وقُتل من قتل مِنَ المغول، وبعد أن وضع جوجي على المدن المفتوحة حكاماً مخلصين، أصدر أوامره لجنوده بالعبور إلى إقليم خوارزم[3].

---

(1) عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص: 195.

(2) الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ أحمد، ص: 139.

(3) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 140.

ج ـ الاستيلاء على بنكت وخجنده: أما ثالث جيوش جنكيز خان التي سيرها للاستيلاء على بلاد ما وراء النهر، فقد سار إلى مدينة بنكت على نهر سيحون و«خجندة» إلى الجنوب منها، وقد تمكن المغول من دخول مدينة بنكت بعد أن سلمها الأهالي، وكان المغول قد أمنوهم على حياتهم، لكن هؤلاء المغول الذين لا يعرفون معنى للعهود والمواثيق، لما دخلوا المدينة فصلوا الجند عن المدنيين وأعملوا القتل في رقاب الفريق الأول، واختاروا من الفريق الثاني خيرة شبابه لينتفعوا به في أعمالهم الحربية، ثم سارت هذه الفرقة المغولية نحو الجنوب ميممة شطر مدينة خجندة الواقعة على نهر سيحون، وهي مدينة جميلة اشتهرت بحدائقها وانتعاش التجارة فيها، كما اشتهرت بشجاعة أهلها وقوة بأسهم، ومما يسترعي النظر أن «تيمور ملك» قائد الحامية الخوارزمية فيها، فضل أن يغادر المدينة مع ألف من جنوده إلى جزيرة صغيرة في وسط النهر، بعيداً عن شاطئيه، حتى يكون في مأمن من غارات المغول، وعلى بعد كافٍ من مرمى سهامهم، وقد سار ما يزيد على عشرين ألف جندي مغولي، من أولئك الذين انتصروا انتصاراً مبيناً على الخوارزميين في مدينة أترار وغيرها من المدن، يتبعهم خمسين ألفاً من خيرة شباب الخوارزميين، لمساعدة هذه الفرقة المغولية التي كانت تحاصر «تيمور ملك»، وقد كلفت هذه الجموع بإحضار الأحجار من الجبال المجاورة وإلقائها في النهر، ليكونوا بذلك طريقاً يستطيع المغول أن يعبروا منها إلى هذا الخوارزمي الذي كان معتصماً في جزيرته، على أن «تيمور ملك» صمم على إفساد خطتهم، فصنع اثنتي عشرة سفينة كبيرة غطى جدرانها بالجلود، وكان يرسل في كل يوم ستاً من هذه السفن للإغارة على المغول الذين كانوا يعملون في هذا الطريق الموصل إلى الجزيرة فيرمونهم بسهامهم، ولكن «تيمور ملك» وجد في النهاية أن مقاومته لن تجدي نفعاً فصمم على الهرب، وبعد أن شحن جنوده وأمتعته في سبعين مركباً، سار في النهر متجهاً نحو الشمال على أن المغول كانوا يراقبونه من جانبي النهر، وقد علم وهو يسير في النهر أن جوجي بن جنكيز خان قد حشد قوة كبيرة من المغول على مقربة من «جند» على جانبي نهر سيحون، وأنه سد هذا النهر بقنطرة من السفن، واضطر «تيمور ملك» أن يترك النهر إلى الساحل حيث امتطى جواده وقاتل أعداءه قتال اليائس، ومع ذلك استطاع أن يخدع مطارديه وأن يصل في النهاية إلى مدينة خوارزم حيث كان يرابط جلال الدين منكبرتي بن علاء الدين خوارزمشاه[1].

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 144.

د ـ استيلاء المغول على بخارى: كانت مدينة بخارى من بين مدن بلاد ما وراء النهر التي طمع المغول في الاستحواذ عليها، فنزل جنكيز خان بظاهرها في أواخر (عام 616هـ/ 1219م) وبدأ لفوره يضرب حصاراً محكماً عليها، وكانت القوة الإسلامية التي وكل إليها أمر الدفاع عنها تتكون من عشرين ألفاً[1]. واستمر الهجوم على بخارى ثلاثة أيام، وهي الآن «في دولة أوزبكستان حالياً»، وهي بلدة الإمام الجليل والمحدث العظيم محمد إسماعيل البخاري صاحب صحيح البخاري. وبعد ثلاثة أيام ظهر بعدها للجيش الخوارزمي المدافع ضعفه وقلة حيلته، وعندئذ قرر التقهقر إلى خراسان، التماساً للنجاة، ولكن كيف السبيل إلى الانسحاب مع هذه الصفوف المتراصة من الجيش المغولي؟ لقد عول الجيش الإسلامي على مواصلة الحرب، وحقق شيئاً من النجاح، لكنه أرغم أخيراً على الارتداد، ولم يزل يطاردهم المغول على مقربة من نهر جيحون حتى أنزلوا بهم هزيمة ساحقة ولم ينج من القتل إلا شرذمة يسيرة[2]، وأحس الخوارزميون الذين بقوا في المدينة ـ إثر ذلك ـ أن قوتهم ضعفت وبدأ اليأس يدب في نفوسهم وهم يرون خيرة الجند يغادرها، فأرسلوا قاضي المدينة بدر الدين يعرض تسليم المدينة ويطلب الأمان، فأجابه جنكيز خان إلى ذلك، وفتحت أبوابها رابع ذي الحجة (سنة 616هـ/ 1219م)[3]. ودخل جنكيز خان المدينة ومر أمام مسجد هاشم دخله ممتطياً جواده وسأل عما إذا كان هذا هو قصر السلطان، فلما قيل له أن هذا إنما هو بيت الله، نزل إلى أرض المسجد وصعد المنبر وصاح قائلاً بأعلى صوته: لقد قطع العلف أعط الخيل طعاماً. وقد فهم المغول من هذه العبارة أن جنكيز خان يشير إلى جنده بأن ينهبوا المدينة، وقد حمل المغول إلى فناء المسجد عدة صناديق تحوي نسخاً كثيرة من القرآن الكريم وقعت تحت حوافر الخيل، كما أهان المغول الدين الإسلامي، بإحضارهم قِرَب الخمر إلى المسجد، كما أحضروا المغنيين من المدن المختلفة، وأخذوا يشربون ويطربون[4]، وأعيان البلد وكبار الأئمة يقومون بخدمة الجند في مجالس الشراب أو يؤدون لهم الرقصات وفق رسم المغول على توقيع الآلات الموسيقية، وكان من هؤلاء

---

(1) سيرة السلطان جلال الدين، ص: 100، عودة الروح، ص: 198.
(2) الكامل في التاريخ (9/ 332)، عودة الروح، ص: 198.
(3) الكامل في التاريخ (9/ 332)، عودة الروح، ص: 198.
(4) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 144.

الفقهاء الأجلاء من دفع به كذلك ليسوس البغال[1].

وخرج جنكيز خان بعد ذلك وجمع سكان المدينة وطلب منهم أن يعينوا لهم أكثر هذا الجمع ثراء، فعينوا له مائتين وعشرين بينهم ثمانون من الأغراب، فطلب منهم أن يقتربوا منه، وأخذ يتحدث إليهم، وبعد أن بين لهم أن الغرض من حملته هو أن يثأر من السلطان الخوارزمي قال: لقد ارتكبتم خطأً فاحشاً، وإن الرؤساء هم المجرمون، وإذا سألتموني عن نفسي قلت لكم: إنني نقمة الله على الأرض، فإذا لم تكونوا مجرمين فإن الله ما كان يسمح لي بأن أعاقبكم[2]، وبعد أن فرغ جنكيز خان من حديثه أمرهم أن يخرجوا كنوزهم المدفونة وألا يبالوا بما ليس مدفوناً لأنه يستطيع أن يعثر عليه، وقد ترك جنكيز خان كل رجل من هؤلاء الأغنياء في حراسة رجل مغولي على أنه وجد أن هناك أربعمائة فارس خوارزمي لم يخرجوا من المدينة مع سائر رجال الحامية فأرغمهم على الالتجاء إلى القلعة، وقد جند المغول من سكان المدينة من يقدر على حمل السلاح وساروا إلى القلعة وحاصروها وبعد أن أحدثوا في حوائطها عدة ثغرات دخلوها، وحينئذ لم يتركوا فيها شخصاً واحداً على قيد الحياة، على أن هذه الحامية الصغيرة دافعت عن نفسها بكل شجاعة أحد عشر يوماً، وقتلت عدداً كبيراً من المغول، كما قتلت عدداً كبيراً من السكان الذين استخدموا في الحصار[3].

ويظهر أن جنكيز خان ركب رأسه عندما سقط عدد كبير من المغول ضحايا في ساحة القتال، فأمر جميع السكان أن يخرجوا من المدينة مجردين من أموالهم، لا يحمل أحد منهم غير ملابسه التي يرتديها، ثم دخل المغول المدينة فأعملوا فيها النهب وقتلوا من صادفهم من السكان[4]، ووصف ابن الأثير ما فعله المغول في بخارى فقال: ودخل الكفار البلد فنهبوه وقتلوا من وجدوا فيه وأحاط جنكيز خان بالمسلمين، فأمر أصحابه أن يقتسموهم، فاقتسموهم، فكان يوماً عظيماً من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان، وتفرقوا أيدي سبأ، وتمزقوا كل ممزق، واقتسموا النساء أيضاً، وأصبحت بخارى خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس[5].

---

(1) تاريخ بخارى، ص: 199، عودة الروح للخلافة، ص: 199.

(2) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 144.

(3) المصدر نفسه، ص: 145.

(4) المصدر نفسه، ص: 145

(5) الكامل (9/ 333)، عودة الروح، ص: 200.

وأما ابن كثير فقد قال: فقتلوا من أهلها خلقاً لا يعلمهم إلا الله ـ عز وجل ـ وأسروا الذرية، والنساء، وفعلوا مع النساء الفواحش في حضرة أهلهن، فمن الناس من قاتل دون حريمه حتى قتل، ومنهم من أسر فعذب بأنواع العذاب وكثر البكاء والضجيج بالبلد[1]

ومما هو جدير بالذكر أن المغول أشعلوا النار في المدينة فاحترقت بأسرها، إذ أن معظم مبانيها كانت من الخشب، ولم يبق من مباني المدينة إلا تلك المبنية من الآجر، وأخيراً نزح من بقي من أهلها إلى إقليم خراسان، وهكذا شرد المغول أهالي مدينة بخارى الذين اشتهروا بولعهم بالعلوم والفنون، ومما هو جدير بالذكر أن أحد سكان هذه المدينة لما وصل إلى إقليم خراسان أجمل ما أحدثه المغول في مدينته في هذه العبارة القصيرة التي عبر فيها تعبيراً صادقاً عما حدث: «أتوا فخربوا وأحرقوا وقتلوا ونهبوا ثم ذهبوا[2]»، وقد أصبحت مدينة بخارى أطلالاً بالية واستمرت على هذا النحو حتى أخذ جنكيز خان نفسه في إصلاحها وإعادة بنائها، قبل موته بزمن قصير[3].

هـ ـ اجتياح سمرقند 617هـ: فبعد أن دمر التتار مدينة بخارى العظيمة، وأهلكوا أهلها وحرقوا ديارها ومساجدها ومدارسها، انتقلوا إلى المدينة المجاورة «سمرقند» وهي أيضاً في دولة أوزبكستان الحالية، واصطحبوا في طريقهم مجموعة كبيرة من أعيان المسلمين من مدينة بخارى، وكما يقول ابن الأثير: فساروا بهم على أقبح صورة، فكل من أعيا وعجز عن المشي قتل[4]، وكانوا يصطحبون الأسارى معهم لأسباب كثيرة منها:

- كانوا يعطون كل عشرة من الأسارى علماً من أعلام التتار يرفعونه، فإذا رآهم أحد من بعيد ظن أنهم من التتار وبذلك تكثر الأعداد في أعين أعدائهم بشكل رهيب، فلا يتخيلون أنهم يحاربونهم، وتبدأ الهزيمة النفسية تدب في قلوب من يواجهونهم.

- كانوا يجبرون الأسارى على أن يقاتلوا معهم ضد أعدائهم، ومن رفض القتال أو لم يظهر فيه قوة قتلوه.

(1) البداية والنهاية (17 ـ 80).
(2) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 145.
(3) المصدر نفسه، ص: 145.
(4) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: قصة التتار، د. السرجاني، ص: 30.

- كانوا يتترسون بهم عند لقاء المسلمين، فيضعونهم في أول الصفوف كالدروع لهم، ويختبئون خلفهم، ويطلقون من خلفهم السهام والرماح وهم يحتمون بهم.

- كانوا يقتلونهم على أبواب المدن لبث الرعب في قلوب أعدائهم، وإعلامهم أن هذا هو المصير الذي ينتظرهم إذا قاوموا التتار.

- كانوا يبادلون بهم الأسارى في حال أسر الرجال من التتار في القتال، وهذا قليل لقلة الهزائم في جيش التتار[1].

كانت سمرقند من أكبر مدن بلاد ما وراء النهر وأعظمها على الإطلاق، فهي حاضرة هذا الإقليم، وكانت إلى جانب ذلك مركزاً مهماً للتجارة، ولذلك أحيطت بأسوار ضخمة، يعلوها عديد من الأبراج، للدفاع عنها، وكانت حاميتها ـ عندما فر منها محمد خوارزمشاه غرباً ـ تتألف من خمسين ألف مقاتل من الخوارزمية على ما يذكر ابن الأثير[2]، ويرى ابن العبري، أنها كانت أربعين ألف فارس، وكان جنكيز خان على علم بكل هذه الاستعدادات الدفاعية، لذا وضع خطته الأصلية على أساس أنه سيخوض عند أسوارها حرباً شديدة قاسية، فرتب أموره على أن تلتقي كل قواته ـ والتي بدأ بها غزو بلاد ما وراء النهر من شرق أترار، عند سمرقند، واصطحب معه عدداً كبيراً من أسرى بخارى ليستعين بهم في عملية الحصار[3]، ولما بلغ مشارف سمرقند وجد أن جنوده من الكثرة بحيث أنه استغنى عن ثلاثين ألف منهم، عهد إليهم مطاردة الأمير علاء الدين محمد خوارزمشاه[4].

ومهد جنكيز خان للاستيلاء على سمرقند بإخضاع جميع المناطق التي كانت تحيط بها إخضاعاً يتعذر معه أن يستفيد خصومه منها أثناء حصاره لها، ونجح في تحقيق هذه الغاية[5]، وكان الخان المغولي يقدر أن حصن المدينة لن يتيسر له فتحه قبل بضعة سنوات، مستنداً في هذا الاعتقاد إلى ما أبداه قائدا حاميتهما من ضروب الشجاعة، فضلاً عما أنزلاه بقوات المغول من خسائر، لكنه رأى أن يتولى بنفسه قيادة الهجوم

---

(1) قصة التتار، د. السرجاني، ص: 31.
(2) الكامل (9 ـ 333)، عودة الروح، ص: 201.
(3) الكامل (9 ـ 333)، تاريخ بخارى، ص: 173، عودة الروح، ص: 201.
(4) تاريخ بخارى، ص: 173، عودة الروح، ص: 201.
(5) تاريخ بخارى، ص: 173، عودة الروح، ص: 201.

على هذه المدينة[1]، فحالفه النجاح في الاستيلاء على بعض أبوابها مما ترتب عليه قيام قادة الجيش الخوارزمي بطلب الأمان وتسليم المدينة، فبينما رأت أكثرية الحامية التي تنحدر من أصل تركي ضرورة التسليم، رأى الفريق الآخر ضرورة القتال، وارتدوا إلى القلعة محاربين[2].

ووافق جنكيز خان على فكرة التسليم، ووعد هؤلاء الأتراك بأنهم سيدخلهم في جيشه، لذا خرجوا إليه مع عائلاتهم، وانضموا إلى عسكر المغول، وأراد جنكيز خان أن يؤكد ـ عملياً ـ وعوده، فأمر بحلق شعورهم على عادة المغول ـ خداعاً وتمويهاً ـ غير أنه ما كاد المساء يقبل حتى قتلوا منهم ثلاثين ألفاً من أبرزهم أمراؤهم[3]، وكان من نتيجة ذلك أن أيقن أهل المدينة ومن بقي من أفراد حاميتها بالهلاك، فأوفدوا في اليوم الرابع للقتال قاضي المدينة وبعض علمائها، يعرضون على جنكيز خان التسليم، مشترطين أن يأمنهم على حياتهم، فأجابهم الخان إلى ما طلبوا، وحينئذ فتحت الأبواب، على أن المغول لم يرعوا عهدهم إذ أمروا السكان بالخروج من المدينة، ثم وضعوا السيف فيمن لم يخرج، واستولوا على قلعتها، ونهبوا البلد، وأحرقوا الجوامع، وكان ذلك في المحرم سنة 617هـ/ 1220م وأرغم جنكيز خان القادرين من أهل سمرقند على حمل السلاح جنوداً في صفوف المغول، وبعث مهرة البستانيين من أهلها إلى «قراقورم»، لتزيينها بمنتزهات على نحو مغاني سمرقند[4]، كما ألحق مهرة الصناع وخصوصاً نساجي الحرير والقطن بخدمة زوجات جنكيز خان وأقربائه كرقيق، وسيّر بعضهم مع الخان إلى خراسان[5]، وسمح لخمسين ألفاً من السكان بالعودة إلى المدينة بعد أن دفعوا مائة ألف قطعة ذهبية[6]، وقد قدر ابن العبري هذه الفدية بمائتي ألف دينار، قام بجمعها اثنان من كبار رجال سمرقند، وهكذا تم استيلاء المغول على هذه المدينة في أوائل سنة 617هـ/ 1220م، ووصف ابن الأثير ما أحدثه المغول في المدينة فقال: فلما كان اليوم الرابع نادوا في البلد أن يخرج أهله جميعهم ومن تأخر قتلوه،

(1) الدولة الخوارزمية، ص: 124، عودة الروح، ص: 202.
(2) الحياة السياسية في عهد السيطرة المغولية، ص: 33 ـ 34.
(3) تاريخ بخارى، ص: 116، عودة الروح، ص: 202.
(4) تاريخ بخارى، ص: 174، عودة الروح، ص: 203.
(5) عودة الروح، ص: 203.
(6) الدولة الخوارزمية، ص: 147.

فخرج جميع الرجال والنساء والصبيان، ففعلوا مع أهل سمرقند مثل فعلهم مع أهل بخارى من النهب والقتل والسبي والفساد، ودخلوا البلد فنهبوا ما فيه وأحرقوا الجامع...، وافتضوا الأبكار، وعذبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال وقتلوا من لم يصلح للسبي[1].

ورغم ما حدث من تخريب في هذه المدينة فقد فرض جنكيز خان على أهلها جزية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار[2]، ولكي ندرك ما حل بحاضرة بلاد ما وراء النهر إثر الغزو المغولي نورد ما ذكره شانج شون، وهو أسقف صيني صحب جنكيز خان في غزواته وكتب مؤلفاً بالصينية عن هذه الرحلة، فقد ذكر أن مدينة سمرقند كانت قبل اكتساح الدولة الخوارزمية تضم أكثر من مائة ألف أسرة، ولكن بعد استيلاء المغول على هذه المدينة لم يبق فيها سوى ربع عدد سكانها، وذكر أن كثيرين من العمال الصينيين انتشروا في هذه المدينة، ورغم أن الممتلكات ظلت في أيدي المسلمين فإن إدارتها كانت تحت إشراف جيش الاحتلال المغولي[3]. وبعد سقوط عاصمة السلطان محمد، سمرقند، وهروب الشاه الخوارزمي من وجه القوات المغولية، أصبحت أراضي الأسرة الخوارزمية مفتوحة على مصراعيها دون حامٍ ضد قوات جنكيز خان التي أصبحت حرة تسير عبرها طولاً وعرضاً دون أن تجد معارضاً لها، لذلك فلا عجب أن نجد المدن والمقاطعات تتساقط واحدة تلو الأخرى، في أيدي القوات المغولية المنتصرة الزاحفة، وما إن قارب فصل ربيع ذلك العام حتى أكمل المغول فتحهم لجميع أراضي السلطان محمد في إقليم ما وراء النهر، من مدينة جند في الشمال إلى بخارى وسمرقند في الجنوب، فبناكت وخجندة في الوسط[4].

وهكذا بانهيار جميع بلاد ما وراء النهر انهارت خطوط الدفاع التي اعتمد الجيش الإسلامي عليها، وتيسر للمغول بعد ذلك الاستيلاء على أقاليم شرق الدولة الإسلامية الباقية من غير عناء[5].

(1) الكامل في التاريخ (12/ 169)، الدولة الخوارزمية، ص: 147.
(2) الدولة الخوارزمية، ص: 148.
(3) المصدر نفسه، ص: 148.
(4) سقوط الدولة العباسية، ص: 123.
(5) عودة الروح للخلافة، ص: 203.

2 ـ لجتياح الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية ووفاة محمد خوارزمشاه: يبدو أن الضربات التي أنزلها المغول ببعض أجزاء الدولة الخوارزمية، وانتهت بسقوط حصون ومدن أترار وبجند وبنكت وخجندة وبخارى، وغيرها، كان لها تأثير بالغ في نفس علاء الدين محمد خوارزمشاه فعوَّل بعد وصوله إلى سمرقند من بخارى على الرحيل إلى مكان أمين يجبر فيه أمره أو يبحث عن إمكانية التصدي لهذا العدو الغاشم، لذا عقد في سمرقند مجلساً ضم وزراءه وكبار قواده للبحث فيما يمكن عمله لمقاومة المغول، وظهر في هذا الاجتماع اتجاهان: أولهما يرى عدم جدوى الدفاع عن بلاد ما وراء النهر، وأن يركز الخوارزميون اهتمامهم على حماية الأقاليم التي تقع غربي جيحون، وثانيها يفضل الانسحاب جنوباً إلى غزنة[1]، وقد استصوب خوارزمشاه الرأي الأخير، وتوجه نحو غزنة، وبينما هو سائر إليها قدم عليه وهو بمدينة بلخ وزير ابنه ركن الدين قد وجهه إلى أبيه لينتفع بخبرته في ظاهر الأمر وللتخلص من حكمه واستبداده في الحقيقة، فلما اكتشف الوزير ما يراد به احتال ليرجع إلى العراق العجمي موطنه الأصلي، لذا استغل ثقة علاء الدين محمد خوارزمشاه فيه، وعرض عليه المسير إلى العراق العجمي حيث يجد فيه المال والرجال والدرع الواقي من المغول، فقبل الأمير الخوارزمي مشورته وسار إلى نيسابور إحدى مدن خراسان، غيرأنه لم يقم بها إلا فترة قصيرة، إذ بلغه أن المغول قد عبروا نهر جيحون، وأصبحوا على مقربة منه، وأنهم يجدون في البحث عنه، فلم يكن في وسعه حينئذ إلا أن يغادر نيسابور ويأخذ طريقه شطر العراق العجمي[2]

وكانت قوات المغول تتعقب علاء الدين محمد خوارزمشاه الذي فر هارباً من سمرقند إلى خراسان، فلما وصلت هذه القوات إلى نيسابور وجدوه قد غادرها فأخذوا يتبعون أثره، واستطاع المغول على مقربة من الري أن يوقعوا بجيش خوارزمشاه الرئيس، الأمر الذي جعل الأمير الخوارزمي يفكر في الالتجاء إلى خليفة بغداد رغم ما بينهما من عداء، فسار حتى نزل «بمرج دولة آباد» من أعمال همذان، ووصل معه من جيشه زهاء عشرين ألف فارس، فواجه زحف القوات المغولية[3]، مما اضطره إلى الاتجاه إلى إقليم مازندران جنوبي بحر قزوين، ووصل إلى مرسى يعرف «باب سكون»،

---

(1) عودة الروح، ص: 204.

(2) الكامل (9/ 333).

(3) الكامل (9/ 333 ـ 334)، عودة الروح، ص: 205.

يقول النسوي: وظل في إحدى قرى هذا الميناء يصلي بالناس في المسجد وينذر لله لئن كتبت له السلامة وأعيد له ملكه ليقيمن العدل، إلى أن انكشف أمره، وهاجم التتار موضعه، وعندئذ ركب البحر إلى قلعة أمينة في إحدى جزر بحر الخزر[1]، تدعى جزيرة «أوغر تشالي»، أو جيركن الحالية، على خلاف في ذلك[2]، وقد رمى المغول زورقه بالسهام، فلما أخطأته تحمس بعضهم فسبح خلفه حرصاً على أخذه فغرقوا، ووصل خوارزمشاه لمأمنه عليلاً، وما لبث أن فارق الحياة في تلك الجزيرة في الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة 617هـ/ 1220م[3].

وقد وصف النسوي حالة علاء الدين في أيامه الأخيرة فقال: حدثني غير واحد ممن كانوا مع السلطان في المركب، قالوا: كنا نسوق المركب وبالسلطان من علة ذات الجنب ما أيسه من الحياة، وهو يظهر الاكتئاب ضجراً ويقول: لم يبق لنا مما ملكناه من الأرض قدر ذراعين نحفر فنقبر، فما الدنيا لساكنها بدار، لا ركون إليها إلا سوى انخداع واغترار، ما هي إلا رباط يدخل من باب ويخرج من باب، فاعتبروا يا أولي الألباب. وقد وصل علاء الدين أخيراً إلى إحدى الجزر الصغيرة طلباً للأمان، وأقام في إحدى الخيام، على أن الأهالي الذين يقيمون على شاطئ مازندران كانوا يأتونه بما يلزمه من مأكل وما يحتاجه من ضرورات الحياة، وفي نظير ذلك كان السلطان يوصي بإقطاعهم الإقطاعات، ولما استعاد جلال الدين منكبرتي أملاك أبيه بعد بضعة سنين أقر هذه الإقطاعات لأصحابها، ونلاحظ أن كل من كان معه علامة من علاء الدين كان جلال الدين منكبرتي يقطعه إقطاعاً، ولما أحس علاء الدين أن المرض يشتد عليه يوماً بعد يوم وأن أمه تركان خاتون قد وقعت أسيرة في أيدي المغول، استدعى أبناءه جلال الدين منكبرتي وأزلاغ شاه، وآق شاه، ووكل أمور دولته إلى ابنه جلال الدين، بعد أن أعلن أنه الوحيد الذي يستطيع حماية الدولة الخوارزمية[4]، ومما قاله لأبنائه، هذه العبارة التي ذكرها النسوي: إن عرى السلطنة قد انفصمت والدولة قد وهنت قواعدها، وتهدمت، وهذا العدو قد تأكدت أنيابه وتشبثت بالملك أظفاره، وتعلقت أنيابه، وليس يأخذ بثأري منه إلا ولدي منكبرتي، وها أنا موليه العهد، فعليكما بطاعته[5]، وبعد أن

(1) سيرة السلطان، ص: 106.

(2) تاريخ بخارى، ص: 177، عودة الروح، ص: 205.

(3) سيرة السلطان، ص: 107 ، 108.

(4) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 151.

(5) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 152.

قضى علاء الدين في هذه الجزيرة شهراً، قضى نحبه ودفن فيها، ومما يؤسف له أن أتباعه عجزوا عن إيجاد كفن يكفنونه به حتى أن شمس الدين محمود وكان من المقربين إليه خلع قميصه وكفنه به، ويروي السيوطي أنه كفن بشاش فراش كان معه[1]، وقد وصف ابن الوردي حالة السلطان علاء الدين خوارزمشاه في أواخر أيامه فقال:

وفارق المسكين أوطانه ... وملكه ممتحناً بالمرض
وكم حوى من جوهر مثمن ... فما فدى الجوهر هذا العرض

وقد ذكر النسوي الذي عاصر هذه الحوادث، وخدم في بيوتات الخوارزميين بعض أبيات تصور حال علاء الدين في أيام سطوته الأولى وحاله بعد أن مالت به الأيام أبدع تصوير:

أذل الملوك وصاد القروم ... وصير كل عزيز ذليلا
وحف الملوك به خاضعين ... وزفوا إليه رعيلا رعيلا
فما تمكن من أمره ... وصارت له الأرض إلا قليلا
وأوهمه العز أن الزمان ... إذا رامه ارتد عنه كليلا
أتته المنية مغتاظة ... وسلت عليه حساماً صقيلا
فلم تغن عنه حماة الرجال ... ولم يجد قيل عليه فقيلا
كذلك يفعل بالشامتين ... ويفنيهم الدهر جيلاً فجيلا[2]

وكان هدف المغول القبض على علاء الدين محمد خوارزمشاه، لكنهم لم يستطيعوا تحقيق هذه الأمنية، ومع ذلك فإنهم استولوا على كثير من المدن والبلدان التي صادفتهم وهم يطاردونه، ومن أبرزها «مازندران» ذات القلاع التي اشتهرت بمناعتها وحصانتها ولم يلاقوا في الاستيلاء عليها سنة 617هـ/ 1220م مقاومة تذكر[3]، كذلك اتجهت بعض القوات المغولية إلى الري فوصلتها على حين غفلة من أهلها، وما لبثت أن استولت عليها وعاثت فيها نهباً وسلباً[4]، ولم يقم المغول في الري بعد استيلائهم عليه بل مضوا مسرعين في أثر خوارزمشاه ينهبون كل مدينة أو قرية يمرون عليها،

---

(1) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص: 113.

(2) سيرة السلطان جلال الدين، ص: 48، الدولة الخوارزمية، ص: 153.

(3) عودة الروح للخلافة، ص: 206.

(4) تاريخ الخميسي (2/ 368)، عودة الخلافة، ص: 206.

ويضعون السيف في رقاب أهلها، ولا يبقون على شيء فيها، فلما وصلوا ظاهر همذان التقى بهم رئيسها يعرض عليهم الصلح، ويقدم إليهم الأموال والثياب والدواب وغير ذلك من الهدايا الثمينة، فوافقوا على منح أهلها الأمن، ومالوا عنها إلى زنجان فاكتسحوها، ثم اتجهوا إلى مدينة قزوين فتصدى لهم أهلها وأخذوا يذودون عنها في قتال عنيد انتهى بهزيمتهم ودخولها في حوزة المغول[1].

ثم اتجه المغول إلى إقليم أذربيجان، وقبل أن يصلوا إلى عاصمة الإقليم مروا بمدينة سنجار فنهبوها وقتلوا كثيراً من أهلها ثم ساروا إلى قوس فامتنع أهلها عنهم، ولم يزالوا يحاصرونها حتى تمكنوا من الاستيلاء عليها[2]،ولما وصلوا إلى المدينة «تبريز»صانعهم صاحبها أوزبك بن البهلوان، وقدم لهم كثيراً من الهدايا، متمثلة في المال والثياب والدواب، وأعلن تبعية بلاده لهم[3].

على أن المغول ما لبثوا أن اضطروا بسبب برد الشتاء القارس إلى الرحيل عن تبريز واتجهوا عبر سهول موقان إلى السواحل الغربية لبحر قزوين طلباً للدفء، وإذ هم يقيمون في هذه السواحل عقد حكام جورجيا معاهدة دفاعية مع أتابكية أذربيجان ومع الملك الأشرف موسى بن الملك العادل صاحب بلاد الجزيرة وخلاط للانقضاض على المغول، وحددوا بدء الهجوم بفصل الربيع، غيرأن المغول فطنوا إلى ما يدبر ضدهم، وعمدوا إلى القيام بهجوم على هذه القرى، فشتتوا شملها، واستولوا على حصون جورجيا وخربوها، كما توغلوا في أراضيها حتى وصلوا إلى حاضرتها «تفليس» وكان ذلك في ذي القعدة سنة 617هـ/ 1220م[4]، ولما تم للمغول الاستيلاء على إقليم جورجيا عادوا ثانية إلى إقليم أذربيجان الذي انتفض عليهم، وما كادوا يصلون إلى «تبريز» حاضرة هذا الإقليم حتى أعلن أهلها الاستسلام، وتعهدوا بدفع جزية كبيرة، ثم اتجهت قوات المغول صوب مراغة إحدى أمهات هذا الإقليم، وكانت تحكمها أميرة اتخذت إحدى القلاع حصناً لها، وشرعت تقاوم هجوم المغول الذين ضربوا على هذه المدينة حصاراً محكماً، استخدموا فيه مجانيقهم، وما لبثت المدينة أن سقطت في أيديهم رابع صفر سنة 618هـ/ 1221م، يقول ابن الأثير: ووضعوا السيف في أهلها،

---

(1) العبر للذهبي (5/ 644 ـ 645) عودة الروح، ص: 207.

(2) تاريخ ابن خلدون (5/ 520)، عودة الروح، ص: 207.

(3) عودة الروح، ص: 207.

(4) المصدر نفسه، ص: 207، مرآة الجنان (4/ 37 ـ 38).

فقتل منهم ما يخرج عن الحد والإحصاء، ونهبوا كل ما صلح لهم، وما لا يصلح لهم أحرقوه[1]، وكي يتأكد المغول من فناء جميع أهلها أمروا بعض الأسرى المسلمين أن ينادوا في شوارعها بأن المغول قد رحلوا، فلما اطمأن من اختفى من أهلها في الدروب والآجام وخرجوا من مخابئهم قبض المغول عليهم وقتلوهم عن آخرهم[2].

لقد تعرض شرق الدولة الإسلامية لهذا الغزو المغولي، على هذه الصورة المروعة، ومع ذلك فإن خليفة بغداد الناصر لدين الله لم تبد منه أية محاولة لصده، كما لم يستمع إلى الرسل الذين قدموا إليه من البلاد التي نكبها المغول، وقد حمل موقف الخليفة السلبي من هذه البلاد، وعدم الإسهام في نجدتها بعض المؤرخين على اتهامه بالاتصال بالمغول، وتحريضهم على غزو الدولة الخوارزمية، على أن الخليفة الناصر بدأ يشعر بخطر الزحف المغولي عندما رحل المغول عن مدينة مراغة، وقصدوا مدينة إربل، فأثار بعض أمراء المسلمين الخاضعين له، وقد عبر ابن الأثير عما انتاب أهل الموصل من الخوف حين شرع المغول في الزحف على مدينة أربل بقوله: ووصل الخبر إلينا بذلك بالموصل، فخفنا حتى إن بعض الناس هم بالجلاء خوفاً من السيف[3]، وانزعج الخليفة الناصر حين علم بزحف المغول على مدينة إربل، وكان يلي إمارتها حينئذ مظفر الدين كوكبري من قبل خليفة بغداد، فقد خشي الناصر أن يتجه قواد المغول إلى العراق العربي عن طريق دقوقا بدلاً من إربل، بعد أن يكتشفوا وعورة مسالكها، وصعوبة الوصول إليها، لذا بعث برسل تحمل أوامره إلى كل من مظفر الدين كوكبري صاحب إربل، وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، والملك الأشرف موسى صاحب بلاد الجزيرة، يأمرهم بالتوجه إلى مدينة دقوقا في عسكرهم ليصدوا المغول إن هم عدلوا عن إربل إليها، توطئة لاقتحام العراق العربي، فسير بدر الدين بعض فرق جيشه إلى دقوقا، وغادر مظفر الدين إربل في صفر سنة 618هـ/ 1221م مع عساكره وتبعهم جمع كثير من العساكر المتطوعة، أما الملك الأشرف فاعتذر عن الحضور بنفسه في عسكره إلى دقوقا بوصول الملك المعظم عيسى بن الملك العادل من دمشق، يستنجده على الفرنج الذين كانوا وقتذاك قد استولوا على دمياط[4].

---

(1) مرآة الجنان لليافعي (4/ 37 ـ 38)، عودة الروح، ص: 208.

(2) الدولة الخوارزمية، ص: 134 ـ 135.

(3) عودة الروح، ص: 209، الكامل (12/ 155 ـ 156).

(4) مرآة الجنان (4/ 38 ، 48)، عودة الروح، ص: 210.

ووصلت قوات أمراء إربل والموصل والجزيرة إلى دقوقا حيث سير الخليفة الناصر إليهم جيشاً قوامه ثمانمائة فارس[1]، بقيادة مملوكه قشتمر، وأسند الخليفة إلى الأمير مظفر الدين كوكبري قيادة القوات الإسلامية ووعده بمده بالعسكر، غير أن حكام المسلمين عجزوا عن إعداد القوة اللازمة لمواجهة المغول، ولم يكد يصل إلى المغول نبأ تجمع القوى الإسلامية للقائهم حتى رجعوا القهقرى وهم يحسبون أن عسكر المسلمين يتبعهم، ورحلوا إلى العراق العجمي، أما العسكر الإسلامي فأقام عند دقوقا فترة تبين له أثناءها أن العدو قد انصرف عنهم، كما أن المدد الموعود به لم يصل إليهم، لذلك تفرقوا، وعاد الجميع إلى بلادهم سنة 618هـ/ 1221م[2]، وقضى المغول الفترة التالية متنقلين بين المدن الإسلامية المختلفة في العراق العجمي وأذربيجان وأران وجورجيا مدمرين مخربين ما بقي من مدنها، حاملين ما يستطيعون حمله من خيراتها، ثم عبر القائدان المغوليان المنطقة الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود إلى بلاد القفجاق وروسيا، وسار المغول بقيادة هذين القائدين إلى بلغاريا وأوصلوا الرعب إلى أقصى حدود أوروبا[3].

3 ـ **استيلاء المغول على خوارزم:** كان إقليم خوارزم من الأقاليم التي تسيطر عليها تركان خاتون أم السلطان علاء الدين خوارزمشاه فقد كان نفوذها في هذا الإقليم يفوق نفوذ السلطان نفسه، وذلك بفضل أتباعها المخلصين من قبيلة كانكالي التي تسكن السهول الواقعة شمال خوارزم وشمال شرقي بحر قزوين، وبرغم هذا الشقاق الذي قام بين علاء الدين وأمه، فإنه لما رأى الخطر ماثلاً أمام عينيه، أرسل إليها في خوارزم يطلب منها أن تتقهقر هي وحاشتها إلى إقليم مازندران، جنوب بحر قزوين، حرصاً على حياتها، كما نرى جنكيز خان يرسل إليها عندما سمع بذلك الشقاق الذي قام بين علاء الدين وأمه، يستميلها إلى جانبه، ووعدها بأن يترك لها ما بيدها من أملاك بعد أن يتم فتوحاته، على أن السلطانة لم تهتم بما جاء في هذه الرسالة[4]، ولما علمت تركان خاتون بتقهقر السلطان علاء الدين محمد، عزمت في أواخر سنة 616هـ/ 1219م على مغادرة إقليم خوارزم مع وصيفاتها، ومع أبناء علاء الدين، وحملت معها كل ما يمكن

---

(1) الدولة الخوارزمية، ص: 135 ـ 136.

(2) عودة الروح، ص: 210.

(3) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 158.

(4) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 161.

حمله من كنوز، وقبل أن ترحل ارتكبت عملاً بربرياً فاحشاً ذلك أنها أمرت بقتل أولئك الأمراء الذين كان علاء الدين قد استولى على أملاكهم، والذين كانوا في سجون خوارزم، فقتلت أبناء طغرلبك آخر سلاطين السلاجقة في العراق وأمراء بلخ وترمذ وباميان وابني آخر ملوك الدولة الغورية، وكثيرين من الأمراء الآخرين[1]. رحلت التركان خاتون من إقليم خوارزم بغية الالتجاء إلى العراق العجمي، ثم اعتصمت وهي في الطريق بإحدى قلاع مازندران الحصينة، وقد استولى القائد المغولي «سوبوتاي» في أثناء مطاردته علاء الدين خوارزمشاه على هذه القلعة، التي سلمت بعد ثلاثة أشهر حين نفذ ما ادخره المحاصرون من مياه للشرب، ووقعت تركان خاتون أسيرة في أيدي المغول الذين قادوها هي وحاشيتها وأبناء علاء الدين إلى معسكر جنكيز خان، وقد ظلت تركان خاتون أسيرة في أيدي المغول حتى رحلوا إلى بلادهم وصحبوها معهم إلى هناك، حيث ماتت سنة 630هـ/ 1233م، وأما أبناء علاء الدين الصغار فقد قتلهم جنكيز خان رغم حداثة سنهم، كما أعطى ابنه جغطاي اثنتين من بنات علاء الدين، فتزوج واحدة وأعطى الثانية لأحد رجاله المقربين، كما أعطى جنكيز خان ابنة ثالثة من بنات علاء الدين لحاجبه دانشمند[2]، وهكذا خلا إقليم خوارزم من الحكام الخوارزميين وبات ينتظر مصيره المحتوم على أيدي المغول[3].

أ ـ انتقال جلال الدين منكبرتي من خوارزم: بعد وفاة علاء الدين في الجزيرة المنعزلة في بحر قزوين على نحو ما رأينا، عبر أولاده الثلاثة جلال الدين منكبرتي، وأزلاغ شاه، وآق شاه، عبروا البحر إلى إقليم خوارزم حيث استقبلوا بمظاهر الفرح والسرور، إذ كانت حاضرة هذا الإقليم في فوضى مستمرة منذ غادرتها تركان خاتون التي انشغلت بنفسها، وفاتها أن تعين حاكماً على هذا الإقليم، وقد وصف النسوي وصول جلال الدين منكبرتي وأخويه إلى إقليم خوارزم في عبارة نوردها في هذا المقام: لما اندرج السلطان إلى رحمة الله ودفن بالجزيرة، ركب جلال الدين البحر إلى خوارزم بأخويه المذكورين (أزلاغ شاه وآق شاه)... وتباشر الناس بقدومهم تباشر من أعضل داؤه، فظفر بدوائه، واجتمعت عندهم من العساكر السلطانية زهاء سبعة آلاف فارس[4].

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 161.
(2) المصدر نفسه، ص: 161.
(3) المصدر نفسه، ص: 162.
(4) المصدر نفسه، ص: 162.

وعلى الرغم من أن جلال الدين منكبرتي وأخويه استطاعوا أن يجمعوا جيشاً كبيراً لمواجهة المغول، فقد كان من سوء حظ الخوارزميين أن هذا الجيش كان يتكون من تلك القبائل التركية التي تنتمي إليها تركان خاتون والتي لم ترض عن تولي جلال الدين منكبرتي الحكم بعد أبيه، وقد أراد جلال الدين أن يخضع هذه الجيوش الثائرة بالقوة فتآمروا على قتله، ولم يجد جلال الدين مخرجاً إلا الفرار والنجاة بنفسه من الهلاك، ففر إلى خراسان بصحبة ثلاثمائة فارس تحت إمرة «تيمور ملك» حاكم مدينة خنجده، وكان قد فر إلى إقليم خوارزم بعد غزو المغول مدينته كما رأينا، وقد عبر جلال الدين هذه الصحراء التي تفصل إقليم خوارزم عن خراسان في ستة عشر يوماً، وصل بعدها إلى الأراضي القريبة من مدينة نسا[1].

وأما الجند المتآمرون فقد بقوا في خوارزم بعد رحيل جلال الدين عنها، ولكنهم ما لبثوا أن رحلوا أيضاً إلى خراسان بعد أن سار إليهم المغول، وبرحيل جلال الدين منكبرتي عن إقليم خوارزم ضاع آخر أمل في إنقاذ هذا الإقليم، إذ لم يعد هناك من قوة تستطيع أن تقف في وجه التيار المغولي، وكان في قدوم أولاد علاء الدين خوارزمشاه مدينة خوارزم وجمعهم الجيوش الكثيرة فيها، ما استلفت نظر جنكيز خان، فسير إلى هذه المدينة جيشاً تحت قيادة أبنائه جوجي وجغتاي وأغطاي الذين كانوا قد أتموا فتح بلاد ما وراء النهر بالاشتراك مع جيوش جنكيز خان، ولكي يحاصر جنكيز خان أبناء علاء الدين من كل جهة أمر جيوشه في خراسان بأن تقف على الحدود الجنوبية[2] للصحراء التي تفصل خوارزم عن خراسان، وقد عسكر سبعمائة فارس بالقرب من مدينة نسا، ولما أرادا الاشتباك معهم حلت بهما الهزيمة، ثم وقعا في الأسر، وقد قطع المغول رأسيهما ورشقوهما في سهمين، ثم طافوا بهما في أنحاء هذه المقاطعة إمعاناً في السخرية في الخوارزميين، وإرهاباً للأهالي المتمردين، وفي هذه الأثناء (ذو القعدة سنة 617هـ / مايو سنة 1220م) كان الجيش المغولي يتقدم نحو مدينة خوارزم، حاضرة الإقليم المسمى بهذا الاسم، وتقع على مقربة من مصب نهر جيحون في إقليم صحراوي، إذ لا نجد فيما عدا هذه المدينة وما يحيط بها من مدن صغيرة وقرى متناثرة إلا أراضٍ صحراوية[3].

ب ـ حصار مدينة خوارزم: كانت الجيوش المغولية تحت قيادة جوجي وأغتاي

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 163.

(2) المصدر نفسه، ص: 163.

(3) المصدر نفسه، ص: 164.

من أبناء جنكيز خان، كما ذكرنا، ولكن القيادة العليا كانت في يد جوجي أكبر أبنائه، وهكذا كان المغول أقوياء بروحهم المعنوية وبرجالهم وبمؤازرة جنكيز خان لهم، أما الجيوش الخوارزمية، فكانت لا ضابط لها، وخاصة بعد أن فر جلال الدين منكبرتي وأخواه، كما كانت أكثرية هذه الجيوش من قبيلة كانكالي التركية وهي لا تعدو من الجيوش المرتزقة التي لا يهمها في كثير أو قليل أن تدافع عن الأراضي الخوارزمية.

وصل القوات الثلاثة إلى المدينة وطلبوا من أهلها التسليم ووعدوهم حسن المعاملة وأعلمهم جوجي أن أباه أعطاه إقليم خوارزم ليحكمه وأنه حريص على أن يبقي حاضرة هذا الإقليم سالمة من التخريب، كما أخبرهم أنه حذر جنوده ألا يمسوا هذا الإقليم بأذى[1].

هذا إلّا أن السلطان المتوفى علاء الدين خوارزمشاه كان قد أرسل إلى أهالي هذه المدينة على إثر تقهقره وفراره ينصحهم بالتسليم وعدم المقاومة، صوناً لأرواحهم، وقد جاء في رسالته لهم ما يأتي: إن لأهل خوارزم علينا وعلى سلفنا من الحقوق المتلاحقة والسوالف الحاضرة والسابقة ما يجب علينا النصح لهم، والإشفاق عليهم، وهذا العدو عدو غالب، فعليكم بالمسالمة والطريق الأرفق ودفع الشر بالوجه الأوفق[2]. ورغم تحذير جوجي ونصح السلطان الخوارزمي انقسم السكان إلى معسكرين: فريق منهما يؤمن بضرورة التسليم وفريق آخر يرى ضرورة المقاومة والدفاع عن وطنهم، وقد انتصر أنصار الرأي الثاني ووقفت المدينة موقف الدفاع، واستعد السكان للمقاومة، ولما أدرك المغول عزم الخوارزميين على المقاومة استعدوا بدورهم للقتال فنصبوا حول المدينة آلات الحرب من مجانيق ومتاريس وغيرها، ولما كانت الأراضي المحيطة بالمدينة فقيرة من الأحجار التي يحتاج إليها المغول في أعمال الحصار التي يقذفونها على المدن المحاصرة بواسطة المجانيق فقد اقتلعوا عدداً كبيراً من أشجار التوت وقطعوا سيقانها قطعاً مستديرة تركوها فترة من الزمن في الماء حتى ازدادت قوة، واستطاعوا بعد ذلك أن يستعملوها في مجانيقهم لتحطيم أسوار المدينة[3]، وبينما كانت استعدادات المغول قائمة على قدم وساق، وصل كثير من أسرى البلاد الخاضعة الذين استغلهم المغول في

(1) الدولة الخوارزمية، ص: 164.

(2) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص: 93.

(3) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص: 93.

حفر الخنادق حول المدينة الذين أنجزوا هذا العمل في غضون عشرة أيام[1].

جـ ـ هجوم على المدينة واحتلالها: ولما اطمأن المغول إلى استعداداتهم الحربية قام ثلاثة آلاف منهم بهجوم كان النصر فيه حليف الخوارزميين، فظنوا أن انتصارهم أصبح من الأمور المحققة، وساعد ذلك على تقوية روحهم المعنوية، على أن هزيمة المغول في هذه المرة ترجع إلى تلك الفوضى التي حلت بالجيوش المغولية، نتيجة لخلاف نشأ بين جوجي وجغتاي ابني جنكيز خان، ورغم هذا النزاع، استمر حصار هذه المدينة ستة أشهر أرسل قوات المغول في خلالها إلى جنكيز خان ـ وكان إذ ذاك أمام مدينة الطالقان في أعالي نهر جيحون ـ يطلبون منه مدداً يعوض ما خسروه أمام مدينة خوارزم، كما نقلوا إليه أنباء الخلاف الذي نشأ بين ابنيه، وما أدى إليه من شقاق وفساد وفوضى في صفوف الجيش المغولي، وقد استاء جنكيز خان عندما سمع هذه الأنباء، فأرسل المدد وبعث أوامره بإسناد قيادة الجيش إلى ابنه الثالث أجتاي، وأمره أن يصلح من أمر أخويه، ولما أعاد القائد الجديد تنظيم جيشه وقضى على تلك الفوضى التي انتشرت في صفوف الجيش أمر جنده بالهجوم على المدينة، واستطاع المغول في النهاية أن يخترقوا أسوارها وأن يرفعوا أعلام النصر على هذه الأسوار، ثم أشعل المغول النار في منازل المدينة ومبانيها، وعلى الرغم من نجاح المغول في اختراق حصون المدينة صمم الخوارزميون على الاستماتة في الدفاع عن أنفسهم وعن مدينتهم، وقد ساهم النساء والأطفال في هذا الجهاد[2].

واستمرت مقاومة الخوارزميين على هذا النحو سبعة أيام، وأخيراً وجد السكان أنفسهم قد تجمعوا في أحياء ثلاثة، وبعد أن أعيتهم الحيلة وضاقت بهم السبل عرضوا على المغول التسليم، فأرسل الفقيه «عالي الدين»، محتسب خوارزم إلى قائد الجيش المغولي الذي أولاه احترامه وأمر بأن تفرد له خيمة خاصة، ولما آن الوقت الذي مثل فيه الرسول الخوارزمي في حضرة القائد المغولي قال له: إننا شاهدنا من هيبة الخان، وقد آن أن نشاهد من مرحمته، فغضب القائد المغولي وقال: ماذا رأوه من هيبتي، وقد أفنوا الرجال وطاولوا القتال؟ فأنا الذي شاهدت هيبتهم وها أنا أريهم هيبتي[3]. وقد أمر

(1) الدولة الخوارزمية، ص: 165.

(2) الدولة الخوارزمية، ص: 166.

(3) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص: 94.

القائد المغولي الأهالي بالخروج من المدينة، وطلب من أصحاب الحرف أن يقضوا في مكان منعزل، فمنهم من فعل ونجا من الموت، ومنهم من امتنع وظن أن هؤلاء سيؤخذون إلى بلاد المغول وأن الباقين سيتركون أحياء، وقد صدقت نبوءة الخوارزميين عن رحيل أصحاب المهن والحرف إلى بلاد المغول وكذبت نبوءتهم الثانية، إذ أعمل المغول السيف في رقاب من بقي من السكان، وكان على كل جندي من المغول أن يقتل أربعة وعشرين رجلاً خوارزمياً، فإذا علمنا أن الجيش المغولي كان يتكون من مائة ألف رجل أدركنا ذلك العدد الغفير من السكان الذين كان نصيبهم الهلاك[1]. وأخيراً لم يبق من السكان في المدينة إلا الفتيات الصغيرات والأطفال الذين استرقهم المغول[2].

د ـ وصف ابن الأثير لما حدث لخوارزم: ولكي يجهز المغول على المدينة ويجعلوها أثراً بعد عين، فتحوا سدود نهر جيحون فغرقت المدينة وتهدمت أبنيتها وأصبحت كأن لم تغن بالأمس، وقد صور ابن الأثير ما أصاب هذه المدينة تصويراً دقيقاً في هذه العبارة: ثم إنهم فتحوا السد الذي يمنع ماء جيحون عن البلد فدخله الماء، فغرق البلد جميعه، وتهدمت الأبنية، وبقي موضعه ماء ولم يسلم من أهله أحد البتة، فإن غيره من البلاد قد كان يسلم بعض أهله منهم من يخافي ومنهم من يهرب، ومنهم من يخرج ثم يسلم، ومنهم من يلقي نفسه بين القتلى فينجو، وأما أهل خوارزم، فمن اختفى من التتار أغرقه الماء وقتله الهدم، فأصبحت خراباً يباباً[3].

وفي نفس الوقت الذي سيطر فيه المغول على إقليم خوارزم نرى جنكيز خان يتم إخضاع المدن الواقعة في أعالي نهر جيحون، ومن أشهرها: ترمذ وبلخ، ومن الطريف المؤلم أن جنكيز خان لما استولى على مدينة ترمذ، أمر بإخراج جميع السكان من المدينة وأمر جنده بقتلهم جميعاً، وقد حدث أن هم أحد المغول بقتل امرأة عجوز فأرادت هذه المرأة أن تفتدي نفسها بجوهرة ثمينة كانت تمتلكها، فلما طالبها المغول بهذه الجوهرة ذكرت أنها ابتلعتها في جوفها، فشق المغولي بطن المرأة وأخرج الجوهرة من جوفها، وقد انتشر الخبر سريعاً بين المغول فظنوا أن السكان جميعاً قد خبأوا الجواهر في بطونهم، لذلك أمر جنكيز خان بشق جميع بطون الموتى للبحث عما عسى

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 166.

(2) المصدر نفسه، ص: 166.

(3) الكامل (12/ 182)، الدولة الخوارزمية، ص: 167.

أن يكون فيها جواهر[1]، وبعد استيلاء المغول على إقليمي ما وراء النهر وخوارزم، استطاعوا أن يحيطوا تماماً بإقليم خراسان حيث وجهوا ضربتهم التالية، فاستولوا على مدن هذا الإقليم المدينة تلو الأخرى، ولم يقف في طريقهم عائق أو يمنعهم مانع[2].

4 ـ **اجتياح خراسان:** صدرت الأوامر لتولوي بن جنكيز خان بالسير إلى إقليم خراسان في خريف عام 617 هـ / 1220، ويظهر أن جنكيز خان كان ينوي غزو هذا الإقليم بنفسه، بدليل أنه عبر إلى الضفة الغربية لنهر جيحون وسار إلى مدينة بلخ، إحدى المدن الغنية الواقعة على الضفة الغربية لنهر جيحون، ابتغاء الاستيلاء عليها[3].

أ ـ **الاستيلاء على بلخ:** لم تكن مدينة بلخ محصنة تحصيناً يكفل لها الصمود أمام الجيوش المغولية، وترجع شهرة هذه المدينة إلى أنها كانت من أمهات المدن الخوارزمية، فضلاً عن قيمتها التجارية بسبب وقوعها على إحدى الممرات التجارية الهامة في وسط آسيا، وكانت هذه المدينة عامرة بمبانيها آهلة بسكانها حتى قيل أنه كان بها ألف ومئتان من المساجد الكبيرة ومثلها من المساجد الصغيرة، كما كان بها حمامات عديدة خاصة بالأجانب والتجار الذين يفدون على المدينة[4]، وبرغم تسليم هذه المدينة في سنة 618 هـ / 1221م لم يعفها جنكيز خان من التخريب، كما لم يعف أهلها من القتل، ثم اكتفى بالزحف عند هذه المدينة وقنع بإرسال ابنه تولوي إلى خراسان على رأس جيش مكون من سبعين ألفاً، ويظهر من تغيير جنكيز خان خطته الحربية أنه أراد أن يؤمن أملاكه وجيوشه في هذه النقطة[5].

ب ـ **احتلال نسا والقضاء على أهلها:** سارت طلائع جيش تولوي إلى خراسان في سنة 617 هـ/ 1220م، وكانت تتكون من عشرة آلاف جندي بقيادة توجاشر زوج ابنة جنكيز خان، وقد سار القائد إلى مدينة نسا، ولما قربت إحدى كتائبه من المدينة سلط المسلمون سهامهم على رجالها فقتل عدد كبير، كما قتل بلجوش قائد هذه الكتيبة ولما وصل توجاشر بجيوشه، أمر بأن ينصب حول المدينة عشرون منجنيقاً، وبعد خمسة عشر يوماً استطاع المغول أن يحدثوا ثغرة في حوائطها واحتلوها ليلاً، ولما طلع النهار بدأوا

---

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 167.
(2) المصدر نفسه، ص: 167.
(3) المصدر نفسه، ص: 167.
(4) المصدر نفسه، ص: 167.
(5) المصدر نفسه، ص: 172.

يثأرون لمقتل القائد بلجوش، فأخرجوا جميع السكان وأمروا بربطهم الواحد بجوار الآخر، كما أمروا بربط ذراعي كل رجل وراء ظهره، ثم قتل المغول جميع النساء والرجال والأطفال حتى قيل إن عدد من قتل من سكان هذه المدينة بلغ أكثر من سبعين ألفاً، وقد وصف النسوي هذه الحادثة وصفاً يثير الحسرة والألم حيث قال: فساقوهم إلى فضاء وراء البساتين، كأنهم قطعان الضأن تسوقها الرعاة، ولم يمد التتار أيديهم إلى سلب ونهب إلى أن حشروهم إلى ذلك الفضاء الواسعة بالصغار والنساء والضجيج يشق جلباب السماء والصياح يسد منافذ الهواء، ثم أمروا، بأن يكتفوا بعضهم بعضاً ففعلوا ذلك خذلاناً، وإلا فلو تفرقوا وطلبوا الخلاص عدواً من غير قتال والجبل قريب، لنجا أكثرهم، فحين كتفوا جاءوا إليهم بالقوس وأضجعوهم على العدى وأطعموهم سباع الأرض وطيور الهوى، فمن دماء مسفوكة وستور مهتوكة وصغار على ثدي أمهاتها المقتولة متروكة، وكان عدة من قتل بلسان أهلها ومن انضوى إليها من الغرباء ورعية بلدها سبعون ألفاً[1]، ويروي النسوي أن المغول انتشروا في خراسان وكانوا كلما حلوا ببلد جمعوا الفلاحين وقادوهم كالأغنام لمساعدتهم في حصار الأماكن التي يرغبون في الاستيلاء عليها، وقد استولى الرعب والفزع على النفوس حتى كان الأسير أحسن حالاً ممن أقام في منزله لأنه أصبح لا يعرف شيئاً عن المصير الذي سيؤول إليه، وكان المغول يرغمون حكام المقاطعات وأتباعهم على الاشتراك في أعمال الحصار، ومن أبى منهم قتل شر قتلة[2].

جـ ـ منبحة مدينة مرو: ذهب إلى مدينة مرو جيش كبير من التتار على رأسه بعض أولاد جنكيز خان، واستعانوا في هذه الموقعة بأهل بلخ المسلمين، وتحرك الجيش المغولي بقيادة تولوي واستطاع المغول إبادة عشرة آلاف رجل من الخيالة التركمان كانوا يعسكرون على مقربة من المدينة، فاستدرجوهم إلى كمين وقتلوا عدداً كبيراً منهم وفر الباقون بعد أن غنم المغول منهم عدداً كبيراً من قطعان الماشية التي نهبوها من مدينة مرو، وفي اليوم التالي أول محرم سنة 618هـ/ 25 فبراير سنة 1221م ـ سار تولو في خمسمائة من الخيالة لاختبار حصون المدينة، ولم يمض أسبوع حتى تجمعت الجيوش المغولية التي أخذت في الهجوم على هذه المدينة، وكان أمام المحاصرين منفذان للنجاة، ولكن المغول فطنوا إلى هذين المنفذين وقضوا الليل على

(1) الدولة الخوارزمية، ص: 172.

(2) المصدر نفسه، 173.

حراسة الأسوار والمنافذ ليحولوا دون خروج الأهالي والجيوش الخوارزمية منها، وفي اليوم التالي أرسل حاكم المدينة وكان يطلق عليه «مدير الملك»، كبار رجال الدين إلى تولوي يعرضون التسليم، بشرط أن يؤمن من في داخل المدينة فوعدهم المغول بتلبية مطالبهم، حتى أن مدير الملك خرج بنفسه إلى معسكر المغول يحمل الهدايا إلى تولوي، الذي أكد له أنه سيثبته في حكم هذه المدينة وأعيانها ليخلع عليهم الخلع ويمنحهم الهبات، فأرسل مدير الملك في استدعائهم، ولما حضروا إلى معسكر المغول ربطهم تولوي ومعهم مدير الملك، وطلب منهم أن يعدوا[1] له قائمتين طويلتين.

- **أما القائمة الأولى:** فتضم أسماء كبار التجار وأصحاب الأموال في مدينة مرو.

- **أما القائمة الثانية:** فتضم أسماء أصحاب الحرف والصناع المهرة، ثم أمر ابن جنكيز خان أن يأتي المغول بأهل البلد أجمعين فخرجوا جميعاً من البلد حتى لم يبق فيها ولا واحد، ثم جاءوا بكرسي من ذهب قعد عليه ابن جنكيز خان ثم أصدر الأوامر الآتية:

* أن يأتوا بأمير البلاد وبكبار القادة والرؤساء فيقتلوا جميعاً أمام عامة أهل البلد، وبالفعل جاءوا بالوفد الكبير وبدءوا في قتله واحداً واحداً بالسيف والناس ينظرون ويبكون.

* إخراج أصحاب الحرف والصناع المهرة، وإرسالهم إلى منغوليا للاستفادة من خبرتهم الصناعية هناك.

* إخراج أصحاب الأموال وتعذيبهم حتى يخبروا عن كل مالهم، ففعلوا ذلك، ومنهم من كان يموت من شدة الضرب ولا يجد ما يكفي لافتداء نفسه.

* دخول المدينة وتفتيش البيوت بحثاً عن المال والمتاع النفيس حتى إنهم نبشوا قبر السلطان «سنجر» أملاً في وجود أموال أو ذهب معه في قبره، واستمر هذا البحث ثلاثة أيام.

* الأمر الخامس: أمر ابن جنكيز خان، أن يُقتل أهل البلاد أجمعون، وبدأ المغول يقتلون كل سكان مرو، الرجال والنساء والأطفال، وقالوا إن المدينة عصت علينا وقاومت، ومن قاوم فهذا مصيره[2].

---

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 175

(2) قصة التتار، د. راغب السرجاني، ص: 47.

وهكذا أصبحت مدينة مرو أثراً بعد عين، وهلك سكانها أجمعين الذين قدرهم ابن الأثير بسبعين ألفاً، وأما الجويني فقدر هذا العدد في كتابه تاريخ جهان كشاي فذكر أنه بلغ مليوناً وثلاثمائة ألف رجل عدا الجثث التي كانت في أماكن خفية[1].

د ـ الانتقام من أهالي مدينة نيسابور: سار توجاشر بعد مذبحة نسا إلى مدينة نيسابور سنة 617هـ/ 1220م وعزم على الاستيلاء عليها وقد هاجمها بالفعل ولكنه قتل بعد ثلاثة أيام بسهم من سهام أعدائه، وقد وجد القائد الذي حل محله في القيادة أنه لا يملك القوة الكافية للاستيلاء على هذه المدينة فرفع عنها الحصار، تاركاً هذه المهمة الشاقة إلى أن يأتي جيش تولوي وتفرغ للاستيلاء على بعض الحصون المجاورة[2]، وبعد مقتل أهالي مدينة مرو تحرك تولوي إلى مدينة نيسابور على مسيرة اثني عشر يوماً من مدينة مرو.

وأراد تولوي أن يثأر لموت «توجاشر» الذي قتل أمام أسوار هذه المدينة عندما حاول الاستيلاء عليها قبل وصول تولوي بجيوشه، وأما الأهالي فقد أساءوا إلى فصائل المغول التي كانت تظهر تباعاً بالقرب من المدينة، ثم أخذوا أهبتهم للاستعداد عندما علموا أن المغول سيهاجمون المدينة، ولما رأى الأهالي المحاصرون وقواد الجيوش الخوارزمية الجيوش المغولية وقد أحاطت بالمدينة من كل جانب، فقدوا رباطة جأشهم وأرسل الأهالي نواباً عنهم من الأئمة وكبار رجال المدينة، وعلى رأسهم قاضي القضاة في خراسان إلى المعسكر المغولي وعرضوا على تولوي التسليم وتعهدوا بأن يؤدوا للمغول ضريبة سنوية، ولكن تولوي الذي كان صدره يغلي ونفسه تتحرق شوقاً للانتقام لمقتل زوج شقيقته توجاشر، رفض كل العروض التي عرضها عليه أهالي هذه المدينة[3]، وفي اليوم التالي تفقد تولوي جنده الذين كانوا يرابطون حول المدينة وأخذ يشجعهم، حتى إذا ما حل اليوم الثاني عشر من شهر صفر (سنة 618هـ/ 7 أبريل سنة 1221م)، أمر بمهاجمة المدينة من كل مكان واستمر القتال طول النهار والليل، ثم استطاع المغول أن يخترقوا الحصون ويحدثوا في حوائطها ثغرات عديدة مكنتهم من دخول المدينة من جميع جهاتها وأصبحت شوارعها ومنازلها مسرحاً للحروب، وأخيراً تمكن المغول من احتلال المدينة، وأخذوا يثأرون بمقتل توجاشر، وقد دخلت زوجة

---

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 175.

(2) المصدر نفسه، ص: 176.

(3) المصدر نفسه، ص: 174.

ذلك القائد وهي ابنة جنكيز خان المدينة يصحبها عشرة آلاف رجل وقتلوا كل من صادفهم من رجال ونساء وأطفال، ولم يتركوا حتى القطط والكلاب[1]، ومما يدل على أن المغول كانوا يتحرقون شوقاً للتنكيل بسكان نيسابور أن تولوي رأى بعض السكان يلتمسون النجاة بالرقاد بين جثث القتلى، فلكي لا يترك فرصة لأحد منهم للنجاة، أمر بقطع جميع رؤوس القتلى ووضع هذه الرؤوس في جانب والأجساد في جانب آخر[2]. وقد استمر تخريب المدينة خمسة عشر يوماً زالت فيها معالمها، ولم يبق المغول إلا على أربعمائة رجل من أصحاب الحرف والمهن للانتفاع بهم، ولكي يطمئن تولوي إلى القضاء على جميع سكان المدينة ترك بعد رحيله عنها عدداً من الجنود لقتل السكان الذين قد يظهرون بعد رحيل الجيش المغولي، وقد ظهر فعلاً عدد منهم أجهز عليهم الجيش المغولي،، ومما هو جدير بالذكر أن سقوط هذه المدينة حدث بعد وفاة علاء الدين خوارزمشاه بشهرين[3].

هـ - خضوع مدينة هراة: سار الجيش المغولي بعد الإجهاز على نيسابور إلى مدينة هراة إحدى مدن خراسان الهامة، ووجه قائده، وهو في طريقه إليها، طائفة من جنده إلى مدينة طوس فدمرتها وخربت مشهد علي بن موسى الرضي وهارون الرشيد[4]، وأرسل تولوي عندما وصل إلى مشارف هراة ينذر أهلها بالتسليم فأجابوه بقتل رسوله إليهم، واستعدوا للدفاع عن مدينتهم التي ما لبثت أن هوجمت من جميع جهاتها في وقت واحد، وبعد حصار دام عشرة أيام على رواية ابن الأثير[5]، وثمانية أيام على رواية غيره[6]، طلب أهلها التسليم على أن يؤمن المغول حياتهم، ووافق تولوي على هذا الطلب مكرهاً، لأن انقساماً خطيراً حدث في جيشه، ومع ذلك لم يف بوعده للأهالي، فقد قتل منهم نحو اثني عشر ألفاً، ثم ولى عليها حاكماً عسكرياً مسلماً، وغادرها بأمر من أبيه جنكيز خان ليلحق به عند مدينة الطالقان[7].

على أن هراة ما لبثت أن ثارت على الحكم المغولي على إثر سماع أهلها خبر

---

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 177.
(2) الكامل في التاريخ (12/ 181) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 177.
(3) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 177.
(4) الكامل في التاريخ (9/ 343) الدولة الخوارزمية، ص: 151.
(5) الكامل في التاريخ (9/ 343)، عودة الروح، ص: 219.
(6) الدولة الخوارزمية، ص: 152، عودة الروح، ص: 219.
(7) الكامل في التاريخ (9/ 343)، عودة الروح، ص: 219.

انتصارات جلال الدين منكوبرتي التي أحرزها على المغول في إقليم غزنة، الأمر الذي جعل المغول يجردون عليها حملة قاسية، افتتحتها عنوة، وأنزلت بها كثيراً من السلب والنهب، ثم جعلتها طعاماً للنيران[1].

وهكذا خضع إقليم خراسان للمغول، ومما هو جدير بالذكر أنه في الوقت الذي غزا فيه المغول خراسان تركت إحدى القبائل التركمانية التي كانت تسكن بالقرب من مدينة مرو أملاكها تحت تأثير الفزع من ناحية المغول وهاجرت غرباً إلى أرمينية، وبعد ذلك بثمانية أعوام أغار المغول على هذا الإقليم فتركت هذه القبيلة هذا المكان وسارت إلى آسيا الصغرى واستطاع قائدها «أرطغرل» مع رجاله الذين كانوا يكوّنون أربعمائة وأربعين عائلة، أن يقيموا في إحدى المقاطعات التابعة لسلطان السلاجقة الروم في إقليم أنقرة على حدود الدولة البيزنطية، وتحولت الزعامة إلى عثمان الذي استطاع في (سنة 700هـ/ 1300م)، بعد أن دب الضعف إلى السلاجقة في آسيا الصغرى، أن يكوِّن له دولة على أنقاض هذه الدولة السلجوقية، واتخذ لنفسه لقب «سلطان»، ويعتبر عثمان هذا المؤسس الحقيقي للدولة العثمانية.

5 ـ ***احتلال إقليم غزنة:*** *لما بلغ جنكيز خان أن جلال الدين منكوبرتي وصل إقليم* غزنة في جيش كبير، أسرع في المسير إلى هذا الإقليم، وحاصر في طريقه قلعة باميان الحصينة ببعض جيشه الذي كان قوامه ستين ألف مقاتل، على حين أرسل معظمه للقاء جلال الدين، وما لبث قواته أن اقتحمت هذه القلعة، ودخلت المدينة، وهدمت ما بها من جوامع وقصور وأزالت معالم الحياة فيها[2]، ولما أتم جنكيز خان إحراز ذلك النصر الحاسم على مدينة باميان جاءته الأنباء بأن جلال الدين تمكن من دحر جيش المغول في السهول القريبة من مدينة بيروان بالقرب من مدينة غزنة، فسار جنكيز خان بمن معه لملاقاته، وكان جنكيز خان قد أرسل في وقت سابق بعض قواته لترابط بالقرب من مدينة كابل وعهد إليها مراقبة تحركات جلال الدين، وتقديم أية مساعدة تحتاج إليها طليعة جيشه التي كانت تحاصر قلعة «قندهار»، فلما حلت بتلك الطليعة الهزيمة على أيدي جلال الدين منكبرتي، اتجهت هذه القوات المغولية نحو بيروان القريبة من غزنة، ونشب القتال بينها وبين الجيش الإسلامي في السهول المحيطة بهذه المدينة[3]، ووصل جلال

---

(1) عودة الروح، ص: 219، الكامل (9/ 343).

(2) عودة الروح، ص: 221.

(3) الكامل (9/ 343) عودة الروح، ص: 221.

الدين بعد انتصاره في قندهار إلى مدينة غزنة وأخذ يجمع حوله الجيوش استعداداً للقاء المغول، فوافاه للخدمة سيف الدين بقراق الخليجي، وأعظم ملك صاحب بلخ، والأميران: مظفر ملك والحسن قزلق في زهاء ثلاثين ألف فارس، ومعه من عسكره وعسكر أمين ملك مثلها، وهكذا تيسر لجلال الدين أن يجمع جيشاً قوامه ستون ألف مقاتل، ثم سار لملاقاة الجيش المغولي الذي يقوده تولوي بن جنكيز خان، واستمر القتال يوماً، ثم افترق الجيشان عند الليل ليستأنفا القتال في الغداة،ورغم حيل المغول لإرهاب الجيش الإسلامي فقد كان لشجاعة جلال الدين أثرها في هزيمة المغول وفرارهم أمام فرسان الخوارزميين[1].

وقد وصف النسوي انتصار الخوارزميين على المغول وصفاً أقل ما يقال عنه أنه يعبر تعبيراً صادقاً عن نفسية الخوارزميين في ذلك الوقت، فقد جاء في وصف هذا الانتصار ما يلي: فلما اشتبك الجمعان حمل جلال الدين بنفسه على قلب تولي خان، فبدد نظامه، ونثر تحت قوائم الخيل أعلامه وألجأه إلى الانهزام، وإسلام المقام، وتحكمت فيهم سيوف الانتقام، وركب جلال الدين أكتاف المغول يفصل بالأسياف مجامع الأكتاف، وكيف لا وقد فجعوه بأخوته وأبيه ومملكته وذويه، فترك لا والد ولا مولود ولا عابد ولا معبود، تلفظه النوادي إلى البوادي، وقتل تولي خان في وهج القتال، وكثر الأسر[2].

وقد انتقم الخوارزميون من المغول انتقاماً شديداً فكانوا يدقون الأوتاد في آذان الأسرى، وجلال الدين ينظر إليهم، ويعلو وجهه البشاشة بما ظفر[3].

وكان من أثر ذلك النصر الذي أحرزه جلال الدين في هذه المعركة أن ثارت على المغول بعض المدن الإسلامية التي كانت قد خضعت لهم، وسلمت من تدميرهم، مثل مدينة هراة، غير أن ثورتها أخمدت في مهدها، كما دب الخوف في قلوب المغول الذين كانوا يحاصرون قلعة «ولج»، واضطروا إلى رفع الحصار عنها[4]، وكان انتصار جلال الدين على المغول في سهول بيروان انتصاراً مؤقتاً، فبينما كان يوزع الغنائم على

(1) عودة الروح، ص: 222.

(2) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص: 80 ـ 81.

(3) الدولة الخوارزمية، ص: 185.

(4) عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص: 222.

قواته وجنوده اشتد النزاع بين قائدين من كبار قواته على حصان عربي كان كل منهما يريده لنفسه، وبلغ من شدة الخلاف أن ضرب أحدهما الآخر على رأسه بسوط كان يحمله، ولم يرض السلطان عن هذه الإهانة، ولم يقبل القائد المعتدي أن يعتذر عما بدر منه، وكانت النتيجة أن انسحب القائد الآخر بجنوده إلى مدينة «بيشاور» إلى حدود الهند، وانضم إليه عدد كبير من الجنود الغورية من مدينة غزنة بعد أن خابت جميع جهود السلطان لإعادتهم[1].

وبينما كانت قوات المسلمين على هذه الحالة من الفرقة والانقسام إذ وصل جنكيز خان إلى غزنة وهو مصمم على الانتقام لهزيمة جيشه التي حدثت عند مشارف مدينة بيروان، ولم يكن من الرأي في شيء أن يجازف جلال الدين بحرب المغول، وجيشه في هذه الحالة، لذا آثر الانسحاب إلى السهل الواقع غربي نهر السند، وأخذ يعاود مكاتبة المنشقين ويستميلهم إليه[2]، ورتب الأمير الخوارزمي سنة (618هـ/ 1221م) ما بقي معه من الجيش ترتيباً حسناً، فأسند قيادة الميمنة لقائده أمين ملك وأمره بجعل ظهره إلى منعطف نهر السند، كما أمر قائد الميسرة بالاستناد إلى أحد مرتفعات الجبال في هذه المنطقة، وبقي هو في القلب، ثم نشب القتال، وكادت الهزيمة تلحق بالمغول في البداية، لكنهم ما لبثوا أن اجتاحوا القوات الإسلامية من الخلف، كما هاجموا الميمنة من الأمام مما أدى إلى هزيمة المسلمين[3]، على أن جلال الدين رغم ذلك لم يستسلم، بل ظل يقاتل وليس معه سوى سبعمائة رجل في شجاعة نادرة، وصفها ابن الأثير بقوله: اعترفوا كلهم أن كل ما مضى من الحروب كان لعباً بالنسبة إلى هذا القتال[4]، وكان هدف جلال الدين من هذا القتال اليائس إحداث ثغرة في صفوف المغول، يتيسر له ولجيشه الهرب منها، غير أنه اضطر إلى أن يولي وجهه شطر نهر السند، وقذف بنفسه وبحصانه فيه من ارتفاع عشرين ذراعاً، واستطاع بهذه الوسيلة أن يعبر النهر إلى الجانب الشرقي، وقد قتل عدد كبير من جنوده وغرق أولئك الذين حاولوا العبور إلى الضفة الشرقية، كما أسر أحد أبنائه وكان في السابعة من عمره، ثم قتله جنكيز خان بين يديه، ولما اقترب جلال الدين من نهر السند، رأى والدته وأم ابنه

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 187.

(2) سيرة السلطان جلال الدين، ص: 156 ـ 157.

(3) عودة الروح للخلافة، ص: 223.

(4) الكامل في التاريخ (9/ 344)، عودة الروح، ص: 324.

وحريمه يصحن: بالله عليك اقتلنا وخلصنا من الأسر، فأمر بهن فغرقن، وهذه من عجائب البلايا ونوادر الرزايا[1]. ومن الطريف أن جلال منكبرتي احتفظ بذلك الجواد الذي عبر به نهر السند، وكان سبباً في إنقاذ حياته دون أن يركبه حتى استعاد بلاده بعد رحيل جنكيز خان عنها.

وكانت الجيوش المغولية تتوق إلى اللحاق بجلال الدين، وهمَّ كثير منهم بعبور النهر غير أن جنكيز خان أسرع ومنع جنوده من تنفيذ هذا العمل، ولما علم جنكيز خان أن عدوه قد أمر بأن يلقى كل ما كان يملكه من ذهب وفضة في نهر السند حتى لا يقع غنيمة سهلة في يد المغول، أرسل بعض رجاله فغاصوا في النهر وأمكنهم أن ينتشلوا بعض هذه الأموال[2]. وبرغم حرج موقف الخوارزميين في هذه الموقعة، ورغم تلك الهزيمة التي حلت بالسلطان الخوارزمي وجنوده، استطاع أربعة آلاف من الجنود الخوارزميين أن ينجوا بأنفسهم بعبورهم من الضفة الشرقية حيث وصلوا حفاة عراة، كأنهم أهل النشور حشروا فبعثوا من القبور[3]. ومن الطبيعي أن يفرح السلطان جلال الدين بلقاء هذا العدد من جنوده[4]، ومما لا شك فيه أن جلال الدين، في الفترة التي قضاها في بلاد الهند، كثيراً ما كان يظهر بمظهر الكسير الذليل من هول ما أصاب دولته عامة، وأصابه خاصة، بعد موقعة السند، وقد نظم ابن الوردي أبياتاً وصف فيها جلال الدين ودولته وكيف انحدر هو ودولته إلى هاوية عميقة، بعد أن قدر لهذه الدولة أن تصل إلى ذروة المجد، وقد جاء في هذه القصيدة ما يلي:

من ملك الدنيا ودانت له	فالجهل كل الجهل أن يحسدا
بقدر ما ترفع أصحابها	تحطهم فالرأي قرب المدا
ويلي على المغري بعليائها	سيضحك اليوم ويبكي غدا
تعطيه كالمشفق لكنها	تبطش في الأخذ كبطش العدا
مبتدأ حلو لمن ذاقه	ولكن انظر خبر المبتدا
غدارة خوانة أهلها	ما زهد الزهاد فيها سدى[5]

(1) تتمة المختصر في أخبار البشر، لابن الوردي، ص: 155.

(2) الدولة الخوارزمية، ص: 187.

(3) سيرة السلطان جلال الدين، ص: 85.

(4) الدولة الخوارزمية، ص: 188.

(5) تتمة المختصر في أخبار البشر، ص: 155.

لقد كان جلال الدين مضرب المثل في الشجاعة والإقدام، وأعجب خصمه وعدوه جنكيز خان، وقال: هكذا يكون الرجال الشجعان[1]. وقال لرجال دولته: ما أسعد الأب الذي ينجب رجلاً قوياً شجاعاً كهذا ـ أي جلال الدين ـ لأن الرجل الشجاع يقدر الرجل الشجاع ولو كان ألد خصومه[2]، كان إقليم غزنة آخر أقطار شرق الدولة الإسلامية التي غزاها المغول في عهد الناصر لدين الله الخليفة العباسي، وبعد أن اطمأن جنكيز خان إلى تمكنه من السيطرة على هذه البلاد، وانتقم من قاتلي تجاره ورسله في مدينة أترار[3]، وأكد المغول سيطرتهم على المناطق الإسلامية الشاسعة ما بين الصين والعراق فثبتوا أقدامهم في كل بقاع الدولة الخوارزمية، وهذا يشمل الآن أسماء الدول الآتية من الشرق إلى الغرب:

1 ـ كازخستان، 2 ـ قيرغيزستان، 3 ـ طاجيكستان، 4 ـ أوزبكستان، 5 ـ تركمنستان، 6 ـ باكستان، باستثناء المناطق الجنوبية فيها والمعروفة بإقليم كرمان، 7 ـ أفغانستان، 8 ـ معظم إيران، باستثناء الحدود الغربية لها مع العراق، والتي يسكنها الإسماعيلية، 9 ـ أذربيجان، 10 ـ أرمينية، 11 ـ جورجيا، 12 ـ الجنوب الغربي لروسيا[4].

6 ـ **نهاية جلال الدين منكبرتي:** لم يقدر للسلطان الخوارزمي الأخير جلال الدين منكبرتي 617 ـ 628هـ أن يصمد أمام المغول أيضاً، فعلى الرغم من انتصاره عليهم عند سهل بيروان القريبة من كابول سنة 618هـ، إلا أنه اضطر إلى الفرار إلى بلاد الهند عبر نهر السند إثر اختلاف قواد جيشه، وتفرق جنده، وبالتالي هزيمته أمام جيش جنكيز خان في نفس العام[5]، وقبل أن يخرج السلطان جلال الدين من الهند سنة 621هـ قرر أن تكون وجهته إلى أقصى الغرب، وبمعنى آخر فإنه آثر أن يضع نفسه وما تبقى من جيشه في أبعد نقطة عن متناول جيوش المغول، ومن ثم فقد اجتاز الصحراء القاحلة التي تفصل بين الهند وإقليم كرمان الذي سارع حاكمه براق الحاجب بإعلان ولائه للسلطان الخوارزمي، بل إنه عرض إحدى بناته عليه ليتزوجها، فقبل السلطان ذلك منه، وتكرر الإجراء نفسه مع سعد الله أتابك إقليم فارس، وعلاء الدين حاكم

(1) الدول المستقلة في المغرب الإسلامي، ص: 188.

(2) المصدر نفسه، ص: 189.

(3) عودة الروح، ص: 224.

(4) قصة التتار، ص: 65.

(5) الأتراك الخوارزميون، ص: 25.

إقليم يزد[1]. وكانت الخطوة التالية لدى جلال الدين هي الاستيلاء على مدينة أصفهان عاصمة إقليم الجبال الذي يتحكم في المنطقة الغربية من إيران، ومن ثمة انتقل إليها فدانت له، ولما كان أخوه غياث الدين ـ الذي كان يحكم تلك المنطقة من قبل أبيهما السلطان علاء الدين ـ وتوطد حكمه فيما بعد انسحاب المغول منها عائدين باتجاه الشرق، فقد أعلن بدوره انضواءه تحت راية أخيه، فقد أصبح غربي إيران بأكمله واقعاً تحت سلطان جلال الدين الذي أضحت مملكته الجديدة متاخمة لأملاك الخلافة العباسية، وقد ساعدت الظروف السياسية جلال الدين كثيراً، إذ توفي خصم الخوارزميين العنيد الخليفة الناصر لدين الله في شوال سنة 622هـ، ولم يمكث ابنه الظاهر في الخلافة سوى تسعة أشهر، إذ توفي في رجب سنة 623هـ[2]، فآلت الخلافة إلى ابنه المستنصر سنة 623هـ/ 640هـ الذي لم يكن يرى الدخول في مواجهات عسكرية ضد الخوارزميين، ولذا فقد استقبل في قصر الخلافة في بغداد رسول جلال الدين[3]. ومن ناحية أخرى انشغل المغول بوفاة الخاقان الأعظم جنكيز خان سنة 624هـ[4]، وانهمكوا في الإعداد للقوريلتاي «المؤتمر العام الذي يناط به اختيار الخان الجديد»، مدة عامين أدار خلالهما تولوي ابن جنكيز خان دفة الأمور حتى تم انتخاب أوكتاي ثالث أبناء جنكيز خان خاقاناً أعظم مكان أبيه سنة 626هـ ـ 1229م[5]. وفي تلك الأثناء كان السلطان جلال الدين قد انطلق شمالاً إلى أذربيجان التي دانت له، فواصل الزحف شمالاً حيث هزم الكرج المسيحيين واستولى على عاصمتهم تفليس، وانتقم منهم بما ارتكبوه من فظائع في حق المسلمين وبخاصة في إقليم أذربيجان المجاور[6].

أ ـ بداية النهاية لجلال الدين منكبرتي: وجاء استهلال الخوارزميين في الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة 627هـ على مدينة أخلاط التابعة ـ آنذاك ـ للملك الأشرف بن العادل الأيوبي بداية لنهاية سلطان جلال الدين منكبرتي الذي تعرض جيشه لهزيمة مريرة أمام تحالف جيش الأيوبيين وسلاجقة الروم في الثامن والعشرين من رمضان سنة 627هـ على مقربة من أذربيجان، فانهزم السلطان إلى أذربيجان وأرسل

---

(1) كنز الدرر وجامع الغرر (7 ـ 261).
(2) الأتراك الخوارزميون، ص: 27.
(3) المصدر نفسه، ص: 28.
(4) جامع التواريخ رشيد الدين، ص: 28.
(5) الأتراك الخوارزميون، ص: 28.
(6) المصدر نفسه، ص: 28.

جنوده إلى صحراء موغان لينالوا قسطاً من الراحة[1]. ولم يضيع الإسماعيلية في آلموت الفرصة السانحة ـ بعد أن ذاقوا الأمرين على يد السلطان جلال الدين من قبل حتى إذ اضطرهم إلى دفع أتاوة سنوية له، فراسلوا المغول حتى ينهضوا للقضاء عليه، قبل أن يسترد قوته، وفي الحقيقة لم يكن المغول في حاجة إلى تحريض من الإسماعيلية أو غيرهم، وقد جاء انتخاب أوكتاي بن جنكيز خان سنة 626هـ خاناً أعظم للمغول إيذاناً بتنفيذ إستراتيجية مغولية جديدة تمثلت في غزوات عسكرية متوالية على جبهات ثلاث هي: جنوبي الصين، وغربي إيران، وشرقي أوربا، وبالتالي أصبح غربي إيران بخاصة الشمال الغربي هدفاً أساسياً للمغول، حيث يكمن عدوهم اللدود السلطان الخوارزمي جلال الدين، وسرعان ما بادر هذا الأخير ـ رغم الخلاف ـ إلى مكاتبة الخليفة العباسي المستنصر بالله، والملك الأشرف الأيوبي صاحب دمشق والجزيرة والسلطان علاء الدين كيقباذ سلطان سلاجقة الروم، وغيرهم من أمراء المسلمين، حكام ميافارقين وماردين وآمد يستنجد بهم كي يرسلوا إليه جيوشاً من عندهم تعاونه على مجابهة هذا الخطر الذي يتهدد المسلمين جميعاً، فأحجم هؤلاء كلهم عن مناصرته[2].

ب ـ اختلال في التوازن العسكري: أسفرت الهزيمة السابقة عن نتائج خطيرة أثرت على ما تلاها من أحداث، فقد أصيب الجيش الخوارزمي بنكسة فادحة، تمثلت في آلاف القتلى والأسرى، وفي اضطراب نظامه وفقدان السيطرة عليه، وسقوط هيبته بين القوى العسكرية المجاورة له بعد أن كانت تخشى بأسه وسطوته، وقد أدى هذا الاختلال في التوازن العسكري إلى ظهور مؤشرات سياسية لدى القوى السياسية في المنطقة، فقد أيقن معظم أمراء الجزيرة أن الموقف الجديد يحتم عليهم سرعة الانضواء تحت الهيمنة الأيوبية التي يمثلها الملك الأشرف المقيم بدمشق، والمؤيد من قبل أخيه الكامل في مصر، ومن جانب آخر أصبح الباب مفتوحاً على مصراعيه أمام سلاجقة الروم كي تمتد أطماعهم إلى كثير من المدن التي كانت خاضعة لسلطان الخوارزميين شرقي مدينة أخلاط[3]، كذلك لم تتأخر مملكة الكرج المسيحية عن إزالة السيطرة الخوارزمية عن أراضيها وبخاصة العاصمة تفليس[4]، ولم تلبث بعض المدن المهمة مثل

(1) الأتراك الخوارزميون، ص: 28.

(2) المصدر نفسه، ص: 30.

(3) المصدر نفسه، ص: 30.

(4) المغول، للعريني، ص: 180.

تبريز وكنجة أن أظهرت عصيانها للخوارزميين واجترأت على قتل البعض منهم، وشرعت طائفة الإسماعيلية في آلموت في المماطلة في أداء الأتاوة المقررة عليها من قبل السلطان الخوارزمي(1). وأما الخطر الأكبر وهو المغول فقد أصبح هجومه وشيكاً جداً بعد أن وصلت طلائع جيشهم إلى مدينة الري، وانفتح الطريق أمامهم، نحو إقليم أذربيجان حيث تناثرت بقايا الجيش الخوارزمي المهزوم، كل هذه المؤثرات كانت تنبئ بزوال الدولة الخوارزمية وأفول نجم سلطانها الأخير جلال الدين منكبرتي(2).

جـ ـ الأخطاء التي وقع فيها جلال الدين منكبرتي في مرحلته الأخيرة: كانت المؤشرات تتسارع لتدلنا على حتمية زوال الدولة الخوارزمية، وأفول نجم سلطانها الأخير جلال الدين منكبرتي الذي قد كان وقع ـ عقب هزيمته السابقة ـ في أخطاء عديدة منها:

ـ ضعف نظام استطلاعه، فقد وقعت إحدى سراياه في أيدي المغول عند مدينة الري، بينما أعطت سرية أخرى معلومات خاطئة عن عودة المغول، وتخاذلت الثالثة، فلم يذهب أفرادها إلى مازندران أو خراسان، كما أمر بذلك السلطان الخوارزمي نفسه.

ـ اعتقاده الخاطئ أن المغول سيقضون الشتاء بالعراق العجمي، وأنهم لن يتعدوه في أذربيجان إلا في الربيع، فكانت مباغتتهم له على غير استعداد منه، فاضطر إلى ترك نسائه بالعراق على مقربة من مدينة تبريز وسارع هو إلى موقان ليجمع عساكره المتفرقة هناك(3).

ـ إلحاحه في مكاتبة الملك الأشرف الأيوبي صاحب الجزيرة وأخلاط رغم نصح خلصائه له بعدم جدوى ذلك، خاصة وأنه ـ أي جلال الدين ـ قد دخل بزوجة الملك الأشرف الكرجية ـ نسبة إلى بلاد الكرج ـ في ليلة اقتحامه مدينة أخلاط، وأصر على الاحتفاظ بها حتى بعد انهزامه من جيش الملك الأشرف وحلفائه سلاجقة الروم سنة 627هـ(4).

ـ تجريده ستة آلاف فارس خوارزمي/رغم حرج موقفه بعد الهزيمة السابقة واقتراب

(1) الأتراك الخوارزميون، ص: 31.
(2) الأتراك الخوارزميون، ص: 31.
(3) تاريخ إيران بعد الإسلام، عباس إقبال، ص: 404.
(4) الأتراك الخوارزميون، ص: 32.

خطر المغول منه للهجوم على مدن خرتبرت وملطية وأرزنجان انتقاماً من خصمه علاء الدين كيقباذ سلطان سلاجقة الروم، فأغار هؤلاء الفرسان الخوارزميين على تلك المدن الرومية وساقوا إلى المعسكر الخوارزمي الكثير من الغنائم حتى بيعت عشرون غنماً بدينار[1]، وكشف هذا الإجراء من قبل السلطان الخوارزمي عن فقده بصيرته السياسية إذ أنه بذلك قد بدد أية بارقة أمل في احتمال حدوث تغيير في موقف سلاجقة الروم معه في صراعه المحتوم ضد المغول المتجهين نحوه[2].

- انخداع السلطان الخوارزمي برسالة الملك الأرتقي المسعود بن أرتق صاحب آمد الذي أخذ يحرضه على غزو بلاد سلاجقة الروم واعداً إياه بالمساعدة العملية في هذا الغزو بإمداده بخمسة آلاف فارس من قبله، وبالفعل عزف السلطان الخوارزمي عن الاتجاه إلى مدينة أصفهان عاصمة إقليم الجبال، وغير مساره نحو آمد، فلما طارده المغول التجأ إليها طالباً الاحتماء بأسوارها، فرفض الملك المسعود فتح أبوابها له، وقذفه أهلها بالحجارة، فارتد عنها حسيراً، مضطراً إلى مواجهة المغول وحده.

- وضع ثقته المطلقة في «أوتر خان» الذي كان يصله بقرابة من ناحية الخؤولة، إلا أنه كان يخادعه خوراً وجبناً، فأوهمه مرة أن المغول قد رجعوا من عند حدود منازجرد وأشار عليه في أثناء الفرار إلى آمد التي رفضت استقباله، بالعودة من نفس الطريق الذي سلكه المغول إليه، فرجع برأيه ليكون هلاكه في جميع الوجوه بتدبيره ـ كما يقول النسوي ـ ثم تركه في نهاية المطاف ليلقى مصيره وحده وتوجه هو إلى الملك المظفر شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين لما كان بينهما من مكاتبات[3]، وقد وقع جلال الدين في بعض الأمور والأخطاء الشنيعة والتي منها:

- انكبابه على تعاطي الخمر مع ندمائه وخاصته في ساعات الحرج التي أحدق فيها المغول به، حتى أوشك بعضهم أن يدخل عليه خيمته، وهو نائم سكران لا يملك من أمر نفسه شيئاً، مخالفاً بذلك تعاليم الدين الإسلامي من ناحية،

(1) الأتراك الخوارزميون، ص: 32.

(2) المصدر نفسه، ص: 32.

(3) المصدر نفسه، ص: 33.

وشرف الجندية الذي يلزم القائد وجنده ـ في ميدان الحرب ـ بإعمال العقل والتركيز بدلاً من الوقوع تحت طائلة التخاذل والتشويش من ناحية أخرى[1].

- حادثة خادمه قلج وهو فتى خصي جميل الصورة، كان جلال الدين يرعاه فاتفق أن هذا الخادم مات، فأظهر الهلع والجزع عليه ما لم يسمع بمثله وأمر الجند والأمراء أن يمشوا في جنازته رجالة، ومشى بعض الطريق راجلاً فألزمه أمراءه ووزيره بالركوب، فلما وصل إلى تبريز أرسل إلى أهل البلد فأمرهم بالخروج على البلد لتلقي تابوت الخادم، ففعلوا، فأنكر عليهم حيث لم يبعدوا ولم يظهروا من الحزن والبكاء، أكثر مما فعلوا وأراد معاقبتهم على ذلك فشفع فيهم أمراءه فتركهم، ثم لم يدفن ذلك الخصي واستصحبه معه حيث سار وهو يلطم ويبكي، ثم امتنع عن الأكل والشرب وكان إذا قدم له طعام يقول: احملوا منه إلى قلج، ولا يتجاسر أحد أن يقول أنه مات، قتل القائل، فكان يحملون إليه الطعام ويعودون ويقولون: إنه يقبل الأرض ويقول: إنني الآن أصلح مما كنت، فلحق أمراءه من الغيظ والأنفة من هذه الحالة ما حملهم على مفارقة طاعته والانحياز إلى وزيره، فبقي حيران لا يدري ما يصنع ولا سيما لما خرج المغول عليه[2].

وأما الوزير فقد انسحب صوب حيزان، فأعاد تعميرها وجاهر بالعصيان فيها وبادر إلى مكاتبة الملوك وإصلاح حاله معهم على أن يملك آران، وأذربيجان بنفسه، ثم يقيم لهم الخطبة فيهما، فكاتب علاء الدين كيقباذ والملك الأشرف باذلاً الطاعة لهما وناعتاً سلطانه جلال الدين بالظالم المخذول في كتبه، وقد تمادى الوزير في عصيانه حتى أنه قبض على كل من عبر بحدود قلعته من أصحاب السلطان في أثناء الجفلة من المغول، ووضعهم تحت العذاب ثم استلب أموالهم[3]، بل إنه كاتب حسام الدين قلج أرسلان أكبر أمراء التركمان في آران يأمره بالاحتراز على ما عنده من حرم السلطان وخزائنه، وأنه إن حضر السلطان بنفسه لم يسلمها إليه[4]، فاضطر جلال الدين إلى مراسلة الوزير

---

(1) الأتراك والخوارزميون، ص: 33، سيرة جلال الدين منكبرتي، ص: 375.

(2) الكامل في التاريخ (12 ـ 496)، الأتراك الخوارزميون، ص: 34.

(3) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص: 357.

(4) المغول، ص: 176، الأتراك الخوارزميون، ص: 35.

واستمالته ومخادعته إلى أن حضر عنده، فلما وصل إليه أبقاه أياماً ثم قتله[1].

- إصداره الأمر ـ لما داهمه المغول آخر مرة ـ إلى قائد جيشه أورخان أن يفارقه بمن معه من العسكر حتى يتبعه المغول ويخلص هو بمفرده، وقد أخطأ في ذلك ـ كما يقول النسوي ـ فإن أورخان لما فارقه انضوى إليه من شذاذ العسكر خلق، ووصل إلى أربل ومعه أربعة آلاف فارس، وساق إلى أصفهان وملكها زماناً إلى أن قصدها المغول، وظل على قيد الحياة بفارس إلى سنة 639هـ وهي نفس السنة التي كتب فيها النسوي كتابه المشهور: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي[2].

د ـ **مقتل جلال الدين منكبرتي:** حرص أوكتاي على اتباع وصية والده جنكيز خان في الاستمرار في إنجاز مخططاته في الاستيلاء على العالم، فعهد إلى قائد مغولي بارز يدعى «جرماغون» بقيادة حملة مغولية جديدة تتجه نحو الغرب للقضاء على جلال الدين، وحينما اقتربت جيوش المغول وشعر جلال الدين خوارزمشاه بالخطر يطبق عليه وأحس بضعفه أمامهم، أخذ يكاتب سلاطين المسلمين وحكامهم، يستنجدهم ويدعوهم لنجدته والوقوف في وجه أعداء الإسلام، ومما كان يقوله لهم في كتبه حسب رواية المؤرخ الوزير عطا ملك الجويني: إن جيشاً جراراً من عساكر التتار كأنه النمل والثعابين من حيث الكثرة والقوة قد تحرك نحونا، فإذا ترك وشأنه فسوف لا تصمد أمامه القلاع والأمصار، وقد تمكن الرعب في قلوب الناس في هذه المنطقة، فإذا هزمت وخلا مكاني بينكم، فلم تستطيعوا مقاومة هذا العدو، وإذن فأنا لكم بمثابة سد الإسكندر، فليسارع كلٌّ منكم إلى إمدادنا بفوج من الجنود، حتى إذا ما وصلهم نبأ اتفاقنا واتحادنا فترت قوتهم وفت في عضدهم فيتشجع جنودنا ونقوى عليهم[3]، وبالرغم من خطورة ذلك الوضع لم يستجب لاستغاثات جلال الدين خوارزمشاه، لا خليفة بغداد، ولا سلاطين المسلمين، وحكامهم، بل تركوه وحده يواجه مصيره المحتوم، وفي تلك الأثناء كان المغول يستهدفون جلال الدين ويركزون جهودهم للقضاء عليه، فهاجم جرماغون أقاليم جلال الدين واستولى على الري ثم همدان وواصل الزحف حتى حدود أذربيجان، وكان جلال الدين خوارزمشاه، يناوش عسكر المغول وينسحب من موضع لآخر وهم يلاحقونه، حتى انتهى به المطاف في موضع في

---

(1) الأتراك الخوارزميون، ص: 35.

(2) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص: 497.

(3) العراق بين سقوط الدولة العباسية والعثمانية، ص: 101.

أعالي دجلة، وهناك وقف جلال الدين للمغول وقفته الأخيرة واشتبك معهم في معركة قاسية انتهت بتمزيق جيشه بعد أن تكبد خسائر فادحة بالأرواح، غير أن جلال الدين نجا وتمكن من الفرار من ساحة المعركة، وظل يتنقل مختفياً من مكان إلى آخر، حتى دخل جبال الأكراد، وكان ذلك في سنة 628هـ[1]، وانتهى به الأمر إلى الوقوع في قبضة بعض هؤلاء الأكراد، فقتله أحدهم في منتصف شوال سنة 628هـ أغسطس سنة 1231م[2]. وهنأ جماعة من الأعيان الملك الأشرف صاحب دمشق بمقتل جلال الدين فأجابهم قائلاً: تهنئونني بهذا؟ سوف ترون غب هذا، والله لتكونن هذه الكسرة سبباً لدخول التتار لبلاد الإسلام، ما كان الخوارزمي إلا مثل السد الذي بيننا وبين ياجوج وماجوج[3]. وأمر الملك شهاب الدين غازي الأيوبي صاحب ميافارقين بإحضار من قتله فأحضروه فأقر بقتله، وأحضر فرسه وسرجه وسيفه، وكان «أوتر خان» السابق ذكره وجماعة من خواص السلطان الخوارزمي قد وصلوا إلى شهاب الدين غازي، فأنزلوا في قصره فأمر شهاب الدين بحمل جثمان السلطان جلال الدين ليلاً من القرية، فلما جاءوا قال لأوترخان: انظر هل هو هذا؟ فلما رآه بكى وقال: نعم، فدفنوه ليلاً، وأخفوا قبره مخافة أن ينبش[4].

هـ ـ التمزق الخوارزمي: بعد هزيمة المغول للخوارزميين ومقتل جلال الدين تفرقت جموع الخوارزميين وتمزقت في كل وجه، فقد انسحب خال جلال الدين ومن معه إلى الملك الظاهر شهاب الدين غازي، صاحب ميافارقين، على حين اتجهت زوجة السلطان وسراريه وخدامه وقطعة كبيرة من عسكره إلى مدينة حران وطلبوا أماناً من الأمير صواب نائب الجزيرة من قبل الأيوبي الكامل، فأمنهم ثم غدر بهم، فنهبهم عسكره وأخذوا أموالهم، وأحيط بزوجته في قلعة حران، ثم استدعيت إلى دمشق فأقامت بها[5]، وأما حظية السلطان التي كان قد تركها مع أحد أصحابه قبيل هجوم المغول، فإنه لما سمع بفقد السلطان وصح ذلك عنه، أخذها ومضى بها إلى بغداد، وأهداها إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله، فكانت عنده من أجل حظاياه إلى أن

---

(1) العراق بين سقوط الدولة العباسية والعثمانية، ص: 101.

(2) الأتراك الخوارزميون، ص: 35.

(3) العراق بين سقوط الدولة العباسية والعثمانية، ص: 102.

(4) الأتراك الخوارزميون، ص: 36.

(5) المصدر نفسه، ص: 37، التاريخ المنصوري، ص: 157.

ماتت في أيامه[1]، وتوزعت طوائف أخرى من الخوارزميين ما بين نصيبين والموصل، وسنجار وإربل، وغير ذلك من البلاد فتخطفهم الملوك والرعايا، وطمع فيها كل أحد حتى الفلاح والبدوي وغيرهم، وقصد الجزء الأكبر من الخوارزميين بلاد سلاجقة الروم، فأقطعهم السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بلاداً لمعيشتهم واستخدمهم على حين انهزم كثيرون منهم إلى ترابزون ـ الواقعة على الساحل الجنوبي للبحر الأسود ـ وبلاد الكرج المجاورة[2]، وهكذا تبعثرت بقايا الخوارزميين في عدة أنحاء من الشرق الأدنى الإسلامي، فكان من المتوقع ذوبانهم في إحدى هذه الأنحاء، أو كلها، غيرأن الظروف السياسية التي أحاطت بالشرق الأدنى الإسلامي آنذاك هيأت لهم الفرصة في الاستمرار كقوة عسكرية مؤثرة تدخلت في أدق الصراعات السياسية والعسكرية، حتى توافق لها استرداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين سنة 642هـ فظل في أيدي المسلمين حتى قيام الحرب العالمية الثانية[3]. وقد بينت نهاية الخوارزميين في كتابي عن الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة.

خامساً: أسباب زوال الدولة الخوارزمية: إن أسباب سقوط الدولة الخوارزمية كثيرة، جامعها الابتعاد عن تحكيم شرع الله في النظم السياسية والمالية والاجتماعية والعسكرية والأخلاقية.. إلخ، فعندما يغيب شرع الله في أمور الحكم يجلب للأفراد والدولة والشعوب المنضوية تحتها تعاسة وضنكاً في الدنيا، والمعروف أن السبب في زوال الدولة الخوارزمية وجلب كارثة المغول على الأمة، هو خطأ ارتكبه السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه وذلك أنه أمر بقتل التجار التتار الذين دخلوا بلاده لممارسة التجارة، ولما أرسل إليه جنكيز خان سفيراً يسأله عن سبب قتل التجار، قتله أيضاً، فاشتعل جنكيز خان غضباً، وقام بحملة هوجاء على مملكة خوارزمشاه ثم على عالم الإسلام كله[4].

وإذا تأملنا في القرآن الكريم في ضوء سنن الله الخالدة لنتائج الأعمال والأخلاق، وازدهار الأمم وانحطاطها الذي أشار إليه القرآن، لا سيما ما ذكره في بدء سورة الإسراء من تدهور بني إسرائيل وإفسادهم في الأرض، وعلوهم وتمردهم، وما

---

(1) مفرج الكروب (4/ 323).

(2) مفرج الكروب (4/ 325).

(3) الأتراك الخوارزميون، ص: 38.

(4) رجال الفكر والدعوة في الإسلام (1 ـ 270).

جرى ذلك من زحف الملوك الظالمين، وتسلطهم على بني إسرائيل وخراب المسجد الأقصى، يبدو أن السبب الحقيقي في هذه الفتنة الكبرى والمحنة التي أصيب بها العالم الإسلامي، ليس أن يقترف ملك أو حاكم من خطأ في التدبير والسياسة فيتدفق سيل عرم من المحن والبلاء، ويفاجئ العالم الإسلامي وتصاب الأمة الإسلامية بهذه الفتنة العمياء، ـ التي لم تكن تتوقعها ولا تستحقها ـ لمجرد أن يخطئ فرد من أفرادها، وإذا حملنا نبراس القرآن في يدنا، واستعرضنا أوضاع المسلمين الخلقية والدينية، والمدنية والسياسية في ذلك العصر، تحقق لنا كالشمس في رابعة النهار، أن هذه الحادثة المشؤومة لم تكن مفاجئة وإنما هناك أسباب أكثر عمقاً وأصالة مما ظنه الناس وذكروه[1].

إن هلاك الأمم وسقوط الدول وزوال الحضارات لا يحدث عبثاً في حركة التاريخ، بل نتيجة لممارسة هذه الأسرة الحاكمة أو الدولة أو الأمة الظلم والانحراف، وبعد أن يعطوا الفرصة الكافية، حتى تحق عليهم الكلمة فيدفعوا ثمن انحرافهم وإجرامهم وطغيانهم وفسقهم، والآيات صريحة في ذلك، إذا أنعم على دولة نعمة أيًّا كانت فهو لا يسلبها حتى يكفر بها أصحابها[2]، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال،الآية: 53]، والآيات في هذا كثيرة، سواء ما يخص الفرد أو الأمة، بل إن القرآن الكريم ليذكر أن بعض ما يصيب الأمم والأفراد من استدراج حين يمهلهم الله تعالى وتواتيهم الدنيا، وتفتح عليها خيراتها فينسوا مهمتهم وما خلقوا له، بل ينسون المنعم جل جلاله، وينسبون ما عندهم لجهدهم وذكائهم وقد يفلسفون الأمر فيقولون: لو لم نكن نستحق هذه النعم لما مُنحت لنا، وفي هؤلاء يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام، الآيات: 44، 45] والمهم أن الله تعالى لا يحجب نعمة عن أحد، بل يوزعها على المؤمن والكافر ثم يراقب الكل فيها، فمن طغى وظلم ومن كفر بها واستعملها استعمالاً سيئاً فإن العقاب العادل سينزل به في الوقت المناسب، وقد يطول ذلك العهد قبل نزول العقاب، ولكنه يكون في الطريق وبعد هذا وذلك فإنه ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة، الآية: 286].

ومن الملاحظ في دراسة أسباب سقوط الدول والحضارات بأنها لا تسقط بسبب واحد، بل تتجمع عدة أسباب لقيامها، وعدة أسباب لتدهورها وسقوطها، بعضها يعمل

---

(1) رجال الفكر والدعوة في الإسلام (1/ 271).

(2) في التفسير الإسلامي للتاريخ، نعمان السامرائي، ص: 88.

ببطء بينما البعض الآخر بسرعة أكبر، ولا تسقط الدولة بضربة واحدة بل بتضافر جملة من العوامل[1]، وهذا ما حدث للدولة الخوارزمية التي زالت من الوجود في المشرق الإسلامي بعد الاجتياح المغولي لديار المسلمين وأهم هذه الأسباب في نظري:

1 ـ **فشل الخوارزميين في إيجاد تيار حضاري:** صدر عن الملوك الخوارزميين خطأ كبير وذلك أنهم بذلوا كل قواهم في توسيع رقعة الملك ودعمه وبناء الحصون، ولم يبذلوا أي اهتمام بتبليغ رسالة الإسلام إلى ذلك القسم البشري الذي يعيش بجوار حدودهم، وكان بنفسه عالماً مستقلاً، وبصرف النظر عن الدافع الديني والواجب الإسلامي، كان مُقتضى الحزم السياسي وبعد النظر، أن يعنوا بإيجاد الانسجام العقائدي مع هذه الدنيا الإنسانية الواسعة، وبذلك يكونون قد أقاموا حولهم سياجاً، يحفظهم عن ذلك الخطر الذي لم يواجههم وحدهم فحسب، بل اكتسح المسلمين كلهم[2]، ولم يستطع الخوارزميون أن يقدموا مشروعاً حضارياً يجدد حيوية الدولة ويرسم أهدافها ويدفعها بقوة نحوها، وإنما دخلوا في أنفاق مظلمة انتهت بزوال دولتهم، لقد اتسعت الأرض التي يقومون فوقها، ولم يستطيعوا تحويل المناوئين لهم إلى عاملين معهم في مجال الدعوة ونشر الإسلام ودعوة الأمم وتعليمها وتربيتها على الإسلام الصحيح، وتعليم الشعوب دين الله سواء باللغة العربية وبترجمة حقيقة الإسلام للغات الشعوب المسلمة، فقد كان المطلوب منهم تحقيق التوازن بين الدولة والدعوة، والأرض والعقيدة، والسياسة والفكر، وكانت هذه رسالة عظمى، لم يتقدم فيها الخوارزميون كما تقتضي الظروف والتحديات، وكما تقتضي الأسباب الملائمة للتحدي، وهذا الخطأ الكبير، فحقيقة الأمر أنهم لم يبعثوا بتيار حضاري يتمم تيارات الفتوحات ويكمله، ويمتص كل حركات الخروج والفتن، فهكذا التاريخ الحضاري دائماً إما أن تتقدم أو تموت ولا سكون في تاريخ الإنسانية[3].

2 ـ **كره الشعب لنظام الحكم وعدم ولائه:** لم يستطع سلاطين الخوارزميين توحيد شتات العالم الإسلامي في المشرق، بل كان حكمهم بغيضاً في جميع أقاليم شرق العالم الإسلامي، ولم يحظ حكمه بالقبول في بلاد الجبل، ولا بلاد خراسان، وأقاليم مقاطعاته وأصقاع مدنه وتوابعها، كما لم يحظ بالاحترام في بلاد الغور، ولا في

---

(1) في التفسير الإسلامي للتاريخ، للسمرائي، ص: 128.

(2) رجال الفكر والدعوة (1/ 280).

(3) بنو أمية بين السقوط والانتحار، ص: 98، الدولة الأموية، للصلابي (2/ 582).

بلاد أفغانستان، وكان مكروهاً مبغوضاً في ما وراء النهر، فلم ينسوا مجزرة أهالي سمرقند، التي بلغ عدد المذبوحين قرابة مائتي ألف إنسان، كما لم يتعاون السكان بجميع فئاتهم وطبقاتهم مع السلطان الخوارزمي ولا حتى مد يد الغوث له، أثناء هروبه ومطاردة المغول له، وشق «جبه نويان، وسوبتاي بهاري» مملكة الشاه الخوارزمي من شرقها إلى غربها يطاردون سلطانها، ولم يحظ بعون أحد، لا من جنده، ورجال عسكره، وحماياتهم في المدن التي مر بها، ولا من إدارات حكومته ومواطني هاتيك المدن وأقاليمها، كانوا ينظرون إليه ويدلون المغول على الطريق الذي سلكها، والسبل التي سار إليها محاولة منهم بمساعدة المغول لاصطياده، فشعبه لم يكن راضياً عنه، وعلماء دولته يكنون له كرهاً عميقاً، وعلى اختلاف مذاهبهم شافعية أم أحناف كان يسجنهم ثم يقتلهم ثم يلقي بهم في ماء جيحون، وعلى رأسهم برهان الدين محمد أحمد المعروف بـ«صدر جيهان» وأبو سعيد مجد الدين البغدادي، وجلال الدين إمام سمرقند، وابنه شهاب الدين، وأخيه أوحد الدين.

وأما الحكام القراخانيون، فقد صفاهم واحداً واحداً، بالتعاون مع أمه، نفوا بعضهم إلى مدن موبوءة، بقوا فيها حتى ماتوا، وآخرون زجوا بهم في السجون ثم قتلوهم، وألقوا بجثثهم في ماء جيحون، مثل السلطان عثمان الذي ذبح كما تذبح الشاه، وتاج الدين بلكا خان، الذي قتله جلاد الشاه جيهان بهلوان، فحز رأسه دونما ذنب اقترفه، وهكذا فعل مع بقية الأمراء، والحكام وعلية القوم في مملكته، وكان الشعب لا يُكِنّ حباً له، بل كرهاً عميقاً قد تأصل في نفوسهم، لظلمه وجبروته وتعسف جنده بهم في شتى مناطق البلاد التي أخضعها بالحديد والنار وبجنده الأتراك: لقد كانت الرحمة والشفقة بعيدتين كل البعد عنهم، وكانت تصرفاتهم الرعناء، وجلافتهم الهمجية وعنفهم وأرواحهم الشريرة هي التي تسببت في سقوط أسرة السلطان[1]، وأما جلال الدين ابن السلطان علاء الدين، فقد كان هو الآخر مبغوضاً، مكروهاً، لأنه أحاط نفسه بجند شبه مرتزقة، فلم يتعاون الحكام المسلمون غرب إيران مثل السلاجقة والأيوبيين، وحاكم بغداد العباسي، مع جلال الدين لغلوه في التكبر والغطرسة، ومحاولة فرض نفوذه، وتكوين مملكة له في المنطقة بالقوة، وعلى حساب الشعوب والملوك الآخرين[2].

(1) أوضاع الدول الإسلامية، للغامدي، ص: 275، الفتوحات الإسلامية لبلاد الهند والسند، د. حذيفة الغامدي، ص: 558.

(2) الفتوحات الإسلامية لبلاد الهند والسند، ص: 559.

3 ـ النزاع الداخلي في الأسرة الخوارزمية: إن سنة الله تعالى ماضية في الشعوب والأمم لا تتبدل ولا تتغير، ولا تجامل، وقد جعل الله سبحانه وتعالى من أسباب هلاك الأمم وزوال الدول: الاختلاف، قال رسول الله ﷺ: **«فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»** وفي رواية **«فأهلكوا»**، وعند ابن حبان عن ابن مسعود ﷺ، **«فإنما أهلك من كان قبلكم بالاختلاف**[1]**»**.

إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن نتوقى الهلاك بتوقي أسباب الاختلاف المذموم لأن الاختلاف كان سبباً في ضياع الدولة الخوارزمية وهلاكها واندثارها، وكان لهذا الاختلاف الذي وقع فيه البيت الخوارزمي أسبابه منها: ضعف الوازع الديني، والأنانية وحب الذات، والتكالب على المصالح الدنيوية والتناحر من أجلها، والحرص على السلطة والجاه والمنصب، فهذه الأسباب كانت وقوداً للمنازعات والخلافات التي وقعت بين أفراد البيت الخوارزمي، فكانت من أكبر معاول الهدم وأسباب الضعف وتلاشي الدولة، وقد استقرأ هذه الحقيقة ابن خلدون حيث ذكر أن من آثار الهرم في الدولة: انقسامها، وأن التنازع بين القرابة يقلص نطاقها كما يؤدي إلى قسمتها واضمحلالها[2].

لقد بدأ الخلاف المؤثر في الأسرة الخوارزمية بالصراع بين علاء الدين الخوارزمي ووالدته تركان خاتون التي كونت لها عصبية قوية من قوات عشيرتها حتى أصبح نفوذها في الدولة لا يقل عن نفوذ السلطان نفسه، من ذلك أنه كان إذا حدث حادث من جهة من جهات الدولة، أو عرضت مشكلة من المشاكل وصدر فيها حكمان متناقضان أحدهما من السلطان والآخر من تركان خاتون، نظر في تاريخ كل من الحكمين ونقض أحدثهما[3].

وهذا ينافي تماماً ما يجب أن يكون في مثل هذه الأحوال من حيث احترام أوامر السلطان مهما كان تاريخ الأوامر التي تصدرها تركان خاتون، ولذلك نرى أن نفوذ هذه السلطانة وعشيرتها قد توغل في الدولة مما أضعف هيبة حكامها، فضلاً عن ذلك فإن السلطان علاء الدين خوارزمشاه كان لا يخالف لأمه أمراً، لكونها أمه، وبسبب كثرة أمراء الدولة وحكامها الذين كانوا من عشيرتها، ولنضرب مثلاً لقوة تركان خاتون

---

(1) صحيح البخاري بشرح العسقلاني (9 / 101، 102).
(2) الضعف المعنوي وأثره في سقوط الأمم، ص: 118.
(3) سيرة جلال الدين منكبرتي، ص: 42.

وتغلغل نفوذها في الدولة، فقد أمكنها أن ترفع أحد المقربين إليها وهو نظام الملك إلى منصب الوزارة ورغماً عن السلطان الذي لم يكن يميل إليه بسبب تجرده من الصفات الخلقية التي يجب أن يتحلى بها صاحب هذا المنصب، ففضلاً عن أنه كان من الرجال المرتشين، فإنه عرف أيضاً بالتلكؤ في البت فيما يعرض عليه من الأمور، وقد حدث أن كان علاء الدين في مدينة نيسابور وأسند منصب القضاء فيها إلى صدر الدين الجندي، الذي كان من بيت تقلد كثير من أفراده كثيراً من وظائف الدولة، كما كان من أهل العلم والفضل، وبعد أن قلده علاء الدين هذا المنصب حذره من أن يرسل الهدايا إلى الوزير، كما يفعل أكثر الحكام، ولكن القاضي أدرك ما يترتب على عدم إرسال الهدايا إلى الوزير، وخاصة بعد أن هدده هذا بسوء المصير، وحدث بعد ذلك أن أرسل القاضي إليه فعلاً كيساً مختوماً به أربعة آلاف دينار مخالفاً في ذلك أوامر السلطان، ولما علم علاء الدين ذلك، أرسل إلى الوزير يطلب منه الهدية، فاضطر أن يرسلها إليه مختومة كما وصلته، ولما مثل القاضي في حضرته سأله عن نوع الهدية التي أرسلها إلى الوزير، فأجاب القاضي بأنه لم يرسل شيئاً وأقسم برأس السلطان على ذلك، فلما واجهه بالهدية أسقط في يده واعترف بالأمر، وحينئذ أصدر السلطان أمره بعزله وعزل الوزير(1).

والمهم من هذا كله، أن أحداً لم يجرؤ على أن يفاتح الوزير المعزول بخبر عزله ولم يستطع السلطان تنفيذ ما أمر به، ونلاحظ تركان خاتون عهدت بعد ذلك إلى نظام الملك لإدارة أملاك ابنها «أزلاغ شاه» الذي كان يحكم إقليم خوارزم، وسار الوزير في حكم هذا الإقليم سيرة تتفق مع طبيعته الشريرة، ونهب بعض أموال هذه الأقاليم، ولما علم السلطان بذلك ثارت ثائرته وأوفد أحد قواده إلى إقليم خوارزم، وأمره بأن يحضر إليه رأس الوزير، وكان طبيعياً ألا يرضي هذا الأمر أم السلطان وأمرت باستدعاء هذا القائد عقب وصوله وأمرته بأن يحضر إلى الديوان عندما يكون الوزير هناك وأن يجيبه باسم السلطان ويقول له: إن السلطان يقول لي ما لي وزير غيرك فكن على رأس عملك فليس لأحد في سائر أقاليم الملك أن يخالف أمرك وينكر قدرك، وقد اضطر القائد أن ينفذ ما أمر به واستمر نظام الملك يتمتع بسلطة واسعة رغم غضب السلطان عليه، كما استمرت أوامره نافذة في خوارزم وخراسان ومازندران(2).

لقد كان نفوذ تركان خاتون الكبير في شؤون البلاد وانعدام الوفاق بينها وبين ابنها

---

(1) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص: 28 ـ 29.

(2) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 235.

قد زلزل أساس الدولة الخوارزمية، خاصة أن تركان خاتون وجنودها المرتزقة من عشيرة قنقلي قد وضعوا الممالك الأصلية في الدولة الخوارزمية تحت إدارتهم المستقلة وعينوا أقرباءهم في إدارة معظم شؤون الممالك المفتوحة أيضاً، ولم يكن للسلطان محمد حيلة حتى في اختيار ولي عهد مملكته ووزيره سوى النزول على رغبة والدته[1]، وكانت دائرة قوة تركان خاتون هي ولاية خوارزم وكان معظم الجيش وقادته ورجال الدولة في تلك المنطقة إما من أتراك قنقلي أو من خواص الملكة وغلمانها، وقد تم تعيين نظام الملك محمد بن صالح في منصب الوزارة واختيار أوزلاغ شاه ولياً لعهد خوارزمشاه بأمر منها وعلى خلاف رغبة السلطان محمد، فعلى الرغم من أن ولديه جلال الدين وركن الدين كانا أكبر من ابنه الثالث أوزلاغ، فقد تنازل السلطان عن ولاية عهده للأخير بعد إصرار تركان خاتون، ولُقب بأبي المظفر قطب الدين، وذلك لأن والدة أوزلاغ كانت من قبيلة تركان خاتون نفسها، وكان أهلها كأهل تركان خاتون من الأتراك ذوي النفوذ وكانوا من أعوان والدة خوارزمشاه، وهكذا، فعند عودة جلال الدين إلى خوارزم وإعلان خلع أوزلاغ وتعيينه بدلاً منه كان أول من شق عصا الطاعة عليه وأدى إلى فساد أمره وفراره من خوارزم هو خال أوزلاغ شاه «قُتلُغ خان» وكانت تركان خاتون تناصب السلطان جلال الدين العداء، وحين فر من خوارزم نصحها أحد خواصها بالفرار واللحاق بجيش جلال الدين، إلا أن تركان خاتون رفضت النصيحة وقالت: الوقوع في أسر جنكيز خان أفضل كثيراً من العيش في ظلال جلال الدين. وموجز القول: إن هذه المرأة الأنانية المتعطشة للدماء وأقرباءها من الأتراك كانوا من الأسباب الرئيسة لفساد أمر خوارزمشاه، وكان كثير من الخلل الذي أصاب دولته ناتجاً عن استبدادها وعن الفجوة التي تفصل بينها وبين ابنها[2].

4 ـ **ضعف النظام الحربي الخوارزمي:** كانت نظم الخوارزميين الحربية وخططهم التي أعدوها للدفاع عن دولتهم قبيل الغزو المغولي من العوامل الرئيسة التي أدت إلى انتصار المغول، ففضلاً عن أن الجيش الخوارزمي الذي اعتمد عليه علاء الدين كان يتكون من التركمان وقبائل كانكالي، أما التركمان فهم سلالة الأتراك الغز الذين أخضعوا فارس تحت زعامة السلاجقة، وأدى استيطانهم في هذا الجزء من العالم

---

(1) تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان، ص: 126.

(2) تاريخ المغول، عباس إقبال، ص: 85.

الإسلامي واختلاطهم بالعناصر الفارسية والعربية، إلى تغيير صفاتهم الجثمانية وعاداتهم ولغتهم، أما قبائل «كانكالي» فيرجع أصلهم إلى السهول الواقعة شمالي إقليم خوارزم وفي شمال شرقي بحر قزوين، وقد اندفعوا إلى أراضي الخوارزمية على إثر تصاهرهم مع سلاطين هذه الدولة، فقد تزوج السلطان علاء الدين تكش من تركان خاتون ابنة أحد زعماء هذه القبائل، وكان من أثر ذلك أن هاجر كثير من رجال هذه القبائل من أقرباء تركان خاتون وأفراد عشيرتها إلى أراضي الدولة الخوارزمية ودخلوا في خدمة علاء الدين محمد خوارزمشاه وخاصة بعد أن منحهم السلطان بعض الأقاليم ليحكموها باسمه، وأطلق أيديهم فيها، ومما لا شك أن قوة الخوارزميين قد تضاءلت أمام هذه الأرستقراطية العسكرية، وشعر الأهلون فعلاً وكذا السلطان بالحاجة إلى التحفظ في إشباع رغبات هؤلاء الجند الذين كانت محبتهم له مزعزعة الأركان، وطاعتهم له لا تقوم على شعور ينم عن الإخلاص، فلما شعروا بنوايا السلطان نحوهم عمدوا إلى إرهاب الأهالي المسالمين ونهب حوانيتهم في الطرقات[1]، وتفنن هؤلاء الجند الغرباء في تعذيب الأهالي وسلكوا في ذلك سبلاً متعددة، فاضطرب الأمن في البلاد واضطربت معه أحوال الدولة السياسية والاجتماعية[2].

لقد كان جنود الأتراك مصدر قلق واضطراب للدولة الخوارزمية، فإن هؤلاء الجند لم يهتموا كثيراً بالدفاع عن هذه الدولة شأنهم في ذلك شأن الجنود المرتزقة الذين يوكل إليهم أمر الدفاع عن شعب غريب عنهم، وكانوا يدركون أنهم إذا انتصروا في ميدان القتال فلن يعود عليهم هذا النصر بخير كثير، ثم إن الجيش الخوارزمي كان ينقصه النظام والطاعة للقواد والقدرة على تحمل الصعاب، تلك الصفات التي كانت من أهم مميزات الجيش المغولي، وأهم من ذلك كله فقد فقد علاء الدين خوارزمشاه ثقة شعبه، فلم يشاركوه بقلوبهم في الاستعداد لمواجهة هذا الخطر الداهم، ولم يسارعوا للانضمام تحت لوائه، كما لم يساعدوه في جمع المال اللازم للإنفاق على جنوده، هذا فضلاً عن أن القدرة على تجنيد السلطان لمن يشاء من رعيته لم تتوفر.

وأما ناحية الخطة الحربية التي اتبعها علاء الدين خوارزمشاه، فنرى أنها كانت خطة غير موفقة، إذ بدلاً من أن يجمع جيشاً واحداً يقف به في وجه المغول نراه يوزع

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 236.

(2) المصدر نفسه، ص: 233.

قواته على المدن المختلفة في بلاد ما وراء النهر، فمثلاً نراه يضع في مدينة بخارى عشرين ألف رجل، وفي سمرقند خمسين ألفاً،كما نراه يضع في مدينة أترار التي تعتبر مفتاح هذا الإقليم عشرين ألفاً، ونراه أيضاً يرسل دعاته إلى أقاليم الدولة الخوارزمية المختلفة لجباية الضرائب منها، معلناً أنه سيضع في كل إقليم جيشاً يعادل ما يجمع من هذا الإقليم من أموال، وهكذا نرى تفرق الجيش الخوارزمي بين المدن الخوارزمية المختلفة، مما سهل على المغول القضاء على المدن واحدة تلو أخرى، ولو أن علاء الدين جمع جيوشه وقابل بها المغول دفعة واحدة، لربما سهل عليه القضاء عليهم. وبسبب تجمع الجيوش الخوارزمية في داخل المدن، نرى علاء الدين يعمل جاهداً على تحصين تلك المدن وتقوية حوائطها، حتى يكون الجنود وهم في داخل الأسوار في مأمن من غدر أعدائهم، ومن الأمثلة على ذلك ما فعله في مدينة سمرقند إذ أنه رغم اتساع هذه المدينة نراه يشرع في بناء سور حولها ليكون وسيلة قوية من وسائل الدفاع، ولكي يحصل على المال اللازم لهذا المشروع نراه يوزع عماله في الأقاليم لجمع الضرائب باسم عمارة سور سمرقند، واستطاع بعد ذلك أن يجمع المال اللازم لهذا المشروع وفي وقت قصير، ولكن الغزو المغولي المفاجئ منعه من إنجاز مشروعه.

ويذهب المؤرخون مذاهب شتى في تعليل السبب الذي دفع علاء الدين إلى توزيع قواته على هذا النحو في داخل المدن الخوارزمية، فيرى جيبون أنه قد ظن أن المغول سيملون حصار هذه المدن العديدة، ومن ثم يعودون إلى بلادهم دون أن ينالوا من هذه المدن منالاً[1]، ويرى سيكس أن علاء الدين خوارزمشاه ظن في ذلك الوقت أن جنكيز خان سيكتفي في البلاد الإسلامية بنهب ما تصل إليه أيديه من الغنائم والأسلاب ثم يعود من حيث أتى[2]، وهذا يخالف طبعاً ما عزم عليه جنكيز خان من إخضاع أقاليم آسيا الغربية، ويرى فلادمير ستوف أن السلطان الخوارزمي كان لا يثق بقواته ولذلك كان يخشى أن يتجمع عدد كبير من رجاله تحت قيادة رجل واحد فتنقلب عليه هذه الجيوش تحقيقاً لرغبة قائدها قد تحدثه نفسه بعصيان السلطان، فوق ما تقدم فإن قوات الخوارزميين لم يكونوا من الكفاءة والمقدرة بحيث يستطيع قائد واحد منهم أن يقود جيشاً كبيراً، أضف إلى ذلك أن علاء الدين وجد أنه من الصعب عليه أن يلتقي بأعدائه في العراء، ولذلك فضل التحصن في المدن، ومما تقدم نرى أن نظام

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 237.

(2) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 237، 238.

الخوارزميين الحربي كان مرتبكاً ومضطرباً، وأن قوتهم وزعت وتفرقت، ولذلك سهل على المغول إخضاع المدينة تلو الأخرى وإبادة الحامية بعد الحامية، كما سهل عليهم بعد انهيار بلاد ما وراء النهر التي ركز الخوارزميون فيها وسائل دفاعهم أن يزيلوا الدولة الخوارزمية ويخربوا ما عمَّره المسلمون من مدنها، ويجعلوا منها أطلالاً لا تجد من يبكيها[1].

5 ـ **حب الدنيا وكراهية الموت:** كان حب الدنيا مهيمناً على القيادة والشعب في ذلك الوقت، وقد دبت الهزيمة النفسية في قلوب المسلمين، وتعلقوا بدنياهم الذليلة تعلقاً لا يُفهم ورضوا أن يبقوا في قراهم ومدنهم ينتظرون الموت على أيدي الفرق المغولية، وصدق رسول الله ﷺ عندما قال: «**يوشك الأمم أن تتداعى عليكم، كما تتداعى الأكلة على قصعتها**»، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن**»، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**[2]».

لقد سيطر حب الدنيا على القلوب، وكره المسلمون الموت في سبيل الله، فأصبحوا كالغثاء الذي يحمله السيل، إذا توجه شرقاً شرقوا معه، وإذا توجه السيل غرباً غربوا معه، لا رأي ولا هدف ولا طموح، ونزع الله عز وجل مهابة المسلمين من قلوب التتار، فما عادوا يكترثون بالأعداد الغفيرة وألقى في قلوب المسلمين الوهن والضعف والخور حتى كانت أقدام المائة من المسلمين لا تقوى على حملهم إذا واجهوا تترياً واحداً. . . ولا حول ولا قوة إلا بالله[3].

يقول أبو الحسن الندوي: وقد دخل رعب التتار في قلوب المسلمين إلى حد أن أحد التتار دخل بعض الأحيان في سكة من سكك مدينة حيث وجد مائة رجل من المسلمين فقتلهم جميعاً، وأتى على آخرهم دون أن يتجرأ أحد منهم لمقاومته[4]. وذات مرة دخلت امرأة تتارية بيتاً متزيية بزي الرجال وقتلت جميع أفراد الأسرة، وعرف أحد

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 238.
(2) سنن أبي داود نقلاً عن: قصة التتار، ص: 40، 41.
(3) قصة التتار، ص: 41.
(4) رجال الفكر والدعوة (1/ 282).

المسجونين الذي كان معها أنها امرأة فقتلها، وقد حدث بعض الأحيان أن تتارياً أسر مسلماً وقال له: ضع رأسك على هذا الحجر حتى آتي بالخنجر فأذبحك، وخضع له المسلم ولم يسعه أن يبرح مكانه ذاك ثم أتى التتاري بالخنجر من المدينة وذبحه[1].

كانت غارة التتار فتنة عظيمة، ومحنة كبيرة، هزت العالم الإسلامي هزاً عنيفاً، وتركت المسلمين مبهوتين مشدوهين واستولى الرعب والخوف على العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، وغلب على الناس اليأس والتشاؤم، فكانوا يعتبرون التتار بلاءً سماوياً ومقاومتهم مستحيلة، وانهزامهم فوق القياس، حتى ساد المثل «إذا قيل لك التتار انهزموا فلا تصدق»، فكل بلاد أو دولة توجهوا إليها عرف أنها أبيدت وخربت، ولم يبق فيها شيء من مقدسات المسلمين إلا وانتهكت حرمتها، فكان اتجاه التتار إلى جهة يرادف معنى التدمير والإبادة والذلة، وانتهاك الأعراض، ولا شك أن العالم الإسلامي كله ولا سيما الجزء الشرقي منه وقع تحت هذه الفتنة العمياء عن بكرة أبيه، إن المؤرخ يشغل بتسجيل كل لون من ألوان الأحداث والوقائع، وتمر به مناظر كثيرة لإبادة الأمم والبلدان حتى يتعود احتمال كل ذلك، فيجري قلمه بتسجيل هذه الحوادث من غير أن يرق له قلبه، وتدمع له عينه، ولكن المؤرخ الشهير ابن الأثير لم يتمكن من إخفاء شعوره الجريح وتألمه النفسي حينما وصل إلى ذكر حادث التتار[2] حيث قال: لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها، فأنا أقدم إليها رجلاً وأؤخر رجلاً، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذلك؟ ويا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا، وكنت نسياً منسياً، إلا أني حثَّني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً، فنقول: هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى، والتي عقمت الأيام والليالي عن مثلها وعمت الخلائق وخصَّت المسلمين، فلو قال قائل إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا مثلها لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا يُدانيها، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة، إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا ياجوج وماجوج، وهؤلاء لم يُبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنَّة، فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، لهذه الحادثة التي استطار

(1) المصدر نفسه (1/ 282)، نقلاً عن: الكامل في التاريخ.
(2) رجال الفكر والدعوة.

شررُها وعمَّ ضررُها، وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الرياح[1].

ويقول مؤلف «مرصاد العباد» الذي شهد هذه الوقعة بعينه وما دار في مولده الري وموطنه همدان من حوادث فظيعة بعينه ومن التخريب والتدمير: استولى الجيش التتاري ـ خذلهم الله ودمرهم ـ سنة 618هـ على بلاد الإسلام، لا يعرف نظير لما قام به هؤلاء الوحوش من الفتنة والإفساد، والقتل والهدم والإحراق، وما ظهر من أولئك الملاعين من فظائع تقشعر منها الجلود في أي عصر من عصور التاريخ، لا في الإسلام ولا في الجاهلية، فقد قتلوا وأسروا في «ري» وحدها التي هي مولودي أكثر من سبعمائة ألف مسلم، إن الفتنة التي أثاروها في العالم الإسلامي والمصيبة التي أنزلوها على المسلمين لا تسع الكلمات أن تصورها، وهذه الحادثة أغنى من أن تشرح للناس، وعياذاً بالله، إذا لم تتحرك حميَّة الإسلام وغيرته في ملوك المسلمين وسلاطينهم، ولم يذكروا أنهم مسؤولون عن الأمة لقوله ﷺ: **«الأمير راع على رعيته وهو مسؤول عنها»**، وإذا لم تنبعث فيهم أريحيتهم ورجولتهم لكي يتحدوا على كلمة واحدة وينقادوا لما أمرهم الله به في قوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 41]، وإذا لم يستعدوا ببذل النفس والمال والملك لكي يدفعوا هذه الفتنة، وإن ذلك كله يدل على أن المسلمين سيفاجئهم الذل والنكسة، وترتمي بلاد الإسلام في أحضان الكفر، وأخشى أن المسلمين الذين كانوا لا يحملون إلا الاسم، سيفقدون الاسم والرسم كليهما نتيجة لما ندعيه ولا نعمل به[2].

6 ـ ترك الاتحاد، والوقوع في ظلم العباد: «غياب العدل» والفرقة هي طريق الانحطاط، فإن الوحدة هي سبيل الارتقاء وتبوء المكانة الفاضلة بين الأمم والشعوب، وهي الوسيلة لقيادة البشرية إلى الحضارة الربانية الرشيدة، وقد أرشدتنا التعاليم الشرعية إلى وحدة الصف واتحاد الكلمة والرجوع إلى شرعه وتحكيم الكتاب والسنة فيما بيننا، قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى، الآية: 10]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء، الآية: 59]، فقد عطل شرع الله تعالى، وترتب على ذلك

---

(1) الكامل في التاريخ (12/ 147 ـ 148) رجال الفكر والدعوة في الإسلام (1/ 283).

(2) رجال الفكر والدعوة (1/ 284).

الفرقة والتشتت والتشرذم بين ممالك المسلمين، ولم يستطع المسلمون أن يعملوا بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال، الآية: 46]، فجعل الله عز وجل الفشل قريناً للتنازع، والمسلمون كانوا في تنازع مستمر، وخلاف دائم، وعندما كانت تحدث بعض فترات الهدنة في الحرب مع التتار كان المسلمون يغيرون على بعضهم، ويأسرون بعضهم، ويقتلون بعضهم، وقد عُلم يقيناً أن من كانت هذه صفتهم فلا يكتب لهم النصر أبداً، فالمسلمون كانوا ـ في تلك الآونة ـ يهلك بعضهم بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً، فلا عجب أن غلب عليهم جيش المغول أو غيرهم، يقول ابن الأثير: وكان محمد بن خوارزمشاه قد استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفناهم وبقي وحده سلطان البلاد جميعها، فلما انهزم من التتار لم يبق في البلاد من يمنعها ولا من يحميها[1]، لقد قطع محمد الخوارزمي كل العلاقات بينه وبين من حوله من الأقطار الإسلامية، لم يتعاون معها أبداً، بل على العكس قاتلها الواحدة تلو الأخرى، وكان يقتل ملوك هذه الأقطار ويضمها إلى مملكته، ولا شك أن هذا خلف أحقاداً كبيرة في قلوب سكان هذه البلاد، وهذا ليس من الحكمة في شيء.
انظروا إلى رسول الله ﷺ عندما كان يفتح البلاد كان يولي زعماء هذه البلاد عليها ويحفظ لهم مكانتهم ويبقي لهم ملكهم، فيضمن بذلك ولاءهم وحب الناس له، فأبقى على حكم البحرين ملكها المنذر بن ساوى، وأبقى على حكم عمان ملكيها جيفر وعباد، بل وأبقى على اليمن واليها باذان بن ساسان الفارسي عندما أسلم وهكذا، وهذا بخلاف ما فعله السلطان علاء الدين محمد الخوارزمي، فقد كان حاكماً بقوته لا يحبه الناس، فلما احتاج إلى الناس لم يجدهم، ولما احتاج إلى الأعوان افتقر إليهم، ولم تكن الصراعات بين الخلافة العباسية والدولة الخوارزمية فقط، بل قامت الدولة الخوارزمية نفسها على صراعات داخلية، ومكايد كثيرة ومؤامرات عديدة، فلم تتوحد القلوب بهذا البلد، وانعكس ذلك على الصفوف، وكانت النتيجة الهزيمة الساحقة أمام المغول، وما كان للنصر أن يتحقق والأمة على هذا النحو[2]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴿٤﴾﴾ [الصف، الآية: 4].

وأما جلال الدين عندما دخل أخلاط التابعة للأيوبيين عام (627هـ) وضع السيف في أهلها وفعل في ذلك فعل التتار، فقتل كل من وجد في البلد، فكانوا قد قلوا،

---

(1) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: قصة التتار، ص: 38.
(2) قصة التتار، ص: 39.

فبعضهم كان فارق البلد خوفاً بعد الحصار الأول، وبعضهم مات في البلد جوعاً، وبعضهم صعد إلى القلعة مع من صعد إليها من الأمراء والأجناد، وكانت الأقوات قد قلت، بل عدمت بأخلاط، حتى أكل أهلها البغال والكلاب والسنانير، كانوا يصطادون الفأر ويأكلونه، وصبروا صبراً لم يصبره محاصر، خوفاً من جلال الدين وما يعرفونه منه من إقدامه على سفك الدماء، ولما فُتحت سبى عسكره الحريم، وباعوا الأولاد كما يفعل بالكفرة، ونهبت الأموال، وجرى منه نظير ما جرى من التتار، فلا جرم أن الله سبحانه عاقبه ببغيه ولم يمهله وقلع شأفته[1].

كان الأجدر به عدم الدخول في صراع مع القوى الإسلامية في الشام وغيرها، وكان عليه أن يعمل على لملمة الدولة ويبني جيشه على أسس عقائدية وأخلاقية، لقد كان جلال الدين يفتقد للحكمة والبعد السياسي ومكارم الأخلاق، التي يستطيع أن يكسب بها الأبطال والقادة والملوك، ولم يكن جلال الدين رجل المرحلة المطلوبة، وسترى بإذن الله تعالى الفرق الكبير بين جلال الدين منكبرتي وصفات سيف الدين قطز الذي حقق الانتصار على المغول في معركة عين جالوت.

إن الظلم في الدولة كالمرض في الإنسان يعجل في موته بعد أن يقضي المدة المقدرة له وهو مريض، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم في الأمة والدولة، يعجل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها واضمحلالها خلال مدة معينة يعلمها الله هي الأجل المقدر له، أي الذي قدره الله بموجب سنته العامة التي وضعها لآجال الأمم، بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل، أو من عوامل الهلاك، كالظلم الذي يظهر أثرها وهو هلاكها بعد مضي مدة محددة يعلمها الله[2]، فقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾ [الأعراف، الآية: 34]، قال الألوسي رحمه الله في تفسير هذه الآية: «ولكل أمة أجل» أي لكل أمة من الأمم الهالكة أجل، أي وقت معين مضروب لاستئصالهم[3]، ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئاً مؤكداً ولكن وقت حلوله مجهول لنا، أي أننا نعلم يقيناً أن الأمة الظالمة تهلك حتماً بسبب ظلمها حسب سنة الله تعالى في

(1) مفرج الكروب (4/ 296).

(2) السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، ص: 121.

(3) تفسير الألوسي (8/ 112).

الظلم والظالمين، ولكننا لانعرف وقت هلاكها بالضبط، فلا يمكن لأحد أن يحدد بالأيام ولا بالسنين وهو محدد عند الله تعالى[1]: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝﴾ [هود، الآية: 100 ـ 102].

إن الآية الكريمة تبين أن عذاب الله ليس مقتصراً على من تقدم من الأمم الظالمة، بل إن سنته تعالى في أخذ كل الظالمين سنة واحدة، فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك قاصر بأولئك الظلمة السابقين، لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ [هود: الآية، 102]، فبيّن الله تعالى أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التي أدت إلى هلاكهم فلا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد. الآية تحذر من خطورة الظلم، فالدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس، والناس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم، فهذه الدولة مع كفرها تبقى، إذ ليس من سنته هلاك الدولة لكفرها فقط، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم[2]، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ۝﴾ [هود، الآية: 11]، قال الإمام الرازي في تفسيره: إن المراد من الظلم في هذه الآية: الشرك، والمعنى: أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم، يعامل بعضهم على الصلاح وعدم الفساد[3]. وفي تفسير القرطبي قوله: بظلم أي: بشرك وكفر «وأهلها مصلحون» أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق، ومعنى الآية: أن الله تعالى لم يكن ليهلكهم في الكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط[4]، قال ابن تيمية في هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة: وأمور الناس أن تستقيم مع العدل الذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإن لم تشترك في إثم، لهذا قيل إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة،

(1) السنن الإلهية، ص: 121.
(2) المصدر نفسه، ص: 121.
(3) تفسير الرازي (18/ 16).
(4) تفسير القرطبي (9/ 114).

ويقال: إن الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام، وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم تقم بالعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة[1]، ولقد حدثت مظالم عظيمة في عهد الخوارزميين، من سفك الدماء بغير حق، وقتل للمسلمين، واجتياح المدن الإسلامية ومحاصرتها واستباحتها، كان الجيش الخوارزمي يضرب به المثل في النهب والقتل، وعمل كل قبيح، الزنا فيهم فاشٍ، واللواط غير معذوق بكبر ولا بصغر، والغدر خلق لهم، أخذوا تفليس بالأمان، ثم غدروا وقتلوا وسبوا، كانت عساكر جلال الدين أوباشاً فيهم شر وفسق وعتو[2]. لقد ساهمت المظالم التي ارتكبها الخوارزميون في زوال دولتهم من الوجود.

7 ـ أنانية محمد علاء الدين الخوارزمي وهزيمته النفسية: ظهرت أنانية محمد علاء الدين في اهتمامه بتأمين نفسه وأسرته ومقربيه وتهاونه في تأمين شعبه، وحافظ جداً على كنوزه وكنوز آبائه، وأهمل الحفاظ على مقدرات وأملاك شعبه، وعادة ما يسقط أمثال هؤلاء القواد أمام المحن والشدائد والفتن والمصائب التي تعصف بالأمم والشعوب والدول، وعادة ما تنهزم الشعوب التي تقبل بهذه الأوضاع المغلوبة دون إصلاح، لقد فر السلطان محمد علاء الدين خوارزم من نيسابور واتجه التتار خلفه مباشرة يطاردونه من مدينة إلى أخرى في فرار مخزٍ فاضح، ووصل إلى جزيرة في بحر قزوين، ونجحت خطة محمد الخوارزمي في الفرار، ورضي بالبقاء في تلك القلعة مع الفقر الشديد والحياة الصعبة وهو الملك الذي ملك بلاداً شاسعة وأموالاً باهظة، ولكن رضي بذلك لكي يفر وينجو بنفسه، وهذا مرض قلبي أخلاقي في الأساس، وما هي إلا أيام حتى مات محمد علاء الدين محمد خوارزمشاه في هذه الجزيرة وحيداً طريداً شريداً فقيراً، وصدق الله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء، الآية: 78]. كان الأولى للسلطان الخوارزمي أن يموت رافع الرأس ثابت الجأش، مطمئن القلب في ميدان الجهاد، وأن يموت مقبلاً لا مدبراً[3]، ولكنها الأنانية البغيضة والهزيمة النفسية التي أصيب بها ذلك السلطان الخوارزمي. لقد دب الرعب والخوف في قلبه من استبسال جنود المغول وحنكتهم في الحرب، وبعد عودته من سمرقند أخذ يشيد مراراً

(1) رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لابن تيمية، ص: 40.
(2) سير أعلام النبلاء (22/ 328). معذوق: معلّق، أخذه من عذق النخلة.
(3) قصة التتار، ص: 36 ، 37.

وتكراراً بثبات المغول في القتال ومعرفتهم بفنون الرماية والقتال بالسيف، وهو ما أخافه لدرجة أعجزته عن الصمود أمامهم، بل إن في فراره كان يحذر الأهالي من المغول ويدعوهم للتسليم لهم وطاعتهم، وكان لخوفه وفراره تأثير سيئ على الجنود وأهالي البلاد، وأدى إلى انفراط عقد الجيش وضعف روح الدفاع والقتال والجهاد عند الأهالي(1)، فهروب السلطان من الميدان من أسباب زوال الدولة الخوارزمية.

8 ـ شخصية جلال الدين منكبرتي: بعد أن رجع جنكيز خان إلى بلاده عاد جلال الدين من الهند، وكون في الجزء الغربي من أقاليم الدولة الخوارزمية حكومة مهيضة الجانب، ولم يكن في وسع هذا السلطان الذي ركز جهوده للانتقام من حكام البلاد المحيطة بدولته وعلى رأسهم الخليفة العباسي بسبب عداوتهم لأبيه، والذي كان فوق ما تقدم جاهداً في توسيع رقعة بلاده على حساب ما يجاورها من حكام البلاد الإسلامية وغير الإسلامية، لم يكن في وسع هذا السلطان أن يعمل على توثيق روابط الود والإخاء بينه وبين هؤلاء الجيران، ولذلك قضى فترة من الوقت استطاع فيها، على قصرها، أن ينهك القوى الإسلامية ويضعفها،كما أثار نفور المسلمين منه وسخطهم عليه، فانفضوا من حوله، فضلاً عن هذا فإنه لم يحسب حساباً للمغول، الذين انصرفوا عنه وعن العالم الإسلامي إلى حين، بسبب تفرغهم لمشاكلهم الداخلية في ذلك الوقت، وكان الواجب على جلال الدين منكبرتي وقد عاد إلى بلاده وتربع على عرشها أن يستفيد من أخطاء أبيه وهفواته السياسية، فيعمل على اكتساب إرضاء جيرانه في الخارج، ويكون حلفاً إسلامياً يقف به في وجه المغول، وكان يجب عليه أيضاً أن يعمل على كسب محبة رعيته حتى يضمن ولاء الأهالي إذا ما ظهر الخطر المغولي من جديد، ولكن على العكس من ذلك نراه لا يترك قوة من القوى الموجودة في ذلك الوقت إلا ناصبها العداء، خارج دولته وداخلها، ففي الخارج اعتدى على أملاك الخليفة، وأملاك الأمراء المسلمين في بلاد ما بين النهرين، كما غزا أذربيجان وجورجيا وأذل أهليهما لسلطانه، وناصب طائفة الإسماعيلية العداء فألبت عليه أعداءه وشجعت المغول على إعادة غزو أراضي الدولة الخوارزمية(2).

وقد وصف ابن الأثير سياسة جلال الدين منكبرتي الخارجية منذ ظهوره على

---

(1) تاريخ المغول، عباس إقبال، ص: 130.

(2) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 239.

المسرح التاريخي من جديد، وصفاً يعبر تعبيراً صحيحاً عما جلبته عليه هذه السياسة من أضرار، فقال: وكان جلال الدين سيئ السيرة، قبيح التدبير لملكه، لم يترك أحداً من الملوك المجاورين له إلا عاداه ونازعه الملك وأساء مجاورته، فمن ذلك أنه أول ما ظهر في أصفهان وجمع العساكر قصد خوزستان، فحصر مدينة شسشتر وهي للخليفة فحصرها وسار إلى دقوقا فنهبها وقتل فيها فأكثر، وهي للخليفة أيضاً، ثم ملك أذربيجان وهي لأوزبك فملكها وقصد الكرج «جورجيا» وهزمهم وعاداهم ثم عادى الملك الأشرف صاحب أخلاط، ثم عادى علاء الدين صاحب بلاد الروم، وعادى الإسماعيلية، ونهب بلادهم وقتل فيهم فأكثر، وقرر عليهم وظيفة من المال كل سنة، كذلك غيرهم، فكل من الملوك تخلى عنه ولم يأخذ بيده[1].

وهكذا كان من أثر عداوة جلال الدين لهذه القوى المحيطة بدولته أنها رفضت أن تمد له يد المساعدة، عندما داهمه المغول بغزوهم المفاجئ[2].

وأما في الداخل فنرى جلال الدين يحاول أن يكون الحاكم المستبد في دولته، فانفض عنه أخوه غياث الدين تتبعه قوة كبيرة من رجال جيشه في الوقت الذي كان يتحتم عليه أن يستفيد بمجهود كل رجل في دولته كذلك نرى كبار رجال الدولة ينفضون من حوله ويحيطونه بشبكة من الدسائس والمؤامرات، ويشعلون عليه نيران الثورة في البلاد الخاضعة، كما حدث في أذربيجان[3]. ولم يهتم جلال الدين بتكوين جيش يستطيع أن يواجه به العدو المغولي إلا عندما دقت الساعة وظهر المغول فجأة في الميدان فأخذوه على حين غرة قبل أن يتمكن من إصلاح شؤونه الداخلية و الخارجية، فكانت النتيجة أن اكتسح المغول الدولة الخوارزمية من جديد سنة 628هـ / 1231م، وزالت هذه الدولة بزوال آخر شخصية خوارزمية من سلالة نوشتكين[4].

مدح الذهبي -جلال الدين منكبرتي وقال: السلطان الكبير جلال الدين منكوبرتي ابن السلطان الكبير علاء الدين محمد ابن السلطان خوارزمشاه الخوارزمي، تملك البلاد، ودانت له الأمم، وجرت له عجائب وعندي سيرته في مجلد.. كان جلال

(1) الكامل في التاريخ (12/ 230).
(2) الدولة الخوارزمية، ص: 240.
(3) المصدر نفسه، ص: 240.
(4) المصدر نفسه، ص: 240.

الدين أسمر تركياً قصيراً منعجم العبارة، يتكلم بالتركية، وبالفارسية، وأما شجاعته فحسبك ما وردته من وقعاته فكان أسداً ضرغاماً وأشجع فرسانه إقداماً، لا غضوباً ولا شتاماً، وقوراً، لا يضحك إلا تبسماً، ولا يكثر كلاماً، وكان يختار العدل غير أنه صادف أيام الفتنة فغلب وجرت له أمور يطول شرحها ما بين ارتقاء وانخفاض، وهابته التتار ولولاه لداسوا الدنيا، وقد ذهب إليه محيي الدين بن الجوزي رسولاً وجده يقرأ في مصحف ويبكي، ثم اعتذر عما يفعله جنده بكثرتهم، وعدم طاعتهم[1].

9 ـ قصر نظر الخليفة الناصر لدين الله العباسي: استطاع غياث الدين أخو جلال الدين أن يتملك منطقة شمال إيران نتيجة الفراغ النسبي الذي تركه التتار في هذه المنطقة، وسيطر على مدن الري وأصفهان، ووصلت سيطرته إلى إقليم كرمان في جنوب إيران، وأصبحت سيطرة غياث الدين بن خوارزمشاه على مناطق شمال وغرب وجنوب إيران،أما المنطقة الشرقية والشمالية الشرقية من إيران وهي إقليم خراسان بكامله، فكانت تحت السيطرة التترية، وبذلك يصبح غياث الدين بمثابة حائط صد بين التتار والخلافة العباسية، وكان ذلك في الفترة التي انقطع فيها جلال الدين في الهند.

كان من المتوقع من الناصر لدين الله الخليفة العباسي في ذلك الوقت أن يساعد غياث الدين في تثبيت سيطرته على هذه المناطق، وكان المفروض عليه أن يتناسى الخلافات القديمة بينه وبين مملكة خوارزم، وذلك لأنهم الآن يواجهون عدواً مشتركاً وهم المغول، كان ذلك فرض الوقت عليه، إن لم يكن بسبب دوافع الدين والأخوة والنصرة للمسلمين، فليكن بسبب الأبعاد الإستراتيجية الهامة وراء تثبيت قدم غياث الدين في هذه المنطقة، ذلك لأن غياث الدين هو الذي يقف مباشرة في مواجهة التتار ويُعتبر البوابة الشرقية للخلافة العباسية في بغداد، وإن استطاع التتار أن يقهروا غياث الدين فستكون المرحلة الثانية هي الخلافة العباسية، لكن الخليفة العباسي الناصر لدين الله لم يكن يدرك كل هذه الأبعاد[2]، لقد كان يعاني من قصر النظر ومن أمراض النفوس، كحب الانتقام، والمكر بالمسلمين، ولم ينس خلافاته القديمة مع المملكة الخوارزمية، وأراد أن يقوض أركان السلطان هناك، ناسياً أنهم بينه وبين التتار، وعمل على إذكاء وإشعال فتنة داخلية بين غياث الدين وخاله «إيغان طائسي»، وكان رجلاً كبيراً

(1) سير أعلام النبلاء (22/ 326 ، 327 ، 328).

(2) قصة التتار، ص: 68.

وصاحب رأي في الحرب، يعمل أميراً في جيش غياث، وكان الأخير لا يقطع أمراً دون مشورته، فراسله الخليفة الناصر لدين الله، ورغبه في الانقلاب على غياث الدين وعظم له الاستيلاء على الملك، وبذلك يضمن الخليفة ولاء إيغان طائسي له، وبعد غياث الدين عن الحكم، ولم يهمه تلك الفتنة التي ستدور في الأرض المجاورة له، والتي تعتبر العمق الإستراتيجي الهام له، ونجح في مشروعه التآمري واندلعت الحرب بين غياث وخاله ودارت مجزرة بين المسلمين، وسقطت الأعداد الغفيرة من المسلمين قتلى بسيوف إخوانهم، وانهزم إيغان طائسي خال غياث الدين، وقتل من فريقه عدد ضخم، وأسر الباقون، وفر هو ومن بقي معه إلى أذربيجان، ولا حول ولا قوة إلا بالله[1].

إن الخليفة العباسي لم يقم بواجبه في دعم المسلمين ضد المغول، بل كان معول هدم لمن تصدى للمقاومة، وهذا الخليفة ذمَّه المؤرخون وتناولوا أعماله وأخلاقه بالنقد اللاذع، يتحدث عنه المؤرخ ابن الأثير فيقول: وكان قبيح السيرة في رعيته، فتُخرب في أيامه العراق، وتفرَّق أهله في البلاد، وأخذ أملاكهم وأموالهم، وكان يفعل الشيء وضده، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها في رمضان فبقيت مدة، ثم قطع ذلك، ثم عمل دور الضيافة للحجاج، فبقيت مدة ثم أبطلها، وأطلق بعض المكوس التي جدَّدها ببغداد خاصة ثم أعادها، وجعل جُلَّ همه في رمي البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة، فأجابه الناس بالعراق وغيره إلى ذلك فكان غرام الخليفة بهذه الأشياء من أعجب الأمور[2]. فكان هذا الخليفة خصماً للخوارزميين ولم يقف معهم في التصدي للمغول، بل عمل على إثارة الفتن داخل صفوف المسلمين، فكان ذلك من أسباب زوال الدولة الخوارزمية، ولا شك أن اعتداءات الخوارزميين السابق على الخلافة ببغداد من أسباب ضعفهم وعدم الوقوف معهم.

10 ـ **غياب العلماء:** في تحقيق الأمة للانتصارات الكبرى نجد مكانة العلماء والفقهاء لدى الحكام وفي وجدان الشعوب واضحة المعالم، بل نلاحظ الكتابات عن أهمية الجهاد وفضائله، وسيرة الرسول في الغزوات وتاريخ صدر الإسلام وانتصارات الأمة على أعدائها، ويتحرك الخطباء والعلماء والفقهاء في أوساط الناس، ويخرجون مع الجند في المعارك ويشاركون بأنفسهم في قتال الأعداء. وفي الدولة الخوارزمية لا مكانة

---

(1) قصة التتار، ص: 70.

(2) الكامل في التاريخ (12/ 181) رجال الفكر والدعوة (1/ 275).

للعلماء والفقهاء، بل عطلوا عن دورهم، فهذا من أسباب زوال الدولة الخوارزمية.

11 ـ **المشروع المغولي:** أخذ جنكيز خان قائد المشروع المغولي بأسباب النجاح المادية والقانونية، من قيادة متزنة ووضوح في الهدف، وإعداد الأفراد ومحاربة أسباب الفرقة داخل الشعوب المغولية والأخذ بأصول الاجتماع والاتحاد والوحدة وتقسيم الأدوار، والتخطيط السليم، والإدارة الناجحة، والتنظيم المحكم وغيرها من الأسباب، وبالإضافة إلى تدهور أوضاع البلاد الإسلامية لتركهم شريعة ربهم، ويمكن إجمال نجاح المشروع المغولي على الدولة الخوارزمية في النقاط التالية:

أ ـ حنكة جنكيز خان وثباته وصبره وتواضعه.

ب ـ اطلاعه الكامل على أوضاع ممالك خوارزمشاه، واستغلال معلومات التجار المسلمين والمترجمين والعارضين بالمسالك والطرق.

جـ ـ الياسا الجنكيزية وأحكامها الصارمة في حفظ النظام بين المغول وإخضاعهم جميعاً لأمر واحد.

د ـ الاتفاق التام بين قواده وأبنائه، حيث لم يكن لأي منهم رأي بعد رأي جنكيز خان، وكانوا جميعاً أدوات لتنفيذ أهدافه، ولم تكن تساور أياً منهم فكرة الاستقلال أو التفوق على الآخر.

هـ ـ وحدة اللغة والعادات والتقاليد ووحدة الهدف بين جنود جنكيز خان وهو ما كان الخوارزميون يفتقرون إليه[1].

و ـ قوة النظم الاجتماعية والحربية عند المغول مقارنة بالخوارزميين، فقد اهتموا بالكيف لا بالكم، فالسلطة العليا كانت في الخان الأعظم فهو المرجع الأخير في كل صغيرة وكبيرة، وهو الذي يشرف على تنظيم الجيش وإعداده ورسم الخطط والمواقع الحربية، واختيار الأوقات المناسبة لها، وكان الجيش المغولي منظماً أحسن تنظيم[2]، وقد مر معنا ذلك. هذه هي أهم أسباب سقوط الدولة الخوارزمية، وهي متداخلة ومتشابكة يؤثر كل منها في الآخر تأثيراً عكسياً، فالسبب السياسي يؤثر في العامل العسكري، ويتأثر به وهكذا.

سادساً: وفاة جنكيز خان: أمضى جنكيز خان شتاء عام 1225 إلى 1226م والصيف التالي في مقره العام عند نهر تولا من إمبراطوريته الكبيرة، وكان محاطاً برفاق

---

(1) تاريخ المغول، عباس إقبال، ص: 131.

(2) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 240، 244.

موثوقين، كال لهم المديح وقال لهم: لقد ساعدتموني وجعلتموني قادراً على العمل الصحيح الذي يجب عمله، وأمسكتم بيدي بعيداً عن عمل الأمر الخطأ، وبفضل هذا السلوك من جانبكم فقد بلغت المرتبة العالية[1].

كان هناك عمل ينتظر التنفيذ، وكان ذلك معاقبة ملك الطانغوط عاهل شي ـ شيا «أوهسي ـ هسيا» المتاخمة للتيبت لرفضه إرسال جيشه للاشتراك في الحرب ضد خوارزم، وكان جنكيز خان يوم تحرك باتجاه الغرب قد قطع على نفسه عهداً بمحاسبة الملك الطانغوطي على ذلك الرفض رغم أنه تابع له، وحشد عام 1226م كل جيوشه ضد الطانغوط، ولكن الثأر وحده لم يكن الدافع على محاربة أولئك القوم، بل كانت هناك أسباب وجيهة أخرى تدعو إلى إخضاع تلك المنطقة، كان صينيو إمبراطورية كين، الإمبراطورية الذهبية، بعد مغادرة جنكيز خان للصين قد نجحوا فاسترجعوا قسماً كبيراً من أقاليمهم، وكان موخولي الجنرال المغولي العامل في الصين نيابة عن جنكيز خان، مشتبكاً في قتال مرير متواصل معهم، وأدرك جنكيز خان أن العوامل الجغرافية تجعل من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، توجيه ضربة مميتة إلى الصينيين الذهبيين بينما السلطة المغولية غير مستقرة ووطيدة في بلاد الطانغوط، وكان اهتمامه بهذا الأمر من الشدة بحيث لم يلجأ لتحقيقه إلى أي من جنرالاته، وإنما عمد رغم تقدم سنه إلى قيادة الجيش بنفسه، ويدلنا هذا القرار أنه كان لايزال مالكاً لجميع قواه البدنية والعقلية، وبدأت الحرب في خريف (عام 1226م) وكانت البداية ناجحة، غير أنه في فصل الشتاء وفي إحدى مناورات الصيد، جمح جواد جنكيز خان مرعوباً ببعض الخيول المتوحشة التي كانت وفيرة في تلك الأنحاء وألقى بالخان المغولي أرضاً، وأصيب جنكيز خان على أثر ذلك بمرض شديد، الأمر الذي دعا أولاده المرافقين له والمتقدمين سناً من جنرالاته إلى التشاور فيما بينهم حول ما يجب عليهم عمله، قال أحدهم: الطانغوط شعب حضري يسكن المدن لا يغادرها، ومن الممكن أن نعود الآن إلى الوطن، لنرجع إلى هذا المكان بعد أن يستعيد الخان عافيته، ووافق المجتمعون على هذا الرأي، ولكن جنكيز خان رفض وقال: إذا نحن ذهبنا فسيظن الطانغوط يقيناً بأننا نخاف منهم، إنني أبقى للعلاج والشفاء في هذا المكان ولن نبرحه، وسنبدأ فنبعث إليهم برسالة، لنرى ما هو الجواب الذي سيعطونه، وقد وجهت إلى ملكة طانغوط الرسالة التالية: وعدت بأن

---

(1) جنكيز خان، ص: 275.

تكون يدي اليمنى، ولكنك رفضت أن تذهب معي إلى محاربة الخوارزميين، وأضفت الإهانة إلى هذا العصيان، والآن وبعد أن افتتحت بلاد خوارزم فقد جئت أطلب منك ترضية، وكان جواب العاهل الطنغوطي على هذه الرسالة عبارات تحقير وإهانة، وقد غضب جنكيز خان لذلك غضباً شديداً، وهتف صارخاً: أمن الممكن بعد هذه الإهانة أن نذهب بعيداً؟ إني لن أذهب ولو كان وراء ذلك موتي. إني أقسم على هذا بالسماء الأبدية، وقد وفى بقسمه، فدمّر مملكة الطانغوط ودولتهم ولكنه مات في سياق ذلك.

كان جنكيز خان مريضاً منذ سقطته الأخيرة عن ظهر الجواد أثناء الصيد وكان يشعر أن المرض يمتص منه الحياة[1]، ولما اشتد المرض عليه وعرف أن منيته قد حانت استدعى أولاده فأوصاهم أن يخلف ابنه أوكتاي لمزية رأيه المتين، وعقله الرزين، فجعله ولي عهده، فوافقوا على اختياره، وهذا نص وصيته لأولاده: اعلموا يا أولادي الجياد أنه قد قرب سفري إلى دار الآخرة، ودنا أجلي، وأنا بقوة الآلهة والتأييد السماوي، استخلصت مملكة عريضة بسيطة، بحيث يسلك من وسطها إلى طرف منها مسيرة سنة من أجلكم يا أولادي فهيأتها لكم، فوصيتي لكم أنكم تشتغلون بعدي بدفع الأعداء ورفع الأصدقاء وتكونون جميعاً على رأي واحد، حتى تعيشوا في نعمة ودلال وتتمتعوا بالمملكة[2]. وهناك في إقليم كان سو الصيني الحديث غير البعيد من مدينة تسن جو أسلم جنكيز خان الروح في النصف الأول من رمضان عام 624هـ الموافق أغسطس 1227م وقد حمل جثمانه إلى منغوليا ودفن في المنطقة التي يخرج منها نهر أونون وكورلين، وبقي موضع الدفن سراً من الأسرار كما هي عادة المغول.

---

(1) جنكيز خان، ص: 277 ، 278.

(2) المغول في التاريخ، د. العباد، ص: 138.

الفصل الثاني:

سقوط بغداد على أيدي المغول

المبحث الأول: خلفاء جنكيز خان

أولاً: تقسيم ممالك جنكيز خان:

كان لجنكيز خان زوجات ومحظيات كثيرات ولكنه كان يفضل عليهن جميعاً زوجته المسماة «يَسُونجين بَيْكي» ولهذا كان يعز عليه أبناءه من هذه الزوجة ويقدمهم على أبنائه الآخرين، وقد أنجب جنكيز خان تسعة أولاد من بينهم أربعة كانوا من زوجته يسونجين وهؤلاء الأبناء الأربعة هم: جوجي وجغتاي وأوكَتاي وتوُلوُي، وكان أبوهم جنكيز خان يعهد إليهم بجلائل الأعمال، كما كان يعتمد عليهم اعتماداً كلياً في إدارة إمبراطوريته المترامية الأطراف، فمثلاً نراه يكلف أكبر أبنائه «جوجي» بالإشراف على شؤون الصيد وتنظيم القصور وتزيينها، وأما ابنه الثاني «جغتاي» فقد وكل إليه تنظيم شؤون القضاء والعمل على تنفيذ أحكام جنكيز خان وقوانينه وتوقيع الجزاء والعقاب على المقصرين، وجعل ابنه الثالث «أوكتاي» يختص بالشؤون المالية والإدارية، ويقوم بتنظيم شؤون الملك، وتدبير مصالح الناس، وفوض إلى ابنه تولوي مباشرة شؤون الدفاع وإعداد الجيوش، وكان يدعى «إلغ نويان[1]»، وقد رأى جنكيز خان أن خير وسيلة لتدريب أبنائه على مباشرة مهام الحكم وتحمل المسؤوليات، هو أن يقسم إمبراطوريته بينهم وهو على قيد الحياة، وقد تم التقسيم على النحو التالي:

1 - كان نصيب جوجي وهو أكبر أبناء جنكيز خان، البلاد الواقعة بين نهر أرتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين، وكان في تلك البلاد عامة القبجاق ويطلق عليه اسم «القبيلة الذهبية» نسبة إلى خيم معسكراتها ذات اللون الذهبي، وكان غالب

---

(1) معنى الغ نويان: الأمير الكبير.

أهلها من الأتراك والتركمان[1]، ولما كان جوجي قد توفي قبل وفاة أبيه قرر جنكيز خان أن تكون هذه المناطق من نصيب حفيده «باتو بن جوجي» الذي اشتهر برقة العاطفة وعذوبة الحديث وشدة التعقل وأصبح رأس بيت جنكيز خان وقام بدور حاسم فيما نشب من منازعات على ولاية العرش للإمبراطورية.

2 ـ اختص جغتاي ببلاد الأويغور، وأقاليم ما وراء النهر وكاشغر وبلخ وغزنه.

3 ـ نال أوكتاي ولي العهد، قسماً يقل عن نصيب إخوته وكان ينحصر في مناطق جبال تار باجاي، وأطراف بحيرة ألاجول وحوض نهر اليميل الذي يصب في تلك البحيرة ويقع غربي منغوليا.

4 ـ منغوليا، المنطقة الأصلية لجنكيز خان وآبائه وأجداده والتي تشمل وديان أنهار كرولين وأونن وأرخن ومنطقة قراقورم كانت من نصيب تولوي أصغر أبناء جنكيز خان، وقد استمر يحكم الإمبراطورية مدة عامين 624 ـ 626 هـ (1227 ـ 1229م) بصفته وصياً على العرش، طبقاً للعرف المغولي، وذلك بمساعدة ثلاثة من المستشارين إلى أن انتخب الخان الجديد خلفاً لجنكيز خان[2].

ثانياً: انتخاب أوكتاي خاناً أعظم للمغول: بعد وفاة جنكيز خان وظل العرش خالياً من ملك لمدة عامين، وأخيراً رأى الأمراء الكبار ضرورة التعجيل بتنصيبهم خاناً جديداً، حتى تنصلح الأمور ولا يتطرق الفساد والخلل إلى أساس الملك، وقد استقر رأيهم على اتخاذ هذه الخطوة، فأوفدوا الرسل إلى الجهات والأطراف وصاروا يمهدون لعقد مجلس الشورى «القوريلتاي»، ووفد على منغوليا الأمراء وقواد الجيش وظلوا هناك ثلاثة أيام في متعة وأنس وطرب، وشرعوا بعد ذلك في تبادل وجهات النظر بخصوص اختيار الخان الجديد، فاجتمعوا على تولي أوكتاي عرش الخانية، ولكنه حاول التنحي والاعتذار بأنه غير آهل لتولي هذا المنصب الخطير، وأن أخاه «تولوي» أجدر منه بمباشرة هذا الأمر، والالتزام به، لأنه الأخ الأصغر، وطبقاً لتقاليد المغول ورسومهم يقوم مقام الأب ويتعهد داره لأنه كان ملازماً لأبيه ليلاً ونهاراً ويعرف الأصول والقوانين، غير أن إخوته وأقاربه، أغلقوا أمامه كل باب للاعتذار وأصروا عليه على أن يقبل هذا المنصب، وذكروه بوصية أبيه في هذا الشأن، فنزل على مشيئتهم آخر الأمر،

(1) السلوك للمقريزي، نقلاً عن: المغول، د. الصياد، ص: 164.

(2) المغول، للصياد، ص: 165.

وعندئذ أخذ «جغتاي» يد أخيه «أوكتاي» اليمنى وأخذ تولوي يده اليسرى وأمسك عمه «أوتجكين» بحزامه وأجلسوه على سرير الخانية ورفع الحاضرين داخل البلاط وخارجه وأعلنوا تنصيب أوكتاي «حاقاناً» أي خاناً أعظم للإمبراطورية المغولية، وذلك في القوريلتاي الذي عقد لهذا الغرض في ربيع سنة 626هـ (1229م) بعد ذلك قام الخان بتوزيع الأموال على الأقارب والعشائر. وطبقاً للرسوم والعادات المتبعة عند المغول، أمر بتقديم الأطعمة لمدة ثلاثة أيام متتالية صدقة على روح جنكيز خان، كذلك اختار أربعين فتاة حسناء من نساء الأمراء الذين كانوا يلازمونه وألبسوهن أفخر الثياب وزينوهن بالمرصعات والجواهر، ثم أرسلوهن على جياد أصيلة إلى جنكيز خان[1] ـ قتلوهن وذلك على على حد زعمهم ومعتقدهم ـ وعلى أثر تولية أوكتاي عرش المغول، قرر أن تكون كل الأحكام التي أمر بها جنكيز خان نافذة المفعول، وأن تبقى مصونة بعيدة عن التغيير والتبديل، كذلك أصدر عفواً شاملاً عن جميع الأشخاص الذين ارتكبوا ذنوباً قبل جلوسه على العرش، وهدد بإنزال العقاب الصارم على كل من تحدثه نفسه بمخالفة القوانين بعد ذلك، واهتم اهتماماً كبيراً بإكمال الفتوحات التي بدأها والده جنكيز خان فكوّن الجيوش اللازمة لغزو إيران وأوربا والصين[2].

ثالثاً: المغول يواصلون زحفهم في البلاد الإسلامية: لقد كان انتخاب أوكتاي ابن جنكيز خان لأعظم للمغول إيذاناً بشن حملة جديدة على ممالك الدولة الخوارزمية والقضاء عليها نهائياً، على أن المغول الذين كانوا لا يزالون يحتلون منطقة ما وراء النهر، قاموا قبل ذلك بعدة حملات منظمة عل قوات السلطان جلال الدين منكبرتي، كانت تسفر تارة عن انتصار جلال الدين وتارة أخرى على انتصار المغول[3]، ولكنها على كل حال لم تؤد إلى نتيجة حاسمة، إلى أن عهد «أوكتاي» إلى قائده المشهور «جُز ماغون نويان» بقيادة الحملة على إيران، فسار على رأس جيش كبير تعداده 50000 جندي، مصطحباً معه عدداً من أمهر قادة المغول، وقد قدم الجميع إلى تركستان حيث طلبوا المدد من أمراء المغول وحكامهم في خوارزم، وبالإضافة إلى ذلك أضيفت إلى هذا العدد الكبير قوات أخرى غير نظامية من أسرى الأعداء، فبلغ عدد الجميع 100000 جندي[4]، واستطاع المغول تدمير

(1) المغول، ص: 167، للصياد.
(2) المصدر نفسه، ص: 167.
(3) المصدر نفسه، ص: 171.
(4) المصدر نفسه، ص: 171.

جيش جلال الدين منكبرتي كما مرَّ معنا، وبعد أن تخلصوا من أخطر عدو استطاع أن يواجههم ببسالة، أصبح الطريق أمامهم ممهداً للفتح والغزو دون أن يعوقهم عائق، أو تقف في طريقهم عقبة، فاستطاعوا في يسر وسهولة أن يشنوا حملاتهم على معظم البلاد الإسلامية[1]، وينشروا فيها الخراب والدمار، وكان هناك قائد خوارزمي اسمه «أورخان» وهو الذي استطاع أن ينقذ حياة جلال الدين عندما هاجمه المغول في آخر مرة قبل أن يفر منهزماً إلى كردستان، كان هذا القائد لا يزال على قيد الحياة بعد مقتل جلال الدين، فسار على رأس 4000 جندي من الجنود الخوارزميين وصلوا إلى إربل، ومن هناك أسرع أورخان بمفرده إلى أصفهان حيث لقي حتفه على يد المغول، وبعد ذلك تفرقت البقية الباقية من جنود جلال الدين على جبال كردستان والجزيرة والشام، فقتل بعضهم على يد الأكراد وأعراب البدو واختار الباقون أن يعملوا كجنود مرتزقة في خدمة سلاطين الأيوبيين وسلاجقة الروم، وصاروا لفترات طويلة سبباً في إثارة كثير من المتاعب في البلاد التي يعملون فيها[2].

وقسم المغول قواتهم إلى ثلاثة جيوش رئيسة: فتح الجيش الأول ديار بكر، وأرزن الروم وميافارقين وماردين ونصيبين وسنجار، وقد تقدم هذا الجيش حتى بلغ ساحل الفرات، واشتط جنود المغول في القتل والسلب والنهب دون أن يجرؤ أحد من سكان هذه المناطق على مقاومتهم أو حتى مجرد سماع اسمهم، وقد استولى الرعب والفزع على قلوب الأهالي إلى الحد الذي يتضح فيما ساقه ابن الأثير من قصص تذكي لهيب الأسى في النفوس وتثير الشجون، تلك القصص التي قد يتوهم القارئ أنها سيقت على سبيل المبالغة لولا أنها جاءت على لسان مؤرخ يعتبر ثقة[3] فيما رواه، يقول: ولقد حكى عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذي ألقاه الله سبحانه وتعالى في قلوب الناس حتى قيل إن الرجل منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحداً بعد واحد ولا يتجاسر أحد أن يمد يده إلى ذلك الفارس[4].

وأما الجيش الثاني فقد قصد مدينة «بدليس» وبعد أن أحرقها استولى على بعض القلاع المحيطة بخلاط وغيرها.

---

(1) المغول، للصياد، ص: 179.
(2) المصدر نفسه، ص: 179.
(3) المصدر نفسه، ص: 179.
(4) المصدر نفسه، ص: 180.

وسار الجيش الثالث إلى منطقة أذربيجان، وشرع يفتح مدنها الواحدة تلو الأخرى، وأخيراً صمم عل احتلال حاضرتها تبريز، فسلمت دون مقاومة في أوائل سنة (629هـ/ 1232م)، وذلك لأن الأهالي هناك لم يكونوا على وفاق مع السلطان جلال الدين، وعندما تأكدوا من ضعفه ثاروا على الحكام الخوارزميين وقتلوهم وقطعوا رؤوسهم وأرسلوها إلى المغول تقرباً إليهم، لهذا لم يكد الجيش المغولي يقترب من أبواب تبريز حتى سارع الأهالي إلى تقديم فروض الطاعة، وقدموا مختلف الهدايا من مال وقماش إلى قواد المغول كما قبلوا شحنة من قبلهم، وتعهدوا بأن يدفعوا لهم جزية كبيرة كل سنة، فما كان من المغول إلا أن وافقوا على هذه العروض، ودخلوا المدينة، ولكنها سلمت من التخريب والتدمير إذا قيست بغيرها من المدن[1].

وفي عام (632 ـ 633هـ) (1234 ـ 1235م) دخل المغول إقليم إربل وغزوا حاضرته، إلا أن أهالي المدينة أسرعوا إلى القلعة، وتحصنوا فيها، فحاصرها المغول أربعين يوماً، وأخيراً افتدى الأهالي أنفسهم بمبلغ كبير من المال ورحل المغول عنها عندما سمعوا أن المدد قد جاء من بغداد، وبعد ذلك انتقلت القوات المغولية إلى العراق في سنة 634هـ (1236م) وواصلت زحفها شمالاً حتى وصلت مدينة (سامراء)، فلما شعر الخليفة يتهدده الخطر، أسرع وأعلن الجهاد بعد أن جمع مجلساً من العلماء أفتوا بأن الغزو في سبيل الله خير من الحج إلى بيت الله، فكان أن تجمع جيش كبير بقيادة مجاهد الدين الدوايدار[2]، واستطاع أن يهزم المغول بالقرب من تكريت ما بين دجلة وجبل «حَمْرَين» وأن يفك أسر عدد كبير من المسلمين كانوا قد وقعوا في أيدي المغول أثناء قتالهم في إربل، وأقام المسلمون الاستحكامات المنيعة حول بغداد وأعاد المغول الكرة وقصدوا بغداد عام 635هـ/ 1237م حيث هزموا المسلمين في الخانقين، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وعاد الباقون إلى بغداد[3].

واستمر المغول في مهاجماتهم لجورجيا وأرمينية ودمروا وخرّبوا ولكن المغول عادوا وأحسنوا معاملة أرمينية وجورجيا وسلكوا معهما نفس السلوك الذي سلكوه مع فارس وكرمان، وكذلك سيطر المغول سيطرة كاملة على الأقاليم الشرقية من الدولة الخوارزمية، دون أن يجدوا أدنى مقاومة، فسلمت سجستان وغزنة وكابل وحدود

---

(1) المغول، ص: 180.

(2) المصدر نفسه، ص: 181. الدويدار: في الأصل بمعنى الكاتب.

(3) الحوادث الجامعة، لابن الفوطي، ص: 113، المغول، للصياد، ص: 181.

السند، واستطاع المغول السيطرة على سلاجقة الروم عام (640هـ/ 1243م) بعد انتصارهم عليهم في معركة عنيفة بموضع «كوسة طاغ» ووضع الأناضول بعدها في قبضة المغول، وخضع السلطان غياث الدين لخان المغول والتزم بدفع جزية سنوية له[1].

1 ـ **فتح أقاليم الصين الشمالية:** بعد وفاة جنكيز خان نجحت أسرة كين في استرداد جزء كبير من مملكتهم، واتخذت مدينة كاي فونج في هونان عاصمة لها، فلما تولى أوكتاي حكم المغول أعد العدة لفتح هذه البلاد، فسير جيوشه إليها سنة 627هـ/ 1229م، وذلك في نفس الوقت الذي كان جنوده في إيران يتعقبون السلطان جلال الدين منكبرتي، وقد تحرك أوكتاي بنفسه مع أخويه جغتاي وتُولو إلى سهل «هوانج هو» الذي يطلق عليه المغول «فزاموران» ثم قسموا قواتهم إلى جيشين رئيسين: هجم أحدهما من الشمال بقيادة أوكتاي، واختار الآخر الهجوم على الجنوب بقيادة أخيه تولوي، وقد أسفرت المعارك عن انتصار المغول على قوات الصينيين انتصاراً ساحقاً وانتزعوا منهم مساحات شاسعة من الأراضي، وبعد ذلك عهد المغول إلى قائدهم المشهور «سبوتاي» بفتح العاصمة «كاي فونج»، وسقطت هذه العاصمة الكبيرة في أيدي المغول وقتل معظم سكان المدينة ولم يفلت منهم إلا القليل وكان ذلك في سنة 631هـ/ 1233م، وعلى إثر ذلك تقدم الوزير الحكيم «يي ليو جوتساي» إلى أوكتاي ملتمساً ألا يأمر بتدمير المدينة، بل يلحقها بالأملاك المغولية، واستجاب لطلبه[2]، وعند قيام المغول بحملتهم على الصين الشمالية كان حكام الصين الجنوبية من أسرة «سونج» يقدمون المساعدات للمغول طمعاً في أن يكون لهم نصيب في أراضي الصين الشمالية، فلما خابت آمالهم، نشبت الحرب بينهم وبين المغول وكانت هذه فرصة سانحة لهم للقضاء على هذه الأسرة أيضاً، وضم أملاكها إلى حوزتهم، ولكن تم هذا في عهد خلفاء أوكتاي[3].

2 ـ **المغول في أوروبا:** بعد أن عاد أوكتاي من الصين مظفراً، كوّن جيشاً عظيماً تعداده 150000 جندي أسند قيادته العليا إلى باتو بن جوجي، وكلفه بفتح بلاد الروس والجركس والبلغار وأقاليم أوروبا الشرقية، وكان القائد المغولي المشهور «سبوتاي» يتولى القيادة الفعلية، وقد تمكن هذا الجيش من الاستيلاء على كل المنطقة الواقعة بين جبال الأورال وشبه جزيرة القرم التي كانت موطناً للباشقرد والبلغار، وهزم حكام روسيا،

(1) المغول، ص: 183.
(2) المصدر نفسه، ص: 185.
(3) المصدر نفسه، ص: 186.

وأحرق مدينة موسكو، ودمر مدينتي سوزدال وفلاديمير، فاشتعلت النيران في سوزدال على حين شهدت فلادمير عند سقوطها عنوة أفظع المناظر، إذ دارت المذبحة في كل السكان الذين لجأوا إلى الكنيسة وسط لهيب النار، وبعد ذلك انسابت الجيوش المغولية إلى مملكة أوكرانيا، فقلبوا هذه المناطق رأساً على عقب وعاثوا فيها تخريباً وفساداً، واستولوا على عاصمتها «كييف» في سنة (638هـ 1240م) ودمروها تدميراً كاملاً، ثم نهبوا إمارة غاليسيا الروسية، وبذلك سقطت في أيديهم روسيا بأكملها، واستمرت تلك المناطق الشاسعة خاضعة للمغول مدة قرنين ونصف 636هـ ـ 886هـ، وبعد أن تم فتح روسيا، انقسمت جيوشهم إلى قسمين: زحف القسم الأول على بولندا، وتوجه القسم الثاني إلى المجر. وقد تمكن القسم الأول من التغلب على جيش متحالف من البولونيين والألمان يبلغ تعداده 30000 جندي، واستولى المغول على مدينة «بِرسلاو» وتقدموا حتى مدينة برلين، بعد أن أنزلوا بالسكان الفناء والهلاك وبالمدن الخراب والدمار، وفي هذا الإقليم وحده جمعوا أكياساً ملأوها بآذان ضحاياهم وقتلاهم فبلغ مجموعها 270000 أذن أخذوها معهم دليلاً على ما كانوا يفخرون به من بأس وسطوة[1].

وأما القسم الثاني فقد تغلب أيضاً في نفس الوقت على المجريين واستولى المغول على عاصمتهم «بِست» وتقدموا إلى فيينا من جهة وإلى سواحل بحر الأدرياتيك من جهة أخرى، وبينما المغول سائرون في فتوحاتهم على قدم وساق في أوروبا إذا بالأنباء ترد إلى أوروبا تعلن وفاة أوكتاي في سنة 639هـ/ 1241م واستدعاء باتو وسبوتاي لحضور القوريلتاي والاشتراك في انتخاب الخان الجديد، وبذلك سلمت أقاليم غرب أوروبا من خطر محقق كان ينتظرها على أيدي هؤلاء المغول[2].

3 ـ **وفاة أوكتاي قاآن:** كان أوكتاي ولوعاً إلى أقصى حد بالشرب والإدمان على الخمر، وقد تسبب هذا في ضعفه يوماً بعد يوم، ولم يتيسر للخاصة ولا الأصفياء منعه من ذلك، بل كان يكثر من الشراب رغماً عنهم، وعندما كانت جيوشه تحارب في أوربا، ظل مدة سبع سنوات عاكفاً على اللهو والمتعة والشراب إلى أن أثر هذا على صحته، وفي إحدى الليالي عندما حان أجله، أفرط في الشراب، فتوفي وهو نائم وكان ذلك في سنة 639هـ/ 1241م[3].

(1) تاريخ مختصر الدول لابن العبري، ص: 248، المغول، للصياد، ص: 187.

(2) المغول، للصياد، ص: 188.

(3) المغول، للصياد، ص: 188.

4 ـ النظم والإصلاحات التي تمت في عهد أوكتاي: قام أوكتاي بعدة إصلاحات في البلاد المغلوبة على أمرها فقد ترك زمام الأمور في الصين في يد وزيره الحكيم «يي ليو جوتساي» الذي استطاع أن ينشئ في هذا الإقليم إدارة حازمة منظمة، مستعيناً في ذلك بالكتاب والعمال من الصينيين والأويغوريين والإيرانيين وأهل التبت، كذلك نجح في تنظيم الشؤون المالية، وضبط عمليات الداخل والخارج، وإلى هذا الوزير يرجع الفضل في إعداد ميزانية ثابتة للإمبراطورية المغولية، إذ ألزم الصينيين بأن يأدوا ضرائب معينة نقداً ونوعاً، بما يجري تقديره من أثواب الحرير وكميات الحبوب على حين يدفع المغولي عشرة في المائة مما يحوزه من قطعان الخيل والماشية والغنم، ثم أنه شيد في مدينة بكين «خان باليغ» مدارس لتخريج شباب ذوي خبرة وكفاءة، وفيها كانوا يدرسون تعاليم كونفوشيس[1]، ولما تم لأوكتاي فتح الصين الشمالية ولي عليها «محمود يلواج» كما نصب ابنه «مسعود بيك» حاكماً على إقليم ما وراء النهر، فقام الأب والابن بتعمير ما خربه المغول، وأخلصا في خدمة الناس وإصلاح أحوالهم وإدارة تلك المناطق أحسن إدارة[2]، وكان أوكتاي يميل إلى التعمير والتشييد وشرع في عام 631هـ/ 1234م في بناء عاصمة جديدة له وأمر بتشييد قصر شامخ في العاصمة الجديدة يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه رمية سهم بعيد المدى، وأقاموا في وسطه مقصورة عالية وأنجزوا ذلك المبنى في أكمل صورة وأتم نسق، ثم عكفوا على زخرفته وتزيينه بمختلف فنون النقش والتصوير وأمر بأن يبني كل من الإخوة والأبناء وسائر الأمراء والملازمين له دوراً فخمة حول هذا القصر فامتثلوا جميعاً الأمر، وعندما تمت هذه المباني واتصل بعضها ببعض كونت مجمعاً عمرانياً رائعاً وكان ذلك بإشراف أمهر المهندسين الصينيين الذين قد أحضرهم معه[3]، وطور أوكتاي نظام البريد وفكر في حفر الآبار على امتداد دروب الصحراء في آسيا الوسطى[4].

5 ـ معاملة أوكتاي لرعاياه من المسلمين: كان أوكتاي ملكاً كريماً نبيل الخلق، طيب المعاملة للمسلمين على حين أن أخاه جغتاي، كان لا يكف عن إيذاء المسلمين، وإلحاق الضرر بهم، وكان يود أن يستأصل شأفتهم من سائر البلدان، وتنفيذاً لهذه السياسة درج على تحريض كبار الشخصيات المغولية من الأمراء والقواد

(1) المغول، للصياد، ص: 189.

(2) المصدر نفسه، ص: 189.

(3) المصدر نفسه، ص: 191.

(4) المغول، د. العريني، ص: 162.

لكي يوشوا بالمسلمين عند أوكتاي حتى يتغير عليهم ويعمل على الخلاص منهم، وذات يوم جاء راهب بوذي إلى الخان وقال له: إنه رأى جنكيز خان في المنام، وإنه يأمر ابنه أوكتاي بضرورة العمل على هلاك المسلمين في جميع الأقطار ويوصيه بألا يتردد لحظة واحدة في تنفيذ هذا الأمر لأن المسلمين أصبحوا الآن كثرة، وسوف يكون على أيديهم القضاء على ملك المغول، فلما سمع أوكتاي هذا الحديث، وكان ذكياً ومحباً للمسلمين، أدرك بفراسته على الفور أن هذا الكلام كذب ومحض افتراء، وأنه من إيحاء أخيه الظالم جغتاي. ثم دعا أوكتاي إلى عقد اجتماع كبير حضره كبار الشخصيات من المغول وحكام الممالك وأمر باستدعاء ذلك الراهب، وكلفه بأن يعيد سرد رسالة جنكيز خان على مسمع من الحاضرين ففعل، بعد ذلك قال أوكتاي: ينبغي أن تكون لكل دعوى حجة وبرهان حتى يتبين الصدق من الكذب، والصحة من السقم، فأمن الجميع على ما قال أوكتاي، ثم توجه الخان إلى الراهب وسأله: أتعرف المغولية أم التركية أم الاثنين معاً؟!..فأجاب الراهب: إنني أعرف التركية فقط، عندئذ قال أوكتاي: إن جنكيز خان كان لا يعرف سوى المغولية وأنت لاتعرف سوى التركية، فبأية لغة إذن بلغك هذا الأمر: هل بالمغولية أو بالتركية[1]، فلما تأكد الراهب أنه قد افتضح أمره، لم يحر جواباً، واعتراه الخجل، وعلى هذا اتضح للجميع كذبه ونفاقه، ولكن أوكتاي لم يدع هذه الفرصة تمر دون أن يلقن هذا الراهب درساً لاذعاً في الأخلاق فقال له: إنني لن أستبيح دمك احتراماً لأخي جغتاي، فعد من حيث أتيت، وقل لجغتاي وزمرته: أن كفّوا أيديكم عن إيذاء المسلمين لأنهم إخوتنا وأصدقاؤنا، وقد استمدت مملكتنا القوة منهم وبعونهم أصبح العالم مسخراً لنا وطوع أمرنا.

ويروى أيضاً أن المغول كانوا أصدروا قراراً بألا يذبح أي شخص الخراف والحيوانات الأخرى التي يؤكل لحمها كذبيحة المسلمين، بل تشق صدورها وأكتافها، وذات يوم اشترى رجل مسلم خروفاً من السوق، وأخذه إلى البيت، وأوصد الأبواب، ثم سَمّى ـ الله ـ وهمّ بذبحه، واتفق أن رآه في السوق رجل تركي من القبجاق، فتعقبه وتسلق السطح، وقيد ذلك المسلم وسحبه إلى بلاط القاآن، فأرسل القاآن نوابه للتحقيق، وعندما أطلعوه على ما جرى قال: إن الرجل الفقير قد احترم القانون، وهذا التركي ترك القانون، لأنه صعد إلى دار الفقير، وبهذا نجا المسلم وقتل القبجاقي[2].

(1) المغول، د. الصياد، ص: 193.

(2) جامع التواريخ (2/ 62 ـ 63) المغول، للصياد، ص: 194.

6 ـ كيوك خان (644 ـ 647هـ = 1246 ـ 1249 م): على إثر وفاة أوكتاي، اضطربت أحوال المغول، واختلفوا على من يخلفه على العرش، فالأمير «باتو» ملك خانات روسيا ووداي القبجاق وأحد كبار الأمراء البارزين في أسرة جنكيز خان لم يكن يميل إلى أن يتولى عرش المغول أحد من أسرة أوكتاي، كذلك كان يرغب «كوتان» الابن الثاني لأوكتاي في تولي هذا المنصب بعد أبيه، وكان هناك فريق آخر يرى التقيد بوصية الخان الراحل، واختيار حفيده الطفل «شيرامون» ليكون خاناً أعظم للمغول، ونظراً لمرور وقت طويل دون أن يستقر المغول على رأي معين بخصوص هذه المسألة وبسبب غياب كيوك الابن الأكبر عن المقر الأصلي للمغول، تهيأت الفرصة للطامعين في تولي هذا المنصب، وكان من بينهم أوتجكين أخو جنكيز خان، إذ أراد أن يغتصب العرش بالقوة، وتوجه لتنفيذ هذه الخطة إلى معسكر القاآن بجيش جرار مزود بالعدة والعتاد، فهاج الجند والأتباع، وما إن علمت توراكينا بهذا التدبير، حتى بادرت بإرسال الرسل إلى أوتجكين تعتب عليه في رفق، وتعمل على استمالته إلى جانبها، فنجحت في هذا السبيل، إذ ندم أوتجكين ومهد سبيل الاعتذار، ثم قفل عائداً إلى موطنه.

ولكن توراكينا خاتون لم تأبه بهذه المحاولات، وصممت على أن يتولى ابنها كيوك هذا المنصب، ولبلوغ الغاية، صارت تبذل قصارى ما في جهدها لمدة تربو على أربع سنوات في سبيل اجتذاب الأقارب والأمراء بأنواع التحف والهدايا حتى ضمت الأغلبية إلى صفها، وصاروا رهن إشارتها، كذلك سنحت لها الفرصة للتخلص من كبار الشخصيات والولاة الذين كانوا ضد سياستها وكانت لها حاجبة تدعى «فاطمة» أصلها من مشهد طوس، ثم ألحقت بخدمتها، وكانت هذه المرأة غاية في الذكاء والكفاءة وموضعاً للثقة التامة، وكاتمة أسرار الخاتون، وكان عظماء البلاد يتخذونها أداة لتحقيق أغراضهم، فأخذت توراكينا خاتون تعزل بمشورة تلك الحاجبة الأمراء وأركان الدولة ممن كانوا يتقلدون المناصب الكبرى في عهد أوكتاي وعندما تأكدت «توراكينا خاتون» من أنها أصبحت تملك الورقة الرابحة ووجدت أن الظروف كلها مهيأة لنجاح خطتها، أرسلت الرسل إلى كبار الشخصيات المغولية من جميع الأطراف والأمصار لحضور جلسة القوريلتاي التي سوف ينصّب فيها كيوك رسمياً خاناً أعظم[1].

7 ـ لختيار كيوك خان خاناً أعظم للمغول: وفي عام (644هـ/ 1246م) انعقد

---

(1) المغول، للصياد، ص: 196.

القوريلتاي على ضفاف إحدى البحيرات غرب منغوليا، فاقترح أغلب الحاضرين انتخاب كيوك خاناً أعظم للمغول، ولكنه يعتذر محتجاً بضعفه ومرضه، وفي النهاية قبل أن يتقلد هذا المنصب نزولاً على رغبة الأمراء بشرط أن يكون الحكم وريثاً في سلالته، فوافق الجميع على ذلك، عندئذ خلع الأمراء قلانسهم، وحلوا أحزمتهم، وأجلسوا كيوك على العرش ثم أخذوا الكؤوس، وركعوا أمام عرشه، وأعلنوا انتخابه رسمياً خاناً للمغول، واستمروا يحتفلون بهذه المناسبة مدة أسبوع، وكان كيوك يقوم بتوزيع الأموال على الأمراء ورؤساء الفرق(1).

كان كيوك خان، رجلاً مغامراً محارباً ميالاً إلى الغزو والفتح، فهو أقرب الشبه إلى جده جنكيز خان ولم يكد يستقر في الحكم حتى لفت نظر الأمراء والنبلاء ضرورة مراعاة أحكام الياسا وتجنب الخروج عليها أو تحريفها وتأويلها، وأمر بمعاقبة الذين قصروا في أداء واجبهم أو ارتكبوا مخالفات في المدة السابقة على توليته، كذلك كلف أمراءه وقواده بتجييش الجيوش لفتح الصين الجنوبية وعهد بهذه المهمة إلى القائد المغولي سبوتاي، وأوفد «إيلجيكتاي» إلى إيران لفتح بقية الممالك الإسلامية، وجعل له السلطة العليا في الإشراف على شؤون الروم والكرج والموصل وديار بكر، ونصّب محموداً حاكماً على ممالك الخطا، وولى الأمير مسعود بيك حاكماً على ما وراء النهر وتركستان، وعين الأمير أرغون والياً على بلاد خراسان والعراق وأذربيجان وشروان واللور وكرمان وفارس وطرف الهند، وقلد السلطان «ركن الدين» سلطنة الروم لأنه قدم إلى منغوليا بمناسبة تنصيبه إمبراطوراً للمغول وعزل أخاه الأكبر «عز الدين» وقرر أن يكون داود الصغير المعروف بابن فيز ملكاً محكوماً لداود الكبير صاحب تفليس(2).

أ ـ سياسة كيوك خان مع المسيحيين: كانت توراكينا خاتون تدين بالمسيحية، ولهذا عهدت إلى الأمير «قداق» المسيحي بالإشراف على تربية ابنها كيوك منذ الصغر، ولما اعتلى عرش المغول قرب إليه «جينقاي» الذي كان يعمل مستشاراً ووزيراً لأبيه، وكان من قبيلة كرايت، يدين أيضاً بالمسيحية، ولم يكتف كيوك بهذا، بل قلده منصب الوزارة، فكان لهذين الرجلين تأثير كبير على الخان المغولي، إذ صار يعطف عطفاً

(1) المغول، للصياد، ص: 196.

(2) تاريخ مختصر الدول، ص: 257، المغول، ص: 198.

شديداً على رعاياه من المسيحيين من أمثال الأرمن والكرج والروس[1]، ويذكر المؤرخ بروان أن الجمعية العامة التي تمّ فيها انتخاب كيوك قد امتازت بوفرة عدد من حضرها من ممثلي الدول الأجنبية والشعوب الخاضعة لنفوذ المغول، فقد حضرها اثنان من الكهنة بعث بهما البابا بخطابات يرجع تاريخها إلى أغسطس سنة 1245م= 643هـ وقد استقبل هذان الكاهنان خير استقبال[2]، غير أن كيوك عندما قرأ رسالة البابا طلب إلى البابا أن يعترف بسيادته العليا وأن يقدم إليه مع سائر أمراء الغرب ليحلفوا له يمين التبعية، فلما عاد «يوحنا» إلى البابا في نهاية سنة 1247م قدم إليه هذه الرسالة المخيبة للآمال، وأرفق بها تقريراً مفصلاً ذكر فيه أن المغول لم يخرجوا إلا للغزو والفتح[3]. وخلاصة القول أنه في عصر كيوك خان ارتفع شأن المسيحيين على حين أنه لم يرتفع صوت للمسلمين وذلك بتأثير أمه من جهة وكانت تدين بالمسيحية وبتأثير وزيريه المسيحيين من جهة أخرى، كذلك وجد الأطباء المسيحيون الطريق ممهداً للإشراف على الشؤون الطبية في البلاط المغولي، وكان من أثر هذه السياسة أن شاعت بعض التقاليد المسيحية في الأوساط المغولية[4].

ب ـ وفاة كيوك خان 647 هـ/ 1249م: اضطربت أحوال المغول، واختلفوا على من يخلفه على العرش، فالأمير «باتو» ملك خانات روسيا ووادي القبجاق، وأحد كبار الأمراء البارزين في أسرة جنكيز خان لم يكن يميل إلى أن يتولى عرش المغول أحد من أسرة أوكتاي[5]، ولم يحضر إلى منغوليا لحضور جلسة القوريلتاي التي نصب فيها كيوك رسمياً خاناً أعظم، وعندما تولى كيوك خان الحكم أخذ على عاتقه أن يخضع «باتو» بسبب الموقف العدائي منه بصفة خاصة ومن أسرة أوكتاي بصفة عامة، ولكنه لم يكد يصل إلى حدود سمرقند حتى وافاه الأجل المحتوم في ربيع الثاني سنة647 هـ/ 1249م، أما والدته توراكينا خاتون، فقد توفيت قبله بعدة أشهر[6].

8 ـ اختيار منكو خاناً أكبر على العرش المغولي: على إثر وفاة كيوك خان،

---

(1) المغول، للصياد، ص: 199.
(2) المصدر نفسه، ص: 200.
(3) المصدر نفسه، ص: 200.
(4) المصدر نفسه، ص: 201.
(5) المصدر نفسه، ص: 195.
(6) المصدر نفسه، ص: 195.

أراد أوكتاي وأتباعه أن يقيموا «شيرامون» إمبراطوراً للمغول، ولكن لاتخاذ هذه الخطوة، كان لابد من الحصول على موافقة الأمير «باتو» باعتباره أكبر الأمراء سناً ومقاماً، فأصبح من حقه النظر في اختيار الملوك وتنصيبهم، وعلى هذا أرسلوا إليه يطلبون أن يحضر إلى منغوليا لعقد القوريلتاي وتنصيب الخان الجديد، فرد عليهم معتذراً بعدم قدرته على السفر إلى منغوليا بسبب مرضه، وفي نفس الوقت وجه الدعوة إلى كبار الأمراء والقواد للحضور إلى القبجاق حيث يقيم، والاشتراك في القوريلتاي لانتخاب الخان، ولكن أبناء أوكتاي وجغتاي عارضوا هذا الاقتراح، وأصروا على أن يعقد القوريلتاي في المقر الأصلي لجنكيز خان جرياً على العادة المتبعة، وعلى هذا امتنعوا على الذهاب إلى القبجاق واكتفوا بأن أنابوا عنهم بعض المندوبين، وأما منكو وإخوته فقد لبوا دعوة باتو، وأسرعوا إلى القبجاق حيث عقد القوريلتاي ونودي بمنكو إمبراطوراً على المغول وتلقب بلقب «منكو قاآن» وبهذا انتقل الحكم إلى أولاد تولوي الذين يمثلون الفرع الثاني من أسرة جنكيز خان. ولكن لما لم يكن جميع الأمراء ممثلين في هذا الاجتماع، أتفق على أن يعقد القوريلتاي مرة ثانية في مطلع السنة الجديدة ويحضره الأمراء والعظماء لإقرار تنصيب «منكَو» خاناً أعظم للمغول بصفة رسمية.

وعقد القوريلتاي مرّة أخرى في شهر ذي الحجة 648هـ/ أبريل1260م في منطقة قراقورم، وذلك رغم أنف المعارضين، وفيه أعلن انتخاب منكو رسمياً. ولكن المناوئين لسياسة منكو لم يخضعوا لهذا القرار، وحاولوا تدبير مؤامرة لقلب نظام الحكم بالقوة، فعلم بذلك منكًو في الوقت المناسب وتمّ القبض على المتآمرين قبل تنفيذ خططهم، ولما حقق معهم اعترفوا بجرمهم، وكان منكو قآن ينوي الصفح عنهم إلا أن الأمراء حذروه مغبة التهاون معهم، وأصروا على ضرورة الاقتصاص منهم، وأخيراً طلب مشورة محمود يلواج، فسرد إليه قصة الإسكندر وأرسطو ومؤداها أنه عندما استولى الإسكندر على أكثر ممالك العالم، أراد أن يسير نحو الهند، غير أن أمراء الدولة وأركانها خرجوا على طاعته وتخلفوا عن متابعته، وأخذ كل منهم يعلن الاستقلال والاستبداد، فعجز الإسكندر عن علاج هذه الوضع وأرسل رسولاً إلى وزيره أرسطو الذي لا نظير له، وأطلعه على عصيان أمرائه وتمردهم، وسأله عن إيجاد حل لهذه المسألة فدخل أرسطو مع الرسول إحدى الحدائق، وأمر بأن تُجتَثّ الأشجار الكبيرة من جذورها وأن تغرس شجيرات صغيرة، فقال الإسكندر: لقد أجاب، وأنت لم تفهم مقصوده، وأهلك الإسكندر ـ على الفور ـ الأمراء المستبدين، ونصب أبناءهم في أماكنهم، فاستحسن منكوقاآن هذا القول وأمر بضرب أعناق الأمراء

المعتقلين ووضع جمعاً آخر في مكانهم.[1]

أ ـ إصلاحات منكوقاآن الداخلية: اهتم منكوقاآن بالإصلاحات الداخلية والنظم الإدارية عناية كبيرة، فنجح في هذا السبيل نجاحاً منقطع النظير، وكان من أحسن الحكام الذين ساسوا المغول سياسة بارعة، ورغم حرصه على التمسك بأحكام الياسا والمحافظة على آداب المغول، فإنه نظراً لطول معاشرته للأمم المتمدنة ولكثرة اختلاطه بالمتحضرين في الأمم المغلوبة، فقد تأثر نوعاً ما وكان يكره الترف، وينكر المباذل، وليس له هواية سوى الصيد، ومن صفاته أنه كان بالغ النشاط بارعاً في تسيير الإدارة متوقد الذكاء، جندياً باسلاً وسياسياً ماهراً، وبهذه الخصال أعاد القوة والحيوية إلى ما أقامه جده جنكيز خان من نظم ووهب الإمبراطورية المغولية أساليب إدارية محكمة، وجعل منها دولة بالغة القوة[2].

ب ـ تسويته بين طوائف الإمبراطورية المغولية: كان لا يفرق بين طائفة وأخرى، وعامل المسيحيين والمسلمين والبوذيين على قدم المساواة وكفل الحرية للجميع، إذ سمح للواحد منهم بأن يناظر الآخر ويجادله في المسائل الدينية في حرية تامة، وعلى الرغم أن منكو كان يدين بعقيدة أسلافه الشامانية، فإنه كان يشهد الأعياد البوذية والمسيحية والإسلامية دون تفرقة أو تمييز، إذ سلم بوجود إله واحد يعبده كل إنسان حسبما شاء[3]، ومنكو قاآن في هذا يسير على سياسة والدته «سُرقويتي بيكي» التي أثرت فيه تأثيراً كبيراً، فمع أن هذه المرأة كانت تدين بالمسيحية، إلا أنها سلكت سلوكاً حسناً مع الرعايا المسلمين، وكانت شديدة العطف عليهم، لا سيما الأئمة ومشايخ الإسلام، إذ أغدقت عليهم الكثير من العطايا والهبات، ولم تقف عند هذا الحد بل إنها أقامت في بخارى مدرسة على نفقتها الخاصة، ووقفت عليها أوقافاً كثيرة وولت عليها شيخ الإسلام سيف الدين الباخرزي، وعينت المدرسين، ورعت شؤون الطلبة، وكانت تتصدق على الفقراء والمساكين من المسلمين، وقد استمرت على هذا النحو من فعل الخيرات إلى أن توفيت في شهر ذي الحجة سنة 649هـ[4] مارس 1251م[5].

(1) المغول، للصياد، ص: 209 جامع التواريخ 21/ 296 ـ 297.

(2) المغول، ص: 210

(3) المصدر نفسه، ص: 211.

(4) المصدر نفسه، ص: 211.

(5) المصدر نفسه، ص: 211.

جـ ـ مشروع التحالف بين المغول والمسيحيين: قابل منكوقاآن سفير لويس باحترام وأكرم وفادته وسمح له بأن يناظر العلماء البوذيين والمسلمين في حرية تامة، إلا أنه لم يعطه جواباً مقنعاً فيما يتعلق بتكوين اتحاد مع المسيحيين، بل إنه طلب إليه أن يسارع لويس مع جميع الملوك المسيحيين إلى الدخول في طاعته، وقد مكث «روبروق» خمسة أشهر في قراقوم وفي النهاية عاد إلى الشام حيث قابل لويس في مدينة عكا وقدم إليه الرسالة[1]، كان الخان المغولي الكبير لا يقبل أن يكون سيد في العالم سواه، وكانت سياسته الخارجية بالغة البساطة، إذ أن أصدقاءه يعتبرون أتباعاً له، أما أعداؤه فينبغي استئصال شأفتهم، أو إخضاعهم حتى يكونوا أتباعاً له، وكل ما استطاع «وليم روبروق» أن يحصل عليه، هو أنه استخلص وعداً صادقاً بأن يتلقى مساعدة طالما قدم أمراؤهم لبذل الولاء لسيد العالم. على أن ملك فرنسا لم يستطع التفاوض على أساس هذه الشروط وغادر «روبروق» قراقوم في أغسطس عام 1254م عائداً إلى بلاط باتو بعد أن اخترق آسيا الوسطى، ومن ثم اجتاز القوقاز وبلاد السلاجقة بالأناضول إلى أرمينية ومنها إلى عكا ولقي «روبروق» في كل مكان من الاحترام والتبجيل ما يليق برسول يقصد الخان الكبير، ومهما يكن من أمر فإن هذه الرحلة قد أمدت «وليم روبروق» بمعلومات كثيرة مفيدة عن المغول، ووصف لنا عاداتهم وطبائعهم وحياتهم الاجتماعية، وغير ذلك مما صادفه في رحلته، كما وصف جميع القبائل والجماعات التي كان يتكون منها العنصر المغولي والتي أخضعها جنكيز خان[2].

د ـ سياسة منكوقاآن الخارجية: في السنة التالية لحكم منكوقاآن، وبعد أن استقرت الأحوال الداخلية وتخلص من جميع المناوئين لسياسته، وجه عنايته نحو الغزو والفتح والعمل على توسيع رقعة الإمبراطورية، فصمم على فتح البلاد التي لم يتيسر فتحها من قبل، وقد دفعه هذا التصميم إلى تجهيز حملتين كبيرتين، نصب أخاه الأصغر «هولاكو» على رأس إحداهما وعهد إليه بالقضاء على الإسماعيلية وإخضاع الخليفة العباسي، ونصب أخاه الأوسط «قوبيلاي» على رأس الحملة الأخرى بفتح أقاليم الصين الجنوبية، واستعد منكوقاآن نفسه للسير بحملة أخرى بقصد الاستيلاء على بعض الأقاليم في هذه البلاد الفسيحة[3].

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 248، المغول، ص: 212، للصياد.

(2) تاريخ مفصل عن إيران، عباس إقبال (1/ 160).

(3) المغول، للصياد، ص: 216.

هـ ـ **وقفة للتحليل:** وصلت حدود دولة التتار في عام 639هـ من كوريا شرقاً إلى بولندا غرباً، ومن سيبيريا شمالاً إلى بحر الصين جنوباً، وهو اتساع رهيب في وقت قياسي وأصبحت قوة التتار في ذلك الوقت هي القوة الأولى في العالم بلا منازع.

- تولى قيادة التتار بعد «أوكتاي» ابنه «كيوك بن أوكتاي»، وقد كان لهذا الخاقان الجديد الرأي في تثبيت الأقدام في البلاد المفتوحة بدلاً من إضافة بلاد جديدة قد لا يقوى التتار على حفظ النظام فيها، والسيطرة على شعوبها وجيوشها، ومن ثم فقد توقفت الفتوحات التتارية، في عهد هذا الخاقان، وإن ظل التتار يحافظون على أملاكهم الواسعة.

- ابتلع التتار في فتوحاتهم السابقة النصف الشرقي للأمة الإسلامية، وضموا معظم الأقاليم الإسلامية في آسيا إلى دولتهم وقضوا على كل مظاهر الحضارة في هذه المناطق، كما قضوا تماماً على أي نوع من المقاومة في هذه المناطق الواسعة، وظل الوضع كذلك لسنوات كثيرة لاحقة.

- ظل القسم الأوسط من العالم الإسلامي ـ والذي يبدأ من العراق إلى مصر ـ مفرقاً مشتتاً، لا يكتفي بمشاهدة الجيوش التتارية وهي تسقط معظم ممالك العالم في وقتهم، وإنما انشغل أهله بالصراعات الداخلية فيما بينهم وازداد تفككهم بصورة كبيرة، كذلك كان القسم الغربي من العالم الإسلامي الذي يضم ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وغربي أفريقيا مفككاً تماماً.

- ذاق الأوروبيون النصارى من ويلات التتار وذبح منهم مئات الآلاف، ودمرت كنائسهم وأحرقت مدنهم، بل هددوا تهديداً حقيقياً أن يصل التتار إلى عقر دار الكاثوليكية النصرانية في روما.

- ومع أن النصارى رؤوا أفعال التتار إلا أن ملوك النصارى في أوروبا الغربية (فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وألمانيا) كانوا يرون أن هذه مرحلة مؤقتة سوف تقف عند فترة من الفترات.. ولذلك كان ملوك الصليبيين على استعداد كامل للتعاون مع التتار[1] ضد المسلمين.

---

(1) قصة التتار، ص: 93.

- أخذت عقائد الجيش التتاري في التغير بعد الحملات التي وجهوها إلى أوربا، فقد تزوج عدد كبير من قادة المغول من فتيات نصرانيات، وبذلك بدأت الديانة النصرانية تتغلغل نسبياً في البلاط المغولي، وهذا ساعد أكثر على إمكانية التعاون بين التتار والصليبيين.
- استمرت الحروب الصليبية الأوروبية على المسلمين في مصر والشام، وكانت مصر والشام في ذلك الوقت تحت حكم الأيوبيين، ولكن كانت هذه هي آخر أيام الأيوبيين، وقد دار الصراع بينهم وبين بعضهم، وأصبح المسلمون بين شقي الرحى: بين التتار من ناحية والصليبيين من ناحية أخرى، ولم يمتنع المسلمون من الصراع فيما بينهم.
- في سنة 640هـ توفي المستنصر بالله الخليفة العباسي، وتولى الخلافة ابنه «المستعصم بالله» وكان يبلغ من العمر آنذاك ثلاثين عاماً، وهو وإن كان قد اشتهر بكثرة تلاوة القرآن وبالنظر في التفسير والفقه، وكثرة أعمال الخير، إلا أنه لم يكن يفقه كثيراً في السياسة، ولم يكن له علم بالرجال، فاتخذ بطانة فاسدة، وازداد ضعف الخلافة عما كانت عليه، وسنأتي بإذن الله تعالى بذكره بالتفصيل.
- لم يبق فاصل بين المغول والخلافة العباسية في العراق إلا شريط ضيق في غرب إقليم فارس (غرب إيران الآن)، وهو على قدر من الأهمية وإن كان ضيقاً، إذ كانت تعيش فيه طائفة الإسماعيلية الشيعية الخطرة، وكانوا أهل حرب وقتال، ولهم قلاع وحصون، فضلاً عن طبيعة المكان الجبلية، وكانوا على خلاف دائم مع المذهب السني وكراهية شديدة له، وكانوا يتعاونون مع أعداء الإسلام كثيراً، فمرة يراسلون التتار ومرة الصليبيين، وكان المغول يدركون وجودهم، ومع ذلك فهم لا يطمئنون لهم، وما كانوا يرغبون في بقاء قوة ذات قيمة في أي مكان على ظهر الأرض[1].

رابعاً: هولاكو والقضاء على الإسماعيلية: لم يكن أمام المغول بعد استيلائهم على أملاك الدولة الخوارزمية أي قوة تستطيع اعتراض طريقهم نحو الغرب، وكان الحكام المسلمون يعرفون تمام المعرفة أهمية الدولة الخوارزمية، كحاجز قوي بينهم

(1) قصة التتار، د. راغب السرجاني، ص: 94.

وبين المغول، وعلى كلٍّ فقد حرص منكو خان على إعداد حملة هولاكو إعداداً محكماً يكفل لها النجاح، فقد أرسل المرشدين ليختبروا الطريق الذي سوف تمر منه عساكر هولاكو من قراقورم حتى شاطئ نهر جيحون، فأقاموا الجسور على الأنهار العميقة، وعلى مجاري المياه السريعة(1). ثم رسم لأخيه الخطة التي كان عليه أن يتبعها حيث قال له: إنك الآن على رأس جيش كبير وقوات لا حصر لها، فينبغي أن تسير من توران إلى إيران، وحافظ على تقاليد جنكيز خان وقوانينه في الكليات والجزيئات، وخص كل من يطيع أوامرك ويتجنب نواهيك في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصي بلاد مصر بلطفك وبأنواع عطفك وإنعامك، أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل ما يتعلق به، وابدأ بإقليم قهستان في خراسان، فخرب القلاع والحصون، فإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة، فلا تتعرض له مطلقاً، أما إذا تكبر وعصى فألحقه بالآخرين من الهالكين، كذلك ينبغي أن تجعل رائدك في جميع الأمور العقل الحكيم والرأي السديد، وأن تكون في جميع الأحوال يقظاً عاقلاً، وأن تخفف عن الرعية التكاليف والمؤن، وأن ترفه عنهم، وأما الولاية الخربة، فعليك أن تعيد تعميرها في الحال، وثق أنك بقوة الله العظيم سوف تفتح ممالك الأعداء، حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتي عديدة، وشاور دقوز خاتون في جميع القضايا والشؤون(2).

وخرج هولاكو على رأس جيشه من قراقورم عاصمة المغول في سنة 651هـ/ 1253م وفي طريقه لقي مساعدة كاملة من أمراء المغول الذين أعدوا له المأكل والمشرب في جميع المراحل، وحرصوا على أن ينظفوا الطريق التي تقرر أن يسلكها جيش هولاكو من الحجارة والأشواك، كما أعدوا السفن له لعبور الأنهار الكبيرة، كما قام الأمراء والنبلاء في تلك النواحي بحشد أعداد كبيرة من الجند للانضمام إلى جيش هولاكو(3)، وفي شهر شعبان سنة 653هـ/ 1255م وصل جيش هولاكو إلى سمرقند، وأمضى بها أربعين يوماً ثم توجه إلى مدينة كش، وهناك وصله كافة الأمراء والأكابر في خراسان وقدموا خضوعهم وهداياهم له، وأقام بهذه المدينة قرابة شهر وجه خلالها عدة رسائل إلى الملوك والسلاطين في البلاد المجاورة طلب منهم معاونته في تحطيم قلاع الإسماعيلية والقضاء عليهم، وفي مقابل ذلك تعهد لهم بأن يبقيهم على ولايتهم ولا

---

(1) جامع التواريخ(1/ 235) جهاد المماليك ضد المغول، ص: 46.

(2) جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين، ص: 47.

(3) المصدر نفسه، ص: 47.

يتعرض لهم بسوء، وهددهم بأن امتناعهم عن مساعدته يجرهم إلى الهلاك وأنه سينزل بهم ما ينزل بالإسماعيلية[1].

1 ـ نشأة قلاع الإسماعيلية: حرص الفاطميون على نشر دعوتهم الإسماعيلية في أرجاء الدولة الإسلامية، ولقيت دعوتهم نجاحاً في فارس والعراق، وازداد نفوذ الإسماعيلية في عصر السلطان السلجوقي ملكشاه، حتى استولوا على أصبهان، ونشروا فيها دعوتهم في عهد زعيمهم أحمد بن عبد الملك بن عطاش، ومن تلاميذه الحسن بن الصباح من أصل يمني، نزح أبوه إلى الكوفة، ثم إلى قم، ومن قم، إلى الري، حيث ولد الحسن وعرف أصول الدعوة من عبد الملك بن عطاش ـ داعية المذهب في العراق ـ ومن سنة 471هـ وصل إلى مصر، بعد رحلة مليئة بالأخطار هدفه مقابلة المستنصر ـ الإمام الفاطمي ـ وبقي في مصر أكثر من سنة، لم يحظ خلالها بمقابلة الإمام، وغادر مصر في سفينة مع جماعة من الفرنجة، وأدى هياج البحر إلى اتجاه السفينة إلى حلب، ومنها عاد إلى أصفهان، ومنها إلى قلعة آلموت، وطارده نظام الملك الوزير السلجوقي الكبير مؤسس المدارس النظامية التي تحدثنا عنها في كتابنا السلاجقة، وتمكن أنصاره من السيطرة على آلموت ـ أي عش العقاب ـ واستولى على القلعة سنة 483هـ[2]، ولما استقر الحسن الصباح في آلموت أرسل الدعاة إلى الأطراف، وكان الحسن الصباح يدعو إلى نزار بن الخليفة المستنصر، لأن المستنصر قد خلع ابنه الأكبر نزار من ولاية العهد، وأسندها إلى ابنه المستعلي، ورفض الحسن الصباح خلع الابن الأكبر نزار، لأن ذلك يتنافى مع عقائد المذهب الإسماعيلي، الذي يعطي ولاية العهد للابن الأكبر، وكان الحسن الصباح في مصر أثناء خلع المستنصر للابن الأكبر نزار، ولما رفض هذا الإجراء سجن في مصر، ثم غادرها، ودعا إلى نزار في البلاد التي سيطر عليها[3]، وعمل الحسن ابن الصباح على توسيع رقعة دولته بعد وفاة السلطان ملكشاه، وكانت دولة الحسن الصباح على العقيدة الإسماعيلية الشيعية متطرفة في العقيدة، وانحرفوا عن الإسلام الصحيح، وللرد على مزاعم الإسماعيلية الباطنية ألف أبو حامد الغزالي كتابه الموسوم بفضائح الباطنية داحضاً لادعاءاتهم[4]، وقد فصلت الحديث عنه في كتابي عن السلاجقة.

---

(1) جامع التواريخ(1/ 240) جهاد المماليك ضد المغول، ص: 47.
(2) الدول المستقلة في المشرق، ص: 191.
(3) تاريخ مصر، ابن ميسر، ص: 26 وما بعدها.
(4) دولة السلاجقة، للصلابي، ص: 130.

2 ـ **اقتلاع جذور الدولة الإسماعيلية:** في ذي الحجة سنة 653هـ / يناير 1256م، أصدر هولاكو أوامره بتوقف جميع السفن والزوارق، وإقامة جسر على نهر جيحون، حيث عبرت قواته النهر متوجهة إلى قلاع الإسماعيلية، ونزل في مرعى شبورقان بالقرب من مدينة بلخ وأمضى هولاكو الشتاء هناك[1]، ثم وصل هولاكو بعد ذلك على رأس الجيش الرئيس إلى قلاع الإسماعيلية الحصينة، واستطاع بالحيلة تارة، وبالقوة تارة أخرى أن يستولى عليها الواحدة تلو الأخرى، حتى انتهى من آخر قلاعهم قلعة آلموت في أواخر سنة 654هـ/ 1257م حيث لم يستطع زعيم الإسماعيلية ركن الدين خوارزمشاه مقاومة هولاكو، فاستسلم له وقبَّل الأرض أمامه، وبذلك تمكن المغول من الاستيلاء على كل قلاع الإسماعيلية التي بلغ عددها نحو المائة، والتي اتخذها هؤلاء الإسماعيليون أوكاراً لهم سنين طويلة، ولم يكتف هولاكو بالاستيلاء على قلاع الإسماعيلية في تلك المناطق، بل طلب من ركن الدين خوارزمشاه تسليم جميع قلاع الإسماعيلية في بلاد الشام، فاستجاب له وراسل مندوبين من قبله إلى بلاد الشام ومعهم رسل هولاكو لدعوة الناس هناك إلى التسليم عندما تصل إليهم الرايات المغولية[2].

خامساً: تحرك الجيوش المغولية نحو بغداد: بعد أن قضى هولاكو على طائفة الإسماعيلية، سار لتحقيق هدفه الثاني، الذي رسمه له أخوه منكو خان، وهو الاستيلاء على بغداد، والقضاء على الخلافة العباسية، التي أدركتها الشيخوخة وظهرت عليها مظاهر الضعف والانهيار، والواقع أن جذور الضعف والتفكك قد امتدت إلى جسم الخلافة العباسية قبل مجيء المغول بمدة طويلة بسبب عوامل كثيرة ذكرنا بعضها في ما مضى، وسنذكر البعض الآخر بإذن الله تعالى. لقد تفككت الروابط القوية التي كانت تربط الخلافة العباسية بمختلف الأمصار الإسلامية، حيث نشأت دول عديدة وإمارات مستقلة في قلب الخلافة العباسية وأطرافها، وعندما بدأ المغول زحفهم على الممالك الإسلامية في الشرق كان الخليفة العباسي في ذلك الوقت هو المستعصم بالله(640/ 1242م ـ 656هـ/ 1258م)[3].

1 ـ **سير الحملة إلى بغداد:** بعد أن حقق هولاكو خان هدفه الأول، وهو القضاء على طائفة الإسماعيلية، سار لتحقيق هدفه الثاني وهو القضاء على الخلافة العباسية،

---

(1) جهاد المماليك، للغامدي، ص: 48، نقلاً عن: جامع التواريخ.

(2) المصدر نفسه، ص: 49.

(3) جهاد المماليك، ص: 50.

لي؟ إنني حينما أشير بجمع الشتات سأبدأ بحسم الأمور في إيران ثم أتوجه منها إلى بلاد توران، وأضع كل شخص في موضعه، وعندئذ سيصير وجه الأرض مملوءاً بالقلق والاضطراب، غير أني لا أريد الحقد والخصام ولا أن أشتري ضرر الناس وإيذائهم، كما أنني لا أبغي من وراء تردد الجيوش أن تلهج ألسنة الرعية بالمدح أو القدح، خصوصاً وأنني مع الخاقان هولاكو خان قلب واحد ولسان واحد، وإذا كنت مثلي تزرع بذور المحبة فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم، فاسلك طريق الود وعد إلى خراسان، وإن كنت تريد الحرب والقتال، فلا تتوان لحظة ولا تعتذر، إذا استقر رأيك على الحرب، إن لي ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجالة وهم متأهبون للقتال، وإنهم ليثيرون الغبار من ماء البحر وقت الحرب والطعان[1].

وصل رسل الخليفة إلى هولاكو، فلما اطلع هذا على رسالة الخليفة، وعلم بما لحق رسله من أذى العامة في بغداد، غضب غضباً شديداً، وأعاد رسل المستعصم، وحملهم رسالة أخرى تتضمن إنذاراً نهائياً له، صيغ في لهجة شديدة عنيفة، إذ يقول: لقد فتنك حب الجاه والمال، والعجب والغرور بالدولة الفانية، بحيث أنه لم يعد يؤثر فيك نصح الناصحين بالخير، وإن في أذنيك وقراً فلا تسمع نصح المشفقين، ولقد انحرفت عن طريق آبائك وأجدادك، وإذن فعليك أن تكون مستعداً للحرب والقتال فإني متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد، ولو جرى سيل الفلك على شاكلة أخرى فتلك هي مشيئة الله العظيم[2]. وقبل أن يقدم هولاكو على غزو بغداد، استشار المنجمين، فيما يتعلق بأحكام النجوم وطوالع السعد والنحس، أما الفلكي حسام الدين الذي جاء برفقة هولاكو من قبل خان المغول الأعظم «منكوقاآن» فقد كان سنياً يعطف على الخليفة العباسي ويحرص على أن يمنع هولاكو من الإقدام على غزو بغداد، فراح يؤكد له أن هذه الحملة تحدث خللاً في نظام الكون، فضلاً على أنها سوف تكون وبالاً على الخان نفسه، فكان مما قاله له: الحقيقة أن كل ملكٍ تجاسر ـ حتى هذه اللحظة ـ على قصد الخلافة والزحف بالجيش على بغداد لم يبق له العرش ولا الحياة، وإذا أبى الملك أن يستمع إلى نصائحي، وتمسك بمشروعه فسينتج عنه ستة مصائب كبيرة:

ـ تموت الخيول كلها، ويمرض الجنود.

ـ لن تطلع الشمس.

(1) وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي، محمد ماهر حمادة، ص: 347.

(2) جامع التواريخ، نقلاً عن: المغول، للصياد، ص: 256.

- لن ينمو النبات في الأرض.
- لن ينزل المطر.
- تهب رياح شديدة، ويعاني العالم من الزلازل.
- يموت الخان الأعظم في هذا العام[1].

وأما الأمراء فقد قالوا: إن الذهاب إلى بغداد هو عين المصلحة، وبعد ذلك استدعى هولاكو خان «نصير الدين الطوسي» لاستشارته، ولما كان يكره الخليفة، ويعمل على إسقاطه، فقد نقض كل ما قاله حسام الدين، وطمأن هولاكو بأنه لا توجد موانع تحول دون إقدامه على الغزو، ولم يقف عند هذا الحد، بل أخذ يؤيد وجهة نظره بالحجج القوية التي تكذب نبوءة حسام الدين، فذكر أن الكثيرين من أصحاب الرسول ﷺ ماتوا في الدفاع عن الدين، ومع ذلك لم تقع أية كارثة، وإذا قيل أن ذلك خاص ببني العباس، فإن الكثير من الناس قد خرجوا على هذه الأسرة وقتلوا منهم بعض الخلفاء، دون أن يحدث أي خلل، وأخذ نصير الطوسي يتمثل بطاهر بن الحسين قائد المأمون الذي قتل محمد الأمين، وبالأمراء الذين قتلوا المتوكل والمنتصر والمعتز وغيرهم[2].

2 ـ **حصار بغداد:** وعلى إثر ذلك أصدر هولاكو أمره بأن تتحرك جيوش المغول من أطراف بلاد الروم عن طريق إربل والموصل متجهة نحو بغداد لتحاصرها من الجهة الغربية، وتنتظر حتى تصل إليهم جيوش هولاكو من الناحية الشرقية، أما كيتوبوقا أحسن قواد هولاكو فقد اتجه بالجناح الأيسر إلى العاصمة العباسية عن طريق لورستان، وخوزستان، كما أنفذ إليها بعض أمراء المغول عن طريق كروستان الحالية، وفي أوائل المحرم سنة 625هـ/ 1257م نزل هولاكو من همذان إلى دجلة عن طريق كرمانشاه وحلوان، وكان معه في تلك الغزوة الأمير أرغون والخواجة نصير الدين الطوسي والوزير سيف الدين البينكجي[3]، وعلاء الدين عطاء الجويني، وقد استطاع هولاكو أن يستميل إلى جانبه سكان الأماكن الجبلية المتاخمة للعراق بواسطة الأموال التي كان يبذلها لهم، كما استطاع أن يضم إليه الكثير من جنود سليمان شاه[4]. وكان بدر الدين

(1) المغول، ص: 259.
(2) المصدر نفسه، ص: 260.
(3) المصدر نفسه، ص: 260.
(4) المصدر نفسه، ص: 261.

لؤلؤ صاحب الموصل، والأتابك أبو بكر في إقليم فارس ممن أمدوا هولاكو بالمال والرجال، ولما انتهى حشد القوات المغولية وأقام هولاكو معسكره في ظاهر بغداد من الرق، حاول الجيش الذي أعده الخليفة بقيادة مجاهد الدين آيبك الدويدار الصغير أن يحول دون استقرار المغول في أماكنهم، فكان نصيبه الهزيمة المنكرة، وقتل عدد كبير من الجنود لقوا حتفهم على يد المغول، فلم يسع مجاهد الدين إلا الحرب مع قليل من أتباعه، وفي يوم الثلاثاء 22 من المحرم 656هـ/ 1258م أحكم الحصار حول مدينة بغداد، واستمر حتى نهاية هذا الشهر، وفي خلال تلك الفترة كان المغول يطلقون يد التخريب في المدينة، ويفتحون الأبراج حتى استولوا بهجماتهم على القسم الشرقي من التحصينات[1].

3 ـ **مفاوضات النهاية**: ولما رأى الخليفة حرج موقفه، أراد أن يهادن المغول ويثنيهم عن عزمهم على إتمام الفتح وذلك بإرسال الرسل والهدايا، ولكن هولاكو لم يستجب لهذا النداء[2]، ولجأ الخليفة إلى صديقه مؤيد الدين العلقمي الشيعي وسأله: ماذا يفعل؟ وأشار إليه الوزير أن يخرج لمقابلة هولاكو بنفسه لكي يجري معه مفاوضات، وذهب الرسل إلى هولاكو تخبره بقدوم الخليفة، فأمر هولاكو أن يأتي الخليفة ولكن ليس وحده، بل عليه أن يأتي معه بكبار رجال دولته، ووزرائه وفقهاء المدينة، وعلماء الإسلام، وأمراء الناس والأعيان، حتى يحضروا جميعاً المفاوضات وبذلك تصبح المفاوضات ـ كما يزعم هولاكو ـ ملزمة للجميع، وجمع الخليفة كبار قومه، وخرج بنفسه في وفد مهيب إلى خيمة هولاكو خارج الأسوار الشرقية لبغداد، خرج وقد تحجرت الدموع في عينيه، وتجمدت الدماء في عروقه، وتسارعت ضربات قلبه، وتلاحقت أنفاسه، لقد خرج الخليفة ذليلاً مهيناً، وهو الذي كان يستقبل في قصره وفود الأمراء والملوك، وكان أجداده الأقدمون يقودون الدنيا من تلك الدار التي خرج منها الخليفة الآن، وكان الوفد كبيراً يضم سبعمائة من أكابر بغداد، وكان فيهم بالطبع وزيره مؤيد الدين العلقمي، واقترب الوفد من خيمة هولاكو، ولكن قبل الدخول على زعيم التتار اعترض الوفد فرقة من الحرس الملكي التتاري، ولم يسمحوا لكل الوفد بالدخول على هولاكو بل قالوا: إن الخليفة سيدخل ومعه سبعة عشر رجلاً فقط، أما الباقون فسيخضعون ـ كما يقول الحرس ـ للتفتيش الدقيق، ودخل الخليفة ومعه رجاله

(1) المغول، للصياد، ص: 262.
(2) المصدر نفسه، ص: 262.

وحجب عنه بقية الوفد، ولكنه لم يخضعوا لتفتيش أو غيره، بل أخذوا جميعاً.. للقتل!! قتل الوفد بكامله إلا الخليفة والذين كانوا معه، قتل كبراء القوم، ووزراء الخليفة، وأعيان البلد، وأصحاب الرأي، وفقهاء وعلماء الخلافة العباسية، ولم يقتل الخليفة لأن هولاكو كان يريد استخدامه في أشياء أخرى، ويبدأ هولاكو يصدر الأوامر في عنف وتكبر واكتشف الخليفة أن وفده قد قتل بكامله وعرف أن التتار وأمثالهم لا عهد لهم ولا أمان ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة، الآية: 10]. وصدرت الأوامر من هولاكو إلى الخليفة:

أ - على الخليفة أن يصدر أوامره لأهل بغداد بإلقاء أي سلاح، والامتناع عن أي مقاومة، وقد كان ذلك أمراً سهلاً، لأن معظم سكان المدينة لا يستطيعون حمل السلاح، ولا يرغبون في ذلك أصلاً.

ب - يقيد الخليفة العباسي، ويساق إلى المدينة، يرسف في أغلاله، وذلك لكي يدل التتار على كنوز العباسيين، وعلى أماكن الذهب والفضة والتحف الثمينة وكل ما له قيمة نفيسة في قصور الخلافة وفي بيت المال[1].

جـ - يتم قتل ولدي الخليفة أمام عينيه، فقتل الولد الأكبر أحمد أبو العباس وكذلك قتل الولد الأوسط عبد الرحمن أبو الفضائل... ويتم أسر الثالث مبارك أبو المناقب، كما يتم أسر أخوات الخليفة فاطمة وخديجة ومريم.

د - أن يستدعي من بغداد بعض الرجال بعينهم وهؤلاء هم الرجال الذين ذكر ابن العلقمي أسماءهم لهولاكو، وكانوا من علماء السنة، وكان ابن العلقمي يكن لهم كراهية شديدة، وبالفعل تم استدعاؤهم جميعاً فكان الرجل منهم يخرج من بيته ومعه أولاده ونساؤه فيذهب إلى مكان خارج بغداد عينه التتار بجوار المقابر، فيذبح العالم كما تذبح الشاة، وتؤخذ نساؤه وأولاده إما للسبي أو للقتل، لقد كان الأمر مأساة بكل المقاييس وذبح على هذه الصورة أستاذ دار الخلافة الشيخ محيي الدين يوسف بن الشيخ بن الفرج بن الجوزي، وذبح أولاده الثلاثة عبد الله، عبد الرحمن، وعبد الكريم، وذبح المجاهد مجاهد الدين آيبك وزميله سليمان شاه اللذان قادا الدعوة إلى الجهاد في بغداد، وذبح شيخ الشيوخ ومؤدب الخليفة ومربيه صدر الدين علي بن النيار، ثم ذبح بعد

(1) قصة التتار، ص: 149، 150.

هؤلاء خطباء المساجد والأئمة وحملة القرآن، وكل هذا والخليفة حي يشاهد، ورأى أن هولاكو يتعامل تعاملاً ودياً مع ابن العلقمي الوزير الخائن وأدرك بوضوح العلاقة بينهما وانكشفت أمامه الحقائق بكاملها، وعلم النتائج المترتبة على توسيد الأمر لغير أهله، ولكن بعد فوات الأوان[1].

4 ـ **استباحة بغداد:** بعد أن ألقى أهل المدينة السلاح وبعد أن قتلت هذه الصفوة، وبعد أن انساب جند هولاكو إلى شوارع بغداد ومحاورها المختلفة، أصدر هولاكو أمره الشنيع باستباحة بغداد[2]، وأتوا على كل ما فيها، فخربوا المساجد بقصد الحصول على قبابها المذهبة، وهدموا القصور بعد أن سلبوا ما بها من تحف نادرة وأباحوا القتل والنهب وسفك الدماء، وكان استهتار المغول بالنفوس بالغاً حد الفظاعة، فيروى أن أحدهم دخل زقاقاً، وقتل أربعين طفلاً شفقة منه ورحمة حين علم أن أمهاتهم قتلن من قبل[3]، ويقدر المعتدلون من المؤرخين عدد القتلى بنحو ثمانمائة ألف نسمة[4]، ولم يقتصر التتار على قتل الرجال الأقوياء فقط، وإنما كانوا يقتلون الكهول والشيوخ، وكانوا يقتلون النساء إلا من استحسنوه منهن، فإنهن كانوا يأخذونها سبياً[5]، ولم يسلم إلا من اختفى في بئر أو قناة، وقد استمرت هذه الغارة أربعين يوماً، اندلعت فيها ألسنة النيران في كل جانب، فالتهمت كل ما صادفها، وأتت على الأخضر واليابس، وخربت أكثر الأبنية وجامع الخليفة، ومشهد الإمام موسى الكاظم، وقبور الخلفاء في الرصافة[6]، وعندما دخل هولاكو مدينة بغداد، قصد قصر الخلافة، وجلس في الميمنة، واحتفل مع الأمراء بذلك اليوم، وأمر بإحضار الخليفة، وقال له: أنت المضيف ونحن الضيوف فيجب عليك أن تقوم بواجب الضيافة، فصدق الخليفة قوله، وكان يرتعد فرقاً وخوفاً واستولت عليه الدهشة واعتراه الذهول، لدرجة أنه لم يعد يعرف أين وضع مفاتيح خزائنه، فأمر بكسر الأقفال، وإخراج ألفين من الثياب، وعشرة آلاف دينار، ونفائس ومرصعات، وجواهر عديدة، قدمها هدية لهولاكو خان الذي لم يعر

(1) قصة التتار، ص: 151.
(2) المصدر نفسه، ص: 151.
(3) المغول، للصياد، ص: 265.
(4) دول الإسلام الذهبي (2 ـ 123)، المغول، للصياد، ص: 265.
(5) قصة التتار، ص: 265.
(6) بغداد في عهد الخلافة العباسية، ترجمة بشير فرنسيس، ص: 292 ـ 293.

تلك الأشياء التفاتاً، ووزعها على أتباعه، ثم قال للخليفة: هذه الأموال التي تملكها على سطح الأرض أمرها واضح، وهذه تعد غنيمة، فتكون من نصيب جنودنا، والآن نريد أن تكشف لنا عن الأموال والدفائن، فما هي وأين توجد؟ عندئذ اعترف الخليفة بوجود حوض مملوء بالذهب وسط القصر، فلما حفروا ذلك المكان وجدوه مملوءاً بالذهب الإبريز، وكانت كل قطعة منه تزن مائة مثقال، ثم أمر هولاكو بأن يحصوا حرم الخليفة وحاشيته، فوجدوا سبعمائة من النساء والسرايا وألفاً من الخدم[1]، وعندما وقف الخليفة على تعداد نسائه قال في تضرع: امنحني تلك النسوة اللائي لم يكن يطلع عليهن ضوء الشمس ولا نور القمر، فأمر هولاكو بأن يختار من بينهن مائة من النسوة ممن هن من أقاربه والمحببات إليه، ثم رجع إلى معسكره ليلاً وفي الصباح كلف قائده «سونجاق» بأن يذهب إلى المدينة ليضبط أموال الخليفة ويخرجها، فجمع هذا كل ما كان الخلفاء العباسيون قد ادخروه خلال خمسة قرون[2]. وأخيراً بعد أن سفك هولاكو من الدماء ما سفك، وبعد أن خرب ما خرب، أصدر أمره بالكف عن القتل، وبأن ينصرف كل إلى عمله، يقول ابن كثير: ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، ولقد أنكر بعضهم بعضاً فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد، فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى[3].

5 ـ **مقتل الخليفة المستعصم بالله:** عامل هولاكو الخليفة معاملة سيئة للغاية، بحيث أنه حرم عليه الطعام، فلما أحس الخليفة بالجوع طلب طعاماً، فقدم له هولاكو طبقاً مملوءاً بالذهب، وأمره أن يأكل، فقال الخليفة: كيف يمكن أكل الذهب؟... فرد عليه هولاكو: إذا كنت تعرف أن الذهب لا يؤكل فلماذا احتفظت به ولم توزعه على جنودك حتى يصونوا لك ملكك الموروث من هجمات هذا الجيش المغير؟ ولم لم تحول تلك الأبواب الحديدية إلى سهام، وتسرع إلى شاطئ نهر جيحون لتحول دون عبوري؟... فأجاب الخليفة: هكذا كان تقدير الله[4]. فقال هولاكو: وما سوف يجري عليك إنما هو كذلك تقدير الله. وفي رواية أخرى: أن هولاكو عندما وجه هذه الأسئلة إلى الخليفة لزم

---

(1) تاريخ مختصر الدول، ص: 271، المغول، ص: 266.

(2) جامع التواريخ، ص: 300 ـ 302، المغول، للصياد، ص: 266.

(3) المغول، للصياد، ص: 266، البداية والنهاية (13/ 203).

(4) المغول، ص: 267، للصياد.

الصمت ولم يحر جواباً[1]. وأما عن الكيفية التي قتل بها المستعصم، فإنها لازالت مسألة يكتنفها الغموض، إذ تضاربت فيها روايات المؤرخين، ولعل أبا الفداء يمثل لنا اختلاف الروايات بخصوص قتل المستعصم تمثيلاً واضحاً حين قال: ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله، فقيل: خنق، وقيل: وضع في عدل ورفسوه حتى مات، وقيل: غرق في دجلة، ويختم عبارته بقوله: والله أعلم بحقيقة ذلك[2]، واشتهرت بين المؤرخين قتل المستعصم في غرارة ثم رفسه إلى أن مات. والسؤال المطروح: لمَ اختار هولاكو هذه الطريقة في قتل المستعصم؟ قيل في تبرير ذلك أمور منها:

أ - شق على مستشاري هولاكو خان من المسلمين أن يراق دم الخليفة وهو أمير المؤمنين وزعيمهم الديني فحذروا الخان المغولي أن يقدم على تلك الفعلة، حتى أنهم ليرون أن أحد المنجمين قال لهولاكو: إذا قتل الخليفة، فإن العالم يصير أسوداً مظلماً وتظهر علامات القيامة[3]، وفي هذه المرة أيضاً نفى نصير الدين الطوسي هذا الادعاء وأيد رأيه ببراهين عملية تثبت أن عدة خلفاء من بني العباس قتلوا ولم يحدث خلل يذكر، فلما صمم هولاكو على قتله، احترز من أن يريق دمه فقتله بالطريقة السالفة الذكر.

ب - قتل هولاكو المستعصم دون أن يريق دمه، لا خوفاً من تحذير العلماء المسلمين وإنما جرياً على عادة المغول، كما أشار إلى ذلك النويري إذ يقول: وجيء بالخليفة إلى هولاكو فأمر أن يجعل في جولق ويداس بأرجل الخيل، ففعل به ذلك حتى مات، كما ذكرناه في أخبار الدولة العباسية، ومن عادة التتار أنهم لا يسفكون دماء الملوك والأكابر غالباً[4]. ويقول ابن خلدون: وقبض على المستعصم فشدخ بالمعاول في عدل تجافياً عن سفك دمه بزعمهم[5]. كان جنكيز خان يمارس تقاليد قومه التي كانت تحرم إراقة دم زعيم أي قبيلة يجري في عروقه الدم الملكي ويستعملون طريقة خمد الأنفاس تحت ضغط أقمشة ثقيلة.

---

(1) المغول، للصياد، ، ص: 267.

(2) المختصر في أخبار البشر (3/ 203)، المغول، ص: 268.

(3) مجالس المؤمنين، ص: 400، للششتري، المغول، للصياد، ص: 269.

(4) نهاية الأرب في فنون الأدب، نقلاً عن: المغول، ص: 269.

(5) العبر وديوان المبتدأ والخبر (5/ 543).

وعلى هذا يبدو أن السبب الثاني هو الأرجح، لأن المغول حتى في دفنهم للمستعصم، جروا على سننهم وتقاليدهم، إذ دفنوه في مكان مجهول، لدرجة أن السيوطي ينقل عن الذهبي قوله: وما أظنه دفن، ويقول ابن الغوطي: أمر السلطان ـ أي هولاكو ـ بقتله، فقتل يوم الأربعاء الرابع عشر صفر ولم يهرق دمه، بل جعل في غرارة ورفس حتى مات ودفن وعفي أثر قبره[1]. والمعروف في سلاطين المغول وأمرائهم أنهم كانوا يدفنون موتاهم في موضع بعيد عن العمران، ويجعلون قبورهم من الأسرار المخفية، وهكذا ظل المغول محافظين على هذا التقليد حتى جاء السلطان غازان خان (694 ـ 703هـ) واعتنق الإسلام، فأبطل هذه العادة، وبنى لنفسه مقبرة كبيرة لتكون مقر دفنه، فكان بذلك أول سلطان من سلاطين المغول، يدفن في مقبرة ظاهرة[2].

6 ـ **الخراب الحضاري**: بعد أن أتم هولاكو وجيشه المغولي التتاري، قتل أهالي بغداد، وهدم عمرانها ومعالمها الحضارية ووسائل تلك الحضارة الإنسانية، فأمر هولاكو قادته وجيوشه بعد القتل والذبح، نهب بغداد، فعاث جند المغول والتتار فساداً في المدينة التي ما كفوا عن ضربها بالمنجنيقات إلا بعد أن رأوا أكثر مساكنها وأسواقها أصبحت ركاماً، حتى المساجد والجوامع والمدارس والمكتبات، وأشعلوا النيران فيها أيضاً، بحيث ظلت النيران تتأجج ليالي عديدة تسطع وهاجة في حلك الظلام، وقد نهب المغول كل التراث الذي امتلكه الخلفاء العباسيون وأهالي بغداد من أثاث وسجاد وأقمشة من حرير وأقطان وكتان، وقساطيط، وسروج الخيل وأفرشة وبسط، «ودام القتل والنهب أربعين يوماً»[3] وبعد هذه الأربعين يوماً من التخريب والتمزيق أصبحت بغداد في حالة من الدمار والخراب لا تصدقها العيون، حدثنا أحد العلماء الذين زاروها بعد تلك الكارثة الكبرى فقال: وافيتها بلدة خالية، وأمة بالية، ودمنة حائلة، ومحنة جائلة، وقصوراً خاوية، وعراصاً باكية، وقد رحل عنها سكانها وبات عنها قطانها، وتمزقوا في البلاد، ونزلوا بكل وادٍ، وقصورها المشيدة مهدومة، ونعماؤها مسلوبة معدومة، موحشة لفقد قطانها باكية، تسفي عليها الرياح السافية، فهل نرى لهم من باقية؟ فوقفت أبكيها، أندب ربوعها ومن كان فيها:

وأنـــدب أطـــلالـــهـــا تـــارة ... وأبـكـي عـلـى فـرقـة الـظـاعـنـيـنـا

---

(1) المغول، للصياد، ص: 270.

(2) المصدر نفسه، ص: 270.

(3) مآثر الإنافة في معالم الخلافة (2/ 91).

فلو ذهبت مقلة بالبكاء لفرط الغرام لكنا عمينا[1]

وقد استهدفت مكتبة بغداد العظيمة وهي أعظم مكتبة على وجه الأرض في ذلك الزمان، وهي الدار التي كانت تحوي عصارة فكر المسلمين في أكثر من ستمائة عام، جمعت فيها كل العلوم والآداب والفنون وعلوم شرعية كتفسير القرآن أو الحديث والفقه والعقيدة، والأخلاق ومن علوم حياتية، كالطب والفلك والهندسة والكيمياء والفيزياء والجغرافيا وعلوم الأرض، ومن علوم إنسانية كالسياسة والاقتصاد والاجتماع والأدب والتاريخ والفلسفة، وغير ذلك، هذا بالإضافة إلى ملايين الأبيات من الشعر، وعشرات الآلاف من القصص والنثر، فإن أضفت إلى كل ما سبق الترجمات المختلفة لكل العلوم الأجنبية سواء اليونانية أو الفارسية أو الهندية أو غير ذلك، علمت حجم الخسارة الحضارية التي منيت بها الإنسانية، لقد كانت مكتبة بغداد مكتبة عظيمة بكل المقاييس ولم يقترب منها في العظمة إلا مكتبة قرطبة الإسلامية في الأندلس، وسبحان الله لقد مرت مكتبة قرطبة بنفس التجربة التي مرت بها مكتبة بغداد، وعندما سقطت قرطبة في يد نصارى الأندلس سنة 636هـ قبل سقوط بغداد بعشرين سنة فقط قاموا بحرق مكتبة قرطبة تماماً، وقام بذلك أحد قساوسة النصارى بنفسه، وكان اسمه «كمبيس» وحرق ما وقعت عليه يده، من كتب بذلت فيها آلاف الأعمار وأنفق في سبيل كتابتها الكثير من المال والعرق والجهد[2].

كانت مكتبة بغداد أسسها الخليفة العباسي هارون الرشيد، والذي حكم الدولة الإسلامية من سنة 170هـ إلى سنة 193هـ، ثم ازدهرت المكتبة جداً في عهد المأمون خليفة المسلمين من سنة 198هـ إلى 218هـ، وما زال الخلفاء العباسيون بعدهم يضيفون إلى المكتبة الكتب والنفائس حتى صارت داراً للعلم، لا يتخيل كم العلم بداخلها، وقد حوت ملايين المجلدات وملايين الكتب في مكتبة واحدة في زمانٍ ليس فيه طباعة، وكانت مكتبة بغداد تشتمل على عدد ضخم من الحجرات، وقد خصصت كل مجموعة من الحجرات لكل مادة من مواد العلم، فهناك حجرات لكتب الفقه، وحجرات لكتب الطب، وأخرى لكتب الكيمياء ورابعة للبحوث السياسية، وكان في المكتبة المئات من الموظفين الذين يقومون على رعايتها ويواظبون على استمرار تجديدها، وكان هناك «النساخون» الذين ينسخون من كل كتاب أكثر من نسخة، وكان هناك «المناولون» الذين

---

(1) [illegible] 255

من كل ما هو قيم وثمين، كل ذلك لأن الغزاة يعرفون جيداً قيمة العلم في دين الإسلام، ويعرفون قيمة المسلمين إذا ارتبطوا بالعلم[1]، وبعد أن فرغ المغول من تدمير مكتبة بغداد انتقلوا إلى الديار الجميلة، وإلى المباني الأنيقة فتناولوا جلها بالتدمير والحرق، وسرقوا المحتويات الثمينة فيها، أما ما عجزوا عن حمله من المسروقات فقد أحرقوه وظلوا كذلك حتى تحولت معظم ديار المدينة إلى ركام، وإلى خراب تتصاعد منه ألسنة النار والدخان، واستمر هذا الوضع الأليم أربعين يوماً كاملة وامتلأت شوارع بغداد بتلال الجثث المتعفنة واكتست الشوارع باللون الأحمر، وخاف هولاكو على جيشه من انتشار الأوبئة المتعفنة فأصدر هولاكو بعض الأوامر الجديدة:

أ - يخرج الجيش التتاري بكامله من بغداد وينتقل إلى بلد آخر في شمال العراق، لكي لا يصاب الجيش بالأمراض والأوبئة وتترك حامية تتارية صغيرة حول بغداد، فلم يعد هناك ما يخشى منه في هذه المنطقة.

ب - يعلن في بغداد أمان حقيقي، فلا يقتل مسلم بصورة عشوائية بعد هذه الأربعين، ليقوموا بدفن موتاهم، وتنظيف المدينة من الجثث.

جـ - أصدر هولاكو قراراً بأن يعين مؤيد الدين العلقمي الشيعي رئيساً على مجلس الحكم المعين من قبل المغول على بغداد على أن توضع عليه بالطابع وصية مغولية[2].

7 - **مؤيد الدين العلقمي، حاكم بغداد:** لم يكن مؤيد الدين إلا صورة للحاكم فقط، وكانت القيادة الفعلية للمغول، وتعرض للإهانة من قبلهم لتحطيم نفسيته ولكي يصبح تابعاً ذليلاً لهم، وحصل له من الإهانة في أيامه والقلة والذلة، وزوال ستر الله، ما لا يحد ولا يوصف، رأته امرأة وهو راكب في أيام التتار برذوناً وسائق يضرب فرسه فوقفت إلى جانبه وقالت: يا بن العلقمي هكذا كان بنو العباس يعاملونك؟ فوقعت كلمتها في قلبه وانقطع في داره إلى أن مات كمداً في مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة، وله من العمر ثلاث وستون سنة، ودفن في قبور الشيعة، وقد سمع بأذنيه ورأى بعينيه من الإهانة من التتار والمسلمين ما لا يحد ولا يوصف. وتولى بعده ولده الوزارة، ثم أخذه الله إليه سريعاً، وقد هجاه بعض الشعراء فقال:

يا فِرْقة الإسلام نوحوا واندبوا   أسفاً على ما حل بالمستعصم

---

(1) قصة التتار، ص: 163.

(2) المصدر نفسه، ص: 163.

دست الوزارة كان قبل زمانه لابن الفرات فصار لابن العلقمي[1]

8 ـ حكومة هولاكو (الحكومة الإيلخانية بالعراق): بعد سقوط بغداد باشر هولاكو بتدعيم سلطته في العراق وتنظيم الإدارة فيها، فأرسل قوات عسكرية نحو الفرات الأوسط، واستقبلهم السكان في الحلة والكوفة، ونصبوا لهم جسوراً للعبور، ومن هناك انحدرت تلك الفرقة العسكرية نحو واسط، وكان فيها جمع من بقايا عسكر المماليك، فاشتبكوا معهم في قتال شديد انتهى بتصفية عساكر المماليك وقتل عدد كبير من سكان المدينة، وبعد ذلك سار عسكر المغول نحو خوزستان، وهم يتعقبون فلول المماليك الهاربين، وانتهت تلك العمليات بالقضاء على أكثرية المماليك بينما استسلم الباقون.

في تلك الأثناء أقر هولاكو أسس إدارة العراق التي تركها بيد العراقيين، إذ لم يدخل تعديلات كبيرة على إدارة البلاد عدا الإدارة العسكرية وواجبات الشرطة، التي سلم أمرها إلى علي بهادر الخراساني الذي عينه بمنصب الشحنة «ما يقابل الحاكم العسكري»، وقد أبقى هولاكو على مؤسسة الديوان وأقر فخر الدين ابن الدامغاني في منصب صاحب الديوان، وأبقى كذلك على منصب الوزارة، وأقر الوزير المستعصم مؤيد الدين بن العلقمي الأسدي في ذلك المنصب، غير أن أيام هذا الوزير لم تطل بعد تلك النكبة، إذ اعتلت صحته وغلب عليه الحزن والكآبة حتى توفي في مستهل جمادى الثانية من تلك السنة، أي بعد سقوط بغداد بثلاثة أشهر تقريباً، فخلفه في منصب الوزارة ولده عز الدين أبو الفضل، وجرى تقسيم العراق إلى خمس مناطق إدارية بدلاً من سبعة، كان يدير كل منطقة منها مسؤول بمنصب «الصدر»، كان يرتبط به عدد من النواب والنظار، وكانت المناطق كما يلي:

- الأعمال الشرقية، وكانت تشمل الخالص والبندنيجين وطريق خراسان.
- الأعمال الفراتية.
- الأعمال الكوفية والحلية.
- الأعمال البصرية والواسطية.
- أعمال دجيل والمستنصرية.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن ذلك التقسيم كان يتلاءم مع التقسيم الجغرافي للمناطق الزراعية في العراق.

(1) البداية والنهاية (17/ 380).

وعين هولاكو نجم الدين أحمد بن عمران صدراً للأعمال الشرقية، وكان من أهل باجسري[1]، وتاج الدين علي بن الدوامي صدراً للأعمال الفراتية، وكان يشغل في عهد المستعصم منصب صاحب الباب، وعز الدين بن أبي الحديد، لمنصب كاتب السلة، غير أن أيامه هو الآخر لم تطل، فقد توفي بعد فترة قصيرة، وكان كاتب السلة يرتبط بصاحب الديوان، وبحكم وظيفته يطلع على أسرار إدارة الدولة وقد اكتسبت كتابة السلة أهمية كبيرة في العهد الإيلخاني حتى صار يطلق على صاحبها «كاتب العراق» الذي كان يشغل أحياناً منصب صاحب الديوان.

وأما الوظائف الدينية فكان على رأسها منصب قاضي القضاة، فقد أحضر القاضي عبد المنعم البندنيجي عند هولاكو، فأقره عل منصب قاضي القضاة، وأما الأوقاف فإن جميع الأوقاف الإسلامية في الدولة الإيلخانية وضعت تحت إشراف نصير الدين الطوسي، وفي بغداد جرى تعيين شهاب الدين بن عبد الله صدراً للوقوف، فأشرف على ترميم جامع الخليفة الذي تعرض للحريق، وترميم مشهد الإمام الكاظم موسى بن جعفر، وعلى فتح المدارس والربط وإثبات الفقهاء والصوفية، وبعد أن أقر أسس إدارة العراق، عاد هولاكو إلى إيران، إذ أصبحت خراسان في تلك الأيام قاعدة النفوذ المغولي، ومركز دولة هولاكو الإيلخانية التي حكمت ثمانين عاماً، بينما أصبح العراق إقليماً تابعاً لتلك الدولة[2]. وكانت الدولة الإيلخانية بفارس والعراق تمتد من نهر جيحون إلى المحيط الهندي، ومن السند إلى الفرات، وبعض أراضي آسيا الصغرى، وكان حكام إيران يحملون إيلخان للدلالة على تبعيتهم للخاقان الأعظم في الصين، وتعاقب على حكم إيران الإيلخانات حتى سنة (756هـ/ 1355م)، حيث زالت دولتهم[3].

إدارة العراق في عهد الجويني: في ذي الحجة سنة (657هـ) أي بعد سقوط بغداد بسنة واحدة توفي الوزير عز الدين أبو الفضل ابن الوزير مؤيد الدين بن العلقمي الأسدي، فتولى بعده أمر الديوان في بغداد المؤرخ علاء الدين عطاء ملك الجويني، وكان من أسرة إيرانية عريقة في الآداب والإدارة، ولها مكانة مرموقة في إيران، بتعيينه

(1) العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية، ص: 138.

(2) المصدر نفسه، ص: 139.

(3) الدولة المستقلة في المشرق، ص: 205.

خرج أمر الوزارة من يد عرب العراق، إذ ارتبطت إدارته بصورة أوثق بالإدارة المركزية في إيران، كان الجويني من عمال الديوان للأمير المغولي أرغون حاكم إيران، وقد قام الجويني بعدة أسفار في بلاد المغول، واطلع بصورة مباشرة على أحوالهم وأحوال بلادهم، ودرس أحوال الأقوام التركومغولية، وتمكن من أن يجمع مادة تاريخية وفيرة كتب على أساسها بالفارسية تاريخ تلك الأقوام، وسمى ذلك الكتاب «تاريخ جهانكشاي» ـ أي تاريخ فاتح العالم ـ ويعني به جنكيز خان، وقد أصبح كتابه هذا المرجع الرئيس لتاريخ المغول، غير أن أحداث ذلك الكتاب، تقف بعد ذكر وقائع حروب هولاكو مع الإسماعيلية في بلاد الجبل إذ كان الجويني مصاحباً له في تلك الحروب، وكان الجويني ممن صاحب هولاكو في زحفه نحو بغداد(1).

9 ـ **وفود الملوك والأمراء على هولاكو:** أوقع سقوط بغداد العالم الإسلامي في فزع وذهول وحيرة، فسار حكامه المستضعفون إلى الطاغية هولاكو يقدمون له فروض الطاعة والتهنئة ويتملقونه خوفاً من بطشه واتقاء شره، فكان ممن حضر لتهنئته في مراغة في أذربيجان أتابك الموصل الهرم «بدر الدين لؤلؤ»، وأرسل أبو بكر أتابك فارس ابنه للغرض نفسه، وصل كذلك إلى معسكر هولاكو بالقرب من تبريز اثنان من سلاطين سلاجقة الروم، وهما الأخوان المتنافسان: السلطان عز الدين كيكاوسي الثاني، والسلطان ركن الدين قلج أرسلان الرابع، أما عز الدين فكان يرتجف رعباً، لأن جنوده حاولوا أن يصمدوا أمام القائد المغولي «بايجونويان» فدحرهم في «آقسرا»، فلما سقطت بغداد على يد هولاكو أحس عز الدين بحرج مركزه وخشي بطش الخان، فحاول أن يخلص نفسه من تلك الورطة بنوع مبتكر من التملق الذي حمل طابع الخضوع والذلة وذلك أنه رسم صورته على نعل زوج من الأحذية وقدمها للخان الساخط قائلاً له: عبدك يأمل أن يتفضل الملك فيشرف رأس عبده بوضع قدمه المباركة عليها(2)، فرق له قلب الطاغية هولاكو ورفعت دوقوزخاتون من قدره، وتشفعت له، فعفا عنه الإيلخان، ولا شك أن ذلك الموقف المخزي يصور لنا الحد الذي بلغه بعض الحكام المسلمين من الاستذلال والمهانة(3).

سادساً: سقوط الدولة العباسية وترجمة للخليفة المستعصم بالله: قال ابن

---

(1) العراق بين سقوط الدولة العباسية والدولة العثمانية، ص: 140، 141.

(2) المغول، للصياد، ص: 279.

(3) المصدر نفسه، ص: 279.

كثير: المستعصم بالله أمير المؤمنين، آخر خلفاء بني العباس بالعراق، وهو أبو أحمد عبد الله ابن أمير المؤمنين، المستنصر بالله أبي جعفر منصور ابن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد ابن الناصر لدين الله، أبو العباس أحمد ابن أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن ابن أمير المؤمنين المستنجد بالله أبو المظفر يوسف ابن أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد ابن أمير المؤمنين المستظهر بالله أبو العباس أحمد ابن المقتدي بأمر الله أبو القاسم عبد الله ابن الأمير الذخيرة أبو العباس أحمد ابن الأمير إسحاق ابن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر ابن المعتضد بالله أبي العباس أحمد ابن الأمير الموفق أبي أحمد طلحة ابن المتوكل على الله أبي الفضل جعفر ابن المعتصم بالله أبي إسحاق محمد ابن الرشيد أبي محمد هارون بن المهدي أبي عبد الله محمد ابن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن المطلب بن هاشم الهاشمي العباسي، مولده سنة تسع وستمائة وبويع له بالخلافة في العشرين من جمادى الأولى سنة أربعين، وكان مقتله في يوم الأربعاء الأربع عشر من صفر سنة ست وخمسين وستمائة، فيكون عمره يوم قتل سبعة وأربعين سنة، رحمه الله تعالى، وقد كان حسن الصورة جيد السيرة صحيح السريرة صحيح العقيدة، مقتدياً بأبيه المستنصر في المعدلة وكثرة الصدقات وإكرام العلماء والعباد، وقد استجاز له الحافظ بن النجار من مشايخ خراسان، منهم المؤيد الطوسي وأبو روح عبد المعز بن محمد الهَرَوِيُّ، وأبو بكر القاسم بن عبد الله بن الصَّفَّار وغيرهم، وحدَّث عنه جماعة منهم مؤدِّبه شيخ الشيوخ صدر الدين أبو الحسن علي بن محمد بن السَّيَّار، وأجازه للإمام محيي الدين بن الجوزي والشيخ نجم الدين الباذراني وحدَّثا عنه بهذه الإجازة، وقد كان رحمه الله سنياً على طريقة السلف واعتقاد الجماعة، كما كان أبوه وجدَّه ولكن كان فيه لين وعدم تيقظ ومحبة للمال وجمعه، ومن جملة ذلك أنه غلَّ الوديعة التي استودعه إياها الناصر داود بن المعَظَّم، وكانت قيمتها نحواً من مائة ألف دينار، فاستقبح هذا من مثل الخليفة،وهو مستقبح ممن هو دونه بكثير، بل من أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤدّه إليك كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران، الآية: 75].

قتلته التتار مظلوماً مضطهداً في يوم الأربعاء رابع عشر صفر من هذه السنة وله من العمر ستة وأربعون سنة وأربعة أشهر، وكانت مدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأياماً، فرحمه الله وأكرم مثواه، وبلّ بالرحمة ثراه، وقد قتل بعده ولدان، وأسر الثالث، مع بنات ثلاث من صلبه، وشغر منصب الخلافة ولم يبق في بني العباس من

سدَّ مسدَّه، فكان آخر الخلفاء من بني العباس الحاكمين بالعدل بين الناس، ومن يُرتجى منهم النوال ويُخشى منهم البأس وخُتموا بعبد الله المستعصم سبعة وثلاثين خليفة، فكان أولهم عبد الله السفاح بويع له بالخلافة وظهر ملكه وأمره في سنة سنتين وثلاثين ومائة، بعد انقضاء دولة بني أمية، وآخرهم عبد الله المستعصم وقد زال ملكه وانقضت خلافته في هذا العام أعني سنة ستٍّ وخمسين وستمائة، فجملة أيامهم خمسمائة سنة وأربعة وعشرون سنة، وزالت يدهم عن العراق والحكم بالكلية سنة وشهور في أيام البساسيري بعد الخمسين وأربعمائة ثم عادت كما كانت ولم تكن أيدي بني العباس حاكمة على جميع البلاد، كما كانت بنو أمية قاهرة لجميع البلاد والأقطار والأمصار[1].

وقد خرج عن بني العباس بلاد المغرب ملكها في أوائل الأمر بعض بني أمية ممَّن بقي معهم من ذرية عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، ثم تغلب عليه الملوك بعد دهور متطاولة، وقارن بني العباس دولة المدَّعين أنهم من الفاطميين ببلاد مصر وبعض بلاد المغرب وما هنالك، وبلاد الشام في بعض الأحيان والحرمين في أزمان طويلة[2].

واستمرت دولة الفاطميين قريباً من ثلاثمائة سنة حتى كان آخرهم العاضد الذي مات بعد ستين وخمسمائة في الدولة الصلاحية الناصرية المقدسية، وكانت عدة ملوك الفاطميين أربعة عشر ملكاً مختلفاً، ومدة ملكهم تحريراً من سنة سبع وتسعين ومائتين إلى أن توفي العاضد سنة بضع وستين وخمسمائة، والعجب أن خلافة النبوة التالية لزمان رسول الله كانت ثلاثين سنة، كما نطق بهذا الحديث الصحيح، فكان فيها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، ثم علي، ثم ابنه الحسن بن علي ستة أشهر حتى كملت بها ثلاثون، كما قررنا ذلك في دلائل النبوة، ثم كانت ملكاً، فكان أول ملوك الإسلام من بني أبي سفيان معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية ثم ابنه يزيد، ثم ابن ابنه معاوية بن يزيد ابن معاوية، وانقرض هذا البطن المفتتح بمعاوية المختتم بمعاوية، ثم ملك مروان ابن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، ثم ابنه عبد الملك، ثم الوليد بن عبد الملك، ثم أخوه سليمان، ثم ابن عمه عمر بن عبد العزيز، ثم يزيد بن عبد الملك، ثم هشام بن عبد الملك، ثم الوليد بن يزيد، ثم يزيد بن

(1) البداية والنهاية (17/ 367).
(2) البداية والنهاية، (17/ 367).

الوليد، ثم أخوه إبراهيم الناقص، وهو ابن الوليد أيضاً، ثم مروان بن محمد الملقب بالحمار، وكان آخرهم، فكان أولهم اسمه مروان وآخرهم اسمه مروان، وكان أول خلفاء بني العباس اسمه السفاح واسمه عبد الله، وكان آخرهم المستعصم واسمه عبد الله، وكذلك أول الفاطميين اسمه عبد الله المهدي وآخرهم عبد الله العاضد، وهذا اتفاق غريب جداً قل من يتنبّه له[1]. والله سبحانه أعلم.

وهذه أرجوزة لبعض الفضلاء انتظم فيها ذِكرَ جميع الخلفاء:

الحمد لله العظيم عَرْشُهُ	القاهر الفرد القويّ بطشُه
مقلِّبِ الأيام والدُّهور	وجامع الأنام للنُّشُور
ثم الصلاةُ بدوام الأبد	على النبيّ المصطفى محمد
وآله وصحبه الكِرام	السادة الأئمة الأعلام
وبعد هذا هذه أُرجوزة	نظمتها لطيفة وجيزة
نظمت فيها الراشدين الخلفا	من قام من بعد النبيّ المصطفى
ومن تلاهم وهَلُمَّ جَرًّا	جعلتها تبصرة وذكرى
ليعلم العاقلُ ذو التَّصوير	كيف جرت حوادث الأمور
وكلُّ ذي مقدرة ومُلك	معرَّضون للفَنَاء والهُلْكِ
وفي اختلاف الليل والنهار	تبصرة لكلِّ ذي اعتبار
والملك للجبار في بلاده	يورثه من يشاء من عباده
وكل مخلوق فللفناء	وكل ملك فإلى انتهاء
ولا يدوم غير ملك الباري	سبحانه من مَلِكِ القهار
منفرد بالعزِّ والبقاء	وما سواه فإلى انقضاء
أول من بُويِع بالخلافة	بعد النبي ابنُ أبي قحافة
أعني الإمامَ العادلَ الصديقا	ثم ارتضى من بعده الفاروقا
ففتح البلاد والأمصارا	واستأصلت سيُوفُه الكُفارا
وقام بالعدل قياماً يُرضِي	بذاك جبارَ السماء والأرض
ورضي الناس بذي النورين	ثم عليّ والد السِّبْطين
ثم أتت كتائب مع الحسن	كادوا بأن يُجَدِّدوا بها الفتن

(1) البداية والنهاية (17/ 368).

فأصلح الله على يديه ... كما عزا نبيُّنا إليه

وأجمع الناس على معاوية ... ونقل القصة كلُّ راوية

فمهد الملك كما يريد ... وقام فيه بعده يزيد

ثم ابنه وكان برًّا راشدا ... أعني أبا ليلى وكان زاهدا

فترك الإمرةَ لا عن غلَبَة ... ولم يكن منه إليها طلبة

وابن الزبير بالحجاز يدأب ... وفي طلب الملك وفيه ينصر

وبالشام بايعوا مروانا ... بحكم من يقول كن فكانا

ولم يدم في الملك غير عام ... وعافصته أسهم الحمام

واستوثق الملك لعبد الملك ... ونارَ نجمُ سعده في الفَلَك

وكلُّ من نازعه في الملك ... خرَّ صريعاً بسيوف الهُلْك

فقتل المُصْعَبَ بالعراق ... وسيَّر الحجاج ذي الشقاق

إلى الحجاز بسيوف النِّقم ... وابن الزبير لائذٌ بالحرم

فجاء بعد قتله بصلبه ... ولم يَخَفْ في أمره من ربه

وعندما صفت له الأمور ... تقلبت لحينه الدهور

ثم أتى من بعده الوليد ... ثم سليمان الفتى الرشيد

ثم استفاض في الورى عدل عمر ... تابع أمر ربه كما أمر

وكان يُدْعى بأسبح القوم ... وذي الصلاة والتُّقى والصوم

فجاء بالعدل وبالإحسان ... وكفَّ أهل الظلم والطُّغيان

مقتدياً بسنة الرسول ... والراشدين من ذوي العقول

فجُرِّع الإسلام كأسي فقده ... ولم يرَوا مِثْلاً له من بعده

ثم يزيد بعده هشام ... ثم الوليد فُتَّ منه الهام

ثم يزيد وهو يدعى الناقصا ... فجاءه حِمامُهُ معافِصا

ولم تَطُل مَدة إبراهيما ... وكان كل أمره سقيما

وأسند الملك إلى مروانا ... فكان من أموره ما كانا

وانقرض الملك على يديه ... وحادث الدهر سطا عليه

وقتله قد كان بالصَّعيد ... ولم تفده كثرة العديد

وكان فيه حتف آل الحكم ... واستُنزعت عنهم ضُروب النِّعم

ثم أتى ملك بني العباس ... لا زال فينا ثابتَ الأساس

وجاءت البيعة من أرض العجم ... وقلِّدت بيعتهم كلُّ الأمم

وكـل مـن نـازعـهـم مـن أمـم ... خـرّ صـريـعـاً لـلـيـديـن والـفـم
وقـد ذكـرت مـن تـولّـى مـنـهـم ... حيـن تـولـى الـقـائـم الـمـسـتـعـصـم
أولـهـم يـنـعـت بـالـسـفـاح ... وبـعـده الـمـنـصـور ذو الـنـجـاح[1]
ثـم أتـى مـن بـعـده الـمـهـدي ... يـتـلـوه مـوسـى الـهـادي الـصَّـفـيُّ
وجـاء هـارون الـرشـيـدُ بـعـده ... ثـم الأمـيـن حـيـن ذاق فـقـده
وقـام بـعـد قـتـلـه الـمـأمـون ... وبـعـده الـمـعـتـصـم الـمـكـيـن
واستخلف الواثق بعد المعتصم ... ثـم أخـوه جـعـفـر مُـوفِـي الـذِّمـم
وأخـلـص الـنـيـة فـي الـتـوكـل ... لله ذي الـعـرش الـقـديـم الأول
فـأدحـض الـبـدعـة فـي زمـانـه ... وقـامـت الـسُّـنَّـةُ فـي أوانـه
ولـم يُـبَـقِّ بـدعـة مُـضِـلَّـة ... وألـبـس الـمـعـتـزلـيَّ ذِلَّـة
فـرحـمـة الله عـلـيـه أبـداً ... مـا غـار نـجـم فـي الـسـمـاء أو بَـدا
وعندما استشهد قام المنتصر ... والـمـسـتـعـيـن بـعـده كـمـا ذُكِـر
وجـاء بـعـد مـوتـه الـمـعـتـز ... والـمـهـتـدي الـمـكـرَّمُ الأعـزُّ
وبـعـده استولى وقام المعتمد ... ومـهـد الـمـلـك وساس الـمـعـتـضـد
والمكتفي في الصحف العليا سُطر ... وبـعـده سـاس الأمـور الـمـقـتـدر
واستوثق الملك بعزّ القاهر ... وبـعـده الـراضـي أخـو الـمـفـاخـر
والمتقي من بعده والمستكفي ... ثـم الـمـطـيـع مـا بـه خُـلْـفِ
والـطـائـع الـطـائـع ثـم الـقـادرُ ... والـقـام الـزاهـد وهـو الـشـاكـر
والمقتدي من بعده المستظهر ... ثـم أتـى الـمـسـتـرشـدُ الـمـوقَّـرُ
وبـعـده الـراشـدُ ثـم الـمـقـتـفـي ... وحين مات استنجدوا بيوسف[2]
والمستضيء العادل في أفعاله ... الـصـادق الـصـدوق فـي أقـوالـه
والناصر الشهمُ الشديد الباس ... ودام طـول مُـكـثـه فـي الـنـاس
ثـم تـلاه الـظـاهـرُ الـكـريـمُ ... وعَـذْلـه كـلٌّ بـه عـلـيـم
ولـم تُـطـل أيـامـه فـي الـمـمـلـكـة ... غـيـرَ شـهـور واعـتـرتـه الـهـلـكـة
وعـهـده كـان إلـى الـمـسـتـنـصـر ... الـعـادل الـبَـرِّ الـكـريـم الـعـنـصـر
دام يـسـوسُ الـنـاس سبْع عشرة ... وأشـهـراً بـعـزمـات بـرّة

(1) البداية والنهاية (17/ 371).

(2) البداية والنهاية (17/ 372).

ثم تَوُفّي عام أربعينا وفي جمادى صادفَ المنونا
وبايع الخلائقُ المُستعصما صلّى عليه ربُّنا وسلّما
يبعثُ نُجب الرّسل من الآفاق يقضون بالبيعة والوفاق
وشرّفوا بذكره المنابرا ونشروا من جُودِهِ المفاخرا
وسار في الآفاق حسنُ سيرته وعدله الزائد في رعيته[1]

قال الشيخ عماد الدين ابن كثير: ثم قلت أنا بعد ذلك أبياتاً:

ثم ابتلاه الله بعد التتار أتباع جنكيز خان الجبَّار
صحبه ابنِ ابن له هولاكو فلم يكن من أمره فكاك
فمزقوا جنوده وشمله وقتلوه نفسه وأهله
ودمروا بغداد والبلادا وقتّلوا الأحفاد والأجدادا
وانتهبوا المال مع الحريم ولم يخافوا سطوة العظيم
وغرَّهم إنظاره وحلمه وما اقتضاه عدله وحكمه
وشغرت من بعده الخلافة ولم يؤرِّخ مثلها من آفة
ثم أقام الملك أعني الظاهرا خليفة أعني به المستنصرا
ثم وَلِي من بعد ذاك الحاكم قسيم بيبرس الإمام العالم
ثم ابنُه الخليفة المستكفي وبعض هذا للبيب يكفي
ثم وَلِي من بعده جماعة ما عندهم علم ولا بضاعة[2]
ثم خليفة الوقت المعتضد ولا يكاد الدهر مثله يَجد
في حسن خُلُق واعتقاد وجَلى كيف لا وهو من الشُّمِّ الألى
سادوا البلاد والعباد فضلاً وملئُوا الأقطار حِكَماً وعدلا
أولادِ عم المصطفى محمد وأفضل الخلق بلا تردُّدِ
صلّى عليه ذو الجلال ما دامت الأيام والليالي[3]

سابعاً: أهم أسباب سقوط الدولة العباسية: إن الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى يجلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكاً في الدنيا وهلاكاً وعذاباً في الآخرة. وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية

---

(1) البداية والنهاية (17/ 373).
(2) المصدر نفسه (17/ 373).
(3) المصدر نفسه (17/ 374).

والاقتصادية، وإن الفتن تظل تتوالى وتترى على الناس حتى تمس جميع شؤون حياتهم قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور، الآية: 63].

لقد ابتعدت الأمة الإسلامية مع حكامها في أواخر الدولة العباسية عن شرع الله وانغمست في حياة المادة وأصيبت بالقلق والحيرة والخوف والجبن، وانهارت أمام غزو المغول، وتصدعت خطوط الدفاع المقدمة، ولم تستطع أن تقف وقفة عز وشموخ واستعلاء وإذا تشجعت في معركة من المعارك ضعفت قلوبها أمام الأعداء من أثر المعاصي، وأصبحت في ضنك من العيش ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه، الآية: 124]. لقد أصيبت الأمة بحكامها وشعوبها إلا ما رحم الله في الجانب الشرقي منها في بلاد ما وراء النهر، وإيران والعراق بالتبلد وفقد الإحساس بالذات ومات ضميرها الروحي، فلا أمر بالمعروف تأمر به ولا نهي عن المنكر تنهى عنه، وأصابهم ما أصاب بني إسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝﴾ [المائدة، الآيتان: 78، 79].

فإن الأمة عندما لا تعظم شرع الله أمراً ونهياً فإنها تسقط كما سقط بنو إسرائيل، قال رسول الله ﷺ: **«كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم بعضاً، ثم ليلعنكم كما لعنهم[1]»**.

إن حكام المسلمين في بلاد ما وراء النهر وإيران والعراق تحققت فيهم سنة الله الماضية بسبب تغير النفوس من الطاعة والانقياد إلى المخالفة والتمرد على أحكام الله، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال، الآية: 53]، كما أن المجتمعات التي ترضخ تحت الحكام الذين تباعدوا عن شرع الله تذل وتهان حتى تقوم أمام من خالف أمر الله، وتطلب العون من إخوانهم في العقيدة، لإرجاع حكم الله في مجتمعاتهم، لقد كانت ممالك المسلمين في تلك الديار مليئة بالاعتداءات

(1) سنن أبي داود، كتاب الملاحم، رقم الحديث: 4670.

على الأنفس والأموال والأعراض، وتعطلت أحكام الله بينهم، ونشبت حروب وفتن وبلايا، تولدت على أثرها عداوة وبغضاء بسبب الابتعاد عن كتاب الله وسنة رسوله سهلت مهمة المغول في بخارى وسمرقند، وأفغانستان وإيران، والعراق فأصبحت شوكتهم تقوى، وحصلوا على مكاسب كبيرة، وغاب نصر الله عن ملوك تلك البلدان وحرموا من التمكين وأصبحوا في خوف وفزع من أعدائهم، وبعض المدن تبتلى بالجوع بسبب حصار المغول لهم، وكم قتل المغول من المسلمين وكم سبوا من نسائهم.

إن الابتعاد عن شرع الله تعالى، وعدم الأخذ بسنن الله في إدارة الصراع ترتب عليه انتقاص الأرض وضياع الملك، وتسلط الكفار، وتوالي المصائب.

إن من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق الدين والتاريخ أنه إذا عصي الله تعالى ممن يعرفونه سلَّط عليهم من لا يعرفونه، ولذلك سلط الله المغول على المسلمين، وعندما تحرك الفقهاء والعلماء بمصر والتفوا حول دولة سيف الدين قطز وتعاهدوا على نصرة دين الله، نصرهم على المغول في عين جالوت يأتي الحديث عنها بإذن الله مفصلاً.

إن الذنوب التي يهلك الله بها القرون ويعذب بها الأمم قسمان:

- معاندة الرسل والكفر بما جاؤوا به[1].

- كفر النعم بالبطر والأثرة، وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء، والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغنى والثروة، فهذا كله من الكفر بنعمة الله واستعمالها في غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام. والنوع الثاني من الذنوب هو الذي مارسه ملوك المسلمين وأمراؤهم وأتقنوه إتقاناً عجيباً في تلك المرحلة الحرجة من تاريخ الأمة[2].

لقد تعددت أسباب سقوط الدولة العباسية، فقد تطاول عليها الزمن وأدركتها الشيخوخة، وبدت عليها مظاهر الانهيار قبيل حملة هولاكو، وكانت جذور العنف تمتد في جسم هذه الدولة قبل ذلك بمدة طويلة لأسباب كثيرة يأتي بيانها بإذن الله تعالى من أهمها:

---

(1) تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، للصّلاّبي، ص: 142.
(2) المصدر نفسه، ص: 142.

1 ـ **غياب القيادة الحكيمة:** لم تكن شخصية الخليفة المستعصم بالله تمثل القيادة الحكيمة الراشدة، بل كان ضعيف الشخصية ولم يكن الرجل المناسب في المكان المناسب، لقلة خبرته وعدم اهتمامه بأمور دولته، ففي الوقت الذي كانت الأخبار تصل إليه تباعاً باقتراب جيوش المغول، لم يتخذ الاستعداد الكافي لمواجهتها قبل أن يستفحل خطرها(1)، لم يكن على مستوى من التيقظ والهمة، بل كان قليل المعرفة والتدبير والتيقظ، نازل الهمة، ، محباً للمال، مهملاً للأمور، يتكل فيها على غيره، ولو لم يكن فيه إلا ما فعله مع الملك الناصر داود في الوديعة لكفاه ذلك عاراً وشناراً.

فكان الضعف القيادي في شخصية المستعصم من الأسباب والمقدمات في زوال الدول العباسية، لم يحسن اختيار الوزراء، وليست له قدرة على المتابعة والمحاسبة وكان يقاد ولا يقود، وكان سلوكه هذا سبباً لجرأة بعضهم عليه واستغفاله وتحديه. فازدادت الفتن في زمانه وازداد التذمر وازداد تدهور الحياة الاقتصادية وانتشار الغلاء وسيطر اللصوص والشطار العيارون ينهبون ويسلبون أمام الشرطة وصاحبها أو بالتواطؤ معه، والخليفة لا يحاسب صاحب الشرطة ولا يحاسب الوزير الذي هيمن على جميع الأمور في البلاد وولاياتها التي انفصلت واستقلت. والوزير ابن العلقمي يمهد للانقلاب، حتى يسهل تمرير المؤامرة لإزالة السيادة الإسلامية، وإسقاط الخلافة(2).

لقد غابت القيادة الحكيمة الربانية والتي تحدث عنها المولى ﷻ في كتابه وبين صفاتها وأخلاقها لكي تعمل الأمة على إيجادها، ولكن الأمة تركت حقها في الاختيار، وتأثرت مع الزمن والوقت بمعاول هدم روح المبادرة، والمحاسبة والمتابعة والوقوف ضد أخطاء الحكام، وأصبح الخليفة محمي بقداسة وهمية صنعت لهذا المنصب مع مرور الزمن، والابتعاد عن روح الشريعة ومقاصدها الغراء، وإلا فالمعايير والصفات للقيادة الحكيمة بينها المولى عز وجل في سورة الكهف في قصة ذي القرنين وفي سيرة داود وسليمان عليهما السلام، وغيرها فقد بين المولى ﷻ من خلال الحديث عن ذي القرنين معالم التمكين عنده لكي يقتدي حكام الأمة بهذه النماذج وتحدث عن معالم التمكين والتي من أهمها:

* دستوره العادل: قال تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف، الآيتان: 87، 88].

---

(1) جهاد المماليك، ص: 351، قضايا ومواقف من التاريخ العباسي، ص: 204.
(2) بغداد مدينة السلام غزو المغول، ص: 125.

* **اهتمامه بالعلوم المادية وتوظيفها للخير:** فقد وظف عدة علوم في دولته القوية من أهمها علم الجغرافيا حيث نجد أن ذا القرنين كان على علم بتقسيمات الأرض وفجاجها وسبلها، ووديانها وجبالها وسهولها، لذلك استطاع أن يوظف هذا العلم في حركته مع جيوشه شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وكان صاحب خبرة ودراية بمختلف العلوم المتاحة في عصره يدل على ذلك، اختياره للخامات ومعرفته بخواصها، وإجادته لاستعمالها والاستفادة منها، فقد استعمل المعادن على أحسن ما خلقت له ووظف الإمكانات على خير ما أتيح له ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الكهف، الآية: 96].

* **كان واقعياً في قياسه للأمور وتدبيره لها:** فقد قدّر حجم الخطر، وقدّر ما يحتاجه إليه من علاج، وذكر القرآن الكريم أخلاقه القيادية من الصبر والمهابة والشجاعة والتوازن في شخصيته وكثرة ذكره لخالقه وعفته عن أموال الناس ورحلاته الجهادية في سبيل الله والمفاهيم الحضارية التي مارسها في حياته، ومن أراد التوسع فليراجع كتابي «فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم»[1].

هذه المعايير والمقاييس والأخلاق في اختيار الحاكم غابت عن المسلمين وتولى منصب الخلافة من ليس بأهل لها، وبالتالي ساهم ضعف الخليفة في سقوط الدولة العباسية.

2 ـ **إهمال العباسيين لفريضة الجهاد:** إن أخطر العوامل التي أسقطت خلافة العباسيين إهمالهم لفريضة الجهاد، فبعد المعتصم المتولي أمور الدولة سنة(833هـ) لم نسمع عن معارك ذات شأن قامت بها الدولة، ولم يكن مبدأ «الجهاد الدائم» حماية لهذه الدولة المترامية الأطراف أحد أركان السياسة العباسية، لقد تقوقعوا في مشاكل الدولة الداخلية، فحصرتهم مشاكلها وماتوا ببطء، ولو أنهم وجهوا طاقة الأمة نحو «الجهاد» ضد الصليبيين، لتغير أمر الحركات الهدامة التي قدر لها أن تظهر وتنتشر، وذلك أن هذه الحركات لا تنتشر إلا في جو مليء بالركود والفساد والمناخ الوحيد الصالح للقضاء عليها وهو المناخ القتالي الذي يكشف المعادن النقية، ويذيب المعدن الرخيص. لقد كانت الحاجة الإسلامية ملحة إلى ضرورة رفع راية الجهاد، وكانت الدولة الإسلامية التي تعرضت للانشقاق والتمزق تحتاج إلى هذا الصمام ليحميها من

(1) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، ص: 163 ـ 184.

جو السكوت والاستسلام، لكن العباسيين غزوا في عقر دارهم فذلوا، ولم يرفعوا راية الجهاد ضد الغزو الخارجي، فارتفعت رايات العصيان الداخلي وكان بإمكانهم أن يشغلوا الأجناس المختلفة التي ضمتها الدولة في هذه الحروب الجهادية المستمرة ضد الغزاة وضد الوثنيات المختلفة، لكنهم لم يفعلوا فتحركت النعرات القومية الجاهلية لتفتت الدولة وتقسم جسمها تحت رايات مختلفة ليس لها بالإسلام أو بالجهاد صلة، وفي سنة (656هـ 1258م) كان هولاكو ـ حفيد جنكيز خان ـ يدمر الذين اتجهوا إلى كل السبل إلا سبيل الجهاد، وحاولوا العلاج بكل الوسائل إلا الوسيلة الإسلامية الخالدة القوية، وقد هاجم هولاكو بغداد وهد أسوارها وأعمل المنجنيق فيها، وحصد بغداد، حتى لم يعد ممكناً الإقامة فيها لشدة روائحها المنفرة، وعندما خرج الخليفة المستعصم إليه مستسلماً بصحبة ثلاثمائة من أصحابه وقضاته دون شرط، أمر هولاكو بقتلهم جميعاً، وطويت صفحة الخلافة العباسية، ذلك أن أسلوب الأحلام الرومانتيكية الساذجة ليس وسيلة البقاء أو تشييد الحضارات، فالذين لا يملكون إرادة الهجوم، يفقدون القدرة على الدفاع[1]، لقد عطلت الدولة العباسية هذه الفريضة وتخلت عن أهدافها والتي من أهمها:

أ ـ إقامة حكم الله ونظام الإسلام في الأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء، الآية: ١٠٥].

ب ـ دفع عدوان الكافرين، قال تعالى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ [النساء، الآية: 74].

جـ ـ رد اعتداء الكفار في ديار المسلمين: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة، الآية: 190].

وغير ذلك من الأهداف، فكان إهمال فريضة الجهاد وعدم الاهتمام بأهدافه من أسباب زوال الدولة العباسية.

3 ـ انعدام الوحدة السياسية في العالم الإسلامي: بدأ الضعف يتسرب إلى

(1) دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، ص: 127.

جسم الدولة العباسية المترامية الأطراف في العقود الأخيرة من القرن الثاني للهجرة، الثامن الميلادي، عندما بدأت بعض الولايات البعيدة عن مركز الدولة في بغداد تنفصل مكونة دولاً مستقلة وتعجز الخلافة عن إعادتها للسيطرة المركزية، فقد تأسست دولة الأدارسة أقصى المغرب عام 172هـ ـ 800م، ثم قامت الدولة الفاطمية على أنقاض دولة الأغالبة في تونس عام 297هـ/ 909م، وفي مصر قامت الدولة الطولونية عام 254هـ/ 868م، أعقبتها الدولة الإخشيدية عام 323هـ/ 935م وفي عام 358هـ/ 969م استولى الفاطميون على مصر وجعلوا القاهرة عاصمة دولتهم، وهكذا خرج المغرب الإسلامي ومصر بشكل تدريجي من حيث الزمان والمكان عن نطاق الدولة العباسية، وظهرت خلافة جديدة تسيطر على النصف الغربي من العالم الإسلامي وتسعى للسيطرة على النصف الشرقي الذي أصابه من أصاب النصف الأول من حيث قيام الدول المستقلة، فقد قامت الدولة الظاهرية في خراسان عام 205هـ/ 820مـ وتبعتها الدولة الصفارية عام 254هـ/ 867م، ثم غلبت على المنطقة الدول السامانية التي تأسست عام 204هـ/ 819م في بلاد ما وراء النهر ثم امتد نفوذها لتشمل جميع البلاد التي كانت تتبع للدولة الصفارية، وكان نفوذ الخلافة العباسية يتحول من سلطة سياسية إدارية روحية إلى سلطة روحية فقط، ولم يبق للخليفة سوى ذكر اسمه في خطب الجمعة متبوعاً باسم السلطان الغالب على البلاد، ويعود السبب الرئيس في ضعف الخلافة العباسية وتلاشي سلطتها[1] إلى أسباب كثيرة ليس هنا مجال بحثها. وقد تمكن الأتراك في عهد المعتصم (818م ـ 227هـ)، وكانت لهم حظوة في عهده وقربهم وأسند لهم المناصب العليا في مركز الدولة والولايات، واعتمد عليهم في حراسة قصره، حتى تطاولوا على الناس وكثرت شكاوي الناس من ظلمهم في بغداد، فبنى لهم المعتصم مدينة سامراء وجعلها عاصمة لهم ومن حوله حاشيته من الأتراك، وزاد نفوذهم وصاروا وحدهم المتسلطين على أمور الخلافة والدولة، حتى أصبحوا هم الذين ينتخبون الخليفة الذي يريدون، يعزلون من لا يوافق رغباتهم وأهواءهم، وفي عام 334هـ/ 945م استولى البويهيون الشيعة على العراق وأضافوه إلى دولتهم التي تأسست قبل ذلك في فارس، وصاروا هم المتسلطين على شؤون الخلافة، وتعسفوا في معاملة الخليفة حتى أنهم عذبوا بعض الخلفاء وسجنوا بعضهم، وقتلوا البعض الآخر، وكان بإمكانهم القضاء على الخلافة العباسية والدعوة للخلافة الفاطمية في العراق وباقي المشرق الإسلامي خاصة بعد

---

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 25.

استيلاء الفاطميين على مصر، لكنهم لم يفعلوا ذلك ليس حفاظاً على الخلافة العباسية، بل حفاظاً على سلطانهم ودولتهم من أن تزول لصالح الفاطميين، الذين تمكنوا من بسط سيطرتهم على بلاد الشام وشبه جزيرة العرب، وأخذوا يبثون دعاتهم في العراق لإنهاء الخلافة العباسية وضم باقي المشرق الإسلامي لدولتهم، وفي عام 447هـ/ 1055م استغل أحد دعاتهم ضعف سلطة البويهيين وأثار فتنة في بغداد وتمكن خلالها مع مؤيديه من إلقاء القبض على الخليفة وحبسه، فاستنجد الخليفة بالسلطان طغرل بك سلطان السلاجقة الذين كانوا قد أسسوا دولتهم عام 427هـ/ 1037م في بعض مناطق خراسان، ثم توسعوا جنوباً وغرباً في أراضي الدولة البويهية التي كانت قد ضعفت، كما تقدم وسارع سلطان السلاجقة إلى استغلال الفرصة فتوجه إلى العراق وقضى على الفتنة وعلى الدولة البويهية وأعاد للخليفة اعتباره، ولكن البساسيري الذي تأثر بدعوة الفاطميين استولى على بغداد بعد أن غادرها طغرل بك 450هـ/ 1058م وأقام الدعوة فيها للخليفة الفاطمي المستنصر بالله، إلا أن طغرل بك عاد إلى بغداد من جديد وقضى على داعية الفاطميين، واستقرت الأوضاع في العراق لصالح دولة السلاجقة السنيين، الذين أظهروا قدراً كبيراً من الاحترام للخليفة، ولكنهم أبقوه رمزاً دينياً بدون قوة وصلاحيات.

وعندما اجتاح الصليبيون بلاد الشام عام 492هـ/ 1099م كانت الخلافة العباسية عاجزة تماماً عن القيام بأي رد فعل سوى توجيه الرسل إلى سلاطين السلاجقة لمعالجة الأمر[1]. وأصبحت العلاقة بين السلاجقة والخلافة العباسية بين مد وجزر إلى نهايتها ومجيء الخوارزميين كقوة جديدة اصطدمت بالخلفاء العباسيين، وقد بينا ذلك.

وفي عهد المستعصم بالله العباسي آخر خلفاء العباسيين وبالرغم من المتاعب والمحن التي أحاطت بالخلافة العباسية، فإن المصادر لم تشر إلى أية محاولة من الخليفة العباسي المستعصم بالله في الاتصال بالقوى الإسلامية وبالأخص الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر، إذ يبدو أنه كان واهماً بأن تلك القوى ستكون رهن إشارته عند الحاجة لها، يدلنا على ذلك تلك الرسالة التي رد بها الخليفة على تهديدات هولاكو، والتي ذكر فيها بأن كل القوى الإسلامية تنتظر إشارة بسيطة منه للوقوف في وجه المغول، متناسياً بأن الأيوبيين والمماليك كان لديهم من المشاكل ما يمنعهم من تقديم أي مساعدة لبغداد[2].

---

(1) دولة السلاجقة، للصلابي، ص: 559.

(2) جهاد المماليك، ص: 53، للغامدي،

4 ـ **ضعف الجيش العباسي:** في أواخر عهود الخلافة العباسية، بدأ التفكك يدب في كيان الدولة، وبدأت الولايات تنعزل أو يستغل بها ولاتها جزئياً أو كلياً، فينتبه خليفة ويهمل خليفة آخر شأن الجيش، أو ينتبه الخليفة نفسه في فترة لهذا الجيش، ويهمله في فترة أخرى. وكان آخر من سجل نقطة تحول في تجديد الحياة في الجيش العباسي، وبث الحيوية في تنظيماته هو: الخليفة المستنصر بالله أبو الخليفة المستعصم بالله، وذلك بعد أن تمزقت الدولة العباسية، وبدأت السيادة الإسلامية العباسية تفقد نفوذها وأخذ التشرذم ينتاب هذه الدولة.

ومع مجيء الخليفة المستنصر بالله رفع عدد جنوده إلى مائة ألف جندي للتمكن من صد زحف المغول المحتمل، ومحاولة ردهم عن تخوم الدولة ومقاتلتهم واستخلاص الأراضي التي بسطوا هيمنتهم عليها، لكن بطانة الخليفة المستعصم بالله، لم تلتفت إلى هذا الأمر، وتركت مهمته إلى الخليفة الذي اقتنع برأي وزيره الفارسي ابن العلقمي بإنقاص عدد الجند إلى عشرين ألف فقط، ولم تحرك بطانة الخليفة ولا أمراء الجند ساكناً في هذا الحدث المهم والكبير، بالرغم من وجود خطر داهم أصبح عاصمته همذان، وهي قاعدة الانطلاق العسكري بالرغم من نهشه المتفاوت لتخوم الدولة العباسية الضيقة الحدود، إذ كان الخليفة قد أهمل حال الجند ومنعهم أرزاقهم وأسقط أكثر من دساتير ديوان العرض فآلت أحوالهم إلى سؤال الناس وبذل وجوههم في الطلب في الأسواق والجوامع، ونظم الشعراء في ذلك الأشعار[1]، ويقول ابن كثير: وكان الوزير ابن العلقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط اسمه من الديوان، فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر بالله قريباً من مائة ألف مقاتل منهم الأمراء أو من هو كالملوك الأكابر الأكاسر، فلم يزل في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف، ثم كاتب التتر وأطمعهم في أخذ البلاد.. وأن يبيد العلماء والمفتين[2]، وكان النظام مفقوداً في جيش الخليفة، ومُنِيَ بفقدان الوحدة في قيادته،

من الفناء مع هذا الضعف المتوالي، فدخل في عصبية الدولة العباسية الفرس وأصبحوا أصحاب النفوذ ثم الأتراك، ثم البويهيون ثم السلاجقة، كما مرَّ معنا وحاول خلفاء الدولة العباسية بعد ضعف السلاجقة أن يستيقظوا من السبات الطويل، وفوجئوا بخروج سيل المغول الجارف والعصبية القائمة عليها الدولة في حالة من التردي والضعف والهوان[1].

6 ـ ضعف قيمة العهود: الوفاء بالعهد خلق إسلامي أصيل حافظ عليه المسلمون وبذلوا دونه أموالهم وأنفسهم، شهد لهم بذلك الفرس والروم والبربر وغيرهم من الأمم، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ۝﴾ [الإسراء، الآية: 34]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝﴾ [النحل، الآية: 91]، إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي شددت على وجوب الوفاء بالعهد، واعتبارها أساساً تقوم عليه الأمة الإسلامية وعلى ذلك سار الخلفاء الراشدون، ولما جاءت الدولة العباسية، وقد ظهرت على أيدي قادة الدولة حوادث متكررة تدل على أنه ليس للعهود في نظر خلفائها قيمة، فقد قتل المنصور في حياة السفاح ابن هبيرة بعد أن أمن أماناً لا شك ولا حيلة فيه، وكان الذي أشار بقتله أبو مسلم الخراساني مشيدَ الدولة العباسية، وكانوا لا يحبون أن ينفذوا أمراً دون مشورته، ثم أعاد المنصور هذه الرواية نفسها مع أبي مسلم بعد أن أمنه، ثم فعل مثل ذلك مع عمه عبد الله بن علي بعد أن أمنه، أعلن رضاه عنه ولذلك لما كاتب المنصور محمد بن عبد الله بن الحسن وقال إنه يعطيه الأمان، أجابه محمد بقوله: وأما أمانك الذي عرضت فأي الأمانات هو؟! أمان ابن هبيرة، أم أمان أبي مسلم، أم أمان عمك عبد الله بن علي؟ والسلام.

وهذه كلمة شديدة الوقع سيئة التأثير، وصمة عار في تاريخ الدولة العباسية، فهذا الذي حصل في صدر الدولة كان مجرئاً لمن أتى بعد ذلك أن يحاولوا التخلص مما تقضي به العهود إذا رأوها مخالفة لمصالحهم، ولا سيما العهود التي تعقد لتولي الخلافة، فإنهم جعلوها من الأشياء التي يسهل حلها، وإن كان بعضهم يحاول أن يلبس باطله ثوب الحق، فعل ذلك المنصور مع عيسى بن موسى الذي عقد له السفاح الخلافة بعد المنصور، فقدم عليه ابنه محمد المهدي وهذا التقديم وإن كان قد تم بطلب عيسى ورضاه، إلا أن نعرف كيف توصل المنصور إلى الحصول على هذا الرضا من الإساءات المتكررة لعيسى والتهديد المتواصل، حتى همَّ الرجل أن يخلع طاعة المنصور ويفتن

(1) الدولة العباسية، للخضري، ص: 480.

الأمة، وفي رأيي أنه لو وجد نصراء لفعل، وإن كان قد أثر عنه شعر يفيد أنه آثر مصلحة الأمة على مصلحة نفسه وهو قوله:

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما إما صغار وإما فتنة عمم

وقد هممت مراراً أن أساجلهم كأس المنية لولا الله والرحم

وفعل الأمين ذلك مع أخيه المأمون فأدى ذلك للفتنة الشعواء التي كانت بين سنة (194هـ) إلى (198هـ) قاست الأمة في أثنائها مصاعب هائلة، ولم يوجد منهم من هاب ذلك الفعل محافظة على العهود والمواثيق، ومن البديهي أن أمثال هذه العهود ليست قاصرة على المتنازعين بل تتعداهم إلى القادة والأمراء، فهؤلاء ينشقون أيضاً ويستسهلون الإقدام على فك تلك القيود التي حلفوا الأيمان الوثيقة على الوفاء بها، وكتب الرشيد أماناً ليحيى بن عبد الله وأكد فيه غاية التأكيد على الوفاء له، ولما ارتاب منه، صار يبحث في الوجوه التي يبطل بها الإيمان، وجعل فقهاء وقته الواسطة في ذلك، فمنهم من أبت عليه شيمته ودينه أن يسترسل في الدين مع الأهواء، ومنهم سارع إلى هوى الخليفة، وصار يبدي الأوجه التي ينتقص منها الأماني، كل هذا من العيوب التي شقت عصا البيت وتعدت إلى فرقة الأمة فأضعفت عصبية الدولة وآل الأمر لخلفائها إلى أن تكون قوتهم مستمدة من المتغلبين عليهم[1].

7 ـ **ضعف همم ملوك الأطراف:** في مقابل قوة هؤلاء المغول وشدة بأسهم واجتماع كلمتهم، فقد ساهم في سرعة انتشارهم وسيطرتهم على مدن العالم الإسلامي وحواضره ضعف ملوك الإسلام في تلك الفترة بعامة، وانشغالهم عن الجهاد باللغو واللعب، وهذا المؤرخ ابن الأثير ـ يرحمه الله ـ ينعي على الإسلام وأهله، ويصف أحوال ملوكه قبيل وفاته بسنتين فيقول معلقاً على أحداث سنة (628هـ) ما نصه: «فالله تعالى ينصر الإسلام والمسلمين نصراً من عنده، فما نرى في ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد، ولا في نصرة الدين، بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته، وهذا أخوف عندي من العدو، وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال، الآية: 25][2]، وليست أوضاع الخلافة العباسية ولا الخلفاء العباسيين بمعزل عن هذا الوضع المتردي، فقد انحسر سلطان الخلافة، وانكمشت حدود العباسيين، واستقل غيرهم بالسلطة في حكم أجزاء من

(1) الدولة العباسية، ص: 490.

(2) الكامل في التاريخ (12/ 497)، كيف دخل التتار بلاد المسلمين، ص: 39.

العالم الإسلامي، وهو أمر لم يكن سائغاً في ظل حكم الدولة الأموية، هذا فضلاً عن اشتغال الخلفاء العباسيين بالشهوات وجمع الأموال في أكثر الأوقات[1]. هذه الحقائق يجليها لنا ابن كثير ـ عليه رحمة الله ـ في محاولة منه لتلمس أسباب نهاية الدولة العباسية على أيدي التتار فيقول: ولم تكن أيدي بني العباس حاكمة على جميع البلاد، كما كانت بنو أمية قاهرة لجميع البلاد والأقطار والأمصار، فإنه خرج عن بنو العباس بلاد المغرب، وكذلك أخذت من أيديهم بلاد خراسان وما وراء النهر وتداولتها الملوك دولاً بعد دول، حتى لم يبق مع الخليفة منهم إلا بغداد وبعض بلاد العراق، وذلك لضعف خلافتهم واشتغالهم بالشهوات وجمع الأموال في أكثر الأوقات[2].

ويقول قطب الدين اليونيني: «.. إنما قدموه على عمه الخفاجي لما يعلمون من لينه وانقياده وضعف رأيه، ليستبدوا بالأمور، وإذا صح ما ينسب إليه «ابن العبري» من ضعف الهمة وزهده بأقطار الخلافة ـ عدا بغداد ـ فهي طامة كبرى، إذ ينسب إلى «المستعصم» قوله: إن بغداد تكفيني ولا يستكثرونها لي إذا نزلت لهم عن باقي البلاد، ولا أيضاً يهجمون عليَّ وأنا بها وهي بيتي ودار مقامي[3]، وعلى كل حال إن ضعف المستعصم معروف حتى عند «التتار» ولذا كانوا يسمونه «الأبله»، ولم يقف هذا الضعف والهوان عند حدود دول المشرق الإسلامي، أو ينتهي بضعف مركز الخليفة العباسي وضمور سلطان الخلافة العباسية، بل جاوز ذلك إلى ملوك وسلاطين المسلمين في بلاد الشام ومصر، فقد ذكر ابن كثير ـ في أحداث سنة (658هـ): ـ أن سلطان دمشق وحلب «الملك النصر بن عبد العزيز»، وملك الكرك والشوبك «الملك المغيث بن العادل» قد عزموا على قتال المصريين وأخذ مصر منهم، ومعهما الأمير ركن الدين «بيبرس البندقداري»[4]، وقبل ذلك ذكر الذهبي أن عسكر الناصر سنة (656هـ) عليهم «المغيث» صاحب الكرك ليأخذوا مصر، فالتقاهم «المظفر قطز» وهو نائب للمنصور علي ولد المعز بالرمل وأسر جماعة أمراء فضرب أعناقهم[5]، وقبل ذلك كذلك وفي سنة (642هـ) كان حصار الخوارزمية على «دمشق» في خدمة صاحب «مصر» واشتد القحط حتى التقى بهم

(1) كيف دخل التتار بلاد المسلمين، ص: 40.

(2) البداية والنهاية (13/ 195)، كيف دخل التتار بلاد المسلمين، ص: 40.

(3) تاريخ مختصر الدول، ص: 255.

(4) البداية والنهاية (13/ 207)، كيف دخل التتار، ص: 42.

(5) سير أعلام النبلاء (23/ 181)، كيف دخل التتار، ص: 43.

«الشاميون»، ومعهم عسكر من «الفرنج» بين عسقلان وغزة؛ فانهزم الجمعان وحصدت الخوارزمية الفرنج واندك صاحب «حمص» ونهبت خزائنه وبكى وقال ـ معبراً عن سر الهزيمة ـ: قد علمت بأن لا نفلح لما سرنا تحت الصلبان، قال ابن الأثير واصفاً أحوال المسلمين في هذه الفترة بشكل عام: فمن سلم من المسلمين من هاتين الطائفتين «التتار والفرنج» فالسيف بينهما مسلول والفتنة قائمة على ساق[1]، وإذا علم ذلك كله أمكن تصور سرعة انتشارهم وضعف المقاومة أمامهم، وملء الرعب في قلوب الناس من حولهم، والله غالب على أمره[2].

8 ـ **تنازلات سياسية دلت على الوهن العباسي**: بعد أن كان كل ملوك الأرض وسلاطينها يخافون أو يحترمون الخلفاء العباسيين ويهابون دولتهم، فيقدمون لهم الجزية والهدايا أو يتهادون على قدم المساواة، تعبيراً عن الود وحسن الجوار ودفعاً للمخاطر، صار الخلفاء العباسيون المتأخرون هم الذين يقدمون الهدايا والأموال المقاربة للجزية لهولاكو، ليس تعبيراً عن الود أو حسن الجوار، إنما دفعاً لشره، وخوفاً من مداهمته، وقد كان المستنصر بالله يقدم هذه الهدايا والأموال والجواري والغلمان والخيول العربية الأصيلة إلى هولاكو، كما كان الخلفاء العباسيون المتأخرون يقودون إلى أصحاب الولايات والإقطاعات التي انفصلت عن الدولة، واستقل بها أصحابها ويتجنبون إغضابهم مع حزم وحنكة الخليفة المستنصر بالله، إلا أنه مع ذلك يصانع التتار ويهاديهم، فلما ولي المستعصم بالله أشير إليه بقطع أكثر الجند، وأن مصانعة التتار وحمل المال إليهم يحصل به المقصود، ففعل ذلك[3]، وكانت مصانعة التتار بطريقة تدل على الخور والضعف وعلى سوء إدارة الوزير العلقمي وخبثه وعماية القضاء وأمراء الجند وعدم فطنتهم، وحدث تواطؤ على إسقاط الدولة بعد إيقاع الخليفة في مأزق الخوف، والخلافة أصبحت هدفاً للمغول الذين أيقنوا بضعف روح الممانعة والمدافعة والمغالبة، أمام التنازلات السياسية غير المحكمة والخالية من الدراسة والنظر الإستراتيجي والتخطيط السليم، فكان ذلك من أسباب السقوط العباسي.

9 ـ **تعدد مراكز القوى**: لم يكن زمام الأمور في بغداد مركَّزاً في يدٍ واحدة، بل كانت هناك سلطات مختلفة متعارضة كل منها يجور على السلطة الأخرى، ويتدخل في

(1) الكامل في التاريخ (12/ 361)، كيف دخل التتار، ص: 43.
(2) كيف دخل التتار، ص: 43.
(3) بغداد مدينة السلام وغزو المغول، ص: 141.

عملها، ولم تكن هناك رابطة تجمع الحكام ومن بينهم تصريف شؤون الدولة، بل كانوا متنازعين متباغضين، كل منهم ينقم على الآخر ويدبر ضده المؤامرات، ويسفه رأيه عند الخليفة، وفوق كل هؤلاء كان الخليفة مسلوب الإرادة ضعيف الشخصية، لا يستطيع أن يوقف كل واحد منهم عند حده، فترتب على ذلك أن اتسعت شقة الخلاف بين الساسة، واستحكم العداء بينهم، خصوصاً بين مؤيد الدين العلقمي وزير المستعصم وكان شيعياً، وبين مجاهد الدين أيبك الدواتدار الصغير، وكان سنياً، فقد حدث قبيل حملة هولاكو خان أن جمع الدواتدار الصغير حوله كثيراً من الرعاع والمشاغبين والسفلة، وأخذ يهدد الأمن ويضع الخطط لخلع الخليفة وإحلال آخر محله، فلما علم الوزير بتلك المؤامرة، أخبر الخليفة على الفور بما يدبر ضده وطلب إليه أن يقضي على تلك الفتنة في مهدها، ولكن الخليفة ـ جرياً على سياسة التهاون وعدم المبالاة ـ لم يصغ إلى نصيحة وزيره وأمن الدواتدار على حياته، وأمر بذكر اسمه في الخطبة بعد اسم الخليفة، ولا شك أن تصرف الخليفة على هذا النحو ليدل على سوء الحالة التي وصلت إليها الخلافة في هذا العهد، وإنها لا محالة قد أذنت بالسقوط والزوال، ومنذ وقوع هذا الحادث والوزير والدواتدار كلاهما يكيد للآخر عند الخليفة مما كان له أثره السيئ في اضطراب الأمور، وتقويض الدولة العباسية[1].

10 ـ **احتلال خطوط الدفاع الأولى**: وقع الخلفاء العباسيون في خطأ إستراتيجي كبير لما تركوا الدولة الخوارزمية تدفع الغزو المغولي وحدها، فكان من الطبيعي أن تنساب جيوش المغول نحو أملاك الدولة العباسية وتجتاح كل ما في طريقها، كان الواجب على الخلفاء العباسيين التصدي لمشاريع جنكيز خان وأولاده وأحفاده الهادفة للسيطرة على ديار المسلمين.

وهذا لم يحدث، وتركوا الدولة الخوارزمية تتآكل وتحترق أمامهم ولم يقوموا بواجبهم الجهادي والإسلامي نحو إخوانهم في العقيدة، إن صراع الأمم، وتصادم الحضارات والدول، يخضع لسنن الله الجارية في تحقيق الانتصار، ولا يعتمد على العواطف والانتساب إلى البيت النبوي الشريف، بل بالاقتداء بالرسول الكريم ﷺ في الأخذ بالسنن وإدارة الصراع مع المشاريع الغازية، وكان من المفروض أن ينتبه الخليفة العباسي المستعصم بالله ووزراؤه وكتاب ديوانه وحجابه وأمراء جنده إلى ما يحدث حولهم من محاولات هولاكو وهو يهدد ويتوعد ويسخر، خاصة بعد أن تمكن هولاكو

(1) المغول، للصياد، ص: 253.

من السيطرة واكتساح الكثير من أقاليم الخلافة العباسية وتمكن من عزلها عنها، فإذا بالخلافة تعاني من عملية تجريد الخليفة العباسي من كل حلفائه أو حماته المتاخمين لحدود العراق التي أصبحت قريبة جداً من الخطر الدائم، كما تعاني من ضعف سيطرة الخليفة على أصحاب الولايات بفعل خوفهم من هولاكو، فتفشت الخلافات بين الخلافة العباسية والولايات المتاخمة وانحازوا إلى هولاكو يصانعونه لكف شره، فكانوا يرسلون إليه الهدايا والأموال، حتى إنه في سنة (655هـ) توجه العزيز بن الملك الناصر إلى هولاكو بهدية حسنة جليلة وكان في خدمته سيف الدين إبراهيم الحاكي الحافظي[1]، لقد كان تحرك هولاكو بجيشه المغولي عسكرياً سريعاً ومنظماً ومكشوفاً، وبعد رسائل التهديد أيضاً، وكان الخليفة المستعصم مستغرقاً في قداسة البيت العباسي وأحلامه التاريخية، وورد بهذا الرد العجيب الغريب في تمجيد بني العباس، فقال: لو غاب عن الملك فله أن يسأل المطلعين على الأحوال، إذ أن كل ملك ـ حتى هذا العهد ـ قصد أسرة بني العباس ودار السلام بغداد، كانت عاقبته وخيمة، ومهما قصدهم ذوو السطوة من الملوك وأصحاب الشوكة من السلاطين، فإن أبناء هذا البيت محكم للغاية وسيبقى إلى يوم القيامة.. إلى أن قال: فليس من المصلحة أن يفكر الملك في قصد أسرة العباسيين، فاحذر عين السوء من الزمان الغادر، فاشتد غضب هولاكو خان بسبب هذا الكلام وأعاد الرسل قائلاً:

ـ اذهب واصنع من الحديد المدن والأسوار.

ـ وارفع من الفولاذ الأبراج والهياكل.

ـ واجمع جيشاً من المردة والشياطين.

ـ ثم تقدم نحوي للخصام والنزال.

ـ فسأنزل لك ولو كنت في السماء.

ـ وسأدفع بك غصباً إلى أفواه السباع[2].

كان الأحرى بالخليفة المستعصم بالله وبطانته أن يتشاوروا في الأمر لدفع هذا البلاء بأسلم الطرق وأقومها، وأقواها، والتي من أهمها دعم الخطوط الأمامية بالسلاح والرجال والعتاد لكي تقاوم المغول، ولكن المصالح الشخصية والصراعات الداخلية الدائرة والمؤامرات الخبيثة، كانت كلها تدور في فلك الجهالة السياسية التي يتمتع بها

---

(1) بغداد مدينة السلام، ص: 159.

(2) جامع التواريخ، نقلاً عن: بغداد مدينة السلام، ص: 152.

الخليفة ورجاله[1]. إن زحف هولاكو بجيوش المغول، ليس جديداً وإنما هو امتداد لعدد من السنين وهذا الامتداد الزمني ـ لا شك ـ لم يخف على الخليفة وساسة البلاد، وكانت أحداث المغول ووقائعهم بالمسلمين تجلب انتباه الغافل ويعلمها القاصي والداني، كان الحدث الجلل وهو الغزو المغولي يقتضم أجزاء الدولة ويقسمها ويمزقها شر ممزق، ولا وجود لمشروع مقاوم للغزو ويقوده الخليفة، بل الحمى مستباح نتيجة للخور والجبن والجهل السياسي والعسكري الذي تميز به الخليفة المستعصم بالله العباسي، فترك خطوط الدفاع الأولى للأمة تواجه مصيرها بدون دعم مادي و معنوي يذكر.

11 ـ دور النصارى في سقوط الدولة العباسية: كان جيش هولاكو خان في غزواته الكبرى ضد أراضي الدولة الإسماعيلية، وأراضي الخلافة العباسية والشام وفلسطين، يضم بين صفوف قواته أعداداً كبيرة من المسيحيين النسطوريين وعلى رأسهم قائده الكبير «كدبوقا نوبان»، وكان المغول يقومون بفتوحاتهم وغزواتهم لأقطار شتى من المحيط الهادي شرقاً، والهند الصينية في الجنوب الشرقي إلى الأراضي البولندية، وقلب أوروبا غرباً، ومن سيبيريا بحر البلطيق شمالاً، إلى شبه القارة الهندية وشمال الجزيرة العربية جنوباً، بدافع المكاسب المادية ولتوسيع رقعة أراضيهم في سبيل تكوين إمبراطوريتهم العالمية التي كانوا يتوقون بتلهف إلى تكوينها[2]، وكان من ضمن الجيوش الغازية لبغداد المسيحيون «الجرجانيون» الكرج حيث أسهم أولئك بكتائب عسكرية وغيرها من مؤن وعتاد حربي، وكان ذلك من ضمن الانقياد للإمبراطورية المغولية التي فرضت على أتباعها التبعية والخضوع، تحت سلطان القاآن في قراقوم والتي فرضت عليهم المساهمة في حملات أسيادهم العسكرية ضد أعدائهم[3]، وقد نال المسيحيون من سكان بغداد احترام المغول وحفظت أعراضهم وأموالهم ولم يتعرضوا لدمار المغول، بل حفظت منازلهم وحرست من قبل جنود المغول أثناء اجتياح بغداد، وقد التجأ بعض المسلمين إلى بيوت النصارى في بغداد هرباً من السيف المغولي، وقد نجا من نال الحماية المسيحية في بغداد من مذبحة المغول الفظيعة[4].

12 ـ دور الحكام المسلمين في إسقاط الدولة العباسية: عندما توجه هولاكو بجيوشه للقضاء على الإسماعيلية والدولة العباسية، كانت كتائب بعض حكام المسلمين

(1) بغداد مدينة السلام، ص: 160.
(2) سقوط الدولة العباسية، ص: 320. (3) المصدر نفسه، ص: 323.
(4) المصدر نفسه، ص: 324.

تحت لوائه، حيث تغلغلت أسباب الضعف المعنوي في نفوس أولئك الأمراء والتي منها:

- ضعف الوازع الديني عند كثير من الأمراء.
- الأنانية وحب الذات.
- الجبن والخور الذي أصاب كثيراً من الناس.
- الحرص على المصالح الدنيوية.
- ضعف عقيدة الولاء والبراء.

لقد ارتكب بعض حكام وأمراء المسلمين خيانة عظمى للأمة الإسلامية ولدينهم وعقيدتهم وذلك بالمشاركة الفعالة مع المغول في حملتهم الشنيعة على الدولة العباسية، ومن أشهر هؤلاء الحكام:

أ ـ براق حاجب وخلفاؤه: كان حاكم كرمان والأراضي التابعة لها، براق حاجب، من أول الحكام المسلمين الذين ساهموا مع المغول إبان حملتهم على بغداد، ومن المعروف أن إقليم كرمان كان جزءاً من أراضي الدولة الخوارزمية، وكان هذا الإقليم يحكمه الأمير غياث الدين ـ الابن الثاني للسلطان محمد خوارزمشاه ـ وقد استناب هذا الأمير شخصياً، براق حاجب هذا، ليقوم بإدارة شؤون الإقليم نيابة عنه.

وبعد الخلاف الذي نشب بين الأخوين، غياث الدين وأخيه الأكبر جلال الدين، هرب الأول إلى إقطاعه السابق «كرمان» حيث كان به نائبه الأول على كرمان، براق حاجب، فما كان من الأخير إلا أن قام باغتيال سيده، فقطع رأسه وأرسله إلى «القاآن» المغولي «أكتاي» في «قرا ـ قروم» وأعلن خضوعه تحت سلطان المغول، وجعل من نفسه جاسوساً يطلع أسياده الجدد بأخبار الأقطار الغربية وما كان يجري فيها من تطورات سياسية وعسكرية، تخدم غرض المغول وتوسعهم المستمر في سبيل إنشاء إمبراطوريتهم العالمية، فقد أخبرهم بنشاطات سيده السابق جلال الدين منكبرتي، وقدم لهم معلومات هامة ساهمت في القضاء على الدولة الخوارزمية، وظل براق حاجب على ولائه التام للمغول وشارك بجنوده في حملات التتار ضد ديار المسلمين، فشارك في حملة المغول ضد أراضي السلاجقة في آسيا الصغرى. وبعد وفاة براق حاجب في سنه (632هـ/ 1234م) أصبح خلفاؤه من بعده وهم ركن الدين خواجة الحق (643 ـ 650هـ) (1234 ـ 1252م) وقطب الدين محمد (650 ـ 655هـ/ 1252 ـ 1257م)، يتنافسان

فيما بينهما في تقديم الولاء والطاعة للمغول، كما أصبحا متنافسين على حكم إقليم كرمان، وأخذ كل واحد من جانبه يذهب إلى منغوليا ويعلن أنه سيكون أكثر من منافسه خضوعاً، وطاعة «للقاآن» في «قرا ـ قروم» ويطلب أن يقبله المغول نائباً لهم «على أراضي ولاية كرمان» إذا ما أنعموا عليه بحكم ذلك الإقليم[1].

وعندما وصل المغول إلى منطقة شرق إيران، في حملتهم الغربية الكبرى بقيادة هولاكو، وشرعوا في هجومهم العام الكاسح، ضد أراضي وقلاع الدولة الإسماعيلية قام قطب الدين محمد، حاكم كرمان في ذلك الوقت، بإرسال قوات خاصة من بلده لتشارك في الحرب تحت رعاية المغول، وقد كانت قوات حكومة كرمان المسلمة مع قوات «بَرْد» في القوة والكثرة بحيث كانت تكون كتيبة عسكرية مستقلة بذاتها وأصبحت تحت قيادة هولاكو، وتشارك في حربه، ضد حكومة العباسيين، والمسلمين في العراق، والجزيرة والشام[2].

ب ـ أتابك إقليم فارس: أعلن أتابك فارس خضوعه تحت السلطة المغولية، في نفس الوقت الذي خضع فيه جاره، «براق حاجب كرمان» لنفوذهم وحافظ على ولائه للمغول وكان يرسل ممثليه إلى البلاط المغولي في «قرار ـ قروم» بصفة دائمة وفي كل مناسبة، وعندما وصل هولاكو ـ على رأس حملة المغول الغربية ـ إلى إقليم ما وراء النهر، ذهب إلى هناك أتابك فارس نفسه أبو بكر (حسب رواية الجورجاني أو ابنه سعد «حسب رواية رشيد الدين» للترحيب بمقدم القائد المغولي، والبذل من نفسه ما يستطيع تقديمه للمغول في حملتهم هذه، وأرسل ـ فيما بعد ـ كتيبة عسكرية خاصة يتكون جل أعضائها من الفرسان، لتلتحق بجيش هولاكو ليس فقط ضد الإسماعيليين والخلافة العباسية، بل ليشاركوا مع المغول في حروبهم الهمجية ضد المسلمين في الجزيرة وأراضي الشام ومصر، وبعد أن أسقط المغول والمسلمون وغيرهم بقيادة هولاكو خان بغداد وأطاحوا بالدولة العباسية، قام حاكم إقليم فارس المسلم، هذا بإرسال ابنه سعد ابن أبي بكر، إلى القائد المغولي، ليهنّأه بنجاح حملته ضد الخليفة، ويتلقى أوامره التالية، ثم لكي يقوم بخدمته نيابة عن والده[3].

(1) سقوط الدولة العباسية، ص: 354.

(2) المصدر نفسه، ص: 355.

(3) المصدر نفسه، ص: 357.

جـ ـ بدر الدين لؤلؤ وأتابكية الموصل: وهو الملقب بالملك الرحيم، ملك الموصل نحواً من خمسين سنة، وهو الذي أزال الدولة الأتابكية عن الموصل ـ وهم أسياده ـ وكان فيه نزعة تشيع إذ كان يبعث في كل سنة إلى «مشهد علي» قنديلاً ذهباً زنته ألف دينار، قال ابن كثير: وهذا دليل على قلة عقله وتشيعه[1]، وأما أصله فكان أرمينياً، حتى نقل عنه الذهبي أنه كان يحتفل لعيد الشعانين لبقايا فيه من شعار أهله فيمد سماطاً عظيماً للغاية ويحضر المغاني، وتدار في غضون ذلك أواني الخمور ويتخاطف الناس ما ينثره من الذهب في ذلك اليوم، فَمُقِت لإحياء شعار النصارى وقيل فيه:

يُعظِّم أعياد النصارى محبة ويزعم أن الله عيسى ابن مريم
إذا نبهته نخوة أريحيَّة إلى المجد قالت أَرْمَنِيَّتُهُ: نم[2]

وأما عن مساهمته في دخول التتار بلاد المسلمين: فقد ذكر الحافظ ابن كثير أن جنود التتار حين نازلت بغداد سنة ست وخمسين وستمائة جاءت إليهم إمداد الموصل، يساعدونهم على البغاددة وميرته وهداياه وتحفه، وكل ذلك خوفاً على نفسه من التتار ومصانعة لهم[3]، وقال الذهبي عنه: وكان يصانع التتار وملوك الإسلام[4]، بل نقل بعض المؤرخين أن «صاحب الموصل» كان من بين المحرضين لهولاكو على قتل الخليفة العباسي، وحين انفصل هولاكو خان عن بغداد ـ بعد الوقعة الفظيعة ـ سار الملك الرحيم إلى خدمته طاعة له ومعه الهدايا والتحف، فأكرمه واحترمه ورجع من عنده فمكث بالموصل أياماً ثم مات[5]. ونقل الذهبي: أنه قلد هولاكو جوهرة يتيمة قدمها هدية له وطلب أن يضعها في إذن هولاكو، فاتكا ففرك أذنه وأدخل الحلقة في أذنه، وأن الملك الرحيم عاد إلى بلاده «الموصل» متولياً من قبل هولاكو، وقرر عليه مالاً يحمله[6]، بل زاد مستوى العلاقة بين الملك الرحيم وأسرته وبين التتار حتى بلغ المصاهرة، فقد تزوج ولده الملك الصالح إسماعيل ابنة هولاكو، لكن ذلك لم يدم طويلاً، إذ أغضب الصالح إسماعيل ابنة هولاكو وأغارها، فنازلت التتار الموصل،

(1) البداية والنهاية (13/ 203).
(2) سير أعلام النبلاء (23/ 357).
(3) البداية والنهاية (13/ 190).
(4) سير أعلام النبلاء (23/ 356).
(5) البداية والنهاية (13/ 203)، كيف دخل التتار بلاد المسلمين، ص: 52.
(6) سير أعلام النبلاء (23/ 357).

واستمر الحصار عشرة أشهر، ثم أخذت، وخرج إليهم الصالح بالأمان فغدروا به واستباحوا الموصل[1].

د ـ السلاطين السلاجقة في آسيا الصغرى: كان من جملة المسلمين الذي دخلوا تحت لواء هولاكو عند غزوه للدولة العباسية، سلاطين السلاجقة في آسيا الصغرى، وكان التنافس بين الأمراء والسلاطين السلاجقة في آسيا الصغرى، على أشده، في تقديم الخضوع والطاعة للخان المغولي، فقد كان عز الدين كيكاووس الثاني، وركن الدين قيليج أرسلان الرابع، يتنافسان حتى في الخضوع الذليل للمغول، وسلكا سبلاً شتى في إذلال النفس لتقديم فروض الطاعة المطلقة أمام السلطات المغولية ليحوزوا على رضائها، فقد ذهب ركن الدين شخصياً إلى منغوليا، وكان من جملة الحكام الذين حضروا في بلاط الخان «كويوك» للتعبير عن ولائهم ووفاهم والإخلاص المطلق لذلك الخان في منغوليا[2]، وعندما وصل هولاكو خان إلى إقليم ما وراء النهر، وهو في طريق تنفيذ حملته ضد طائفة الإسماعيليين في إيران والخليفة في العراق وأراضي الشام ومصر، ذهب ذلك المتنافسان السلجوقيان «عز الدين وركن الدين» وحضرا عنده للتعبير له عن وفائهما، وكل واحد منهما يمعن في التذلل، وأنه على أتم الاستعداد لتقديم خدمات للمغول أفضل مما يقدمه خصمه، لعله يحظى برضى الأمير القائد.

هـ ـ بعض المشاركين الآخرين: لم يكن هؤلاء الحكام المسلمون هم الوحيدين الذين شاركوا مشاركة فعَّالة في حملة المغول ضد مسلمي العراق والجزيرة والشام وفلسطين، بل كان هناك مسلمون آخرون، فرادى وجماعات من الأقطار الإسلامية قد جنَّدهم حكام المغول أو النواب الممثلين للسلطة المغولية «مسعود يلواتش» «حاكم إقليم التركستان وأراضي ما وراء النهر» «وأرقون آقا» «حاكم المغول على إقليم إيران» وقد جنَّد هؤلاء الحكام أعداداً كبيرة جداً من المسلمين لينضموا مع القوات الغازية، تحت لواء هولاكو خان. بناءً على ذلك، نجد أن أعداداً هائلة من المسلمين، التحقت بحملة المغول مثل «كديوقانويان» و«بايجونويان»، وكان نصر الدين الطوسي، والمؤرخ علاء الدين عطا ملك الجويني، والمنجم حساب الدين، يتصدرون قائمة الأعداد الكبيرة من المسلمين الذين انضوا تحت خدمة المغول، لغزو الدولة العباسية والأقطار الإسلامية

---

(1) سير أعلام النبلاء، (23/ 53).

(2) سقوط الدولة العباسية، ص: 367.

جنوب غرب آسيا، لقد ساهم أولئك المسلمون في الإطاحة بالدولة العباسية وتقوية الإمبراطورية المغولية[1].

13 ـ **إبعاد الكفاءات النادرة**: كان المستنصر بالله يعتبر من الخلفاء العباسيين الذين حاولوا بعث الدماء الحارة في جسم الخلافة، وإعادة بعض الهيبة والقوة لها، وقد تمكن من تطوير الجيش العباسي وبلغ عدد جيشه مائة ألف[2]، وكان ذا همة عالية، وشجاعة وافرة ونفس أبية، وعنده إقدام عظيم. وقصدت التتار بلاد العراق في أيامه فلقيهم عسكره وانتصف منهم وهزمهم[3].

وكان للخليفة المستنصر بالله أخ يمثل شخصيته، وتحسباً من احتمال اتباعه سيرة المستنصر بالله وقراراته، فيما إذا جاء إلى الخلافة قرر رجال الدولة من الوزراء وأمراء الجند أن يختاروا شخصاً لا يتمتع بهذه المزايا التي يتمتع بها أخو الخليفة المعروف «بالخفاجي»، لأن الخفاجي شاب فتى في عنفوان الشباب وفتوته، وحدة الذكاء وقوته، وعمق الشعور بالمسؤولية. والخفاجي يزيد على أخيه الخليفة المستنصر بالله، في الشهامة والشجاعة، وكان يقول: إن ملكني الله تعالى أمر الأمة لأعبرن بالعساكر نهر جيحون وانتزع البلاد من يد التتار وأفنيهم قتلاً وأسراً وسبياً. فلم ير الدوادار والشرابي ـ وكانا غائبين على الأمر ـ ولا بقية أرباب الدولة تقليده الخلافة خوفاً منه، ولما يعلمون من استقلاله بالأمر واستبداده بالتدمير دونهم وآثروا أن يليها المستعصم بالله لما يعلمون من لينه وانقياده ليكون الأمر إليهم، فاتفق رأي أرباب الدولة على تقليد المستعصم بالله الخلافة بعد أبيه فتقلدها واستبدوا بالتدبير[4]، وأسندوا الأمر إلى غير أهله.

14 **منافسة العلويين**: كان أول صدع صدعت به الدولة العباسية خروج محمد ابن عبد الله المعروف «بالنفس الزكية» بالمدينة، وكان كثير من أهل خراسان ينتظر قيامه. ولولا ما ظهر من شجاعة أبي جعفر المنصور ومضاء عزيمته وأخذه بالاحتياط في مصادرة موارده لزلزلت جوانب الخلافة العباسية، ولكن يقظة المنصور وحزمه قضت على محمد بن عبد الله وعلى أخيه إبراهيم الذي ثار بالبصرة، وكانت نتيجة ذلك أن اشتدت ريبة العباسيين من بني عمهم، وضيقوا عليهم وشددوا المراقبة على المعروفين

---

(1) سقوط الدولة العباسية، ص: 368 ، 369.

(2) ذيل مرآة الزمان، لليونيني، ص: 254 بغداد مدينة السلام، ص: 136.

(3) بغداد مدينة السلام، ص: 136.

(4) بغداد مدينة السلام، ص: 136.

منهم وأرهقوا الجند في استطلاع أخبارهم، فتباعد الأمر واشتدت الجفوة، واشتد تطلع العلويين إلى قلب الدولة العباسية ليخرجوا من حرج الضيق الذي نالهم وساروا كالطائر المحبوس في قفصه يحاول التخلص منه على غير هدى، كما فعل الحسين بن علي الذي ثار بمكة في مدة الهادي سنة (169هـ)، فحيل بينه وبين مراده، وقتل بفخ بالقرب من مكة، وأفلت من تلك الموقعة إدريس بن عبد الله وأخوه يحيى، فاتجه الأول غرباً ماراً بمصر ومخترقاً شمال أفريقيا حتى أتى المغرب الأقصى، فحدب عليه من به من الأمازيغ وبايعوه بالخلافة، وأسس هناك دولة الأدارسة في طرف الدولة من المغرب.

واتجه الثاني نحو المشرق وذهب إلى نواحي الديلم، إلا أن قربه من مركز الخلافة حتم عليه الفشل، وقد أظهرت حوادث هذين الأخوين أن من موالي العباسيين من هواه مع العلويين، كواضح مولى بني العباس الذي كان يريد مصر، فإنه هو الذي سهل لإدريس المرور من أرض مصر مع معرفته به، وجعفر بن يحي البرمكي الذي سهل ليحيى بن عبد الله طريق الإفلات من يد الرشيد، فكان ذلك مما دعا الرشيد إلى التشديد والتضييق على من يتهم بالميل إليهم، وجاء بموسى الكاظم بن جعفر الصادق إلى بغداد ليقيم تحت نظره.

وظهر الجرح بجنب الدولة العباسية، واجترأت أمة من الأمم الإسلامية، وهي أمة البربر بالمغرب الأقصى، أن تخرج عن طاعتهم معتقدة أنها نالت حظاً أعلى من حظ سائر الأمم الإسلامية، لأنها ظفرت برجل من آل البيت النبوي ومن أبناء ابنته. واضطر الرشيد أن يزرع لأفريقيا دولة الأغالبة ومقرها القيروان، كما يفعل من رأى حريقاً بجزء من داره يجتهد أن يفصل بين ما تناولته النار وبين سائر البيت. وهذا ما فعله الرشيد.

وجاء المأمون، فرأى خطر العلويين محدقاً بالدولة، رأى كثيراً من أبناء الدعوة ورجال الدين يميلون إلى العلويين، ويكرهون ما يناله من الشر، فأراد أن يتقرب إليهم ببعض ما يرغبون، فيكسر من حدتهم ويضعف من قوتهم فاختار منهم علي الرضا الذي يتولاه أكثر شيعة آل علي وولاه عهده، ويظن أنه فعل ذلك إرضاء للحسن بن سهل ووزيره الأكبر ومدبر أمره وصاحب الفضل الأعظم في سوق الخلافة إليه وإخراجها عن أخيه الأمين، ولكن رأى أن النتيجة لم تكن على ما يرغب، فإنه وإن أرضى العلويين بهذا العهد، فقد أغضب العباسيين أصحاب الدعوة فثاروا ضده ببغداد وخلعوه، واختاروا من بينهم عمه إبراهيم بن المهدي، فلم يكن أمامه ما يربأ به هذا الصدع إلا أن احتال في التخلص من الحسن بن سهل بأن وضع له قوماً تناولوه بالسيوف ثم مات بعقب ذلك علي الرضا، فنسب قوم ذلك إلى المأمون أيضاً، والقرائن تساعدهم ولكن

ليس عندنا من الأدلة ما يقوي هذه التهمة، وعادت الأمور بعد موت هذين إلى مجراها ورجع أهل بغداد إلى المأمون وانحرفوا عن عمه، وظل المأمون بعد ذلك على ولاء للعلويين حتى إذا رأى منهم الميل إلى الخروج والثورة شرع يعاملهم بمثل ما كان يعاملهم به أبوه، بعد ثورة اليمن فأمر ألا يدخلوا عليه واضطر بأن يجاري أباه في الاحتياط، فأسس دولة باليمن تشبه دولة الأغالبة بأفريقيا، وهي الدولة الزيادية والغرض من الدولتين واحد[1]، واتبعوا طريقة الحجر على أئمة الشيعة، وأمرهم إياهم بالإقامة بمرأى منهم في بغداد أو في سامراء بعد اختطاطها، ولم يكن الخلفاء العباسيون على سيرة واحدة في التعامل مع العلويين، ودخل القرامطة باسم محبة آل البيت فزلزلوا جوانب الدولة، وقام الفاطميون فاستولوا على إفريقية، وعلى الجزائر ومناطق من الشمال الأفريقي ومدوا سلطانهم على مصر وسوريا والحجاز واليمن وشواطئ الفرات، وكادت نارهم تلفح وجه الدولة العباسية ومما زاد الأمر بلية أن بني بويه الذين استولوا على بغداد في منتصف القرن الرابع، كانوا شيعة فأباحوا للشيعة الظهور في بغداد بما يشتهون من العادات التي كانوا يفعلونها يوم عاشوراء، فقد كانوا يجعلونه يوم حزن، حتى تخرج النساء فيه حاسرات نادبات لاطمات ينعين الحسين بن علي ﷺ وغير ذلك من العادات. وصار الناس يتقربون إلى السلطان بالتشييع، وفي أوائل القرن السادس ظهرت فتنة الباطنية بفارس وبالشام فأرهقوا الناس وأفسدوا الدول وتمكنوا من اغتيال بعض خلفاء بني العباس واستمر هذا النزاع السياسي بمصر حتى سقطت الدولة الفاطمية على يد ـ نور الدين محمود زنكي ـ بواسطة أحد قادته الكبار «صلاح الدين الأيوبي».

واستمر النزاع بين العباسيين وبعض أتباع آل علي من أول خليفة إلى آخر خليفة، وكان ذلك سبباً في ضعف الدولة العباسية، وهذا السبب ساهم في ضعف عصبية الدولة العباسية[2]، ثم زوالها.

15 ـ الترف وأثره في زوال الدولة العباسية: جاء ذكر الترف والمترفين مراراً في كتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ وفي سنّة رسوله ﷺ، وفي آثار من سلف. فمما جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء، الآية: 16]. المترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم، ويجدون الراحة، ينعمون بالدعة وبالراحة

(1) الدولة العباسية، للخضري، ص: 485.

(2) الدولة العباسية، ص: 488.

وبالسيادة، حتى تترهل نفوسهم وتأسن وترتع في الفسق والمجون، وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات، وتَلِغُ في الأعراض والحرمات، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم، عاثوا في الأرض فساداً، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها، ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي وتفقد حيويتها، وعناصر قوتها وأسباب بقائها، فتهلك وتُطوى صفحاتها. والآية تقرر سنة الله هذه، فإذا قدر الله لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك فكثر فيها، فعم فيها الفسق فتحللت وترهلت فحقت عليها سنة الله وأصابها الدمار والهلاك، وهي المسؤولة عما يحل بها، لأنها لم تضرب على[1] أيدي المترفين، ولم تصلح نظامها الذي يسمح بوجود المترفين. إن الله ﷻ قد جعل للحياة البشرية نواميس لا تتخلق، وسنناً لا تتبدل، وحين يوجد الأسباب تتعدد النتائج[2]. وهذا نص صريح قاطع في أن هلاك الأمم وضعف شأنها وانحلال قواها إنما يكون بالشهوات المتحكمة والأهواء المردية، وسيطرة ذلك على الذين يوجهونها وفي الآية الكريمة ما يشير إلى أن الترف هو الذي يؤدي إلى الفسق، وأن الفسق هو الذي يؤدي إلى الدمار، فعلى الذين يعملون لرفعة الأمة أن يتجهوا إلى الدعامة التي تقوم عليها وهي قوة النفس وسيطرة الإرادة المؤمنة على الأهواء الجامحة، وأنه كلما كان الترف المردي كانت القوى المنحلة، وكلما كانت الإرادة القوية والعزيمة الصادقة والإخلاص المنير كان النصر المبين والتأييد من الله رب العالمين[3].

وللترف أثر بالغ السوء في الدول والشعوب، بل هو مِعْوَلٌ هدم لطاقاتها وقدراتها، حيث يغري بالإخلاد إلى الأرض والاغتراف من المباذل والشهوات والخوض في سفاسف الأمور ودناياها، والتعلق بالمناصب والجاه والمال، ونسيان المعاني العلية، وعدم المخاطرة بالنفس في الجهاد في سبيل الله تعالى، والنفور من ارتكاب الصعب من الأمور، لا شيء إلا لأنه صعب على النفوس، والميل إلى السهل من الأعمال مهما قادت إلى ضعف وهوان[4]، لقد أضعف الترف الدولة العباسية إضعافاً متدرجاً حتى بلغ غايته بسقوطها أمام التتار، ذلك السقوط المخزي المريع الذي لم يكن مثله سقوط في تاريخ الدولة الإسلامية، وانظر إلى ما كانوا يصنعون، تعرف لماذا سقطوا وذلوا وهانوا، فهذا

---

(1) في ظلال القرآن، سيد قطب، (4/ 2217).

(2) المصدر نفسه، ص: 18.

(3) مجلة لواء الإسلام العدد الخامس، ص: 259 أبو زهرة.

(4) الترف وأثره في الدعاة والمصلحين، ص: 22 محمد موسى الشريف.

المأمون بن هارون الرشيد وهو من آخر أقوياء الخلفاء قد عقد على بوران بنت الحسن بن سهل وزيره، فماذا صنع في حفلة عرسه؟ وإن شئت قلت ماذا صُنع له؟

جرت تلك الحفلة في منازل الحسن بن سهل السرخسي، التي كانت بفم الصلح بالقرب من مدينة واسط، وفم الصلح اسم نهر كبير كان فوق واسط عليه عدة قرى، وفيه كانت دار الحسن بن سهل وزير المأمون، وفيه بنى المأمون ببوران، تزوجها المأمون لمكانة أبيها عنده، واسمها الحقيقي خديجة، وبوران لقبها، احتفل أبوها وعمل الولام والأفراح ما لم يعهد مثله في عصر من عصور الجاهلية والإسلام، فقد سافر المأمون وحاشيته ورجال دولته من القواد والكتاب والوجوه إلى فم الصلح، فنثر الحسن بن سهل بنادق المسك على رؤوسهم، فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفاة دواب وغير ذلك، وكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها فيقرأ ما في الرقعة، فإذا علم ما في الرقعة مضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه ويتسلم ما فيها، سواء كان ضيعة أو ملكاً آخر، أو فرساً أو جارية، أو مملوكاً، ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر، وأنفق على المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه، وكانوا خلقاً لا يحصى، حتى على الجماليين والمكارية[1] والملاحين وكل من ضمه عسكره، ولم يكن في المعسكر من يشتري شيئاً لنفسه ولا لدوابه. وذكر الطبري، أن المأمون أقام عند الحسن تسعة عشر يوماً، يعد له في كل يوم ولجميع من معه ما يحتاج إليه، وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف درهم[2]، وكان رحيل المأمون نحو الحسن بن سهل، أي إلى فم الصلح، لثمان خلون من شهر رمضان سنة عشر ومائتين وفرش الحسن للمأمون حصيراً منسوجاً بالذهب فلما وقف عليه نثرت على قدميه لآلئ كثيرة[3]، ودخل المأمون على بوران الليلة الثالثة من وصوله إلى فم الصلح، فلما جلس معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت في صينية ذهب، فأمر المأمون أن تجمع، وسألها عن عدد الدر: كم؟ فقالت: ألف حبة، ووضعها في حجرها وقال لها: هذه نحلتك[4]، وسلي حوائجك، فقالت لها جدتها: كلمي سيدك فقد أمرك، فسألته الرضى عن إبراهيم بن المهدي، عمه، والسماح

(1) المكارية: الذين يستأجرون لقضاء الحاجات.
(2) أي خمسين مليون درهم، وهذا مبلغ هائل ذلك الوقت.
(3) تاريخ الطبري، نقلاً عن: الترف، د.محمد موسى الشريف، ص: 34.
(4) نحلتك: عطيتك.

بالحج لأم جعفر، وهي الست زبيدة، فقال: قد فعلت، فألبستها أم جعفر البدلة اللؤلؤية، وأوقدوا في تلك الليلة شمعة عنبر وزنها أربعون منا في تور من ذهب[1] فأنكر المأمون ذلك عليهم وقال: هذا إسراف[2]، يا سبحان الله والذي مضى كله لم يكن إسرافاً[3]. وقد أمر المأمون للحسن عند منصرفه بعشرة آلاف ألف درهم[4]، وأقطعه فم الصلح، فجلس الحسن وفرق المال على قواده وأصحابه وحشمه،وقد كان الحسن كثير العطاء للشعراء وغيرهم، فقصده بعض الشعراء وأنشده:

تقوم خليلتي لما رأتني   أشد مطيتي من بعد حل

أبعد الفضل ترتحل المطايا   فقلت نعم إلى الحسن بن سهل

وقد كانت حياتهم مليئة بالترف والإخلاد إلى الأرض والرضى بمباهجها، والتوسع في ذلك توسعاً عظيماً، إذ بنوا بغداد على هيئة عظيمة، وتوسعوا في بناء القصور ذات الأواوين[5] الضخمة، وتفننوا في البناء والزينة، والزخارف والنقوش، والستائر والبسط والأثاث والتماثيل والتحف والأواني، وفي الطعام والشراب، كما تألقوا في الجواهر والزينة والطيب والملبس والثياب، متأثرين بالأزياء الفارسية، واهتموا بأدوات الترويح واللعب، كسباق الخيل، وسباق الحمام الزاجل، ولعبة الصولجان والشطرنج والنرد والصيد بالبزاة، والصقور والشواهين والكلاب والفهود، وهذا يدل على الترف والبذخ الذي كان يتمتع به الخلفاء وأبناء البيت العباسي، والوزراء والقواد، وكبار رجال الدولة، والتجار، وبعض الشعراء والكتاب والمغنيين والعلماء، وأما الشعب فيكدح ويعيش في بؤس وشقاء، ويتحمل أعباء الحياة إلى غير حد، وكانت خزائن الدولة مملوءة تحمل إليها الأموال والذهب والفضة من جميع أرجاء الدولة ونروي في ذلك روايات كثيرة نبين مدى الثراء والترف والنعيم ومظاهر الإنفاق على الجواري والقيان والمغنيين والحفلات والحاشية والأعوان، وتبين جود الخلفاء والوزراء، والولاة والقادة، وكرمهم وعطاياهم للشعراء وغيرهم ونفذوا إلى طائفة من الآداب، كآداب المائدة واقتبسوا كثيراً منها عن الفرس، وآداب المساهرة والمنادمة، وكان هذا البذخ وما صاحبه من اعتصار الشعب

---

(1) تور من ذهب: إناء من ذهب.

(2) الترف، محمد موسى، ص: 35.

(3) المصدر نفسه، ص: 35.

(4) المصدر نفسه، ص: 35.

(5) تاريخ الطبري، نقلاً عن: الترف، ص: 37.

من الأسباب في كثرة الثورات على العباسيين، ولم يكن هذا شأن كل خلفاء بني العباس، لكن كان هذا السمة الغالبة لأكثرهم[1].

فكان من الطبيعي ـ والحال هكذا ـ أن تسقط دولة بني العباس أمام زحف المغول، وإليك هذا المنظر الذي ذكره ابن كثير: في الوقت الذي كان التتار يحاصرون بغداد ويحيطون بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب، ذكر أن جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه وكانت من جملة حظاياه وتسمى «عرفة»، فجاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعاً شديداً وأحضر السهم الذي أصابها بين يديه وإذا عليه مكتوب: إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم[2]، وأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز وكثرة الستائر على دار الخلافة لكن الأمر أكبر من ذلك وأعظم[3].

لقد أتى على العالم الإسلامي عهد في التاريخ كانت الحياة فيه تدور حول فرد واحد، وهو شخص الخليفة أو الملك وحوله حفنة من الرجال هم الوزراء وأبناء الملك، وكانت البلاد تعتبر ملكاً شخصياً لذلك الفرد السعيد، والأمة كلها فوجاً من المماليك والعبيد، ويتحكم في أموالهم وأملاكهم ونفوسهم. هذا هو العهد الذي ازدهر في الشرق طويلاً وترك رواسب في حياة الأمة ونفوسها.. ولم يكن عهداً إسلامياً ولا عهداً طبيعياً معقولاً، فلا يرضاه الإسلام ولا يقره العقل، بل إنما جاء الإسلام لهدمه والقضاء عليه، فقد كان هذا هو العهد الذي بعث فيه محمد ﷺ، فسماه الجاهلية ونعى عليه، وأنكر على ملوكه ـ ككسرى وقيصر ـ ترفهم أشد الإنكار، إن هذا العهد غير قابل للبقاء والاستمرار في أي مكان وفي أي زمان، ولا سبيل إليه إلا إذا كانت الأمة مغلوبة على أمرها أو مصابة في عقلها، أو فاقدة الوعي والشعور، أو ميتة النفس والروح[4].
لقد نخر سوس الترف الدولة العباسية وأورثها ذلاً وهواناً وخوراً وضعفاً، فلم تستطع أن تقف في وجه أعاصير المغول. لقد تفاقم الشر في مركز الخلافة «دار السلام بغداد» وسيطرت عليه مظاهرة الأبهة الملوكية والسلطان الأعمى، وتغلغل نفوذ الخدم والحشم في قصور الخلفاء، وبلغت الثروة ذروتها، ولا يمكن أن تتصور ما كان يملكه الخدم

(1) الترف، ص: 37 ـ 39.
(2) البداية والنهاية (13/ 190)، كيف دخل التتار، ص: 42.
(3) كيف دخل التتار بلاد المسلمين، ص: 42.
(4) الترف، د. محمد موسى، ص: 41.

والمماليك الذين كانوا لدى الخلفاء من المال والعقار، ويكفي أن نذكر على سبيل المثال أن علاء الدين الطبرسي الظاهري ـ وهو ممن اشتراهم الخليفة الظاهر ـ كان يحصل له من أملاكه التي استجد نحو ثلاثمائة ألف دينار سنوياً، وكانت له دار لم تكن في بغداد مثلها.

كذلك مجاهد الدين آيبك الديودار المستنصري، لقد ملك جزيل الأموال من العين والرقيق والدواب، والعقار، والبساتين، والضياع، ويتعذر وصف ما أنفقه من قناطير مقنطرة من الذهب والفضة والجواهر التي جهز بها أولاده وبناته في ليالي الزفاف. كما أن الفراش الصلاح عبد الغني بن فاخر المتوفي (648هـ)، وكان شيخ الفراشين بدار الخلافة، كان يعيش مع خلوة من العلم عيشة الملوك، بينما كان مدرسو المدرسة المستنصرية في هذا العصر ـ وهم من كبار علماء بغداد بوصفهم يدرسون في أكبر جامعة إسلامية فيها ـ لا يتقاضى الواحد منهم أكثر من 12 دينار شهرياً، وبجانب ذلك نجد أن أربعة ألف دينار ينثرها خادم للشرابي على مجد الدين آيبك المستنصري، المعروف بالديويدار الصغير عند زواجه من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وأن 3000 دينار أعطاها الشرابي للأشخاص الثلاثة الذين أتوا بطائر الموصل.

ولكي ندرك مدى نفوذ هذه المظاهر الكاذبة والتظاهر بالفخفخة والأبهة الملوكية، يجب أن نعرف أن المواكب التي تخرج في مناسبات العيد والتتويج كانت تشغل الناس، حتى أنهم يتناسون أنفسهم، ويتشاغلون عن أداء الصلوات، ونستطيع أن نقيس ذلك بالموكب الملكي الذي خرج يوم عيد الفطر سنة (640هـ) واستمر إلى الليل، وصلى الناس صلاة العيد قبل نصف الليل قضاء[1]، وذكر في «العسجد المسبوك» أن العساكر في عاشر ذي الحجة سنة (644هـ) خرجوا إلى ظاهر البلد، وصلوا صلاة العيد وقت غروب الشمس، وأما تقبيل الأرض بحضرة الخليفة مرات عديدة فمن الأمور المألوفة، وكذلك تقبيل اليد، وعتبة باب النوبي، وحافر الخيل والأرض والرخام، وقد تميز هذا العصر بكثرة المصادرات، وتفشي الرشوة، وعزل كبار الموظفين، وإلقاء القبض عليهم، وبيع ممتلكاتهم، وتفاقم أمر الباطنية والشطار والعيارين، واشتداد النزاع الطائفي والتفكك الخلقي، والانصراف إلى الملاهي والقيان والتكاثر في الأموال[2]. لقد اهتم الحكام والأمراء والقادة في تلك الفترة التاريخية الحرجة بالتنعم والترف والانغماس في

(1) رجال الفكر والدعوة (1/ 274).

(2) المصدر نفسه (1/ 274).

الشهوات، والتطلع إلى الزعامة والحفاظ عليها والسعي لها وطلب أسباب العيش الهني[1]، وقد مضت سنة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة، وابتعدوا عن الشرع بالهلاك والعذاب، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [هود، آية: 116]. وقال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنبياء، الآيات: 11، 13]. وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾ [الطلاق، الآيات: 8 ـ 10].

16 ـ الوصول إلى آخر نقطة من الانحلال والتدهور: ذكرت في أسباب سقوط الدولة العباسية ضعف شخصية المستعصم بالله، إلا أن بعض الباحثين حاول الدفاع والثناء على الخليفة المستعصم، وبيان تمسكه بالسنة ومناهضته للبدعة وحلمه وتواضعه واهتمامه بأمور الرعية ومصالح الدولة. . .[2]إلخ.

كما أن شيخنا الجليل والمفكر الإسلامي الكبير أبا الحسن الندوي ذهب إلى هذا الرأي، وأشار إلى أن الخرق اتسع على الراقع بقوله: كان المستعصم رجلاً صالحاً حسن السيرة والفكر، وكان يحرص على إصلاح الأوضاع ورفاهية البلاد، ولكن فساد النساء واضطرابهم وفساد رجال الحكومة، بلغ مبلغاً لا يسلم منه إلا من رزق الإرادة القوية والشخصية العبقرية، ومن يستطع أن يقف سداً منيعاً في وجه الفساد ويتغلب على الأوضاع السيئة ولم ينفع في هذه الحال إلا العظماء الذين افتتحوا عهداً جديداً، وأسسوا حكومات جديدة في التاريخ، لقد تكرر في التاريخ أن آخر أفراد أسرة حاكمة وآخر حاكم في مملكة آخذة في الانحطاط كان يتصف بالصلاح والتقوى، غير أن تلك الأسرة أو المملكة كانت قد وصلت إلى آخر نقطة من الانحلال والتدهور، وكان الفساد قد تفاقم والكأس قد طفحت، فلم يكن هنالك من يحول بين هذه الحكومة، وبين نهايتها الأليمة التي يفرضها قانون السماء وتقتضيها طباع الأشياء، وشاءت الأقدار أن يعتبر ذلك الرجل الأخير مسؤولاً عن نهاية الحكومة في أسرته الحاكمة بالرغم من أنه كان أكثر صلاحاً

(1) رجال الفكر والدعوة.

(2) أمير المؤمنين المستعصم بالله العباسي، ص: 37 ـ 49.

وديانة، وأحرص على إصلاح الفساد من سلفه الماضيين وقد كان عدد من الصالحين مشتغلين بالعلم والتدريس والعبادة، كما كان عدد منهم منعزلين في الزوايا والمساجد، ولكن الفساد كان قد استحوذ على طبقة الحكام والمترفين[1]، يقول المؤرخ أبو الحسن الخزرجي يصف أهل العراق يومئذ: واهتموا بالإقطاعات والمكاسب، وأهملوا النظر في المصالح الكلية، واشتغلوا بما لا يجوز في الأمور الدنيوية واشتد ظلم العمال، واشتغلوا بتحصيل الأموال، والملك قد يدوم مع الكفر، ولا يدوم مع الظلم[2].

17 ـ **تدهور الأوضاع الاقتصادية:** كان لتدهور الأوضاع الاقتصادية أثره البالغ في إضعاف الخلافة العباسية، وفرض بعض الحكام الخراج المرهق على الرعية ووضعوا خطة للتحكم في شؤون الأمصار لمصلحة الطبقة الحاكمة مما آل إلى كساد الحياة الزراعية والصناعية، وكان كلما ازداد الحكام غنى، ازداد الفقراء فقراً، ولما تجزأت الدولة إلى دويلات قام كل من أولياء الأمر بابتزاز أموال رعيته، وقضت الحروب المتواصلة بإنقاص عدد الرجال العاملين، فعدت أكثر المزارع مهجورة خربة، وزاد الخراب تكرارُ الفيضان في سهول العراق الجنوبية[3]، وفي صيف سنة (654هـ/1256م) هطلت أمطار غزيرة، سال على إثرها سيل عظيم أغرق مدينة بغداد، لدرجة أن الطبقة العليا من المنازل غمرتها المياه واختفت معالمها تماماً. وقد استمر انهمار السيل خمسين يوماً ثم بدأ في النقصان، ونتج عن ذلك أن نصف أراضي العراق أصبحت مهجورة خربة[4].

18 ـ **الصراع الداخلي في بغداد:** كان سكان بغداد من أهل السنة والشيعة والمسيحيين واليهود، وكان هؤلاء جميعاً في خلاف دائم حول المسائل الدينية، كما كانوا يختلفون في الميول السياسية، ولا شك أن مثل هذه الحالة كثيراً ما كانت تثير الفتن والمنازعات بين السكان، ومن ذلك أنه في أواخر عهد المستعصم، نشب قتال بين الشيعة وأهل السنة، فعهد الخليفة إلى ابنه أبي بكر بفض هذا النزاع[5]، فقام أبو بكر بن المستعصم والدويدار الصغير، فشدًا على أيدي السُّنة حتى نُهب الكرْخ، وتمَّ على الشيعة بلاء عظيم، فحنق لذلك مؤيد الدين بالثأر بسيف التتار من السنّة، بل ومن

(1) رجال الفكر والدعوة، (1/ 277).

(2) المصدر نفسه (1/ 277).

(3) جهاد المماليك، ص: 254.

(4) جهاد المماليك، ص: 254.

(5) المغول، للصياد، ص: 254.

الشيعة واليهود والنصارى[1].

19 ـ خيانات الشيعة (الوزير ابن العلقمي): هو أبو طالب مؤيد الدين محمد بن أحمد بن علي بن أبي طالب ابن العلقمي البغدادي الرافضي[2]، قال السبكي: كان شيعياً رافضياً في قلبه غلّ على الإسلام وأهله[3]، قال الذهبي: تولى الوزارة للخليفة العباسي «المستعصم» مدة أربع عشرة سنة، أفشى خلالها الرفض فعارضته السنة، فأُكْبِتَ فتنمّر[4].

وقال ابن كثير: كان رافضياً خبيثاً ردي الطوية على الإسلام وأهله[5]، وقال في موضع آخر: كان شيعياً جلداً، ورافضياً خبيثاً[6]، فقد سعى في دمار الإسلام وخراب بغداد، كما قال الصفدي[7]، ومالأ على الإسلام وأهله الكفار، حتى فعل ما فعل بالإسلام وأهله[8]، وهو الذي حفر للأمة قليباً، فأُوقع فيه قريباً وذاق الهوان، كما قال الذهبي[9]، وأما خطواته في ذلك فهي كالتالي:

أ ـ المكاتبة: لقد كاتب هولاكو وجسّره وقوى عزمه على قصد العراق ليتخذ عنده يداً وليتمكن من أغراضه[10]، بل لقد جر هولاكو وقرر معه أموراً انعكست عليه، واستخدم في هذه المكاتبات شتى الحيل وبلغ نهاية المكر، قد حكي أنه لما كان يكاتب التتار تحيَّل مرة إلى أن أخذ رجلاً وحلق رأسه حلقاً بليغاً وكتب ما أراد بوخذ الأبر كما يفعل بالوشم، ونفض عليه الكحل وتركه عنده إلى أن طلع شعره وغطّى ما كتب فجهزه وقال: إذا وصلت التتر مُرْهُم بحلق رأسك ودعهم يقرأون ما فيه وكان في آخر الكلام: قطّعوا الورقة، فضربت عنقه، وهذا غاية في المكر والخزي، ولم تكن سياسة المكاتبة مع التتر هي الأولى في هذا السياق، بل سبقتها خطوات مهّدت لها وكانت بمثابة الأرضية والمقدمة لما بعدها[11].

---

(1) سير أعلام النبلاء (23/ 362).
(2) المصدر نفسه (23/ 361).
(3) طبقات الشافعية، ص: 262.
(4) سير أعلام النبلاء (23/ 362).
(5) البداية والنهاية (13/ 202).
(6) البداية والنهاية (13/ 194).
(7) الوافي بالوفيات (1/ 184) كيف دخل التتر بلاد المسلمين، ص: 55.
(8) البداية والنهاية (13/ 202) كيف دخل التتر بلاد المسلمين، ص: 55.
(9) سير أعلام النبلاء (23/ 362).
(10) المصدر نفسه (23/ 362).
(11) كيف دخل التتر بلاد المسلمين، ص: 56.

ب ـ إضعاف الجيش: اتخذ ابن العلقمي سياسة خبيثة في إضعاف جيش الخلافة ساهمت في دخول التتر ببغداد دون مقاومة تذكر، إذ اجتهد قبل مجيء التتر في صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من الديوان وصرفهم عن إقطاعاتهم، ونجح في ذلك، إذ كانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريباً من مائة ألف، فلم يزل ابن العلقمي مجتهداً في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف في أواخر أيام المستعصم، ويقول الذهبي: استوزر «المستعصم» ابن العلقمي الرافضي فأهلك الحرث والنسل، وحسّن له جمع الأموال، وأن يقتصر على بعض العساكر فقطع أكثرهم[1]. وبلغت حالة الجيش وعساكر الخلافة بالذات مبلغاً من الذل والهوان، حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد، وحق للشعراء أن ينشدوا فيهم الشعر ويرثوهم بالقصائد وينعوا على الإسلام وأهله[2]، وكان ذلك بسبب سياسة هذا الشيعي المغرض الذي عبر عن سياسته وأثّر وزارته على المستعصم. قال ابن كثير حين قال: إنه لم يعصم المستعصم في وزارته، ولم يكن وزير صدق ولا مرضي الطريقة[3]، وقال في موضع آخر: إنه كان وزير سوء على نفسه وعلى الخليفة وعلى المسلمين[4]، فلما تحقق لابن العلقمي ما أراد كاتب التتار وأطمعهم في أخذ البلاد وسهل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال[5]، وهكذا تبدو سياسة ابن العلقمي بعيدة الغور سيئة القصد ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله[6].

جـ ـ الغدر بالقضاة والفقهاء والخليفة: ولم تقف سياسة ابن العلقمي عند هذا الحد، فقد بادر باتخاذ الخطوة العملية حين قدم التتار، وكان أول من برز إليهم، وخرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه واجتمع بهولاكو، ثم عاد فأشار إلى الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة، على أن يكون نصف خراج العراق لهم، ونصفه للخليفة، فخرج الخليفة في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورؤساء الأمراء والدولة والأعيان، فلما اقتربوا من منزل هولاكو حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفساً

---

(1) سير أعلام النبلاء (23/ 175).

(2) البداية والنهاية (13/ 191). كيف دخل التتار، ص: 57.

(3) المصدر نفسه (13/ 157)، المصدر نفسه، ص: 57.

(4) المصدر نفسه (13/ 201)، المصدر نفسه، ص: 57.

(5) المصدر نفسه (13/ 192)، المصدر نفسه، ص: 57.

(6) كيف دخل التتار، ص: 58.

خلص بهم الخليفة، وأنزل الباقون عن مراكبهم ونهبت وقتلوا عن آخرهم، وأحضر الخليفة بين هولاكو فسأله عن أشياء كثيرة، ويقال: إنه اضطرب في كلامه من هول ما رأى من الإهانات والجبروت، ثم أعيد إلى بغداد تحت الحوطة والمصادرة، يحيط به الطوسي وابن العلقمي ـ الشيعيان ـ ونهب من دار الخلافة أشياء كثيرة من الذهب والحلي والأشياء النفيسة، ثم أشار هؤلاء الرافضة على هولاكو بعدم مصالحة الخليفة، وقال الوزير: متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عاماً أو عامين، ثم يعود الأمر إلى ما كان قبل ذلك، وحسنوا له قتله، ويقال: إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي ونصير الدين الطوسي، فلما عاد الخليفة إلى هولاكو أمر بقتله[1].

د ـ دوافع ابن العلقمي: والسؤال المهم: لماذا فعل ابن العلقمي ما فعل وأحل بدار الخلافة ما حل؟ فخلاصته خبث طوية الشيعة على أهل السنة بشكل عام، وتطرف معتقدهم فيهم، وعدم تحرّجهم من التعاون مع الكفار على إبادة المسلمين السنة. يقول ابن تيمية: . . إنهم يكفّرون كل من اعتقد في أبي بكر وعمر والمهاجرين والأنصار العدالة، أو ترضَّى عنهم كما رضي الله عنهم، ويستحلون دماء من خرج عنهم، ويسمون مذهبهم مذهب الجمهور، ويرون في أهل الشام ومصر والحجاز والمغرب واليمن والعراق والجزيرة وسائر بلاد الإسلام أنه لا يحل نكاح هؤلاء ولا ذبائحهم، ويرون أن كفر هؤلاء أغلظ من كفر اليهود والنصارى، لأن أولئك عندهم كفار أصليون، وهؤلاء مرتدون. . وهم كانوا من أعظم الأسباب في خروج جنكيز خان ملك الكفار إلى بلاد الإسلام، وفي قدوم هولاكو إلى بلاد العراق، وفي أخذ حلب ونهب الصالحية وغير ذلك بخبثهم ومكرهم لما دخل فيهم من توزر منهم للمسلمين وغير من توزر منهم[2].
وقال: والرافضة تحب التتار ودولتهم لأنه يحصل لهم بها من العز ما لا يحصل بدولة المسلمين، والرافضة هم معاونون للمشركين واليهود والنصارى على قتال المسلمين، وهم كانوا من أعظم الأسباب في دخول التتار قبل إسلامهم إلى أرض المشرق لخراسان والعراق والشام، وكانوا من أعظم الناس معاونة لهم على أخذهم لبلاد الإسلام وقتل المسلمين وسبي حريمهم، وقضية ابن العلقمي وأمثاله مع الخليفة وقضيتهم في حلب مع صاحب حلب مشهورة يعرفها عموم الناس. . وإذا غلب المسلمون النصارى والمشركين كان ذلك غصة عند الرافضة، وإذا غلب المشركون

(1) سير أعلام النبلاء (23/ 183)، كيف دخل التار، ص: 59.

(2) الفتاوى (28/ 477، 478)، كيف دخل التار، ص: 60.

والنصارى المسلمين كان ذلك عيداً ومسرة عند الرافضة[1].

وفي منهاج السنة قال ابن تيمية: وكثير منهم ـ يعني الرافضة ـ يواد الكفار من وسط قلبه أكثر من موادته للمسلمين، ولهذا لما خرج الترك الكفار من جهة المشرق وقتلوا المسلمين وسفكوا دماءهم ببلاد خراسان والعراق والشام والجزيرة وغيرها، كانت الرافضة معاونة لهم على المسلمين، وكذلك الذين كانوا بالشام وحلب وغيرهما من الرافضة، كانوا من أشد الناس معاونة لهم على قتال المسلمين.. فهم دائماً يوالون الكفار من المشركين واليهود والنصارى ويعاونونهم على قتال المسلمين ومعاداتهم[2]، وقد ذكر المؤرخون أن الذي حمل ابن العلقمي على موقفه من التتار أن أبا بكر ابن الخليفة المستعصم والدويدار الصغير قد شدا على أيدي السنة حتى نهب الكرخ وتم على الشيعة بلاء عظيم، فحنق لذلك ابن العلقمي وأراد الثأر بسيف التتار من السنة[3]، وكاتب هولاكو وطمعه في العراق فجاء رسل هولاكو إلى بغداد، وفي الباطل معهم فرمانات لغير واحد والخليفة لا يدري ما يتم[4]، وقال ابن كثير: ولما كان في السنة الماضية (يعني سنة خمس وخمسين وستمائة) كان بين أهل السنة والرافضة حرب عظيمة نهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة، حتى نهبت دور قرابات الوزير «ابن العلقمي» فاشتد حنقه على ذلك، فكان هذا مما أهاجه على أن دبَّر على الإسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد وإلى هذه الأوقات[5].

هـ ـ المكر السيئ يحيق باهله: قال تعالى: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [سورة فاطر، الآية: 42] .لقد دخل التتار وجندهم بغداد ووقع ما وقع من الظلم والفساد وسفك الدماء وهتك الأعراض، ولم يكن ابن العلقمي بعيداً عن ذلك كله، ولا سالماً منه البتة، وقد أحسن الذهبي في تعبيره وكان دقيقاً في وصف حالته حين قال: وحفر للأمة قليباً، فأوقع فيه قريباً، وذاق الهوان وبقي يركب كديشاً بعد أن كانت ركبته تضاهي موكب السلطان، فمات غبناً وغماً وفي الآخرة أشد خزياً وأشد تنكيلاً[6].

ونقل الصفدي ندم ابن العلقمي، حيث لا ينفعه الندم وكان كثير ما يقول: وجرى

---

(1) الفتاوى (28/ 527، 528)، كيف دخل التتار، ص: 61.
(2) منهاج السنة (2/ 104)، كيف دخل التتار، ص: 62.
(3) سير أعلام النبلاء (23/ 362)، كيف دخل التتار، ص: 62.
(4) سير أعلام النبلاء (23/ 180)، كيف دخل التتار، ص: 63.
(5) البداية والنهاية (13/ 191)، كيف دخل التتار، ص: 64.
(6) سير أعلام النبلاء (23/ 362).

القضاء بعكس ما أملته، لأنه عومل بأنواع الهوان من أرذال التتار والمرتدة؛ حكي أنه كان في الديوان جالساً فدخل بعض التتار ممن لا وجاهة له راكباً فرسه، فساق إلى أن وقف بفرسه على بساط الوزير وخاطبه بما أراد، وبال الفرس على البساط وأصاب الرشاش ثياب الوزير، وهو صابر لهذا الهوان يظهر قوة النفس وأنه بلغ مراده، ولم تكن الشيعة بشكل عام ـ وهم أهله وعشيرته ـ بمنأى عن هذه الجرائم والمآثم، وعجيب أن يكون حنقه على أهل السنة، وحميته للشيعة تبيح له ذلك كله.

ويروى أن بعض أهل بغداد قال له: يا مولانا أنت فعلت هذا جميعه وحميت الشيعة حميَّة لهم، وقد قتل من الأشراف الفاطميين خلق لا يحصون، وارتكب من الفواحش مع نسائهم، وفضَّت أبكارهم مما لا يعلمه إلا الله تعالى، فقال: بعد أن قتل الدوادار ومن كان على مثل رأيه لا مبالاة بذلك[1]، ويبلغ إذلال «التتر» له أن جعلوه تابعاً لشخص يدعى «ابن عمران» كان خادماً في دولة المستعصم[2]، ونقل النويري ما هو أشد من ذلك، إذ استدعاه «هولاكو» فلما مثل بين يديه سبّه ووبخه على عدم وفائه لمن هو غذي نعمته[3]، وذكر السيوطي أنه صار معهم في صورة بعض الغلمان وأنه مات كمداً[4].

إن موقف العلقمي لم يكن سليماً على الإطلاق، ولكننا لا نستطيع أن نحمله التبعية كلها، بل نشرك معه الخليفة ورجال حاشيته الآخرين، وعوامل تمّ ذكرها في زوال الدولة العباسية، لقد كانت أفعال ابن العلقمي جزءاً من صورة[5]. اتضحت بذكر الأسباب الأخرى التي ساهمت في سقوط بغداد. وقد عد الخميني جريمة ابن العلقمي والنصير الطوسي في قتل المسلمين من عظيم مناقبهما عندهم، فقال الخميني في الإشادة بما حققه نصير الطوسي: ويشعر الناس(يعني شيعته) بالخسارة بفقدان الخواجه نصير الدين الطوسي وأضرابه ممن قدم خدمات جليلة للإسلام[6]، والخدمات هنا ما كشفها الخوانساري من قبله في قوله في ترجمة النصير الطوسي: ومن جملة أمره المشهور المعروف المنقول حكاية استيزاره للسلطان ـ هولاكو خان ـ ومجيئه في موكب السلطان المؤيد مع كمال الاستعداد إلى دار السلام بغداد لإرشاد العباد وإصلاح البلاد بإبادة

---

(1) الوافي بالوفيات (1/ 185).

(2) المغول في التاريخ، ص: 274، كيف دخل التتر، ص: 66.

(3) نهاية الأرب في فنون الأدب، نقلاً عن: كيف دخل التتر، ص: 66.

(4) تاريخ الخلفاء، للسيوطي، ص: 378، كيف دخل التتر، ص: 66.

(5) العراق سياقات الوحدة والانقسام؛ بشير نافع، ص: 63.

(6) روضات الجنات(6/ 300 ـ 301) أصول مذهب الشيعة، للقفاري (3/ 1472).

ملك بني العباس، وإيقاع القتل العام في أتباع أولئك الطغاة إلى أن أسال من دمائهم الأقذار كأمثال الأنهار، فأنهار بها في ماء دجلة ومنها إلى نار جهنم دار البوار[1].

و ـ بن طاوس والخلافة العباسية: كان علي بن طاوس يرى عدم مشروعية الدولة العباسية التي لم تخرج في معتقده عن كونها دولة غصبية، وابن طاوس يعتبر من مرجعيات الشيعة في وقت سقوط بغداد وكان يعمل على إزالتها ولا يرى الوقوف بجانبها أمام أعدائها ورفض في عهد المستنصر العباسي أن يكون موفداً إلى سلطان التتار لتسوية الأزمة السياسية بين الدولتين، وكان ذلك في عام (634هـ)، لأن ذلك يجعل منه رسولاً دائماً للدولة العباسية[2].

ولما سقطت بغداد على يد المغول ونزح أهل الحلة إلى البطائح، حضر أكابرهم من العلويين والفقهاء مع مجد الدين ابن طاوس العلوي إلى حضرة السلطان ـ هولاكو ـ وسألوه حقن دمائهم فأجاب سؤالهم وعين لهم شحنة فغادروا إلى بلادهم وأرسلوا إلى من في البطائح من الناس يعرفونهم ذلك فحضروا بأهلهم وأموالهم وجمعوا مالاً عظيماً وحملوه إلى السلطان فتصدق عليهم بنفوسهم[3].

ولما تم احتلال بغداد أمر هولاكو أن يستفتي العلماء: أيما أفضل السلطان الكافر العادل أم السلطان المسلم الجائر؟ ثم جمع العلماء وكان رضي الدين علي بن طاوس حاضراً المجلس وكان مقدماً محترماً فلما رأى إحجامهم تناول الفتيا ووضع خطة فيها بتفصيل العادل الكافر على المسلم الجائر، فوضع الناس خطوطهم بعده[4]، وقد طلب ابن طاوس الأمان من هولاكو قبل فتحها، وزاره، واستدل بكلام منسوب لعلي بن أبي طالب كذباً وزوراً يشنع فيه على بني العباس، فلما وصل إلى مجلس هولاكو ـ وكان ذلك قبل سقوط بغداد وقتل الخليفة ـ قال له: كيف قد تشجعت على مكاتبتي والحضور عندي قبل أن تعلموا بما ينتهي إليه أمري وأمر صاحبكم وكيف تأمنون أن يصالحني؟!! ورحلت عنه فقال ابن طاوس: أقدمنا على ذلك لأنا روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال في خطبة: الزوراء وما أدرك ما الزوراء؟! أرض ذات أثل،

(1) أصول مذهب الشيعة (3/ 1473).

(2) الفقيه والدولة، الفكر السياسي الشيعي، ص: 90.

(3) المصدر نفسه، ص: 94.

(4) المصدر نفسه، ص: 94.

يشيّد فيها البنيان، ويكون فيها مخادام وخزّان، يتخذها ولد العباس موطناً، ولزخرفهم مسكناً، تكون لهم دار لهو ولعب، ويكون بها الجور الجائر، والخوف المخيف، والأئمة الفجرة، والأمراء الفسقة والوزراء الخونة، تخدمهم أبناء فارس والروم، لا يأتمرون بمعروف إذا عرفوه، ولا يتناهون عن منكر إذا أنكروه، تكفى الرجال منهم بالرجال، والنساء بالنساء، فعند ذلك الغم العميم، والبكاء الطويل، والويل والعويل، لأهل الزوراء من سطوات الترك، وهم قوم صغار الحُدُق، وجوههم كالمجان المطرّقة، لباسهم حديد، جرد مرد، يقدمهم ملك يأتي من حيث بدا ملكهم جهوري الصوت، قويّ الصولة عالي الهمّة، لا يمر بمدينة إلا فتحها، ولا ترفع عليه راية إلا نكّسَها، الويل الويل لمن ناوأه فلا يزال كذلك حتى يظفر[1].

فلما وصف لنا ذلك ووجدنا الصفات فيكم، رجوناك فقصدناك، ويعلّق الحلي: فطيب قلوبهم، وكتب لهم فرماناً، باسم ابن طاوس يطيِّب فيه قلوب أهل الحلة وأعمالها. وهذه الرواية من أكاذيب الشيعة على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ومحاولة تشويه تاريخ بني العباس على لسانه، والتزلف والتقرب إلى هولاكو الوثني، وهذا الذي قاله ابن طاوس: ولا ترفع عليه راية إلا نكّسها، الويل الويل لمن ناوأه، فلا يزال كذلك حتى يظفر[2]، يكذبها الواقع وحقائق التاريخ حيث نكست راية هولاكو في معركة عين جالوت، عندما تصدى لهم سيف الدين قطز والشعب المصري المسلم، والسائر على نهج أهل السنة والجماعة، كما أن بركة خان المغولي الذي أسلم، كسر شوكة هولاكو وهزمه هزيمة مريرة، بل مات هولاكو كمداً وغماً لما حدث لجنوده في معركة عين جالوت، وهذا ما سوف يراه القارئ الكريم بإذن الله في الصفحات القادمة.

إن ابن طاوس يتلاعب بفتاويه ويحاول أن يصور بأن هولاكو أفضل من الخليفة المستعصم، حيث إن الأول كافر عادل، والثاني مسلم جائر، وأي عدل قام به هولاكو غير الدمار والهلاك وهتك الأعراض واسترقاق الناس، ولكن هذه النفسية المريضة ترى أي ظلم وجور يقع على مسلم سني أو دولة سنية هو من صميم العدل، وأما ما قام به ابن طاوس فهو من النفاق والتزلف لهولاكو. كان ابن طاوس لا يمتنع من الدخول في المناورات السياسية المفتوحة، ويبني ذلك على رؤى ومواقف متنوعة، فقد مهد

(1) الفقيه والدولة، ص: 96.
(2) الفقيه والدولة، ص: 96.

بمجموعة من الأخبار الغيبية المختلقة، السبيل، وبفعالية غير عادية، للاسترسال في بناء علاقة حميمية بالدولة المغولية مستندة إلى نصوص إرشادية توجيهية، يعتقد ابن طاوس ـ الفقيه الشيعي ـ بأنها كفيلة برفع الحرج الشرعي[1]، ومما لا شك فيه أن رموز الشيعة في تلك المرحلة، كابن طاوس الحلي، والعلقمي، ونصير الطوسي وغيرهم كانوا من عوامل هدم وإسقاط الدولة العباسية، وكان لديهم استعداد نفسي، للتعامل مع المغول وبناء علاقات قوية معهم على حساب زوال بني العباس.

20 ـ تمرس فرسان التتار وقوة الإمبراطورية المغولية: ويجب ألا يغرب عن البال تمرس فرسان التتار بالحرب وأخذهم بأسبابها المادية وتوافر عوامل الانتصار، من قيادة حكيمة، ووضوح في الهدف، وإعداد الأفراد والحرص على الوحدة والاتحاد «وسلطة الياسا» وتقسيم الأدوار، والتخطيط السليم، والإدارة الناجحة، والتنظيم المحكم، والدعم الاقتصادي والدعاية الإعلامية لجيوشهم والحيطة والحذر من الأعداء، وغير ذلك من الأسباب التي تدل على قوة الإمبراطورية المغولية وتمرس فرسانها على القتال، فهذه هي أهم أسباب سقوط الدولة العباسية، وهي متداخلة ومتشابكة يؤثر كل منها في الآخر تأثيراً عكسياً، فالسبب الديني يؤثر في العامل العسكري، ويتأثر به. . . وهكذا.

إن دراسة أسباب سقوط الدول وعوامل بنائها من الأمور المهمة التي تحتاجها الأمة في مشروعها الحضاري الذي يهدف لقيادة الإنسانية بالمنهج الرباني، وتحقيق أستاذية العالم لهذه الأمة المجيدة.

ثامناً: نتائج سقوط بغداد: يعد سقوط بغداد، وانقراض الخلافة العباسية التي استمرت قائمة أكثر من خمسة قرون، من أكبر الوقائع التي حدثت في التاريخ، ولقد كان لهذا الحدث أسوأ الأثر في نفوس المسلمين جميعاً، واعتبرت هذه المأساة لطمة قاسية وبلاء شديداً سلط على رؤوسهم؛ إذ انتهكت حرمتهم على يد المغول أهل الكفر والشرك، الذين صوبوا طعنة نجلاء إلى مقام الخلافة وإلى أسرة الرسول ﷺ؛ فلا غرو أن كان لهذا الحدث نتائج خطيرة[2]، نلخصها فيما يأتي:

1 ـ زوال النفوذ الأدبي والروحي: كان المسلمون يتطلعون إلى الخلافة على أنها

---

(1) الفقيه والدولة، ص: 101.

(2) المغول في التاريخ، ص: 279.

رمز للممالك الإسلامية جميعها، يجب أن يظل قائماً، وكانوا ينظرون إلى الخليفة نظرة إجلال واحترام ولكن نفوذه الديني، بعيد الأثر في نفوس المسلمين جميعاً، وعلى الرغم من أن الخلافة، كانت قد فقدت منذ قرون جانباً كبيراً من قوتها المادية، فإنها كانت لا تزال تدخر قدراً كبيراً من سلطانها الأدبي والروحي، فلما سقطت بغداد وقتل الخليفة، قضي على هذا النفوذ، وزال ما كان لتلك العاصمة من مكانة دينية ممتازة[1].

2 ـ **بغداد مدينة ثانوية:** كانت بغداد قبل حملة المغول مركزاً للنشاط السياسي في جميع أنحاء الشرق الإسلامي، يؤمها وفود الحكام والأمراء المسلمين، وكانت الروابط تربط بينها وبين مختلف العواصم، فلما سقطت في أيدي المغول، صارت مدينة ثانوية، يعين عليها وال، وانتقل النشاط كله إلى مدن الشمال في أذربيجان، إذ أنها أخذت تلعب دور العواصم، ففقدت بغداد بذلك أهميتها السياسية. يقول رنسيمان: أخذت بغداد تستعيد رويداً رويداً نظافتها وتعود إلى سابق عهدها من النظام والترتيب، على أنها لم تعد بعد أربعين سنة سوى مدينة إقليمية وافرة الرخاء لا تتجاوز عشر حجمها السابق[2]، وبسقوط هذه المدينة دخل الشرق الإسلامي عامة في عهد جديد، آلت فيه السيطرة من بعد هولاكو إلى أبنائه الذين صاروا يستقلون تدريجياً عن المغول في قراقورم، وأسسوا لأنفسهم دولة في إيران، عرفت باسم «دولة الإيلخانيين»[3].

3 ـ **تدهور العلوم ومكانة اللغة العربية:** كانت بغداد مركزاً هاماً للعلوم والآداب والفنون، يهرع إليه العلماء وطلاب العلم، للتزود بالثقافة الإسلامية التي كانت تمثل هناك بأبهى معانيها. فقد كانت تلك المدينة غنية بعلمائها وأدبائها وفلاسفتها وشعرائها، وكان كل هؤلاء بمثابة أساتذة وقادة لرجال العلم والأدب في مختلف أنحاء الشرق الإسلامي، فلما حلت النكبة ببغداد على أيدي المغول، قتل آلالاف من العلماء والشعراء وشرد من نجا منهم، فلجأوا إلى مصر والشام وغيرهما من البقاع[4]، وأحرقت المكتبات وخربت المدارس والمعاهد، وقضي على الآثار الإسلامية التي تعب الفنانون المسلمون في إبداعها، كل هذا التراث المجيد، قد أصبح في التراب أثراً بعد عين. وقصارى القول أن سقوط بغداد بعد أن سقطت بخارى ونيسابور والري وغيرهما في مدن

---

(1) المغول في التاريخ، ، ص: 280.

(2) المغول في التاريخ، للصياد، ص: 280، تاريخ الحروب الصليبية (3/ 522).

(3) المصدر نفسه، ص: 280.

(4) المصدر نفسه.

العالم والأدب، كان حقاً جناية كبيرة على الحضارة والثقافة، إذ فقدت اللغة العربية تلك المكانة التي كانت تتمتع بها قبل الغزو في ميادين الثقافة العلمية والأدبية. وبفتح المغول لهذه العاصمة الكبيرة تمت الخطوة النهائية في سبيل تفوق اللغة الفارسية على اللغة العربية، ورغم أن هذه اللغة قد بقيت كلغة علمية وأدبية في إيران، ولم يستطع الأدباء والكتاب الإيرانيون أن يكفوا عن تعلمها والتأليف بها، إلا أن عنايتهم باللغة الفارسية كانت أشد وأقوى لأنها اللغة التي استطاعت أن تشبع رغبة العامة، وتوافق إحساس الناس في ذلك الوقت. يقول بروان: إن تحطيم بغداد، كعاصمة للمسلمين، وإنزالها إلى مرتبة المدن الإقليمية قد أصاب رباط الوحدة بين الأمم الإسلامية بلطمة شديدة، كما أصاب مكانة اللغة العربية في إيران بضربة قاصمة، فاقتصر استعمالها بعد ذلك على العلوم الفقهية، فإذا وصلنا إلى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري)، لم نعد نصادف إلا القليل النادر من الكتب العربية التي تم تأليفها في إيران[1].

4 ـ **البهجة والفرح لدى النصارى:** عمت البهجة والفرح أطراف العالم النصراني، وقد زاد من فرح النصارى أنهم كانوا يتعاونون مع التتار في هذه الحملة الأخيرة، ودخل ملك أرمينية وملك الكرج وأمير أنطاكية في حزب التتار، وزاد من فرحهم أن التتار صدقوا وعودهم، فإنهم قد وعدوا النصارى ألا يمسوهم بسوء في بغداد، وتم لهم ذلك، بل إن هولاكو أغدق الهدايا الثمينة على «ماكيكا» البطريرك النصراني، وأعطاه قصراً عظيماً من قصور الخلافة العباسية على نهر دجلة، وجعله من مستشاريه ومن أعضاء مجلس الحكم الجديد ومن أصحاب الرأي المقربين في بغداد[2]، لقد ابتهج المسيحيون بسقوط بغداد وزوال الدولة العباسية، وكتبوا في نشوة النصر عن سقوط بابل الثانية، وهللوا لهولاكو وزوجته المسيحية دوقوز خاتون، واعتبروهما قسطنطين وهيلينا، وأنهما ليسا إلا أدوات الله للانتقام من أعداء المسيح[3].

غير أن ارتياح المسيحين وسرورهم لم يستمر طويلاً، إذ لم يمض زمن طويل حتى قهر المسلمون غزاتهم في معركة «عين جالوت» عام (658هـ) بقيادة سيف الدين قطز، يأتي الحديث عنها بإذن الله تعالى.

5 ـ **القاهرة عاصمة الخلافة:** تأثر المسلمون أشد التأثر لسقوط بغداد، وخلوّ

---

(1) تاريخ الأدب في إيران، ص: 564، المغول، ص: 181.

(2) قصة التتار، ص: 169.

(3) المغول، للصياد، ص: 182، تاريخ الحروب الصليبية (3/ 522).

الأرض من وجود خليفة يكون له المقام الروحي المرموق، وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول: إن ما حدث من استئصال الأسرة العباسية، وتدمير العاصمة، جعل زعامة المسلمين شاغرة، يتطلع لاحتلالها كل زعيم طموح من المسلمين، فلما تولى السلطان المملوكي الظاهر بيبرس عرش مصر، بحث عن أحد أفراد الأسرة العباسية ونصبه خليفة في مصر سنة (659هـ/ 1260م) وهكذا قامت الخلافة العباسية في مصر، وكان لها شبه سلطة روحية في مدينة القاهرة، وبهذا انتقل النشاط السياسي والثقافي إلى مصر التي أصبحت قبلة أنظار المسلمين. وكان الظاهر يرمي من وراء إحياء الخلافة العباسية في مصر، إلى أن يُكْسِبَ سلطته صفة شرعية بفضل التقليد الذي حصل عليه من الخليفة، وأن يمتد ملكه، ويوسع سلطانه بمساعدته باعتباره حامي الدين[1]، وقد استمر هذا الوضع قائماً في مصر إلى أن استولى عليها السلطان العثماني سليم الأول عام (923هـ/ 1517م)، فألغى منها الخلافة العباسية، وبذلك انتقلت الخلافة إلى القسطنطينية حاضرة العثمانيين[2].

6 ـ **انتشار التشيع**: كان لسقوط بغداد أثره البالغ في انتشار التشيع، فالمعروف أن الخلافة العباسية السنية اشتهرت في ذلك الوقت بمحاربة التشيع والحد منه في مناطق إيران وغيرها، إلا أنه بالقضاء على الخلافة العباسية انتشر التشيع في تلك المناطق بطريقة غير مألوفة، نتيجة لازدياد نفوذ رجال الشيعة الذين أصبحوا يتبوؤن المراكز الهامة لدى المغول، كنصير الدين الطوسي الذي كان مستشاراً لهولاكو، ووزير الخليفة مؤيد الدين بن العلقمي الذي أسند إليه حكم بغداد بعد سقوطها، هذا بالإضافة إلى ازدياد نفوذ المسيحيين الذين ساعدوا هولاكو في الاستيلاء على بغداد والقضاء على الخلافة العباسية، إذ من المؤكد أن يحظوا بمكانة عالية في تلك المناطق على حساب مكانة السكان المسلمين، خاصة وأن دوقوز خاتون زوجة هولاكو ـ التي كانت مسيحية نسطورية ـ لم تكن تألو جهداً في التعاطف مع المسيحيين الشرقيين، والعمل على رفع شأنهم لدى زوجها هولاكو[3].

7 ـ **تفجّر طاقات الأمة (قانون التحدي)**: شعرت الأمة بالخطر العظيم على دينها وعقيدتها، فبدأت تتحضر وتستعد للثأر من المغول، وتولى قيادة المعركة في عين

(1) النظم الإسلامية، ص: 130 حسن إبراهيم حسن.

(2) المغول، للصياد، ص: 283.

(3) جهاد المماليك، ص: 64.

جالوت سيف الدين قطز، فلم تأت تلك المعركة من فراغ، وأبداً لم تكن منفصلة عن معركة بغداد، والمدة الزمنية بينهما نحو عامين فقط، ولم تكن هذه الفترة بين المعركتين فترة سكون وترقب، أو فترة سلام، أو مهادنة، لا... بل كانت سلسلة معارك متصلة، فجاءت معركة عين جالوت ثمرة طبيعية ونتيجة حتمية لها، إذ كانت ضربة ثأر قاصمة، لم تقم للتتار بعدها قائمة[1]. لم يكن الطريق إلى عين جالوت سهلاً ولا ليناً، وإن مئات الآلاف الذين استشهدوا في سبيل الله ربما لم يكن أمامهم بارقة أمل في النصر أو النجاة، ولكنهم آثروا الشهادة، ضرباً للمثل وإعذاراً إلى الله وتعليماً لمن يليهم[2]، وسيأتي الحديث مفصلاً بإذن الله تعالى.

8 ـ مولد عثمان الأول مؤسس الدولة العثمانية (656هـ): في عام(656هـ ـ 1258م) ولد لأرطغل ابنه عثمان الذي تنتسب إليه الدولة العثمانية، وهي السنة التي سقطت فيها بغداد عام (656هـ) على أيدي المغول، لقد كان الخطب عظيماً والحدث جلل، والأمة ضعفت ووهنت بسبب ذنوبها ومعاصيها، ولذلك سلط عليها المغول، فهتكوا الأعراض، وسفكوا الدماء، وقتلوا الأنفس، ونهبوا الأموال، وخربوا الديار.

في تلك الظروف الصعبة، والوهن المستشري في مفاصل الأمة ولد عثمان مؤسس الدولة العثمانية، وهنا معنى لطيف ألا وهو أن بداية الأمة في التمكين هي أقصى نقطة من الضعف والانحطاط تلك بداية الصعود نحو العزة والنصر والتمكين، إنها حكمة الله وإرادته ومشيئته النافذة، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾ [القصص، الآية: 4]، قال سبحانه تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص، الآيات: 5 ـ 6]، وكانت بداية التمكين لبني إسرائيل بمولد موسى عليه السلام، ولا شك أن الله تعالى قادر على أن يمكّن لعباده المستضعفين في عشية أو ضحاها، بل في طرفة عين، وإنما أراد الله تعالى أن نتعلم ونراعي السنن الشرعية والسنن الكونية ولا بد من الصبر على دين الله، وإذا أراد الله شيئاً هيأ له أسبابه، وأتى به شيئاً فشيئاً بالتدرج لا دفعة واحدة. وبدأت قصة التمكين للدولة العثمانية مع ظهور القائد عثمان، الذي ولد في عام سقوط الخلافة

(1) نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي، د. عبد العظيم، ص: 148، .

(2) المصدر نفسه، ص: 154.

العباسية في بغداد[1].

9 ـ موقف الشعراء من سقوط بغداد: كان لهذا الحدث الجلل تأثيره العميق في نفوس المسلمين جميعاً، وكان أشد وقعاً وأعظم تأثيراً في نفوس الشعراء منهم، فنظموا المراثي التي تشيع الأسى في النفس وتثير الشجون وكان من تلك المراثي:

أ ـ تقي الدين بن أبي اليسر: قال تقيُّ الدين بن أبي اليسر قصيدته في بغداد وهي:

لسائلِ الدمعِ عن بغدادَ أخبار ... فما وُقوفُك والأحباب قد ساروا
يا زائرين إلى الزوراءِ لا تَفِدُوا ... فما بذاك الحِمى والدَّار ديّارُ
تاجُ الخلافة والرَّبعُ الذي شرُفت ... به المعالم قد عفَّاه إقفار
أضحى لعصف البِلى في ربعه أثر ... وللدموع على الآثار آثارُ[2]
يا نارَ قلبيَ من نارٍ لحرب وغى ... شبت عليه ووافي الرَّبع إعصار
علا الصليبُ على أعلى منابرها ... وقام بالأمر من يحويه زُنَّارُ
وكم حريمٍ سبتهُ الترك غاصبة ... وكان من دون ذاك الستر أستار
وكم بدور علَى البدرية انخسفت؟ ... ولم يَعُد لبدور منه إبدار
وكم ذخائر أضحت وهي شائعة ... من النهاب وقد حازته كفار
وكم حدودٍ أقيمت من سيوفهم ... على الرقاب وحُطَّتْ فيه أوزار
ناديتُ والسَّبْيُ مهتوك تجرّهم ... إلى السفاح من الأعداء دُعّار[3]

ب ـ شمس الدين الكوفي الواعظ: حيث قال:

عندي لأجل فراقكم آلام ... فإلام أعذَل فيكم وألام
من كان مثلي للحبيب مفارقاً ... لا تعذلوه فالكلام كلام
نعم المساعد دمعي الجاري على ... خَديَّ إلا أنه نمّام
ويذيب روحي نوْح كل حمامة ... فكأنما نوح الحمام حِمَام
إن كنتَ مثلي للأحبة فاقداً ... أو في فؤادك لوعة وغرام
قف في ديار الظاعنين ونادهما ... يا دار ما صنعت بك الأيام

---

(1) الدولة العثمانية، للصلاَّبي ص: 47، .

(2) شذرات الذهب (7/ 469)

(3) المصدر نفسه (7/ 470).

أعرضت عنك لأنهم مذ أعرضوا ... لم يبق في بشاشة تُشَام
يا دارُ أين زمان رَبعك مونقاً ... وشعارك الإجلال والإكرام
يا دار مُذ أفلت نجومُك عمّنا ... والله من بعد الضياء ظلام
فلبُعدهم قَرُب الردى ولفقدهم ... فُقد الهدى وتزلزل الإسلام
فمتى قبلتِ من الأعادي ساكناً ... بعد الأحبة لا سقاك غمام
يا سادتي أما الفؤاد فشيّق ... قَلِق وأما أدمعي فَسِجام
والدار مذ عدمت جمال وجوهكم ... لم يبق في ذاك المقام مُقام
لاحظ فيها للعيون ... وليس للأقدام في عرصاتها إقدام

إلى أن قال:

يا غائبين وفي الفؤاد لبعدهم ... نار لها بين الضلوع ضرام
لا كُتْبكُم تأتي ولا أخباركم ... تُروى ولا تُدنيكم الأحلام
أقصتْكُم الدنيا عليّ وكلما ... جَدَّ النوى لَعِبَتْ بي الأسقام
ولقيت من صرف الزمان وحوره ... ما لم تُخِيّله لِيَ الأوهام
يا ليتَ شعري كيف حال أحبتيَ ... وبأي أرض خيّموا وأقاموا
ما لي أنيس غير بيت قاله ... صَبٌّ رمته من الفراق سهام
والله ما اخترت الفراق وإنما ... حكمت عليّ بذلك الأيام[1]

ولم يكن هذا الشعور مقصوراً على شعراء العرب وحدهم، بل شاركهم في هذا الميدان شعراء الفرس كذلك، حتى إننا لنجد الشاعر الكبير سعدي الشيرازي ـ الذي كان يعيش في ذلك الوقت في شيراز آمناً مطمئناً بعيداً عن ميدان المعركة ـ لا يستطيع أن يخفي تأثره لهول هذا المصاب، فينظم قصيدة فارسية يرثي فيها المستعصم، ويبدي تحسره وتأسفه على زوال الخلافة العباسية، وترجمة ما قاله من شعر بالعربية:

للسماء حق إذ بكت على وجه الأرض دماً
لزوال ملك المستعصم أمير المؤمنين

كما نظم هذا الشاعر قصيدة أخرى عربية على نفس الموضوع كانت أروع قصائده، وكأنه أراد أن ينعي بهاتين القصيدتين الخلافة الإسلامية للمسلمين أجمعين: الفرس منهم

(1) أصداء الغزو المغولي، مأمون جرّار، ص: 146.

والعرب على السواء:

حبست بجفنيّ المدامع لا تجري
فلما طغى الماء استطال على السكر

نسيم صبا بغداد بعد خرابها
تمنيت لو كانت تمر على قبري[1]

(1) المغول في التاريخ، ص: 286.

الفصل الثالث

قيام دولة المماليك

المبحث الأول: أصول المماليك ونشاتهم

أولاً: من هم المماليك؟

المماليك، جمع مملوك، وهم من الرقيق الذين كانوا يشترون، يستخدمون لأغراض عديدة في المجتمعات منذ القدم. ويعتبر الرقيق الأتراك أول من استخدموا في الجندية في الدولة الإسلامية زمن الأمويين، إذ يذكر الطبري بأن نصر بن سيار ـ والي الأمويين على خراسان ـ اشترى ألف مملوك من الترك وأعطاهم السلاح وحملهم على الخيل[1]. وكانت بلاد ما وراء النهر المصدر الرئيس للرقيق الأتراك[2]، وفي العصر العباسي تزايد استخدام الأتراك في وظائف الدولة إضافة لاستخدامهم في الجيش[3]، وتوسعت أسواق النخاسة البيضاء، من شبه جزيرة القرم، وبلاد القوقاز والقفجاق ،آسيا الصغرى وتركستان وبلاد ما وراء النهر، وكان فيهم عنصر الأتراك، وفيهم الشراكسة والروم والأكراد وبعضهم من البلاد الأوروبية أيضاً[4]، وكان الخليفة المعتصم العباسي (218 .227هـ/ 833 ـ 842م) أول من شكل فرقاً عسكرية ضخمة منهم وأحلهم مكان العرب الذين أسقط أسماؤهم من ديوان الجند[5]، وقد بلغت مماليك الخليفة المعتصم

(1) تاريخ الطبري، عصر الدولة الأموية، نقلاً عن: بيت المقدس، د. النقر، ص: 47.
(2) تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي، للدكتور النقر، ص: 47.
(3) تاريخ المغول والمماليك، ص: 61 ـ 62، تاريخ بيت المقدس، ص: 47.
(4) المصدر نفسه، ص: 61.
(5) تاريخ المقدس، ص: 47.

بضعة عشر ألفاً، وقد امتلأت بهم بغداد مما أدى إلى اصطدامهم بالناس في الطرقات، وأثار سخط أهل العاصمة، فبنى لهم مدينة سامراء لتكون عاصمة لهم، ومقراً لجيوشه التركية من المماليك والأحرار[1]. وقد استخدم المعتصم الجيش التركي تخلصاً من النفوذ الفارسي والعربي في الجيش والحكومة سواء، وقد لجأ إلى الأتراك بالشراء والتربية والإعداد اعتقاداً منه بأنهم مجردون من الطموح الذي اتصف به الفرس، ومن العصبيّة التي عرف بها العرب[2]. ولكن سرعان ما أخذ أولئك المماليك في التدخل في شؤون الدولة حتى أمست في أيديهم يفعلون بها ما يشاؤون[3]، وأصبح الخليفة منذ مقتل المتوكل سنة (247هـ/ 861م) في أيديهم كالأسير، إن شاؤوا خلعوه وإن شاؤوا قتلوه[4]. وهكذا أصبح هؤلاء الجنود عنصر تمرد ضد الخلفاء فأساؤوا التصرف في شؤون الإدارة والحكم فانفضت الولايات من حول العاصمة، وكان من الطبيعي أن يزداد نفوذ الترك في الخلافة العباسية، بعد أن صار منهم الجيش والقادة، فلما ضعف سلطان الخلافة طمع عمال الأطراف إلى الاستقلال بولاياتهم، وصار الجيش وقادته من الأتراك وسيلة الخلفاء للقضاء على الحركات الاستقلالية المختلفة، فازداد المماليك الأتراك في الدولة العثمانية أهمية على أهميتهم، وأضحى منهم الولاة والوزراء وأرباب الدولة[5]، والواقع فمنذ العصر العباسي الأول اتخذ مصطلح «مماليك» معنى اصطلاحياً خاصاً عند المسلمين، إذ اقتصرت التسمية على فئة من الرقيق الأبيض الذي كان يشترى من أسواق النخاسة، ويستخدم كفرق عسكرية، خاصة ومع ضعف الخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني، كان من الطبيعي أن تزداد الحاجة للرقيق الأتراك، ذلك أن الدويلات التي انفصلت عن جسم الخلافة مثل: الطولونيين، والإخشيديين في مصر[6]، والصفاريين والسامانيين في خراسان[7] وما جاورها، والغزنويين والغوريين في الهند[8]، أقبلوا على شراء الأتراك الأرقاء لتأكيد سلطتهم، وبظهور الأتراك السلاجقة على مسرح

---

(1) قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، ص: 12.
(2) تاريخ المغول والمماليك مجموعة من المؤلفين، ص: 62.
(3) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، نقلاً عن: تاريخ المغول والمماليك، ص: 62.
(4) الفخري في الآداب السلطانية، لابن طباطبا، ص: 220.
(5) تاريخ المغول والمماليك، ص: 62.
(6) المواعظ والاعتبار، للمقريزي، نقلاً عن: تاريخ بيت المقدس، ص: 84.
(7) تاريخ إيران بعد الإسلام، عباس إقبال، ص: 97 ـ 167.
(8) تاريخ بيت المقدس، ص: 48.

السياسة في المشرق الإسلامي ازداد نفوذ الأتراك عموماً ذلك أن السلاجقة في الأصل من العناصر التركية، كما أن الدولة السلجوقية زادت من الاعتماد على المماليك الأتراك[1]. ويعد نظام الملك ـ الوزير الكبير للسلطان السلجوقي ألب أرسلان وملكشاه ـ هو أساس النظام التربوي المملوكي ، وقد جاء في كتابه «سياست نامه» أنه: يجب ألا يثقل على المماليك القائمين على الخدمة إلا إذا دعت الحاجة، ولا ينبغي أن يكونوا عرضة للسهام، ويجب أن يتعلموا كيف يجتمعون على الفور مثلما ينتشرون على الفور، ولا حاجة إلى التكليف كل اليوم بإصدار الأمر بمباشرة الخدمة لمن يكون من الغلمان، صاحب الماء، صاحب السلاح، والساقي، وأشباه ذلك، ولمن يكون في خدمة كبار الحجاب وكبير الأمراء، ويجب أن يؤمروا بأن يبرز للخدمة في كل يوم من كل دار عدد منهم، ومن الخواص عدد معين، هذا وقد كان للسلطان مماليك صغار، وكان عليهم من الصبيان الخاص رقباء، وعلى طوائفهم من جنسهم نقباء[2].

ونظَّم نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي المماليك، وكان أشد الناس تمسكاً بهم، وقد أحاط نفسه بجيش كبير من المماليك عرفوا بالمماليك النظامية نسبة لاسمه، فقوى بهم نفوذه[3]، ويعتبر نظام الملك أول من أقطع الإقطاعات للمماليك الأتراك، وبعد أن كان عطاء الجندي يدفع نقداً صار يعطى إقطاعاً[4]، فتسلم الأرض إلى المقتطعين يضمن عنايتها وعمارتها مما يحفظ قوة وثروة الدولة، كما فتحت القلاع والمدن والولايات للقادة من مماليكهم الذين سموا بالأتابكة[5]، والجدير بالذكر أن الوزير نظام الملك أول من لقب بلقب أتابك، وقد منحه إياه السلطان ملكشاه حين فوض إليه تدبير أمور الدولة سنة (465هـ)[6]، وهكذا اتخذ السلاجقة أشخاصاً من كبار المماليك ليكونوا مربين لأولادهم في القصر ومنحوهم الإقطاعات الكبيرة مقابل قيامهم بشؤونهم وتأديتهم الخدمة الحربية وقت الحرب، ولكن سرعان ما صار هؤلاء الأتابكة أصحاب النفوذ الفعلي في تلك الإقطاعات، وبخاصة عندما ضعفت الدولة وتفككت

(1) تاريخ بيت المقدس، ص: 48.
(2) دولة آل سلجوق، للأصفهاني، ص: 113، تاريخ المغول والترك، ص: 65.
(3) دولة آل سلجوق، ص: 76، تاريخ المغول والترك، ص: 66.
(4) تاريخ المغول والترك، ص: 66.
(5) صبح الأعشى (4/18)، تاريخ المغول والترك، ص: 66.
(6) أخبار الدولة السلجوقية، ص: 196، 197، تاريخ المغول، ص: 66.

فاستقلوا بولاياتهم شيئاً فشيئاً[1]، وأقاموا دويلات منفصلة عن جسم الدولة السلجوقية عرفت باسم: دويلات الأتابكة. وكان عماد الدين زنكي أقوى هؤلاء الأتابكة، وأسس دولة ضمت الموصل وحلب وديار ربيعة[2]. وعند وفاة عماد الدين زنكي، خلفه ابنه نور الدين محمود وتوسع بالدولة وضم دمشق وقضى على الدولة الفاطمية، وأصبحت مصر من ضمن الدولة الزنكية، وقد توسعت عن الحديث عن عماد الدين وابنه نور الدين في كتابي: «عصر الدولة الزنكية».

وقد استكثر نور الدين محمود من شراء المماليك الأتراك الذين صاروا يكونون غالبية جيشه[3]، وبعد الزنكيين جاء الأيوبيون فأكثروا من المماليك الأتراك واستخدموهم في الجيش، وتجدر الإشارة أن الجيش الذي قاده أسد الدين شيركوه إلى مصر كان معظمه يتكون من المماليك والأمراء النورية[4]، وقد سمي مماليك صلاح الدين الأيوبي بالمماليك الصلاحية، كما سمي مماليك أسد الدين شيركوه بالمماليك الأسدية، وفي عهد الملك العادل سمي المماليك بالعادلية نسبة إلى العادل، ولما توفي خلفه أبناؤه: الأشرف: موسى العادل، والكامل، وغيرهم، ونسب عدد من المماليك لكل واحد منهم، فعرف المماليك الأشرفية، والمماليك الكاملية[5].

1 ـ **نجم الدين أيوب والمماليك:** ينسب إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب إدخال تشكيلات جديدة على القوة العسكرية التي كان يتكون منها جيش السلطان الأيوبي، فقد اتخذ جملة من الإجراءات العسكرية تبناها السلطان الملك الصالح نجم الدين لتقوية الجيش الذي كان يترأسه، ومن أهمها: اهتمامه الكبير بشراء المماليك والغلمان الأتراك بشكل لم يسبق له نظير في تاريخ السلطة الأيوبية، فخلال مدة حكمه أضاف إلى الجيش في دفعة واحدة أكثر من ألف مملوك تركي جلبهم من إقليم التركستان (خوارزم)، ومن مناطق شمالي البحر الأسود وبحر قزوين[6]، وغيرها من الأماكن. وقد أصبح العنصر التركي في عهد الملك الصالح هو الغالبية المتميزة للجيش

---

(1) تاريخ المغول والترك، ص: 66.
(2) تاريخ بيت المقدس، ص: 49.
(3) المصدر نفسه، ص: 49.
(4) كتاب الروضتين (1/ 155)، تاريخ المغول والترك، ص: 68.
(5) تاريخ المغول والترك، ص: 69.
(6) الملك الصالح وإنجازاته السياسية والعسكرية، ص: 109.

الأيوبي، وسرعان ما شكلوا نواة عسكرية ـ سياسية نشطة تحولت إلى دولة المماليك البحرية، بعد أقل من بضع سنين على وفاة الملك الصالح، لتختفي تدريجياً العناصر المتكون منها الجيش الأيوبي، كالبربر والسودان. ومن أهم معالم التطوير في البنية العسكرية الأيوبية في عهد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب الآتي:

أ ـ الصالحية: وهي القوة العسكرية الجديدة من المماليك الأتراك، سمّوا باسم (الصالحية) نسبة إلى الملك الصالح أيوب نفسه، ومن الواضح أن الملك الصالح نجم الدين أيوب هو صاحب الفضل في تكوين هذه الفرقة الجديدة من المماليك التي تحمل أيضاً اسم البحرية، والتي قُدِّر لها أن تنهض بدور خطير في تاريخ مصر السياسي لما يقارب من قرنين ونصف، ومما يقوله ابن تغري بردي نقلاً عن ابن واصل مؤرخ الأيوبيين: اشترى من المماليك الترك ما لم يشتره أحد من أهل بيته حتى صاروا معظم عسكره وأرجحهم على الأكراد وأمرهم[1]. ويبدو أن الملك الصالح أراد أن يشكر المماليك في مساندتهم له للوصول إلى السلطنة، ولذلك عمل منهم جيشاً قوياً يسانده في فرض إرادته على الأقاليم الأيوبية بعد أن لمس غدر الطوائف الأخرى من الجند المرتزقة، مما دفعه إلى الاعتماد على تلك الفرقة الجديدة وترجيحهم على العناصر الأخرى السائدة[2]. وأما عن السبب في تسمية هذه الفرقة بالبحرية فالمرجح أن ذلك يرجع إلى اختيار السلطان الملك الصالح نجم الدين جزيرة الروضة على بحر النيل مركزاً لهم ولثكناتهم العسكرية، وكان معظم هؤلاء المماليك من الأتراك المجلوبين من بلاد القفجاق شمال البحر الأسود ومن بلاد القوقاز، قرب بحر قزوين، وقد كان للأتراك القفجاق، ميزاتهم الخاصة بين طوائف الترك العامة من حيث حسن الطلعة وجمال الشكل وقوة البأس، فضلاً عن الشجاعة النادرة، ولا شك في ولاء هؤلاء لسيدهم وقد كانوا قد شكلوا نواة لقوة عسكرية ضاربة في الجيش الأيوبي واحتلوا نتيجة لنيلهم ثقة واعتماد السلطان رتباً عسكرية كبيرة في جيش الملك الصالح نجم الدين أيوب، مثل المكانة التي كان يتمتع بها مقدمهم ركن الدين بيبرس، والذي لعب دوراً كبيراً في صعود الملك الصالح إلى السلطنة، وفيما بعد في المعارك ضد الصليبيين الفرنج وخاصة معركة المنصورة[3].

(1) الملك الصالح أيوب وإنجازاته السياسية والعسكرية، ص: 110.

(2) المصدر نفسه، ص: 110.

(3) المصدر نفسه، ص: 110.

ب ـ ثكنات المماليك الصالحية في جزيرة الروضة: اتخذ الملك الصالح أيوب لمماليكه قاعدة في جزيرة الروضة تعرف بقلعة الجزيرة أو قلعة الروضة، وجعلها مقراً لهم، وشرع في حفر الأساس وبنائها بين عامي (637هـ/ 1239م) و(638هـ/ 1240م)، ولتطوير هذه الثكنات هدم الكثير من الدور والقصور والمساجد التي كانت في الجزيرة وأدخلت في نطاق القلعة مشيداً فيها مبانٍ كثيرة، منها ستين برجاً، وأقام بها مسجداً وغرس بداخلها أنواعاً شتى من الأشجار، وقد شحنها بالسلاح وآلات الحرب وما يحتاج إليها من الغلال والأزواد والأقوات، وقد أنفق السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب على عمارتها أموالاً كثيرة، وكان السلطان يقف بنفسه ويرتب ما يعمل بها، وقد عمل كل ذلك من أجل أن ينتقل من قلعة الجبال ويسكن مع مماليكه البحرية[1].

جـ ـ هل السلطان الصالح نجم الدين هو أول من سمّى المماليك البحرية بذلك؟

إن معظم المؤرخين السابقين والمحدثين أجمعوا على أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب هو أول من رتب المماليك البحرية، وأول من سماهم بذلك نسبة إلى بحر النيل الذي أحاط بثكناتهم في جزيرة الروضة، غير أن هذا الرأي لا يستند إلى أساس صحيح للأسباب التالية:

- المؤرخون المعاصرون للصالح أيوب أمثال: ابن واصل وأبي شامة، لم يشيروا إلى بحر النيل كأصل لكلمة بحرية، هذه النسبة أوردها بعض المؤرخين المتأخرين من أمثال المقريزي وأبي المحاسن[2].
- من المعروف أن الفاطميين من قبل كانت لهم طائفة من الجند تعرف بالغز البحرية، كذلك كان للسلطان العادل الأول جد الصالح فرقة من المماليك، أسماها البحرية العادلية، وهذا يدل على أن الملك الصالح أيوب لم يكن أول من اخترع هذا اللفظ.
- يروي الخزرجي أن سلطان اليمن نور الدين عمر بن رسول (ت 647هـ) الذي كان معاصراً للصالح أيوب في مصر، استكثر من المماليك البحرية حتى بلغت عدتهم ألف فارس، وكانوا يحسنون من الفروسية والرمي ما لا يحسنه مماليك مصر، وكان منهم في حلقته وعساكر أمرائه، هذا النص يدل على أن لفظ بحرية

(1) الملك الصالح أيوب وإنجازاته السياسية والعسكرية، ص: 114.

(2) في التاريخ الأيوبي والمملوكي، أحمد مختار، ص: 85.

استخدم في بلاد إسلامية بعيدة كل البعد عن بحر النيل[1].

- أطلق المؤرخون العرب المعاصرون على بعض الفرق المسيحية العسكرية التي جاءت من أوروبا إلى الشام أثناء الحروب الصليبية اسم: الفرنج الغرب البحرية، فيروي أبو شامة أنه في سنة (593هـ) فتح الملك العادل يافا، ومن عجيب ما بلغني أنه كان في قلعتها أربعون فارساً من الفرنج البحرية، فلما تحققوا نقب القلعة وأخذها دخلوا كنيستها وأغلقوا عليهم بابها، وتجالدوا بسيوفهم بعضهم لبعض إلى أن هلكوا وكسر المسلمون الباب وهم يرون أن الفرنج ممتنعون فألقوهم قتلى عن آخرهم فعجبوا من حالهم[2]. فلفظ بحرية إذن لم يكن جديداً على مصر حينما أنشأ الملك الصالح أيوب فرقته البحرية، بل كان لفظاً عاماً أطلق على المسلمين والمسيحيين سواء، كما استخدم في مصر وفي خارج مصر قبل عهد الصالح أيوب، وهذا يؤيد القول بأن نسبة هذا اللفظ إلى بحر النيل أمر مشكوك في صحته، وأغلب الظن أنه سموا بحرية لأنهم جاءوا من وراء البحار[3]. وجوانفيل الذي حارب المماليك البحرية الصالحية في حملة لويس التاسع وأسر عندهم وتحدث إليهم، روايته لها قيمتها بصفته رجلاً معاصراً وشاهد عيان، وإذا علمنا أن المماليك البحرية زمن الأيوبيين والمماليك عبارة عن فئة من الغرباء الذين جلبوا من أسواق النخاسة بالقوقاز وآسيا الصغرى وشواطئ البحر الأسود، ثم بحر القرم إلى خليج القسطنطينية ومنه إلى البحر الأبيض المتوسط، حيث يسيرون فيه إلى ميناء الإسكندرية أو دمياط، تأيدت لدينا عبارة جوانفيل[4].

ثانياً: نظام التدريب والتربية والتعليم للمماليك:

كان الصالح أيوب ومن تبعه من الأمراء، لا يتعاملون مع المماليك كرقيق، بل على العكس من ذلك تماماً، فقد كانوا يقربونهم جداً منهم، لدرجة تكاد تقترب من درجة أبنائهم، ولم تكن الرابطة التي تربط بين المالك والمملوك هي رابطة السيد والعبد أبداً، بل رابطة المعلم والتلميذ، أو رابطة الأب والابن، أو رابطة كبير العائلة وأبناء عائلته، وهذه كلها روابط تعتمد على الحب في الأساس، لا على القهر أو التعسف،

---

(1) الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، للصلابي، ص: 341.

(2) في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص: 86.

(3) المصدر نفسه، ص: 86.

(4) المصدر نفسه، ص: 87.

حتى إنهم كانوا يطلقون على السيد الذي يشتريهم لقب (الأستاذ) وليس لقب السيد[1]. وكانت المدة التي يقطعها المملوك ليعتبر منتهياً من تعليمه تمر بمراحل ثلاث:

1 ـ **المرحلة الأولى**: تبتدئ من الصغر إلى سن البلوغ، حيث كان المماليك يُجْلَبون صغاراً، تحقيقاً لرغبة الملوك والسلاطين، ثم يوزَّعون على طباق القلعة حسب أجناسهم، تحت إشراف جهاز إداري محكم يتولى شؤونه في التعليم والتدريب والإعداد العسكري. وكان هذا الجهاز يتكون من الموظفين المختصين بشؤون الجيش وبخلفيات الأمم التي ينتمون إليها وبالدين الإسلامي الحنيف[2]، فأول ما يبدأ به المماليك في المرحلة الأولى تعليمهم ما يحتاجون إليه من القرآن الكريم، ولكل طائفة فقيه يأتيها كل يوم ويأخذ في تعليمها القرآن ومعرفة الخط، والتخلّق بآداب الشريعة الإسلامية، وملازمة الصلوات والأذكار[3]، وكان من ضمن المنهج الدراسي الخاص في هذه المرحلة الاهتمام بالتمرينات والألعاب الرياضية مدة من الزمن، وكانت الصلاة تؤدى في أوقاتها تحت المراقبة الدقيقة حتى تؤدى على وجهها الصحيح، وحتى تصبح ملكة عند المماليك من صغرهم، ويؤمرون بحفظ بعض الأدعية المأثورة لتلاوتها في مناسباتها وأهم ما في هذه المرحلة، إبراز التعاليم الدينية في صورة تعلقهم بها، حتى يصبح أحب شيء إليهم هو الأخلاق الفاضلة[4].

إن الفقهاء والعلماء والمؤدبين الذين أشرفوا على تربية المماليك ساروا على نهج رسول الله ﷺ في الاستفادة من القرآن الكريم وتربية الأتباع على معاني العقيدة الصحيحة والتصور الصحيح عن الله ﷻ، ومن أهم الجوانب التي اهتمت بها التربية الدينية في هذا الجانب:

- إن الله منزه عن النقائص موصوف بالكمالات التي لا تتناهى، فهو سبحانه الواحد لا شريك له، ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً.
- وأنه سبحانه خالق كل شيء ومالكه ومدبر أمره ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف، الآية: ٥٤].

(1) قصة التتار من البداية إلى عين جالوت، ص: 214.
(2) الحملات الصليبية، للصلابي، ص: 338.
(3) المصدر نفسه، ص: 340.
(4) أباطيل يجب أن تمحى، ص: 339، خطط المقريزي (3/ 346).

- وأنه تعالى جدّه مصدر كل نعمة في هذا الوجود، دقت أو عظمت، ظهرت أو خفيت ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل، الآية: 53] .

- وأن علمه محيط بكل شيء، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ولا ما يخفي الإنسان وما يعلن: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝١٢﴾ [الطلاق، الآية: ١٢].

- وأنه سبحانه يحصي على الإنسان أعماله بواسطة ملائكته، في كتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وسينشر ذلك في اللحظة المناسبة والوقت المناسب ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ﴾ [الكهف، الآية: 49].

- وأنه سبحانه يبتلي عباده بأمور تخالف ما يحبون وما يهوون، ليعرف الناس معادنهم، منهم من يرضى بقضاء الله وقدره ويسلم له ظاهراً وباطناً فيكون جديراً بالخلافة والإمامة والسيادة، ومنهم من يغضب، ويسخط فلا يساوي شيئاً ولا يسند إليه شيء: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك، الآية: 2].

- وأنه سبحانه يوفق ويؤيد وينصر من لجأ إليه، ولاذ بحماه، ونزل على حكمه في كل ما يأتي وما يذر: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩٦﴾ [الأعراف، الآية: ١٩٦].

- وأنه سبحانه، حدد مضمون هذه العبودية وهذا التوحيد في القرآن الكريم.

إن تربية أفراد الأمة على المعاني الإيمانية والتصورات الصحيحة خطوة مهمة في نهوض الأمة وتحتاج التذكير والتعليم والتربية لكل أفراد المسلمين، وقد ظل ﷺ يطرق مع أصحابه هذه الجوانب ويكررها عليهم وعلى من آمن به ويفتح عيونهم عليها من خلال الكتاب المنظور والكون المسطور، حتى خشعت قلوبهم وسلمت أرواحهم وطهرت نفوسهم، ونشأ لديهم تصور وإدراك لحقيقة ومضمون الألوهية يخالف تصورهم الأول وإدراكهم القديم(1).

واهتم ﷺ بغرس حقيقة المصير وسبيل النجاة لأصحابه موقناً أن من عرف منهم عاقبته وسبيل النجاة والفوز في هذه العاقبة، سيسعى بكل ما أوتي من قوة

---

(1) منهج الرسول في غرس الروح الجهادية، للدكتور سيد نوح، ص: 10 ـ 16.

ووسيلة لسلوك هذا السبيل، حتى يظفر غداً بهذه النجاة وذلك الفوز، فقد ركز ﷺ في هذا البيان على الجوانب التالية:

- إن هذه الحياة الدنيا مهما طالت فهي إلى زوال، وأن متاعها مهما عظم، فإنه قليل حقير: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس، الآية: 24] ﴿قُلْ مَتَٰعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء، الآية: ٧٧].

- وأن كل الخلق إلى الله راجعون، وعن أعمالهم مسؤولون ومحاسبون، وفي الجنة أو في النار مستقرون: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة، الآية: 36].

- وأن نعيم الجنة ينسي كل تعب ومرارته في الدنيا وكذلك عذاب النار ينسي كل راحة وحلاوة في هذه الدنيا: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء، الآيات: 205 ـ 207]، ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة، الآية: 24].

- وأن الناس مع زوال الدنيا واستقرارهم في الجنة، أو في النار سيمرون بسلسلة طويلة من الأهوال والشدائد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج، الآيتان: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾ [المزمل، الآية: 17، 18].

- وسبيل النجاة من شر هذه الأهوال ومن تلك الشدائد والظفر بالجنة والبعد عن النار[1]، وبالإيمان بالله تعالى وعمل الصالحات ابتغاء مرضاته ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ [البروج، الآيتان: ١١].

- ومضى ﷺ كذلك يبصّرهم ويذكرهم بدورهم ورسالتهم في الأرض، ومنزلتهم ومكانتهم عند الله، وظل ﷺ معهم على هذه الحال من التبصير والتذكير حتى

---

(1) منهج الرسول ﷺ في غرس الروح الجهادية، ص: 19 ـ 34.

انقدح في ذهنهم ما لهم عند الله وما دورهم ورسالتهم في الأرض، وتأثراً بتربيته الحميدة تولدت الحماسة والعزيمة في نفوس أصحابه فانطلقوا عاملين بالليل والنهار بكل ما في وسعهم وما في طاقتهم دون كسل أو توان، ودون كلل أو ملل، ودون خوف من أحد إلا من الله، ودون طمع من مغنم إلا أداء هذا الدور وهذه الرسالة، لتحقيق السعادة في الدنيا والفوز والنجاة في الآخرة[1].

إن الفقهاء والعلماء الذين تولوا مهام تربية وتعليم المماليك في نهاية عهد الدولة الأيوبية حرصوا على الإعداد الرباني، وكانت خطواتهم تتم بكل هدوء وتدرج، وانصبَّت أهدافهم التربوية على تعليم الكتاب والسنة، وتلاوة القرآن الكريم وتطهير النفوس من أمراضها، وإعداد الأفراد لتحمل تكاليف الجهاد والدفاع عن حياض الإسلام والهجوم على أعدائه، وقد غرست تلك التربية الكثير من القيم الأخلاقية، كالإخلاص لله والصبر، والتوكل والاستعانة، وكثرة الدعاء والثبات والخوف والحذر من الله ﷻ، وكان لهذه التربية المتميزة أثرها على أطفال وشباب المماليك فنشأوا على تعظيم أمر الدين الإسلامي، وتكونت لديهم خلفية واسعة عن الفقه الإسلامي، وأصبحت مكانة العلماء عالية عند المماليك طيلة حياتهم، وهذا من أسباب النهضة الحضارية الثقافية العلمية الراقية التي وجدناها في عهد المماليك.

2 ـ **المرحلة الثانية**: وهي التي تبتدئ بسن البلوغ حيث يشرع في تعليمه فنون الحرب من رمي السهام ولعب الرمح والضرب بالسيف وركوب الخيل، ويراعى في هذه المرحلة الأخذ بالشدة، فلا يتسامح مع المملوك إذا أخطأ، إنما يعاقب عقاباً قاسياً إذا بدا عليه الشذوذ في أخلاقه أو الانحراف عن المبادئ الدينية، ثم يقسمون إلى فرق يتولى كل واحدة منها معلم في العلوم الرياضية والتدريبات العسكرية، فيتمرنون على فنون من الرياضة العنيفة مثل السباحة والعوم لمسافات طويلة، والمبارزة، ولعب الكرة راجلين وراكبين، وأما في أوقات الفراغ فإنهم يُتْرَكون إلى هواياتهم العملية أو الدينية أو الأدبية، ومن هنا ندرك السر في ظهور عدد من المماليك في صفوف الفقهاء والشعراء والكتاب البارزين[2].

(1) منهج الرسول في غرس الروح الجهادية، ص: 37.

(2) أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، ص: 340.

وقد كان لهم خداماً وأكابر من النواب يفحصون الواحد منهم فحصاً شافياً ويؤاخذونه أشد المؤاخذة، ويناقشونه على تحركاته وسكناته، فإن عثر أحد مؤدبيه الذي يعلمه القرآن أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه على أنه اقترف ذنباً أو ترك أدباً من آداب الدين أو الدنيا، قابله على ذلك بعقوبة شديدة بقدر جرمه، فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك، وقادة يجاهدون في سبيل الله، وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل ويردعون من جار أو تعدى[1].

3 ـ **المرحلة الثالثة**: وهي مرحلة ظهور المواهب العسكرية، ووضوح الاتجاهات والكفايات السياسية، وفي هذه المرحلة تعقد المبارزات بين المماليك، لمعرفة مقدار المهارة الفنية والعسكرية في صفوفهم، ثم يرسلون إلى ميادين القتال ليعرف بلاؤهم هناك، ثم يكافأ المبارزون منهم بمنحهم الحرية، وعتقهم من الرق، وهناك من يبقى في الرق مع تولي المناصب، كالذين باعهم سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام ثم أعتقهم ووضع أثمانهم في بيت مال المسلمين، ويوضعون في وظائف عسكرية صغيرة، يترقى فيها المملوك حتى يبلغ الإمارة،فيمنحه السلطان لقبها، ثم يترقى في سلكها، حتى يصل إلى كبريات المناصب في الدولة، وكثيراً ما كانت ترتفع به مواهبه وعبقريته إلى منصب السلطنة ورياسة الدولة[2].

وبفضل الله، ثم هذه التربية المتميزة، نبغ من بين هؤلاء من خلّد التاريخ بطولاتهم، وسجل على صفحاته أمجاداً عظيمة للمسلمين من تصديهم للمشروع المغولي والقضاء على الوجود الصليبي في ديار المسلمين. يقول بروكلمان في شأنهم: وعدت الأجيال التالية عصر بيبرس، كما عدت عهدي الرشيد وصلاح الدين أحد العصور الذهبية في الإسلام[3].

4 ـ **نظام الأكل والثياب والراحة**: كان لتعليم المماليك نظام دقيق، فليس لهم أن يخرجوا من مقرهم إطلاقاً، لا سيما ليلاً، وكان عليهم أن يذهبوا إلى الحمام يوماً في الأسبوع، ويكون أكلهم اللحم والأطعمة والفواكه والحلوى، والفول المسلوق وغير ذلك، وكانوا يتسلمون كسوات فاخرة، وقد يأخذون مرتباً قليلاً قد يصل إلى ثلاث أو

---

(1) الخطط (2/ 213 ـ 214)، في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص: 84.

(2) مصر في عهد بناة القاهرة، ص: 169 وما بعدها، إبراهيم شعوط.

(3) تاريخ الشعوب الإسلامية، نقلاً عن: أباطيل يجب أن تمحى، ص: 341.

عشرة دنانير في الشهر[1]، وكان السلطان يذهب ليتفقد أحوالهم من طعام وغيره، ولكن منذ عهد السلطان برقوق سمح للمماليك بالخروج من الطباق والمبيت خارجها في القاهرة، بحيث أصبحت فقط مكاناً لتعليمهم. ويلاحظ المقريزي أن ذلك جرَّ إلى نسيان تقاليد المماليك في التعليم بالطباق، وأنهم أخلدوا إلى البطالة، وسعوا إلى نكاح النساء، حتى صارت المماليك أرذل الناس وأدناهم[2].

5 ـ **نظام التخرج وإنهاء الدراسة:** كانت الدراسة في الطباق بين أربعة أو خمسة عشر شهراً، وإن كانت أحياناً تمتد إلى عدة سنين، فإذا انتهت الدراسة، أعتق المملوك، ويكون الإعتاق بالجملة ويقام له احتفال خاص يحضره السلطان والأمراء وذلك بناء على شهادة تسمى إعتاق أو عتاقه[3]، فيسلم المملوك سلاحاً وفرساً ولباساً خاصاً «قماشاً» وإقطاعاً يبقى له مدى الحياة، وحينئذ يسمى عتيقاً أو معتوقاً ـ جمعها معاتيق ـ ومعتقه يسمى أستاذه، أما رفاقه المتحررون معه، فيسمون خشداشية[4]، مفردها خشداش وكان المماليك المتخرجون يقسمون أقساماً، لكل جماعة منهم باش أو نقيب، وكان منهم الذين يصلون إلى الإمارة وهي مرتبة تهيء للوظائف الكبرى الحاكمة في البلاط والجيش أو حتى للسلطنة نفسها، وكان من المفروض أن المملوك لا يحصل على الإمارة إلا بعد أن ينتقل من مرتبة إلى مرتبة، فلا يليها إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وامتزج بروح الإسلام وبرع في الشؤون الحربية، بحيث كان منهم من يصير من كثرة علمه في مرتبة فقيه أو أديب أو حاسب، لذلك كانوا سادة يديرون المماليك، وقادة يجاهدون في سبيل الله، وأهل سياسة.

6 ـ **لغة المماليك:** هي اللغة التركية، وهي لغة مملوءة بالفارسية والعربية حتى لو لم يكونوا تركاً، فعدد كبير من سلاطين المماليك وأمرائهم وصلوا إلى السلطنة ووظائفها العالية، دون أن تكون لهم معرفة بالعربية[5]، ومع ذلك، فكثير من المماليك أتقن العربية وأصبح فصيح اللسان، وله مسائل في الفقه عويصة، يرجع له فيها العلماء[6].

---

(1) الخطط (3/ 348) دولة المماليك، سمير فراج، ص: 32.

(2) دولة المماليك، سمير فراج، ص: 32.

(3) المصدر نفسه، ص: 32.

(4) أي زميل الخدمة.

(5) دولة المماليك، ص: 33.

(6) المصدر نفسه، ص: 33.

7 ـ **رابطة الأستاذية بين المماليك**: كانت أقوى الروابط بين المماليك، هي رابطة الأستاذية بين الأستاذ ومماليكه، الذين اشتراهم وأشرف على تربيتهم وتدريبهم، كما كان يوليهم عناية كاملة، بل إن الأستاذ كان يتناول طعامه مع مماليكه ويحرص على مجالستهم. وزيادة أواصر العلاقة بينه وبينهم لكي يضمن ولاءهم وكان الملك المنصور قلاوون يخرج في غالب أوقاته إلى الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للمماليك ويأمر بعرضه عليهم ويتفقد لحمهم ويختبر طعامهم في جودته ورداءته، فإن رأى فيه عيباً اشتد على المشرف والاستادار ونهرهما، وحلَّ بهما أي مكروه[1].

وكان يقول: كان الملوك يعملون شيئاً يذكرون به، ما بين مال وعقار، وأنا عمرت أسواراً، وعملت حصوناً مانعة لي لأولادي وللمسلمين، وهم المماليك، وكانت المماليك تقيم بهذه الطباق[2] لا تبرح فيها[3].

وهذا النص يكشف عن أحد أركان المؤسسة المملوكية والعلاقات داخلها، فالسلطان ـ وهو مملوك في الأصل ـ يدرك أهمية المماليك في حماية عرشه وأسرته، ويصفهم بأنهم مثل الأسوار والحصون المانعة، كما إنهم عمل يخلد اسمه بين الملوك والحكام. ومن ناحية أخرى يكشف هذا النص عن أسباب قوة رابطة (الأستاذية) التي ربطت برابطة الولاء الشخصي بين السيد ومماليكه، فواجبه أن يرعاهم ويغدق عليهم ويعتني بهم، وواجبهم أن يحموه وأن يصونوا عرشه ويدافعوا عن أسرته[4].

8 ـ **رابطة الخشداشية (الزمالة)**: وهي من أقوى الروابط القائمة على الولاء الشخصي في الدولة، وتفسير ذلك أن هؤلاء الذين جُلبوا أطفالاً، ثم عزلوا عن المجتمع في معسكرات صارمة القوانين،وعاشوا حياتهم الباكرة في سن الشباب سوياً، لم يكونوا يجدون الأمان والطمأنينة سواء مع بعضهم البعض، ولهذا تميزت الفرقة المملوكية بالطائفية القائمة على الولاء الشخصي، فالمماليك كانوا عادة ينسبون إلى السلطان الذي اشتراهم، فالمماليك الظاهرية مثلاً نسبة إلى الظاهر بيبرس، والمعزية نسبة إلى المعز أيبك، والناصرية نسبة إلى الناصر محمد بن قلاوون، وهكذا، ومن

(1) السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: 47، د. قاسم عبده.

(2) الطباق: الثكنات العسكرية.

(3) الخطط (2/ 213)، السلطان المظفر، ص: 47.

(4) السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: 48.

ناحية أخرى أدّى هذا إلى زيادة نسبة الصراعات الدموية في سبيل الوصول إلى الحكم[1].

ولقد أحسن السلاطين الذين جمعوا بين التربية الدينية والتدريب العسكري للمماليك في معسكراتهم، ولذلك نجد هؤلاء المقاتلين الأفذاذ في الفترة الأولى من عهد المماليك يتميزون بالحماسة والغيرة على البلاد والمقدسات الإسلامية، وهو الأمر الذي تجلى واضحاً[2] في تصديهم للمشروع المغولي، وقضائهم على الوجود الصليبي في بلاد الإسلام.

9 ـ هل هؤلاء أجلاب؟: لا يمكن أن نتخيل مدلول كلمة «المماليك» بمعنى الرقيق المجلوب من أسواق النخاسة بالنسبة لكل هؤلاء المماليك، لأننا نعلم أن جماعات من الأتراك الفارين من وجه المغول إلى الشرق الأدنى دخلوا في خدمة سلاطين مصر، ولم تمض سوى فترة وجيزة حتى نشأ بين هذه الجموع التركية، جيل جديد من الحكام، بسط سلطانه على مصر وسوريا حتى الفتح العثماني، كما أن بعض هؤلا المماليك، كان من سلالة ملكية يتصل في نسبه إلى ملك خوارزمشاه، مثل السلطان «قطز» بطل موقعة عين جالوت،ولقد كفل نظام تربيتهم الدقيق، الذي يفوق نظام الداخلية الآن في أي مدرسة أو جامعة أو كلية عسكرية كفل لهؤلاء القوم صيانة مركزهم الأدبي، كما آتى ثماره في الحفاظ على أخلاقهم، وأتاح فرصة الظهور في المجالات المختلفة، مما عاد على البلاد بالخصب والغنى، وعلى العلم والثقافة والفنون، بما فاق كل إنتاج علمي وثقافي وفني في العالم الإسلامي[3].

10 ـ الكليات العسكرية الحديثة: إن الدول العربية والإسلامية في يومنا هذا عليها أن تعيد النظر في عقيدة جيوشها، وأن تربي المنتسبين إليها على العقيدة الصحيحة، والعبادة السليمة والأخلاق الفاضلة، وتجارب الحروب في تاريخ أمتنا، وسنن الله في انتصار الأمم وهزيمتها،وهذا يحتاج إلى إعادة النظر في برامج الدراسة، والقائمين عليها، ولا ننسى أبداً أهمية الاستفادة من التكنولوجية المعاصرة، والحرب النفسية وتطوير السلاح ومعرفة أسراره، والعمل بقول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا

(1) السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: 52.
(2) المصدر نفسه، ص: 51.
(3) أباطيل يجب أن تمحى، ص: 341.

أَسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ [الأنفال، الآية: 60].

11 ـ الشيخ عز الدين بن عبد السلام بائع أمراء المماليك: رأى الشيخ عز الدين بن عبد السلام أن المماليك الذين اشتراهم نجم الدين أيوب ودفع ثمنهم من بيت مال المسلمين واستغلهم في خدمته وجيشه وتصريف شؤون الدولة، يمارسون البيع والشراء وهو تصرف باطل، لأن المملوك لا ينفذ تصرفه، فأخذ سلطان العلماء لا يمضي لهم بيعاً ولا شراء، فضايقهم ذلك وشجر بينهم وبينه كلام حول هذا المعنى، فقال لهم بائع الملوك: أنتم الآن أرقاء لا ينفذ لكم تصرف، وإن حكم الرق مستصحب عليكم لبيت مال المسلمين، وقد عزمت على بيعكم، فاحتدم الأمر، وبائع الملوك مصمم، لا يصحح لهم بيعاً ولا شراء، ولا نكاحاً، فتعطلت مصالحهم، وكان من جملتهم نائب السلطان الذي استشاط غضباً، واحمر أنفه، فاجتمع مع شاكلته، وأرسلوا إلى بائع الملوك، فقال: نعقد لكم مجلساً وينادى عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريق شرعي فرفعوا الأمر إلى السلطان، فبعث إليه، فلم يرجع فخرجت من السلطان كلمة فيها غلظة حاصلها الإنكار على الشيخ ـ ﷺ ـ في دخوله في هذا الأمر، وإنه لا يتعلق به[1].

وهنا أدرك الشيخ العز أن أعوان الباطل تمالؤوا عليه ووقفوا في وجه الحق وتطبيق الشرع، وتنفيذ الأحكام التي لا تفرق ـ في الدين ـ بين كبير وصغير، وحاكم ومحكوم وأمير ومواطن، فلجأ إلى سلاحه الضعيف الباهت في ظاهره، القوي الفعال المدمر في حقيقته وجوهره وسنده، وأعلن الانسحاب وعزل نفسه عن القضاء، وقرر الرحيل عن القرية الظالم أهلها والتي ترفض إقامة شرع الله، ونفذ العز قراره فوراً، وحمل أهله ومتاعه على حماره، وركب حماراً آخر وخرج من القاهرة، وما إن انتشر الخبر بين الناس في مصر حتى تحركت جموع المسلمين وراءه فلم تكن امرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤوبه إليه بتخلف، ولا سيما العلماء والصالحين والتجار وأمثالهم ولسان حالهم يقول: لا خير في مصر إن لم يكن فيها العز بن عبد السلام وأمثاله، القائمون بالكتاب والسنة والآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، والمجاهدون في سبيل الله، لا

(1) صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء، ص: 31.

يخافون لومة لائم، ولا شماتة شامت، ورُفعت التقارير حول هذه الظاهرة إلى القاهرة، وكانت التوصيات: متى راح ذهب ملكك، فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيب قلبه، فرجع أن ينادى على ملوك مصر وأمرائها وبيبعهم، وأرسل إليه كبيرهم ـ نائب السلطان ـ بالملاطفة والشيخ لم يتغير، لأنه يريد إنفاذ حكم الله، عندئذ انزعج نائب السلطان وأصدر قراره بتصفية الشيخ جسدياً وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض، والله لأضربنه بسيفي هذا بنفسه في جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ والسيف في يده صلتاً وطرق الباب فخرج إليه ولد الشيخ، فرأى أمراً جلداً، وعاد إلى أبيه، وأخبره الحال، فقال بائع الأمراء ممتلئاً إيماناً بربه، قائلاً لولده: يا ولدي، أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله، فلما رآه نائب السلطان اهتزت يده وارتعدت فرائصه وسقط أرضاً، فبكى، وسأل الشيخ أن يدعو له قائلاً: يا سيدي، خيراً أي العمل؟ فقال الشيخ: أنادي عليكم وأبيعكم، قال نائب السلطان: ففيم تصرف ثمننا؟ قال الشيخ: في مصالح المسلمين، قال نائب السلطان: من يقضيه؟ قال الشيخ: أنا. وأنفذ الله أمره على يد الشيخ ﷺ فباع الأمراء منادياً عليهم واحداً تلو الآخر وغالى سلطان العلماء في ثمنهم وقبضه وصرفه في وجوه الخير التي تعود بالنفع على البلاد والعباد(1).

ومن هنا عرف الشيخ العز بأنه (بائع الملوك) واشتهر أمره في الآفاق، وسجَّل له التاريخ موقفاً فريداً لم يشهده العالم أجمع، وعلا صوت الحق، وعز العلماء وتم تطبيق شرع الله تعالى، وهزم الباطل وطاشت سهام السلطة والقوة المادية، أمام سلطان الله تعالى وأحكامه، وصدق على العز حديث رسول الله ﷺ: **«أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»**(2). وعاد العز إلى عرينه في كنف الله تعالى ورعايته وهو القائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ۝٣٨﴾ [الحج، الآية: 38]، والقائل: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٢١﴾ [يوسف، الآية: 21].

12 ـ **عصر الأفذاذ:** هذه التسمية انفرد بها ـ على حسب علمي ـ الشيخ محمد محمد حسن شُرَّاب حيث قال: لا أدري من الذي أضاف هذا العصر إلى لفظ (المماليك) ولا أعرف من أول من أعطاهم هذا اللقب، إن كان الذين وضعوا هذا

(1) صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء، ص: 31.

(2) العز بن عبد السلام للزحيلي، ص: 182.

الوصف (المملوكي) هم العرب، فإنهم والله أساءوا إلى من أحسن إلى بلادهم، وإن كان الذين وضعوا هذا الوصف هم الغربيين الأوروبيين، كان علينا أن نعرف أن الأعداء لا يصفون عهودنا التاريخية إلا بأحسن الصفات إليهم، وأبغض الصفات إلينا، فما كان لنا أن نقلدهم ونسير على هديهم، فالغربيون الصليبيون يحقدون على عصر صلاح الدين، وعلى عصر (الأفذاذ)، وقولهم (المماليك) إنما هو لقب (ذم)، هم يحقدون على هؤلاء الأفذاذ، لأنهم حرموا الصليبيين من تحقيق أطماعهم في العودة إلى القدس، ذلك أن الحملات الصليبية لم تفتر بعد صلاح الدين. فهم دخلوا القدس مرتين بعد أن حرَّره صلاح الدين، وكانت بقيت لهم ممالك وحصون كثيرة على الساحل وهؤلاء الذين نلقبهم (المماليك) هم الذين نظفوا البلاد من الصليبيين وأزالوا آخر مملكة صليبية سنة (690هـ/ 1291م) أي: بعد فتح القدس بمائة سنة. وهؤلاء الذين نصفهم بالمماليك، هم الذين هزموا أكبر غزو وحشي على البلاد الإسلامية، بعد الغزو الصليبي ألا وهو الغزو المغولي، ومعركة عين جالوت تتحدث عنها الركبان، وتعد رمزاً لقوة الإسلام.. وعهد هؤلاء الأفذاذ العلمي من العهود الزاهرة، وآثارهم العلمية والعمرانية شاهدة لتاريخهم المجيد، فقد عدَّدت لهم في القدس وحدها خمس وثلاثين مدرسة لتعليم العلوم النافعة، وعشرات المساجد، والبنايات والأوقاف والأربطة والإصلاحات[1]، إنهم إذا كانوا مماليك، فإنهم في رأيي مماليك الإحسان على معنى قول الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم   فطالما استعبد الإنسان إحسان

فأولئك أحسوا في قرارة نفوسهم أن الله أحسن إليهم عندما جعلهم مسلمين وحكاماً، فامتلك قلوبهم هذا الإحسان، لم يفخروا بنسب ينتمون إليه، وإنما فخروا بأعمالهم التي خلدتهم، ومن حقهم علينا أن نلقبهم بأحب الألقاب إليهم في حياتهم، ومن حقهم علينا أن نذكرهم في التاريخ بالصفة التي تدل على الوفاء لهم جزاء ما قدموا للعرب والمسلمين، ومن الأوصاف المناسبة لعصرهم أن نقول: «عصر الأفذاذ»[2].

ثالثاً: جهود المماليك في دحر الحملة الصليبية السابعة:

عندما قرر الصليبيون الزحف نحو القاهرة توفي الملك الصالح أيوب، وكانت محنة عظيمة ألمَّت بالمسلمين[3]، وكان عمره عند وفاته 44 سنة، وقد عهد لولده الملك

---

(1) بيت المقدس والمسجد الأقصى، ص: 424 ـ 425.

(2) المصدر نفسه، ص: 426.

(3) الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، ص: 353.

المعظم تورانشاه ولم يكن موجوداً في مصر، وظهرت على مسرح الأحداث زوجته شجرة الدر وأدركت خطورة إذاعة خبر وفاة زوجها نجم الدين على الجند، فقررت إخفاء خبر الوفاة، ولم يعرف ذلك إلا الخاصة وقدمت وثيقة تحمل توقيع السلطان بتعيين ابنه تورانشاه قائداً عاماً للجيوش ونائباً للسلطان أثناء مرضه، وخلال ذلك كان الصليبيون يتحركون جنوباً ووصلوا إلى مدينة فارسكور في الثاني عشر من ديسمبر (1249م)، ومنها تقدموا إلى شار مساح ثم البرامون، وأصبح بحر أشمون هو الفاصل بين المسلمين والصليبيين، وعند هذه المرحلة توقفت القوات الصليبية وأقامت معسكرها على الضفة الشمالية وعملت على تأمين معسكرها بحفر الخنادق وإقامة المتاريس، وظلوا على هذا حوالي شهر ونصف، ثم شرعوا في بناء جسر ليعبروا عليه على الضفة الجنوبية لبحر أشموم، ولم تكن عملية إقامة الجسر بالأمر الهين، فقد أمطرهم المسلمون وابلاً من القذائف ولم يتمكنوا من إقامته، وأخيراً نجح الصليبيون في التعرف على مخاضة ـ دلهم عليها أحد العربان، وفي رواية أحد الأقباط[1]، بعدما رشوه بالمال ـ تمكنوا من العبور إلى المعسكر الإسلامي.

وكانت خطة الملك لويس أن يعبر هو وإخوته وجزء كبير من الجيش المخاضة إلى الجنوب، ويقوم بقية الجيش الصليبي بحراسة المعسكر الصليبي، وبعد إتمام عملية العبور تقوم الفرقة المخصصة للحراسة باستكمال عملية إقامة الجسر، وإذا تم النصر على القوات الإسلامية في المنصورة يتقدم الجيش الصليبي إلى القاهرة، وعبرت القوات الصليبية في فجر الثامن من فبراير عام (1250م)، وكانت عملية شاقة وبطيئة بسبب عمق المخاضة، وكان في طليعة القوات الصليبية الكونت آرتو الذي شن على القوات الإسلامية المواجهة له هجوماً، وحقق نصراً عليها، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى الأمير فخر الدين أسرع بدعوة القوات الإسلامية والتحم مع الصليبيين في معركة عنيفة وقع فيها فخر الدين شهيداً، فغسل بذلك عار انسحابه من جيزة دمياط، واغتر الكونت آرتو بالنصر الذي أحرزه ولم يبال بأوامر الملك لويس التاسع ونصائح القادة الصليبيين بالتريث حتى تتكامل القوات الصليبية وأراد أن ينفرد بشرف النصر لنفسه[2].

1 ـ معركة المنصورة: اغتر روبرت آرتو بقوته، وتابع زحفه إلى المنصورة لاقتحامها، والقضاء على الجيش الأيوبي، وأعرض عن توسلات الراوية بأن ينتظر

(1) تاريخ الأيوبيين، ص: 85.

(2) تاريخ الحروب الصليبية، محمود سعيد، ص: 312.

وصول الملك والجيش الرئيس، ونصحه بعضهم بالحيطة والحذر، ثم بادر باقتحام المنصورة[1]، فأضحت المنصورة ساحة لحرب الشوارع وتولى قيادة المسلمين الأمير بيبرس البندقداري فأقام جنده في مراكز منيعة داخل المدينة، وانتظروا حتى تدفق الصليبيون بجموعهم إلى داخلها، ولما أدركوا أنهم بلغوا أسوار القلعة التي اتخذها المصريون مقراً لقيادتهم، خرج عليهم المماليك في الشوارع والحارات والدروب وأمعنوا في قتالهم، ولم يستطع الصليبيون أن يلتمسوا لهم سبيلاً إلا الفرار، فوقع الاضطراب بين الفرسان، ولم يفلت من القتل إلا من ألقى بنفسه في النيل، فمات غريقاً أو كان يقاتل في أطراف المدينة[2]، وكانت المنصورة مقبرة الجيش الصليبي[3]، وأول ابتداء النصر على الفرنج، وجزع لويس التاسع بتلك الصدمة لكنه تملك نفسه، وبادر إلى إقامة خط أمامي لمواجهة ما توقعه من هجوم، من قبل فرسان المماليك ضد قواته، كما أقام جسراً من الصنوبر على مجرى البحر الصغير عبر عليه النيل مع رجاله، ووزع رماته على الطرف البعيد للنهر حتى يكفلوا الحماية للجند عند عبورهم متى دعت الضرورة إلى ذلك، لكن المماليك لم يتركوه وشأنه وبادروا إلى شن هجوم على المعسكر الصليبي وقاد الملك الفرنسي المعركة بنفسه وأجبر المسلمين على التراجع نحو المنصورة، وعلى رغم من الانتصار الصليبي، إلا أن موقف الصليبيين أخذ يزداد سوءاً بسرعة واضحة، بعد أن قلت المؤن، كما فقدوا نسبة مرتفعة من فرسانهم في معركة المنصورة، وانتشرت الأمراض في معسكرهم، وظل الملك الفرنسي زهاء ثمانية أسابيع، في معسكره أمام المنصورة، آملاً بأن يحدث انقلاب في مصر، أو يقوم المصريون بثورة على الحكم الأيوبي[4].

2 ـ تورانشاه يقود المعركة: وصل تورانشاه إلى المنصورة في (17 ذو القعدة 647هـ/ 21 شباط 1250م) بعد أن أعلن سلطاناً في دمشق، وهو في طريقه إلى مصر، فأعلنت عندئذ وفاة الصالح أيوب وسلمته شجرة الدر مقاليد الأمور، فأعد خطة عسكرية كفلت له النصر النهائي على الصليبيين[5]. وكان وصوله إلى مصر إيذاناً بإعادة ارتفاع

---

(1) الحملات الصليبية الرابعة الخامسة، السادسة والسابعة، ص: 356.

(2) الشرق الأدنى في العصور الوسطى الأيوبيون، ص: 150.

(3) السلوك (1/ 448)، تاريخ الأيوبيين، ص: 386.

(4) الحملات الصليبية، للصلابي، ص: 356.

(5) السلوك (1/ 449)، تاريخ الأيوبيين، ص: 387.

الروح المعنوية عند المصريين وبين صفوف المماليك وتيمّن الناس بطلعته[1]. وأمر بإنشاء أسطول من السفن الخفيفة نقلها إلى فروع النيل السفلى وأنزلها في القنوات المتفرعة، فأخذت تعترض طريق السفن الصليبية التي تجلب المؤن للجنود من دمياط، فقطع بذلك الطريق عليها وحال دون اتصال الصليبيين بقاعدتهم: دمياط[2]، وفقد الصليبيون عدداً كبيراً من سفنهم قدّرتها المصادر بما يقرب من ثمان وخمسين سفينة، انقطع المدد من دمياط عن الفرنج ووقع الغلاء عندهم، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام، ولا يقدرون على الذهاب، وتشجع المسلمون وطمعوا فيهم، وأدرك لويس التاسع استحالة الزحف نحو القاهرة في ظل هذه الاوضاع وبدأ يفكر في العودة إلى دمياط، وفعلاً أمر بالارتداد وأحرق الصليبيون ما عندهم من الخشب وأتلفوا مراكبهم ليفروا إلى دمياط، كما أدرك أن عملية الانسحاب لن تكون سهلة، وأن المماليك سوف يطاردون جيشه، لذلك لجأ قبل أن يبدأ بعملية الانسحاب إلى فتح باب المفاوضات مع تورانشاه على أساس ترك دمياط مقابل أخذ بيت المقدس[3]، غير أن الوقت قد فات على مثل هذه المساومة، وكان طبيعياً أن يرفض تورانشاه هذا الاقتراح وبخاصة أنه علم بحرج موقف الملك، وفي صباح المحرم عام (648 هـ/نيسان عام 1250م) بدأت عملية المهندسون الصليبيون على أن يدمروا الجسر الذي أقاموه لاجتياز البحر الصغير، فلم يلبث المماليك أن عبروه وراءهم، وقاموا بعملية مطاردة منظمة، وهاجموه من كل ناحية[4]، وبفضل ثبات الملك الفرنسي وحسن إدارته بعملية الانسحاب، وصل الصليبيون إلى شرمساح عند منتصف الطريق بين المنصورة ودمياط، ولكن كان هذا الملك مريضاً، وأحاط المماليك بجيشه من كل جانب، وراحوا يتخطفونهم، وشنوا عليهم هجوماً عاماً في فارسكور ولم يقو الملك على القتال، وتم تطويق الجيش بأكمله، وحلت به هزيمة منكرة، ووقع كل أفراده تقريباً بين قتلى وجرحى وأسرى، حيث سيق مكبلاً إلى المنصورة، وسُجن في دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان، وعُهد إلى الطواش صبيح بحراسته وخُصّص من يقوم بخدمته، وكانت معظم الحرب في فارسكور، فبلغت عدّة القتلى عشرة آلاف في قول المقل، وثلاثين ألفاً في قول المكثر،

---

(1) النجوم الزاهرة (6/ 364).

(2) المصدر نفسه (6/ 364).

(3) تاريخ الأيوبيين، ص: 288.

(4) النجوم الزاهرة (6/ 364)، تاريخ الأيوبيين، ص: 388.

وأسر من الفرنج عشرات الألوف بما فيهم صناعهم وسوقتهم، وغنم المسلمون من الخيل والبغال والأموال ما لا يحصى كثرة، وأبلت الطائفة المملوكية البحرية ـ لا سيما بيبرس البندقداري ـ في هذه المعركة بلاء حسن وبان لهم أثر جميل[1].

3 ـ **صور من شجاعة المماليك:** تعددت صور شجاعة هؤلاء المماليك في التصدي لأعداء الإسلام، وشهد التاريخ ببسالة الدور الذي لعبه المماليك في مقاومة الصليبيين، فذكر جوانفيل أن الكونت بواتييه، والكونت فلاندر وبعض قادة قواتهم كانوا يرسلون إلى الملك لويس يتوسلون إليه: أن يقصر عن الجريمة لعجزهم عن متابعته لضغط المماليك الشديد عليهم[2]. ويقول: ثم جاء للكونتابل جندي كان يعمل صولجاناً ويرتجف خوفاً، وأخبره أن الترك قد أحدقوا بالملك وأنه في خطر عظيم فرجعنا، وأبصرنا بيننا وبينه ما لا يقل عن ألف مملوك، والملك قريب من النهر والمماليك يدفعون قواته ويضربون السيوف والصولجانات وأرغم القوات الأخرى على التقهقر[3]، وقد وصفهم أحد المؤرخين عن تلك المعركة بقوله: والله لقد كنت أسمع زعقات الترك كالرعد القاصف، ونظرت إلى لمعان سيوفهم وبريقها كالبرق الخاطف، فللّه درهم لقد أحيوا في ذلك اليوم الإسلام من جديد بكل أسد من الترك قلبه من حديد، فلم تكن إلا ساعة وإذا بالإفرنج قد ولوا على أعقابهم منهزمين، وأسود الترك لأكتاف خنازير الإفرنج ملتزمين[4].

وتضمنت انتصارات المماليك على الصليبيين أنهم استطاعوا الاستيلاء على ثمانين سفينة من سفن الصليبيين، بعد أن قاموا بسحب بضعة سفن من سفن المسلمين إلى اليابسة، وأنزلوها ثانية إلى الماء على بعد فرسخ من شمال معسكرهم، فاستحالت عودة الفرنج الذين ذهبوا إلى دمياط لجلب المؤونة،وتم قتل جميع بحارة الثمانين سفينة، كما استولوا على اثنين وثلاثين مركباً مما أضعفهم وطلبوا الصلح[5].

4 ـ **لويس التاسع في الأسر وشروط الصلح:** لم يهتم المسلمون كثيراً بعد انتصارهم بأمر دمياط، ونظروا إلى أبعد من ذلك ففكّروا باسترداد ما بأيدي الصليبيين

---

(1) نهاية الأرب في فنون الأدب (29/ 356).
(2) السلوك (1/ 450) الحملات الصليبية، للصّلاّبي، ص: 358.
(3) الجواري والغلمان في مصر، نجوى كمال، ص: 403.
(4) المصدر نفسه، ص: 404، كنز الدرر (7/ 376).
(5) الجواري والغلمان في مصر، ص: 405 ـ 406.

في بلاد الشام، فاستغلوا وجود الملك الفرنسي في الأسر لتحقيق هذه الغاية، لكن لويس التاسع أجاب بأن هذه البلاد ليست في أملاكه، بل تخص الملك كونراد ابن الإمبراطور فريدريك الثاني[1]، وعبثاً حاول تورانشاه إرغامه على الاعتراف، وأصرَّ لويس التاسع على رأيه، وقال: أنه أسيرهم، ولهم أن يفعلوا به ما يشاؤون[2]، فبادر تورانشاه إلى إغفال هذا الموضوع لكنه قرَّر غزو بلاد الشام، وغالى في شروط الصلح، إذ كان لزاماً على الملك الفرنسي أن:

- يفتدي نفسه بأن يؤدي مليون بيزنتة وهذا مبلغ كبير.
- يُطلق سراح عدد كبير من الأسرى المسلمين.
- يسلم دمياط إلى المسلمين.
- يستمر الصلح مدة عشر سنوات[3].

وافق الملك الفرنسي على هذه الشروط، وأقسم الطرفان على احترامها[4]، وانتظر لويس لبعض الوقت حيث كانت زوجته تعاني آلام الوضع، وأرسل بعض رجاله إلى دمياط لتسليمها للمسلمين، ودخلت القوات المدينة في السابع من مايو بعدما ظلت في أيدي قوات لويس ما يقرب من عام، ودفع لويس نصف الفدية حسبما اتفق عليه وأطلق سراح الصليبيين من البر الشرقي إلى جيزة دمياط، ثم تابعهم باقي الصليبيين.

وفي يوم الأحد الرابع من صفر عام (648هـ) الموافق الثامن من مايو عام (1250م) أقلعت سفن الفرنج واتخذت طريقها إلى عكا حاملة فلول الحملة بعد أن أنهكتها الهزائم وحلت بها الكوارث[5].

5 ـ من أسباب هزيمة الصليبيين في الحملة الصليبية السابعة: ساهمت مجموعة من الأسباب في هزيمة الحملة الصليبية السابعة والتي من أهمها:

أ ـ التطوير العسكري في الجيش الأيوبي.

---

(1) مذكرات جوانفيل، ص: 157، 159 ـ 161.

(2) تاريخ الأيوبيين، ص: 389، حملة لويس التاسع، ص: 206.

(3) تاريخ الأيوبيين، ص: 389.

(4) المصدر نفسه، ص: 389.

(5) تاريخ الحروب الصليبية، محمود سعيد، ص: 315.

ب ـ وحدة الصف الإسلامي.

جـ ـ هيبة القيادة الإسلامية.

د ـ نزول العلماء والفقهاء أرض الجهاد.

هـ ـ جهل الفرنجة بجغرافية البلاد الإسلامية.

و ـ خطأ كبير في تقدير العامل الزمني.

ز ـ العصيان وعدم الطاعة عند الصليبيين.

ح ـ انحلال الحملة السابعة خلقياً.

ط ـ فتور الروح الدينية عند الصليبيين.

ي ـ التهور وقصور النظر.

وقد فصلت في شرح الأسباب المذكورة في كتابي عن الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة[1].

6 ـ من نتائج الحملة الصليبية السابعة: لقد ترتب على هزيمة لويس التاسع عام (1250م/ 648هـ) مجموعة من النتائج من أهمها:

أ ـ ارتفاع شأن ومكانة المماليك: فقد تبين بوضوح الدور البارز الذي قام به المماليك في معركة فارسكور وكيف أن جهادهم أعداء الإسلام كُلِّل بالنجاح، وفي حقيقة الأمر، أن ذلك الدور كان له أثره في ارتفاع شأنهم، وبذلك سيصبح لهم السند التاريخي في الوصول إلى العرش، وليس غريباً أن العام الذي شهد الانتصار على الغزاة وهو عام (1250م/ 648هـ) هو ذاته الذي شهد نهاية تورانشاه حريقاً غريقاً لتنتهي الدولة الأيوبية، ويتم إفساح الطريق لدولة المماليك الأفذاذ لتدافع عن الإسلام[2]، بقوة وعزم ونشاط وحيوية جهادية رائعة.

ب ـ عجز فرنسا عن تحقيق أهدافها: والملاحظ أن فعاليات فرنسا في دعم الحركات الصليبية وفي التوجه إلى البعد الأفريقي نالها الخسران المبين، وعجزت فرنسا عن صنع واقع حربي وسياسي في المنطقة على حساب الأيوبيين، وبذلك تأكد للدارسين

---

(1) الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، ص: 360.

(2) الحروب الصليبية بين الشرق والغرب، ص: 371.

كيف أن كافة المحاولات الصليبية لإخضاع مصر سواء في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي/ السادس والسابع الهجريين، لم تحقق أدنى نجاح، ولا شك في أن صورة أسرة آل كابية الحاكمة في فرنسا، ضعف أمرها بين الأسر الحاكمة في أوروبا بسبب الهزيمة الشنيعة التي تعرض لها لويس التاسع ووقوعه في الأسر[1]، وغير ذلك من النتائج التي ذكرتها في كتابي عن الحملات الصليبية الرابعة والخامسة، السادسة والسابعة.

7 ـ **مقتل تورانشاه وزوال الدولة الأيوبية:** تباينت الآراء واختلف المؤرخون حول شخصية تورانشاه، وتعددت أسباب قتله في نظرهم ولكنهم اجتمعوا على قتله على يد مماليك أبيه البحرية[2]، ويرى المؤرخ المصري الدكتور «قاسم عبده قاسم»: بالرغم من الانتصار الإسلامي الرائع على الحملة الصليبية، فإن السلطان الأيوبي تورانشاه كان إخفاقاً أيوبياً جديداً مهد الطريق أمام نهاية الدولة الأيوبية وصعود الدولة الجديدة التي شادها المماليك، لقد فشل تورانشاه في الاستجابة للتحديات التي كانت تفرضها الظروف التاريخية، وبدلاً من تكريس جهوده لتوحيد المسلمين للقضاء على الخطر الصليبي تماماً، بدأ يدبر للتخلص «من شجرة الدر » وكبار أمراء المماليك[3].

وقد ذكر المؤرخون مجموعة من الأسباب أدت لقتل تورانشاه منها:

- أن هؤلاء المماليك خدموه أتم خدمة وانتظروا مجازاتهم واعتقد أنه سيملأ فراغ والده، ولكنه قدم أمراءه وتوعد مماليك أبيه ـ الذين رباهم كأولاده ـ وقطع آخبازهم، ونهب أموالهم ولم يعمل بوصية أبيه تجاههم[4].
- ومن الأسباب التي ذكرت في قتله أن مماليكه أشاروا عليه بصلح الفرنج بعد أن كان ملكهم في يديه، حتى لا يحتاج إلى شجرة الدر أو مماليك أبيه لأنهم مسيطرون على الحكم، وسوَّلوا له لأن هؤلاء هم أعداءه وأن في صلح الملك وتركه وأخذ الأموال والجواهر صلاح الحال وتسليم دمياط، فشعر أمراء أبيه بتغيره عليهم واستهتاره بما قاسوه حتى وصلوا إلى هذا النصر على الصليبيين فدبروا قتله[5].

(1) الحروب الصليبية بين الشرق والغرب، ص: 310.
(2) الخطط (2/ 236)، النجوم الزاهرة (6/ 364).
(3) في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص: 148.
(4) الجواري والغلمان في مصر، ص: 408.
(5) السلوك، نقلاً عن: الجواري والغلمان، ص: 409.

- وقيل أن من أسباب قتله أنه كان قد وعد الفارس أقطاي حين ذهب إليه يستدعيه من حصن كيفا أن يؤمره، ولم يف بوعده فحقد عليه أقطاي[1]، ولما ذكَّره بوعده، على لسان بعض خواصه رد قائلاً: أعطه جباً مليحاً يليق به[2].

- وقيل من أسباب قتل المماليك له أنه تعرض لحظايا أبيه[3]، فلماذا حظايا أبيه وقد كان في عصر من الممكن الحصول فيه على أكبر عدد من المماليك والجواري والحظايا، وكان طبيعياً أن لكل سلطان حظايا، فلم تكن ثروة ثمينة لا يستطيع الحصول على مثلها[4].

- وقيل من أهم أسباب قتله أنه طالب زوجة أبيه شجرة الدر بمال أبيه والجواهر[5]، وهددها فخافت منه فتلاقت مخاوفها مع مخاوف زعماء المماليك وغضبهم، بعد أن حرمهم السلطان الجديد من إقطاعاتهم، فاستقر الرأي على ضرورة التخلص من آخر سلاطين الأيوبيين في مصر[6].

- وكان حبه لشرب الخمر، أحد تصرفات تورانشاه التي أثارت حنق المماليك البحرية عليه، وذكرها معظم من أرَّخ لتلك الفترة، فقد كان يشرب الخمر حتى تدور رأسه، ويأتي بالشموع ويسميها باسم مماليك أبيه ويطيح بها بسيفه، وقد حذره أبوه في وصيته بترك شرب الخمر، ولكن يبدو أنه لم يسمع النصيحة، وقد جاء في الوصية: يا ولدي قلدت إليك أمور المسلمين، فافعل فيهم ما أمرك به الله وبه رسوله، يا ولدي إياك والشراب، فإن جميع الآفات وما تأتّى على الملوك إلا من الشراب[7].

- وذكر ابن العبري أن أحد تصرفات تورانشاه التي أثارت حفيظة البحرية ضده حين علم أن الملكة زوجة الملك لويس التاسع المعتقل لديه ولدت له ابناً في

(1) نهاية الأرب (29/ 360)، الجواري والغلمان، ص: 409.

(2) كنز الدرر (7/ 381 ـ 382)، الجواري والغلمان، ص: 409.

(3) شفاء القلوب، نقلاً عن: الجواري والغلمان، ص: 409.

(4) الجواري والغلمان في مصر، ص: 409.

(5) السلوك، نقلاً عن: الجواري والغلمان، ص: 410.

(6) في تاريخ الأيوبيين والمماليك، قاسم عبده، ص: 148.

(7) نهاية الأرب (29/ 347)، الجواري والغلمان، ص: 410.

دمياط، سير إليها المعظَّم عشرة آلاف دينار ذهباً، ومهداً للطفل ذهبياً، وحللاً ملكية[1]، وغير ذلك من الأسباب.

والمهم أن نعرف حقيقة هامة وهي أنهم شعروا باختلاف شديد بين معاملة السلطان لهم ومعاملة تورانشاه المختلفة، فقد كان الملك الصالح يحب مماليكه ويهتم بهم ويغدق عليهم الكثير من الإنفاق وقد بلغ من شدة اهتمامه بهم أنه ذكرهم في وصيته لابنه تورانشاه: الولد يتوصى بالخدم محسن ورشيد، والخدم المقدمين لا تغيرهم فما قدمت أحد من الخدم ولا من المماليك إلا بعد ما تحققت نصحه وشفقته، وأستاذ الدار وأمير جاندار تتوصى بهم وكذلك الحسام لا تغيرهم فإني أعتمد عليهم في جميع أموري[2]، وقد عينت في ورقة عند الأخ فخر الدين عشرين من المماليك تقدمهم وتعطي كل واحد منهم كوس[3] وعلم، وتحسن إليهم وتتوصى بالمماليك غاية الوصية، فهم الذين كنت أعتمد عليهم وأثق بهم وهم ظهري وساعدي، تتلطف بهم وتطيب قلوبهم وتوعدهم بكل خير، ولا تخالف وصيتي، ولولا المماليك ما كنت قدرت أركب فرسي ولا أروح إلى دمشق ولا إلى غيرهم فتكرمهم، وتحفظ جانبهم[4].

وجاء في الوصية: والوصية بجميع الأمراء وأكرمهم واحترمهم، وارفع منزلتهم فهم جناحك الذي تطير به، وظهرك الذي تركن إليه، وطيِّب قلوبهم، وزيد في إقطاعهم، وزيد كل أمير على ما معه من العدة عشرين فارساً، وأنفق الأموال وطيب قلوب الرجال يحبوك وتنال غرضك في دفع هذا العدو[5].

ومن الراجح أن هؤلاء المماليك توقعوا بعد الانتصارات التي حققوها، والصعاب التي واجهوها في سبيل تخليص البلاد من ذلك الخطر الصليبي، وحفظ البلاد للسلطان وحتى مجيئه وحلفهم له وتنصيبهم إياه سلطاناً على البلاد، توقَّعوا أن يقدر ذلك الجميل ويكافئهم كما تعودوا من أبيه[6]، ويبدو أن

(1) الجواري والغلمان، ص: 410.
(2) المصدر نفسه، ص: 411، نهاية الأرب (29/ 350).
(3) الكوس: من شعارات السلطنة والإمارة، وهي صنوج من نحاس.
(4) نهاية الأرب (29/ 351)، الجواري والغلمان، ص: 411.
(5) الجواري والغلمان، ص: 411.
(6) مرآة الزمان، نقلاً عن: الجواري والغلمان، ص: 413.

الأمر كان مغايراً تماماً لما توقعوه، وبعد أن كان لهم الحل والعقد والأمر والنهي، آثر مماليكه ودأب على تهديد هؤلاء ووعيدهم، فلم يستطيعوا تقبل الأمر كما هو فقتلوه[1]، وكانت أكبر أخطاء تورانشاه أنه أقام بنيابة السلطنة الأمير جمال الدين أقوش النجيبي، بدلاً من الأمير حسان الدين أبي علي، الذي كانت له هيبة في عهد الصالح، وهو الذي كان قد أمر الخطباء بالدعوة لتورانشاه على المنابر يوم الجمعة بعد الدعاء لأبيه، وهو الذي حرَّض على استدعائه في سرعة حتى لا يتغلب الأمير فخر الدين على البلاد عقب وفاة الصالح[2]، فكان من الممكن أن يسانده ويتقوى به[3].

8 ـ كيفية مقتل تورانشاه: ونتيجة لبعض التصرفات غير المسؤولة وعدم أخذ الحيطة اللازمة من تورانشاه، قرر المماليك البحرية التخلص من تورانشاه وتزعم المؤامرة مجموعة من الأمراء البحرية منهم فارس الدين أقطاي، وبيبرس البندقداري، وقلاوون الصالحي، وأيبك التركماني، وتم تنفيذ المؤامرة في صباح يوم الاثنين 28 محرم (648هـ/ 2 أيار 1250م)، وكان السلطان آنذاك في فارسكور يحتفل بانتصاره ويتهيأ لاستعادة دمياط[4]، وجلس على عادته ليتناول طعامه، فتقدم إليه بيبرس البندقداري وضربه بسيفه ضربة تلقاها بيده، فقطعت بعض أصابعه، فأسرع تورانشاه إلى البرج الخشبي الذي أقامه على النيل ليمضي فيه بعض وقته واحتمى به وهو يصيح: من جرحني؟ فقالوا: (الحشيشية) فقال: لا والله إلا البحرية! والله لا أبقيت منهم بقية، وضمد جراحه، فاجتمع أمراء المماليك، وقرروا قتله وقالوا: بعد جرح الحية لا ينبغي إلا قتلها.

ودخل ركن الدين بيبرس وفارس أقطاي وغيرهما من أمراء المماليك البحرية إلى البرج وهم شاهرون سيوفهم ففر تورانشاه إلى أعلى البرج، وأغلق بابه والدم يسيل من يده، فأضرموا النار في البرج ورموه بالنشاب، فألقى تورانشاه نفسه من أعلى البرج، وهو يصيح مستنجداً: ما أريد ملكاً دعوني أرجع إلى الحصن يا مسلمين، أما فيكم من يجيرني[5]، فلم يجبه أحد وأخذ يركض نحو النيل، ونبال المماليك تأخذه من كل

---

(1) الجواري والغلمان، ص: 414.
(2) المصدر نفسه، ص: 414.
(3) المصدر نفسه، ص: 414.
(4) تاريخ الأيوبيين، ص: 390.
(5) النجوم الزاهرة (6/ 371).

جانب حتى ألقى بنفسه في الماء على أمل أن يسبح إلى إحدى سفنه الراسية ليعتصم بها، ولكن سرعان ما لحق به أقطاي فقتله، وتركت جثته على شاطئ النيل ثلاثة أيام دون أن يتجاسر أحد على دفنه، إلى أن شفع فيه رسول الخليفة العباسي، فحمل إلى الجانب الآخر من النهر ودفن، بعد أن حكم واحداً وستين يوماً[1]، وقيل: مدة سلطته بالمنصورة نحو أربعين يوماً، لم يدخل فيها إلى القاهرة ولا طلع قلعة الجبل، ولم يعتل سرير الملك[2]. وبوفاة تورانشاه انقضت دولة بني أيوب بعد أن أقامت إحدى وثمانين سنة وسبعة عشر يوماً، وكان تورانشاه آخر من تولى السلطنة من بني أيوب[3]، على أن بعض المصادر ذكرت أن الدولة الأيوبية انقضت بخلع شجرة الدر[4]، فقد ذهب مجموعة من المؤرخين أن حكم شجرة الدر استمراراً للحكم الأيوبي، وأما في بلاد الشام فقد حكم الدولة الأيوبية لعدة سنوات أخرى[5].

رابعاً: أسباب سقوط الدولة الأيوبية:

إن أسباب سقوط الدولة الأيوبية كثيرة، جامعها هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله في أمور الحكم وغيرها، فقد وقع الظلم على الأفراد وتورط بعض السلاطين في الترف، وحدث بينهم نزاع عظيم سفكت فيه الدماء وأدى ذلك إلى زوالهم، فعندما يغيب شرع الله في أمور الحكم ـ كما حدث في الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين ـ يجلب للأفراد والدولة تعاسة وضنكاً في الدنيا، وأن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية، والاقتصادية، وأن الفتن تظل تتوالى تترى على الناس حتى تمس جميع شؤون حياتهم[6]، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور، الآية: 63].

لقد كان في ابتعاد سلاطين الأيوبيين بعد وفاة صلاح الدين عن تحكيم الشرع في نزاعاتهم وخلافاتهم آثار على أفراد البيت الأيوبي والدولة، فقد أصيبوا بالقلق والجزع والخوف، والشقاق والخلاف ونزع منهم الأمن وأصبحوا في الضنك من الحياة، إن

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن: الدولة الأيوبية، د. عكور، ص: 262.
(2) بدائع الزهور، نقلاً عن: الجواري والغلمان، ص: 416.
(3) المصدر نفسه، ص: 416.
(4) عجائب الآثار للجبرتي، (1/ 51)، الجواري، ص: 416.
(5) الدولة الأيوبية، د. عكور، ص: 266.
(6) الدولة العثمانية، للصلابي، ص: 520 ، الدولة الأموية (2/ 568).

هلاك الأمم وسقوط الدول وزوال الحضارات لا يحدث عبثاً في حركة التاريخ، بل نتيجة لممارسة هذه الأسرة الحاكمة أو الدولة، أو الأمة الظلم والانحراف، وبعد أن يعطوا الفرصة الكافية حتى تحق عليهم الكلمة، فيدفعوا ثمن انحرافهم، وإجرامهم وطغيانهم وفسقهم، والآيات صريحة في ذلك، فالله إذا أنعم على دولة نعمة أياً كانت فهو لا يسلبها حتى يكفر بها أصحابها[1]، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال، الآية: 53]، والآيات في هذا كثيرة سواء ما يخص الفرد أو الأمة، بل إن القرآن الكريم ليذكر أن بعض ما يصيب الأمم والأفراد من استدراج حين يمهلهم الله تعالى وتواتيهم الدنيا، وتفتح عليها خيراتها فينسوا مهمتهم وما خلقوا له، بل ينسون المنعم جل جلاله، وينسبون ما عندهم لجهدهم وذكائهم، وقد يفلسفون الأمر فيقولون: لو لم نكن نستحق هذه النعم لما منحت لنا، وفي هؤلاء يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام، الآيتان: 44، 45]، لقد نسي هؤلاء أن الله يمنح خيرات الدنيا لمن يطلبها ويجد فيها، قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [آل عمران، الآية: 45].

ولكن هناك من يريد الآخرة بحق ويسعى لذلك فهو الفائز: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء، الآيات: 18 ـ 20]. وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [النحل، الآيتان: 112، 113]. ولنستمع لهذه الدعوة الكريمة: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود، الآية: 52]. وهناك الآيات كثيرة تحاول قطع الطريق على بعض المتفلسفين من أهل الكتاب ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة، الآية: 19]، فكل إنسان وكل مجتمع وكل أمة مسؤولة عما يصدر عنها، ولا

---

(1) في التفسير الإسلامي، للتاريخ، نعمان السامرائي، ص: 88.

يتحمل أحد جريرة غيره: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة، الآية: 134]

المهم أن الله تعالى لا يحجب نعمه عن أحد، بل يوزعها على المؤمن والكافر، ثم يراقب تصرف الكل فيها، فمن طغى وظلم، ومن كفر بها واستعملها استعمالاً سيئاً فإن العقاب العادل سينزل به في الوقت المناسب، وقد يطول ذلك العهد قبل نزول العقاب ولكنه يكون في الطريق، وبعد هذا وذلك فإنه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة، الآية: 286]، ومثل هذا في الأمم والمجتمعات وعلى مستوى الأفراد فإن الله خلق النصوص ملهماً إياها طريق الخير والشر، يقول تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس، الآيات: 7، 10]. وقال ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد، الآية: 10]، ومن الملاحظ في دراسة أسباب سقوط الدول والحضارات بأنها لا تسقط بسبب واحد، كما لا تقوم بسبب واحد، بل بتجمع عدة أسباب لقيامها، وعدة أسباب لتدهورها وسقوطها، بعضها يعمل ببطء، بينما يعمل البعض بسرعة أكبر، ولا تسقط الدولة والحضارة بضربة واحدة، بل بتضافر جملة من العوامل[1]، وهذا ما حدث للدولة الأيوبية التي زالت من الوجود في مصر عام (648هـ) وأهم هذه الأسباب في نظري:

1 ـ توقف منهج التجديد الإصلاحي: كان صلاح الدين رحمه الله رجل المرحلة، وجدت فيه صفات عظيمة، ساعده على ذلك الأجواء التي هيأها نور الدين محمود من حبه للجهاد والعلم وتقريب العلماء، وإشاعة العدل، وسرى هذا في الأمراء والوزراء، ولكن المعضلة الرئيسة التي بقيت هي أن التجديد لم يتحول إلى مؤسسات راسخة إلى اتجاه عام في الدولة، حتى لا ينقطع بوفاة القائد أو المؤسس[2]. وذلك يرجع إلى أمور منها:

أ ـ نقص الفقه الحركي الذي وجه نشاطات المدارس الإصلاحية: فإن مدارس الإصلاح في هذا العصر ركزت نشاطاتها على تحقيق عنصر «الإخلاص» في العمل، أي أنها ركزت على التربية أكثر من الإستراتيجية، ولذلك لم تفرز «فقه الحكمة» اللازم لتنظيم مؤسسات السياسة والإدارة والاقتصاد، وتنظيم مسؤوليات العاملين فيها وأدائهم وحسن استثمار الموارد البشرية والمادية بما يناسب حاجات المكان والزمان، وإنما

(1) أيعيد التاريخ نفسه، ص: 134.

(2) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 322.

اكتفت بـ(فقه) الآباء الذي يركز على «المظهر الديني للقيادة» دون «المظهر الاجتماعي»، وصار شيوخها ومتعلموها يسلكون طريق «الزهو» وينتمون إلى مذهب من المذاهب الفقهية التقليدية في آن واحد، ولهذا يوصف الواحد منهم بأنه مثلاً: «قادري السلوك» و«شافعي المذهب»، كذلك لم تطرق هذه المدارس ميادين «الفقه» المتعلق بالمظهر الكوني للعبادة والمؤدي إلى تطور العلوم الطبيعية، وتسخير تطبيقاتها في ميادين الحضارة المادية المختلفة، وهذا النقص في الفقه السياسي والإداري جعل المنجزات التي حققها جيل صلاح الدين تعتمد على الشخصيات أكثر من فاعلية المؤسسات، فلما غابت الشخصيات القيادية عن مسرح الحياة برز تأثير العامل الثاني، أي أثر العصبيات الأسرية والقبلية التي عادت لتوجه مؤسسات الحكم والإدارة بما فيها مدارس الإصلاح نفسها، وهذا التطور السلبي حقق إفراز ظواهر غير إيجابية منها:

- حين لم يجد جيل الأبناء فقهاً سياسياً وإدارياً ينظم عملية تعيين الحاكم ومؤسسات الحكم والإدارة، ارتد إلى تقاليد العصبية الأسرية والقبلية وروابط الدم التي تعتبر الحكم وقيادة المؤسسات التربوية والعلمية ميراثاً يرثه الأبناء عن الآباء، الأمر الذي أدّى إلى تفكك الدولة وانقسامها حيث تقاسم الأبناء ما وحّده جيل الآباء، وأداروه طبقاً لتقاليد العصبيات الأسرية التي سبقت جيل صلاح الدين، والتي كانت تعتبر أراضي الدولة ومدنها وسكانها إقطاعات يتصرف بها الحكام ويتبادلونها بالبيع والشراء وصفقات الحرب والصلح.

- أدى النقص في الفقه السياسي والإداري إلى انفجار الفتن بين الملوك وأمراء الجيش، من ذلك ما حدث بين الملك الكامل وبين عماد الدين أحمد بن المشطوب الكردي الهكاري، الذي يصفه ابن خلكان بأنه: «كان صلاح الدين أطعمه وهو شاب إقطاع نابلس، إكراماً لوالده سيف الدين أبو الهيجاء المشطوب الهكاري الذي كان من كبار أمراء الجيش الصلاحي وقادته، فقد اتفق عماد الدين بن المشطوب مع الأكراد الهكارية على خلع الملك الكامل وتمليك أخيه الفايز، ولكن المحاولة لم تنجح ودب الاضطراب في معسكر الجيش الذي كان في مواجهة الصليبيين وانسحب عماد الدين إلى قلعة حران حيث بقي فيها حتى وفاته عام 610هـ»[1].

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 322.

والخلاصة أن الجدب في الفقه السياسي والإداري أفرز - بعد جيل صلاح الدين - قيادات وإدارات متسلطة فردية عملت على أن تحكم الأمة بقيم القوة فوق الشريعة، والفردية بدل العمل الجماعي، والتسلط بدل الشورى، والارتجال بدل التخطيط[1].

- قامت الدولة الأيوبية على تبني فكرة الجهاد وتحرر ديار المسلمين من الغزو الصليبي، وكانت التغيير العملي على مدى أصالة فكرة الجهاد الإسلامي وعن مدى عمق هذه الفكرة في نفوس المسلمين في كل من مصر والشام، وقد انعكس هذا العمق وتلك الأصالة في الصفحات المشرقة التي سجلها بجهاده صلاح الدين، إذا انتقلنا إلى الصورة التي كانت لها في سنواتها الأولى وهذا يعني أنها قد أصبحت في وادي والفكرة التي قامت عليها في وادٍ آخر، ولو قدر واستمرت الدولة الأيوبية بالصورة التي كانت عليها في سنواتها الأخيرة لكان معنى ذلك نهاية أو سقوط فكرة الجهاد الإسلامي، وترك الساحة للصليبيين يرسمون مستقبلها ومقدرات شعوبها كما يريدون. وإذن فإن اختفاء الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك مقامها، كان التعبير العملي لرفض زوال فكرة الجهاد، ونخلص من هذا إلى القول بأن اختفاء الدولة الأيوبية، وقيام دولة المماليك مقامها كان رفضاً عملياً لسقوط فكرة الجهاد، كما كان أيضاً تأكيداً عملياً لقوة هذه الفكرة وضرورة استمرارها حتى تحقق أهدافها كاملة، وخير للأجيال أن تستمر الفكرة حتى ولو على حساب سقوط الدولة والرجال مهما كانت درجة التعاطف مع هذه الدول وهؤلاء الرجال[2].

ب - **ومن الظواهر السلبية**: التي ساهمت في توقف حركة التجديد والإصلاح، تسلل قيم العصبية الأسرية إلى مدارس الإصلاح نفسها، إذ يستفاد مما كتبه مؤرخو تلك الفترة كابن الوردي وابن المستوفي، أن الأبناء والأحفاد تسلموا مشيخات هذه المدارس بعد وفاة المصلحين الآباء دون أن يكون لأولئك الأبناء والأحفاد المؤهلات العلمية والدينية والأخلاقية، الأمر الذي أحال مدارس الإصلاح إلى إقطاعات دينية، وعصبيات مذهبية، وأدى إلى انصراف النابهين المثقفين من صفوفها، واجتماع العامة فيما عرف

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 322.

(2) الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات، ص: 395.

باسم «الطرق الصوفية» التي اشتُقت أسماءها من أسماء الآباء المؤسسين: كالطريقة القادرية، والطريقة البيانية، والطريقة الرفاعية التي راحت تركز على الطقوس والأشكال بدل التربية والعلوم والأعمال[1].

2 ـ **الظلم**: إن الظلم في الدولة كالمرض في الإنسان يعجِّل في موته، بعد أن يقضي المدة المقدرة له وهو مريض، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم في الأمة والدولة يعجل في هلاكها، مما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها واضمحلالها من خلال مدة معينة يعلمها الله هي الأجل المقدر له، أي الذي قدره الله بموجب سنته العامة التي وضعها لآجال الأمم بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل، أو من عوامل الهلاك كالظلم الذي يظهر أثرها وهو هلاكها بعد مضي مدة محددة يعلمها الله[2]، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: الآية: 34]. قال الألوسي رحمه الله في تفسيره هذه الآية: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾: أي لكل أمة من الأمم الهالكة أجل، أي وقت معين مضروب لاستئصالهم ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئاً مؤكداً ولكن وقت حلوله مجهول لنا، أي رغم أننا نعلم يقيناً أن الأمة الظالمة تهلك حتماً بسبب ظلمها حسب سنة الله فلا يمكن لأحد أن ذلك يحدد بالأيام ولا بالسنين، وهو محدد عند الله تعالى[3]: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: الآيات: 100 ـ 102].

إن الآية الكريمة تبيِّن أن عذاب الله ليس مقتصراً على من تقدم من الأمم الظالمة، بل إن سنته تعالى في أخذ كل الظالمين سنة واحدة، فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك قاصراً بأولئك الظلمة السابقين، لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ [هود: الآية: 102] فبين الله تعالى أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التي أدت إلى هلاكهم فلا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد، فالآية تحذر من خطورة الظلم[4].

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 323.
(2) السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، ص: 121.
(3) المصدر نفسه، ص: 121.
(4) الدولة الأموية، للصلابي (2 ـ 571).

إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة، بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس والناس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم فهذه الدولة مع كفرها تبقى، إذ ليس من سنته إهلاك الدولة بكفرها، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم[1] تزول، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: الآية: 117] قال الإمام الرازي رحمه الله في تفسيره: إن المراد من الظلم في هذه الآية الشرك، والمعنى: أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم، يعامل بعضهم على الصلاح وعدم الفساد[2]. وفي تفسير القرطبي رحمه الله قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي: بشرك وكفر، ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي: فيما بينهم في تعاطي الحقوق، ومعنى الآية: أن الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى يضاف إليه الفساد كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط[3]. قال ابن تيمية رحمه الله في هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة: أمور الناس إنما تستقيم بالعدل الذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: إن الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام. وذلك إن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم تقم بالعدل لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة[4]، ولقد حدثت مظالم عظيمة في عهد الأيوبيين، فقد سفكوا الدماء فيما بينهم، فقاتل الأخ أخيه، والعم بني أخيه ظلماً وجوراً وتسلطاً على العباد والبلاد، وحوصرت دمشق وتعرض أهلها للمجاعة بسبب الأهواء والنزوات، وإسراف بعض سلاطينهم في المال العام، وتم الاعتداء في بعض الأحوال على أموال الرعية بدون وجه حق، وقد بيَّنا ذلك في مناسبات عديدة في كتابي «الأيوبيون بعد صلاح الدين»، و«الحملات الصليبية، الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة».

3 ـ الترف والانغماس في الشهوات: قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ

(1) السنن الإلهية، ص: 121.

(2) تفسير الرازي (18/ 16).

(3) تفسير القرطبي (9/ 114).

(4) رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص: 40.

ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ [هود، الآية: 116]، قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أراد بالذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات، أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما اهتموا بالتنعم والترف والانغماس في الشهوات والتطلع إلى الزعامة والحفاظ عليها والسعي لها وطلب أسباب العيش الهنيء[1]، وقد مضت سنة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة وابتعدوا عن شرع الله بالهلاك والعذاب، قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنبياء، الآيات: 11 ـ 13]، ومن سنة الله تعالى هلاك الأمة بفسق مترفيها قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء، الآية: 16]. وجاء في تفسيرها: وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها: أي: متنعميها وجباريها وملوكها ففسقوا فيها، فحق عليها القول فأهلكناها، وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع، لأنهم أمة الفسق ورؤساء الضلال وما وقع من سوئهم، إنما وقع باتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم آكد[2].

إن أمر بني أيوب ما زال مستقيماً في عهد صلاح الدين حتى أفضى أمرهم إلى أبنائه، فوقع بعضهم في الترف وآثروا الشهوات، وأقبلوا على اللذات والدخول في المعاصي والتعرض لسخط الله، والشواهد على ذلك كثيرة نذكر منها: ما كان في عهد الملك الأفضل وفي عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ما فعله أستاذ الدار ـ وهو كبير أمناء الملك أو الرئيس ـ والذي كان يجمع إلى منصبه اختصاصات الوزير وقائد الجيش في المعارك وفتح دمشق، وكان عابثاً ومعتداً بقوته ومنصبه، وتجرأ على منكر كبير، يخالف أحكام الدين، ويسخر بالشرع ويسيء إلى مشاعر المسلمين، فقد بنى فوق أحد مساجد القاهرة طبلخانة أي: قاعدة لسماع الغناء والموسيقى، وقد تصدى لذلك سلطان العلماء العز بن عبد السلام كما بينا ذلك في الكتاب الذي قبل هذا. ومن صور الترف في عهد الدولة الأيوبية التوسع في المآكل والمشارب وما يترتب على ذلك من آفات، وحبّ التكثر من المال والتوسع في الركوب، وفي المسكن والملبس والنكاح لدى بعض أمراء وملوك البيت الأيوبي.

---

(1) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، ص: 186.

(2) تفسير الألوسي (15/ 42).

4 ـ **تعطيل الخيار الشوري:** ضرب الأيوبيون نظام الشورى في الحكم عرض الحائط ذلك النظام القائم على حرية الانتخاب وحرية المعارضة، والذي كانت القيادة الراشدة نفذته التزاماً بمعطيات القرآن والسنة في هذا المجال، ولقد ولدت خطوة الأيوبيين هذه ردود أفعال خطيرة في الدولة الأيوبية، بل أصبح التسلط والغلبة هو الطريق للسلطة والحكم، فهذا الملك العادل بعد أن تغلب على بني أخيه قال لوزرائه ومعاونيه: إنه قبيح بي أن أكون أتابكاً مع الشيخوخة والتقدم، مع أن الملك ليس هو بالميراث وإنما هو لمن غلب، ولقد كان يجب أن أكون بعد أخي السلطان الملك الناصر ﷺ صاحب الأمر، غير أني تركت ذلك إكراماً لأخي ورعاية لحقه، فلما حصل من الاختلاف ما حصل، خفت أن يخرج الملك من يدي، ويد أولاد أخي، فمشيت الأمر إلى آخره[1]. ثم إن الملك العادل ورَّث أبنائه من بعده وحدث قتال بينهم ورجع إلى نظام التوريث الذي كان له سلبيات خطيرة، ساهمت في سقوط الدولة الأيوبية منها:

ـ إن هذا النظام قد سيطرت فيه عاطفة الأبوة والأقرب نسباً، وقوة العصبية، على عملية التولية بصفة عامة، وقد أدى ذلك إلى الآتي:

* تقييد حق الأمة في اختيار سلطان بحصره في أسرة معينة.

* تقييد مبدأ الشورى بحصره في أهل عصبية وشوكة الأسرة الحاكمة.

* دفعت المفضول إلى تولي السلطنة مع وجود الأفضل، بل وبمن افتقد بعض شروط السلطنة مع وجود المستجمعين لهذه الشروط وفقاً لما سلف ذكره.

* وضع الحكام موضع تهمة وشبهة، كما أثار الشك ـ عند بعض الناس ـ حول مشروعية البيعة بولاية العهد والبيعة للسلطان.

* أدى إلى ظهور العداوة والبغضاء بين البيت الأيوبي، وذلك مما أدى في النهاية إلى ضمور قوتهم وزوال شوكتهم[2].

5 ـ **النزاع الداخلي في الأسرة الأيوبية:** إن سنة الله تعالى ماضية في الشعوب والأمم لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، وجعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ من أسباب هلاك

---

(1) في التأصيل الإسلامي، للتاريخ، ص: 60.

(2) نظام الحكم في الإسلام، ص: 307.

الأمم وزوال الدول: «الاختلاف»، قال رسول الله ﷺ: **«فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»**، وفي رواية **«فأهلكوا»**، وعند ابن حبان عن ابن مسعود ﷺ: **«فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف»**[1].

إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن نتوقى الهلاك بتوقي أسباب الاختلاف المذموم، لأن الاختلاف كان سبباً من الأسباب في ضياع الدولة الأيوبية وهلاكها واندثارها، وكان لهذا الاختلاف الذي وقع في البيت الأيوبي أسبابه منها: ضعف الوازع الديني عند بعض الأمراء الأيوبيين، الأنانية، وحب الذات، والتكالب على المصالح الدنيوية والتناحر من أجلها، والحرص على السلطة والجاه والمنصب، وتحكيم بعض الأمراء الأيوبيين أهواءهم في الأمور، فهذه الأسباب كانت وقوداً للمنازعات والخلافات التي وقعت بين أفراد البيت الأيوبي، فكانت من أكبر معاول الهدم وأسباب الضعف وتلاشي الدولة.

وقد استقرأ هذه الحقيقة ابن خلدون، حيث ذكر أن من آثار الهرم في الدولة انقسامها، وأن التنازع بين القرابة يقلص نطاقها، كما يؤدي إلى قسمتها ثم اضمحلالها[2]، لقد بدأ الخلاف المؤثر في الأسرة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين، وسرعان ما انغمس الأيوبيون في صراعاتهم الداخلية، فلم يحترم الأخ أخاه، والعم بني أخيه، واستغل الملك العادل الأيوبي الجهل والطيش الذي اتسم به أبناء صلاح الدين، إذ أنه استخدم علاقاته القديمة ومكانته لتحقيق هزيمة سياسية وعسكرية لجيش الملك العزيز قبل أن يستل جندي واحد سيفه من غمده، إذ كانت المنافسة قائمة بين الأمراء الصلاحية «أمراء صلاح الدين»، والأمراء الأسدية، «أمراء أسد الدين شيركوه» الذين ورثهم صلاح الدين في جيشه، ونجح العادل في الإيقاع بين الفريقين[3]. وقد وصف القاضي الفاضل الخلاف في البيت الأيوبي بقوله: **أما هذا البيت فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا، وإن الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا، وإذا غرب نجم فما الحيلة في تشريقه، وإذا بدأ تخريق في ثوب فما يليه إلا تمزيقه، وهيهات أن يسد على طريقه، وقد قدر طروقه، وإذا كان مع خصم على خصم فمن كان معه فمن يطيقه**[4]، واستمر الصراع في الأسرة

(1) صحيح البخاري بشرح العسقلاني (9/ 101، 102).
(2) الضعف المعنوي وأثره في سقوط الأمم، ص: 118.
(3) في تاريخ الأيوبيين والمماليك قاسم عبده، ص: 82 ـ 83.
(4) دور الفقهاء، ص: 174.

الأيوبية بعد وفاة الملك العادل، حيث اشتد النزاع بين أولاده الملك المعظم والملك الكامل أبناء البيت الأيوبي.

6 ـ **موالاة النصارى**: من لوازم الإيمان الصحيح الولاء والبراء، فكانت الدولة في عصر صلاح الدين عاملة بقول الله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران، الآية: 28]. وقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة، الآية: 51]، وقال رسول الله ﷺ: **«أوثق عرى الإيمان، الموالاة في الله، والمعاداة في الله والحب في الله والبغض في الله»**[1].

أما في عصر الملك الكامل فضعف الولاء والبراء، ويظهر ذلك في تسليم القدس للإمبراطور فريدريك الثاني على طبق من ذهب وبدون إراقة للدماء، وقد استعظم المسلمون ذلك وأكبروه، ووجدوا له من الغم والهم والتألم ما لا يمكن وصفه، وكان الملك الكامل لديه استعداد للتحالف مع النصارى لقتال أخيه المعظم الذي تحالف مع الخوارزميين، كما أن الملك الصالح نجم الدين إسماعيل دخل في صلح مع الصليبيين، وسلّم لهم أحد الحصون، وتصدى للشيخ عز الدين بن عبد السلام وابن الحاجب فاعتقلهما مدة، ثم أطلقهما وألزمهما منازلهما، وتحالف الصالح إسماعيل مع الصليبيين لقتال الملك الصالح نجم الدين أيوب في مقابل تسليم القدس وإعادة مملكة بيت المقدس الصليبية إلى ما كانت عليه قديماً بما فيها الأردن، ولكي يبرهن صاحب دمشق على صدق نيته تجاه الصليبيين بادر فوراً بتسليم القدس وطبرية وعسقلان، فضلاً عن قلعة الشقيف وأرنون وأعمالها، وقلعة صفد وبلادها، ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالهم وجبل عامل وسائر بلاد الساحل. وأمام هذا السخاء العجيب ثار الرأي العام الإسلامي في مصر والشام على الصالح إسماعيل، حتى إن حاميات بعض القلاع رفضت طاعة الأوامر الصادرة إليها من الصالح إسماعيل. في تلك الأثناء أسرع الصليبيون إلى تسلم بيت المقدس وأعادوا تعمير قلعتي طبرية وعسقلان، ثم رابطوا بعد ذلك بين يافا وعسقلان استعداداً للخطوة التالية، وهنا وعدهم الصالح إسماعيل بأنه إذا ملك مصر أعطاهم جزءاً منها، فسال لعابهم لذلك، واتجهوا صوب غزة عازمين على غزو

---

(1) صحيح الجامع.

مصر[1]، وسار الصالح إسماعيل صاحب دمشق، والملك المنصور إبراهيم الأيوبي صاحب حمص، على رأس جيوشهما في مهمة غزو مصر[2].

ولكن قادة القوات الشامية رفضوا طعن إخوانهم المصريين، فما كادوا يلتقون بجيش الملك الصالح أيوب قرب غزة حتى تخلوا عن الصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم، وساقت عساكر الشام إلى عسكر مصر طائعة، ومالوا جميعاً على الفرنج فهزموهم وأسروا منهم خلقاً لا يحصون[3]. وهكذا تحالف الملك الصالح إسماعيل مع الصليبيين، وتنازل لهم عن مدن المسلمين من أجل الحكم والسلطان.

إن بعض ملوك بني أيوب أمعنوا في موالاة النصارى الصليبيين، وألقوا إليهم بالمودة، وركنوا إليهم واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين، وعملوا على إضعاف عقيدة الولاء والبراء في الأمة وأصابوها، وفقدت أبرز مقوماتها، وسهل بعد ذلك زوالها من الوجود.

7 ـ فشل الأيوبيين في إيجاد تيار حضاري: حاول صلاح الدين بإيمان صادق وذكاء متميز حمل لواء المشروع الإسلامي الحضاري الذي تزعمه نور الدين محمود زنكي، وحرص على الفتوحات العسكرية والدعوية، بحيث لا تطغى الأرض على الحضارة، ولا الدولة على الدعوة، ولا تصبح اعتبارات السياسة أهم من مبادئ الدين، وتقيد بالسياسة الشرعية، وعمل على إيجاد تيار حضاري عقدي يملأ أركان الحياة، ومهما يكن من أمر، فإن الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين، لم تستوعب قانون الامتداد الحضاري، فبعد الامتداد والانتصارات كان عليها أن تمتد بالدعوة، وتطور المدارس الإصلاحية حتى تواكب احتياجات العصر العلمية والتربوية والثقافية والحضارية، إلا أن خلفاء صلاح الدين لم يستطيعوا أن يقدموا مشروعاً حضارياً يجدد حيوية الدولة، ويرسم أهدافها ويدفعها بقوة نحوها، وإنما دخلوا في أنفاق مظلمة انتهت بزوال دولتهم، لقد فشل ملوك بني أيوب بعد صلاح الدين في إيجاد تيار حضاري ولم يستطيعوا أن يحققوا التوازن بين الدولة والدعوة والأرض والعقيدة والسياسة والفكر، وكانت هذه رسالة سامية تأخر فيها الأيوبيين وغلبتهم الظروف والتحديات، فأصبحوا أمام قانون التاريخ

(1) النجوم الزاهرة(6/ 322) الدولة الأيوبية، دعكور، ص: 233.
(2) النجوم الزاهرة(1/ 305) الدولة الأيوبية، ص: 233.
(3) السلوك(1/ 305) الدولة الأيوبية، ص: 233.

الحضاري الذي لا يجامل ولا يحابي، أما أن يتقدموا أو يزولوا من الوجود، فلا سكون في تاريخ البشرية.

8 ـ **ضعف الحكومة المركزية:** قسّم صلاح الدين دولته إلى أقاليم إدارية يتمتع كل منها بإمكاناته الخاصة وطابعه المميز، مثل مصر والشام وشمالي العراق والنوبة والمغرب واليمن والحجاز، وقضى أكثر سنين حكمه في ميادين القتال، يمارس سياسة التخطيط والتنفيذ والإشراف وتوجيه سياسة الدولة العليا، ثم يترك حرية التنفيذ في الأمور المحلية في الاستعداد والدفاع للولاة وفقاً لظروف وإمكانات كل إقليم، وهو ما يُعبَّر عنه في مفهومنا الحديث بـ (اللامركزية الإدارية)[1].

والحقيقة أن صلاح الدين لم يضع كافة السلطات في يده على الرغم من أنه كان الحاكم الذي يدير دفة الحكومة المركزية، والراجح أنه أدرك أن توزيع السلطات يجعل من كل سلطة رقيبة على السلطة الأخرى، وموازنة لها في ممارسة اختصاصاتها، كما أن تقسيم العمل بين عدة أشخاص أكفاء يحقق عدة مزايا تتعلق بإجادة العمل وسرعة إنجازه[2].

وقد ارتبطت الدولة الأيوبية التي بناها صلاح الدين الأيوبي بصفاته وسجاياه وشخصيته الفذة، فحين توارت هذه الشخصية من على مسرح التاريخ في المنطقة حدث فراغ كبير أضرّ بالجانب الإسلامي وعاد بالفائدة على الجانب الصليبي، إذ كانت شخصيته ومواهبه وأداؤه السياسي والعسكري هو الذي حفظ الدولة من التفكك، ولم تكن هناك مؤسسات تضمن استمرار بقاء هذه الدولة الكبرى من ناحية، كما أن صلاح الدين قسّم دولته، كما يُقسَّم الإرث، بين أبنائه وإخوته وبني عمومته على نحو ما كان مألوفاً في تلك العصور، وكان طبيعياً أن تعود المنطقة إلى الوراء مرة أخرى نتيجة المنازعات والتشرذم السياسي الناجم عن الخلاف بين ورثة صلاح الدين، لقد كان خليفة صلاح الدين في مصر ابنه أبو الفتوح عثمان، وكان وقت وفاة أبيه مقيماً بالقاهرة، وعنده جُل العساكر والأمراء من الأسدية والصلاحية والأكراد[3]، وتولى أخوه الأفضل نور الدين على حكم دمشق، على حين تولى الملك العادل الكرك والشوبك، وولي الظاهر غازي حكم بلاد الشام الشمالية، وكانت حلب عاصمته وتولى بقية أجزاء

(1) تاريخ الأيوبيين، طقوش، ص: 210.

(2) المصدر نفسه، ص: 211.

(3) السلوك(1/ 114) في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص: 80.

الدولة غير المهمة أبناء عمومته، ففي حمص حكم أفراد من أسرة تقي الدين عمر بن شاهنشاه[1]، وهكذا تفككت عُرى الدولة الإقليمية الكبرى التي جاهدت ثلاثة أجيال في إقامتها بمنطقة العراق والشام ومصر، عماد الدين زنكي، نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، لقد كان تقسيم الدولة على نحو تقسيم التركات الخاصة سبباً في انهيار الوحدة السياسية للمنطقة من ناحية، وإطالة عمر الكيان الصليبي من ناحية أخرى[2]، فتفتت دوله صلاح الدين، وضعفت الحكومة المركزية بعد وفاته، وقامت الحروب بين ملوك بني أيوب بدافع التملك والتوسع.

9 ـ **ضعف النظام الاستخباراتي:** كانت مؤسسة البريد والاستخبارات في عهد صلاح الدين قد اشتهرت بالتفوق الدائم على ما كان عند الصليبيين، واتصفت بالدقة والسرعة حتى أن أخبار العدو كانت تتواصل إليه ساعة فساعة، إلى الصبح، لا سيما في حصار عكا، وكانت استخباراته تضم بعضاً من الصليبيين الذين استأمنهم السلطان في مناسبات مختلفة، وتكمن أهمية هؤلاء أنهم كانوا يعرفون لغة العدو، ولا يشك فيهم أنهم رجال صلاح الدين، بسبب من سحنتهم ومظهرهم الخارجي، فكانوا يزودون الجيش الأيوبي بأخبار العدو التي يصعب عليها عن طريق رجال استخباراته المسلمين، فذات مرة أخبروا صلاح الدين ما ينوي العدو القيام به من كبس العسكر الإسلامي ليلاً[3]، وأخبروه عن المنجنيق الصليبي الهائل الذي أنفقوا عليه ألفاً وخمسمائة دينار، والذي أعدوه للهجوم على عكا، وكذلك زودوا صلاح الدين بأخبار الحملة الألمانية، إلا أن بعد ذلك ضعف جهاز الاستخبارات، بل نجد أن الحملة الصليبية الخامسة تصل إلى دمياط ولم يعلم بها الملك العادل إلا بعد وصولها، ولم تكن اختراقات الجهاز الاستخباراتي بعد صلاح الدين بالمستوى الذي كان عليه، فكان ضعف الجهاز الاستخباراتي للدولة الأيوبية بعد صلاح الدين من أسباب سقوطها.

10 ـ **غياب العلماء الربانيين عن القرار السياسي:** مع مجيء الملك الأفضل لحكم الدولة الأيوبية تغيرت بعض الوسائل الإستراتيجية التي كان يعتمد عليها صلاح الدين بعد الله تعالى في إدارة الحكم وحركة الجهاد، وهي اعتماده على العلماء الربانيين، فأبعد الملك الأفضل القاضي الفاضل وأقصى أمراء والده ومستشاريه، بتأثير

---

(1) تاريخ مصر الإسلامية (2/ 96) جمال الشيال.

(2) في تاريخ الأيوبيين والمماليك، د. قاسم عبده، ص: 80.

(3) صلاح الدين الأيوبي، للصَّلاَّبي، ص: 381 ـ 382.

الوزير ضياء الدين ابن الأثير أخو المؤرخ المشهور ابن الأثير، على إدارة الدولة في عهد الملك الأفضل، ولم يكن موفقاً أبداً، بل جرّ البلاء والسخط والغضب والكراهية على الملك الأفضل، وأصبح القاضي من المبعدين عن القرار السياسي، وهو الذي قال فيه صلاح الدين: ما فتحت بلداً بسيفي ولكن بقلم القاضي الفاضل، ولم تكن مكانة العلماء والفقهاء بعد صلاح الدين بالمكانة التي كانوا عليها في عهد نور الدين وصلاح الدين، ولقد خسر الأيوبيون الكثير بإبعاد القاضي الفاضل ومن على شاكلته من دائرة القرار السياسي، وقد قال أبو شامة عن القاضي الفاضل: كان ذا رأي سديد، وعقل رشيد، ومعظماً عند السلطان صلاح الدين، يأخذ برأيه ويستشيره في الملمات، والسلطان له مطيع وما فتح السلطان الأقاليم إلا بتنفيذ آرائه وكانت كتائبه كتائب النصر[1].

11 ـ **وفاة الملك الصالح نجم الدين وعدم كفاءة وريثه:** استطاع الملك الصالح نجم الدين أيوب، أن يدخل تشكيلات جديدة على القوة العسكرية التي كان يتكون منها جيش السلطان الأيوبي، والتي ساهمت في تقوية الجيوش وانعكس ذلك على الدولة، ومن أهم الإجراءات التي اتخذها الملك الصالح نجم الدين أيوب، اهتمامه الكبير بشراء المماليك والغلمان والأتراك بشكل لم يسبق له نظير في تاريخ السلطنة الأيوبية، فخلال مدة حكمه أضاف إلى الجيش في دفعة واحدة أكثر من ألف مملوك تركي وعمل منهم جيشاً قوياً سانده في فرض إرادته على الأقاليم، والقضاء على حركات التمرد الداخلية. وكان ولاء المماليك للملك الصالح نجم الدين أيوب مطلقاً واستطاع إعادة هيبة الدولة الأيوبية من جديد، ونجح إلى حد كبير في إعادة قوتها وسلطانها إلا أنه توفي أثناء الحملة الصليبية السابعة وكان عمره عند وفاته 44 سنة، وعهد لولده المعظم تورانشاه وقامت شجرة الدر زوجة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ومن معها من الوزراء والأمراء بتثبيت الملك المعظم تورانشاه، إلا أنه لم يكن رجل المرحلة، وفشل في التحديات التي كانت تفرضها الظروف التاريخية، وبدلاً من تكريس جهوده لتوحيد المسلمين للقضاء على الخطر الصليبي تماماً، بدأ يدبر للتخلص «من شجرة الدر» وكبار أمراء المماليك، فاحتقر خصومه واستبد برأيه وأبعد الأولياء ولم يلجأ إلى استخدام المال والسياسة في تفتيت خصومه وضعفت الشقة بينه وبين رجاله، وفشل في كسب ولاء قادة الجيش فتم قتله وزالت الدولة الأيوبية بموته، هذه هي أهم الأسباب في زوال الدولة الأيوبية.

(1) كتاب الروضتين(2/ 241).

المبحث الثاني

سلطنة المماليك بين شجرة الدر وعز الدين أيبك

أولاً: شجرة الدر:

1 ـ شجرة الدر: أيوبية أم مملوكية؟ إن معظم المؤرخين وعلى رأسهم المقريزي، صاحب: «السلوك لمعرفة دول الملوك»، يعتبرون شجرة الدر أولى سلاطين دولة المماليك البحرية في مصر، ولقد أطلق عليها اسم «دولة المماليك الأولى» بإزاء «دولة المماليك الثانية» التي هي دولة المماليك البحرية، واعتبروها أولى سلاطين المماليك كونها منهم، أي من المماليك البحرية، جيء بها جارية مملوكة، فصارت حظيّة الملك الصالح أيوب، وإن كان من الأرجح، أنها ليست من المماليك، وهذا ما ذهب إليه عصام شبارو في كتابه: «السلاطين في المشرق العربي»، أنها مملوكة من أصل أرمني، لا تركي، فهي ليست مملوكة تماماً، بما في كلمة مملوك من معنى، إنها قريبة من المماليك، بجهة النشأة، وإن كان المماليك البحرية الصالحية يأتمرون بأمرها، ويخضعون لها، كونها واحدة من أهم حريم الملك الصالح أيوب، هذا فضلاً عن كونها والدة ولده خليل الذي مات وهو طفل صغير[1]. ويعتبر ابن إياس صاحب: «بدائع الزهور»، شجرة الدر آخر سلاطين بني أيوب، كونها زوجة الصالح نجم الدين أيوب، والد تورانشاه، وأم ولده خليل الذي توفي في حياة أبيه[2].

2 ـ سلطانة مصر: كان للدور الذي لعبته شجرة الدر بعد وفاة زوجها نجم الدين أيوب، وتصرفها حيال الصليبيين وأسر الملك لويس التاسع أبلغ الأثر لدى المماليك بعدما شاهدوا ما تتصف به من حماس سياسي، وحنكة ومهارة، في تصريف أمور الدولة في ذلك الوقت العصيب الذي كادت أخطار الحرب والاستيلاء على دمياط أن تفت في عضد أي حاكم آخر[3].

لقد عملت شجرة الدرّ على تحرير دمياط من الصليبيين، لمّا أخفت موت نجم الدين أيوب على الجيش المصري الذي كان يقاتل الغزاة، إذ لو أعلنت نبأ وفاة الملك والجيوش المسلمة والصليبية في التحام وعراك، لأفلت الأمر من أيدي القادة

---

(1) السلاطين في المشرق العربي، ص: 9.

(2) بدائع الزهور (1/ 89).

(3) شجرة الدُّر قاهرة الملوك، نور الدين خليل، ص: 75.

المماليك، وبعث فيهم نبأ وفاة الملك شيئاً من الضعف والتخاذل والتواكل، الأمر الذي لم يحدث ـ بفضل الله ـ ثم بسبب حنكة شجرة الدرّ وحكمتها، وهي التي تمّت الوفاة بحضرتها فكتمت هذا الأمر، وأمرت العبيد أن يُحْمل الملك سراً في محفّة دون علمهم بموت الملك، ثم أن يوضع في قارب حمله إلى قلعة الروضة، ريثما تنجلي المعركة عن نصر قريب، ولم يَفُتْ شجرة الدرّ أن تعهد إلى الأمير فخر الدين بقيادة الجيش، وأن تبعث فيه روح المثابرة والعزيمة والجهاد ومواصلة الحرب لاسترجاع دمياط من أيدي الصليبيين هذا من جهة، ومن جهة ثانية راحت شجرة الدر، وبالاتفاق مع بعض الأعوان من الخدم والأطباء، تعمل على إدخال كبار الموظفين والأطباء إلى قاعة الملك، بحجّة أن السلطان حي يرزق، بل راحت توقع الأوامر والمراسم بتوقيع السلطان وهي التي حذقت تقليد توقيعه، ومحاكاة خطه، وإن قال بعضهم إن الذي حذق تقليد الملك وتوقيعه، هو خادم لشجرة الدرّ اسمه سهيل، كتم الأمر وخضع له، خدمة لمولاته السلطانة[1]. بهذا التدبير الحكيم، وذلك الأسلوب المميّز والحنكة الفريدة استطاعت شجرة الدر أن تحفظ للجيش وحدته وتماسكه، وأن تحول دون تصدّع صفوفه، وانفراط عقده، كما استطاعت أن تبعث في الجنود روح مواصلة الجهاد، ومتابعة الكفاح، دونما ضعف أو خور أو ميل إلى الخضوع[2] والاستسلام.

كان الرصيد الجهادي لشجرة الدر مؤهلاً لها للتربع على كرسي السلطة بعد مقتل تورانشاه، ويتبارى المؤرخون في سرد الأسباب والدوافع التي جعلت المماليك يرضون بها سلطانه عليهم، فهل يرجع ذلك إلى العلاقة التي تربطها بزوجها الراحل نجم الدين أيوب وابنها خليل؟ أم لزعامتها العسكرية والسياسية وقت الأزمات؟ أم لحاجة المماليك إلى وجود صلة بين الأيوبيين وبين وجودهم بصورة قانونية؟ لقد رفعوها لتتربع على عرش مصر وأطلقوا عليها لقب «أم خليل»[3]، وهكذا أصبحت هذه الجارية، أمة السلطان صالح نجم الدين أيوب، والتي تزوجها بعدما أعتقها، ملكة المسلمين في مصر وسلطانة المماليك البحرية، يخطب لها على المنابر، ويدعون لها من بعد الدعاء لخليفة المسلمين العباسي[4].

(1) موسوعة تاريخ مصر (2/ 671) لأحمد حسين.
(2) شجرة الدرّ، د. يحي الشامي، ص: 52.
(3) شجرة الدرّ، نور الدين خليل، ص: 75.
(4) شجرة الدر، د. يحيى شامي، ص: 54.

3 ـ **الدعاء لها:** كان مما يدعى لشجرة الدرّ قول المصلين: اللهم احفظ الجهة الصالحية ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خليل أمير المؤمنين، المستعصمة، صاحبة السلطان الملك الصالح.[1] أو قول الخطباء الذين كانوا يخطبون باسمها على منابر مصر وأعمالها، فيقولون من بعد الدعاء لأمير المؤمنين الخليفة العباسي: اللهم احفظ الجهة الصالحية، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، ذات الحجاب الجليل، والستر الجميل، والدة المرحوم خليل. إذ أن خليلاً هذا هو ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، كان توفي في حياة والده صغيراً[2]، وفي رواية: أن الخطبة التي كان يخطب بها لشجرة الدرّ على المنابر، لما بويعت بالحكم من بعد الدعاء للخليفة العباسي هي التالية: ربنا احفظ ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين، الجهة الصالحية، أم خليل المستعصمة، صاحبة السلطان الملك الصالح[3].

4 ـ **نقش توقيعها:** وأيا يكن، فإن شجرة الدرّ هذه هي التي راح الناس يدعون لها، ويخطبون، نقشت اسمها على النقود المتداولة في ذلك الزمان، وكانت صيغة النقش هي التالية: المستعصمة الصالحية، ملكة المسلمين، والدة المنصور خليل[4].

5 ـ **الاحتفال بتنصيبها:** ما إن تمّ إعلان خبر تولية شجرة الدرّ ملكة على المصريين حتى راح كبار القادة والأمراء يفدون على المليكة، وقد تربعت على دست الحكم في قاعة الإيوان الذي كان بناه الملك الصالح حيث النقوش الذهبية، والأعمدة الشاهقة المغطاة بالأبنوس والرخام، وحيث الفُرش والزرابي والطنافس والأرائك، ولقد ضاقت باحة القصر الخارجية بعامة الناس الذي أذهلهم الإعلان أن شجرة الدرّ هي ملكة المصريين، وكانوا ما بين مصدِّق للخبر، أو مكذب له، فكنت ترى مواكب الصناع والتجار، والفلاحين والجند، والراقصين والمغنّين والخدم والحشم[5]. على أية حال، قبضت «شجرة الدر» على زمام الحكم بيد من حديد، ووجهت اهتمامها للتخلص من بقايا الحملة الصليبية السابعة، ثم أخذت تتقرب إلى العامة والخاصة من رعاياها[6].

---

(1) النجوم الزاهرة (6/ 374).
(2) بدائع الزهور (1/ 286).
(3) موسوعة تاريخ مصر (2/ 671).
(4) المصدر نفسه (2/ 671).
(5) شجرة الدُر، د. يحيى الشامي، ص: 56.
(6) السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: 76.

6 ـ رفض الخليفة والعلماء وعامة الناس لتولي شجرة الدُّر السلطنة: تفجرت ثورات من الغضب في العالم الإسلامي وحاولت شجرة الدُّر أن تُجمل الصورة قدر استطاعتها، وتقربت إلى العلماء والعامة، إلا أن ذلك ذهب أدراج الرياح، وقامت المظاهرات العارمة على المستوى الشعبي في القاهرة في كل أنحائها، وقام العلماء والخطباء يندِّدون بذلك على منابرهم، وفي دروسهم وفي المحافل العامة والخاصة، وكان من أشد العلماء غضباً وإنكاراً الشيخ الجليل «العز بن عبد السلام» رحمه الله [1]، وأرسل الخليفة العباسي من بغداد إلى الأمراء الذين كانوا بمصر يقول لهم: أعلمونا إن كان ما بقي في مصر عندكم من الرجال من يصلح للسلطنة، فنحن نرسل إليكم من يصلح لها، أما سمعتم في الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال: «لا يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»[2]. ومما قاله الشعراء في إنكارهم على تولي شجرة الدُّر السلطنة:

النساء ناقصات عقل ودين	ما رأين لهنَّ رأياً سنيّا
ولأجل الكمال لم يجعل الله	تعالى من النساء نبيّا[3]

7 ـ شجرة الدُّر تخلع نفسها: لقد اضطربت الأمور على المستوى الشعبي العام، وعارض الفقهاء والمتعلمون جلوس «شجرة الدُّر» على عرش السلطنة، وأدركت السلطانة وزعماء المماليك أنهم يسبحون ضد تيار عارم، لا بد وأن يغرقهم في موجاته[4]، وبعد ثمانين يوماً تنازلت «شجرة الدُّر» عن الحكم لواحد اختارته بعناية من أمراء المماليك هو «عز الدين أيبك» التركماني الصالحي، الذي اشتهر بعزوفه عن الصراع حتى ظن الجميع أنه ضعيف، وقبل أمراء المماليك الأقوياء زواجه من شجرة الدُّر وجلوسه على عرش السلطانة، بل إن بعضهم قال: متى أردنا صرفه أمكننا ذلك لعدم شوكته[5]، وبالفعل تزوجت شجرة الدُّر من عز الدين أيبك، ثم تنازلت له عن الحكم، وتم هذا التنازل في أواخر جمادى الثانية من السنة نفسها سنة (648 هـ). وهكذا في غصون سنة واحدة فقط جلس على كرسي الحكم في مصر أربعة ملوك وهم

---

(1) قصة التتار، ص: 229.
(2) بدائع الزهور (1/ 287).
(3) المصر نفسه (1/ 287).
(4) السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: 77.
(5) المصدر نفسه، ص: 77.

الملك الصالح أيوب ﷺ ثم مات، فتولى تورانشاه ابنه، ثم قتل، فتولت شجرة الدر، ثم تنازلت، فتولى عز الدين أيبك التركماني الصالحي[1].

8 ـ حكم تولي المرأة للولاية العامة: اتفق فقهاء الإسلام ـ على اختلاف مذاهبهم ـ على عدم جواز تولي المرأة لمنصب الإمامة العظمى، وأن الذكورة شرط أساسي فيمن يتولى هذا المنصب[2]، حتى الذين ينادون بحقوق المرأة السياسية، ويؤيدون تدخلها في أمور السياسة، أكثرهم لا يجيزون توليها لهذا المنصب، ويقولون بقصر الرياسة أو رياسة الوزارة على الرجل دون المرأة[3]، ولا شك أن أصحاب هذا الرأي يرون رياسة الوزارة في النظام البرلماني مثل منصب الرياسة أو الإمامة الكبرى في النظام الإسلامي[4]، واستدلوا على صحة هذا القول بالكتاب والسنة والإجماع والمعقول:

أ ـ الكتاب: ـ قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ﴾ [النساء، الآية:34]. وجه الاستدلال: جعل الله تعالى في هذه الآية القوامة للرجال على النساء وهم قوامون عليهم، والقوامة على الأمر، أو المال أو ولاية الأمر، والقيِّم: من يقوم بالأمر، والقوَّام: صيغة مبالغة، أي حسن القيام بالأمر[5]، فلما جعل الله تعالى القوامة للرجل دون المرأة، فهو يعني حصر القيام بانتظام الأمور، وتدبير الشؤون، وولاية الأمر في الرجل، وهذه القوامة عامة تشمل: ولاية الأمور العامة والشؤون السياسية، بما فيها الإمارة والوزارة والخلافة ونحوها كما تشمل الشؤون الأسرية ورعاية أهل البيت، فالرجال قوامون على النساء، أي: القائمون بانتظام أمورهن، وكفالة نفقتهن، ومسؤلون عن الذب عنهن وحفاظهن، وأمرهم نافذ عليهن، فهم الحكام والأمراء، وعليهن طاعتهم فيما يأمرون به وينهون عنه ما لم يكن في معصية الله[6].

ومما يدل على أن القرآن لم يقيد قوامية الرجال على النساء بالبيوت فقط، أنه لم

(1) قصة التتار، ص: 331.
(2) ولاية المرأة في الفقه الإسلامي، ص: 83.
(3) المصدر نفسه، ص: 84.
(4) المصدر نفسه، ص: 84.
(5) تفسير الطبري(8/ 290).
(6) ولاية المرأة في الفقه الإسلامي، ص: 85.

يأت بكلمة(في البيوت) في الآية حتى يحصر الحكم في دائرة الحياة العائلية[1]، والله لم يعطها حق القوامة على بيتها وإنما جعله للرجال، فكيف تجعل على مجموعة من ملايين البيوت[2].

ـ قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة،الآية: 228] ووجه الاستدلال إن الله تعالى في هذه الآية نفى ما كان في الجاهلية من عدم المبالاة بالمرأة وعدم اعتبار حقوقها وشخصيتها، فيبين الله ـ تعالى ـ هنا أن النساء كالرجال في الإنسانية ولهن حق حسن المعاشرة كالرجال، ولكن المراد بالمماثلة مماثلة الواجب بالواجب في كونه ما يردده البعض في العصر الحاضر من كون مساواة المرأة للرجل في جميع الأمور، لأن الله تعالى قال: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ وهذه الدرجة هي القوامة التي جاء بيانها في الآية السابقة الإمرة والطاعة[3].

ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة، الآية: 247]. وجه الاستدلال: إن الله ـ تعالى ـ يبين في هذه الآية الكريمة صفات الاستحقاق للملك، وذلك أن بني إسرائيل لما طغوا في استحقاق طالوت للملك، قالوا: إنه لا يستحق لأنه ليس من أهل بيت الملك، ولأنه فقير ليس عنده مال، فرد الله عليهم بأنه استحق للملك لأمرين: لكون زيادته في العلم، وقوته في الجسم، فهذا دليل على أن قيادة الأمة تسند إلى من لديه علم واسع، وهو قوي جسيم حتى يتحمل مشاق هذا المنصب[4]، ومن المعلوم أن المرأة ضعيفة الجسم والبنية لا تستطيع تحمل المشاق مثل الرجل، وهذا أمر فطري، فلهذا لا يسند إليها قيادة البلد[5].

ب ـ السنة: قال ﷺ: «لن يُفلح قوم ولُّوا أمرهم امرأة»[6]: إن الذكورة شرط في أهلية الولاية العامة بالاتفاق، وأجمعت الأمة في العصور الأولى من الصحابة والتابعين؛ وتابعيهم والأئمة والفقهاء والعلماء والمحدثين والمفسرين على اختلاف مذاهبهم، أجمعوا على أن لا تصلح المرأة للإمامة الكبرى، ولا تجوز توليتها رياسة

(1) تدوين الدستور الإسلامي، ص: 71.
(2) ولاية المرأة في الفقه الإسلامي، ص: 91.
(3) جامع البيان(2/ 454).
(4) تفسير الرازي(6/ 174) مدارك التنزيل (1/ 163).
(5) ولاية المرأة في الفقه الإسلامي، ص: 93.
(6) البخاري، كتاب المغازي، رقم 4425.

المملكة، كذلك رياسة الوزارة في النظام البرلماني لأن لها صلاحيات مثل صلاحيات الإمام. وعلى هذا دلت الأدلة الصحيحة من الكتاب، والسنة وهي ظاهرة في دلالتها ويقتضيه العقل والقياس، والحكمة في خلقة المرأة وتكوينها النفسي والجسدي، والاعتراضات الموجهة إلى حديث صحيح البخاري مردودة، ليس فيها شيء من القوة، إذ تلقته الأمة بالقبول والمعترضون لا يريدون إلا التشكيك في الحديث النبوي وأما القول المعارض الذي حدث متأخراً فليس له دليل صحيح من الكتاب والسنة، بل هي شبهات من اجتهاد بعض أفراد الأمة، أو أفعال من لا ينظر إلى عمله ولا يحتج بفعله[1].

ثانياً: سلطنة عز الدين أيبك:

تولى عرش مصر السلطان أيبك التركماني وتلقب باللقب السلطاني «الملك المعز» ولم يكن أيبك في الواقع أكبر أمراء المماليك سناً أو أقدمهم خدمة، أو أقواهم مكانة ونفوذاً إذ يوجد من هم أكبر وأقدم وأقدر منه مثل فارس الدين أقطاي والظاهر بيبرس وهذه الحالة الاستثنائية في نظام التدرج المملوكي جعلت بعض المؤرخين مثل أبي المحاسن في كتابة النجوم الزاهرة؛ يتهم أيبك بضعف النفوذ والشوكة وأن الأمراء لم ينتخبوه إلا لكي يتمكنوا من عزله متى شاءوا[2]. غير أن الحوادث دلت على أن أيبك رجل يمتاز بصفات السياسة والحزم والشجاعة، ولم يكن ضعيف الشخصية كما يصوره بعض المؤرخين، ويبدو أن أبا المحاسن نفسه قد شعر بالخطأ الذي وقع فيه حينما وصف أيبك بالضعف في كتابه النجوم الزاهرة، إذ أنه عاد واستدرك ذلك في كتابه الآخر: المنهل الصافي، فمدح أيبك فيه ووصفه بالديانة والصيانة والعقل والسياسة، وأنه أنقذ دولة المماليك من خطر محقق، وإذا تناولنا المشاكل والمصاعب التي واجهت السلطان أيبك، نجد أنها تتمثل في تهديدات الأيوبيين والصليبيين في الخارج، وفي ثورات الأعراب في الداخل ثم خطر زملائه المماليك في داخل البلاد وخارجها[3].

1 ـ **الخطر الأيوبي والصليبي**: رفض أمراء بني أيوب الاعتراف بالنظام الجديد في مصر، وانسلخت عنها دمشق والكرك والشوبك والصبية وغيرها من ممتلكاتها التابعة

(1) ولاية المرأة في الفقه الإسلامي، ص: 161.
(2) قيام دولة المماليك الأولى، للعبادي، ص: 124.
(3) المصدر نفسه، ص: 124.

لها في الشام وأصبح في الشرق الأوسط الإسلامي قوتان متنازعتان، ولايات الشام ويهيمن عليها الأيوبيون، ومصر ويحكمها المماليك، وقد اعتبر الأيوبيون أنهم أصحاب السلطة الشرعية وأن المماليك دخلاء عليهم، وأنه لا بد من اتخاذ إجراء حاسم لإعادة المياه إلى مجاريها[1]، وشنوا حملة إعلامية مركزة على المماليك وقالوا بأنهم هم الذين سمحوا للملك الفرنسي بالخروج من مصر حياً طمعاً في الفدية التي أعطاها لهم وتلك التي تعهد بدفعها، وأنه لولا جشعهم لما أفلت لويس من قبضة المسلمين[2]، ولما توجه إلى الإمارات اللاتينية في الشام وعمل على بث الخلاف وإثارة الفتن والقلاقل في الشرق الإسلامي، وأما المماليك البحرية فقد وجدوا أنهم أصحاب الفضل الأول في إحراز النصر على لويس والتنكيل به وبقواته على ضفاف النيل، وأنه لولا اجتهادهم في المنصورة وفارسكور ما تم النصر للمسلمين[3]، حتى وصفهم ابن واصل بأنهم كانوا داوية الإسلام[4]، ودافعوا عن اتهام الأيوبيين لهم بإخلاء لويس طمعاً في ماله، بأنهم كانوا يخشون إن قتلوه أو أبقوه في الأسر أن تثور ثائرة العالم المسيحي ويقوم بحملة صليبية جامعة ضد المسلمين قد لا يستطيعون دفعها[5]، خاصة وأن لويس لم يكن محبوباً في فرنسا فحسب، وإنما في أمم الغرب الأوروبي والشرق اللاتيني أيضاً، ثم هم لم ينسوا بعد ما اقترفه «تورانشاه» ابن مولاهم الصالح أيوب في حقهم وفي زوجة أبيه شجرة الدر من إساءات، كان من الضروري وضع حد لها قبل أن يفلت الزمام من أيديهم ويبطش[6] بهم، وأنهم بتخلصهم منه إنما أنقذوا مصر من مفاسده ومباذله، ولذا فهم يرون أنهم أحق بالملك من غيرهم[7].

أ ـ لويس التاسع واستغلال فرصة النزاع بين المسلمين: ففي هذا الوقت الذي كان فيه الشرق الإسلامي منقسماً على نفسه كان الملك الفرنسي في عكا يسعى لتأليف حملة جديدة تهدف إلى امتلاك البيت المقدس. وحري بالذكر في هذا المجال أن المسيحيين في المعاقل اللاتينية في سورية ـ وعلى رأسهم لويس ـ كانوا يدركون حقيقة

---

(1) العدوان الصليبي على بلاد الشام، د.جوزيف، ص: 144.
(2) المصدر نفسه، ص: 145.
(3) المصدر نفسه، ص: 145.
(4) المصدر نفسه، ص: 145.
(5) المصدر نفسه، ص: 146.
(6) المصدر نفسه، ص: 146.
(7) المصدر نفسه، ص: 146.

الحال في مصر والشام وكانوا ملمين إلماماً تاماً بأحوال العالم الإسلامي المضطربة إبان فترة الانتقال هذه، إذ سجل لويس في رسالته إلى شعبه أن هذا الشقاق قد أنعش آماله[1]، كما وجد الفرصة مواتية لتعويض ما خسره في مصر[2]، ومما يدلنا على اهتمام الغرب المسيحي بما كان يجرى في الشرق الإسلامي من أحداث وقتذاك أن المؤرخين الغربيين المعاصرين لهذه الفترة أمثال جوانفيل وروتلان ووليم دي ناجي، ووليم دي شارتر، ومتى الباريزي وغيرهم، قد تتبعوا مراحل الخلاف بين مصر والشام، وسجلوا الكثير من ظروف الحال بينهما مما لا تقل قيمته عما خلفته لنا المصادر الإسلامية في هذا الشأن، وهي فضلاً عن ذلك تعطينا فكرة واضحة عن هذا النزاع من وجهة النظر المسيحية وعن موقف لويس منه[3]، من هنا يتضح أن مهمة الملك لويس التاسع في هذه الفترة بالذات التي قام فيها الخلاف بين بني أيوب في الشام والمماليك في مصر هي استغلال الفرصة، وترقب الأمور عن كثب، واتخاذ خطة السياسة والدهاء، عساه أن يعوض من وراء ذلك ما فاته في حملته الفاشلة على الديار المصرية[4].

ب ـ تردد السفارات بين ملوك مصر والشام ولويس التاسع: هكذا ترددت الرسل وتعددت السفارات بين كل من أمراء مصر والشام وبين الملك الفرنسي في عكا وفي غيرها من بلاد الشام المحتلة وكل منهما يمنِّيه بالوعود المغرية طمعاً في كسبه إلى جانبه، ولكنه اتخذ سياسة الحرص والحذر، متوخياً في ذلك ما تمليه عليه المصلحة المسيحية قبل أن يتخذ قراراً حاسماً، فقد كان بوسعه الانضمام إلى أحد الفريقين أو الوقوف موقف الحياد أو أن يستمر على سياسة متأرجحة أملاً في استنزاف قوى الفريقين إلى أقصى حد ممكن[5]، على أية حال، لم يكد لويس يستقر في عكا حتى أرسل إليه الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب مبعوثين من قبله يسألونه أن يقف إلى جانب مولاهم في قتاله ضد المماليك البحرية الذين قتلوا قريبه السلطان المعظم تورانشاه، وتعهد له الناصر إذا تحالف معه بإعادة بيت المقدس التي كانت تحت إمرته آنذاك إلى المسيحيين[6]، كان السلطان عز الدين أيبك يراقب الأحداث عن كثب وقرر مواجهة

(1) العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص: 147.
(2) المصدر نفسه، ص: 146.
(3) المصدر نفسه، ص: 146.
(4) المصدر نفسه، ص: 147.
(5) المصدر نفسه، ص: 148.
(6) المصدر نفسه، ص: 149.

الخطر الأيوبي بالطرق السلمية أولاً. وحتى يمتص نقمة الأيوبيين، اختار بالاتفاق مع كبار أمراء المماليك صبياً صغيراً في العاشرة من عمره من بني أيوب، هو الأشرف موسى بن المسعود بن الكامل محمد وأقامه سلطاناً ليكون شريكاً له في السلطة، فكانت المناشير والتواقيع والمراسيم تخرج عنهما، ويخطب باسميهما على منابر مصر وأعمالها، وضُربت لهما السكة على الدنانير، والدراهم[1]، ويبدو أن أيبك علم بأنباء المفاوضات بين الملك الناصر ولويس التاسع، وخشي وقوع تقارب أيوبي صليبي، فأرسل إنذاراً إلى الملك لويس التاسع بأنه سوف يُقدم على قتل الأسرى الصليبيين الذين مازالوا في مصر منذ أيام الحملة الصليبية السابعة على دمياط، وهم بانتظار دفع الفدية المقررة لإطلاق سراحهم، إن قام بأي عمل عدائي ضده وأبدى في الوقت نفسه استعداده لتعديل معاهدة دمياط والتنازل له عن نصف الفدية المقررة مقابل تحالفه معه ضد الناصر يوسف. غير أن الملك الفرنسي لم يشأ أن يلتزم بشيء نحو أي من الطرفين وإن كان يؤثر التحالف مع دمشق لما لها من أهمية عسكرية وسياسية، لكن كان لزاماً عليه أن يفكر في أسرى الصليبيين الذين ما زالوا في مصر[2].

ولما يئس الناصر يوسف من استقطاب الملك لويس التاسع، زحف بجيوشه نحو مصر، ونسي زعماء البحرية خلافاتهم الداخلية، وتكتلوا وراء أيبك لصد الزحف الأيوبي الذي هدد مستقبلهم جميعاً، وخرج أيبك من القاهرة على رأس الجيش المملوكي للتصدي للتقدم الأيوبي، لكنه خشي من أن يقوم الصليبيون بمهاجمة دمياط مرة أخرى، مستغلين خلو مصر من المدافعين عنها فأمر بهدم ثغرها، حتى خُرب كله، ولم يبق من المدينة سوى الجامع وأكواخ من القش على شاطئ النيل يسكنها الصيادون وضعفاء الناس، وسموها «المنشية»[3].

2 ـ معركة بين المماليك والأيوبيين: والتقى الجيشان الأيوبي والمملوكي في العاشر من ذي القعدة (648هـ) الثالث من شباط (1251م) عند العباسية بين مدينتي بلبيس، والصالحية، انتصر فيها الناصر يوسف، في بداية المعركة، على الرغم من استبسال المماليك، غير أنه حدث أن فرقة من جيش الناصر يوسف، وهم المماليك

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة، ص: 396

(2) مذكرات جوانفيل، ص: 200، 208.

(3) السلوك (1/ 466)، تاريخ الأيوبين، ص: 398.

العزيزية تخلت عن مواقعها في غمرة القتال وانحازت، بدافع العصبية المملوكية إلى الجيش المملوكي[1]، ولما لم يكن الناصر يوسف مشهوراً بالشجاعة، لم يلبث أن تراجع ولاذ بالفرار عائداً إلى بلاد الشام، في حين عاد المماليك ظافرين ومعهم الأسرى إلى القاهرة[2].

كان لهذه الموقعة أثرها وأهميتها في تثبيت أركان دولة المماليك البحرية الناشئة، فقد استثمر أيبك انتصاره هذا، فأرسل بعد شهر، جيشاً، بقيادة فارس الدين أقطاي، استولى على غزة[3]، ثم قرر الزحف نحو بلاد الشام للسيطرة عليها، ولكي يضمن النجاح لمهمته حاول استقطاب لويس التاسع، ووعده بإعطائه بيت المقدس فور استيلائه عليه من الناصر يوسف[4]، ومن جهته رأى الناصر يوسف نفسه مضطراً للاعتماد على حليف قوي يضمن له الصمود واستمرارية الصراع مع المماليك، فأرسل سفارة إلى عكا يعرض على لويس التاسع التنازل له عن بيت المقدس، مقابل الحصول على مساعدته[5].

3 ـ **تحالف مملوكي ـ صليبي**: استغل لويس التاسع هذا الصراع الإسلامي لمصلحة الصليبيين، ونجح في الضغط على أيبك، فأطلق سراح الأسرى الصليبيين، ثم عقد الطرفان معاهدة في (650هـ/ 1252م) بهدف مناوأة الناصر يوسف، جاء فيها:

ـ وافق أيبك على إطلاق سراح بقية الأسرى الصليبيين.

ـ إعفاء لويس التاسع من بقية المبلغ المتبقي عليه من الفدية.

ـ وعد أيبك الملك الفرنسي بأن يعيد للصليبيين كل مملكة بيت المقدس التي كانت تمتد شرقاً حتى نهر الأردن[6].

غير أن التحالف المملوكي ـ الصليبي لم يؤد إلى شيء من النتائج إذ بعد توقيع المعاهدة اتفق كل من أيبك ولويس التاسع على القيام بحملة مشتركة لطرد الناصر يوسف من بلاد الشام، وكان من المتفق عليه أن يستولى لويس التاسع على يافا، في

---

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 398.
(2) تاريخ الأيوبيين، طقوش، ص: 398.
(3) المصدر نفسه، ص: 398.
(4) المصدر نفسه، ص: 398.
(5) المصدر نفسه، ص: 398.
(6) المصدر نفسه، ص: 399.

حين يستولي أيبك على غزة، ثم يتم الاتصال بينهما، ويقوم الجيشان بعد ذلك بهجوم مشترك على الإمارات الأيوبية[1]. وتنفيذاً لهذه الخطة خرج لويس التاسع على رأس ألف وخمسمائة مقاتل إلى يافا واستولى عليها دون مقاومة وكانت تحت الحكم الأيوبي[2]، بينما تقدم الجيش المملوكي بقيادة فارس الدين أقطاي، نحو غزة، وعسكر في الصالحية، ويبدو أن الناصر يوسف علم بأنباء هذا التحالف، وما أعده من خطط لطرد الأيوبيين من بلاد الشام، فتحرك على وجه السرعة، ليحول دون التقاء الحليفين، فأرسل قوة عسكرية من أربعة آلاف مقاتل عسكرت على تل العجول قرب غزة، وبعد أن سيطرت على هذه المدينة، ارتدت إلى يافا لاستعادتها من يد لويس التاسع[3]. وبفعل سيطرة الأيوبيين على غزة ظلّ المماليك في الصالحية، وظهرت بين الطرفين بوادر احتكاك واستمر كل منهما يتحفز بالآخر، حتى أضحت المواجهة المكشوفة وشيكة الوقوع، لكن الصلح تم بين الطرفين في أوائل (651هـ/ 1253م)، فما الذي تغير على الساحة السياسية؟[4].

4 ـ **الخليفة العباسي وسعيه في الصلح**: الواقع أنه لم يقدر للعداء بين الأيوبيين والمماليك أن يستمر في هذه الآونة، وذلك بسبب ظهور خطر جديد هدد المسلمين جميعاً في الشرق الأدنى وتطلب منهم أن يتحدوا وهو ظهور المغول الذين اكتسحوا العراق ووصلت طلائعهم قرب بغداد، ولم يبق من قوة في العالم الإسلامي يمكن أن تدعم الخليفة سوى الشام ومصر، فأعاد الخليفة تسيير رسوله نجم الدين البادرائي لإعادة الصلح وتثبيته بين الناصر يوسف والمعز أيبك[5]، وتمكن رسول الخليفة من عقد صلح بينهما تقرر فيه:

ـ اعتراف الناصر يوسف بسلطة أيبك، وبسيادة المماليك على مصر وبلاد الشام حتى نهر الأردن، على أن تدخل مدن غزة وبيت المقدس ونابلس والساحل الفلسطيني كله في حوزته.

ـ اعتراف المماليك بسيادة الأيوبيين على بقية بلاد الشام.

---

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 399.
(2) المصدر نفسه، ص: 399. (3) المصدر نفسه، ص: 399.
(4) المصدر نفسه، ص: 399.
(5) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (1/ 400).

والواضح أن موجة الرعب التي أثارها المغول أثناء زحفهم من جوف آسيا باتجاه العالم الإسلامي، وأخبار وحشيتهم جعلت الطرفين يستجيبان بسهولة لدعوة الخليفة، وكان المعز أيبك قد استغل انتصاره على الناصر يوسف، وازدياد خطر المغول وتهديدهم لبلاد الشام ومصر، فتخلص من شريكه في الحكم، وهو الأشرف موسى، فحذف اسمه من الخطبة، وقبض عليه، وسجنه في قلعة الجبل وذلك في عام (650هـ/ 1252م)، واستقل بالسلطنة[1].

ومهما يكن من شيء فقد اتضح للملك الفرنسي واللاتيني أنه بوسع المسلمين في مصر والشام إذا اتحدت جهودهم، واتفقت كلمتهم، أن يدفعوا عنهم خطر الجماعات الصليبية، وأن يعملوا على مضايقتها بشتى الوسائل. وكان الصلح التي تم بين الناصر والمعز أيبك في صفر (651هـ/ أبريل 1253م) بمثابة ضربة وجهت إلى قلب القوى الصليبية وإلى لويس التاسع نفسه، إذ أنه أتاح الفرصة للناصر يوسف بعد أن فرغ من جميع ما يشغل باله، لتلقين الفرنج درساً قاسياً[2]، وكان من الطبيعي أن يبدأ الصدام بين قوات كل من الناصر يوسف ولويس التاسع، بعد أن كشف الأخير عن نياته واتخذ من أمراء مصر حلفاء له ضد خصومهم في الشام، وساعد على ذلك أيضاً أن قوات صاحب حلب كانت ترابط قبالة غزة على مقربة من المعسكر الصليبي يافا، ومع أن هذا الصدام لم يكن فيه معركة حاسمة، إلا أنه كان مقدمة أو بداية لسلسلة من الهجمات الشديدة التي ستكيلها القوات الناصرية للصليبيين وولاياتهم بعد إقرار الصلح بينها وبين مصر[3].

لقد فشل لويس التاسع في الاستفادة من الانشقاق الذي حدث بين الشام ومصر، إلا أنه اضطر أخيراً إلى العودة إلى فرنسا، فغادر فلسطين في ربيع الأول سنة (652هـ/ 24 نيسان 1254م) مجروحاً في كرامته وعزته وكبريائه بعد هزيمته في مصر، وكان ذلك إيذاناً باضمحلال الروح الفرنجية العسكرية وموتها فيما بعد، في وقت كانت تكابد فيه طور النزع الأخير[4].

5 ـ **تمرد القبائل العربية ضد المماليك في مصر:** ومن المشاكل التي اعترضت

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر والشام، ص: 400.
(2) العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص: 192.
(3) المصدر نفسه، ص: 200.
(4) معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، ص: 78.

السلطان أيبك، هي ثورة بعض القبائل العربية ـ أو ما يسمى بالعربان ـ في مصر سنة (1253م). من المعروف أن القبائل العربية استوطنت مصر بعد الفتح الإسلامي وتأثرت بالبيئة المصرية الزراعية، وأخذت تتحول تدريجياً إلى شعب زراعي مستقر، ولا سيما في أقاليم الصعيد والشرقية، وأطلق عليهم اسم العرب المزارعة، وكان هؤلاء الأعراب يقومون بفلاحة الأرض على مقربة من القرى القديمة الآهلة بالفلاحين من أهالي البلاد، غير أنه يلاحظ أن هؤلاء الأعراب كانوا يتمتعون بمركز اجتماعي أعلى مرتبة من الفلاحين بسبب المساعدات الحربية التي كانوا يؤدونها للدولة في وقت الحرب ولا سيما إبان الحروب الصليبية، وكان مشايخ العربان تقع عليهم تبعة حفظ النظام في القرى والأرياف كذلك مساهمتهم في الإنتاج الزراعي ودفع الخراج، وكان تعسف أمراء المماليك في تحديد أثمان المنتجات الزراعية واحتكارها والتلاعب في أسعارها أحياناً، من الأسباب التي دفعت بهؤلاء المزارعين العرب إلى القيام بثورات متعددة طول العصر المملوكي، وهذه الثورات عرفت في الكتب المعاصرة باسم «فساد العربان»، وكانت تنتهي في العادة بهزيمة العرب، نظراً لبراعة المماليك في فنون القتال[1]، وتجريد العرب من وسائل الدفاع المؤثرة.

ففي منشور صدر في عصر المماليك جاء ما يلي:... فلا يمكن أحداً من العربان ولا من الفلاحين أن يركب فرساً فإنما يعدها للخيانة مختلساً ولا يكون لها مرتبطاً ولا محتسباً، وكن لهم ملاقياً مراقباً، فمن فعل ذلك فانتقم منه بما رسمنا معاقباً ولا تمكنهم من حمل السلاح، ولا ابتياعه ولا استعارته ولا استيداعه، وتفقد من بالأقاليم من تجارة وصناعة فخذ بالقيمة ما عند التجار، واقمع بذلك نفس الفجار وأخرم نار العذاب على من أخرم لعمل ذلك النار[2]. وورد في منشور آخر ما يلي:... ولا يمكن أحداً من العربان بجميع الوجه القبلي أن يركب فرساً ولا يقتنيه ويكفي بذلك الأيدي المعتدية فإن المصلحة لمنعهم من ركوبها مقتضية ... ومن وجد من العربان خالف المرسوم الشريف من منعه من ركوب الخيل كائناً من كان ضرب عنقه وأرهقه من البطش بما أرهقه ليرتجع به أمثاله، ولا يتسع لأحد في الشرق مجاله[3].

ويرجع أسباب الصراع القائم بين العرب والمماليك، إلى أن المماليك الذين

---

(1) قيام دولة المماليك الأولى، ص: 129.

(2) صبح الأعشى، نقلاً عن: تاريخ القبائل العربية، محمود السيد، ص: 124.

(3) المصدر نفسه، ص: 125.

استولوا على الحكم لم يكونوا من أهل البلاد وإنما كانوا مجرد وافدين لأغراض حربية، فحسب، كما أنهم لم يرتبطوا مع الشعب المصري بروابط المصاهرة والنسب، وظلوا منعزلين عن أفراد الشعب، ومع ذلك فإنه إذا كان للمماليك دور فعال في الدفاع عن مصر وحمايتها من أعدائها، فإن للمصريين والعرب دورهم أيضاً في الدفاع بنفس القدر الذي كان للمماليك ولذلك فقد رأى العرب أنهم أحق من المماليك الغرباء بحكم مصر(1). فقامت الثورات ضدهم واستخدم المماليك في قمع تلك الثورات وسائل متعددة تنطوي على القسوة والقهر، من وسائل قتل وتعذيب معروفة في ذلك العهد، وقد أدت هذه السياسة إلى هجرة عدد كبير من المزارعين إلى المدن الكبرى بغية التسول أو السرقة أو الاشتراك في المنازعات والاضطرابات الداخلية التي كانت بين أمراء المماليك، وكانت دوافع تلك الثورات اقتصادية وسياسية، ولا شك أن الدافع السياسي وسعي بعض القبائل العربية للقضاء على حكم المماليك ولّد ردة فعل لديهم مما جعلهم يستخدمون سياسة العنف والقسوة في قمع الثورات خوفاً على سلطانهم. وأول وأخطر ثورة قام بها الأعراب أيام المماليك، هي الثورة التي قاموا بها في عهد السلطان أيبك التركماني عام (651هـ / 1253م) وأسباب هذه الثورة ترجع إلى عوامل اقتصادية وسياسية كما أسلفنا، فالمماليك منذ أن انتصروا على الأيوبيين في وقعة العباسية وتدخلت الخلافة في صالحهم اعتقدوا أن البلاد وما فيها صارت لهم بلا منازع، فبالغوا في الفساد والاستهتار وزيادة الضرائب، إلى درجة أن بعض المؤرخين أمثال المقريزي وأبي المحاسن، فضلوا عليهم الصليبيين وقالوا لو أن الفرنج ملكوا مصر ما فعلوا فعلهم(2).

وهذا كلام لا يستقيم أمام الوقائع التاريخية، فالفرنج لما تمكنوا من ثغر دمياط في الحملة الصليبية، عملوا ما تقشعر منه الأبدان وتشيب منه الرؤوس، وفصلنا كثيراً من أعمال الفرنج في كتبنا السابقة عن الحروب الصليبية، وقد حاول بعض المؤرخين أن يقدم لنا صفحات التاريخ المملوكي بلون أسود مظلم قاتم، ومع اعترافنا بالحقيقة المرّة أن تمزقاً كان يقوم بين طوائف المجتمع في عهد المماليك، وبين الأمراء المماليك أنفسهم وولاتهم المتعددة، فإن إشراقة من الإيمان تطل علينا وشموعاً تضاء في دهاليز الذات لدى هذا القائد أو ذاك، عندما يمس الإيمان شغاف قلبه، ويحرّك القرآن فيه روح الجهاد والاستشهاد.

---

(1) تاريخ القبائل العربية، د. محمود السيد، ص: 125، 126.

(2) السلوك (1/ 280)، النجوم الزاهرة (7/ 9)، قيام المماليك، ص: 130.

إن من التجني أن ننسى الدور الرائد الفذ الذي قام به الظاهر بيبرس والمظفر قطز في قيادة جيش إسلامي وقف كالطود الشامخ في وجه الزحف التتري، الذي كان يستهدف عقيدتنا، وديارنا وأمتنا ويسعى لاجتثاث ذلك كله من الوجود، وكانت النتيجة اندحار الغزاة وهزيمة المعتدين بوحدة الصف ودافع الإيمان الصادق المتين[1]. إن معركة عين جالوت تمثل مَعْلَماً مضيئاً في خضم الظلمات ومثلها معالم أخرى، كتحرير بلاد الشام من المشروع الصليبي في عهد المنصور بن قلاوون، والمدارس التي بنيت والمكاتب التي أوقفت والمساجد التي شيدت وصرح الخير والبر والمرحمة، والحركة العلمية الموسوعية التي قادها علماء ذلك العصر، كالنووي وابن تيمية وابن القيم والذهبي وابن كثير والمزي والسبكي والمقريزي وابن خلدون والسيوطي وغيرهم كثير، وهذا ما سوف نعرفه في هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

الحقيقة أن هناك تجاوزات حدثت في عهد المماليك، منها: استخدام العنف غير المبرر ضد المعارضين مما ولّد ردة فعل عكسية قال أبو المحاسن: إن أهل مصر لم يرضوا بسلطان مسه الرق، وظلوا إلى أن مات السلطان أيبك وهم يسمعونه ما يكره حتى في وجهه إذا ركب ومر بالطرقات، ويقولون لا نريد إلا سلطاناً رئيساً مولوداً على الفطرة[2].وتزعم تلك الثورة الشعبية شريف علوي وهو حصن الدين بن ثعلب الذي طمع في السلطنة، وصرح بأن ملك مصر يجب أن يكون للعرب وليس للعبيد الأرقاء[3]، وأقام دولة عربية مستقلة في مصر الوسطى، وفي منطقة الشرقية بالوجه البحري، وكانت قاعدة هذه الدولة بنواحي الفيوم في بلدة تعرف بذروة سريام أو ذروة الشريف «نسبة إليه» وتقع بين النيل وترعة المنهى التي هي الآن بحر يوسف[4].

واتصل الشريف حصن الدين بالملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب الشام يطلب مساعدته في محاربة أيبك في ذلك الوقت، إذ كانت رسل الخليفة المستعصم قد تدخلت لحسم النزاع بينهما وكان العرب يومئذ في كثرة من الرجال والخيل والمال بفضل الله ثم مشاركتهم في حروب الصليبيين، فكوَّنوا جيشاً كبيراً والتفوا حول زعيم حصن الدين وحلفوا له، واضطر السلطان أيبك أن يرسل حملة تأديبية للقضاء على هذه الثورة، ومن

---

(1) تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء، ص: 180.
(2) النجوم الزاهرة (7/ 13).
(3) القبائل العربية، ص: 131.
(4) التعريف بالمصطلح الشريف، ص: 188.

عجب أن يسند قيادتها إلى منافسه أقطاي، وذلك فيما يبدو لمهارته الحربية، وخرج أقطاي من القاهرة بخمسة آلاف فارس من خيرة المماليك وتوجه إلى الشرقية حيث كانت أكبر مظاهر العصيان، وعلى الرغم من قلة عدد المماليك بالقياس إلى العرب، تغلب المماليك بسبب تفوقهم الحربي ومهارة قائدهم أقطاي، وتهدمت المقاومة العربية في بلبيس سنة (1253م)[1]، غير أنها بقيت على حالها في مصر الوسطى، حيث ظل حصن الدين طليقاً وأقام حكومة مستقلة هناك ولم يتمكن أيبك ومن جاء بعده من سلاطين من القبض عليه، إلى أن خدعه السلطان بيبرس البندقداري وقبض عليه وشنقه بالإسكندرية[2]، وكيفما كان الأمر في نهاية الأمير حصن الدين، فالمهم هنا أن أيبك تغلب على أحد العناصر المهددة لقيام دولة المماليك واستقرارها في مصر[3]، وذكر المقريزي في السلوك أن من نتائج ثورات العرب ضد المماليك: أن تبدد شمل عرب مصر وخمدت جمرتهم من حينئذ[4].

6 ـ **خطر زملائه المماليك ومقتل الفارس أقطاي**: ومن العوائق التي هددت حكم أيبك ودولته الناشئة، خطر زملائه المماليك البحرية وزعيمهم فارس الدين أقطاي، وكان أيبك يتوجس خيفة من هذه الطائفة لعلمه بقوتها وخطرها، ومن ثم أخذ يعمل على تقوية نفسه، فأنشأ فرقة من المماليك عرفوا بالمعزية نسبة إلى لقبه «الملك المعز» كما عين مملوكه قطز المعزي نائباً للسلطنة بمصر، ثم لم يلبث أن أخرج المماليك البحرية من ثكناتهم بجزيرة الروضة، وعزل الملك الأيوبي الطفل موسى شريكه في الحكم، وانفرد بالسلطنة[5]، على أن هذه الإجراءات كلها لم تكن إلا مجرد احتياطات شكلية لم تقلل من خطر أقطاي وزملائه البحرية. ويجمع المؤرخون على أن أقطاي وصل إلى قمة المجد خصوصاً بعد تغلبه على ثورة العرب، وأصبح لا يظهر في مكان إلا حوله حرس عظيم من الفرسان المسلحين كأنه ملك متوج، وكانت نفسه ترى أن ملك مصر لا شيء عنده، وكان كثيراً ما يذكر الملك المعز في مجلسه ويستنقصه ولا يسميه إلا أيبكاً، وقد بلغ ذلك المعز فكان يغضي عنه لكثرة خشداشيته البحرية[6]،

---

(1) السلوك(1/ 387).

(2) التعريف بالمصطلح الشريف، ص: 188، قيام دولة المماليك، ص: 132.

(3) قيام دولة المماليك، ص: 132.

(4) تاريخ القبائل العربية، ص: 133.

(5) قيام دولة المماليك الأولى، ص: 133.

(6) المصدر نفسه، ص: 133.

وتلقي المصادر التاريخية الضوء على القوة التي كان يمارسها ويتمتع بها أقطاي، فالمقريزي يقول عنه: واجتمع الكل على باب الأمير فارس الدين أقطاي، وقد استولى على الأمور كلها، وبقيت الكتب إنما ترد من الملك الناصر وغيره إليه، ولا يقدر أحد يفتح كتاباً ولا يتكلم بشيء، ولا يبرم أمراً إلا بحضور أقطاي لكثرة خشداشيته[1].

وابن تغري بردي يقول عنه: فإنه كان أمره قد زاد في العظمة والتفت عليه المماليك البحرية، وصار أقطاي المذكور يركب بالشاويش وغيره من شعار الملك، وحدثه نفسه بالملك وكان أصحابه يسمونه الملك الجواد[2] فيما بينهم، وعملوا على تزويجه من أحد أميرات البيت الأيوبي، وهي ابنة الملك المظفر تقي الدين محمود ملك حماة، بل إنهم تآمروا على قتل أيبك ليخلو الجو لأقطاي[3]. قال الذهبي عنه: فعظم، وصار نائب المملكة للمعز، وكان بطلاً شجاعاً جواداً، مليح الشكل، كثير التحمل، أبيع بألف دينار، وأقطع من جمله إقطاعه الإسكندرية، وكان طائشاً ظلوماً عمّالاً على السلطنة، يركب في دست الملك، ولا يلتفت على المعز، ويأخذ ما شاء من الخزائن، بحيث إنه قال: اخلوا لي القلعة حتى أعمل عُرس بنت صاحب حماة بها[4]، وفهم منها المعز أنه مستهدف لإزالته من الحكم فقرّر التخلص منه، واتفق مع مماليكه على ذلك وأرسل إلى أقطاي يستدعيه موهماً له أنه يستشيره في مهمات من الأمور، وأكمن له كميناً من مماليكه وراء باب قاعة الأعمدة بالقلعة وقرر معهم أنه إذا مَرَّ مجتازاً بالدهليز يبتدرونه بسرعة، فلما وردته إلى أقطاي رسالة المعز بادر بالركوب في نفر يسير من مماليكه من غير أن يعلم أحد من خشداشيته[5]، لثقته بتمكن حرمته، وطلع القلعة آمناً ولم يدر بما كان له كامناً فلما وصل إلى باب القلعة مُنع مماليكه من الدخول معه، ووثب عليه المماليك المعزِّية فأذاقوه كأس المنية[6]. وكان قتله يوم الاثنين حادي عشرين من شعبان، وأمر المعز بغلق باب القعلة، فركبت مماليكه وحاشيته وكانوا سبعمائة فارس ومعهم جماعة من البحرية وقصدوا قلعة الجبل، بناءً على أن المعز قُبض عليه فبينما هم كذلك أرمي لهم برأسه من فوق السور فالتفت بعضهم إلى بعض وقالوا:

---

(1) الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية، ص: 412.

(2) النجوم الزاهرة(7/ 10، 11).

(3) قيام دولة المماليك الأولى، ص: 133.

(4) سير أعلام النبلاء(23/ 197).

(5) خشداشيته: الزميل في الخدمة.

(6) نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، ص: 220.

على من تقاتلوا؟ فتفرقوا جميعهم، ولما شاع الخبر بقتله، أجمع البحرية على الخروج إلى الشام، وكان من أعيانهم يومئذ ركن الدين بيبرس البندقداري، وقلاوون الألفي، وسنقر الأشقر، وبَيْسري، وسِكر، وبرامق[1]، فشمروا ويلاً وخرجوا ليلاً فوجدوا باب المدينة الذي قصدوا الخروج منه مغلقاً، فأضرموا فيه النار، وهو الباب المعروف بباب القارطين فأحرقوه، وخرجوا منه نحو الشام، فسمي من يومئذ الباب المحروق[2]، وقصد البحرية الملك الناصر صاحب الشام ليكونوا عنده. ولما أصبح المعز، بلغه هروبهم من المدينة فأمر بالحوطة على أملاكهم وأموالهم ونسوانهم وغلمانهم وأتباعهم، واستصفيت أموالهم وذخائرهم وشؤونهم وخزائنهم، واستتر من تأخر منهم، وحمل من موجود الأمير فارس أقطاي الجمال المستكثرة من الأموال ونودي على البحرية في الأسواق والشوارع، وتمكن الملك المعز من المملكة وارتجع ثغر الإسكندرية إلى الخاص السلطاني، وأبطل ما قرره من الجبايات، وأعفى الرعية من المصادرات والمطالبات.

وأما البحريّة، فإنهم وفدوا على الملك الناصر، فأحسن إليهم، وأقبل عليهم وأعطى كلاً منهم إقطاعاً يلائمه، ثم عزم على قصد الديار المصرية، فجرد عسكراً صحبة البحرية فساروا ونزلوا الغور واتخذوا العوجاء منزلاً، وبلغ المعزّ مسيرهم إليه واتفاقهم عليه، فبرز بالعساكر المصرية ومعه جماعة ممن حضر إليه من العزيزية، فنزل الباردة بالقرب من العباسية، وانقضت هذه السنة وهو مخيم بها[3]، وفي هذه السنة وصل الشريف المرتضى من الروم ومعه بنت السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو صاحب الروم، وكان الناصر قد خطبها لنفسه، فزفت إليه بدمشق، ودخل بها واحتفل بها احتفالاً كبيراً[4].

وتدخل الخليفة العباسي من جديد بين الأيوبيين والمماليك ووصل نجم الدين البادرائي للتوسط بين الطرفين ونجح في تجديد معاهدة الصلح على أن:

- يستعيد المعز أيبك ساحل بلاد الشام.
- ألا يأوي الناصر يوسف أحداً من المماليك البحرية.

---

(1) نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، ص: 220.

(2) المصدر نفسه، ص: 220، دراسات في تاريخ مصر، سحر عبد العزيز، ص: 239.

(3) المصدر نفسه، ص: 221.

(4) التحفة الملوكية في الدولة التركية، بيبرس المنصوري، ص: 360.

7 ـ مقتل السلطان أيبك وشجرة الدر: يبدو أن أيبك أخذ يشعر بما بين زوجته شجرة الدر والمماليك البحرية بالكرك من مراسلات واتفاقات، فعزم على الزواج من غيرها وأرسل سنة (1256م) إلى بدر الدين لؤلؤ الأتابكي صاحب الموصل يطلب إليه حلفاً زواجياً لم يعلم عنه إلا ما تداولته المراجع من خطبته أيبك لابنة بدر الدين، وليس من المعقول أن تكون الخطبة قاصرة على مجرد الرغبة في الزواج إذ ربما أراد من وراء ذلك الحلف معرفة تحركات المغول عن طريق صاحب الموصل، وكيفما كان الأمر فقد كانت هذه المسألة بداية الخاتمة لعهد أيبك، وذلك لأن شجرة الدر لما علمت ما يبيّت لها أخذت هي تتزعم حركة المعارضة الداخلية والخارجية لسلطنته، فقام بعض من بقي في مصر من البحرية بمعارضة مشروع الزواج، فقبض أيبك على عدد كبير، منهم أيدكين الصالحي، وسيرهم لقلعة الجبل لسجنهم في الجب، فلما وصلوا إلى قرب نافذة القصر السلطاني حيث سكنت شجرة الدر، حنى الأمير أيدكين رأسه احتراماً وقال بالتركية: (والله يا خوند[1]، ما عملنا ذنب وجب مسكناً ولكنه لما سير يخطب بنت صاحب الموصل، ما هان علينا لأجلك، فأنا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم «الصالح أيوب»، فلما عتبناه تغير علينا وفعل بنا ما ترين) فأومأت إليه شجرة الدر بمنديلها بما معناه «قد سمعت كلامك». وعندما نزلوا بهم إلى الجب قال أيدكين: إن كان قد حبسنا فقد قتلناه[2]. ومعنى هذا أن شجرة الدر كانت قد بيتت هي الأخرى لأيبك جزاءً وفاقاً، وأن قبضه على أولئك لم يكن مجرد معارضتهم في الزواج، بل لأنه علم بمؤامرتهم، فأراد أن يقضي على الحركة كلها بالفصل بين أمراء المماليك وزعيمتهم.

غير أن شجرة الدر كانت قد دبرت ما لم يكن في الحسبان، إذ أرسلت سراً أحد المماليك العزيزية إلى الملك الناصر يوسف بهدية ورسالة تخبره فيها أنها عزمت على قتل أيبك والتزوج منه وتمليكه عرش مصر، ولكن الناصر أعرض عنها خوفاً أن يكون في الأمر خدعة، ولم يجبها بشيء، وعلم بدر الدين لؤلؤ بأخبار هذه المفاوضات السرية فبعث بها إلى أيبك ينصحه أن يأخذ حذره، وخاف أيبك على حياته فترك القلعة وأقام بمناظر اللوتي وصمم على قتل زوجته قبل أن تقضي عليه، وأخذ الزوجان يتسابقان في نسج المؤامرات بعد القبض على البحرية في القاهرة، وانتهى السباق

(1) الخوند: السيد أو الأمير ويخاطب به الذكور أو الإناث.

(2) السلوك(1/ 401 ـ 402).

بانتصار المرأة في ميدانها، إذ أرسلت شجرة الدر إلى أيبك رسالة رقيقة تتلطف به وتدعوه بالحضور إليها بالقلعة، فاستجاب لدعوتها وصعد إلى القصر السلطاني بالقلعة حيث أعدت له شجرة الدر خمسة من الغلمان الأشداء لاغتياله، منهم محسن الجوجري ونصر العزيزي، وسنجر وكان آخرهم من مماليك أقطاي[1]، وقد قام هؤلاء الغلمان بما أمروا به وقتلوه في الحمام في أبريل سنة (1257م، 655هـ)[2]، قال الذهبي عن السلطان المعز: كان ديناً عاقلاً، كريماً، تاركاً للشرب[3].

حاولت شجرة الدر إخفاء واقعة القتل، وأمرت بتجهيز جثمان عز الدين أيبك بملابس لائقة ووضعه على فراشه، والادعاء بأنه سقط من فوق جواده أثناء عدوه، وتسبب ذلك في إصابات أنهت حياته، وسرعان ما انتشر نبأ وفاة السلطان، وبدأ أمراء المماليك يتوافدون على القصر، وكانت شجرة الدر ما تفتأ تروي واقعة سقوطه من على ظهر جواده، لكنهم استمعوا إليها في ريبة، فقد شهد أيبك معارك كثيرة خاضها وهو يحارب من على ظهر جواده لكنها في كل مرة كانت تصر وتؤكد الواقعة[4]، وأحيط بشجرة الدر، وواجهها أمراء المماليك فلم يكن أمامها إلا أن تعترف بأنها أرادت الانتقام، لكن لم يخطر ببالها أبداً أن ذلك سيؤدي إلى وفاته، وتشاور أمراء المماليك فيما يصنعون، لقد وقفوا مع شجرة الدر بادئ الأمر، وصنعوا منها ملكة وسلطانة، وأحاطوها برعايتهم وحمايتهم، حتى في أصعب الأوقات، وباركوا زواجها من عز الدين أيبك، وساعدوها على أن تصبح زوجة السلطان، فكيف ترتكب هذه الفعلة النكراء؟ وتتنكر على هذا النحو البغيض؛ ثمّ إنهم انقسموا على أمرهم، وانحاز بعض الأمراء إلى جانبها وأعادوا ما كان لأيبك من قسوة وغلظة وجبروت، فضلاً عن أن وجود شجرة الدر يعتبر ضرورياً كرمز للشرعية، فهي أرملة نجم الدين أيوب وأم ابنه خليل، ولها من الأيادي على مصر وعلى المماليك أنفسهم الشيء الكثير البادي للعيان، ورأى البعض الآخر أنها قد ارتكبت جريمة مرعبة، وكاد الأمر أن يتطور إلى حرب بين الفريقين، وأخيراً انتصر أعداؤها وحُبست في أحد أبراج القلعة، ونودي بعلي بن عز الدين أيبك السلطان الراحل، سلطاناً جديداً ليخلف والده الراحل، ويحدثنا أحد

(1) قيام دولة المماليك الأولى، للعبادي، ص: 139.
(2) المصدر نفسه، ص: 139.
(3) سير أعلام النبلاء(23/ 198).
(4) شجرة الدرُ قاهرة الملوك ومنقذة مصر، ص: 85.

المؤرخين أن شجرة الدر كانت قوية في مواجهة الموت كما كانت قوية في مواجهة المدلهمات، فلمّا أيقنت من نهايتها أسرعت إلى خزانتها واستخرجت حليها ومجوهراتها جميعاً، وسحقتها سحقاً حتى لا تتزين بها غريمتها أم علي زوجة السلطان الأولى، وفي هذه الرواية شك كبير كذلك؛ فكيف لشجرة الدر، وهي سجينة في برج بالقلعة أن تسرع إلى خزنتها وتستخرج حليها، ثم تسحقها جميعاً حتى لا تتزين بها غريمتها أم علي كما يقول المؤرخ[1]؟

وفي خارج القصر هدأت الجموع التي أثارها انتشار النبأ، ورضي الجيش بالسلطان الجديد بعد أن كان قد انقسم على نفسه بين مؤيد لشجرة الدر ومنكر لها، وتوقفت أعمال الشغب التي كانت قد انتشرت في القاهرة، وتجنّب أمراء المماليك شبح الفتنة التي كانت تتهددهم، واقتيدت شجرة الدر إلى بلاط السلطان الجديد حيث كانت غريمتها أم علي، زوجة أيبك الأولى قد أصبحت منها أم السلطان الجديد، وتمايلت أم علي فرحاً فكانت تنتظر فرصة كهذه منذ سبع سنوات، منذ أن هجرها زوجها أيبك وهجر معهما ابنهما علي.

إن ساعة الانتقام قد أزفت، وأمرت خادمات القصر بالدخول على شجرة الدر وضربها بالقباقيب حتى تفارق الحياة[2]، يقول المقريزي: فضربها الجواري بالقباقيب إلى أن ماتت، وألقوها من سور القلعة إلى الخندق، وليس عليها، سوى سروال وقميص، فبقيت في الخندق أياماً وأخذ بعض أراذل العامة تكة سراويلها ثم دفنت بعد أيام ـ وقد نتنت ـ وحملت في قفة، بتربتها[3]. قال عنها الذهبي: ودفنت بتربتها بقرب قبر السيدة نفيسة، وقيل: إنها أودعت أموالاً كثيرة فذهبت، وكانت حسنة السيرة هناك، لكن هلكت بالغيرة[4]. وقال ابن العماد فيها: كانت بارعة الحسن، ذات ذكاء وعقل ودهاء.. نالت من السعادة أعلى المراتب، بحيث أنها خُطِبَ لها على المنابر، وملَّكوها عليهم أياماً، فلم يتم ذلك، وتملك المعز أيبك فتزوج بها، وكانت ربما تحكم عليه، وكانت تركية ذات شهامة وإقدام وجرأة وآل أمرها إلى أن قتلت[5].

(1) شجرة الدُر قاهرة الملوك ومنقذة مصر، ص: 86.
(2) وسير أعلام النبلاء (23/ 199).
(3) السلوك (1/ 494).
(4) سير أعلام النبلاء (23/ 200).
(5) شذرات الذهب (7/ 464).

وأما غريمتها أم السلطان الجديد، أم علي، فكانت قد نذرت أن تدعو كل سكان القاهرة، إلى وجبة من الحلوى في نفس اليوم الذي تتخلص فيه من غريمتها، وعندما ماتت شجرة الدر، أمرت طهاة القصر بإعداد تلك الوجبة، لكن الوقت لا يسمح بالانتهاء في نفس اليوم، فجاءتهم بوصفة طهي بسيطة للغاية، كما كميات ضخمة الخبز، يجري تسخينها إلى درجة الاحمرار وتغمر في اللبن والعسل، ثم تغطى بطبقة سميكة من اللوز والزبيب والصنوبر، وهي وجبة الحلوى اللذيذة التي تقدم في المطاعم في أيامنا هذه، وقد سميت باسم أول من صنعتها، أم علي[1].

8 ـ سلطنة علي ابن المعز ثم تولي سيف الدين قطز: صمم المماليك المعزية، وعلى رأسهم سيف الدين قطز، على أن يقيموا على العرش الذي بات شاغراً بمصرع أيبك صبياً في الخامسة عشر من عمره هو «نور الدين علي» ابن سيدهم المعز أيبك، وتم ذلك في ربيع الأول سنة (655هـ/ 1257م) ولقبوه الملك المنصور علي، وقد رفض المماليك الاعتراف بالسلطان الصبي، وتجسد رفضهم في عدة اضطرابات عاصفة، استنجدت بعض الفئات المتنازعة بملوك بني أيوب في بلاد الشام، وحاول المغيث عمر صاحب إمارة الكرك ـ في الأردن حالياً ـ غزو مصر مرتين، لكن الفشل كان من نصيبه[2]. بيد أن هذه الاضطرابات كانت فرصة جديدة لظهور نجم الأمير سيف الدين قطز، فقد قام قطز بالقبض على الأتابك سنجر الحلبي وحبسه في الجب بقلعة الجبل، لأنه كان يطمع في السلطنة بعد مقتل المعز أيبك، ولأنه كان يتحين الفرصة للوثوب على العرش، وأدى ذلك إلى مزيد من الاضطرابات والفوضى، فقد هرب عدد من المماليك البحرية إلى جهة الشام، وطاردهم المماليك المعزية وقبضوا على عدد منهم وأودعوهم سجون القلعة، وخلا الجو لسيف الدين قطز فصار نائب السلطان: . . وصار مدبر دولة الملك المنصور علي[3].

وكان جلوس السلطان الصبي على العرش مسألة قصد بها كسب الوقت حتى يمكن لواحد من كبار المماليك الطامعين في عرش السلطنة أن يحسم الصراع لصالحه، وكان هذا مشهداً تكرر كثيراً طوال عصر سلاطين المماليك، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا أن هذه

(1) شجرة الدر، قاهرة الملوك ومنقذة مصر، ص: 87.

(2) السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: 80.

(3) المصدر نفسه، ص: 81، السلوك (1/ 405).

كانت ممارسة سياسية حظيت باعتراف الجميع طوال ذلك العصر، ومن المهم أن نشير إلى أن المماليك لم يؤمنوا بنظام وراثة العرش، إذ طبيعتهم العسكرية من ناحية، وشعورهم بأنهم جميعاً سواء من ناحية أخرى، جعل كبار أمرائهم يعتقدون أنهم جميعاً يستحقون العرش الذي يفوز به أقواهم، وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين تحقيقاً لمبدأ (الحكم لمن غلب)، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن ظل عرش السلطنة على الدوام محل التنافس والمنازعات بين كبار الأمراء، لا سيما عندما يخلو العرش بسبب موت السلطان، وكان هذا هو الحال عندما مات عز الدين أيبك ولم يشأ «سيف الدين قطز» أن يتعجل الأمور ويواجه المنافسين، فأمسك بيده زمام السلطة الفعلية تاركاً للسلطان الصبي شعار السلطنة ولقبها.. ولا شيء أكثر من ذلك وبات عرش مصر قاب قوسين أو أدنى، ثم جاءت الفرصة تسعى إلى قطز، وكان سيف الدين قطز مشغولاً بترتيب الأوضاع السياسية الداخلية لصالحه[1]، على حين كانت الإشاعات تملأ سماء القاهرة بأن السلطان الصبي يريد خلع قطز مملوك أبيه وصاحب اليد البيضاء في توليه عرش البلاد، واجتمع الأمراء في بيت أحد كبارهم، وتكلموا إلى أن نجحوا في إصلاح الأمور بين الملك المنصور علي وبين مملوك أبيه الأمير قطز،.. وخلع عليه وطيب قلبه وهكذا توطدت مكانة سيف الدين في الدولة[2].

وفي الوقت نفسه كانت الأحوال متردية تماماً بسبب الفتن التي أثارتها طوائف المماليك في القاهرة، كما كان خطر محاولات الغزو الفاشلة التي قام بها المغيث عمر في ذي القعدة (655هـ/ 1257م) وفي ربيع الأول سنة (656هـ/ 1258م) يقلق باله، بحيث خرج في المرتين للقاء المماليك البحرية وحليفهم الأيوبي وبفضل شجاعة «سيف الدين قطز» تم القضاء على هذا الخطر الأيوبي، بيد أنه كان على قطز أن يواصل ترتيب أمور المملكة في الداخل وبعد أن واجه الخطر الخارجي، فقد قبض على جماعة من الأمراء لميلهم إلى «الملك المغيث عمر» في هذا الشهر نفسه، وهم: الأمير «عز الدين أيبك الرومي الصالحي»، والأمير «سيف بلبان الكافوري الصالحي الأشرفي»، والأمير «بدر الدين بكتوت الأشرفي»، والأمير «بدر الدين بلغان الأشرفي» وغيرهم، وضرب أعناقهم في السادس والعشرين من ربيع الأول واستولى على أموالهم كلها[3].

---

(1) السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: 81.

(2) النجوم الزاهرة (7/ 43).

(3) السلوك (1/ 411)، السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: 83.

وبذلك ازدادت القامة السياسية لسيف الدين قطز طولاً، ولكن الدولة التي يحكمها سلطان في سن الصبي بدت واهنة ضعيفة وغير قادرة على تحمل مؤامرات الصغار ولعبهم بأقدار البلاد والعباد، ثم بدا صدى طبول الحرب التتارية يتردد على حدود السلطنة الوليدة، ولم يكن بوسع السلطان الصبي «نور الدين علي» أن يفعل شيئاً إزاء هذا الخطر الداهم، فقد كان يقضي وقته في ركوب الحمير والتنزه في القلعة.. ويلعب بالحمام مع الخدم[1]، ومع كل خبر جديد عن وحشية التتار كانت الأحوال تزداد اضطراباً والقلق يفترس نفوس الناس[2]. وتعين على الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة أن يخطو الخطوة الأخيرة نحو العرش من ناحية، وتدعيم نفوذه السياسي الداخلي من ناحية أخرى، والاستعداد لمواجهة التتار من ناحية ثالثة[3]، ومع اقتراب جحافل التتار من الشام أرسل الملك الناصر المؤرخ والفقيه المعروف كمال بن العديم إلى مصر يستنجد بعساكرها، وهكذا بدأت الحرب تطل بوجهها المرعب، على الساحة السياسية في مصر، وكان النجم الساطع في تلك الساحة هو الأمير «سيف الدين قطز».

ولما قدم ابن العديم إلى القاهرة، عقد مجلس بالقلعة حضره السلطان الصبي الملك المنصور نور الدين علي، وحضره كبار أهل الرأي من الفقهاء والقضاة، مثل: قاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري، والشيخ عز الدين بن عبد السلام، وكان سيف الدين قطز بين الحاضرين، وسألهم الحاضرون عن أخذ الأموال من الناس لإنفاقها على الجنود، فأفتى الشيخ عز الدين بفتوته المشهورة التي يأتي تفصيلها عند الحديث عن عين جالوت بإذن الله تعالى، وكان هذا الاجتماع من الأدوات السياسية التي أحسن سيف الدين قطز استغلالها للوصول إلى هدفه النهائي، عرش مصر وقتال التتار، وكان ذلك الاجتماع الذي عقد بحضور السلطان الصبي آخر خطوات قطز صوب عرش مصر وقتال التتار[4].

وبينما كان هولاكو يجتاح أقاليم العالم الإسلامي الشرقية، كان نجم سيف الدين قطز يزداد سطوعاً وتزداد قامته السياسية طولاً، وكأنه على موعد مع التاريخ لكي ينجز مهمته الكبرى في هزيمة الجحافل التتارية الظالمة، لقد استغل قطز اجتماع القلعة لخلع

(1) السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: 83.

(2) المصدر نفسه، ص: 83.

(3) المصدر نفسه، ص: 84.

(4) المصدر نفسه، ص: 88.

السلطان الصبي، وأخذ يتحدث عن مساوئ المنصور علي، وقال: لا بد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك الصبي صغير لا يعرف تدبير الملك[1]، وساعده على الوصول لهدفه أن مفاسد الملك المنصور علي كانت قد زادت حتى انفض الجميع من حوله واستهتر في اللعب، وتحكمت أمه، فاضطربت الأمور وجاءت الفرصة تسعى إلى سيف الدين قطز عندما خرج أمراء المماليك المعزية والبحرية إلى الصيد في منطقة العباسية بالشرقية وفي غزة، وعلى رأسهم سيف الدين بهادر، والأمير علم الدين سنجر الغتمي، في يوم السبت 24 ذو القعدة سنة (657هـ/ 1259م) وقبض قطز على الملك المنصور وعلى أخيه قاقان وأمهما واعتقلهم في أحد أبراج القلعة، فكانت مدة حكم المنصور سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام[2]. وهكذا اكتملت رحلة المملوك صوب العرش، وصار سلطاناً على الديار المصرية، وجلس على سرير الملك بقلعة الجبل في نفس اليوم، واتفق الحاضرون على توليته، لأنه كبير البيت ونائب الملك وزعيم الجيش، وهو معروف بالشجاعة والفروسية، ورضي به الأمراء الكبار والخوشداشية وأجلسوه على سرير الملك ولقبوه بالمظفر[3].

9 ـ **ترتيب سيف الدين قطز للأمور الداخلية:** لم يكن جلوس قطز على عرش السلطنة نهاية لرحلة المملوك إلى عرش السلطان، إذ كان على السلطان المظفر سيف الدين قطز أن يوطد دعائم حكمه في الداخل قبل أن يتوجه للقاء عدوه في الخارج، فبدأ بتغيير الوزير ابن بنت الأعز، وولى بدلاً منه زين الدين يعقوب عبد الرفيع بن يزيد ابن الزبير، ثم كان عليه أن يواجه معارضة كبار الأمراء الذين قدموا إلى قلعة الجبل، وأنكروا ما كان من قبض قطز على الملك المنصور، ووثوبه على الملك، فخافهم واعتذر إليهم بحركة التتار إلى جهة مصر[4] والشام، وقال سيف الدين قطز في سياق تبريره لما حدث: وإني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار، ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو، فالأمر لكم، أقيموا في السلطنة من شئتم[5]. وأخذ يرضي أمراء المماليك حتى تمكن، على حد تعبير المقريزي؛ وما إن شعر أن

(1) السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: 89، النجوم الزاهرة (7/ 55).
(2) السلوك (1/ 417)، النجوم (7/ 55).
(3) السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: 90.
(4) السلوك (1/ 417 ، 418)، السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: 92.
(5) السلوك (1/ 418)، السلطان المظفر، ص: 92.

سلطته قد رسخت حتى أخذ يتخلص من كل من يمكن أن يشكل تهديداً على عرشه، فأرسل المنصور علي وأخاه وأمه إلى دمياط، واعتقلهم في برج بناه هناك وأطلق عليه اسم برج السلسلة، ثم نفاهم جميعاً إلى القسطنطينية، بعد ذلك قبض السلطان سيف الدين قطز على الأمير علم الدين سنجر الغتمي، والأمير عز الدين أيدمر النجيبي الصغير، والأمير شرف الدين قيران المعزي، والأمير سيف الدين بهادر، والأمير شمس الدين قراسنقر، والأمير عز الدين أيبك النجمي الصغير، والأمير سيف الدين الدود خال الملك المنصور علي بن المعز، والطواش شبل الدولة كافور، والطواشي حسام الدين بلال المغيثي الجمدار، واعتقلهم، وهكذا تمكن من التخلص من رؤوس المعارضة، ومن ناحية أخرى، بدأ السلطان المظفر سيف الدين قطز يختار أركان دولته ويوطد دعائم حكمه، فحلف الأمراء والعسكر لنفسه، واستوزر الصاحب زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع، وأقر الأمير فارس الدين أقطاي الصغير الصالحي المعروف بالمستغرب أتابكاً، وفوض إليه وإلى الصاحب زين الدين تدبير العساكر واستخدام الأجناد، وسائر أمور الجهاد والاستعداد للحرب ضد التتار.

لقد ضمن سيف الدين قطز هدوء الأحوال داخل دولته، بيد أنه كان ما يزال متوجساً من ملوك الأيوبيين في بلاد الشام، خاصة الناصر يوسف صلاح الدين صاحب دمشق وحلب، وعندما علم بخبر قدوم نجدة من عند هولاكو إلى الملك الناصر بدمشق، خاف من عاقبة ذلك وكتب إليه خطاباً رقيقاً يحاول فيه تجنب المواجهة وأقسم قطز بالإيمان أنه لا ينازع الملك الناصر في الملك ولا يقاومه، وأكد له أنه نائب عنه بديار مصر، ومتى حل بها أقعده على الكرسي وقال قطز أيضاً: ... وإن اخترتني خدمتك، وإن اخترت قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت لك العساكر صحبة من تختاره[1]. وهكذا ظهرت من قطز معاني من التضحية والتواضع والحرص على وحدة الصف ساعدته للتصدي للمشروع المغولي وكسره في عين جالوت، وسيأتي الحديث عنه مفصلاً بإذن الله في الفصل القادم.

(1) السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص: 92 ، 93 ، 94.

الفصل الرابع

معركة عين جالوت الخالدة
انكسار المغول

المبحث الأول: احتلال المغول لبلاد الشام والجزيرة:

أولاً: صمود ميافارقين:

انتهى التتار من غارات الاستطلاع في الجزيرة، ومن جمع المعلومات عن أرضها وشعبها وملوكها وكانوا قد فرغوا من أمر بغداد،فوجّهوا جيوشهم بثقلها صوب الجزيرة، وعلى رأسهم القائد العام للعمليات في المنطقة هولاكو خان.

لم يضيع التتار الوقت في عام (656هـ/ 1258م) بعد سقوط بغداد، توجه هولاكو مباشرة إلى الجزيرة، وكان هدفه دينسمر ونصيبين، ومن ثم حرّان، وكلّف ابنه يشموط بقيادة فرقة أخرى من جيش التتار والسير باتجاه ميّافارقين وكلّف معه القائدين إيلكا نويان وسونتاي نويان، ووجّه فرقة أخرى بقيادة الصالح ابن صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ إلى آمد[1].

1 ـ آمد بمواجهة التتار: في عام (655هـ / 1257م) كان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن المظفر شهاب الدين صاحب ميّافارقين قد عاد من زيارة منكوقاآن التتار الأعظم، بعد أن قدم له فروض الطاعة، فعلم أن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يكاتب أهل آمد لتسليمه المدينة، فطلب نجدة الملك السعيد صاحب ماردين، وأرسل عسكره، فطردوا عسكر سلاجقة الروم واحتلوا آمد[2]، وفي عام (557 هـ) وبينما كان

(1) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (2/ 47).

(2) المصدر نفسه (2/ 48).

التتار يحاصرون ميّافارقين، وصل هولاكو إلى آمد واستدعى سيف الدين بن محلي نائب الكامل فيها، فخرج إليه،وطلب منهم هولاكو تسليم المدينة، فلم يمانع، وقام هولاكو بتسليمها إلى ابني كيخسرو سلطان سلاجقة الروم المتوفي، وهما رُكن الدين وعز الدين ولما اقتسما البلاد أصبحت آمد مع رُكن الدين قليبج أرسلان، وفيها نوّابه مع نوّاب التتار، ثم انتقلت بعد مقتله إلى ابنه غياث الدين[1].

2 ـ **تحدي ميّافارقين للتتار**: وبعد عودة الملك الكامل من خان التتار إلى ميّافارقين أعلن العصيان على التتار، وحبس نوّابهم وخرج باتجاه دمشق لمقابلة الملك الناصر يوسف وقال له: إن هؤلاء التتار لا تفيد معهم مُدارة، ولا تنجح فيهم خدمة، وليس لهم غرض إلا في ذهاب الأنفس، والاستيلاء على البلاد، ومولانا السلطان قد بذل لهم الأموال من سنة اثنتين وأربعين ،إلى اليوم (656هـ)، فما الذي أثرت فيهم من خلوص المودة؟ فلا يغتر مولانا بكلام بدر الدين ـ صاحب الموصل، ولا بكلام رسولك ـ الزين الحافظي، فإنهما جعلاك خبزاً ومعيشة وأحذرك كل الحذر من رسولك فإنه لا يناصحك ولا يختارك عليهم، وغرضه إخراج ملكك من يدك وأنا فقد علمت أنني مقتول سواء أكنت لهم أو عليهم، فاخترت بأن أكون باذلاً مهجتي في سبيل الله، ولمَ الانتظار وقد نزلوا على بغداد، والمصلحة خروج السلطان ـ الناصر ـ بعساكره لإنجاد المسلمين وأنا بين يديه، فإن أدركناه عليها فبها ونعمت وكانت لنا عند الخليفة اليد البيضاء وإن لم ندركه أخذنا بثأره[2].

3 ـ **مشروع الكامل لمواجهة التتار**: كانت لدى الكامل رؤية واضحة لموضوع الصراع مع التتار، وقد تجلت في المشروع الذي قدمه للملك الناصر الأيوبي عند زيارته له في دمشق، وهو مشروع هجومي وليس دفاعي:

أ ـ أدرك الناصر أن نزول هولاكو على بغداد لحصارها هو الهدف الأكبر للتتار وإنهم بعده سيتوجهون إلى الجزيرة والشام.

ب ـ تأكد الكامل أن سقوط بغداد سيكون نهاية للدولة الإسلامية بكل رموزها ومعانيها وممالكها وإماراتها.

ج ـ لكل ذلك كان مشروعه يبدأ من بغداد، فقد طلب من الناصر يوسف التوجه

(1) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (2/ 48).

(2) العلاقات الدولية (2/ 50).

بجيشه ـ وسيكون الكامل معه ـ إلى بغداد لنجدتها، فمعركة بغداد هي التي ستحسم الصراع مع بغداد.

د ـ كان يبدو من كلام الكامل ثقته ـ إلى حد ما ـ بالنصر، فإن لم يمكن نجدة الخليفة وإنقاذه فالثأر له.

هـ ـ قام الكامل بتحذير الناصر من تضليل بدر الدين لؤلؤ المتعامل مع التتار، ومن خيانة رسول الناصر إلى التتار وزيره الزين الحافظي «فقد جعلوك خبزاً ومعيشة»[1].

لقد كان الكامل واحداً من الملوك القلّة الذين تجرّؤوا على مجرّد التفكير بالمقاومة، وربما كان ذلك لتقديره الصحيح للموقف فقد قتل التتار الملوك المستسلمين والخاضعين والمقاومين على السوء، وهذا ما أثبتت الأيام صحته[2].

4 ـ **ردّ الناصر على مشروع الكامل:** ما إن علم الملك الناصر بتوجه الكامل المتمرد على التتار نحوه حتى جمع أرباب دولته واستشارهم، فكان رأي الأغلبية منهم استقبال الكامل، والاستماع إلى ما جاء من أجله، بينما عارض ذلك الزين الحافظي والصالح نور الدين بن المجاهد والملك الأشرف بن المنصور صاحب حمص، فإنهم كانوا متفقين مع التتار وقال الزين الحافظي للناصر: متى بلغ هولاكو خروجك إليه جعله سبباً إلى قصد بلادك والمصلحة اعتذارك إليه، وردّه، فلم يمكن الناصر إلا موافقة الجم الغفير، فخرج إليه، وتلقّاه وأنزله بدار السعادة[3]، إن ما نستنتجه ممّا دار في مجلس الملك الناصر هو أن أعوان التتار يشكلون حزباً له وجوده حتى في حاشية الملوك، ولكنّهم قلة، وأن معظم الناس كان مشاعرها ضد التتار، وتميل للمقاومة مهما كانت النتائج، لقد استمع الملك الناصر ولم يوافق على مشروع الكامل، فبعد أن عرض الكامل مشروعه للمسير إلى بغداد أيّد جميع الحاضرين في المجلس هذا المشروع، ما عدا حزب التتار، فقد كانت لهم جرأة في المعارضة. أما الملك الناصر، فكان ردّه متخاذلاً أكثر من تخاذله على الأرض، إذ عرض على الكامل أن يرسل من طرفه رسولاً ليشفع له عند هولاكو، فأجابه الكامل قائلاً: جئتك في أمر ديني تُعوّضني عنه بأمر دنيوي؟ فقال: متى نزلوا عليك أرسلتُ لك عسكراً. فأجاب الكامل: هذا لا ينفعني

(1) الأعلاق الخطيرة لابن شداد، نقلاً عن: العلاقات الدولية (2/ 51).

(2) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (2/ 51).

(3) الأعلاق الخطيرة لابن شداد، نقلاً عن: العلاقات الدولية (2/ 52).

حينئذ، إذ لا وصول له إلي[1]، لقد مثل الكامل إرادة الجهاد والمقاومة مهما كلف الثمن، واختار الشهادة بعزة إن لم يكن النصر،أما الملك الناصر، فقد عبّر عن جبنه وتخاذله وحيرته وتردده وانعدام قدرته على اتخاذ قرار ناجح في لحظة تحتاج إلى قرار، وبقي الكامل في دمشق حتى سمع سقوط بغداد، فرجع إلى بلاده عن طريق حلب، حيث التقى به ابن شداد وقال له: أصبت في قصدك الملك الناصر، وما أصبت في رجوعك، هلا قصدت مصر؟ فيرد الكامل: لقد خفت على قلب الملك الناصر، فيشير عليه ابن شداد أن يخرج حريمه من ميّافارقين، ويستخلف نوّاباً، ويعود للملك الناصر، لعل تنهض عزيمته. ويتضح لنا من هذا الحديث بين الكامل وابن شداد أن فكرة قصد مصر كأمل أخير للوقوف في وجه التتار قد خطرت على بال الكامل، لكنّه لم ينفذها حتى لا يغضب الناصر في وقت هو بأمس الحاجة إليه، كما نتبين أن ابن شداد كان مطلعاً على الوضع العام، فقد عرف أن وضع الجزيرة ميؤوس منه فنصح الكامل بإخراج حريمه من ميّافارقين، وعرف أن الناصر متخاذل خائف يحتاج لاستنهاض عزيمته[2].

5 ـ سقوط ميّافارقين واستشهاد الكامل: بعد أن تمّ للمغول الاستيلاء على إربل، أمر هولاكو الأمراء يشموت وإيلكا نويان وسونتاي بالتوجه إلى مدينة ميّافارقين،ولما بلغوا حدودها أرسلوا رسولاً من قبلهم إلى الملك الكامل الأيوبي صاحبها يدعونه إلى الخضوع، والطاعة لهم ويتوعدونه بالهلاك والدمار في حالة عصيانه لهم، إلا أن الملك الكامل قابل ذلك التهديد بالرفض الشديد، وذلك لما كان يعرفه عن المغول من الخيانة ونكث العهود حيث رد عليهم قائلاً: إنني لن أنخدع بكلامهم المعسول، ولن أخشى جيش المغول وسأضرب بالسيف ما دمت حياً[3]، ونتيجة لهذا الرد الحاسم من الملك الكامل، اتفق الأمراء المغول على مهاجمة ميافارقين، وانتزاعها بالقوة من يد حكامها وفي الوقت نفسه أخذ الملك الكامل يعد نفسه وقواته لمواجهة ذلك الخطر، حيث عمد إلى تطييب خواطر سكان مدينته ورفع روحهم المعنوية، بإعطائهم وعداً ببذل كل ما يملك من الذهب والفضة والغلال الموجودة بالمخازن في سبيل الدفاع عن مدينتهم، فاتحد معه سكان المدينة جميعاً وأعلنوا له أنهم رهن إشارته، وعلى استعداد للجهاد ضد العدوان المغولي الذي بات يهدد مدينتهم بالخراب والدمار،

(1) الأعلاق الخطيرة (2/ 52).

(2) جهاد المماليك، ص: 53.

(3) جامع التواريخ، نقلاً عن: جهاد المماليك، ص: 75.

واستطاع مسلمو ميّافارقين أن يصمدوا واستبسلوا في القتال[1]، وصمدت المدينة الباسلة، وظهرت فيها مقاومة ضارية، وقام الأمير الكامل محمد في شجاعة نادرة يشجع شعبه على الثبات والجهاد، وكان من المفروض في هذا الحصار البشع الذي ضرب على ميافارقين أن يأتيها المدد من الإمارات الإسلامية الملاصقة لها، ولكن هذا لم يحدث لم تتسرب إليها أي أسلحة ولا أطعمة ولا أدوية، لقد احترم الأمراء المسلمون النظام الدولي الجديد الذي فرضته القوة الأولى في العالم ـ التتار ـ على إخوانهم وأخواتهم وأبناهم وبناتهم وآبائهم وأمهاتهم المسلمين والواقع أنني أتعجب من رد فعل الشعوب، أين كانت الشعوب؟

ـ لم يكن الشعوب تملك حريتها وقرارها بل كانت خاضعة لإرادة حكامها.

ـ كانت هناك عمليات «غسيل مخ» مستمرة لكل شعوب المنطقة فلا شك أن الحكام ووزراءهم وعلماءهم كانوا يقنعون الناس بحسن سياستهم وبحكمة إدارتهم.

ـ من لم يقنعه العلماء والخطب والحجج فإقناعه يكون بالسيف، لقد تعودت الشعوب على القهر والبطش والظلم من الولاة[2].

أقبل المغول على فرض حصار شديد على مدينة ميّافارقين، اشتركت فيه فرق أرمينية ومسيحية شرقية، وقابله المسلمون داخل المدينة بصمود هائل عجز أمامه المغول على اقتحامها مدة طويلة، وكان في جيش الملك الكامل فارسان بارعان أذهلا قادة المغول ودوخاهم وأوقعاهم في الدهشة والحيرة، إذ كان لبسالتهما وإحكامهما الرماية سبباً في إنزال أفدح الخسائر في الجيش المغولي، حتى اضطر هولاكو الذي أدرك عجز قواته عن اقتحام المدينة إلى إرسال مدد جديد بقيادة الأمير أرقتو، وانضم هذا القائد الجديد بجموعه إلى الجهة التي فيها جيش الأمير المغولي إيلكيا نويان، ونظراً لطول الحصار الذي فرضه المغول على المدينة، نفذت الأرزاق من داخلها وعم القحط وانتشر الوباء وتهدمت الأسوار من شدة ضرب المنجنيقات، حتى هلك أكثر سكان المدينة[3]، فقد وقعت المجاعة فيها بسبب الحصار الطويل وفي عام (658هـ/ 1260م) سقط آخر معقل للمقاومة في الجزيرة، ودخل التّتار ميّافارقين فوجدوا جميع سُكّانها موتى، ما عدا سبعين شخصاً نصف أحياء، وقبضوا على الكامل الأيوبي؛ فعنّفه هولاكو

(1) جهاد المماليك، ص: 76.

(2) قصة التتار، ص: 178.

(3) جهاد المماليك، ص: 76.

وأمر بتقطيعه[1]، وأخذوا يقطعون لحمه قطعاً صغيرة ويدفعون بها إلى فمه حتى مات، ثم قطعوا رأسه وحملوه على رمح وطافوا به في البلاد وذلك في سنة (657هـ/ 1259م)[2]، حتى وصل دمشق، فعلّقوه على باب الفراديس، حتى أنزله الأهالي ودفنوه وقتل المغول كل من وجدوه في ميّافارقين وهدموها، وهذا يدل على شدة حنق المغول من الملك الكامل، ومن مقاومته لهم. وربما كان أيسر ما كلفتهم إياه هو الخسائر البشرية والمادية فهي ـ بلا شك ـ ساهمت في تحطيم سُمعتهم الحربية المرعبة لأن مقاومة الكامل أصبحت رمزاً لإرادة المقاومة ضد التّتار، وأصبح الكامل بموته قدوة ومثالاً للتضحية والشهادة[3]. وكذلك مدينة ميّافارقين التي تقع الآن في شرق تركيا إلى الغرب من بحيرة «وان» فقد كانت جيوش الكامل الأيوبي تسيطر على شرق تركيا، بالإضافة إلى منطقة الجزيرة، وهي المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات من جهة الشمال، أي أنه يسيطر على الشمال الغربي من العراق وعلى الشمال الشرقي من سوريا[4].

6 ـ ماردين: بعد أن تمكن هولاكو من إنهاء الأمر في ميّافارقين أشار على أمرائه بالزحف على مدينة ماردين، التي كانت تتمتع الأخرى بحصانة كبيرة، إذ تعجب المغول من ارتفاع قلعتها واستحكاماتها، لذلك عمد هؤلاء القادة إلى اتباع نهجهم التقليدي إرسال الرسل إلى صاحبها الملك السعيد، بالتهديد والوعيد إلا أن الملك السعيد نجم الدين إيلغازي الأرتقي، أبى الانصياع إلى أوامرهم ورد عليهم قائلاً: كنت قد عزمت على الطاعة والحضور إلى الملك، ولكن حيث أنكم قد عاهدتم الآخرين، ثم قتلتموهم بعد أن اطمئنوا إلى عهدكم وأمانكم، فإني الآن لا أثق بكم، وأن القلعة بحمد الله تعالى مشحونة بالذخائر والأسلحة ومليئة برجال الترك وشجعان الكرد[5].

وضرب الحصار الشديد على ماردين، وعلى كلٍّ فإن هولاكو استطاع خلال تلك الفترة أن يستولي على آمد وحران والرها وسروج وعدد كبير من مدن وحصون إقليم الجزيرة، ومن ثم قرر هولاكو إرجاء أمر ماردين ريثما يصفّي حسابه مع الشام، فعبر

---

(1) جهاد المماليك، ص: 76.
(2) المصدر نفسه، ص: 76.
(3) العلاقات الدولية (2/ 54).
(4) جامع التواريخ، نقلاً عن: جهاد المماليك، ص: 77.
(5) الأعلاق الخطيرة (3/ 566 ـ 568)، جهاد المماليك، ص: 84.

الفرات على رأس قواته قاصداً حلب فاستولى عليها في المحرم من عام (658هـ / 1259م) وعاد الحصار من جديد وأثناء الحصار توفي الملك السعيد بسبب وباء انتشر بين سكان القلعة فهلك أكثرهم؛ فتولى الحكم ابنه الملك المظفر، وتمت مفاوضات بين الملك المظفر والمغول وتم الصلح مع المغول وكان هولاكو قد أرسل بكوهداي أحد كبار أمراء المغول إلى ماردين، وأعلن كوهداي إسلامه على يد الملك المظفر وزوّجه الأخير أخته، وأعقب ذلك مسير الملك المظفر بنفسه إلى هولاكو في رمضان من السنة نفسها يحمل الهدايا إليه، فاجتمع به هولاكو وأكرمه، ثم قال له: بلغني أن أولاد صاحب الموصل هربوا إلى مصر، وأنا أعلم أن أصحابهم كانوا سبب ذلك،فاترك أصحابك الذين رافقوك عندي، فإني لا آمن أن يحرفوك عني، ويرغبوك في النزوح عن بلادك إلى مصر، وإذا ما دخلت البلاد فاصطحبهم معي[1]. فأجابه الملك المظفر إلى ذلك ثم قفل عائداً إلى بلاده، وفي الطريق أرسل هولاكو في طلبه يأمره بالعودة إليه ثانية فعاد إليه يرتجف خوفاً، فلما اجتمع به قال له هولاكو: إن أصحابك أخبروني أن لك باطناً مع صاحب مصر، وقد رأيت أن يكون عندك من جهتي من يمنعك من التسلل إليهم، ثم عيّن لذلك أمير يدعى «أحمد بغا» وأعادهما إلى ماردين، بعد أن أضاف إلى الملك المظفر نصيبين والخابور، ومنطقة لا يستهان بها من ديار بكر ضمت إلى آمد وميّافارقين، كما ألحق بإمارته بعض المدن التي سيطر عليها المغول في الجزيرة كقرقيسيا حيث أبقى المغول قوة لحفظ المعابر[2]، وفي الوقت نفسه أمر هولاكو الملك المظفر بهدم أبراج قلعة ماردين وما أن غادر الملك المظفر معسكر هولاكو حتى أقدم الأخير على ضرب رقاب أصحاب الملك السعيد، وكان عددهم سبعين رجلاً من كبار أمراء ماردين، ولم يكن لأي من هؤلاء ذنب يذكر، ولكن قصد بقتلهم أن يقص جناح الملك المظفر[3]. وغدت مدينة ماردين ولاية مغولية، ينفذ حكامها ما يأمرهم به قادة المغول، ويلتزمون بالخطوط العامة لسياستهم الخارجية وتحركاتهم العسكرية، ويقدمون لهم المال والإمدادات العسكرية ويضربون السكة باسمهم ويخطبون لهم، وحقق المغول بإدخالهم إمارة ماردين وغيرها تحت سيطرتهم هدفهم المنشود وهو السيطرة على منطقة ديار بكر واتخاذها مركزاً لتنظيم الهجمات على الجهات الغربية من العالم الإسلامي[4].

---

(1) جهاد المماليك، ص: 84.
(2) المصدر نفسه، ص: 84.
(3) المصدر نفسه، ص: 84.
(4) المصدر نفسه، ص: 87.

ثانياً: السلطان الناصر بين المقاومة والاستسلام:

أقدم الملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق الذي يعد أعلى الأمراء الأيوبيين شأناً في بلاد الشام على إعلان الخضوع لهولاكو بعد سقوط بغداد مباشرة، فقد استجاب لأمر هولاكو، فأنفذ إليه ابنه الملك العزيز يحمل الهدايا والتحف معه عدد من الأمراء فلما وصل العزيز إلى معسكر هولاكو وسلمه ما معه من الهدايا والتحف التي تعبر عن الولاء والتبعية لهولاكو، طلب منه العزيز على لسان والده أن يرسل إليهم نجدة لمساعدتهم في استعادة الأراضي المصرية، من أيدي المماليك[1].

1 ـ رد هولاكو على الملك الناصر: رأى هولاكو أن عدم استجابة الملك الناصر يوسف لأوامره، بالخروج إليه بنفسه، يعد تمرداً على أوامره، وأن الوفد الذي أرسله الملك الناصر إليه لا يناسب مقامه، ولم يكتف بعدم الاستجابة لطلبه هذا، بل أصر هذه المرة على خروج الملك الناصر إليه بنفسه لتقديم الولاء والطاعة ومعه قوة قوامها عشرون ألف فارس، حيث أعاد هولاكو الملك العزيز إلى أبيه ومعه رسالة ذكَّر فيها من صنوف العذاب والدمار والهلاك[2] وجاء فيها:

الذي يعلم به الملك الناصر صاحب حلب، أنا قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى، وقتلنا فرسانها، وهدمنا بنيانها، وأسرنا سكانها، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾، واستحضرنا خليفتها وسألناه عن كلمات فكذب، فواقعه الندم واستوجب منا العدم وكان قد جمع ذخائر نفيسة، وكانت نفسه خسيسة، فجمع المال، ولم يعبأ بالرجال، وكان قد نما ذكره وعظم قدره ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال:

إذا تـمَّ أمـر دنـا نـقـصـه	تَـوَقَّ زوالاً إذا قـيـل تَـم
إذا كـنـت فـي نـعـمـة فـارعـهـا	فـإن الـمـعـاصـي تُـزيـل الـنِّـعـم
وكـم مـن فـتـى بـات فـي نـعـمـة	فـلـم يـدر بـالـمـوت حـتـى هَـجَـم

إذا وقعت على كتابي هذا فسارع برجالك وأموالك، وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض (شاهنشاه روي زمين) أي ملك الملوك على وجه الأرض، تأمن شره، وتنل خيره، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ

(1) السلوك، نقلاً عن: جهاد المماليك، ص: 69.
(2) جهاد المماليك، ص: 69.

سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾، [النجم، الآيات: 39 ـ 41] ولا تعوق رسلنا عندك كما عوقت رسلنا من قبل، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بحريمهم إلى كروان سراي[1]، فإن كانوا في الجبال نسفناها وإن كانوا في الأرض خسفناها[2].

أين النجاة ولا مناص لهاربٍ	ولى البسيطان الثرى والماء
ذلت لهيبتنا الأسود وأصبحت	في قبضتي الأمرا والوزراء[3]

هذا طرف من الحرب النفسية التي كانت التتار يشنونها ضد أعداهم[4].

2 ـ **استنجاد الناصر بالمماليك**: رفض الملك الناصر دعوة هولاكو وأرسل إليه رداً مليئاً بالسباب وقلب سياسته تجاه المغول رأساً على عقب، حيث أقدم عندما بلغه عبور القوات المغولية نهر الفرات على إرسال رسول من قبله، هو الصاحب كمال الدين ابن العديم إلى المماليك في مصر يستنجد بهم ضد جيوش هولاكو التي بات هجومها وشيكاً على بلاد الشام، وأمام هذا التصرف الجريء للملك الناصر يوسف، أدرك هولاكو ـ على ما يبدو ـ فشل سياسة التشدد التي اتبعها مع الملك الناصر، والتي أدت به إلى الارتماء في أحضان المماليك في مصر، وبدأ هولاكو يفكر في تلافي ذلك الخطأ حيث سارع بإرسال نجدة سريعة إلى الملك الناصر في دمشق، ولكن هذه النجدة لم تؤت ثمارها بالنسبة لهولاكو، بل زادت فكرة التصالح بين المماليك والأيوبيين، إذ يذكر المقريزي أن السلطان المملوكي المظفر قطز عندما علم بوصول تلك النجدة المغولية إلى الملك الناصر بدمشق، بعث إليه كتاباً أقسم له فيه بالإيمان أنه لا ينازعه في الملك ولا يقاومه وأنه نائب عنه بديار مصر، وختم كتابه هذا بقوله:

وإن اخترتني خدمتك، وإن اخترت قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت إليك العساكر صحبة من تختار[5].

3 ـ **سقوط حلب**: كانت مدينة حلب أول مدينة شامية واجهت العاصفة المغولية،

---

(1) كان هذا هو الاسم التتاري لمصر.
(2) السلوك (1/ 506).
(3) المصدر نفسه (1/ 506).
(4) سيف الدين قطز، ص: 86 قاسم عبده.
(5) جهاد المماليك، ص: 70.

فقد أصدر هولاكو أوامره لقواته بعبور نهر الفرات، ومهاجمة بلاد الشام، ووصل الخبر بذلك إلى حلب وكان يحكمها الملك المعظم تورانشاه نائباً عن الملك الناصر، فجحفل الناس خوفاً من المغول إلى دمشق، وعظم الخطب على من بداخلها، وقبل وصول القوات المغولية إلى حلب، أرسل هولاكو كعادته إنذاراً إلى صاحبها، إلا أن الملك المعظم الأيوبي رد عليه بقوله:

ليس لكم عندنا إلا السيف[1]، ثم احترز على حلب حتى صارت في غاية الحصانة والمنعة، بأسوارها المحكمة البناء وقلعتها المنيعة، وبما نصبه عليها من آلات دفاعية[2]. وفي العشرة الأخيرة من ذي الحجة سنة (657هـ نوفمبر 1259م)، قصد المغول مدينة حلب ونزلوا على قرية يقال لها سلمية، وامتدوا إلى قريتي حيلان والحاري وهما قرى حلب، ثم سيّروا فرقة من عسكرهم باتجاه حلب، فخرج عسكر المسلمين ومعهم جمع غفير من العوام والسوقة، وأشرفوا على المغول وهم نازلون على تلك الأماكن، وقد ركبوا جميعهم لانتظار عسكر حلب، فلما تحقق المسلمون كثرتهم كروا راجعين إلى المدينة وأصبح الملك المعظم تورانشاه بعد ذلك أوامره إلى قواته بالتحصن داخل حلب، وعدم الخروج منها[3]، وفي اليوم التالي تحركت القوات المغولية طالبة حلب، ولما وصلت جموع المغول إلى أسفل الجبل نزلت إليهم فرقة من جيش المسلمين لمقاتلتهم، فلما شاهد المغول ذلك تراجعوا أمام الجيش الإسلامي مكراً وخديعة لاجتذابهم بعيداً عن البلد، فتبعهم عسكر حلب ساعة من النهار، ثم كر الجيش المغولي وخرج من مكامنه فاندفع المسلمون أمامه إلى جهة البلد، والعدو في أثرهم، ولما حازوا جبل بانقوسا وعليه بقية الجيش الإسلامي اندفعوا جميعاً نحو المدينة والعدو مستمر في مطاردتهم، فقتل من المسلمين جمع كثير من الجند والعوام، ونازل المغول حلب ذلك اليوم إلى آخره، ثم رحلوا عنها إلى أعزاز فتسلموها بالأمان[4].

أ ـ الاضطرار إلى التسليم: عاود المغول هجومهم على حلب في ثاني صفر من (658هـ يناير 1260م) وأحكموا حصارها بحفر خندق حولها عمقه قامة، وعرضه أربعة أذرع، وبنوا حائطاً بارتفاع خمس أذرع، ثم نصبوا عليها عشرين منجنيقاً وشرعوا في

---

(1) المختصر في أخبار البشر (3/ 201)، جهاد المماليك، ص: 89.

(2) النجوم الزاهرة (3/ 201)، جهاد المماليك، ص: 89.

(3) جهاد المماليك، ص: 89.

(4) النجوم الزاهرة (7/ 75 ـ 77)، جهاد المماليك، ص: 90.

المغولي والدفاع عن الإسلام وأهله، إلا أن بيبرس تخلى عن دمشق وذهب مع جماعة من المماليك البحرية إلى غزة، حيث استقبله أميرها أحسن استقبال، وفيها سير بيبرس رسولاً من قبله إلى السلطان المظفر قطز ليحلفه على إعطائه الأمان ونجح في المصالح مع قطز الذي وعده الوعود الجميلة، ثم سافر بيبرس إلى مصر وانضم إلى قيادة قطز وأصبح من أكبر أعوانه الذين ساهموا للتخطيط لمعركة عين جالوت وقيادة الجيوش الإسلامية وتحيق ذلك النصر المؤزر الذي بدد أحلام المغول بكاملها[1].

ب ـ تسليم دمشق: خرج الملك الناصر من دمشق ومعه جمع من أتباعه يريد غزة وترك دمشق في حالة يرثى لها، وقصد جمع من أكابر دمشق وأعيانها حضرة هولاكو ومعهم التحف والهدايا ومفاتيح بوابات دمشق، وأظهروا الطاعة والخضوع له، وسلموا المدينة، وأمر هولاكو قائده كيتوبوقا إلى دمشق لاختبار أهلها، فاستقبله أهل المدينة وطلبوا منه الأمان، ثم أرسل أعيانهم إلى بلاط هولاكو وهكذا دخل المغول دمشق بلا حصار ولا قتال وولى عليها هولاكو جماعة من المغول، وعين ثلاثة من أهلها لمساعدتهم في تصريف الأمور بها[2]، وأما قلعة دمشق فقد استعصت على المغول، ورفض من بداخلها التسليم لهم، وفي هذا الوقت وصل إلى دمشق الملك الأشرف صاحب حمص من عند هولاكو ومعه مرسوم بأنه نائب السلطة لدمشق والشام كلها، وتم حصار القلعة وضربها بالمنجنيقات وخرب من القلعة مواضع وطلب من بداخلها الأمان، ودخلها المغول ونهبوا ما كان فيها من الكنوز والدفائن وأحرقوا مواضع كثيرة منها، وهدموا عدداً كبيراً من أبراجها، وأتلفوا سائر ما بها من الآلات والعدد[3].

جـ ـ تسليم حماه: أما مدينة حماه فإن صاحبها الملك المنصور الثاني كان قد حضر إلى برزة ليتجهز مع الملك الناصر، فلما سمع أهل البلد في غيبته بأخذ حلب أرسلوا رسولاً من قبلهم إلى هولاكو، يسألونه العطف، وسلموا له البلد، فأعطاهم الأمان، وجعل عندهم شحنة من قبله، أما قلعة حماه فيبدو أن ما حل بحلب وأهلها وقلعتها من الأهوال، فضلاً عن هروب الملك المنصور صاحبها قد دفع متوليها إلى المسارعة بالتسليم للمغول[4]. وبعد أن تم للمغول السيطرة على حلب ودمشق وحماه،

---

(1) جهاد المماليك، ص: 95.

(2) جمع التواريخ (2/ 307 ـ 308)، جهاد المماليك، ص: 96.

(3) دول الإسلام، للذهبي، نقلاً عن: جهاد المماليك، ص: 97.

(4) المختصر (3/ 201)، جهاد المماليك، ص: 97.

وغيرها من البلدان المجاورة، أصبح استيلاءهم على بقية مدن الشام مسألة وقت، كان على القائد المغولي أن يختاره متى شاء، وذلك بسبب ما حل ببلاد الشام من الأهوال والفزع والخوف، فضلاً عن تفرق كلمة الأمراء الأيوبيين، ففي الأسابيع القليلة التالية، أتم القائد المغولي كيتوبوقا الذي أوكل إليه هولاكو مهمة إتمام الاستيلاء على بلاد الشام بعد عودته من حلب إلى مدينة مراغة للمشاركة في انتخاب الخان الجديد[1]، السيطرة على بلاد الشام حيث توجه إلى نابلس، وحينما حاول أهلها المقاومة جرى قتل عدد كبير منهم، ثم أغارت جموع المغول على سائر بلاد الشام، حتى وصلت إلى أطراف غزة، وبيت جبريل، والصلت، وبعلبك وبانياس وغيرها، واستولوا عليها وقتلوا وسبوا ما قدروا عليه، ثم عادوا إلى دمشق، فباعوا بها ما غنموه من هذه المدن[2].

د ـ موقف النصارى في الشام: جاءت سيطرة المغول شديدة الوطأة على المسلمين في بلاد الشام، إذ أنهم بادروا قبل كل شيء إلى تدمير الاستحكامات والأسوار والقلاع في البلاد التي خضعت لهم مثل حلب ودمشق وحمص وحماه وبعلبك وبانياس وغيرها، وحققوا بذلك ما لم يستطع تحقيقه الصليبيون من قبل[3]، ولقد مال المغول منذ اللحظة الأولى لغزوهم للشرق الأدنى إلى العنصر المسيحي النسطوري، ولعل وصية منكو خان لأخيه هولاكو التي نصت على استشارة هولاكو لزوجته دوقوز خاتون التي كانت مسيحية نسطورية خير دليل على ذلك، وقد أدى وجودها في ركاب زوجها هولاكو إلى التفاف المسيحيين الشرقيين حول المغول، إذ المعروف أن النساطرة ازداد عددهم في الجيش المغولي ووصلوا إلى حد قيادة الجيوش المغولية، فكيتوبوقا كان من عنصر النايمان النساطرة، وكان من الطبيعي أن يتآخى هؤلاء النساطرة مع الجماعات الأرمينية واليعاقبة وغيرهم التي تكاثر عددها في كبرى مدن الشام[4]، وقد أدى هذا التلاحم إلى مشاركة العنصر المسيحي على مستوى قيادة الجيوش في اقتحام مدن الشام، وهولاكو عندما اقتحمت جيوشه مدينة حلب كان بصحبته ملك أرمينية هيثوم الأول وصهره بوهيمند السادس أمير أنطاكيا، كما شهدت عاصمة الخلافة الأموية دمشق لأول مرة منذ ستة قرون ثلاث أمراء مسيحيين هم: كيتوبوقا وهيثوم وبوهيمند يشقون

---

(1) جهاد المماليك، ص: 97.

(2) أخبار البشر (3/ 202)، جهاد المماليك، ص: 98.

(3) المغول، للعريني، ص: 248.

(4) المصدر نفسه، ص: 248، للعريني.

بمواكبهم شوارعها[1]، ويصح أن نؤكد أن غزو المغول لبلاد المسلمين في الشام اتخذ طابعاً صليبياً، وقد ذكر أن هولاكو عندما غزا بلاد الجزيرة قدم عليه جاشليق الأرمني ومنحه البركات، ولما كان هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى في اتصاله مع المغول يتحدث باسمهم واسم صهره بوهيمند السادس أمير أنطاكيا الصليبي فإن هذه الحملة قد اتخذت صفة حملة صليبية أرمينية ـ مغولية[2].

والواقع أن سقوط المدن الثلاث الكبرى، بغداد وحلب ودمشق في أيدي المغول يعتبر من الكوارث الفاجعة التي هزت العالم الإسلامي في ذلك الوقت، وترتب على سقوط دمشق في أيدي المغول أن أعلن المسيحيون بها التمرد والشموخ، ولم يخفوا فرحتهم بما حل بالمسلمين من نكبة، ولم يخف القائد المغولي كيتوبوقا نفسه ما يكنه من الميل نحو هؤلاء المسيحيين وتردده إلى كنائسهم، وذهب بعضهم إلى هولاكو وأحضروا من عنده «فرماناً» ينص على الاعتناء بأمرهم، ودخلوا به البلد وصلبانهم مرتفعة وهم ينادون حولها بارتفاع دينهم وانتضاع دين الإسلام، ورشوا الخمر على ثياب المسلمين وأبواب المساجد وألزموا المسلمين في حوانيتهم بالقيام للصليب، ومن لم يفعل ذلك أهانوه وأقاموه غصباً، وطافوا وهم يحملون الصلبان ويدقون النواقيس في الشوارع إلى كنيسة مريم، وقام بعضهم أثناء المسيرة بإلقاء الخطب فبجل دين المسيح وانتقص دين الإسلام، وضجر المسلمون من ذلك وصعدوا مع قضاتهم وشهودهم إلى نائب هولاكو بالقلعة، فلم يستجب لشكواهم وأخرجهم من القلعة بالضرب والإهانة، وأخذت نائب هولاكو موجة من الاهتمام بالنصارى، فجعل يزور الكنائس ويعظم رجالها على اختلاف مذاهبهم، فاشتدت ثائرة المسلمين، للانتقام لمقدساتهم، فقاموا بإحراق كنيسة مريم، وخربوا جزءاً من كنيسة اليعاقبة[3].

ويمكن القول أن هذا التلاحم بين القوى المغولية والقوى المسيحية الشرقية، الذي أثمر استيلاءهم على بلاد الشام، وتحطيم استحكاماتها، ومن ثم التطاول على المسلمين بها والاعتداء على مقدساتهم، كان أحد العوامل التي دفعت المسلمين في الأراضي المصرية إلى تدارك الأمر واستنفار كامل قواهم، ومن ثم إعلان حركة الجهاد الإسلامي المقدس ضد المغول وحلفائهم حتى تحقق لهم ذلك النصر العظيم في معركة عين جالوت[4].

---

(1) المغول، للعريني، ص: 248. (2) المصدر نفسه، ص: 242.

(3) جهاد المماليك، ص: 102، البداية والنهاية (17/ 398).

(4) جهاد المماليك، ص: 102.

5 ـ نهاية السلطان الناصر الأيوبي: أصبح الملك الناصر مسلوب الإرادة مرعوباً، ليس له رأي، وعندما شاهد جنده ومماليكه هذه الحال، قرروا تنحيته باغتياله أو القبض عليه، وسلطنة أخيه الملك الظاهر غازي بن العزيز لشهامته[1]، وعلم الناصر بالأمر، فترك المعسكر هارباً بالليل إلى قلعة دمشق، فأسقط بيد مماليكه الناصرية وأعوانهم، فهربوا ومعهم الظاهر غازي إلى غزة[2]، وكان تسارع الأحداث في الشام أكبر من أن يترك صدى أو ذيولاً لهذه المحاولة الفاشلة، فالتتار لا يهدؤون وقد انضم إليهم ـ علناً ـ الأشرف بن المجاهد، فأعادوا له حمص وأعمالها وكذلك الملك السعيد ابن عبد العزيز، حيث أطلقه هولاكو من سجن البيرة، وأعاد له ولايته على بانياس، وقلعتها التي تعرف بالصبيبة[3]، فقرر الملك الناصر الانسحاب جنوباً نحو مصر، وقد تضلّلت العسكر، وتصرّمت، وقلت الحرمة، وطمع كل أحد، ولم يبق عند الناصر إلا قوم قلائل، وسار الملك الناصر عن دمشق على أمل جمع الكلمة مع المظفر قطز للقاء التتار، وأخذ ما بقي معه من الجيش، وترك دمشق خالية من العسكر، وأهلها على الأسوار يشتمونهم ويدعون عليهم ويقولون: تركتمونا طعمة للتتار، لا كتب الله عليكم السلامة[4].

وعبر الزين الحافظي إلى دمشق وأغلق أبوابها وسيّر الناصر طلبه، ليجتمع به، فامتنع عن الخروج إليه وجمع أكابر دمشق، واتفق معهم على تسليم دمشق لنواب هولاكو[5]، وسار الناصر ومعه المنصور محمد صاحب حماه، فوصل نابلس، حيث ترك بها حامية، ولما وصل غزة، انضم إليه مماليكه الفارون وتصالح مع أخيه غازي، وعلم الناصر في غزة أن التتار قد احتلوا نابلس فقصد العريش، وأرسل يخبر قطز ويسأله الاجتماع لمواجهة التتار، ويبدو أن جواباً شافياً مطمئناً لم يصل من قطز إلى الناصر «فاسترابَ الناصر بأهل مصر»[6]، وكان قد بلغ قطية «فخاف الناصر دخول مصر فيُقبض عليه»[7]، فسمح الناصر لمن يريد من مرافقيه دخول مصر، فحزم المنصور محمد أمره ودخل المنصور والعسكر مصر، فالتقاهم قطز، وأحسن للمنصور، وأعطاه سنجقاً

---

(1) السلوك، للمقريزي (1/ 512)، جهاد المماليك، ص: 74.
(2) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (2/ 74).
(3) المصدر نفسه (2/ 74).
(4) المصدر نفسه (2/ 74).
(5) أخبار الأيوبيين، ابن العميد، ص: 51، العلاقات الدولية (2/ 74).
(6) العلاقات الدولية (2/ 75)ن، نقلاً عن: تاريخ ابن خلدون.
(7) المختصر (3/ 201)، العلاقات الدولية (2/ 75).

ودخلوا القاهرة[1]، وأما الملك الناصر، فقد أعمته الحيرة فيما يفعل؟ وأين يتوجه؟وأخذ يفكر بالتوجه نحو الحجاز، ثم عدل إلى ناحية الكرك، فتحصن به، ولكنه قلق، فركب نحو البرية، واستجار ببعض أمراء الأعراب[2]. وربما بسبب الطمع، أو نيل الخطوة لدى التتار، قام واحد من مرافقيه وخدمه ـ هو حسين الطبردار الكردي[3] ـ بالتوجه إلى إحدى سرايا التتار التي أخذت تنتشر جنوب الأردن وفلسطين وأعلمهم بمكان وجود الملك الناصر «فقصدته التتار وأتلفوا ما هنالك من الأموال، وخرّبوا الديار، وقتلوا الكبار والصغار، وهجموا على الأعراب التي بتلك النواحي وقتلوا منهم خلقاً وسبوا نسلهم ونساءهم، وقبضوا على الملك الناصر وأرسلوه مع أخيه الظاهر غازي بن محمد وابنه العزيز محمد بن يوسف وإسماعيل بن شيركوه إلى كتبغا نوين، الذي سيّره بدوره إلى هولاكو وأقام الناصر عند هولاكو حتى بلغهم أخبار هزيمة التتار في عين جالوت، فقام هولاكو بقتل الناصر ثم قتلوا بقية من كان معه ولم ينج من نقمة هولاكو إلا العزيز محمد بن الناصر يوسف لصغر سنه حيث بقي عند التتار حتى مات[4].

المبحث الثاني:
مقدمات معركة عين جالوت وسير أحداثها:

كان من نتائج سقوط بلاد الشام في أيدي المغول وحلفائهم أن عم الرعب والخوف سائر أرجائها، فهرب الناس باتجاه الأراضي المصرية، وقد انغرس داخل نفوسهم نتيجة ما شاهدوه من الأهوال وبسبب ما حل بهم وببلادهم من الدمار والخراب والهلاك، وأن الشيء الذي سينقذ المسلمين وممتلكاتهم من الزحف المغولي المدمر هو البحث عن قيادة حكيمة قوية، تترجم نواياهم تلك بإنهاء خلافاتهم وتوحيد كلمتهم، وإعادة تنظيم جموعهم ومن ثم بعث روح الجهاد الإسلامي في نفوسهم لدرء ذلك العدوان الذي استشرى خطره وبات يهدد ما تبقى من العالم الإسلامي بالدمار والهلاك، والواقع أن مصر في ذلك الوقت كان كل شيء فيها ينبئ بظهور قوة جديدة[5].

(1) عقدة الجمان، للعيني (1/ 232)، العلاقات الدولية (2/ 75).
(2) البداية والنهاية (13/ 233)، العلاقات الدولية (2/ 75).
(3) هو الحارس الشخصي، للسلطان.
(4) العلاقات الدولية (2/ 76)، شفاء القلوب، ص: 420.
(5) جهاد المماليك، ص: 105.

أولاً: احتلال مصر هدف إستراتيجي للمغول:

إن المتتبع لخط سير التتار سيدرك على وجه اليقين أن مصر هدف إستراتيجي للمغول وذلك لعدة أسباب منها:

1 - سياسة التتار التوسعية الواضحة وهم لا ينتهون من بلد إلا ويبحثون عن الذي يليه، ومصر هي التي تلي فلسطين مباشرة.

2 - لم يبق في العالم الإسلامي بأسره قوة تستطيع أن تهدد أمن التتار إلا مصر،فقد سقطت معظم الممالك والحصون والمدن الإسلامية تقريباً وبقيت هذه القلعة الصامدة.

3 - الموقع الإستراتيجي لمصر في غاية الأهمية، فهي في قلب العالم القديم، ومتحكم في خطوط التجارة العالمية.

4 - احتلال مصر بوابة لشمال أفريقيا، وفي ذلك الوقت كان المغرب الكبير قد تمزق إلى دويلات صغيرة بعد سقوط دولة الموحدين، ولم تكن لها القدرة على الوقوف أمام الإمبراطورية المغولية.

5 - القوة البشرية في مصر، والطاقات الكامنة بها، واستيعابها لفلول المسلمين الهاربين من المغول كان مصدر قلق بالنسبة للمغول.

6 - مقومات حركة الجهاد الناجحة كانت متوفرة في مصر من قيادة واعية، وحمية دينية، وتجمع للعلماء والفقهاء الفارين من هول المغول، فكان المغول يخشون أن تتحول تلك المقومات إلى مشروع إسلامي لتحرير ديار المسلمين من الاحتلال المغولي[1].

7 - رغبة المغول في الهيمنة على العالم كله تستدعي منهم القضاء على دولة المماليك، ثم أن القرار باحتلال مصر أخذه إمبراطور المغول في عاصمتهم بحضور كبار مستشاري الإمبراطورية المغولية.

ثانياً: خطوات سيف الدين قطز لتوحيد الصف الإسلامي:

بات سيف الدين قطز يدرك إدراكاً تاماً أن بقاء دولته الفتية يتوقف على اجتياز

---

(1) جهاد المماليك، ص: 105، 106.

ذلك الامتحان الصعب المتمثل في الغزو المغولي للممالك الإسلامية الذي استشرى خطره، وأن يثبت أنه بحق أهل للثقة التي أولاها إياه الأمراء في مصر ورجل الساعة بالفعل بعد إجماعهم على عزل الملك المنصور علي ابن المعز أيبك وتنصيبه على دولة المماليك[1]، ولكي تتوحد الصفوف أمام الأزمة اتخذ سيف الدين قطز الخطوات التالية:

الخطوة الأولى: جمع الأمراء وكبار القادة وكبار العلماء وأصحاب الرأي في مصر وتناقشوا في أمر القيادة التي تتصدى للمغول، وأجمع الحاضرون على أن الملك المنصور علي بن المعز أيبك الذي كان صغير السن ضعيف الشخصية لم يكن لديه من الطاقة والقدرة ما يستطيع به مواجهة الأخطار والتحديات التي باتت تهدد دولة المماليك في مصر، لذا قرروا عزل السلطان الصغير[2]، وقال للحاضرين: إني ما قصدت(أي من السيطرة على الحكم) إلا أن نجتمع على قتال التتار، ولا يتأتى ذلك بغير ملك فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو، فالأمر لكم، أقيموا في السلطة من شئتم[3]. فاستطاع قطز أن يجمع الناس على فكرة الجهاد والتصدي للغزاة وفوق ذلك أعلن بوضوح أنه سيجعل الأمر في الناس، يختارون من يشاؤون دون التقيد بعائلة معينة أو مماليك بذاتهم[4].

وسيرة الرجل تدل على أنه صادق فيما قال وأن الانتصار لهذا الدين ورغبته في قتال التتار أعلى بكثير من رغبته في الملك، وقد جعل الله نصر الأمة على يديه، وليس من سنة الله ـ عز وجل ـ أن يكتب نصر الأمة على يد المنافقين، والفاسدين قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ۝﴾ [يونس، الآية: 81]. ومع أن قطز ـ رحمه الله ـ قد استخدم الأخلاق الرفيعة، والأهداف النبيلة في تجميع القادة والعلماء حوله، إلا أنه لم يتخل عن حزمه في الإدارة وعن أخذه بأسباب النصر واختيار الفريق المساعد له وإبعاد من يراه مناسباً فعزل الوزير« ابن بنت الأعز» المعروف بولائه الشديد لشجرة الدر، وولّى بدلاً منه وزيراً آخر يثق في ولائه وقدراته وهو«زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع» وحفظ الأمانة ووسد الأمور إلى أهلها، وأقر قائد الجيش في مكانه وهو «فارس الدين أقطاي الصغير الصالح» مع أنه من المماليك البحرية الصالحية، إلا أنه وجد فيه كفاءة

---

(1) جهاد المماليك، ص: 207.
(2) المصدر نفسه، ص: 105.
(3) قصة التتار، ص: 245.
(4) المصدر نفسه، ص: 246.

عسكرية وقدرة قيادية وأمانة وصدق وهي مؤهلات ضرورية لأي إمارة، وهذا ذكاء سياسي من قطز فهو بذلك يستميل المماليك البحرية الذين فروا في أنحاء الشام وتركيا، ويبث الاطمئنان في نفوسهم، وهذا ـ ولا شك ـ سيؤدي إلى استقرار الأوضاع في مصر، كما أنه سيجعل للمسلمين فرصة تستفيد من الخبرات العسكرية النادرة للمماليك البحرية، كما قام قطز بالقبض على بعض رؤوس الفتنة الذين حاولوا أن يخرجوا عن سلطته وحكمه، وبذلك هدأت الأمور نسبياً في مصر، وعلم قطز أن الناس إن لم يشغلوا بالجهاد شغلوا بأنفسهم، ولذلك فبمجرد أن اعتلى على عرش مصر أمر وزيره زين الدين، وكذلك قائد الجيش فارس الدين أقطاي الصغير أن يجهزا الجيش، ويعدا العدة وينظما الصفوف، فانشغل الناس بالإعداد لمواجهة العدو، لقد ساهمت هذه الخطوة في تقوية الوضع الداخلي، وانشغل الناس بالجهاد، وقام السلطان بإقامة الشرع والدفاع عن البلاد، والقيام بشؤون الرعية وحماية مصالح الناس، فاستقرت الأحوال المحلية، وتوحد الصف الداخلي، وهذه خطوة في تحقيق النصر[1].

الخطوة الثانية: العفو الحقيقي: أصدر السلطان قطز قراراً بالعفو العام (الحقيقي) عن كل المماليك البحرية، لقد مر بنا كيف أنه قد حدثت فتنة بين المماليك البحرية وبين المماليك المعزية، وكانت بدايات الفتنة من ست سنوات (652هـ)، عندما قتل فارس الدين أقطاي زعيم المماليك البحرية، ثم بدأت الفتنة تتفاقم تدريجياً إلى أن وصلت إلى الذروة بعد مقتل الملك المعز عز الدين أيبك، ثم شجرة الدر، ووصل الأمر إلى أن معظم المماليك البحرية ـ وعلى رأسهم ركن الدين بيبرس ـ فروا من مصر إلى مختلف إمارات الشام، ومنهم من شجع أمراء الشام على غزو مصر، ووصل الأمر إلى حدٍ خطير، فلما اعتلى قطز عرش مصر أصدر قراره الحكيم بالعفو عن المماليك البحرية وبدعوتهم إلى العودة إلى دولتهم[2]، واستطاع قطز أن يقنع خصومه من أمراء المماليك البحرية الذين كانوا قد هربوا إلى بلاد الشام، وعلى رأسهم بيبرس البندقداري بالعودة إلى الأراضي المصرية والانضواء تحت لوائه متناسين ما بينهم من الخلافات، بعد أن ثبت لهم عجز أمراء الشام من البيت الأيوبي عن مقاومة المغول[3]، وكان سيف الدين قطز قد أدرك أهمية كسب ركن الدين بيبرس لصف المقاومة لأمور منها:

(1) جهاد المماليك، ص: 248.

(2) قصة التتار، ص: 249.

(3) جهاد المماليك، ص: 106.

أ - الكفاءة القتالية العالية جداً، والمهارة القيادية رفيعة المستوى لركن الدين بيبرس، والحمية الإسلامية لهذا القائد الفذ.

ب - الذكاء الحاد الذي يتميز به بيبرس، والذي سيحاول قطز أن يوظفه لصالح معركة التتار بدلاً من أن يوظف في معارك داخلية ضد المماليك المعزية.

جـ - ولاء المماليك البحرية لركن الدين بيبرس، وأنه إن ظل هارباً فلا يأمن أحد أن ينقلب عليه المماليك البحرية في أي وقت، لذلك فمن الأحكم سياسياً أن يستقطب بيبرس في صفه، ويعظم قدره ويستغل قدراته وإمكانياته، وبذلك يضمن استقرار النفوس وتجميع الطاقات لحرب التتار بدلاً من الدخول في معارك جانبية لا معنى لها.

لذلك لما قدم بيبرس إلى مصر بعد استقدام قطز له، عظم قطز من شأنه جداً وأنزله دار الوزارة وعرف له قدره وقيمته وأقطعه (قليوب) وما حولها من القرى، وعامله كأمير من الأمراء المقدمين وجعله على مقدمة جيوشه فيما بعد، فنلاحظ من صفات قطز القيادية، العفو عند المقدرة وإنزال الناس منازلهم، والفقه السياسي الحكيم، والحرص على الوحدة، وقد استطاع سيف الدين قطز أن يستفيد من طاقات المماليك البحرية وإمكانياتهم وتقوية الجيش بهم[1]. وفتح أبواب مصر أمام فلول المماليك الإسلامية في الشرق الإسلامي التي تعرضت للغزو المغولي، فدخل جموع الخوارزمية الفارة من وجه المغول لمصر، ورحب بهم سيف الدين قطز، وكذلك جموع الشام، ومعه الملك المنصور صاحب حماه[2] وغيرهم.

الخطوة الثالثة: حرص على التواصل مع الدولة الأيوبية، فقد كانت العلاقة بين المماليك والأيوبية متوترة إلى حد كبير، بل إن الناصر يوسف الأيوبي أمير دمشق وحلب كان قد طلب من التتار بعد سقوط بغداد أن يعاونوه في غزو مصر، إلا أن سيف الدين قطز سعى لإذابة الخلافات بينه وبين أمراء الشام، وكان يسعى إلى الوحدة مع الشام أو على الأقل تحييد أمراء الشام، ليخلو بينهم وبين التتار دون أن يطعنوه في ظهره، فتواصل سيف الدين قطز مع الملك الناصر الأيوبي وعرض عليه أن يكون تابعاً للناصر ثم أن قطز رحمه الله علم أن الناصر يوسف قد يتشكك في أمر الوحدة الكاملة أو في

(1) قصة التتار، ص: 253.

(2) جهاد المماليك، ص: 106.

أمر القدوم إلى مصر، فعرض عليه بإمداده بالمساعدة لحرب التتار، فتحققت المصلحة المشتركة في هزيمة التتار وإن لم تتحقق الوحدة الكاملة بين مصر والشام، قال قطز في أدب جم وخلق رفيع: وإن اخترتني خدمتك وإن اخترت قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت لك العساكر صحبة من تختاره[1]. لكن الناصر يوسف لم يستجب لهذه النداءات النبيلة من قطز، وآثر التفرق على الوحدة، فماذا كانت النتيجة؟

سقوط حلب ودمشق، ووقوع الملك الناصر في الأسر ثم قتله بعد عين جالوت، ولم يكتف قطز بهذه الجهود الدبلوماسية مع الناصر بل راسل بقية أمراء الشام، فاستجاب له الأمير المنصور صاحب حماه والتحق بعض جيشه بقطز، وأما المغيث عمر صاحب الكرك بالأردن فقد آثر أن يقف على الحياد، وقد حاول مرتين قبل ذلك أن يحتل مصر، وصده قطز في المرتين، وأما الأشرف الأيوبي صاحب حمص فقد رفض الاستجابة تماماً لقطز، وفضل التعاون المباشر مع التتار، وبالفعل أعطاه هولاكو إمارة الشام كلها ليحكم باسم التتار، وأما الأخير وهو الملك السعيد «حسن بن عبد العزيز» صاحب بانياس فقد رفض التعاون مع قطز هو الآخر رفضاً قاطعاً، بل انضم بجيشه إلى قوات التتار يساعدهم في فتح بلاد المسلمين، وهكذا استطاع قطز أن يكسب أمير حماه المنصور وانضم إليه جيش الناصر، وحيَّد إلى حد كبير المغيث عمر صاحب الكرك، وبذلك يكون قد انضم الكثير من الجنود الشاميين مع سيف الدين قطز[2].

الخطوة الرابعة: أراد الملك سيف الدين قطز قبل الشروع في مواجهة المغول أن يختبر الصليبيين على ساحل بلاد الشام، لمعرفة موقفهم من ذلك الصراع الذي أصبح محاذياً لهم، لتخوفه من انضمام هؤلاء الصليبيين إلى المغول عند نشوب الحرب، وبناء عليه توجهت سفارة مصرية إلى عكا تطلب من الصليبيين السماح للجيوش الإسلامية باجتياز بلادهم وشراء ما تحتاجه من المؤن، والواقع أن الصليبيين لم يخفوا مرارتهم وكراهيتهم وحقدهم للمغول بعد أن قام المغول بمهاجمة مدينة صيدا ونهبها، كما أنه لم تتوافر عندهم الثقة فيهم لما ارتكبوه من المذابح الجماعية، على حين أن الصليبيين اتصلوا بالحضارة الإسلامية وألفوها، بل ونتيجة لذلك أبدوا أول الأمر استعدادهم لبذل

(1) قصة التتار، ص: 255.

(2) قصة التتار، ص: 258.

المساعدة العسكرية للسلطان قطز إلا أن السلطان سيف الدين شكرهم حينما عرضوا عليه أن يسيروا معه نجدة واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه[1]، واستطاع السلطان سيف الدين قطز أن يتحصل على موافقة الصليبيين بالسماح لقواته باجتياز الأراضي الساحلية التي تحت أيديهم، وجعلته في مأمن من ذلك الجانب، وتجنب خطر اشتباكه في أكثر من جهة في تلك اللحظات الحرجة[2].

الخطوة الخامسة: تحكيم الشريعة في أموال الحرب: كانت النفقات للإعداد كبيرة، من تجهيز الجيش، وإعداد التموين اللازم له، وإصلاح الجسور والقلاع والحصون، وإعداد العدة اللازمة للحرب، وتخزين ما يكفي للشعب في حال الحصار، وكانت الأزمة الاقتصادية التي تمر بها البلاد طاحنة، وليس هناك وقت لخطة خمسية أو عشرية، والتتار على الأبواب وقد وصلوا غزة والدولة تحتاج للأموال، فجمع سيف الدين قطز مجلسه الاستشاري ودعا إليه إلى جانب الأمراء والقادة والعلماء والفقهاء وعلى رأسهم سلطان العالم الشيخ العز بن عبد السلام، وبدأوا يبحثون عن حل لتجهيز كتائب المسلمين، واقترح سيف الدين قطز، أن نفرض ضرائب لدعم الجيش[3]. إلا أن الشيخ العز بن عبد السلام تحفظ على هذا المقترح ولم يوافق عليه إلا بشرطين وأصدر هذه الفتوى: إذا طرق العدو البلاد وجب على العالم كله قتالهم (أي العالم الإسلامي)، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به على جهازهم (أي فوق الزكاة)، بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء من السلاح والسروج والذهب والفضة والسيوف المحلاة بالذهب، وأن تبيعوا مالكم من ممتلكات وآلات (أي يبيع الحكام والأمراء والوزراء ما يمتلكون)، ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه وتساووا في ذلك أنتم والعامة، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي قادة الجند من الأموال والآلات فلا[4]. فقد بين الشيخ العز بن عبد السلام، بأنه لا يجوز فرض ضرائب إلا بعد أن يتساوى الوزراء والأمراء مع العامة في الممتلكات، ويجهز الجيش بأموال الأمراء والوزراء، فإن لم تكف هذه الأموال جاز هنا فرض الضرائب على الشعب بالقدر الذي يكفي بتجهيز الجيش ليس أكثر من ذلك[5].

---

(1) السلوك (1/ 430)، جهاد المماليك، ص: 108.

(2) جهاد المماليك، ص: 109.

(3) قصة التتار، ص: 281.

(4) بدائع الزهور (1/ 302)، جهاد المماليك، ص: 110.

(5) قصة التتار، ص: 283.

لقد قبل سيف الدين قطز فتوى العز بن عبد السلام ببساطة وبدأ بنفسه وباع كل ما يملك وأمر الوزراء والأمراء أن يفعلوا ذلك، فانصاع الجميع وامتثلوا أمره، فقد أحضر الأمراء كافة ما يملكون من مال وحلي نسائهم وأقسم كل واحد منهم أنه لا يملك شيئاً في الباطن، ولما جمعت هذه الأموال وضربت سكاً ونقداً وأنفقت في تجهيز الجيش، ولم تكف هذه الأموال نفقة الجيش، فقرر قطز على كل رأس من أهل مصر والقاهرة من كبير وصغير ديناراً واحداً، وأخذ من أجرة الأملاك شهراً واحداً، وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلاً، وأخذ من الترك الأهلية ثلث المال، وأخذ من الغيطان والسواقي أجرة شهر واحد، وبلغ جملة ما جمعه من الأموال أكثر من ستمائة ألف دينار[1]. فجمع بذلك الأسلوب الفريد للمال الحلال الذي لا ظلم ولا عدوان فيه[2]. وكان هذا العمل الجليل من أسباب النصر في عين جالوت قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝﴾ [سورة محمد، الآية: 7] ونصر الله لا يكون إلا بتطبيق شرعه، والجيش المسلم الذي يبتعد عن شرع الله يكون بعيداً عن نصر الله ﷻ، إن ما قام به سيف الدين قطز في الاستمتاع لرأي الشيخ العز بن عبد السلام ثم تنفيذه ترتب عليه شحنة معنوية قوية شحذت همم الناس للجهاد وبذل الغالي والنفيس في سبيل الله، إذ يمكن القول أن تلك الفتوى التي أصدرها العز بن عبد السلام، في ذلك الوقت الذي كان الشرق الإسلامي بلا خلافة شرعية، أدت الدور نفسه الذي كانت الخلافة ستؤديه فيما لو كانت قائمة، إذ كانت فتواه تلك بمثابة سلطة روحية ساعدت المظفر في الحصول على استجابة عامة المسلمين بدفع ما قرر عليهم من أموال، مستشعرين بأن ذلك واجب يفرضه عليهم دينهم الحنيف[3]، وكان الشيخ العز بن عبد السلام وعلماء مصر يحثون الناس في سبيل الله تعالى، ووعظ الأمراء والحكام وحرك قلوبهم فتنبه فيها الإيمان، فأخرجوا ما عندهم، ورأى الناس ذلك فتسابقوا إلى بذل الجود، وكثرت الأموال، فأعدوا العدة وجمعوا السلاح، وأقيمت معسكرات التدريب في كل مكان واهتزَّت البلدة بالهتاف والتكبير، وصار كل مسلم يشتهي الوصول إلى المعركة، وهذا درس مهم في أهمية التكامل بين أمراء المماليك والعلماء في مقاومة التتار[4].

---

(1) بدائع الزهور (1/ 305)، جهاد المماليك، ص: 110.

(2) الأيوبيون بعد صلاح الدين، ص: 439، للصلابي.

(3) جهاد المماليك، ص: 110.

(4) المسلمون من التبعية والفتنة إلى القيادة والتمكين، الدكتور عبد الحليم عويس، ص: 122 ـ 125.

ثالثاً: رسالة هولاكو إلى سيف الدين قطز:

أرسل هولاكو رسالة إلى سلطان مصر كلها تهديد ووعيد قال فيها: من ملك الملوك شرقاً وغرباً، القان الأعظم، باسمك الله باسط الأرض ورافع السماء يعلم الملك المظفر قطز، الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتنعمون بأنعامه، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك، يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، إنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه، وأسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكف الغطاء، فتندموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرفق لمن شكى، قد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا الطلب، فأي أرض تأويكم وأي طريق تنجيكم، وأي بلاد تحميكم، فما من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا خلاص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتلنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع، فإنكم أكلتم الحرام، ولا تعفون عن الكلام، وخنتم العهود والإيمان وفشا فيكم العقوق والعصيان، فأبشروا بالمذلة والهوان ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ۝٢٠﴾ [الأحقاف، الآية: 20] ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ۝٢٢٧﴾ [الشعراء، الآية: 227] فمن طلب حربنا ندم ومن قصد أماننا سلم، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خلفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم، فقد حذر من أنذر وقد ثبت عندكم أنّا نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المدبرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير المذلة ما لملوككم علينا من سبيل، فلا تطيلو الخطاب، وأسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون مناجاها ولا عزاً ولا كافياً ولا حرازاً، وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منا خالية، فقد أنصفناكم إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم والسلام علينا وعليكم وعلى من أطاع الهدى وخشي عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى.

ألا قل لمصر ها هُلاوُن[1] قد أتى　　بحدّ سيوف تُنضى وبواتر

(1) السلوك، للمقريزي (1/ 514، 515)، صيغة لاسم هولاكو.

يـصـيـر أعـز الـقـوم مـنـا أذلـة ويُـلـحـق أطـفـالاً لـهـم بـالأكـبـر[1]

1 ـ مجلس شورى حربي: كانت الرسالة بمثابة التحدي النهائي لآخر قيادة إسلامية، وعلى ضوء الموقف الذي ستقرر هذه القيادة اتخاذه سيتوقف مصير عالم الإسلام وحضارته التي وضعها كدح القرون الطوال، كل المؤشرات كانت تقود إلى الاستسلام للتحدي والإذعان لضروراته.. ولكنه الإيمان له منطق آخر، أنه لا يمنح القدرة على الحركة في ظروف الشلل التام، فحسب، لكنه بصيرة تخترق حجب العمى والظلام، لكي تطل على الأفق يشع ضياء، وبالحركة القديرة، والرؤية الصائبة تجابه القيادات الفذة تحديات التاريخ ومحنه وويلاته، فتخرج منها ظافرة، وتحقق بالاستجابة قفزة نوعية في مجرى الفعل والتحقق[2]، قرأ سيف الدين قطز الرسالة واستدعى الأمراء ليعرض الأمر عليهم وجرى هذا الحوار:

قطز: ماذا ترون؟

ناصر الدين قميري: إن هولاكو فضلاً عن أنه حفيد جنكيز خان، فإن شهرته وهيبته غنية عن الشرح والبيان، وإن البلاد الممتدة من تخوم الصين إلى باب مصر كلها في قبضته الآن، فلو ذهبنا إليه نطلب الأمان فليس في ذلك عيب وعار، ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت، أمران بعيدان عن حكم العقل، إنه ليس الإنسان الذي يطمأن إليه، فهو لا يتورع عن احتزاز الرؤوس، وهو لا يفي بعهده وميثاقه، فإنه قتل فجأة الخليفة وعدداً من الأمراء بعد أن أعطاهم العهد والميثاق، فإذا سرنا سيكون مصيرنا هذا السبيل.

قطز: والحالة هذه فإن كافة ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات الفجائع، وأصبحت البلاد من بغداد وحتى الروم خراباً يباباً، وقضى على جميع ما فيها من حرث ونسل، فلو أننا تقدمنا لقتالهم وقمنا بمقاومتهم فسوف تخرب مصر خراباً كغيرها من البلاد، وينبغي أن نختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا واحد من الثلاثة: الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن، أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر ذلك لأنه لا يمكن أن نجد مفراً إلا المغرب، وبيننا وبينهم مسافات بعيدة[3].

---

(1) السلوك، للمقريزي (1/ 515)، أبطال ومواقف، ص: 441.
(2) دراسات تاريخية، عماد الدين خليل، ص: 84.
(3) سيف الدين قطز قاهر المغول، نور الدين خليل، ص: 112.

قميري: وليس هناك مصلحة أيضاً في مصالحتهم، إذ أنه لا يوثق بعهودهم[1].

عدد من الأمراء: ليس لنا طاقة ولا قدرة على مقاومتهم، فمر بما يقضيه رأيك.

قطز: إن الرأي عندي هو أن نتوجه جميعاً إلى القتال، فإذا ظفرنا فهو المراد، وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق.

الظاهر بيبرس: أرى أن نقتل الرسل، ونقصد كتبغا ـ قائد المغول ـ متضامنين، فإذا انتصرنا أو هزمنا فسوف نكون في تلك الحالتين معذورين.

أيد الأمراء المجتمعون كافة هذا الرأي، وكان على قطز أن يتخذ قراره وقد اتخذه فعلاً[2].

2 ـ النفير العام: وفي هذه الأثناء أراد المظفر أن يقطع كل مجال للتردد في الخروج لمواجهة المغول، فأصدر أوامره إلى ولاة الأقاليم المصرية بجمع الجيوش وحث الناس على الخروج للجهاد في سبيل الله ونصرة دين رسول الله ﷺ، وطالب الولاة بحثّ الأجناد للخروج للسفر، ومن وجد منهم من اختفى يضرب بالمقارع. وسار بنفسه حتى نزل الصالحية، حيث تكامل عنده وصول العساكر المصرية، ومن انضم إليهم من عساكر الشام والعرب والتركمان وغيرهم، وذلك في يوم الاثنين الخامس عشر من شعبان سنة (658هـ) يوليو (1260م)[3]، وفي هذه المنطقة طلب قطز الأمراء واجتمع بهم وتكلم معهم في المسير لقتال المغول، وهنا يبدو أن بعض هؤلاء الأمراء عاودهم الخوف من مواجهة المغول وامتنعوا عن الخروج، الأمر الذي أثار حماسة السلطان المظفر قطز فقال لهم: يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين[4].

وأمام هذا التصميم الذي أبداه قطز لمواجهة المغول، والذي أعقبه تحليف من وافقه من الأمراء على المسير، ومن ثم إصدار أوامره إلى قواته بالمسير لملاقاة العدو مهما كانت الظروف حيث عبر عن ذلك بقوله: «أنا ألقى التتار بنفسي» لم يسع بقية

(1) سيف الدين قطز قاهر المغول، نور الدين خليل، ص: 114.

(2) دراسات تاريخية، ص: 85.

(3) السلوك، نقلاً عن: جهاد المماليك، ص: 120.

(4) المصدر نفسه، ص: 120.

الأمراء المعارضين إلا الموافقة، وانقضى الجمع على الخروج صفاً واحداً لإنقاذ المسلمين من ويلات الغزو المغولي المدمر[1].

3 ـ **قتل سفراء هولاكو:** وكان أول إجراء قام به المظفر قطز ضد المغول هو استدعاء رسل هولاكو واستقبالهم استقبالاً جافاً إيذاناً لإعلان الحرب عليهم، ومن ثم القبض عليهم وضرب عنق كل منهم أمام باب من أبواب القاهرة، وتعليق رؤوسهم على باب زويلة، وأبقى على صبي من الرسل وجعله من مماليكه، وكانت تلك الرؤوس أول ما علق على باب زويلة من المغول[2].

ويبدو أن قطز اعتبر الرسل محاربين وأنهم ليس لهم الحصانة الكافية لمنع قتلهم، حيث إن المغول قتلوا النساء والأطفال والشيوخ غير المقاتلين، وبأعداد لا تحصى في سمرقند وبخارى وبغداد وحلب ودمشق وغيرها من بلاد المسلمين، كما أن رسل التتار أغلظوا القول وأساؤوا الأدب وتكبروا عليه وكان الهدف من تعليق رؤوس المغول على أبواب القاهرة الرئيسة رفع معنويات الناس وإعلان الحرب على التتار، وإعلامهم بأنهم قادمون على قوم يختلفون كثيراً عن الأقوام الذين قابلوهم من قبل، وهذا يؤثر سلباً على التتار فيلقي في قلوبهم ولو شيئاً من الرعب أو التردد، ويبقى الهدف الأكبر لقتل الرسل هو قطع التفكير في أي حل سلمي للقضية والاستعداد الكامل الجاد للجهاد، فبعد قتل رسل المغول لن يقبل التتار باستسلام مصر، حتى لو قبل بذلك المسلمون، كان هذا هو اجتهاد قطز والأمراء في قتل رسل المغول، ولكن هذا يخالف الأصل في الإسلام، حيث إن الرسل لا تقتل، لا رسل المسلمين، ولا رسل الكفار، ولا حتى رسل المرتدين عن الإسلام[3]، فقد بيّن رسول الله ﷺ ذلك، يقول عبد الله بن مسعود: جاء ابن النواحة وابن أثال رسولا مسيلمة إلى النبي ﷺ فقال لهما: «**أتشهدان أني رسول الله؟**» قالا: نشهد أن مسيلمة رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «**آمنت بالله ورسوله، لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما**»[4]. يعلق عبد الله بن مسعود على هذا الحديث فيقول: مضت السنّة أن الرسل لا تقتل[5]. وهذا الحديث يدل على تحريم قتل الرسل الواصلين

(1) السلوك، نقلاً عن: جهاد المماليك، ص: 120.
(2) تاريخ الدولة المغولية في إيران، ص: 144، جهاد المماليك، ص: 120.
(3) قصة التتار، ص: 278.
(4) مسند أحمد، وسنن أبي داود، نقلاً عن: قصة التتار، ص: 279.
(5) قصة التتار، ص: 279.

من الكفار، وإن تكلموا بكلمة الكفر في حضرة الإمام أو سائر المسلمين[1]. وما حدث من سيف الدين قطز، مخالف لأحكام الشريعة، والكمال لله وحده.

رابعاً: اليوم الفصل:

1 ـ **مقدمات الصدام:** لم يعد أمام المظفر قطز بعد إتمام تلك الاستعدادات سوى اختيار مكان وزمان المعركة التي كان ينوي منازلة المغول فيها، وهنا تبدو لنا إستراتيجية جديدة اتبعها قطز في هذه المواجهة الحاسمة، ذلك أنه إذا كان حكام المسلمين ابتداء من الدولة الخوارزمية حتى أرض فلسطين قد التزموا مبدأ التحصن داخل مدنهم انتظاراً لهجوم المغول عليهم ومحاولة صده فقط، فإن السلطان قطز أدرك عدم جدوى الأساليب الدفاعية ورأى أن من الأفضل منازلة المغول قبل وصولهم إلى الأراضي المصرية، واختار لذلك النزال مكاناً مناسباً خارج دولته هو منطقة عين جالوت بأرض فلسطين الذي يمتاز بقربه من المناطق الساحلية التي كان يسيطر عليها الصليبيون، الذين أبدوا استعدادهم الكامل لتسهيل مرور القوات الإسلامية إليه، هذا بالإضافة إلى كون هذا الجزء من أرض فلسطين منطقة فسيحة يعلوها جبل[2]، الأمر الذي سيمكن قواته من مواجهة العدو في كل الظروف، ففي حالة الاشتباك المباشر مع العدو في معارك مكشوفة، يكون القتال في منطقة منبسطة، وفي حالة مناوشته من بعيد يكون الجبل مساعداً للرماة لأداء واجبهم على الوجه الأكمل، كما أن اختيار هذا المكان في بلاد الشام لمنازلة المغول، يعطي في حد ذاته دفعة قوية لتلك الجموع الشامية الهاربة منهم إلى مصر والتي انضمت إلى جيش المماليك، للاستبسال والتفاني في الجهاد وطمعاً في العودة مرة أخرى إلى بلادها، خاصة وأن هناك أمراء أيوبيين في ركاب هذه الجيوش، كان الملك المظفر قطز قد وعدهم بإعادتهم إلى إماراتهم بعد طرد المغول من بلاد الشام، كما اختار قطز لهذه المعركة الفاصلة شهر أغسطس الذي تكون فيه الحرارة مرتفعة للتأثير على تلك الجموع المغولية القادمة من صحاري منغوليا الباردة[3]، للتقليل من نشاطهم القتالي لكونهم لم يعتادوا على المناخ الحار الذي عادة ما يسود مناطق فلسطين في ذلك الوقت[4].

---

(1) نيل الأوطار، للشوكاني، نقلاً عن: قصة التتار، ص: 279.
(2) الروض الزاهر لابن عبد الظاهر، ص: 64، جهاد المماليك، ص: 116.
(3) تاريخ الدولة المغولية في إيران، ص: 12، جهاد المماليك، ص: 116.
(4) جهاد المماليك، ص: 116.

2 ـ تحرك جيوش المسلمين: طلب سيف الدين قطز من الأمراء الاجتماع العاجل، وحثهم على القتال وذكرهم بما وقع في أقاليم الإسلام[1]، وقال لهم: يا مسلمين قد سمعتم ما جرى من أهل الأقاليم من القتل والسبي والحريق، وما منكم أحد إلا وله مال وحريم وأولاد، وقد علمتم أن أيدي التتار تحكمت في الشام وقد أوهنوا قوى دين الإسلام، وقد لحقني على نصرة دين الإسلام الحمية، فيجب عليكم يا عباد الله القيام في جهاد أعداء الله حق القيام، يا قوم جاهدوا في الله بصدق النية تجارتكم رابحة وأنا واحد منكم وها أنا وأنتم بين يدي رب لا ينام ولا يفوته فائت ولا يهرب منه هارب.

فعند ذلك ضجت الأمراء بالبكاء وتحالفوا أنهم لا بقاء لهم في الدنيا إلى أن تنكشف هذه الغمة، فعند ذلك جرد السلطان، الأمير ركن الدين بيبرس وصحبته جماعة من العساكر وأرسله طليعة[2].

3 ـ معركة غزة: تحركت طلائع الجيش المملوكي بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري نحو فلسطين، فسار حتى نزل غزة في شعبان (658هـ) يولية (1260م) واستطاع ركن الدين بيبرس أن يحقق انتصاراً ساحقاً على الحامية المغولية في غزة وكانت هزيمة قاسية لهم، واكتشف المغول أن هناك من المسلمين من يتحرك من خلال خطط عسكرية، وأبعاد إستراتيجية، وأنه لا زال من المسلمين من يحمل السيوف للدفاع عن دينه وأرضه وشرفه وكرامته، وكانت هذه المعركة من أهم المعارك بالنسبة للمسلمين، فقد رأى المسلمون بأعينهم أن التتار يفرون، وسقطت المقولة التي انتشرت في تلك الآونة التي كانت تقول: من قال لك أن التتار يُهزمون فلا تصدقه، وكان لهذه الموقعة أثر إيجابي على جيش المسلمين وكان لها أثر سلبي هائل على جيش التتار[3].

وأصبحت غزة ملكاً للمسلمين، وبهذا تعتبر معركة غزة هذه أولى المعارك التي انتصر فيها المسلمون على المغول، كما يمكن القول أن هذا الانتصار الذي تحقق للمسلمين كان دافعاً قوياً لهم للتقدم إلى الشمال باتجاه عين جالوت للقاء المغول في موقع أفضل، خاصة وأن تلك الهزيمة التي مُني بها جيش الأمير المغولي بايدر، لم

---

(1) جهاد المماليك، ص: 121.

(2) نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، ص: 263.

(3) قصة التتار، ص: 301.

تقابل بأي اهتمام من القائد المغولي كيتوبوقا الذي بقي على جموده إلى أن وصلت الجيوش الإسلامية عين جالوت، وكان هذا الانتصار من الأسباب التي جعلت الصليبيين تحرص على خطب ود المسلمين بتقديم العون والمساعدة لهم والسماح لجيوش المماليك بعبور أراضيهم إلى داخل فلسطين[1]، ولما رحل سيف الدين قطز من غزة سلك طريق الساحل فاجتاز مدينة عكا وهي يومئذ بيد الفرنج، فلما عاينوه، وأرسلوا له الهدايا والتحف والضيافات، والتقاه ملوكها فعرضوا عليه أن يأخذ معه نجدة، فلاطفهم السلطان وأخلع عليهم واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه، وما له حاجة بنصرتهم وقال لهم: والله العظيم متى تبعهم منهم فارس أو راجل - يريد أذى عسكر المسلمين - قتلتكم قبل ملتقاي التتار وقد عرفتكم ذلك، عند ذلك كتب الملوك إلى أتباعهم بما سمعوه[2]،ورفض السلطان قطز تلك المساعدة التي عرضها الصليبيون عليه، فقد كان حريصاً كل الحرص على صبغ حروبه ضد المغول والصليبيين معاً بصبغة إسلامية خالصة، كما أن هذا يشير إلى رغبة قطز ومشروعه الجهادي يستهدف دحر العدوان المغولي ومن ثم التوجه إلى الساحل الشامي لتطهيره من نير الاحتلال الصليبي، وحرص في الوقت نفسه على أن لا تكون للصليبيين عليه منة عند مهاجمتهم[3].

4 - معلومات إستخبارتية مهمة: قاد السلطان قطز جيشه واقترب من عين جالوت، وبينما هو في الطريق جاء رجل من أهل الشام وقدم معلومات إستخباراتية لسيف الدين قطز، مرسل من قبل صارم الدين أيبك وهو أحد المسلمين الذين أسرهم هولاكو عند غزوه بلاد الشام، ثم قبل الخدمة في صفوف جيش التتار، واشترك معهم في مواقعهم المختلفة وجاء معهم إلى موقعة عين جالوت، ولا ندري إن كان قد قبل التعاون مع التتار لرغبة في نفسه، أم قبل ذلك مضطراً وهو يعد العدة لينفع المسلمين، فهذا بينه وبين الله ﷻ، ولكن في موقعة عين جالوت قرر أن يخدم جيش المسلمين بقدر ما يستطيع، وقد نقل هذا الرسول إلى قطز المعلومات التالية:

أ - جيش التتار ليس بقوته المعهودة، فقد أخذ هولاكو معه عدداً من القادة والجند، فلم يعد الجيش على الهيئة نفسها التي دخل بها الشام، فلا تخافوهم.

---

(1) جهاد المماليك، ص: 121.

(2) نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، ص: 263.

(3) جهاد المماليك، ص: 122.

ب ـ ميمنة التتار أقوى من ميسرتهم، فعلى جيش المسلمين أن يقوي جداً ميسرته التي ستقاتل ميمنة التتار.

ج ـ أن الأشرف الأيوبي أمير حمص سيكون في جيش التتار بفرقته، ومع صارم الدين أيبك، ولكنهم سوف ينهزمون بين يدي المسلمين .أي أن الرسالة تقول أن الأشرف الأيوبي قد راجع نفسه وآثر أن يكون مع جيش قطز، ولكنه خرج مع جيش التتار مكيدة لهم، وتفكيكاً لصفهم[1]. ومع ذلك أخذ المسلمون حذرهم، واستفادوا من هذه الأمور دون تفريط في الإعداد أو تهاون في الاحتياط والحذر، وبذلك انتهى يوم الرابع والعشرين من رمضان (658هـ) وقضى المسلمون الليل في القيام والابتهال والدعاء والرجاء[2].

5 ـ **الاشتباك مع المغول:** كان سيف الدين قطز قد بعث الأمير ركن الدين بيبرس على رأس فرقة من الكشافة لاستطلاع أخبار العدو وتحديد مكانه، واشتبك بيبرس مع طلائع الجيش المغولي واستمر يناوشهم إلى أن وافاه السلطان قطز بالجيش الرئيس عند عين جالوت في الخامس والعشرين من رمضان سنة (658هـ) سبتمبر (1260م) حيث التقى الجمعان وذلك بعد طلوع الشمس، وقد امتلأ الوادي بالناس وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء إيذاناً ببدء الهجوم[3].

كان الجيش المغولي بقيادة كتبغا، وكان قطز يعرف جيداً تفوق جيشه في العدد على العدو، ولذا أخفى قواته الرئيسة في التلال القريبة ولم يعرض للعدو إلا المقدمة التي قادها بيبرس، وما لبث كتبغا أن وقع في الفخ، إذ حمل بكل رجاله على القوات الإسلامية التي شهدها أمامه، فأسرع بيبرس في تقهقره إلى التلال بعد أن اشتدت مطاردة كتبغا له، فلم يلبث الجيش المغولي بأسره أن جرى تطويقه فجأة وجرت بين الطرفين معركة طاحنة، واضطربت قوات المماليك بعض الوقت[4]، وانكسرت ميسرة المسلمين في بداية الأمر كسرة شنيعة، فحمل الملك المظفر بنفسه في طائفة من عساكره وأردف الميسرة حتى جبر ضعفها، ثم اقتحم القتال وأبلى في ذلك اليوم بلاءً حسناً وهو

---

(1) قصة التتار، ص: 313.

(2) المصدر نفسه، ص: 313.

(3) جهاد المماليك، ص: 122.

(4) دراسات تاريخية، ص: 87.

يشجع أصحابه ويحسِّن لهم الموت في سبيل الله ويكر بهم كرة بعد كرة[1]، وألقى خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته «واإسلاماه» وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة فأيده الله بنصره، ولم تنقض سوى ساعات حتى بدأ تفوق المسلمين في الميدان،وسحقت زهرة القوات المغولية، ومر العسكر في إثر التتار إلى قرب بيسان، فرجع التتار،والتقوا بالمسلمين لقاءً ثانياً أعظم من الأول، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم، وكان قد تزلزل المسلمون زلزالاً شديداً، فصرخ السلطان صرخة عظيمة، سمعها معظم العسكر وهو يقول: «واإسلاماه» ثلاث مرات:يا الله انصر عبدك قطز على التتار» فلما انكسر التتار الكسرة الثانية نزل السلطان على فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها وصلى ركعتين لله تعالى ثم ركب، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالغنائم[2]، واستمر ركن الدين بيبرس في مطاردة فلول المغول حتى أفامية، فوجدهم قد تجمعوا بها ووحدوا صفوفهم للمرة الثالثة استعداداً لمواجهتهم، فهاجمهم بكل شجاعة وكسرهم كسرة شنيعة وغنم منهم أموالاً طائلة وخيولاً كثيرة[3].

6 ـ **شجاعة القائد المغولي:** ورغم الهزيمة القاسية التي مُني بها المغول في هذه المعركة فإن أحد المؤرخين المسلمين ـ وهو رشيد الدين فضل الله الهمذاني ـ لم ينكر ما كان للقائد المغولي كيتوبوقا من صفات بطولية في هذه المعركة، فعندما اقترح عليه أحد أعوانه الانسحاب أجاب:علينا أن نموت هنا، هذه هي النهاية، ويعيش الخان ويسعد[4]، وفي رواية: لا مفر من الموت هنا، فالموت مع العزة والشرف خير من الهروب مع الذل والهوان، وسيصل رجل واحد، صغيراً أو كبيراً من أفراد هذا الجيش إلى حضرة الملك ويعرض عليه كلامي قائلاً:إن كيتوبوقا لم يشأ أن يتراجع وقد كلّله الخجل فضحى بحياته الغالية في سبيل واجبه، وينبغي ألا يشق على الخاطر المبارك نبأ فناء جيش المغول، وليتصور الملك أن نساء جنوده لم يحملن عاماً واحداً، وأن جياد قطعانه لم تلد المهور، فليدم إقبال الملك، مادامت نفسه الشريفة آمنة سالمة، فإنها تكون عوضاً لكل مفقود، إذ أن وجودنا وعدمنا نحن العبيد والأتباع أمر سهل يسير[5].

---

(1) جهاد المماليك، ص: 123.

(2) دراسات تاريخية، ص: 88.

(3) جهاد المماليك، ص: 124.

(4) سيف الدين قطز قاهر المغول، ص: 138.

(5) جامع التواريخ (2/ 314)، جهاد المماليك، ص: 124.

كما يذكر رشيد الدين نفسه رأياً مخالفاً في كيفية قتل القائد المغولي كيتوبوقا، حيث يشير إلى أنه وقع في بداية الأمر في الأسر، ثم أحضره قطز إلى مجلسه مكبلاً ودار بينهما حواراً بدأه قطز مخاطباً كيتوبوقا بقوله: أيها الرجل الناكث العهد ها أنت بعد أن سفكت كثيراً من الدماء البريئة وقضيت على الأبطال والعظماء بالوعود الكاذبة، وهدمت البيوتات العريقة بالأقوال الزائفة المزورة قد وقعت أخيراً في الشرك. وعندما سمع كيتوبوقا كلامه انتفض وهو مكبل اليدين كأنه الفيل الهائج، فأجاب قائلاً: أيها الفخور المغتر، لا تتباه كثيراً بيوم النصر هذا، فأنا إذا قُتلت على يديك فإني أعلم أن ذلك من الله لا منك، فلا تُخدع بهذه المصادفة العاجلة، ولا بهذا الغرور العابر، فإنه حين يبلغ حضرة هولاكو نبأ وفاتي سوف يغلي بحر غضبه، وستطأ سنابك خيل المغول البلاد من أذربيجان حتى ديار مصر، وستحمل رمال مصر في مخالي خيولهم إلى هناك، إن لهولاكو خان ثلاثمائة ألف فارس مثل كيتوبوقا، فافرض أنه نقص واحد منهم.

فقال له قطز: لا تفخر إلى هذا الحد بفرسان توران، فإنهم يزاولون أعمالهم بالمكر والخداع لا بالرجولة والشهامة[1]. فرد عليه كيتوبوقا: إني كنت عبداً للملك ما حييت ولست مثلك ماكراً وغادراً... بادر بالقضاء عليّ بأسرع ما يمكن حتى لا أسمع تأنيبك. فأمر قطز بقتله ففصلوا رأسه عن جسده، ولما بلغ هولاكو خان نبأ نعي كيتوبوقا، وعلم بحديثه في ذلك الموقف أسف أسفاً شديداً على وفاته، واشتعلت نيران غضبه وقال: أين أجد خادماً آخر مثله يبدي مثل هذه النوايا الطيبة، ومثل هذه العبودية ساعة هلاكه[2].

وبالرغم مما يعرف به رشيد الدين من محاباة للمغول، فإنه لا يمكن أن ننكر ما كان عليه كيتوبوقا من مكانة عند المغول، يعتمدون على رأيه وشجاعته وتدبيره، وكان بطلاً شجاعاً مقداماً، وخبيراً بالحروب وافتتاح الحصون، وكان هولاكو يثق به ولا يخالفه فيما يشير به، وبموته استراح الإسلام منه، حيث كان شر عصابة على الإسلام وأهله[3]. وعلّق نور الدين خليل على شجاعة القائد المغولي والقصص المنسوبة إليه فقال: وننظر إلى تلك الروايات ببالغ الريبة، بل والإنكار، فكيف حصل الهمذاني على رسالة شفهية حملها مجهول بلغة مغولية، بطبيعة الحال، هذا إن كانت هناك رسالة أصلاً، وكذلك الحال فيما يتعلق بالروايات الأخرى، لا شك أن تلك الروايات محض اختلاف وتصور خيال، حتى

---

(1) جامع التواريخ (2/ 315 ـ 316)، جهاد المماليك، ص: 125.

(2) المصدر نفسه (2/ 315 ـ 316)، المصدر نفسه، ص: 125.

(3) النجوم الزاهرة (7/ 91)، المغول، للعريني، ص: 361.

وإن رددها المؤرخون الواحد تلو الآخر، سواء مؤرخو العرب أو الغرب[1].

7 ـ **تحرير دمشق وبلاد الشام:** لم تنته مهمة الملك المظفر، فلم يزل هناك تتار في دمشق وحمص وحلب وغيرها من المدن الشامية، فكانت دمشق هي أولى المحطات الإسلامية التي تقع تحت سيطرة التتار، وهي تقع على مسافة مائة وخمسين كيلو متراً تقريباً من عين جالوت إلى الشمال الشرقي منها، فقبل وصوله إلى دمشق أرسل رسالة عظيمة تحمل بشريات النصر الكبير، وكان مما جاء في هذه الرسالة: أما النصر الذي شهد الضرب بصحته، والطعن بنصيحته، فهو أن التتار خذلهم الله، استطالوا على الأيام، وخاضعوا بلاد الشام واستنجدوا بقبائلهم على الإسلام، وهذه عساكر الإسلام مستوطنة في مواطنها ما تزلزل لمؤمن قدم إلا وقدم إيمانه راسخة، ولا تثبت لأحد حجة إلا وكانت الجمعة ناسخة، ولا عقدت برجمة ناقوس إلا وحلها الأذان، ولا نطق كتاب إلا وأخرسه القرآن، ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار، وأخبار الكفار تنتقل إلى المسلمين، إلى أن خلط الصباح فضته بذهب الأصيل، وصار اليوم كأمس، ونُسخت الآية في الليل بسورة الشمس، إلى أن تراءت العين بالعين، وأضرمت نار الحرب بين الفريقين، فلم تر إلا ضرباً يجعل البرق نضواً، ويترك في بطن كل من المشركين شلواً، وقتل من المشركين كل جبار عنيد، ذلك بما قدمت أيديهم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت، الآية: 46][2].

وصل الخبر لأهالي دمشق، قال ابن كثير: وأتبع الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري وجماعة من الشجعان التتار يقتلونهم في كل مكان، إلى أن وصلوا خلفهم إلى حلب وهرب من بدمشق منهم، وكان هربهم منها يوم الأحد السابع والعشرين من رمضان، صبيحة النصر الذي جاءت فيه البشارة بالنصر في عين جالوت، فتبعهم المسلمون من دمشق يقتلون ويأسرون وينهبون الأموال فيهم ويستفكون الأسارى من أيديهم قهراً، ولله الحمد والمن على جبره الإسلام ومعاملته إياهم بلطفه الحسن، وجاءت بذلك البشارة السارة، فجاوبتها البشائر من القلعة المصورة، وفرح المؤمنون يومئذ بنصر الله فرحاً شديداً، وأيد الله الإسلام وأهله تأييداً، وكُبت أعداء الله النصارى واليهود والمنافقون، وظهر دين الله وهم كارهون ونصر الله دينه ونبيه ولو كره الكافرون، فتبادر عند ذلك المسلمون إلى كنيسة النصارى التي خرج منها الصليب فانتهبوا ما فيها،

(1) سيف الدين قطز قاهر المغول، ص: 141.

(2) قصة التتار، ص: 338، صبح الأعشى(7/ 260 ـ 262).

وأحرقوها وألقوا النار فيما حولها، فاحترقت دور كثيرة للنصارى، وملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً، وأحرق بعض كنيسة اليعاقبة، وهمت طائفة بنهب اليهود، فقيل لهم: إنهم لم يكن منهم فيما ظهر من الطغيان، كما كان من عبدة الصُلبان، وقتلت العامة في وسط الجامع شيخاً رافضياً، كان مصانعاً للتتار على أموال الناس يقال له الفخر محمد ابن يوسف الكنجي، كان خبيث الطوية ممالئاً لهم على أموال المسلمين، وقتلوا جماعة مثله من المنافقين الممالئين على المسلمين: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٥﴾ [الأنعام، الآية: 45][1].

8 ـ وصول سيف الدين قطز إلى دمشق: في اليوم الثلاثين من رمضان سنة (658هـ) وصل البطل سيف الدين قطز إلى دمشق واستقبله الناس استقبال الفاتحين، وعلقت الزينات في الشوارع، وخرج الرجال والنساء والأطفال، يستقبلون البطل المظفر وهذه هي الفرحة الحقيقية، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس، الآية: 58]، فرحة النصر لدين الله والرفعة للإسلام والعزة للمسلمين، لا تقارن هذه الفرحة بفرحة الطعام والشراب والمال والجاه والسلطان، ودخل الجيش المملوكي المسلم دمشق واستتب الأمن الحقيقي بسرعة عجيبة، لم يحدث شيء مما يقع عند دخول المستعمرين البلاد، واستقر الوضع بسرعة وحفظت الأعراض والنفوس والأموال لكل الساكنين من نصارى ويهود، وقام قطز بعزل ابن الزكي قاضي دمشق الذي عينه التتار وكان موالياً لهم، وعين مكانه نجم الدين أبا بكر ابن صدر الدين بن سني الدولة، وبدأ يفصل في القضايا، ويحكم في المخالفات التي تمت بين المسلمين والنصارى حتى لا يظلم نصراني في بلاد المسلمين، هذا مع كل ما فعله النصارى بالمسلمين أثناء احتلال التتار للمدينة، وفي اليوم التالي لدخول قطز إلى دمشق كان عيد الفطر وهو له طعمه الخاص ومكانته المتميزة، لأنه كان أيضاً عيداً للنصر والتمكين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠﴾ [التوبة، الآية: 40].

لم يضيع قطز وقتاً بل أرسل مقدمة جيشه بقيادة بيبرس لتتبّع الفارين من التتار وتطهر مدن الشام الأخرى من الحاميات التتارية[2]، وطارد المغول في أعالي بلاد الشام

---

(1) البداية والنهاية (17/ 402).

(2) قصة التتار، ص: 340.

حتى لحق بهم في حمص، وفر المغول بحياتهم وألقوا ما كان معهم من متاع وغيره، وأطلقوا الأسرى وعرّجوا نحو طريق الساحل، فتخطف المسلمون منهم وقتلوا خلقاً كثيراً وأسروا أكثر، فلما بلغ هولاكو كسرة عسكره وقتل نائبه كيتوبوما عظم ذلك عليه، فإنه لم يكسر له عسكر قبل ذلك، ورحل من يومه[1].

واستطاع المسلمون تطهير بلاد الشام بكاملها في بضعة أسابيع، وأعلن قطز توحيد مصر والشام من جديد في دولة واحدة تحت زعامته، بعد عشر سنوات من الفرقة، وذلك منذ وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب ﷺ في سنة (648هـ) وخُطب لقطز على المنابر في كل المدن المصرية والفلسطينية والشامية حتى خطب له في أعالي بلاد الشام والمدن حول نهر الفرات، وعاش المسلمون أياماً من أسعد أيامهم[2].

9 ـ ترتيب أمور الولايات الشامية: شرع السلطان سيف الدين قطز على ترتيب أحوال الشام بسرعة حتى يتمكن من العودة إلى مصر، فأقطع الأمراء الصالحية والمعزية وأصحابه إقطاعات الشام وجعل نائبه على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي ومعه الأمير أبو الهيجاء بن عيسى بن خشتر الأزكشي الكردي[3]، وأعاد ملوك الأيوبيين أصحاب العروش الصغيرة إلى عروشهم ملوكاً تابعين لسلطان مصر المملوكي ويعث إليه الأشرف موسى، حاكم حمص، والذي كان هولاكو قد عينه نائباً له في حكمها وفي بلاد الشام، يطلب الأمان، فاستجاب قطز وأمّنه على عرشه، كذلك بعث بالملك المظفر علاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار ليكون نائباً للسلطان في مدينة حلب، ووزع الإقطاعات في المناطق الريفية المحيطة بحلب على الأمراء الموالين له، كذلك قام سيف الدين قطز ببعض التعديلات الإدارية البسيطة في بلاد الشام، فأقر الملك المنصور على حماه وبارين، وأعاد له المعرّة التي كانت بيد حكام حلب منذ سنة (635هـ) ومن ناحية أخرى، أخذ منه سلمية وأعطاها الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا ابن مانع أمير العرب، وعين الأمير شمس الدين آقوش البرلي العزيزي أميراً بالساحل وغزة ومعه عدد من أمراء العزيزية، وكان هذا الأمير قد فارق الناصر يوسف، صاحب دمشق وحلب، وانضم إلى قوات السلطان قطز في القاهرة، ثم خرج في جيش السلطان

---

(1) السلوك (1/ 518).

(2) قصة التتار، ص: 341.

(3) السلوك (1/ 518).

وحارب معه في عين جالوت، وأمر بشنق حسين الكردي الطبرادار، فشنق من أجل أنه دل على الملك الناصر[1].

وهكذا قام السلطان قطز بترتيب حكم الشام، وأعاد إلى ربوعها الأمن والاستقرار الذي كان مفقوداً منذ غزاها المغول، وفي اليوم السادس والعشرين من شوال (658هـ) توجه السلطان سيف الدين قطز بجيشه الظافر صوب مصر، وبينما كانت القاهرة تتزين لاستقبال القائد المنتصر[2]، كان أجل سيف الدين قطز قد حان واقترب الرحيل من هذه الحياة، وسيأتي الحديث عن ذلك مفصلاً بإذن الله تعالى.

10 ـ موقف هولاكو من الهزيمة: رغم أن هذه الهزيمة لم تلحق بشخص هولاكو نفسه فإن تلك الهزيمة الثقيلة التي مُني بها جيشه وقتل فيها قائده العظيم كيتوبوقا، تعد صدمة عنيفة هزت كيانه وهو بعيد عن مسرح الحوادث، فتأثر لذلك وحاول أن يمحو ذلك العار الذي لحق بجيوشه بإرسال حملة جديدة إلى الشام، في محاولة يائسة للانتقام من المسلمين، غير أن الظروف في ذلك الوقت لم تمكنه من ذلك[3]، إذ لم يستطع التقدم غرباً لمساعدة جيوشه المهزومة في عين جالوت لانشغاله في حروبه مع منافسيه من أهل بيته وعلى رأسهم ابن عمه زعيم القبيلة الذهبية، واكتفى هولاكو بأن عمل على مراسلة الخان الأعظم في قراقورم أخبره بما حل بالمغول في بلاد الشام من هزيمة على يد سلطان مصر، فما كان من الخان الأعظم إلا أن أصدر مرسوماً يقضي بإعطاء هولاكو البلاد الواقعة بين نهر جيحون حتى بلاد الشام، قاصداً بذلك ـ على ما يبدو ـ رفع معنويات هولاكو وجيوشه وتشجيعه على معاودة حرب المماليك، وبدأ هولاكو يستعد لحرب المسلمين، لكن الموت عاجله في سنة (663هـ / 1265م) فتوفي دون أن يحقق حلمه بضم مصر والشام إلى ممتلكاته[4].

11 ـ ما قيل من شعر في عين جالوت: نظم شهاب الدين محمود قصيدة مدح فيها الأمير الظاهر بيبرس بسبب انتصار المسلمين في عين جالوت فقال:

سر حيث شئت لك المهيمن جار ... واحكم فطوع مرادك الأقدار

(1) السلوك (1/ 518)، مملكة حماه الأيوبية، عدنان سعد الدين، ص: 100.
(2) السلطان المظفر سيف الدين قطز، قاسم عبده، ص: 141.
(3) جهاد المماليك، ص: 131.
(4) جهاد المماليك، ص: 132، جامع التواريخ (2/ 336).

لم يبق للدين الذي أظهرته ... يا رُكنه عند الأعادي ثارُ
لما تراقصت الرؤوس وحركت ... من مطربات قسّيك الأوتار
حملتك أمواج الفرات ومن رأى ... بحراً سواك تقله الأنهار
وتقطعت فرقاً ولم يك ... طودها إذ ذاك إلا جيشك الجرار
رشّت دماؤهم الصعيد فلم يطر ... منهم على الجيش السعيد غبار
شكرت مساعيك المعاقل والورى ... والتُربُ والآساد والأطيار
هذي منعت وهؤلاء حميتهم ... وسقيت تلك وعمّ ذا الإيسارُ
فلأملأن الدهر فيك مدائحاً ... تبقى بقيت وتذهب الأعصارُ(1)

وقال شرف الدين الأنصاري في قصيدة يمدح فيها الملك المنصور الثاني الأيوبي صاحب حماه، الذي كان مع جنده إلى جانب المظفر قطز في معركة عين جالوت:

رُعت العدى فضمنت شل عروشها ... ولقيتها فأخذت فلّ جيوشها
نازلت أملاك التتار فأنزلت ... عن فحلها قسراً وعن إكديشها
فغدا لسيفك في رقاب كُماتها ... حصد المناجل في يبيس حشيشها
روّيت أكباد القنا بدمائهم ... لما أطال سواك في تعطيشها
أقدمت مقتحماً على نُشّابها ... تكسو الجياد رِياشها من ريشها
دارت رحى الحرب الزُّبون عليهم ... فغدت رؤوسُهُم حطام جريشها
وطويت عن مصر فسيح مراحل ... ما بين بركتها وبين عريشها
حتى حفظت على العباد بلادها ... من رُومها الأقصى إلى أُحبوشها
فرشت حماة لِوَطء نعلك خدّها ... فوطئت عين الشمس من مفروشها
وكذا المعرّة إذ ملكت قيادها ... دَهِشتَ سروراً سار في مدهوشها
لا زلت تُنعش بالنّوال فقيرها ... وتنال أقصى الأجر من منعوشها(2)

وقال بعض الشعراء في عين جالوت:

هلك الكفر في الشام جميعاً ... واستجد الإسلام بعد دحوضه
بالمليك المظفر الملك الأورع ... سيف الإسلام عند نهوضه
ملك جاء بعزم وحزم ... فاعتززنا بسمره وبيضه

(1) الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، ص: 166.

(2) الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، ص: 157.

أوجــب الله شــكــر ذاك عــلــيــنــا دائــمــاً مــثــل واجــبــات فــروضــه[1]

خامساً: مقتل سيف الدين قطز:

كان لانتصار قطز في عين جالوت أجمل الوقع على العالم الإسلامي، وخصوصاً مصر، فقد استعدت لاستقباله، ودقت البشائر بالقلعة، وأقيمت الزينات بالقاهرة وأخذت البلاد تنتظر قدوم المظفر سيف الدين قطز[2]، وعندما وصل السلطان إلى بلدة القصير[3]، بقي السلطان بهذه البلدة مع عدد من خواصه، على حين رحل بقية الجيش إلى الصالحية، بإقليم الشرقية بمصر، وهناك أقيم الدهليز السلطاني«الخيمة السلطانية»، وفي الوقت نفسه بلغت أخبار توتر العلاقات بين سيف الدين قطز، وبين ركن الدين بيبرس، وتجدد الخلاف القديم، وأخذ كل واحد منهم حذره وحيطته، وبات الغريمان يتربص كل منهما بالآخر، ولكن بيبرس البندقداري بما عرف عنه من جسارة ودهاء بادر إلى العمل ضد السلطان[4]، فاتفق مع الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي، والأمير سيف الدين بهادر المعزي، والأمير بدر الدين بكتوت الجُكنداري المعزي، والأمير سيف الدين بيدغان الرُّكني، والأمير سيف الدين بلبان الهاروني، والأمير بدر الدين أنس الأصبهاني، فلما قرب إلى القصير بين الغرابي والصالحية، انحرف عن الدرب للصيد، فلما قضى وطره[5]، عاد قاصداً إلى الدهليز، سايره الأمير ركن الدين وأصحابه وطلب منه امرأة من سبي التتار فأنعم له بها، فأخذ الظاهر يده ليقبلها، وكانت تلك إشارة بينه وبين من اتفق معه، فلما رأوه قد قبض على يده، بادره الأمير بدر الدين بكتوت وضربه بالسيف على عاتقه، فأبانه، ثم اختطفه الأمير بدر الدين أنس وألقاه عن فرسه، ثم رماه الأمير بهادر المعزي بسهم أتى على روحه، وقيل إن أول من ضربه الأمير ركن الدين بيبرس وهو الصحيح، وذلك يوم السبت الخامس عشر من ذي القعدة، ثم ساروا إلى الدهليز للمشورة بينهم على من يملكوه ويسلموا إليه قيادتهم، فوقع اتفاقهم على الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، فتقدم الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب، المعروف

---

(1) الملك المظفر قطز بن عبد الله المعزي، رحاب عكاوي، ص: 114.

(2) مصر والشام في عصر الأيوبيين، سعيد عاشور، ص: 186.

(3) بلدة القصير: هي قرية الجعافرة بمحافظة الشرقية.

(4) في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص: 203.

(5) وطره: حاجته.

بالأتابك[1]، فبايعه وحلف له،ثم بلبان الرشيدي ثم الأمراء على طبقاتهم، ولقب بالملك الظاهر، ثم في الساعة الراهنة قال الأمير فارس الدين أقطاي الأتابك له: لا يتم الملك إلا بدخولك إلى قلعة الجبل، فركب هو والأمير فارس الدين والأمير بدر الدين بيسري وبلبان الرشيدي وقلاوون الألفي وبيليك الخازندار وجماعة من خواصه، وقصدوا القلعة، فلقي في طريقه الأمير عز الدين أيدمر الحلبي نائب السلطنة عند الملك المظفر، وكان خارج للقاء أستاذه، فأعلموه بصورة الحال وحلّفوه فحلف وتقدم بين يديه إلى القلعة، فلم يزل على بابها ينتظره حتى وصل إليها فدخلها وتسلمها، وكانت القاهرة قد تزينت لقدوم الملك المظفر، والناس في فرح وسرور بعودته وكسره التتار، فلما أسفر الصبح وطلع النهار وإذا مناد ينادي: معاشر الناس ترحموا على الملك المظفر وادعوا لسلطانكم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس[2].

1 ـ **أسباب مقتل قطز:** تنوعت روايات المؤرخين المعاصرين حول الأسباب التي أدت إلى مقتل سيف الدين قطز، ونحاول أن نناقش هذه الأسباب ونبين الأقوى منها:

أ ـ **يقول ابن أيبك الدواداري:** وحكى لي والدي ـ عن مخدومه سيف الدين بلبان الدوادار الرومي ـ قال: إن يوم المصاف هربت جماعة من الأمراء من خشداشية الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، فلما انتصر الإسلام، تنمر عليهم السلطان المظفر ووبخهم، وشتمهم، وتوعدهم، فأضمروا له السوء، وحصلت الوحشة منذ ذلك اليوم، ولم تزل الأحقاد والضغائن تتراءى في صفحات الوجوه وغمزات العيون، وكل منهم يترقب من صاحبه الفرصة[3].

ب ـ **أما المؤرخ تقي الدين المقريزي:** فيقول أن سبب ذلك أن الأمير ركن الدين بيبرس طلب من السلطان المظفر قطز أن يوليه نيابة حلب، فلم يرض، فأضمرها في نفسه، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً[4].

ج ـ **أما بيبرس الدواداري:** وهو أقربهم إلى الأحداث فيقول: وذلك أنه «قطز» رحل من دمشق عائداً إلى الديار المصرية وفي نفوس البحرية منه ومن أستاذه ما فيها لقتلهما

(1) نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، ص: 267.

(2) نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، ص: 168.

(3) كنز الدرر (8/ 60)، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص: 204.

(4) السلوك (1/ 519)، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص: 204، الظاهر بيبرس، بيتر توراو، ص: 88.

الفارس أقطاي، واستبدادهما بالملك وإلجائهم إلى الهرب والهجاج، والتنقل في الفجاج، إلى غير ذلك من أنواع الهوان التي قاسوها، والمشقات التي لبسوها، وإنما انحازوا إليه لما تعذر عليهم المقام بالشام، والتناصر على صيانة الإسلام لا لأنهم أخلصوا له الولاء، أو رضوا له الاستيلاء.

وقد بنيت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هي[1]

وقد رجح الدكتور «قاسم عبده قاسم» السبب الذي ذكره المؤرخ بيبرس الدواداري واعتبره السبب الرئيس لما حدث، فقد كان سيف الدين قطز أكبر مماليك السلطان عز الدين أيبك، وكان من أهم الذين شاركوا في قتل فارس الدين أقطاي، ومطاردة المماليك البحرية من خشداشية، كما أن البحرية عاشوا سنوات منفيين في بلاد الشام، ولم يمر عليهم الوقت دون مشكلات وحروب وسجن ومطاردات، ساهم في بعضها سيف الدين قطز بشكل مباشر أو غير مباشر، ومن المهم أن نتذكر أن رابطة الخشداشية التي كانت تجمع المماليك، كانت رابطة قوية للغاية، ومن ثم فإن بيبرس ورفاقه من المماليك البحرية كانوا يحملون رغبة الثأر لزميلهم أقطاي من ناحية ولزملائهم الآخرين الذين قتلوا على يد قطز أو بسببه من ناحية أخرى، فضلاً عما نالهم من الهوان والمذلة في منفاهم من ناحية ثالثة[2].

وقال الدكتور أحمد مختار العبادي: أما أسباب مصرع قطز فلا شك أنها أعمق بكثير من قصة رفضه نيابة حلب لبيبرس، وأن هذا الرفض لم يعد أن يكون سبباً مباشراً لمقتله عند الحدود المصرية، والواقع أن تلك الأسباب قديمة ترجع إلى أيام السلطان أيبك وتشريده معظم المماليك البحرية الصالحية، وقتله زعيمهم أقطاي، إذ صار مماليك أيبك وهم المعزية ومنهم قطز، أصحاب النفوذ والسلطان في مصر، واستمر العداء بين العزية والبحرية قائماً حتى أغار المغول على مصر، فاضطر المماليك جميعاً إلى الاتحاد بدليل قول العيني أن المماليك البحرية انحازوا إلى قطز المعزي، لما تعذر عليهم المقام بالشام، وللتناصر على صيانة الإسلام، لا لأنهم أخلصوا الولاء له[3]، فلما انتصر المماليك على المغول في عين جالوت، ولم تبق هناك ضرورة للاتحاد، ظهر العداء

(1) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة (9/ 73)، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، قاسم عبده قاسم، ص: 205.

(2) في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص: 206.

(3) عقدة الجمان، نقلاً عن: في التاريخ الأيوبي والمملوكي، للعبادي، ص: 162.

القديم بين الطائفتين من جديد، وكان من نتائج ذلك مقتل قطز المعزي على يد بيبرس الصالحي، وهذا هو المعنى الحقيقي لما أورده ابن أبي الفضائل تعقيباً على مقتل قطز حين قال: فلحق الناس خوف عظيم من عودة البحرية إلى ما كانوا عليه من الفساد[1]، وروى ابن أياس في هذا الصدد، ولما تم أمر بيبرس في السلطنة، رسم بإحضار المماليك البحرية الذين كانوا منفيين في البلاد، كما روى في موضع آخر وكذلك المقريزي أن المماليك المعزية حاولوا اغتيال بيبرس، عقب عودته إلى القاهرة، فقتل بعضهم، وسجن ونفي البعض الآخر[2]. وهذه النصوص وإن دلت على شيء، فإنما تدل على أن مقتل قطز كان نتيجة لعداء قديم مستحكم بين المماليك البحرية الصالحية، والمماليك المعزية[3].

2 ـ **الطريق إلى عرش المماليك:** كان الطريق إلى عرش سلطنة المماليك منذ البداية: القتل، وسفك الدماء، فقد اعتلت شجرة الدر العرش بعد اغتيال تورانشاه آخر سلاطين الأيوبيين في مصر، كما أنها هي وزوجها عز الدين أيبك لقيا حتفهما بسبب الصراع على السلطة، وبسبب طبيعة الحكم العسكري في دولة سلاطين المماليك، وتطبيقاً لمبدأ الحكم لمن غلب، الذي قام عليه البناء السياسي لهذه الدولة، كان طبيعياً أن يفكر الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري في إزاحة السلطان سيف الدين قطز من طريقه صوب عرش سلطنة المماليك، ورجح الدكتور «قاسم عبده قاسم» أن بيبرس ظن أنه أحق بالعرش من قطز، لا سيما وأنه صاحب دور كبير في هزيمة الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس التاسع قبل عشر سنوات في المنصورة، كما أنه لعب دوراً كبيراً في هزيمة المغول في عين جالوت، كما أنه كان أول من ألحق بهم هزيمة عندما دمر طليعة الجيش المغولي، ثم طارد فلوله المنسحبة حتى أعالي بلاد الشام، لقد كان بيبرس ابن عصره، وكانت تلك هي الأفكار السياسية السائدة آنذاك[4]، ولم تكن هناك مؤسسات شورية قوية في اختيار الحاكم، وغاب الفقه السياسي في الإسلام المتعلق باختيار السلطان، أو الملك أو الحاكم، لقد حاول السلطان قطز إرجاع الأمر إلى نصابه، ولكنه قتل قبل تحقيق

---

(1) السلوك (1/ 521).

(2) بدائع الزهور (1/ 99 ـ 100)، في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص: 163.

(3) في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص: 163.

(4) في تاريخ الأيوبيين والمماليك، قاسم عبده، ص: 206.

ذلك، وبعد أن استطاع أن يدحر المغول ويحرر بلاد الشام.

3 ـ **نتائج مقتل قطز:** انتقلت السلطة إلى القاتل قبل أن تجف دماء المقتول، دون أن يرى كبار أمراء المماليك غضاضة في ذلك، بل إن أتابك العسكر سأل عن القاتل وحينما علم أنه بيبرس قال له: «يا خوند اجلس أنت في مرتبة السلطنة» وكأن عرش الدولة مكافأة لمن تخلص من السلطان القتيل، وهكذا مرة أخرى ترسخ مبدأ «الحكم لمن غلب»[1]، ويبدو أن هناك إجماع من المماليك البحرية على زعامة ركن الدين بيبرس، وأما النتائج التي ترتبت على هذه المأساة هي:

أ ـ **فكانت على الناحية السياسية تكريساً للقوة والدماء سبيلاً إلى السلطة والعرش** وكانت تلك هي «سنة المماليك في دولتهم» ولم يحدث طوال مائتي وسبعين عاماً، هي عمر دولة سلاطين المماليك أن وجدنا لهذه السنّة تبديلاً، لقد كانت المفاهيم السياسية للدولة المملوكية نتاجاً للظروف التاريخية التي خرجت هذه الدولة من رحمها إلى الوجود، ويمكن بلورة هذه المفاهيم السياسية في أن أمراء المماليك اعتقدوا منذ البداية أن عرش البلاد حق لهم جميعاً يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين، وهو الأمر الذي ظهر واضحاً منذ بداية الدولة سواء في مصرع تورانشاه أو عز الدين أيبك وشجرة الدر، ثم تأكد فيما قام به بيبرس عندما اغتال قطز، كما تكرر في سلسلة انقلابات القصر ومؤامرات الحكم طوال سنوات حكم دولة سلاطين المماليك[2].

ب ـ **مرحلة جديدة في تاريخ المماليك:** وأما النتيجة الثانية الهامة، فتتمثل في الحقيقة التاريخية القائلة بأن صعود بيبرس على عرش سلطنة المماليك كان بداية مرحلة مهمة في تاريخ الدولة الناشئة جعلت من هذا الأمير الداهية، بقسوته وجبروته وحنكته السياسية وبراعته العسكرية، المؤسس الحقيقي لهذه الدولة «بفضل الله»، ثم إنجازاته السياسية والإدارية والعسكرية، فقد كانت السنوات العشر السابقة، مرحلة سيولة سياسية حكم خلالها خمسة من السلاطين، تم اغتيال ثلاثة منهم، ونجا الاثنان الآخران بسبب صغر سنهما وانعدام خطورتهما، ولكن بيبرس استمر يحكم سبعة عشر عاماً، ومن ناحية أخرى، كانت دولة سلاطين المماليك في

---

(1) في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص: 208.

(2) المصدر نفسه، ص: 209.

السنوات العشر الأولى من عمرها، تفتقر إلى الشرعية وتبحث عن الأمن في مواجهة تهديدات الأيوبيين وجاء إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة بمثابة الحل السعيد، لمشكلة الشرعية، على حين كانت معركة عين جالوت هي الحل النافع لمشكلة الأمن وتهديدات الأيوبيين[1].

ج - **زيادة الاعتماد على المماليك:** وكانت النتيجة الثالثة لاغتيال قطز في ازدياد اعتماد أمراء المماليك على مماليكهم بحيث يكونون عدتهم في الصراع الذي يمكن أن يحدث في أي وقت، فقد كان الأمراء الكبار وولاة الأقاليم يمتلكون جيوشاً صغيرة من المماليك تتراوح أعدادها ما بين ثلاثمائة، وستمائة مملوك، وربما زادت الأعداد لتصل إلى ثمانمائة مملوك وأما السلاطين يهتمون بشراء أكبر عدد ممكن منهم، وبعد عصر بيبرس كان من الممكن أن تصل مشتريات السلطان من المماليك إلى ثمانمائة مملوك بخلاف المماليك الذين ينتقلون إلى خدمته وراثة عن السلطان السابق أو من مماليك كبار الأمراء الذين يتركون الخدمة بالوفاء وغيرها[2]، وهكذا تكرست الطائفية بين العناصر المملوكية بالشكل الذي ترك آثاره السلبية على البناء السياسي لدولتهم على المدى الطويل، وربما كانت بذرة هذه الطائفية العسكرية الخطرة قد بذرت في حوادث الاغتيال الأولى التي شهدتها الدولة ومنها بطبيعة الحال حادث اغتيال السلطان سيف الدين قطز[3].

4 ـ قبر سيف الدين قطز وثناء العز بن عبد السلام عليه: يروى أبو المحاسن أن قطز: بقي ملقى بالعراء فدفنه بعض من كان في خدمته بالقصير، وكان قبره يقصد للزيارة دائماً . . . وكان كثير الترحم عليه والدعاء على من قتله، فلما بلغ بيبرس ذلك أمر بنبشه، ونقله إلى غير ذلك المكان وعفى أثره ولم يعف خبره[4]، وقال المقريزي: ودفن بالقصير، فكانت مدّة ملكه أحد عشر شهراً وسبعة عشر يوماً، وحمل قطز بعد ذلك إلى القاهرة، فدفن بالقرب من زاوية الشيخ تقي الدين قبل أن تعمر، ثم نقله الحاج قطز الظاهري إلى القرافة ودفن قريباً من زاوية ابن عبود، ويقال: إن اسمه محمود

(1) في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص: 209.
(2) المصدر نفسه، ص: 209.
(3) المصدر نفسه، ص: 210.
(4) النجوم الزاهرة(7/ 86 ـ 87).

ابن ممدوح، وإن أمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه وإن أباه ابن عم السلطان جلال الدين، وإنما سبي عند غلبة التتار، فبيع في دمشق ثم انتقل إلى القاهرة[1].

إن قيمة الرجال وعظمتهم لا تقاس بطول العمر، ولا بكثرة المال، ولا بأبهة السلطان، إنما تقاس بالأعمال الخالدة التي تغير من وجه التاريخ، فمن قطز إذا لم يتمسك بالإسلام ويدافع عنه؟ ولا شك أن التاريخ كان سيُغفل اسمه كما أغفل أسماء الكثيرين الذين كانوا كغثاء السيل، بل كانوا وبالاً على شعوبهم وأوطانهم مع حكمهم الفترات الطويلة والأعمار المديدة، ولا شك أن حفر الاسم في سجل التاريخ يحتاج إلى رجال عظماء، وليس بالضرورة أن يحتاج إلى وقت طويل[2]، فالتغيير يعتمد على نوعية الرجال المغيِّرين، مع مراعاة السنن وفقه المصالح والمفاسد والسياسة الشرعية وفقه قيام الدول وسقوطها ومعرفة مسار حركة التاريخ في منحنياته المتعددة.

لقد كان الشيخ العز بن عبد السلام يخشى أن يضيع النصر الكبير وتنهار الأمة من جديد، لقد قال بعد موت قطز وهو يبكي بشدة: رحم الله شبابه، لو عاش طويلاً لجدد للإسلام شبابه[3]، وقال: ما ولي أمر المسلمين بعد عمر بن عبد العزيز من يعادل قطز رحمه الله صلاحاً وعدلاً[4].

إلا أنني مع محبتي لسيف الدين قطز، واعترافي بجهوده العظيمة في خدمة الإسلام ودخوله نادي عظماء الأمة، فإنني أخالف شيخنا العز بن عبد السلام، وأرى أن نور الدين محمود الشهيد فاقه صلاحاً وإصلاحاً وعدلاً وجهاداً، ومن أراد التوسع فليراجع كتابي عن عصر الدولة الزنكية، لقد كان سيف الدين قطز من خيار ملوك الترك، وله اليد البيضاء في القيام لدفع العدو عن ديار المسلمين[5] الشامية والمصرية.

5 ـ ردة فعل المغول لمقتل قطز: لما بلغ المغول نبأ مقتل قطز بتلك الصورة توقعوا حدوث انقسام داخل دولة المماليك، ووجدوا في ذلك فرصة سانحة لهم لمحاولة فرض سيطرتهم على بلاد الشام مرة أخرى، فتجمع المغول الذين كانوا

(1) السلوك(1/ 520).

(2) قصة التتار، ص: 366.

(3) المصدر نفسه، ص: 367.

(4) المصدر نفسه، ص: 367.

(5) جواهر السُلوك في أمر الخلفاء والملوك، لابن إياس، ص: 115.

بحران وغيرهما من مدن إقليم الجزيرة، وانضم إليهم من سلم من معركة عين جالوت، وساروا حتى قاربوا البيرة التي كانوا قبل ذلك قد هدموا أسوارها وأبراج قلعتها وأضحت مكشوفة، فأدرك الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ الذي كان والياً على حلب خطورة الموقف فيها، وأرسل نجدة من عنده لمساعدة أهل البيرة في الدفاع عن مدينتهم، إلا أن هذه القوة الإسلامية لم تستطع الصمود أمام الجموع المغولية وتراجعت إلى داخل المدينة حيث بعث قوادها إلى الملك السعيد يخبرونه بتفاقم خطر المغول وأنهم اتجهوا إلى منبج، ويبدو أن المغول أرادوا عدم إضاعة الوقت في الهجوم على المدن الصغيرة، وعقدوا العزم على مهاجمة مدينة حلب التي وصلوها في يوم الخميس السادس والعشرين من ذي الحجة سنة(658هـ) نوفمبر (1260م) وبدأوا في مهاجمتها بقيادة الأمير المغولي بايدر الذي استطاع اقتحام المدينة وإخراج من بها من المسلمين إلى قرية قرنبيا شرقي حلب، وفيها حاول المسلمون توحيد صفوفهم مرة أخرى للوقوف في وجه المغول وإيقاف زحفهم.

إلا أن ذلك التجمع لم يجد نفعاً أمام كثافة الجموع المغولية، واضطر المسلمون بقيادة حسام الدين الجوكندار، الذي خلف الملك السعيد على حلب، إلى التراجع إلى الخلف لاستدراج المغول إلى مكان أفضل لمنازلتهم، فتراجع إلى حماه التي فيها الملك المنصور صاحبها، وفيها رأى توسيع الرقعة على المغول بالتراجع إلى حمص متظاهراً بالضعف أمامهم بهدف إعطاء نفسه فرصة كافية لحشد أكبر عدد من الجيوش الإسلامية؛ فوصله بحمص الملك المنصور صاحب حماه ومعه أخوه الملك الأفضل علي ومعهما عساكر حماه، كما انضم إليه في الوقت نفسه الملك الأشرف صاحب حمص.

وفي حمص أعاد الجوكندار تنظيم جيوش الإسلام مرة أخرى وجهزها بالعدة والعتاد استعداداً لمنازلة المغول، الذين وصلوا إلى حمص في المحرم من سنة (659هـ) ديسمبر (1260م) حيث دارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس عند قبر خالد بن الوليد ﷺ[1] بالقرب من الرستن، أبلى فيها المسلمون بلاءً حسناً رغم قلة عددهم وكثرة عدد المغول، حتى كتب الله لهم النصر على عدوهم، وفرَّ بايدر من المعركة فيمن سلم من جنده، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، وسارع الملك المنصور عقب ذلك الانتصار بالاتجاه إلى سلمية حيث انضموا إلى جموع مغولية كانت نازلة بها، وحاولوا عبثاً مهاجمة حماه مرة ثانية وأقاموا عليها يوماً واحداً، ثم رحلوا عنها إلى أفامية، التي

---

(1) جهاد المماليك، ص: 129.

كان قد سبقتهم إليها فرقة من جيش المسلمين أقامت بالقلعة، وقامت بتنظيم الهجمات على المغول داخل المدينة التي اضطر العدو إلى ترك أفاميه والاتجاه إلى حلب التي ظلوا يحاصرونها مدة من الزمن، حتى تمكن الملك الظاهر بيبرس من تثبيت نفسه على عرش الدولة المملوكية في مصر والشام، حيث سارع بإرسال جيش كبير أوكل إليه مهمة طرد المغول من بلاد الشام.

ولما سمع المغول بمقدم ذلك الجيش دخلهم الهلع والخوف فولوا الأدبار هاربين باتجاه الشرق وطهرت بلاد الشام مرة أخرى من نير الاحتلال المغولي[1]، واستطاع المسلمون أن يتجاوزوا هذه المحن العظيمة وأثبت التاريخ بوقائعه وشواهده، أن هذه الأمة أصلب ما تكون عودة وأشد ما تكون قوة وأعلى ما تكون همة، عندما تحيط بها الشدائد، وتحل بساحتها الأزمات، وتتلبد في سمائها الغيوم، فهي حينئذ تستجمع قواها وتستثير كوامنها، وتظهر ذخائرها وتقف في مواجهة الهجمات الغازية، والمحن القاسية، بإيمان صلب، وصبر جميل، وثبات نبيل، وتوكل على الله حتى يجعل الله لها من عسرها يسراً ومن ضيقها فرجاً، ومن مأزقها مخرجاً، ومن ظلام ليلها صبحاً مشرقاً ونهاراً مضيئاً، وبهذا أثبتت الأمة عراقتها وأصالتها وأنها قادرة على امتصاص الهزائم واجتياز المحن والشدائد العظام والوصول إلى بر الأمان في النهاية بسلام[2].

سادساً: أسباب انتصار المسلمين في عين جالوت:

1 ـ **القيادة الحكيمة**: أكرم الله الأمة في تلك الفترة التاريخية الحرجة بالسلطان سيف الدين قطز، وكان رجلاً صالحاً، كثير الصلاة في الجماعة، ولا يتعاطى الشرب ولا شيئاً مما يتعاطاه الملوك[3]، وكان شجاعاً وبطلاً، كثير الخير، ممالئاً للإسلام وأهله وهم يحبونه[4]، وكان مقداماً حازماً حسن التدبير، وكانت الأمة في أشد الحاجة لقيادة حكيمة، تتصف بصفات فذة، فقد جاءت مواهبه موافقة لحاجات الأمة[5]. شهد معارك كثيرة مع الأيوبيين مما أتيح له خبرة في الحروب، وكان مهيأ نفسياً منذ نعومة أظفاره في

(1) النجوم الزاهرة(7/ 104، 106).

(2) تاريخنا المفترى عليه، للقرضاوي، ص: 210.

(3) البداية والنهاية (17/ 405).

(4) المصدر نفسه (17/ 411).

(5) سيف الدين قطز، قاسم عبده، ص: 164.

أن يكون قائداً فذاً، يشار إليه بالبنان، ويكون صاحب شأن في مجريات الأحداث في مصر والشام، وكان يعتز بعقيدته الإسلامية ويفاخر بها وكان يحمل الضغينة والحقد على المغول الذين أذاقوا خوارزمشاه ومن معه شراً ووطأوا بلادهم وساموهم سوء العذاب، وكان له من الصفات الجسمية ما يؤهله لأن يكون قائداً، فهو قوي البنية، مستدير الوجه، عريض الكفين، ممتلئ الجسم، أشقر، كث اللحية، وكان من البارزين في الفروسية والحاذقين في استخدام الرمح، فإذا أتاه الخصم من الخلف رمى الرمح أمامه بقدر ثلث حتى إذا كان الرمح بين كتفي قطز أبطله وغرز رمحه في صدره لا محال[1].

ولما داهم الخطر الأرض الشامية والمصرية وتحرك المغول بجيوشهم لكي يقضوا على المماليك اتخذ قطز حينذاك عدة إجراءات دفاعية منها: الترحيب بالهاربين من المماليك، وتناسيه الضغائن والأحقاد والخلافات التي كانت بينه وبينهم، وعزل الملك المنصور علي لصغر سنه وعدم قدرته على ترتيب الأوضاع التي تحتاج إلى حزم ووحدة، وقيادة قادرة على محاربة المغول وذلك سنة (657هـ/ 1259م)، وتحضير الإمكانيات وحشد الطاقات البشرية والاقتصادية ومحاولة التحالف مع الملك الناصر صاحب الشام، وتوحيد القوتين ليكون الجيش أقوى في مواجهة أعدائه[2]. لقد كان سياسياً إستراتيجياً مخططاً أكثر منه مقاتلاً، إذ استطاع في مدة بسيطة أن يسوس بلاد الشام، وأن يحسن إلى الشعب، ويقدم له الأمن والسلامة والاستقرار، وأن يهيئ له سبل العيش الكريم، وأن ينظم الأمور الإدارية، ويعين الحكام الإداريين للمدن التي احتلها واستردها التتار[3].

إنّ ما يتميز به هذا السلطان هو الإيمان بالله ﷻ، الذي لا يرقى إليه ريب ولا شك، والفطرة السليمة التي جبل عليها وتربى في ظلالها، والعيش الصعب الذي أهَّلَهُ للصبر والوقوف أمام الشدائد، وتقلبه في البلاد، والحرمان الذي قاساه في صغره، والتربية التي خضع لها. وتمت عقيدته ورسخ إيمانه، وهذب نفسه، وأصلح باله، وقوى من عزيمة الجهاد، ومن الاستهانة بالموت، ومن الإقدام والعزيمة على قتال المغول، ومن الوثوق الكامل في الله بالنصر عليهم[4]. وقد دلت حروب قطز التي خاضها مع

---

(1) معركة عين جالوت، ص: 124.

(2) المصدر نفسه، ص: 126.

(3) فوات الوفيات (2/ 268) معركة عين جالوت، ص: 126.

(4) شذرات الذهب، نقلاً عن: معركة عين جالوت، ص: 127.

الأيوبيين وضد الأمراء الهاربين إلى الكرك، وضد الأمراء الذين حاولوا اغتصاب السلطة، وفي معركة عين جالوت، على أنه قائد حرب إستراتيجي من الطراز الأول، فهو خفيف الحركة على حصانه، وهو الذي أجاد في القتال بالأسلحة المستخدمة آنذاك، وكان صاحب قرار تميز بالوضوح والدقة، والنظر الثاقب، وجلاء الهدف، وبيان الحقيقة خاصة فيما يتعلق بمعركته هذه مع المغول، وهو حازم وقت الشدة ومصمم على بلوغ النصر مهما كانت العقبات أمامه، ومتفهم لقدرة عدوه، ومقدر لقوة الصديق، وكان لكل شيء حسابه، ويدقق المعلومات ويحافظ على مرؤوسيه ويستميلهم بأسلوبه الجذاب، ويتعاون مع أركانه ويعطيهم الثقة، ويمنحهم المساعدة والعطاء، وكان منظماً، قاد الكتلة الرئيسة من الجيش في معركة عين جالوت، فنظم الميمنة والميسرة والقلب، وأناط لكل جناح قائداً شجاعاً ونسق الصفوف إلى عدة تراتيب، وجعل الميمنة تتقدم بالإحاطة والميسرة بالالتفاف والقلب بالتقدم البطيء الزاحف، كما بث الحرس المتحرك على الأجناب والكمائن في المواقع التي لا يتوقعها العدو، مما جعله يتمكن من عدوه، ويقضي عليه بعد أن استدرجه للوقوع في النقطة الميتة التي وقع فيها عدد كبير من قتلى المغول.

ولقد حدد قطز قواعد وأسس الشؤون الإدارية في الجيش المملوكي، إذ استطاع أن ينظمها ويحدد خطوطها العريضة بخاصة فيما يتعلق بحركتيها وخفتها، وقد ظهر ذلك جلياً عندما حدد لصاحب حماه كيفية ونوع الإمداد، وعندما أكد على أن الجندي يجب أن يكون خفيف الحركة، لا يثقله الطعام الكثير المتنوع فأمر بوضع قطعة من اللحم في مخلاة عسكرية[1]، ومما يشار إليه أن قطز كان متديناً عفيفاً، صاحب تقوى وورع، وهذه الصفة أكسبته الشجاعة والإقدام في الحروب، وجعلته يستبسل ويقدم روحه رخيصة، ويستهين بالموت، وبخاصة عندما قتل حصانه، واستمر في القتال دون جواد، وكان في مقدمة الجيش يقاتل عن حمية وعقيدة[2]، وكانت له مواقف إيمانية متميزة منها:

أ - **وضوح الرؤية ونقاء الهوية**: كان على اعتقاد جازم بأن النصر لا يكون إلا من عنده ﷻ، ولذلك اهتم قطز بالناحية الإيمانية عند الجيش وعند الأمة، وعظم دور العلماء، وحفز شعبه لحرب التتار من منطلق إسلامي وليس من منطلق قومي أو عنصري، ولخص ذلك في عين جالوت في كلمته العظيمة «وا إسلاماه»

---

(1) عين جالوت، ص: 128.

(2) المصدر نفسه، ص: 128.

ولم يقل: «وا مصراه»، أو «وا ملكاه»، أو «وا عروبتاه»، لقد كانت الغاية واضحة والهوية إسلامية تماماً، ووضوح الرؤية ونقاء الهوية كان سبباً من أسباب النصر، بل هو أعظمها على الإطلاق[1].

ب ـ **الدعاء سلاح فتاك:** حرص سيف الدين قطز قبل بدء المعركة أن يتأخر الناس في مواجهة الأعداء كما قال: حتى تدور الشمس وتفيء الظلال وتهب الرياح ويدعو لنا الخطباء والناس في صلاتهم[2]، وكان هذا العمل تأسياً برسول الله ﷺ والصحابة من بعده حيث كانوا يحبون أن يكون القتال بعد الزوال، وقد نشبت المعركة وكان القتال شديداً على المسلمين، حتى أن الأعداء كادوا يزيلونهم عن مواقعهم، وكان السلطان قطز يثبت الناس وينحاز إلى بعض نواح الجيش حينما يحس ضعفاً منهم حتى يقوي من عزيمته ويشجعهم، وكان له عدة مواقف شجاعة أثناء المعركة[3].

جـ ـ **الحرص على الشهادة:** في معركة عين جالوت، قتل جواده ولم يجد أحداً في الساعة الراهنة من الوشاقية الذين معهم النجائب فترجل وبقي واقفاً على الأرض ثابتاً والقتال على أشده في المعركة، وهو في موضع السلطان من القلب، فلما رآه أحد الأمراء ترجل عن فرسه وحلف على السلطان ليركبنها، فامتنع وقال لذلك الأمير: ما كنت لأحرم المسلمين نفعك، ولم يزل كذلك حتى جاءته الوشاقية بالخيل فركب، فلامه بعض الأمراء وقال: يا خونت لم لا ركبت فرس فلان فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك، وهلك الإسلام بسببك، فقال: أما أنا فكنت أروح إلى الجنة، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه، قد قتل فلان وفلان وفلان، حتى عدَّ خلقاً من الملوك، فأقام للإسلام من يحفظه غيرهم ولم يضع الإسلام[4].

فهذا موقف جليل لهذا الأمير البطل دلَّ على تواضعه وعدم اهتمامه بحفظ نفسه في سبيل مصلحة المسلمين العامة، كما يدل على تذكره عظمة الإسلام،

---

(1) قصة التتار، ص: 353.

(2) الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص: 347.

(3) المصدر نفسه، ص: 347، الطريق للقدس، محسن محمد، ص: 175.

(4) الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص: 348.

والهدف العالي الذي ينشده المؤمنون حقاً وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة[1].

د ـ **رؤيا صادقة**: كان من أهم الحوافز للأمير سيف الدين قطز على الإقدام على حرب التتار رؤيا صالحة رآها في صغره، وكان يحدث بها أصحابه، حيث قال: رأيت النبي ﷺ في المنام وقال لي: أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار، وقول النبي ﷺ حق لا شك فيه[2]. فهذه الرؤيا الصالحة كانت هي الدافع الأكبر لمظفر الدين قطز بأن يقدم على قتال التتار بعزم وقوة، بعدما نكل عن ذلك كثير من الأمراء أو قاتلوهم بضعف وخوف، لقد دخل مظفر الدين تلك المعركة وهو على يقين قوي وثقة كاملة بنصر الله تعالى له ولجنده، كما كان الصحابة ﷺ يدخلون المعارك وهم يحملون في أفكارهم وعد النبي ﷺ بالتمكين في الأرض. وما دامت هذه الرؤيا قد انتشرت، فإن الذين علموا بها من جنوده وقادته سيكونون على درجة عالية من الثقة واليقين بالنصر، فكان ذلك دافعاً قوياً له إلى بذل كل ما يستطيعون من طاقة في سبيل الله تعالى[3]، وذلك من أسباب النصر على أعدائهم.

هـ ـ **القدوة**: كان سيف الدين قطز متواضعاً وضرب أفضل الأمثلة لجنوده ولأمته في كل الأعمال، وتربية القدوة أعلى آلاف المرات من تربية الخطب والمقالات، كان سيف الدين قدوة في أخلاقه، وفي نظافة يده، وفي جهاده وفي إيمانه، وفي عفوه، ولم يشعر الجنود أبداً بأنهم غرباء عن قطز، لقد نزل ؒ بنفسه إلى خندق الجنود وقاتل معهم، فكان حتماً أن يقاتلوا معه[4].

و ـ **عدم موالاة أعداء الأمة**: لم يوال سيف الدين قطز التتار أبداً مع فارق القوة والإعداد بينهما، كما لم يوال أمراء النصارى في الشام مع احتياجه لذلك، لقد سقط الكثير من الزعماء قبل قطز في مستنقع الموالاة للكفار، وكان منطلقهم في ذلك أنهم يجنبون أنفسهم أساساً، ثم يجنبون شعوبهم بعد ذلك ـ كما يدعون ـ

---

(1) التاريخ الإسلامي (16/ 388).

(2) المصدر نفسه (16/ 391).

(3) المصدر نفسه (16/ 392).

(4) قصة التتار، ص: 355.

ويلات الحروب، فارتكبوا خطأً شرعياً شنيعاً، بل ارتكبوا أخطاء مركبة، فتجنب الجهاد مع الحاجة إليه خطأ، وتربية الشعب على الخنوع لأعدائه خطأ آخر، وموالاة العدو واعتباره صديقاً خطأ ثالث، لكن قطز كان واضح الرؤية بفضل الله ثم تمسكه بشرعه ﷺ[1]، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة، الآية: 51].

لقد كان سيف الدين قطز من القيادات الحكيمة التي استطاعت أن تأخذ بعوامل النصر وتتعامل مع أسبابه، وجمع بين الأسباب المادية والمعنوية، وبعد المعركة قرر المظفر قطز مواصلة الجهاد فجمع جيشه وأمراءه ونزل إلى الأرض، ومرغ وجهه بالتراب، وصلى ركعتين شكراً لله على هذا النصر، ووقف فيهم خطيباً، وقال: لقد صدقتم الله الجهاد في سبيله فنصر قليلكم على كثير عدوكم، إياكم والزهو بما صنعتم، ولكن اشكروا الله واخضعوا لقوله وجلاله إنه ذو القوة المتين، واعلموا أنكم لم تنتهوا من الجهاد وإنما بدأتموه، وإن الله ورسوله لن يرضيا عنكم حتى تقضوا حق الإسلام بطرد أعدائه من سائر بلاده، يومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله[2].

2 ـ **توسيد الأمر إلى أهله:** قام سيف الدين قطز بتوسيد الأمور إلى أهلها واهتم بالكفاءة والأمانة، قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص، الآية: 26]، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابياً سأل رسول الله ﷺ: متى الساعة؟ فقال ﷺ: «**إذا ضُيعت الأمانة فانتظر الساعة**» قال: كيف إضاعتها؟ قال: «**إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة**»[3] .فإذا تولى الأمور رجال لا يمتلكون كفاءة ولا يتصفون بأمانة، ولم يصلوا إلى مكانهم إلا بواسطة أو قرابة أو رشوة إذا حدث ذلك فاعلم أن النصر بعيد[4]، أما سيف الدين قطز، فقد أسند الأمور إلى أهلها، واختار قادة جيشه وأركانه، وكان لهم الفضل بعد الله تعالى في الانتصار على المغول على المستوى التكتيكي والإستراتيجي[5]، ومن أشهر هؤلاء القادة الذين ساهموا في النصر:

---

(1) قصة التتار، ص: 356.

(2) من أجل فلسطين، حسني أدهم جرار، ص: 102.

(3) البخاري،كتاب الرقاق، باب: رفع الأمانة [الحديث: 6496].

(4) قصة التتار، ص: 357.

(5) عين جالوت، ص: 123.

أ - **الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري**: كان في معركة عين جالوت رئيس أركان الجيش المملوكي وقائد الطليعة، طارد بايدر قائد طليعة الجيش المغولي إلى أرض فامية، ظهرت عليه النجابة والفطنة في سن مبكرة من حياته التي كان فيها مملوكاً، وقربه وقدمه الملك الصالح نجم الدين أيوب على الجمدارية الذين كانوا عنده، وحضر معه معركة دمياط وأبلى فيها بلاء حسناً، وظهرت عبقريته العسكرية وشجاعته الفائقة. لا يزال الكره يملأ قلبه والحقد الكبير على المغول الذين أهانوه وأسروه عندما كان عمره أربعة عشر عاماً، وباعوه فشروه إلى أن وصل إلى البندقداري الذي سمي الظاهر باسمه، ثم انتقل إلى الملك الصالح وكان من أبطال معركة المنصورة التي كانت من المعارك الحاسمة بين الصليبيين والأيوبيين والتي انتصر فيها الجيش الأيوبي الذي كان في أكثره من المماليك، ورأى بنفسه أنه يمكن الانتصار على هؤلاء وغيرهم وأنه بإمكان المماليك، لو نظموا ودربوا، أن ينتصروا على كل طامع وغاصب، وقد تميز بثقافته العسكرية التي كان يتمتع بها، إذ كان شغوفاً بدراسة تاريخ المعارك والحروب وكان يشجع ويحث العسكريين على التركيز على هذه الدراسة، وبنفس الوقت كان يحب الأساتذة وخبراء الحرب ويميل إليهم ويكرمهم ويهيء لهم الجو الملائم للتدريس وإعطاء مزيد من المعلومات التاريخية العسكرية، وكان يقول: سماع التاريخ أعظم من التجارب، وحافظ على التدريب العسكري المتواصل، والاهتمام بكل صغيرة وكبيرة من الأمور المتعلقة بالسياسة والحرب، وقد تمتع بصفات قيادية فذة، وكان يأخذ بالحذر والحيطة لكل الأمور، واتخاذ المناسب حيال كل حدث أو اعتداء والخبرة الطويلة والمدة الزمنية الكبيرة التي قضاها في الحروب الحقيقية[1]. جعلته من الشخصيات القيادية التي ساهمت في تحقيق النصر في عين جالوت.

ب - **الأمير فارس أقطاي المستعرب**: أتابك الجيش والذي تولى تجهيزه وإعداده والإشراف على كل أموره، وفوق كل ذلك، فقد كان هو بنفسه من الرجال الموثوق بدينهم، وأخلاقهم وشجاعتهم وكفاءتهم في الإعداد والتنظيم والتعبئة[2]، كان مقداماً شجاعاً وذا معرفة بالحروب وكان قطز يعول عليه كثيراً، وكان هادئاً ورعاً، محباً للخير، مقرباً إلى الملك قطز ومحبوباً من قبل

---

(1) معركة عين جالوت، ص: 128 ـ 136.

(2) من أجل فلسطين، حسني أدهم جرار، ص: 98.

مرؤوسيه(1).

جـ - سنجر الحلبي: كان أتابك العسكر في زمن الملك المنصور علي بن أيبك سنة (655هـ/ 1257م)، وكان نائب المظفر قطز في دمشق في أعقاب معركة عين جالوت، ولما جاءه خبر مقتل قطز واستلام الملك الظاهر ومبايعته هرب إلى بعلبك وضيق عليه، ثم ألقي القبض عليه وسجن ثم أطلق سراحه وكان على درجة كبيرة من البطولة والشجاعة وقد أبلى بلاءً حسناً في المعركة الفاصلة(2).

د - أقوش الشمس الأمير جمال الدين: كان جندياً قوياً، وأميراً موصوفاً بالشجاعة والإقدام والجرأة في التنفيذ، وقد كان خشداشياً عند الأمير بدر الدين البيسري، كما خدم عند غيره، وقد ظهرت عليه تطلعات الارتقاء إلى المناصب العالية، حتى إذا كانت معركة عين جالوت، شكل من وحدته العسكرية، وقصد مقر قيادة المغول، حتى إذا كان قاب قوسين أو أدنى من القائد العام للجيش المغولي، انقض عليه وأصابه وطرحه أرضاً وأسر كتبغا، ولما رأى الجيش المغولي وقد أسر قائده خارت قواه وضعفت معنوياته، وبهذا فقد حقق أقوش نصراً لجيشه، بل كان منعطفاً تاريخياً، ثم ولي فيما بعد نيابة حلب وبقي فيها حتى توفي(3).

- هؤلاء كانوا من أهم قادة جيش المماليك الذين حققوا النصر الكبير في عين جالوت، فكانوا من أسباب النصر، لقد اهتم سيف الدين قطز بالكفاءات والقادة الآخرين فتعاطفوا معه والتفوا حوله وتولدت الثقة التي كانت المفتاح الرئيس لتحقيق التمكين في عين جالوت، وكان سيف الدين قطز يملك مقومات الحصول على الثقة من الأمراء والعلماء، وعامة الناس والتي من أهمها:

- التعاطف، ويتحقق ذلك من خلال الاهتمام بالآخرين والوقوف إلى صفهم فيما يحدث لهم من خير وشر ومشاركتهم همومهم ومشاكلهم ومن خلال ذلك تم كسب ثقة القادة والعلماء وعموم الشعب.

- الصدق والصراحة، والكفاءة والعمل الجماعي المنظم والانتماء للإسلام

(1) معركة عين جالوت، ص: 136.
(2) الوافي في الوفيات (15/ 473) معركة عين جالوت، ص: 137.
(3) النجوم الزاهرة (7/ 97) معركة عين جالوت، ص: 138.

والقدرة على الاتصال بالآخرين، وكل هذه المقومات ساهمت في كسب الثقة في سيف الدين قطز[1].

3 ـ **الجيش القوي**: يعتبر الجيش المملوكي في ذلك الوقت من أقوى الجيوش الإسلامية، والفضل لله ثم للملك الصالح أيوب، الذي قام بإصلاح عسكري في الدولة الأيوبية ووضع سياسة جديدة تقوم على استخدام الأتراك المماليك بشكل لم يسبق له مثيل من قبل أسلافه الأيوبيين، مكنته من متابعة حروبه الخارجية مع مملكة بيت المقدس والتصدي للحملة الصليبية السابعة[2]، ورافق ذلك التطوير العسكري الاهتمام الديني به من حيث التربية والتعليم، حتى أصبحت كتائب المماليك تدافع عن عقيدة الإسلام، وأصبحت الدولة تحتفظ بجيش عقائدي ومنتظم ومدرب أحسن تدريب صناعته الحرب والقتال وأيدي من المهارة والبسالة في قتال القوات الصليبية برغم هزيمتهم في بداية الأمر، وتميز القواد المسلمون بوضع الخطط الحربية الممزوجة بالمكر والخدع الحربية[3]، وتسلم المماليك المؤسسة العسكرية الأيوبية بعد وصولهم للحكم وحافظوا عليها وقاموا بتطويرها.

لقد اشترك الجيش المملوكي في معركة عين جالوت بقياداته العسكرية والتشكيلات المقاتلة النظامية، والجيش المركزي، والجيوش الإقليمية، والجيوش الاحتياطية بما فيها القبائل العربية والتركمان والأكراد، وقدر المؤرخون في ذلك العصر أن حجم الجيش المملوكي بالكامل كان في حدود 40 ألف مقاتل[4]، وكان عدد الفرسان في حدود عشرة آلاف فارس وأغلبهم من المماليك، وقسم قليل من غيرهم من المشتركين في المعركة، وكان عدد الجيش المغولي في عين جالوت 15 ألف مقاتل، وذلك أن القوة الرئيسة من هذا الجيش تحركت باتجاه فارس مع هولاكو، وتوزعت بعض القوى الأخرى في المناطق التي احتلها مروراً ببغداد وانتهاء بالشام، وكان في اعتقاد القادة المغول أن هذا العدد قادر على تحطيم وتدمير الجيش المملوكي بكل سهولة طالما أن له الخبرة في الحروب، وسبق أن انتصر على كل الجيوش التي اشتبك معها، وقد أكد

---

(1) انظر: إدارة الجودة الشاملة، للشيخ فيصل بن جاسم بن محمد آل ثاني، حيث تم الحديث عن أساسيات إدارة الجودة الشاملة ومقومات الحصول على الثقة، ص: 213.

(2) الملك الصالح أيوب وإنجازاته السياسية والعسكرية، ص: 151.

(3) الأيوبيون بعد صلاح الدين، الصَّلاَّبي، ص: 360.

(4) النجوم الزاهرة (7/ 197)، معركة عين جالوت، ص: 165.

على هذا العدد مجموعة من المصادر التاريخية من أهمها، جامع التواريخ، وتاريخ مختصر الدول، وتاريخ الشهابي، وتاريخ الصليبيين، وتاريخ الزمان[1].

4 ـ **إحياء روح الجهاد**: كانت الغاية من التوجيه المعنوي في الجيش المملوكي التذكير بالجهاد والحث عليه والترغيب وشحن النفوس بمقارعة ومحاربة العدو، وصون الديار، والحرمة الإسلامية، القوة المعنوية يركز عليها في كل الجيوش فلا ينتصر جيش بدون معنويات، ولهذا فإن القيادة تسعى دائماً إلى زيادة هذه القوة ورفعها، فهي تحاول أن يكون السلاح حديثاً موثوقاً به، والشؤون الإدارية بحالة جيدة كالطعام واللباس والحاجيات الأخرى، ولقد أكثر المماليك من الوسائل التي ترفع هذه القوة كالمكافآت والترقيات، وإغداق الأموال، ولكن هذه الوسائل كانت مؤقتة للسكن الذي لا يلبث أن يعود الجندي إلى حالته الطبيعية، ولكن هناك وسيلة كبيرة هي العقيدة التي كانت تأمر بالقتال، وأن النتيجة مع المقاتلين في النصر أو الاستشهاد، وقد أشعل هذه الناحية المشايخ في الجيش المملوكي فأججوها، ورفعوا بها إلى المكان الذي يمكن أن يأخذوا من الجندي كامل طاقته وقدرته[2]، وإذا أردنا أن نختصر بواعث المعنويات عند الجيش المملوكي في معركة عين جالوت لخّصناها كما يلي:

- زيادة حجم الجيش المملوكي وتفوقه على خصمه.
- الثقة في الله في تحقيق النصر.
- الانتقام من المغول الذين طغوا وبغوا في البلاد التي احتلوها، والثأر لكل المظلومين والمقهورين.
- العقيدة التي أججت في المقاتلين روح التضحية والفداء وجعلتهم يقدمون على الموت وهو أحب إليهم من الحياة.
- الاستعداد الكامل والتحضير لهذه المعركة، وحشد كل الطاقات والإمكانات لنجاحها.
- تراخي العدو وعدم اكتراثه وعدم تطبيقه الأسس والمبادئ الحربية وعدم أخذ الحيطة والحذر[3].

إن الذي يلفت النظر في موضوع المعنويات هو العقيدة، فيها اجتمعوا وتوحدوا

(1) معركة عين جالوت، ص: 166.
(2) المصدر نفسه، ص: 191.
(3) المصدر نفسه، ص: 191.

على مستوى واحد، وأرضية واحدة، فالمملوكي مهما كانت طبقته وقوميته فهو عقائدي وبهذا الانتماء قدم الجهاد، وبهذه المزية اندفع بمعنوية لا تقابلها معنوية في الجيش المغولي، فذاك قطز نادى بأعلى صوته «وا إسلاماه» فاجتمع له الجيش بفئاته المختلفة بمعنويات عالية، ذلك لأن هذا النداء العقائدي أجج في نفوس القادة والجنود كل إمكانيات المقاتل القتالية، وجعله يقدم الإرادة حباً وتضحية وفداء واستبسالاً، على هذا النداء قاتل الجيش المملوكي قتال رجل واحد، فانتصروا على أكبر قوة في تلك الحقبة[1].

5 ـ الإعداد وسنة الأخذ بالأسباب: إن من أسباب انتصار المسلمين في معركة عين جالوت، أنهم عرفوا كيف يتعاملون مع سنة الأخذ بالأسباب، وكان سلاطين المماليك أصحاب فقه عميق بسنة الأخذ بالأسباب، ويظهر ذلك من خلال حرصهم على العمل، وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ...﴾ [الأنفال، الآية: 60]، لقد فهم قادة المماليك أن أمر التمكين لهذا الدين يحتاج إلى جميع أنواع القوى على اختلافها وتنوعها، ولقد قاموا بشرح هذه الآية عملياً من خلال التدريب والتعليم والتخطيط والتنظيم...إلخ .

لقد اهتم قادة المسلمين في مصر بتأهيل الفارس لكي يدخل الحرب وهو على أتم الاستعداد لها، وكان أغلب الملوك والسلاطين والأمراء من الفرسان المعدودين ومن الأبطال الشجعان الذين على علم بالرماية ولعب الرمح وضرب السيف وخفة الحركة في ساحة الميدان، وبفنون القتال وباستخدام الأسلحة المعروفة في ذلك العصر، ولم تقتصر الفروسية على الوجهاء، بل كان أغلب الجنود أو قل جميعهم من الفوارس ومن المدربين على تلك الأعمال التي في نظرهم في مقدمة كل أمر، ومن أبرز الصفات عند الجيش المملوكي[2]، والتي كان يركز عليها عند القادة في وقت الإعداد والتدريب والأخذ بالأسباب:

أ ـ **العمومية والشمولية:** إن التدريب كان يشمل المؤخرة، كما يشمل المقدمة، والتشكيلات كما في القطعات والوحدات، والفرد كما في المجموعات، والجندي كالقائد، والبحرية كالقوات البرية، ولا يستثنى أحد، وكانت هذه

(1) معركة عين جالوت، ص: 193.
(2) المصدر نفسه، ص: 250.

التدريبات تتناول جميع أنواع التدريب وأشكاله وطرائقه، كما تتناول جميع أنواع الأسلحة المستخدمة في القتال، والتدريبات التي تحافظ على اللياقة البدنية، وترفع من قدرة الجندي القتالية، كألعاب السباق والمصارعة، وبهذه العمومية والشمولية توصل الجيش المملوكي إلى توازن قتالي بين صفوف قواته واختصاصاتها المختلفة، وإلى وحدة الجيش الحربية، وإلى ثقل الضغط والخرق، فإن ركز جهوده الرئيسة إلى قطاع من دفاعات العدو تراه يجمع كل الجهود لهذا القطاع، كما حدث تماماً في معركة عين جالوت عندما خرق الدفاع واستطاع أن ينفذ من اليمين والشمال وأن يصل خلف القوات المغولية بالرغم من الصمود وثبات الدفاع[1].

ب - **ملازمة التدريب العقائدي مع التدريب القتالي**: كان المماليك يدربون على أصول العقيدة وأحكامها ونظرتها إلى الجهاد تحت إشراف مدربين اشتهروا بالتربية والتعليم، وكان يعلمونهم القرآن الكريم، حتى أن بعض المدربين كانوا يحفظون القرآن الكريم عن ظهر قلب، وكذلك العلوم الشرعية المتنوعة في التفسير والحديث والسلوك واللغة، وبعد نجاحه في أمور العقيدة وإتمامه هذه المرحلة، وبعد أن يكبر، يسلم إلى مدربين في أمور الحرب والقتال، فيتدربون على ركوب الخيل ويتدرجون من السهولة إلى الصعوبة، فيقاتل على ظهرها بسلاح واحد ثم يصل إلى جميع الأسلحة ويتدرب في حالة الركض والوثوب عنها، ثم ينتقل إلى الرمي والدقة في الإصابة على القبق والضرب بالسيف والطعن بالرمح واستخدام الدبوس ولعب الصولجان، ثم يتدرب على طرق القتال في الميدان وهذه هي أصعب مرحلة في التدريب، يخرج من بعدها مقاتلاً قوياً في عقيدته قوياً في قتاله، وهو بهذا لا ينقطع عن التدريب العقائدي أو القتالي بل يظل ينمي تدريباته، حتى يصل إلى أعلى مستوى من التدريب [2]المتلازم.

جـ - **التدريب بشكل متواصل**: إن المقاتل المملوكي بعد أن ينهي هذه المراحل جميعها لا يتوقف عن التدريب أبداً، وإنما هناك الميادين المتعددة التي يلتقي فيها المقاتلون ليقوموا بتدريباتهم المعتادة، ويواصل العسكري المملوكي تدريبه

(1) معركة عين جالوت، ص: 151.

(2) معركة عين جالوت، ص: 252، الخطط، للمقريزي(2/ 489).

على جميع أنواع القتال وعلى اختلاف الأسلحة في جميع الظروف والأحوال الصعبة، ويبقى من الصباح حتى المساء حتى ولو كان الجو ماطراً أو بارداً أو حاراً[1]، فالمهم عنده تنفيذ البرنامج التدريبي المقرر وكذلك كان التدريب العقائدي فقد كان الموجهون المشايخ كثيرين، وكذلك فإن دور العلم التدريبية كانت كثيرة وهي لا تخلو من المقاتلين الذين يلازمون هذه الأماكن التي كانت منتشرة بشكل واسع[2].

د - **التخصص في التدريب**: لقد شاع التخصص في الوظائف العسكرية في الجيش المملوكي فكل مادة لها مدربون خاصون بها، فالنشاب اختص به قادة عسكريون عرفوا به، فهم يقومون بتدريبه وتعليمه للفوارس المبتدئين، كما كانوا يؤلفون الكتب العديدة التي تبحث في هذا السلاح وقواعد رميه وأصوله وأجزائه التي يتألف منها، وعمل كل جزء واستخدامه في الميادين وفي ساحات القتال التي تفرض عليه أن يتخذ أوضاعاً مناسبة لكل سلاح، على أن هذا التخصص زاد من المعارف، وأكسب المدربين والمتدربين الدقة والسرعة وأداء الحركات بكل إتقان وفنية عالية[3]، وكان المدرب يتدرج حسب خبرته وتحصيله للعلوم إلى ثلاث درجات الأولى يكون فيها معلماً والثانية أستاذاً، والثالثة رئيساً، ولا يرقى من درجة إلى درجة أعلى إلا إذا حصل على نجاح في الفحص وقدم شيئاً من مؤلفاته وخبرته في العلوم العسكرية[4].

لقد دخل المماليك المعركة بعد إعداد وأخذ بالأسباب وحققوا نصراً ساحقاً على المغول، لقد اتخذ قادة المماليك مجموعة من الإجراءات والأعمال كان الهدف منها التأثير على القوات المغولية في عين جالوت وكان من أهم هذه الإجراءات:

* - **الرد الفوري على الإنذار**: درج المغول خلال حروبهم السابقة على توجيه إنذار قتالي إلى زعيم البلاد أو قادتها يحمله مراسلون يتضمن الأعمال المجيدة التي قام بها الجيش المغولي والبطش الذي استخدمه، والشدة التي عامل بها تلك الجيوش التي

(1) الخطط(2/ 489) معركة عين جالوت، ص: 252.
(2) معركة عين جالوت، ص: 252.
(3) المصدر نفسه، ص: 253.
(4) المصدر نفسه، ص: 254.

تصدت له، مذكراً ما حل بالمعاندين من دمار وخراب ثم يدعوهم إلى الاستسلام والطاعة، فإن أبى الخصم ذلك ابتدأت المعركة على أشدها لا تبقي ولا تذر[1]، أما المماليك فقد كانوا يخشون لقاء المغول، ويتوجسون شراً من الاقتتال معهم، وقبل عين جالوت وصل رسل هولاكو وسلموا الإنذار إلى السلطان قطز زعيم البلاد، وفي هذا الإنذار من الوعد والوعيد، وأهم ما يتضمنه الاستسلام، أو القتال، أو الجلاء عن البلاد[2]، إلا أن القيادة المملوكية ردت على هذا الإنذار بقتل الرسل وإعلان الحرب والاستعداد للمجابهة[3].

* ـ مجلس الحرب: انعقد مجلس الحرب في القوات المسلحة المملوكية مباشرة بعد الإنذار، ويتألف من السلطان القائد الأعلى رئيساً، وعضوية كل من أتابك العساكر وشيخ الإسلام وقضاة الإسلام وأمراء المئين، أي قادة التشكيلات المقاتلة وأعيان المشايخ، ومن مهمته النظر في مشروعية الحرب، وتعبئة الجنود، وإعلان النفير العام والتدريب، وتأمين الأسلحة والذخائر، وتحضير الأموال اللازمة وتعيين أمير التجريدة العام والأمراء الذين بصحبته والذين يشكلون أركان الجيش وقادة التشكيلات[4]، ودارت المناقشة التي كان يرأسها قطز، وكان كل عضو يعبر عن رأيه بكل صراحة ووضوح، وكانت المناقشة جادة ومسؤولة، وانفض المجلس على قرار تاريخي، وتحضير قتالي، واستعداد مع هذا اللقاء الحاسم[5].

* ـ ومن الإجراءات التي تم العمل بها، التحضير والإعداد للحرب، تحشيد الناس، والتوجيهات العملياتية، وتقسيم المحاور القتالية والاهتمام بالطليعة والتحييد والحرص على التفوق الكمي والكيفي والاعتناء والإخفاء والتمويه، واختيار مكان المعركة وزمانها، ومنطقة التمركز، ومخادعة العدو ونصب الكمائن والمطاردة، والتضليل الإستراتيجي، والمحافظة على المقاتل والتقليل من الخسائر، والترتيب القتالي، والتشكيلات القتالية، والقتال الإستراتيجي بالجيوش المتلاقية والبريد الحربي ووسائط الاتصال، ومراعاة ميزان القوى، والتصميم للوصول للهدف، وتحقيق النصر

---

(1) معركة عين جالوت، ص: 301.
(2) المصدر نفسه، ص: 302.
(3) المصدر نفسه، ص: 302.
(4) المصدر نفسه، ص: 302.
(5) المصدر نفسه، ص: 303.

السياسي الذي بدوره يقود إلى النصر العسكري[1]، وغير ذلك من الخطوات المهمة التي ساهمت في تحقيق النصر.

6 ـ **عبقرية التخطيط**: اشتهر قادة المماليك بالقدرة على التخطيط والتنفيذ، ومعرفة قوانين الحرب والمبادئ التي تلعب دوراً هاماً لبلوغ النصر وإذا أمعنا النظر في معركة عين جالوت بصورة خاصة والمعارك التي تلت بصورة عامة لأدركنا تماماً أن قادة الجيش المملوكي كانوا يطبقون هذه المبادئ إلى أبعد الحدود، ولا سيما الظاهر بيبرس الذي اشترك في هذه المعركة بالذات وفي المعارك التي شهدها بنفسه فيما بعد:

أ ـ **الاقتصاد في القوى**: لم يشأ قطز القائد الأعلى للجيش أن يشرك القوى جميعها في معركة عين جالوت، ولكنه كان يقود القوى الرئيسة للجيش، وبيبرس كان يقود الطليعة، وقد اشتبكت الطليعة ـ وهي جزء من الجيش ـ مع حامية غزة[2]، كما اشتبكت القوة الرئيسة هذه مع الجيش المغولي، كما اشتبكت الميمنة مع ما يقابلها وكذلك الميسرة بأعداد تناسب القوة التي كانت تجاهها[3].

وكان قطز حريصاً كل الحرص على أن يوزع قواته بصورة تتناسب مع القوات التي تقاتل ضده من الجيش المغولي، فقد أفرز قوة للمجنبات وأخرى للالتفاف القريب، وثالثة للبعيد، ورابعة للكمين، وخامسة لإعاقة وجذب قوى العدو[4]، وأما بيبرس فقد أظهر براعة حربية في الاقتصاد في القوى في هذه المعركة عندما قاد الطليعة وقاتل وهو في طريقه إلى عين جالوت، ثم في الكمين الذي نصبه للعدو[5]، ثم في المطاردة التي كان فيها هذا المبدأ واضحاً كل الوضوح، إذ أرسل القوى المناسبة على كل محور من المحاور وعلى كل اتجاه سلكته القوات المهزومة من الجيش المغولي[6].

ب ـ **تجميع وحشد الجيوش على الاتجاهات الرئيسة**: لما أراد الجيش المملوكي

(1) معركة عين جالوت، ص: 303 ـ 331.
(2) دائرة المعارف الإسلامية (4/ 363)، معركة عين جالوت، ص: 283.
(3) معركة عين جالوت، ص: 283.
(4) ذيل الزمان، اليونيني (1/ 361)، معركة عين جالوت، ص: 283.
(5) معركة عين جالوت، ص: 283.
(6) المصدر نفسه، ص: 283.

مقابلة الجيش المغولي في معركة عين جالوت جمع سيف الدين قطز الجيش المصري وأرسل إلى الجيش الشامي وحشد الإمكانات المتاحة، وأرسل في القرى والمدن والبادية يحث الميليشيات الشعبية. والتفت هذه التشكيلات جميعاً في أمر المعركة وركزت الجهود الرئيسة نحو تجميع الجيش المملوكي الذي كان يتحرك باتجاه مرج بن عامر، وسار باتجاه الساحل بكتلة واحدة، فوحدة الجيش وقتاله ككتلة واحدة متماسكة يساعد الجيش على تحقيق النصر[1]، وهو ما قد تم في عين جالوت.

جـ - **الضغط على الأعداء**: كان ذلك واضحاً في معركة عين جالوت عندما تصدى قادة الجيش المملوكي لقادة الجيش المغولي وثبتوا ثبوت الرواسي أمامه، وأمام كل عنجهيتهم وإنذارهم، ولما تقابلا لم يصمد الجيش المغولي وخرقت جبهته، وتعقبه الجيش المملوكي، ولم ينفصل عنه أبداً حتى إذا أدركه وضع فيه السيف ولحقه إلى أطراف الشام والبادية[2]، وبدأ الضغط واضحاً في عدة أمور، أهمها: رفض الإنذار وقتل الرسل[3]، والتفوق العددي الذي أوجس منه خيفة قائد الجيش المغولي وتردد كثيراً في طلب المدد ليكون هناك توازن بين الجيشين[4]، وإجبار الجيش المغولي أن يقاتل في مكان غير مناسب والسرعة في التحرك وحسم الأعمال القتالية[5]، والصمود القوي أثناء القتال، فما كانت تفتح ثغرة حتى يبادر قطز إلى صدها، وأهم المواقف الصمودية هو الموقف الذي صمدت فيه الجبهة وبخاصة الميسرة التي كادت أن تتداعى[6]، والهجوم الصاعق الذي أدى إلى سقوط قائد الجيش المغولي وقتله[7]، والمطاردة التي ظل فيها الجيش المملوكي على تماس وضغط على الجيش المغولي الذي هرب وظن بهروبه النجاة، ولكنه كان ملاحقاً كيف اتجه ومطارداً أينما سار[8].

---

(1) معركة عين جالوت، ص: 283.
(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (1/ 29)، معركة عين جالوت، ص: 285.
(3) جامع التواريخ (2/ 313)، معركة عين جالوت، ص: 285.
(4) بدائع الزهور في وقائع الدهور (1/ 305)، معركة عين جالوت، ص: 285.
(5) معركة عين جالوت، ص: 285.
(6) السلوك والمعرفة، نقلاً عن: معركة عين جالوت، ص: 285.
(7) النجوم الزاهرة (7/ 79)، معركة عين جالوت، ص: 285.
(8) جامع التواريخ (2/ 316)، معركة عين جالوت، ص: 286.

د - **تحقيق المفاجأة**: إن المفاجأة قد تمت في هذه المعركة بالإخفاء والتمويه، وبظهور أعداد قليلة من الجيش أمام القوات المغولية في الأراضي السهلية، أمّا قوة الجيش الرئيسة فقد بقيت إلى الخلف وراء التلال والمساتر في مرج ابن عامر، وبصمود الجيش المملوكي وقتاله الذي وضع كتبغا في حيرة وتشكيلة القتال الجديدة، وبنصب الكمائن، وبث الدوريات أمام تقدم القوات المغولية، وبالتطويق الكامل، وبالصمود أمام هجمات المغوليين المتتالية، بقيت المطاردة التي لم تنته إلا بقتل وتشريد المنهزمين وإبادتهم، وبالشدة والتنكيل والقسوة والحزم والبطش الذي لم يكن يتوقعه المغول أبداً، هذه المفاجأة مكنت الجيش المملوكي من تحقيق النصر[1].

هـ - **وضوح الهدف**: كان قطز القائد الأعلى للجيش واضح الهدف، إذ أعلن القضاء على الجيش المغولي وتدميره والانتصار عليه منذ أن أعلن الحرب وقتل الرسل[2]، هذا هو الهدف النهائي الذي سبقه أهداف مرحلية كالتخطيط لهذا القتال، واستخدام الرجال والأسلحة التي تستطيع أن تقضي على العدو وجمع الأموال[3]، والاتفاق مع الصليبيين في عكا على الالتزام جانب الحياد[4].

و - **المناورة بالقوى والوسائط**: وزع قائد الجيش المملوكي القوي الوسائط قبل بدء القتال، وأثناؤه ظهرت ضعف الميسرة، فنقل القوى والوسائط إليها وقواها، وهنا ظهرت عبقرية هذا القائد عندما نقل بعض المجموعات القتالية وسد الثغرة التي أحدثها الجيش المغولي، كما استطاع أن يقود الاحتياطي الموضوع تحت تصرفه ويناور به ليصل إلى قبالة هذا الخرق فيتصدى للقوات المغولية فيوقفها[5]، كما قام بدور مهم عند نقل بعض القطعات من المجنبات لتقوم مع النسق الثاني بالهجوم المعاكس، وفعلاً كانت السرعة مذهلة في المناورة عندما تحرك هؤلاء الجنود وقاموا جميعاً بهجوم مضاد وقضى على الوحدات

---

(1) معركة عين جالوت، ص: 286.

(2) معركة عين جالوت، ص: 287.

(3) أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء (2/ 290 ـ 291).

(4) معركة عين جالوت، ص: 287.

(5) النجوم الزاهرة (7/ 79)، معركة عين جالوت، ص: 288.

والقطعات المغولية التي تسربت خارقة دفاع الجيش المملوكي، وقد ظهرت هذه البراعة أيضاً عندما تلقى قائد الجيش المملوكي معلومات عن قوة العدو وضعفه وأماكن تمركز قوته، فناور بقواته وأعاد تشكيلها، بما يتلاءم مع هذه المعلومات الجديدة[1].

ز - **السرعة في الأعمال القتالية**: تجاوب القائد الأعلى للجيش المملوكي بمجرد سماعه التهديد المغولي وأعلن التعبئة وعقد مجلس الحرب واتخذ إجراءات تحضيرية سريعة، فتحركت القوات مستجيبة لهذا النداء الجهادي لملاقاة العدو وسبقه إلى أرض المعركة المناسبة قبل أن يتحرك الجيش المغولي فيهاجم الديار المصرية، ويغزو المماليك في عقر دارهم، ومن الأهمية بمكان أن نذكر دور قائد الطليعة وسرعته، والتفويت على قائد «الجيش المغولي بيدرا» كل مبادرة مما أتاح لبيبرس أن يقضي على حامية كبيرة متقدمة قرب غزة من جراء السرعة التي قام بها رئيس أركان الجيش المملوكي[2].

ح - **المخابرات العسكرية**: بث قطز العيون واعتمد على الأهالي الذين كانوا يتجاوبون مع طلبات الجيش على حقد من المغول وتصرفاتهم، ولهذا فإن المعلومات كانت تصل تباعاً إلى هيئة أركان الجيش المملوكي، في حين أن الجيش المغولي لم يعتمد كثيراً على الاستطلاع، بل اعتمد على قواته وشدته في الحروب ولم يأبه لما يجري حوله، ولم يقم بإجراءات كشف العملاء والجواسيس الذين كانوا يدخلون معسكراته، ويأخذون منها الأخبار ويوصلونها إلى المماليك[3]، وبالإضافة إلى ذلك فإن بيبرس عندما اصطدم بحامية غزة المغولية استطاع أن يتلقى أخباراً صحيحة عن قوة الجيش المغولي وتحركاته وأسلحته وقادته[4]، وكذلك فإن قادة الجيش المملوكي أرسلوا حراسات متقدمة عبارة عن مخافر تنصت وإنذار من مهامها نقل المعلومات عن الأنساق وعن تحركات الجيش المغولي[5]، وكان من مصادر الاستخبارات المملوكية، عمالٌ

(1) معركة عين جالوت، ص: 288.

(2) المصدر نفسه، ص: 288.

(3) معركة عين جالوت، ص: 289، المغول، للعريني، ص: 259.

(4) تاريخ ابن الوردي (2/ 293)، معركة عين جالوت، ص: 290.

(5) ذيل مرآة الزمان (1/ 366)، معركة عين جالوت، ص: 290.

البريد الذين كانوا يكلفون بمهام مخابراتية بالإضافة إلى نقل البريد الحربي، إن هذا الجهاز كان يتحرى أحوال العدو وإمكاناته ومعرفة البؤر والجهات الخطرة من الداخل والتحري من الأعمال الهدامة، أو الأشخاص الذين يقومون بدور العمالة والتجسس على القوات الصديقة وكان يطلق على رئيس هذا الجهاز «صاحب الخبر والتحري» الذي كان له خبرة واختصاص[1]، إن للاستخبارات دوراً كبيراً في الحروب الماضية والحاضرة في إحراز النصر، ولقد كانت المعلومات التي تلقاها قادة الجيش المملوكي وبنوا قرارهم عليها هذه معلومات صحيحة، فكان القرار سليماً والنصر محققاً[2].

7 ـ **بُعد نظر سيف الدين قطز وسياسته الحكيمة:** شعر قطز قبل أن يستلم السلطنة بالخطر على دولة المماليك، وبخاصة من قبل المغول الذين دخلوا البلاد وأكثروا فيها القتل والعذاب، ولا بد له إزاء هذا الخطر أن يتخذ عدة إجراءات سياسية تضمن له النصر على أعدائه الذين لم يلبثوا إلا أياماً معدودات أو شهوراً حتى يتوجه الجيش المغولي إلى أراضي الشام ومصر، وبدأ التفكك الداخلي واضحاً عند استلام المماليك الأتراك، إذ حكمت امرأة ولم يوافق الخليفة في بغداد على سلطنتها، وتزوجت فيما بعد من عز الدين أيبك لتحصل على الاعتراف الخليفتي.

واحتدم الصراع بينها وبين زوجها أدى إلى قتلهما، واستلم الحكم علي بن أيبك وهو غير قادر على إدارة الحكم لصغر سنه، ولما كان قطز هو نائب السلطان والوصي على الصبي وهو يعلم أنه قادم على معركة فاصلة، أراد لكي تتاح الحرية السياسية والتصرف بالأمور العسكرية والسياسية، أن يتخلص من السلطان الصغير، فاستلم الحكم وهذا إجراء سياسي داخلي، اتخذه هذا السلطان بعد أن استلم البلاد وهو مهم بالنسبة للمعركة القادمة، فقد هرب بعض أمراء المماليك البحرية إلى الملك المغيث صاحب الكرك لما رأو أنهم لا يستطيعون أن يؤثرون على المسيرة التي انتهجها قطز لإصلاح البلاد وتحضيرها، هربوا لكي يجدوا الحليف ضد هذا القائد، وحاولوا القتال وزحفوا نحو مصر في سنة (655هـ / 1257م)، لكن قطز تصدى لهذه المؤامرة وتغلب على الأمراء وأوقع فيهم القتل وردهم على أعقابهم[3]، ولم يمكنهم أبداً من العبث بأمن

---

(1) تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص: 38.

(2) معركة عين جالوت، ص: 291.

(3) النجوم الزاهرة (7/ 45، 46)، معركة عين جالوت، ص: 332.

الدولة وقدرتها وتصديها للعدو المرتقب، المغولي، وظل صامداً يتابع توجيه السياسة وإصلاح البلاد وتخليصها من الفتن والاضطرابات وتوحيد جبهتها الداخلية، حتى إذا اقتربت معركة عين جالوت وازداد الخطر رأى أنه من المناسب إعادة الصف بينه وبين الأمراء الهاربين الذين حاربوه لتجتمع الكلمة وليستفيد من خبرتهم في الحروب وفي قيادة الجيوش[1]، وهكذا كان الإجماع الداخلي على التصدي للعدو المغولي وتوج هذا الإجماع بقرار مجلس الحرب وبحضور جميع الساسة في البلاد، وتحققت الوحدة الداخلية[2]، وبعد ذلك اهتم بالوضع السياسي الخارجي وعمل على تحييد الصليبيين وعقد معاقدة صلح معهم واستفاد من المرور بأراضيهم، ولم يقاتل على جبهتين، وقابل المغول في عين جالوت وانتصر عليهم، واستمرت الأعمال السياسية والإدارية بعد المعركة، فقد أرسل قطز رسلاً إلى بعض الدول يخبرهم فيها عن انتصاره، كما أعلن ذلك على الشعب في مصر والشام. وبذلك ثبت دعائم الأمن والاستقرار السياسي، كما نظم البلاد من الناحية الإدارية، وعين النواب وبسط نفوذه على كل البلاد التي كان يحتلها المغول في الشام[3]. وهذا دليل على بعد نظره وحنكته السياسية.

8 ـ توفر صفات الطائفة المنصورة: لم يظهر سيف الدين قطز من فراغ وإنما سبقته جهود علمية وتربوية على أصول منهج أهل السنة والجماعة، وأصبح ذلك الجيل الذي أكرمه الله بالنصر في معركتي عين جالوت تنطبق فيه كثيراً من صفات الطائفة المنصورة والتي من أهمها:

أ ـ **أنها على الحق:** وللطائفة المنصورة من ملازمة الحق واتباعه ما ليس لسائر المسلمين، وهي إنما استحقت الذكر والنصح وتمسكها بالحق، حين أعرض عنه الأكثرون، ومن الجوانب البارزة في الحق الذي استمسكت به حتى صارت طائفة منصورة ما يلي:

- الاستقامة في الاعتقاد وملازمة ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه مجانبة البدع وأهلها، فهم أصحاب السنة.
- الاستقامة في الهدي والسلوك الظاهر والباطن والسلامة من أسباب الفسق والريبة والشهوة المحرمة.

(1) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص: 264.

(2) معركة عين جالوت، ص: 332.

(3) تاريخ مصر، إسكندر عمون، ص: 196، معركة عين جالوت، ص: 333.

- الاستقامة على الجهاد بالنفس والمال والأمر بالمعروف والنهي على المنكر، وإقامة الحق على العاملين.

ب - **أنها قائمة بأمر الله**: وهذه الخصيصة بارزة جداً في الوصف النبوي لهذه الطائفة، فهم أمة قائمة بأمر الله، وقد قامت دولة سيف الدين قطز بأمر الله، من الإعداد، والتخطيط، والدفاع عن الإسلام والمسلمين.

ج - **أنها تقوم بواجب الجهاد في سبيل الله**: والطائفة المنصورة جاءت الأحاديث النبوية في وصفهم بأنه: «يقاتلون على الحق»[1]، أو «يقاتلون على أمر الله»[2]، وكان سيف الدين قطز وجيشه قاموا بالجهاد الشرعي في سبيل الله وقتال أعداء الله من الكفار وغيرهم[3]، وتحقق نصر الله لهم في معركة عين جالوت.

د - **أنها صابرة**: فقد خصَّ الله الطائفة المنصورة بالصبر، وقد رأيت كيف تسلح سيف الدين قطز وجنوده بالصبر الجميل في جهادهم، ولم تستطع القوة الظالمة أن تخرجهم عن منهجهم وهدفهم الذي يسعون إليه، ولهذا وصف الرسول ﷺ هؤلاء القوم بأنهم: لا يضرهم من كذبهم، ولا من خالفهم، ولا يبالون من خالفهم[4].

وهذه التعبيرات النبوية الكريمة تشير إلى هؤلاء العاملين الذين عرفوا أهدافهم وسلكوا طريقهم فلم ينظروا إلى خلاف المخالفين وعوائق المخزلين ولا تكذيب الأعداء الحاقدين، وكانوا يواجهون كل المتاعب بصبر وثبات ويقين[5]، وهذه الصفات التي جاءت في الأحاديث النبوية لوصف الطائفة المنصورة، قد انطبقت على جيش سيف الدين قطز والمماليك الذين حققوا النصر في معركة عين جالوت، إن الانتساب إلى الطائفة المنصورة ليس شعاراً ولا هو دعوة وإنما هو تحقيق وعمل وتحقيق للصفات الشرعية لهم، وعمل بالواجبات الشرعية عليهم، فمن حقق الصفات وقام بالواجبات كان من الطائفة المنصورة ولو كان وحده[6]،

---

(1) سنن أبي داود، ك الجهاد، رقم: 2484.

(2) مسلم، رقم: 176، الضربات التي وجهت للانقضاض على الأمة، الجندي، ص: 113.

(3) تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين، ص: 473.

(4) رواه سعيد بن منصور، ك الجهاد، رقم: 2376، وله طرق تقوية.

(5) صفة الغرباء، سلمان العودة، ص: 205.

(6) الطائفة المنصورة، سلسلة تصدر عن مجلة اليان، ص: 65.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾ [الصف، الآيات: 2 ـ 4].

9 ـ سنة التدرج ووراثة المشروع المقاوم: قدم أمراء السلاجقة الكثير من أجل دحر الصليبيين، وقد حقق عماد الدين زنكي إنجازاً عظيماً بوضعه لمشروع رائد، ربما رأى الكثيرون ـ في ذلك الوقت ـ استحالة تحقيقه على بساطته، وهو مشروعه الوحدوي التحرري والذي حقق ابنه نور الدين جزأه الأول، وحقق صلاح الدين قسماً مهماً من جزئه الثاني، ولذلك نرى انتصار صلاح الدين في حطين تتويجاً لمشروع عماد الدين الوحدوي التحرري، فلولا الله ثم متابعة نور الدين لخطا والده في توحيد الشام ثم توحيد مصر مع الشام، لما تحقق هذا النصر[1]، الذي تم بفضل الله ثم جهود التوحيد التي قامت على عقيدة الإسلام الصحيحة التي تدعو للوحدة الإسلامية التي لا تفرق بين جنس أو لون، أو طائفة، وإنما جمعتهم الأخوة في الله والتي لم تفرق بين الأتراك والأكراد والعرب والفرس ولا غيرها من الأمم التي انضوت تحت راية الإسلام، قال الشاعر:

ولست أدري سوى الإسلام لي وطناً ... الشام فيه ووادي النيل سيان
وأينما ذكر اسم الله في بلد ... عددت أرجاءه من لب أوطاني

ولقد تفاعلت العوامل التي ساعدت على الوحدة في عهد صلاح الدين مع الزمن والوقت، وخضعت لسنة التدرج وأعطت ثمارها في معركة حطين وتوجت بفتح بيت المقدس، وأصبح المؤمنون بتوادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى[2]، وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها الغزاة من أجل تمزيق أرجاء العالم الإسلامي، فقد نجحوا في تقطيع أراضي المسلمين، ولكنهم لم ينجحوا في تمزيق قلوبهم، وظل المسلم محباً لأخيه المسلم، ولسان حال كل منهم[3] يقول:

أبا سليمان قلبي لا يطاوعني ... على تجاهل أحبابي وإخواني
إذا اشتكى مسلم في الهند أرقني ... وإن بكى مسلم في الصين أبكاني

---

(1) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (2/ 375).
(2) الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم، ص: 23.
(3) المصدر نفسه .

ومصر ريحانتي والشام نرجستي … وفي الجزيرة تاريخي وعنواني
أرى بخارى بلادي وهي نائية … وأستريح إلى ذكرى خراسان
فأينما ذكر اسم الله في بلد … عددت ذاك الحمى من صلب أوطاني
شريعة الله لمت شملنا وبنت … لنا معالم إحسان وإيمان[1]

إن سلاطين المماليك ساروا على نهج عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين وأخلصوا النية لله وحده وجددوا دعوة الجهاد معاً[2]، فهذا سيف الدين قطز بأقواله وأفعاله يبرهن على ذلك، فبعد معركة عين جالوت وقف خطيباً وقال:

لقد صدقتم الله الجهاد في سبيله فنصر قليلكم على كثير عدوكم، إياكم والزهو بما صنعتم، ولكن اشكروا الله واخضعوا لقوله وجلاله إنه ذو القوة المتين، واعلموا أنكم لم تنتهوا من الجهاد وإنما بدأتموه، وإن الله ورسوله لن يرضيا عنكم حتى تقضوا حق الإسلام بطرد أعدائه من سائر بلاده، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله[3].

والواقع أننا إذا تتبعنا أعمال سلاطين دولة المماليك في هذا المجال ندرك أن الدافع الأساسي لهم كان الجهاد في سبيل الله للذود عن ممتلكات المسلمين، ولما كان ذلك لا يتأتى إلا بتوحيد كلمة المسلمين، فإنهم قد سعوا جاهدين لتحقيق ذلك، فبدأوا جهودهم بتجميع الفلول الإسلامية التي فرت من وجه العدوان المغولي وحشدها داخل الأراضي المصرية، وخرج السلطان قطز على رأس تلك الجموع بعد أن غرس فكرة الجهاد في نفوسها وأشعل الحماسة في صفوفها إلى بلاد الشام وتمكن من كسر المغول في عين جالوت التي تعتبر بحق بداية النهاية للوجود المغولي في بلاد الشام، ترتب عليها إعادة الوحدة مرة أخرى بين مصر والشام، ليمهد الطريق لمن أتى بعده من السلاطين لمواصلة الجهاد ضد المغول والصليبيين، ذلك الجهاد الذي كان يعد في نظرهم فرض عين على كل مسلم لا يقل عن كونه ركناً من أركان الإسلام[4]، وخلاصة القول أن سلاطين المماليك استفادوا من الجهود التراكمية التي سبقتهم وبنوا عليها وجددوا الدعوة للجهاد، وتحرير أراضي المسلمين من المشاريع الغازية المغولية والصليبية.

10 ـ الاستعانة بالعلماء واستشارتهم: كانت من القيم الراسخة في دولة

(1) الطائفة المنصورة، سلسلة تصدر عن مجلة البيان، ص: 7.
(2) جهاد المماليك، ص: 289.
(3) من أجل فلسطين، ص: 102.
(4) جهاد المماليك، ص: 290.

المماليك، قيمة العلوم الشرعية وعلماء الدين، فطول أيام الأيوبيين في مصر، ومنذ أن رسخ صلاح الدين المذهب السني في مصر بعد قضائه على الدولة الفاطمية، وقيمة العلماء مرتفعة في أعين الناس والحكام على السواء، حتى أنه لما صعدت شجرة الدر إلى كرسي الحكم، وقام العلماء بإنكار ذلك وكتابة الرسائل المعادية للملكة وتحفيز الناس على رفض هذا الأمر، ما استطاعت شجرة الدر ولا أحد من أعوانها أن يوقفوا هذه الحركة الجريئة من العلماء[1]، وكان من طبيعة العلماء في ذلك العصر النزول في ساحات القتال وتحريض الناس على الجهاد كما حدث في الحملة الصليبية السابعة عام (648هـ)، وكان من أشهر هؤلاء العلماء العز بن عبد السلام، وكان مقرباً ومحبباً لسيف الدين قطز، وأخذ بترشيده وفتاويه، ونفَّذ ذلك وخصوصاً تلك الفتوى الشهيرة المتعلقة بوجود المال اللازم للإعداد لما يلزم الحرب، فعقد سيف الدين قطز مجلساً للمشورة في قلعة الجبل، وحضر قاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري، والشيخ عز الدين بن عبد السلام، وكان السؤال حول أموال العامة ونفقتها في العساكر، فقال ابن عبد السلام: إذا لم يبق في بيت المال شيء وأنفقتم الحوائص الذهبية ونحوها من الزينة، وساويتم العامة في الملابس سوى آلات الحرب، ولم يبق للجندي إلا فرسه التي يركبها، ساغ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء، إلا أنه إذا دهم العدو وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم وأنفسهم[2].

وانقضى الاجتماع، ويفهم مما تقدم أن المسلمين لم يكونوا يوافقون على فعل شيء أو دفع ضريبة إلا إذا أقرها علماء الإسلام، وأصدروا الفتاوى بجوازها، وهذا يعني الخضوع للشريعة، ومن جهة أخرى فإن السلطان ملتزم بما صدر عن إفتاء العلماء، بل راح الأمراء ورجال الدولة يقدمون ما يملكون وأحضروا ما في بيوتهم من حلي نسائهم وأموالهم، وأقسموا لم يتركوا شيئاً، وذلك طواعية دون إرغام أو تهديد وإنما استجابة لرأي الشريعة، ولما كانت هذه الأموال لا تقوم بالمطالب استعان السلطان قطز بالرعية بعد أن تساووا جميعاً، وفرض إجراءات من أجل توفير المال اللازم للحرب، ومن ثم كانت الأموال التي أنفقها المسلمون في حرب التتار في موقعة عين جالوت أموالاً طيبة ساهمت في تحقيق الانتصار[3]، وكان السلطان سيف الدين قطز يحترم

(1) قصة التتار، ص: 360.

(2) الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول، د. فايد، ص: 120.

(3) المصدر نفسه، ص: 121.

ويقدر وينفذ فتاوى العلماء وكان يستعين بهم ويطلب مشورتهم في النوازل وكان العلماء والفقهاء يقومون بدورهم الكبير في توعية الشعب بالأخطار المحيطة به ويحرضون الناس على طلب الشهادة، والاستجابة لنداء الجهاد.

فقد حدث تكامل بين أمراء المماليك والعلماء في مقاومة التتار، فكان ذلك الانسجام والتعاون المستمر من أسباب النصر في عين جالوت، فبين العلماء أحكام الله تعالى في الجهاد، كيف يتعامل مع أموال العامة، حتى تصبح حلالاً لا ظلم ولا عدوان فيها، مع الاستعداد النفسي لدى السلطان قطز في تنفيذ حكم الله وأثر ذلك على شعور الناس بقيمة العدل التي ساهمت في جعل روح جديدة تسري في كيان الشعب تحت قيادة قطز.

11 ـ **الزهد في الدنيا:** لما تحدثنا عن أسباب سقوط الدولة الخوارزمية، ذكرنا منها، حب الدنيا وكراهية الموت، وكيف كان حب الدنيا مهيمناً على القيادة والشعب في ذلك الوقت، وقد دبت الهزيمة النفسية في قلوب المسلمين وتعلقوا بدنياهم الذليلة تعلقاً ورضوا بأن يبقوا في قراهم ومدنهم ينتظرون الموت على أيدي الفرق المغولية، وقد رأينا، محمد بن خوارزم، وجلال الدين بن خوارزم، والناصر لدين الله، والخليفة العباسي المستعصم بالله، وبدر الدين لؤلؤ، والناصر الأيوبي، كيف كانت نهايتهم.

أما قطز وشعبه، فقد فطنوا لهذا المرض، وزهدوا في الدنيا وكان سيف الدين قطز قدوة ومثلاً حياً بين الناس، فقد باع ما يمتلكه ليجهز جيوش المسلمين المتجهة لحرب التتار، ولم يطمع في كرسي الحكم، بل عرض القيادة على الناصر يوسف الأيوبي على قلة شأنه، إذا قبل بالوحدة بين مصر والشام، ولم يطمع في استقرار عائلي أو اجتماعي أو أمن أو أمان، فكرس حياته للجهاد والقتال، على صعوبته وخطورته، ولم يطمع في أن يمتد به العمر، فخرج على رأس الجيوش بنفسه ليحارب التتار في حرب مهلكة، ولا شك أنه يعلم أنه سيكون أول المطلوبين للقتل، ولا شك أنه يدرك كذلك أنه إذا لم يخرج بنفسه، وأخرج من ينوب عنه فإن أحداً لن يلومه؛ لأنه الملك الذي يجب أن يحافظ على نفسه لأجل مصلحة الأمة، لكنه اشتاق بصدق إلى الجهاد، وتمنى الموت بين صليل السيوف وأسنة الرماح فزهد في هذه الدنيا الفانية وكانت حياته تطبيقاً عملياً كاملاً لكلماته[1]، فكانت تلك الكلمات قد سرت روحها في أركان حربه وجنوده وشعبه

---

(1) قصة التتار، ص: 359.

وتحركوا لإحدى الحسنيين فكان النصر الكبير في معركة عين جالوت.

12 ـ صراعات داخل بيت الحكم المغولي: وصلت الأخبار إلى هولاكو بوفاة أخيه الأكبر منكو خان، وتنازع أخويه الآخرين «قوبيلاي» «واريق بوقا» على ولاية عرش المغول فوجد نفسه مضطراً إلى العودة إلى مقره الرئيس مدينة مراغة ليكون قريباً من مجرى الحوادث في منغوليا، ليسهل عليه التحرك إلى منغوليا إذا دعته الحاجة إلى ذلك، وبالرغم من أن هولاكو هو الابن الرابع لتولوي خان من حقه أن ينافس أخويه في تولي ذلك المنصب، غير أنه لم يولي ذلك المنصب اهتماماً، ولعل ذلك راجع إلى ما تهيأ له من النجاح والظفر في إيران والعراق والشام[1]، فضلاً عن خوفه من ازدياد هوة الخلاف وتعقيد الأمور ولكنه في الوقت نفسه كان يرى أن أخاه قوبيلاي أجدر بتولي العرش من أخيه الآخر اريق بوقا، وحرص على أن يحضر الانتخابات ليزكي ترشيح أخاه قوبيلاي خاناً أعظم للمغول ومن ناحية أخرى لا ننسى ما كان من ازدياد العلاقات سوءاً بين هولاكو وأبناء عمومته خانات القبيلة الذهبية «القبجاق»[2]، الذين باتوا يهددون ممتلكاته ـ وهذا صرفه عن مدّ الإمدادات اللازمة للمغول في بلاد الشام، وكذلك لم يستطع قيادة جيش كبير للانتقام من هزيمة معركة عين جالوت ورد الاعتبار والهيبة للمغول ـ إذ أن بركة خان زعيم القبيلة الذهبية كان يميل إلى المسلمين في الوقت الذي كان هولاكو وحاشيته يعملون جاهدين على إرضاء المسيحيين واستمالتهم إليهم، وتطور الأمر ببركة إلى أن اعتنق الدين الإسلامي، وتعرض هولاكو للتقريع والتأنيب من قبله، وصار بركة يتهدده بالانتقام منه بسبب ما اقترفه من مذابح راح ضحيتها ألوف من المسلمين، وما أنزل بهم من دمار وخراب، فضلاً عما تعرض له الخليفة العباسي من الهوان وتجرئه على قتله، لذلك كثيراً ما وقع الاحتكاك بينهما عند جبال القوقاز التي تفصل بين نفوذهما، بل ذهب بركة خان إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث قام باضطهاد القبائل المسيحية التي كانت تسكن تلك المناطق وذلك رداً على ما سلكه هولاكو من سياسة تعسفية تجاه المسلمين بقصد إذلالهم، ويبدو أن هولاكو أراد أيضاً حداً لتصرفات التهكم والانتقام التي مارسها بركة ضده، فحاول أن يفرض سلطانه على

(1) المغول في التاريخ، للصياد، ص: 198.

(2) القبجاق: فرع من الترك مساكنهم الأصلية حوض النهر ارتش وقد تنقلوا حتى استقروا بحوض نهر ارتل "الفلجا" في جنوب روسيا الحالية فعرفت تلك الجهة باسم القبجاق، كما عرفت به أيضاً دولة المغول المسماة القبيلة الذهبية.

الجانب الشمالي لجبال القوقاز، ولكن بركة أعد لذلك الأمر عدته، واستطاعت جيوشه أن تنزل بجيوش هولاكو هزيمة ساحقة[1]، وهناك أسباب أخرى ذكرت في دفع هولاكو للعودة إلى عاصمته بالمشرق، فإن الذي يهمنا قوله هو أن ذلك الحدث المفاجئ كان تحولاً خطيراً، غيّر مجرى سياسة المغول التوسعية التي جعلت هولاكو لم يعد إلى فارس بمفرده، بل عاد ومعه جموع من عساكره[2]، وهذا مما ساهم في تحقيق النصر في معركة عين جالوت.

13 ـ **سنة الله في أخذ الظالمين والطغاة:** قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم، الآية: 42] وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝﴾ [الفجر، الآية: 14] إن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، لقد عاشت التتار في الأرض فساداً، وتحقق لهم الفوز في غالب معاركهم، واجتاحوا الشرق بأكمله، وتصوروا بعد أن سقطت الشام أمام جحافلهم، أنه ليس أمامهم إلا مصر وبعدها يكونون قد ملكوا أزمة الأمور[3]، وقد انتابهم غرور عظيم مع ظلم وطغيان، وانظر إلى ما جاء في رسالتهم لقطز: . . فنحن لا نرحم من بكى، ولا نرفق لمن اشتكى، وقتلنا معظم العباد فعليكم بالهرب، وعلينا الطلب فأي أرض تأويكم، وأي طريق تنجيكم وأي بلاد تحميكم؟ فما من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع[4]. وهذا يعني الغرور الذي لا حد له، وحان وقت الخلاص منهم بقدرة السميع العليم، وأراد أن تكون هزيمتهم بل مصرعهم وإنهاء ملكهم في الشام على يد السلطان سيف الدين قطز[5].

إن الأسباب في انتصار المسلمين في عين جالوت متشابكة ومتداخلة، ويؤثر كل منها في الآخر تأثيراً عكسياً، فالنجاح السياسي يؤثر في الجانب الاقتصادي، ويتأثر به وهكذا. . وما ذكرنا من الأسباب لا يمكننا أن نقول هذه فقط لا مزيد عليها، فقد يأتي غيرنا ويزيد عليها، ومطلوب منا التفكر والتأمل والتدبر لنستخرج الدروس والعبر والسنن

---

(1) جهاد المماليك، ص: 113.
(2) المغول، للعريني، ص: 257، جهاد المماليك، ص: 114.
(3) الطريق إلى بيت المقدس، ص: 141.
(4) السلوك، للمقريزي (1/ 514).
(5) الطريق إلى بيت المقدس، ص: 141.

والقوانين في قيام الدول وسقوطها، وانتصار الشعوب وهزيمتها، ومعرفة صفات قيادة التمكين، وفقهاء النهوض وعوامل صناعة التاريخ لنستخدمها لنصرة الله ﷻ، ودينه القويم قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف، الآية: 111].

سابعاً: نتائج وآثار معركة عين جالوت:

ترتب على انتصار المسلمين على المغول في معركة عين جالوت نتائج وآثار كثيرة منها:

1 ـ **تحرير بلاد الشام من المغول:** كان لوصول خبر انتصار الإسلام في عين جالوت أثر على أهل دمشق وهرب نواب التتار وأصبحت دمشق بدون حكومة لضبط الأمن، وما قام به المسلمون في دمشق من قتل الخونة والعملاء، ومن كاد للإسلام وللمسلمين أثناء وجود حكم التتار للمدينة، لم يكن عملاً متطرفاً أو تعصباً ضد النصارى أو اليهود، بدليل أن العقوبات الشعبية لحقت بكل العناصر حتى المسلمين وكما قال المقريزي: ثار أهل دمشق بجماعة من المسلمين كانوا من أعوان التتار وقتلوهم[1]، وهذا دليل على أن ثورة المسلمين كانت ضد الخونة ومن تعاون مع الأعداء. وهذا الأمر من حق المسلمين هو تأديب من بغى على أهل الإسلام، وبالفعل تمّ تطهير دمشق من المغول وأذنابهم والخونة معهم، وواصل الأمير بيبرس البندقداري مطاردة فلول التتار بعد عين جالوت، واستمر المسلمين في تطهير بلاد الشام وفلسطين وشرق تركيا من المغول، ولم يُسمع عن التتار في هذه المنطقة لعشرات السنين، بعد ذلك، واختفى القهر والظلم والبطش والتشريد، وأمن الناس على أرواحهم وأموالهم وأرضهم وأعراضهم[2].

2 ـ **تحقق الوحدة بين الشام ومصر:** ومن أهم نتائج هذه المعركة، إعادة الوحدة بين شطري الجبهة الإسلامية، مصر وبلاد الشام، وهي الوحدة التي تعرضت لمحنة التمزق والانقسام منذ مقتل الملك المعظم تورانشاه في المحرم سنة (648هـ) والمعلومات التاريخية تفيد أن المظفر قطز كان يدرك أن انتصار المسلمين في عين جالوت لن يؤتي ثماره إلا بتحرير الشام من سيطرة المغول، ومن ثم فإنه جعل هذه الغاية شغله

---

(1) الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول، د. فايد، ص: 122، 123.
(2) قصة التتار، ص: 345، التتار والمغول، د. محمود السيد، ص: 132.

الشاغل، فبمجرد أن تحقق له النصر في عين جالوت، بعث برسالة عاجلة إلى أهل دمشق، يخبرهم ويطمئنهم، وبذل جهده في توحيد الشام بمصر[1]، وعادت الوحدة من جديد، وليس ثمة غير الوحدة من طريق في ماضينا وفي حاضرنا، إنه السير على منهج قادة الجهاد، كعماد الدين ونور الدين وجاء صلاح الدين وبنى على جهدهم انتصاراته الحاسمة ضد الصليبيين وحرر القدس، وها هي معركة عين جالوت تشد الآصرة مرة أخرى وتمنح المسلمين الأرضية التي سيتحركون عليها عبر العقود القادمة لمجابهة الخصوم، ودفعهم إلى إحدى اثنتين، الإذعان لكلمة الإسلام، أو العودة من حيث جاؤوا.

لقد ملأت المعركة الفراغ المخيف الذي كان يمكن أن يتمخض عن سقوط الخلافة العباسية وتفتت الدويلات الإسلامية كالزنكية والأيوبية والخوارزمية، والسلاجقة، فأتاحت للقيادة المملوكية الشابة أن تقوم بتوحيد الشام ومصر[2].

3 ـ **خمود القوى المناوئة للمماليك:** قضى المماليك على ما تبقى من الأيوبيين الذين كانت لهم بعض الزعامات داخل المملكة، فقد أرسل السلطان بيبرس في ربيع الآخر سنة (659هـ/ شباط 1260م) جيشاً إلى الشوبك فاحتلها[3]، وبعد عدة أشهر أرسل جيشاً آخر إلى الكرك لإظهار قوته[4]، وفي شهر ربيع الآخر سنة (661هـ/ شباط1262م) توجه الملك الظاهر إلى دمشق وأرسل في طلب المغيث ملك الكرك في حيلة استطاع على أثرها أن يقبض عليه ويسجنه في سجن القاهرة ثم قتله[5]، وسار بنفسه إلى الكرك مع جيش يحتوي على جميع صنوف الأسلحة بما فيها الصناع والوحدات الفنية والهندسية وضرب الحصار على المدينة، فاستسلمت وأعادها إلى حكم المماليك[6]، وقد حدثت ثورات في الكرك ضد الحكم المملوكي استطاع الظاهر القضاء عليها، ولم يكتف الظاهر بملاحقة الأيوبيين وسلاطينهم، بل طاردهم وتعقَّب

---

(1) الجبهة الإسلامية، د.حامد غنيم، ص: 424، دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، د.نعمان جبران، ص: 278.

(2) دراسات تاريخية، ص: 91.

(3) الروض الزاهر، ص: 48، معركة عين جالوت، ص: 394.

(4) معركة عين جالوت، ص: 394.

(5) المصدر نفسه، ص: 394، ذيل مرآة الزمان (2/ 300).

(6) معركة عين جالوت، ص: 395.

فلولهم حتى على مستوى جندي في القوات المسلحة، وذلك بتسريح كل أمراء وضباط وجنود وخدم الأيوبيين، وذلك اعتقاداً منه في توظيف الجيش، وجعله مختصراً فقط على أولئك الضباط والجنود الموالين، فأحال على التقاعد الجندي فخر الدين، وتخلص من الأمير سيف بن نجم الأيوبي[1]، وضايق على الدولة البدرية التي كانت تقع في الجزء الشرقي من سوريا، وتضم الموصل، والجزيرة ونصيبين وماردين، وكان على الموصل الملك الصالح ابن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ، وفي نهاية المطاف قضى الملك الظاهر بيبرس على الدولة البدرية وضمها إلى الدولة المملوكية، وضغط الجيش المملوكي بشدة على قوى الإسماعيلية الذين كانوا يسكنون في مصياف المنطقة الغربية في حمص وحماه، وكانت هذه المنطقة تتميز بالقلاع والحصون، وقبل أن يتهيأ الإسماعيليون للحرب فاجأهم بيبرس بهجوم استولى في نهايته على مصياف، ثم توالت هجماته حتى استولى على قلاعها، وانتصر عليهم انتصاراً ساحقاً[2].

4 ـ **انتصار الإسلام على الوثنية**: ليس من المبالغة القول إن عين جالوت شهدت معركة حاسمة على المستويات العسكرية، والسياسية والعقيدية والحضارية عموماً، لقد كان انتصار المسلمين يعني انتصار الإسلام على الوثنية، والتحضر على الجاهلية، والقيم على الانفلات[3].

وفي معركة عين جالوت نشهد المعادلة الواضحة التي لا تمنح جوابها العادل إلا إذا تجمع طرفاها في تكافؤ مقابل، الأخذ بالأسباب، والإيمان الواثق العميق بالله، وبعدالة القضية التي يجاهد المسلمون من أجلها، وبدون تحقق هذا التقابل، فلن يكون نصر أو توفيق، ولن يحتاج الأمر إلى مزيد شواهد أو نقاش، فإن مجرى التاريخ الإسلامي الطويل يعرض علينا عشرات بل مئات وألوفاً من الشواهد على هذا الذي تعرضه علينا واقعة عين جالوت[4]، وهذه شهادة المؤرخ الإنجليزي المعاصر «ستيفن رنسيمان» في كتابه تاريخ الحروب الصليبية يقول: تعتبر معركة عين جالوت من أهم المعارك الحاسمة في التاريخ، ومن المحقق لو أن المغول عجلوا بإرسال جيش كبير عقب وقوع الكارثة لتيسَّر تعويض الهزيمة، غير أن أحكام التاريخ حالت دون نقض ما يتخذ في عين جالوت من قرار، فما

---

(1) معركة عين جالوت، ص: 396.

(2) المصدر نفسه، ص: 396.

(3) دراسات تاريخية، ص: 89.

(4) المصدر نفسه، ص: 90.

أحرزه المماليك من انتصار أنقذ الإسلام من أخطر تهديد تعرض له، فلو أن المغول توغلوا إلى داخل مصر لما بقي للمسلمين في العالم دولة كبيرة شرقي بلاد المغرب، ومع أن المسلمين في آسيا كانوا من وفرة العدد ما يمنع من استئصال شأفتهم، فإنهم لم يعودوا يألفون العنصر الحاكم ولو انتصر كتبغا المسيحي، لازداد عطف المغول على المسيحيين، ولأصبح للمسيحيين في آسيا السلطة لأول مرة منذ سيادة المحن الكبيرة في العصر السابق عن الإسلام[1]، لقد كانت موقعة عين جالوت أول صدمة في الشرق لجيوش المغول وخاناتهم الذين ظن المعاصرون أنهم قوم لا يغلبون[2].

5 ـ **حدث حاسم في تاريخ البشرية:** إن انتصار المسلمين في معركة عين جالوت وما أعقبه من طرد المغول نهائياً من بلاد الشام يعتبر بحق من الحوادث الحاسمة ليس في تاريخ الشام ومصر فحسب، ولا في تاريخ الأمم الإسلامية بمفردها وإنما في تاريخ العالم بأسره، إذ أن ذلك الانتصار العظيم لم ينقذ العالم الإسلامي وحده، بل أنقذ العالم الأوروبي والمدينة الأوروبية من شر ذلك الغزو، فلو تم للمغول اكتساح الأراضي المصرية والنفاذ إلى الشمال الأفريقي لتمكنوا بسهولة من سلوك الطريق التقليدي إلى أوروبا عبر صقلية وجبل طارق، لذا فإنه لا يختلف اثنان في أن هذه المعركة تفوق في أهميتها المعارك الحربية الحاسمة في العصور الحديثة[3].

6 ـ **روح جديدة في الأمة:** كان لانتصار المسلمين في معركة عين جالوت من العوامل التي ساهمت في انتشار الإسلام وقتئذ،فقد بعث هذا الانتصار روحاً جديدة في المسلمين لا سيما مسلمي فارس الذين ارتفعت روحهم المعنوية، وأخذوا يصمدون أمام مناورات المسيحيين وينافسونهم في تبوء مركز الصدارة في دولة المغول في إيران، وصاروا يشرحون للمغول تعاليم الدين الإسلامي حتى كللت متاعبهم بنجاح باهر، أثمر اعتناق المغول في غرب آسيا الدين الإسلامي، بعد أن ثبت لهم صلاحيته لكل زمان ومكان وشموله لكل نواحي الحياة من خلال معاشرتهم لأهله، ولبعده كل البعد عن الخلافات الجوهرية التي ابتلى بها الدين المسيحي، وذلك لكون الإسلام خاتم الأديان تكفل الله بحفظه إلى أن يرث الأرض ومن عليها[4].

---

(1) دراسات تاريخية، ص: 4، عين جالوت، فتحي شهاب الدين، ص: 34.

(2) نهر التاريخ الإسلامي، ص: 456.

(3) جهاد المماليك، ص: 356، مصر في العصور الوسطى محمود محمد، ص: 246.

(4) المصدر نفسه، ص: 357.

وسيأتي الحديث عن دخول المغول في الإسلام مفصلاً بإذن الله تعالى في كتابنا القادم عن الملك الظاهر بيبرس.

7 ـ **انحسار المد المغولي:** بعد هزيمة عين جالوت حاول المغول عدة محاولات لاستعادة مجدهم، ورد اعتبارهم، وإرجاع سمعتهم الحربية التي تلطخت بالعار مع الجيش المملوكي، فقد شنوا عدة غارات وسيّروا الحملات العسكرية لكي ينالوا من المماليك، فالحقد يملأ قلوبهم، والانتقام يتميز غضباً في نفوسهم، إنهم كانوا أقوى جيوش العالم، والآن أصيبوا بالضعف والوهن وزالت هيبتهم[1]، واستطاع المسلمون أن يتغلبوا في عين جالوت على الهزيمة النفسية التي كانوا يعانون منها، وخرجوا من الإحباط الشديد، وعلموا أن الأمل في الله لا ينقطع أبداً، وأنه مهما تعاظمت قوة الكافرين فإنها بلا شك إلى زوال[2]، قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝﴾ [آل عمران، الآيتان: 196، 197].

8 ـ **فشل التحالف بين الصليبيين والتتار:** ترتب على انتصار المماليك في عين جالوت أن ضعف أمل الصليبيين في التعاون مع المغول ضد المسلمين وذلك بسبب ظهور قوة دولة المماليك الإسلامية التي تمكنت من إبعاد الخطر المغولي إلى حدود العراق، بل حاول المماليك غزو العراق واستخلاصه من التتار[3].

9 ـ **إضعاف الوجود الصليبي:** كان لانتصار المماليك في معركة عين جالوت دور كبير في إضعاف بقايا الوجود الصليبي على ساحل بلاد الشام، فالذي لا شك فيه أن الصليبيين أصيبوا بخيبة أمل كبيرة بعد ذلك النصر العظيم والذي حققه المسلمون ضد المغول في هذه المعركة، فسارع زعماؤهم ـ بعد أن أدركوا أن نهايتهم آتية لا محالة ـ بالتقرب إلى السلطان بيبرس، وطلب مراحمه، فعقد معهم معاهدات أملى شروطها بنفسه، وقام في الوقت نفسه بإبرام سلسلة من المعاهدات والاتفاقات الودية مع الدول الأجنبية القريبة من بقايا الصليبيين في بلاد الشام، وتمكن من إحكام العزلة على الصليبيين وذلك بحرمانهم من أي معونة خارجية، الأمر الذي عجل باقتلاع جذورهم نهائياً من ساحل بلاد الشام[4].

---

(1) معركة عين جالوت، ص: 381.

(2) قصة التتار، ص: 344.

(3) الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول، د. فايد، ص: 126.

(4) جهاد المماليك، ص: 357، المظفر قطز، العسيلي، ص: 126.

10 ـ مدينة القاهرة: لم تقتصر عين جالوت على النواحي السياسية بل تعدت إلى النواحي الحضارية، حيث جنبت مصر ويلات الغزو المدمر للقاهرة، لما تعرضت له بغداد ودمشق، وغيرهما من مدن إيران والعراق والشام من الخراب والدمار الذي عطل ما كانت تزخر به هذه المدن الإسلامية من الآداب والعلوم والفنون والمعالم الحضارية، وبقيت القاهرة مكاناً هادئاً آمناً يهرع إليه العلماء والأدباء والفنانون، حتى اكتسبت عاصمة المماليك مكانة ممتازة في هذا المجال إلى جانب مكانتها السياسية، التي برهنت على ما اكتسبه المماليك المسلمون من هيبة وقدرة في شؤون السياسة والحرب، واتضحت في علاقاتهم الخارجية والدولية الواسعة الانتشار وفي إصلاحاتهم وإداراتهم الداخلية الحازمة[1].

11 ـ ميلاد دولة المماليك الفتية: في الوقت الذي كانت قوات الحملة الصليبية السابعة تنزل على شاطئ البحر المتوسط أمام دمياط، كانت جحافل التتار بقيادة هولاكو تطوي بلدان المشرق الإسلامي، وتقترب من عاصمة الخلافة العباسية الواهنة في بغداد، وإذا كانت انتصارات المماليك في المنصورة وفارسكور سنة (648هـ/ 1250م) هي صرخة الميلاد للدولة المملوكية، فإن معركة عين جالوت ـ التي حسرت المد المغولي ـ كانت تأكيداً للدور التاريخي الذي ينتظر دولة سلاطين المماليك، وهو دور القوة الضاربة المدافعة عن العالم الإسلامي[2]، وتمكنت الدولة الجديدة ـ بقيادة السلطان الظاهر بيبرس ـ أن تغير مصير المنطقة في أكثر من اتجاه إذ طاردت فلول المغول وقضت على بقايا الأيوبيين، كما أحاطت بالمستوطنات الصليبية من كل اتجاه، وعلى الرغم من الضجة التي أحدثها المغول في تاريخ المنطقة إلا أن خطرهم على العالم الإسلامي لم يكن كبيراً مثل خطر الصليبيين الذين كان الصراع ضدهم صراع وجود، ويتأكد هذا الفرض من خلال الحقيقة القائلة: أن المغول الذين غزو المشرق الإسلامي لم يلبثوا أن اعتنقوا الإسلام، وصاروا من أكثر المدافعين عنه حماسة بعد جيلين فقط من هزيمة عين جالوت.

12 ـ الدور الرمزي للخلافة العباسية: تأكد الدور الرمزي والعاطفي للخلافة العباسية، فقد كان إحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة (659هـ/ 1261م) بمثابة الحل

---

(1) جهاد المماليك، ص: 357.

(2) ماهية الحروب الصليبية، ص: 192.

السعيد الذي وجده السلطان الظاهر بيبرس لإضفاء الشرعية على دولته العسكرية التي قامت بدور هائل في تصفية الوجود الصليبي، وقد أثبتت الأحداث طوال عصر سلاطين المماليك أن الخلفاء العباسيين في القاهرة لم يكن لهم من الخلافة سوى اسمها، كما تحددت إقامة معظمهم بحيث كانت أقرب إلى الاعتقال[1].

13 ـ تطوير الجيش المملوكي وتحديث عتاده وأنظمته: ازداد حجم الجيش بعد معركة عين جالوت وتعددت تشكيلاته القتالية، ففي أعقاب المعركة وفي زمن الملك الظاهر كان هناك ثلاث جيوش، أحدهما في مصر، وثانيهما في دمشق، وثالثهما في حلب.

ولقد أطلق على الجيش الذي يقوده القائد الأعلى جيش الزحف، ويبلغ عدده أربعين ألف مقاتل، وبلغت إحدى التجريدات في عهد الملك الناصر مائة وخمسين ألف مقاتل، ثم تطور هذا الجيش فأصبح يضم قوات مركزية في مصر وقوات احتياطية ودخل في قوامه جيوش القبائل العربية والتركمان والأكراد، ووصل حجمه إلى ثلاثمائة وسبعة وخمسين ألفاً، وكذلك فإنه طرأ تطوير كبير على نوعية الأسلحة والاختصاصات المتعددة في الجيش، وتم بناء الجسور والقناطر والترع، كما كان سلاح النفط والنيران في مقدمة الأسلحة التي أصابها التطوير، إذ تنوعت المواد الخارقة واستخدمت على نطاق واسع وغير ذلك من أنواع الأسلحة.

هذه أهم نتائج وآثار معركة عين جالوت على العالم الإسلامي والإنسانية.

---

(1) ماهية الحروب الصليبية، ص: 193.

الخلاصة

وبعد هذا ما يسَّره الله لي من جمع وترتيب وتحليل تضمنتها فصول هذا الكتاب الذي سميته «المغول عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار» وهو حلقة مهمة فى موسوعة الحروب الصليبية، والتي صدر منها: السلاجقة، وعصر الدولة الزنكية، وصلاح الدين الأيوبي، والأيوبيون بعد صلاح الدين.

وقد اهتم الكتاب بالوقوف على أسباب سقوط الدول، كالذي حدث في الدولة الخوارزمية وشرح أسبابها والتي كان من أهمها: فشل الدولة الخوارزمية في إيجاد تيار حضاري، وكره الشعب لنظام الحكم وعدم ولائه له، والنزاع الداخلي في الأسرة الحاكمة، وضعف النظام الحربي، وحب الدنيا وكراهية الموت، وترك الاتحاد والوقوع في ظلم العباد، وأنانية محمد علاء الدين الخوارزمي وهزيمته النفسية، وشخصية جلال الدين منكبرتي، وقصر نظر الخليفة العباسي الناصر لدين الله، كما كانت هناك وقفات تحليلية في أسباب زوال الدولة العباسية والتي كان من أهمها: غياب القيادة الحكيمة، وإهمال فريضة الجهاد، وانعدام الوحدة السياسية، وضعف الجيش العباسي، وضعف عصبية الدولة، وضعف قيمة العهود ضعف همم ملوك الأطراف، وتنازلات سياسية دلت على الوهن العباسي، وتعدد مراكز القوى واحتلال خطوط الدفاع الأولى، ودور النصارى في سقوط الدولة العباسية، ودور المسلمين في إسقاط الدولة العباسية وإبعاد الكفاءات النادرة ومنافسة العلويين، والترف وأثره في زوال الدولة العباسية والوصول إلى آخر نقطة من الانحلال والتدهور، وتدهور الأوضاع الاقتصادية، والصراع الداخلي في بغداد، وخيانات الشيعة: كالوزير ابن العلقمي، وتمرس فرسان التتار وقوة الإمبراطورية المغولية.

كما اهتم الكتاب بجهود المماليك في التصدي للمشروع المغولي، وأنصفهم، وترجم لسيف الدين قطز ترجمة مفصلة، اهتمت بفقهه في إدارة الصراع مع المشروع المغولي، ووقفت مع أسباب انتصار المسلمين في عين جالوت مع نوع من التحليل،

واستخراج السنن، واستلهام العبر والدروس، والتي كان من أهمها؛ القيادة الحكيمة، ووضوح الرؤية والهدف، ونقاء الهوية والحرص على الشهادة، وعدم موالاة أعداء الأمة وتوسيد الأمر إلى أهله، والجيش القوي، وإحياء روح الجهاد والأخذ بسنة الأسباب، كملازمة التدريب العقائدي مع التدريب القتالي، والتدريب بشكل متواصل وعبقرية التخطيط، وبعد نظر سيف الدين وسياسته الحكيمة، وتوفر صفات الطائفة المنصورة في الجيش المملوكي، وسنة التدرج ووراثة المشروع المقاوم، والاستعانة بالعلماء واستشارتهم، والزهد في الدنيا وصراعات داخل بيت الحكم المغولي، وسنة الله في أخذ الظالمين والطغاة.

سنواصل بإذن الله تعالى دراسة عهد المماليك دراسة شاملة، وسيلحق هذا الكتاب بعض الكتب، حتى نغطي عهد المماليك بإذن الله تعالى.

فما كان في هذه المباحث من صواب فهو محض فضل الله علي فله الحمد والمنة، وما كان فيه من خطأ فأستغفر الله تعالى، وأتوب إليه، والله بريء منه، وحسبي أني كنت حريصاً أن لا أقع في الخطأ وعسى أن لا أحرم الأجر، وأدعو الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب إخواني المسلمين، وأن يذكرني من يقرؤه في دعائه، فإن دعوة الأخ لأخيه في ظهر الغيب مستجابة إن شاء الله تعالى، وأختم هذا الكتاب بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر، الآية:10] ويقول الشاعر الذي عاصر عهد المماليك (ابن الوردي):

واتق الله فتقوى الله ما	جاوزت قلبَ امرئ إلّا وصل
ليس من يقطع طرقاً بطلاً	إنما من يتقِ الله البطل
واهجر الخمرة إن كنت فتىً	كيف يسعى في جنون من عقل
صدِّقِ الشرع ولا تركن إلى	رجل يرصد بالليل زحل
حارت الأفكار في قدرة من	قد هدانا سُبُلنا عز وجل
كتب الموت على الخلق فكم	فلَّ من جمع وأفنى من دول
أين نمرود وكنعان ومن	ملك الأمر وولّيَ وعزل
أين عادٌ أين فرعون ومن	رفع الأهرام من يسمع يخل
أين من سادوا وشادوا وبنوا	هلك الكلُّ ولم تغن القلل
أين أرباب الحجا أهل النّهى	أين أهل العلم والقوم الأول

سـيـعـيـد الله كـلاً مـنـهـم ... وسـيـجـزي فـاعـلاً مـا قـد فـعـل
أيْ بـنـي اسـمـع وصـايـا جـمـعـت ... حـكـمـاً خُـصَّـت بـهـا خـيـر الـمـلـل
اطـلـب الـعـلـم ولا تـكـسـل فـمـا ... أبـعـد الـخـيـر عـلـى أهـل الـكـسـل
واحـتـفـل لـلـفـقـه فـي الـديـن ولا ... تـشـتـغـل عـنـه بـمـال أو خَـوَل
واهـجـر الـنـومَ وحـصِّـلـه فـمـن ... يـعـرف الـمـطـلـوب يـحـقـر مـا بـذل
لا تـقـل قـد ذهـبـت أربـابـه ... كـل مـن سـار عـلـى الـدرب وصـل
فـي ازديـاد الـعـلـم إرغـام الـعِـدى ... وجـمـال الـعـلـم يـا صـاحِ الـعـمـل
أنـا لا أخـتـار تـقـبـيـلَ يـدٍ ... قـطـعـهـا أجـمـل مـن تـلـك الـقـبـل
واتـرك الـدنـيـا فـمـن عـادتـهـا ... تـخـفـض الـعـالـي وتـعـلـي مـن سـفـل
قـيـمـة الإنـسـان مـا يـحـسـنـه ... أكـثـر الإنـسـان مـنـه أو أقـل
إن نـصـف الـنـاس أعـداء لـمـن ... ولـي الأحـكـام هـذا إن عـدل
قـصِّـرِ الآمـال فـي الـدنـيـا تـفـز ... فـدلـيـل الـعـقـل تـقـصـيـر الأمـل
غِـبْ وزُرْ غـبّـاً تـزد حـبـاً فـمـن ... أكـثـر الـتـرداد أضـنـاه الـمـلـل
حـبـك الأوطـان عـجـز ظـاهـر ... فـاغـتـرب تـلْـقَ عـن الأهـل بـدل
فـبـمـكـثِ الـمـاء يـبـقـى آسـنـاً ... وسُـرى الـبـدرِ بـه الـبـدر اكـتـمـل[1]

«سبحانك اللّهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك»

(1) ديوان ابن الوردي، ص: 277 إلى 280.

29 ـ السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقريزي، تحقيق محمد مصطفى زيادة، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، 1971م، دار الكتب القاهرة، 1972م.

30 ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، ابن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن يوسف.

31 ـ نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد عبد الوهاب النويري، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1395هـ

32 ـ الجواري والغلمان في مصر في العصرين الفاطمي والأيوبي، نجوى كمال كيرة، مكتبة زهراء الشرق القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 2007م.

33 ـ كنز الدرر وجامع الغرر، أبو بكر بن عبد الله الدواداري، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة، 1961م.

34 ـ مذكرات جوانفيل، جان جوانفيل، ترجمة د.حسن حبشي، دار المعارف، مصر، 1968م.

35 ـ الحروب الصليبية بين الشرق والغرب، د.محمد مؤنس عوض، الطبعة الأولى، 1999 ـ 2000م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

36 ـ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، لأحمد إبراهيم الحنبلي، مكتبة الثقافة الدينية، طبعة سنة، 1996م ـ 1415هـ

37 ـ في تاريخ الأيوبيين والمماليك، قاسم عبده قاسم، طبعة 2007م، مزيدة ومنقحة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

38 ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور، ابن أبي أياس أبي البركات الناصري محمد بن أحمد بن إياس الحنفي الطبعة الأولى، 1975م.

39 ـ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي القاهرة الطبعة، 1958م.

40 ـ الدولة الأيوبية تاريخها السياسي والحضاري، د. عرب دعكور، دار المواسم طبعة سنة، 2006م، بيروت لبنان.

41 ـ في التفسير الإسلامي للتاريخ، نعمان السامرائي، مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى، 1406هـ/ 1995م.

42 ـ أيعيد التاريخ نفسه، محمد العبده، الطبعة الثالثة، 1419هـ ـ 1999م.

43 ـ هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، د. ماجد عرسان الكيلاني، الدار السعودية للنشر والتوزيع الطبعة الأولى، 1405هـ/ 1985م، جدة.

44 ـ الجبهة الإسلامية لمواجهة المخططات الصليبية، جبهة الشام وفلسطين ومصر، د. ماجد غنيم أبو سعيد، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، 1428هـ/ 2007م.

45 ـ السنن الإلٰهية، د. عبد الكريم زيدان، دار الرسالة.

46 ـ الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، د. علي محمد الصَّلَّابي، دار المعرفة، بيروت، لبنان الطبعة الأولى، 1426هـ/ 2005م.

47 ـ التفسير الكبير لفخر الدين الرازي.

48 ـ الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الخامسة، 1417هـ/ 1996م.

49 ـ رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لابن تيمية.

50 ـ تفسير الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، إدارة الطباعة بالهند، بدون ذكر سنة الطبع.

51 ـ في التأصيل الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل.

52 ـ نظام الحكم في الإسلام بين النظرية والتطبيق، د. أحمد عبد الله مفتاح، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

53 ـ صحيح البخاري، عبد الله بن محمد بن إسماعيل البخاري اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الرياض 1419هـ/ 1998م.

54 ـ الضعف المعنوي وأثره في سقوط الأمم، د. حمد بن صالح السحيباني، كتاب المنتدى، الطبعة الأولى، 1423هـ/ 2002م.

55 ـ دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية، د. آسيا سليمان نقلي، مكتبة العبيكان الطبعة الأولى، 1423هـ/ 2002م.

56 ـ تاريخ مصر الإسلامية، زمن سلاطين بني أيوب د. أحمد فؤاد سيد، مكتبة مدبولي القاهرة، 2002م.

57 ـ صلاح الدين الأيوبي للصَّلَّابي، دار المعرفة، الطبعة الأولى، 1429هـ/ 2008م.

58 ـ السلاطين في المشرق العربي، معالم دورهم السياسي والحضاري، د. عصام

محمد شباور، دار النهضة العربية طبعة 1994م.

59 ـ شجرة الدُّر قاهرة الملوك، نور الدين خليل دار الكتب المصرية.

60 ـ موسوعة تاريخ مصر، لأحمد حسين.

61 ـ شجرة الدُّر، د. يحيى الشامي، دار الفكر العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 2004م.

62 ـ ولاية المرأة في الفقه الإسلامي، إعداد حافظ محمد أنور، دار بلنسية، السعودية.

63 ـ تدوين الدستور الإسلامي، أبو الأعلى المودودي.

64 ـ جامع البيان، للطبري، محمد بن جرير الطبري، المكتبة التجارية، مكة المكرمة 1408هـ

65 ـ قيام دولة المماليك الأولى، للعبادي، أحمد مختار العبادي، طبعة 2002م، مؤسسة شباب الجامعة.

66 ـ العدوان الصليبي على بلاد الشام، د. جوزيف نسيم دار النهضة عام، 1981م بيروت.

67 ـ العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية، د. منذر الحايك، الطبعة الأولى، 2006م، الأوائل دمشق سوريا.

68 ـ معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، د. يوسف حسن غوانمة، الطبعة الأولى، 1415هـ/ 1995م، دار الفكر.

69 ـ تاريخ القبائل العربية، محمود السيد، مؤسسة شباب الجامعة.

70 ـ تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء، يوسف العظم.

71 ـ سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة، 1990م بيروت، لبنان.

72 ـ نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، لصارم الدين إبراهيم بن محمد بن أبدر العلائي الملقب بأبي دقماق، دراسة وتحقيق سمير طبارة، المكتبة العصرية لبنان.

73 ـ التحفة الملوكية في الدولة التركية بيبرس المنصوري، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، 1407هـ/ 1987م.

74 ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد دار ابن كثير دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، 1412هـ/ 1991م.

75 ـ المغول، د. السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1406هـ/ 1986م.

76 ـ سقوط الدولة العباسية، د. سعد الغامدي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1401هـ/ 1981م.

77 ـ العالم الإسلامي والغزو المغولي، إسماعيل الخالدي مكتبة صلاح الدين، مكتبة الفلاح الكويت، الطبعة الأولى، 1404هـ/ 1984م.

78 ـ الحياة السياسية في العراق، د. محمد صالح القزاز، مطبعة القضاء في النجف، 1970م.

79 ـ المغول في التاريخ، للدكتور الصياد، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.

80 ـ البداية والنهاية للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير القرشي، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية الإسلامية بدار هجر طبعة أولى.

81 ـ الدعوة إلى الإسلام، أرنولد.

82 ـ المغول والأوروبيون والصليبيون، محمود عمران، دار المعرفة الجامعية، قناة السويس، مصر طبعة، 2005م.

83 ـ سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث، تحقيق: عزت عبيد الدعاس، حمص، الناشر: محمد السيد.

84 ـ فتح القسطنطينية، ترجمة الدكتور حسن حبشي.

85 ـ تفسير ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تحقيق عبد العزيز غنيم، ومحمد أحمد عاشور ومحمد إبراهيم مطبعة الشعب، القاهرة، مصر.

86 ـ تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، د. شوقي.

87 ـ مختصر صحيح مسلم، للحافظ المنذري.

88 ـ الغزو المغولي لديار الإسلام، الفريق ركن، د. محمد فتحي أمين، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1408هـ/ 1988م.

89 ـ جنكيز خان، العقيد محمد أسد الله، دار النفائس.

90 ـ حروب المغول، د. أحمد حطيط، دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى، 1994م.

91 ـ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي، د. عبد الجبار ناجي، صلاح

عبد الهادي، د. إسماعيل النعيمي، د.مهين مجيد، مركز الإسكندرية للكتاب طبعة، 2003م.

92 ـ تاريخ المغول، عباس إقبال.

93 ـ دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية ج 7، العدد الرابع في 137 مادة جنكيز خان المغول، 343.

94 ـ العرب والتتار، إبراهيم أحمد العدوي، المكتبة الثقافية، القاهرة، 1963م.

95 ـ تاريخ الأدب في إيران من الفردوس إلى السعدي ترجمة إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواري القاهرة، 1373هـ/ 1954م.

96 ـ تاريخ العراق بين احتلالين، عباس العزاوي بغداد 1353هـ/ 1935م.

97 ـ قضايا العالم الإسلامي ومشكلاته النبراوي، محمد نصر مهنا، منشأة المعارف الإسكندرية، الطبعة، 1983م.

98 ـ الدولة الخوارزمية، د. نافع العبود.

99 ـ معجم البلدان، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، بيروت، دار صادر، 1979م.

100 ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جمال الدين محمد سالم بن واصل.

101 ـ الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي دار الفكر العربي.

102 ـ الأتراك الخوارزميون، صبري سليم، مكتبة الثقافة الدينية، مصر طبعة، 1419هـ/ 2000م.

103 ـ دولة السلاجقة، حسنين عبد المنعم مكتبة الأنجلو، 1975م.

104 ـ السلاجقة في التاريخ والحضارة، أحمد حلمي، دار السلاسل، الكويت، الطبعة، 1406هـ/ 1986م.

105 ـ العبر في أخبار من غبر، للذهبي.

106 ـ الكامل في التاريخ، لابن الأثير، بيروت، دار الكتاب العربي، دار صادر، سنة 1979.

107 ـ عودة الروح للخلافة الإسلامية، د.محمد صالح محيي الدين، دار طويق، السعودية، الطبعة الأولى، 1425هـ/ 2004م.

108 ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الطبعة

الثانية، سنة 1959م.

109 ـ تاريخ مختصر الدول، الطبعة الثانية، المطبعة الكاثوليكية بيروت، سنة 1308هـ/ 1890م.

110 ـ سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، محمد أحمد النسوي، تحقيق حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، مصر، سنة 1953م.

111 ـ كيف دخل التتار بلاد المسلمين، د. سليمان العودة، دار طيبة للنشر، السعودية الطبعة الثانية، 1417هـ/ 1997م.

112 ـ تاريخ بخارى، للنرشخي، أبو بكر محمد بن جعفر، عرّبه عن الفارسية وحققه، د. أمين بدوي نصر الله الطرازي دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة.

113 ـ الأعلام للزركلي، خير الدين الزركلي، دار العلم، بيروت، الطبعة الثالثة، 1389هـ.

114 ـ هارولدلام جنكيز خان، نقله إلى العربية لواء بهاء الدين نوري، باسم: جنكيز خان إمبراطور الناس كلهم، بغداد، سنة 1946م.

115 ـ تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، حسين بن محمد البكري، طبعة مصر 1283هـ.

116 ـ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، سبط ابن الجوزي، الطبعة الأولى، حيدر آباد الهند، سنة 1951 ـ 1952م.

117 ـ الدولة المستقلة في المشرق الإسلامي، د. عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1420هـ/ 1999.

118 ـ جامع التواريخ، رشيد الدين فضل الله الهمذاني، دراسة وترجمة الدار الثقافية للنشر، الطبعة الأولى، 1420هـ/ 2000.

119 ـ العراق بين سقوط الدولة العباسية والعثمانية، عبد الأمير الرفيعي، الفرات الطبعة الأولى، 2000م.

120 ـ رجال الفكر والدعوة في الإسلام، أبو الحسن ندوي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، 1420/ 1999.

121 ـ بنو أمية بين السقوط والانتحار، د. عبد الحليم عويس، دار الصحوة، دار الوفاء، الطبعة الثالثة، 1410هـ/ 1989م.

122 ـ الفتوحات الإسلامية لبلاد الهند والسند، د. سعد حذيفة الغامدي، مركز دار إشبيلية، الرياض، الطبعة الأولى، 1417هـ/ 1996م.

123 ـ تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان، حتى قيام الدولة التيمورية، عباس إقبال، ترجمة عبد الوهاب عاشوب، المجمع الثقافي أبو طيب، 1420هـ.

124 ـ الحوادث الجامعة، لابن الغوطي.

125 ـ جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين، د. عبد الله سعيد محمد سافر الغامدي، جامعة أم القرى، رسالة دكتوراه.

126 ـ تاريخ مصر، لابن ميسر.

127 ـ دولة السلاجقة للصَّلَّابي، دار المعرفة، بيروت لبنان.

128 ـ وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي، محمد ماهر حمادة، بيروت، 1399هـ/ 1979م.

129 ـ دول الإسلام للذهبي، لأبي عبد الله محمد الذهبي، دار صادر، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 1999.

130 ـ المختصر في أخبار البشر، أبو الفداء الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماه، بيروت بدون تاريخ طبع.

131 ـ تاريخ ابن خلدون المسمى، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، 1391هـ/ 1971م.

132 ـ مجالس المؤمنين للششتري، نور الله بن شريف، طهران، 1299هـ.

133 ـ مآثر الأنافة في معالم الخلافة، للقلقشندي، تحقيق عبد الستار أحمد الفرج، عالم الكتب، بيروت لبنان.

134 ـ بغداد مدينة السلام وغزو المغول، سلمان التكريتي، مكتبة الشرف الجديد، بغداد، 1988م.

135 ـ تاريخ دولتي المرابطين والموحدين للصَّلَّابي، علي محمد الصَّلَّابي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، الطبعة الأولى، 1428هـ/ 2007.

136 ـ دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة، عبد القادر أحمد أبو صيني رسالة دكتواره معهد التاريخ العربي للتراث العلمي في الدراسات العليا.

137 ـ الدولة العباسية للخضري، محمد الخضري بك، مؤسسة دار الكتاب الحديث،

بيروت لبنان، 1989م.

138 ـ ذيل مرآة الزمان، لليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد بن أحمد بن قطب الدين اليونيني البعلبكي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكة.

139 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، بيروت ط 11، 1402هـ

140 ـ مجلة لواء الإسلام، العدد الخامس، أبو زهرة.

141 ـ الترف وأثره في الدعاة والمصلحين، محمد موسى الشريف دار الأندلس الخضراء، جدة السعودية، الطبعة الأولى، 1424هـ/ 2003م.

142 ـ أمير المؤمنين المستعصم بالله العباسي، رؤية تصحيحية، يحيى محمود بن جنيد، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى، 2005م/ 1426هـ

143 ـ طبقات الشافعية للسبكي، عبد الوهاب علي السبكي، تحقيق عبد الفتاح الحلول وزميله، دار إحياء الكتب العربية القاهرة.

144 ـ فتاوى ابن تيمية، جمع عبد الرحمن قاسم، طبعة الرئاسة العامة للحرمين الشريفين.

145 ـ منهاج السنة، لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة.

146 ـ الوافي بالوفيات، تأليف صلاح الدين أيبك الصفدي، تحقيق: هملوت ريتر ـ طبع: دار النشر فرانز ستانير «ألمانيا» 1381هـ/ 1962م.

147 ـ الحروب الصليبية، أرنست باركر، نقله إلى اللغة العربية، د. السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت.

148 ـ النظم الإسلامية، حسن إبراهيم حسن.

149 ـ نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي، عبد العظيم الديب، دار الوفاء، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية، 1418هـ

150 ـ أصداء الغزو المغولي مأمون جرّار، مكتبة الأقصى الطبعة الأولى، 1403هـ/ 1983م.

151 ـ الدولة العثمانية للصَّلَّابي، علي محمد الصَّلَّابي، دار الإيمان الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2003م.

152 ـ الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة لابن شداد، المعهد الفرنسي

بدمشق للدراسات العربية، 1953م.

153 ـ عقيدة الجمان في تاريخ أهل الزمان، البدر محمود بن أحمد بن موسى، تحقيق محمد أمين وزارة الثقافة القاهرة، 1992م.

154 ـ أخبار الأيوبيين، لابن العميد، مكتبة الثقافة الدينية بورسعيد ـ بلا.

155 ـ المسلمون من التبعية والفتنة إلى القيادة والتمكين، د.عبد الحليم عويس، دار العبيكان، الطبعة الأولى، 1427هـ / 2006م.

156 ـ دراسات تاريخية عماد الدين خليل، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، 1426هـ / 2005م، دمشق، بيروت.

157 ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الشيباني.

158 ـ نيل الأوطار، للإمام الشوكاني.

159 ـ الروض الزاهر في سيرة السلطان الظاهر، محيي الدين عبد الله بن رشيد الدين بن عبد الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، 1396هـ / 1976م.

160 ـ الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، جودت الركابي دار الفكر المعاصر، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية، 1422هـ / 2001م.

161 ـ الملك المظفر قطز بن عبد الله المعزي، رحاب عكاوي دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.

162 ـ مصر والشام في عصر الأيوبيين، سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية بيروت، لبنان.

163 ـ زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج 9، بيبرس الدوادار تحقيق زبيدة عطا.

164 ـ معركة عين جالوت، دراسة في الجيش المملوكي والمغولي، محمد ضاهر وتر، الطبعة الأولى، 1409هـ / 1989م.

165 ـ الفتوح الإسلامية عبر التاريخ، د.عبد العزيز إبراهيم العمري، مركز الدراسات والإعلام، دار إشبيليا، الطبعة الأولى، 1418هـ / 1997م.

166 ـ من أجل فلسطين، حسني أدهم جرار، مؤسسة الزيتونة للنشر، الطبعة الأولى، 1419هـ / 1998م الأردن، عمان.

167 ـ تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، دار الجيل بيروت، الطبعة الثانية، 1978م.

168 ـ أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، محمد راغب الحلبي، المطبعة العلمية الأولى، 1342هـ / 1924م.

169 ـ تاريخ ابن الوردي، نعمة المختصر في أخبار البشر، زين الدين عمر بن الوردي، دار المعرفة، بيروت، لبنان 1389هـ / 1970م.

170 ـ تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ماجد عبد المنعم، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة، 1963م.

171 ـ صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبع دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1374هـ / 1955م.

172 ـ تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، علي محمد الصَّلاّبي، دار الصحابة، الشارقة، الطبعة الأولى.

173 ـ سنن سعيد بن منصور.

174 ـ تاريخ مصر، إسكندر عمون، مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر، الطبعة السادسة، 1342هـ / 1923م.

175 ـ تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، محيي الدين عبد الظاهر، الشركة العربية للطباعة والنشر بالقاهرة 1961م.

176 ـ صفة الغرباء، سلمان العودة، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية، 1412هـ / 1991م المملكة العربية السعودية.

177 ـ الطائفة المنصورة، سلسلة تصدر عن مجلة البيان.

178 ـ الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم، إبراهيم النعمة، طبعة، 1425هـ / 2004م، مطبعة الزهراء الحديثة.

179 ـ الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في عهد العصر المملوكي، د.فايد حمّا محمد عاشور، جرّوس برس، طرابلس، لبنان، الطبعة الأولى، 1995م / 1415هـ.

180 ـ الطريق إلى بيت المقدس، د.جمال عبد الهادي محمد، د.وفاء محمد رفعت، الطبعة الثانية، 1422هـ / 2001م، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر القاهرة.

181 ـ نهر التاريخ الإسلامي منابعه العليا وفروعه العظمى، د. إبراهيم أحمد العدوي، دار الفكر العربي، القاهرة.

182 ـ ماهية الحروب الصليبية، د. قاسم عبده قاسم، ذات السلاسل، الكويت، الطبعة الثانية، 1993م.

183 ـ الفقيه والدولة، الفكر السياسي الشيعي، فؤاد إبراهيم، دار الكنوز الأدبية، بيروت، الطبعة الأولى، 1998م.

184 ـ التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، د.عبد العزيز الحميدي، دار الدعوة، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 1419هـ / 1998م

185 ـ تاريخ الدولة المغولية في إيران، فهمي عبد السلام عبد العزيز، القاهرة، 1981م.

186 ـ تاريخ فاتح العالم، عطا ملك الجويني، نقله عن الفارسية محمد ألتونجي، دمشق، 1985م.

187 ـ الإسلام في آسيا منذ الغزو المغولي، محمد نصر مهنا، الطبعة الأولى، 1990 ـ 1991م، المكتب الجامعي الحديث.

188 ـ العراق سياقات الوحدة والانقسام، بشير نافع، دار الشروق، الطبعة الأولى، 1427هـ / 2006م.

189 ـ أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية، د.ناصر القفاري، دار الرضا الجيزة مصر، الطبعة الثالثة، 1418هـ / 1998م.

190 ـ جواهر السلوك في أمر الخلفاء والملوك لابن إياس، تحقيق د.محمد زينهم، الدار الثقافية الطبعة الأولى، 1426هـ 2006م.

191 ـ عصر الدولة الزنكية، علي محمد الصّلّابي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، الطبعة الأولى، 1428هـ / 2007م.

192 ـ خلفاء بني العباس والمغول أسقطوا بغداد، تأليف السيد حسن شبّر، دار الملاك، الطبعة الأولى، 1421هـ / 2001م.

193 ـ دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، د.نعمان محمود جبران، د. محمد حسن العمادي، الطبعة الأولى، 2000م.

194 ـ الظاهر بيبرس، بيتر توراو، ترجمة محمد جديد.

195 ـ الطريق إلى القدس، د. محسن محمد صالح مركز الإعلام العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1424هـ / 2003م.

196 ـ مصر في العصور الوسطى، محمود محمد الحويري، الطبعة الثانية، 2002م،

المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، سنة 2002م.

197 ـ التتار والمغول، د. محمود السيد مؤسسة شباب الجامعة طبعة، 2004م.

198 ـ موسوعة تاريخ العرب، عصر المماليك والعثمانيون، عبد المنعم الهاشمي، دار البحار بيروت، 2006م.

199 ـ إدارة الجودة الشاملة في المؤسسات الإعلامية، بالتطبيق على قناة الجزيرة، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، 1429هـ / 2008م. الشيخ فيصل بن جاسم بن محمد آل ثاني.

200 ـ المظفر قطز، ومعركة عين جالوت، بسام العسلي، دار النفائس، الطبعة السادسة، 1408هـ / 1988م.

201 ـ دراسات في تاريخ مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، سحر السيد عبد العزيز سالم الطبعة، 2005م، مؤسسة شباب الجامعة.

202 ـ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، د.سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية.

203 ـ تاريخنا المفترى عليه، يوسف القرضاوي، دار الشروق الطبعة الأولى، 1425هـ / 2005م.

204 ـ أبطال ومواقف، أحمد فرح عقيلان، دار المعراج الدولية، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، 1418هـ / 1997م.

205 ـ عين جالوت، فتحي شهاب الدين دار البشير، طنطا، الطبعة الأولى، 1418هـ / 1998م.

206 ـ الضربات التي وجهت للانقضاض على الأمة الإسلامية، أنور الجندي، دار القلم دمشق، الطبعة الأولى، 1418هـ / 1998م.

207 ـ ديوان ابن الوردي زين الدين عمر الوردي، دار الآفاق العربية، الطبعة الأولى، 1427هـ / 2006م مدينة نصر القاهرة.

فهرس الكتاب

المؤلف في سطور

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام (1383هـ/ 1963م).
- حصل على درجة الإجازة العالية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة بتقدير ممتاز.

وكان ترتيبه الأول على دفعته عام (1413هـ/ 1414هـ ـ 1992/ 1993م).

- نال درجة الماجستير من جامعة أم درمان الإسلامية في السودان عام 1996م وكانت الرسالة العلمية: في الماجستير: «الوسطية في القرآن الكريم»، وأما الدكتوراه فكانت: «فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم» عام 1999م.

البريد الإلكتروني abumohamed2@maktoob.com

دولة المغول والتتار



د. الصلابي

هذا الكتاب امتداد لما سبقه من كتب درست عهد النبوة وعهد الخلافة الراشدة والدولة الأموية وموسوعة الحروب الصليبية، وهو حلقة مهمة جاءت بعد صدور «السلاجقة والزنكيين وصلاح الدين والحملات الصليبية» الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة. وهذا الكتاب يتحدث عن المشروع المغولي وعوامل الانتشار وتداعيات الانكسار، ويتكلم عن غزو المغول لبلاد المسلمين، والتعريف بهم وموطنهم الأصلي والقبائل التي يتكون منها مجتمعهم، وعن حياتهم الاجتماعية، ودينهم، وتداعي المجتمع المغولي قبيل جنكيز خان، والفوضى فيه ومحاولات توحيد القبائل المغولية، وأحوالُ العالم الإسلامي قبيل الغزو المغولي، ثم ظهور جنكيز خان على مسرح الأحداث، وبداية توحيد القبائل تحت زعامته وبناء الإمبراطورية المغولية. وأشار الكتاب إلى مجموعة من وصايا جنكيز خان لجيشه، وإلى طريقة التسلح والتجهيز، وأساليب القتال والاتصالات في الجيش ومنهجهم في الحرب وسلوكهم مع المغلوبين والاهتمام بالخبرات والاستفادة من الحكماء وأصحاب الرأي.

وتحدث الكتاب عن إزالة المغول للدولة الخوارزمية وأسباب الغزو المغولي للخوارزميين وتتبع الكتاب خط سير غزو المغول من بلاد ما وراء النهر، إلى سقوط بغداد على يد هولاكو، والخراب الحضاري الذي لحق ببغداد، ثم تأمل في أسباب سقوط الدولة العباسية، ونتائج سقوط بغداد. وختم الكتاب بالحديث عن المماليك ودولتهم ثم تحقيق النصر على المغول في معركة عين جالوت وأسبابها والنتائج المترتبة على ذلك.

ISBN 9953-85-201-4

9 789953 852010 90000>

دار المعرفة
للطباعة والنشر
www.marefah.com